ديوان محمد إقبال

الأعمال الكاملة

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول

دار ابن كثير

ديوان

محمد إقبال

إعداد
سيّد عبد الماجد الغوري

الجزء الأوّل

دار ابن كثير
(دمشق — بيروت)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى رائد الأدب الإسلامي

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي

(رحمه الله تعالى)

الذي يرجع إليه فضل كبير في تعريف

محمد إقبال

بين العرب خلال كتاباته ومحاضراته

كشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة

وكمفكر عاش بالإسلام وله

منوهاً بما كان له في الماضي، ومتألماً بما آل إليه في الحاضر

وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم

وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية

وأكبر ناقد لها وحاقد عليها.

عبد الماجد الغوري

دیوان

محمد اقبال

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

1428 هـ ـ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير

مقدمة الدّيوان

الحمد لله والصَّلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد خدمت شبهُ القارة الهندية الإنسانَ والعلمَ والحكمةَ والمعرفةَ والفلسفةَ والأدبَ والفنَّ طول التاريخ ، وأنجبتْ من الأُمم والحضَارات والنَّاس والرِّجال والأعلام ما يكادُ يعجز العدّ والإحصاء والحصر عن الإحاطة به .

وكانت البداية المعروفة للشعر الأردوئي في هذه البلاد منذ سنة ١٤٥٠م ، وقد برز واشتهر خلال تلك الفترات الطِّوال مئات الشعراء ، أعرضُ هنا أسماء بعضهم على سبيل المثال ، ومن أشهرهم : ميرزا أسد الله غالب أحد أكبر شعراء الأردوية ، وله دواوين مطبوعة بالفارسية والأردوية ، والنواب ميرزا خان داغ ، أحد فحول شعراء الأردوية ، كان أستاذاً للنظام السادس « محبوب علي خان آصفجاه » أمير حيدرآباد (دكن) ، نال عدة ألقاب من الدولة ، وله دواوين مطبوعة ، وغيرهما هناك شعراء مشهورون كأنيس ، ودبير ، وحالي ، وأكبر إله آبادي ، وأمجد الحَيْدَرآبادي ، وهؤلاء الشعراء الذين يُعدُّ شعرهم بالأدب الأردوئي حجة ، ويُستشهد بها فيه . فهناك من هؤلاء الشعراء المذكورين مثل : داغ ، وأنيس ، ودبير ، قالوا مرثيات تحتوي على خمسمئة مسدَّس ، أو ستمئة مسدّس ، وكلُّ مسدَّس يحتوي على ثلاثة أبيات ، واللغة الأردوية بعد هذا لغة استوعبتْ كلَّ المعاني والأوصاف الجميلة ، وعلم الفلسفة والتصوّف ، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل ، كما أُلّف بها القصص والروايات ، وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول ، أمثال : محمّد حُسين آزاد ، والعلاَّمة شبلي النُّعماني ، وعبد الحليم شَرَرْ ، ومولانا أبي الكلام آزاد ، وأحمد علي أَمْرَتَسْرِي ، ونِيَاز فَتَحْفُورِي ، والأستاذ أَخْتَر عليّ ، وقَيْس غَازِي فُورِي ، والشيخ حَسَن النِّظَامي ، والشيخ عبد الماجِد الدَّرْيابَادِي ، وحَيْدَر طَبَاطَبَائي وغيرهم كثيرون .

ولكن لم تُنجب اللغة الأردوية شاعراً وأديباً كمحمَّد إقبال يتَّسِم شعره بسهولة الأسلوب ، ووُضوح العبارة ، وقوّة المعاني ، وسرعة التأثير ، وكذلك لا يُعرف اليوم شاعرٌ من بين شعراء هذه اللغة طُبعتْ دواوينُه مئات المرات غير محمد إقبال ، وقد جاء في إحدى المقالات التي قُرِئَتْ في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حُكومة باكستان عام ١٩٧٧م ، أنّ عَدد ما صَدَرَ عن محمد إقبال مِن الكتب

والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)[١]، ما بَين كتاب ورسالةٍ ، هذا عدا ما نُشِرَ عنه مِن البحوث والمقالات، ومَا أُلقِي من أحاديث ومحاضرات في مجالات مختلفة وحفلات أدبية في فترات متقطعة ومناسبات مختلفة ، وبذلك فاقَ محمد إقبال كبار شعراء العالم كـ« شكسبير » الإنجليزي ، و« دانتي » الإيطالي ، و « طاغور » الهندي ، فلم يكتب عن أَحد مِعْشار مَا كُتِبَ عنه ، وفي كل سنة يصدرُ فيض من البحوث والمقالات في الجامعات ، والمجامع العلمية ، والنَّوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزِيادة دون توقُّفٍ، وتتصاعدُ درجةً درجةً في سبيل التوصُّل لاستيعاب أفكار محمّد إقبال وإدراكها .

وقد رُزِقَ محمَّد إقبال من الاحترام والتقدير أنَّ ملايين المسلمين في هذه البلاد ـ الهند وباكستان ـ يعتقدون فيه ما تعتقده الأمةُ في المُرشِد المُلهَم ، والباحِث المُتحرِّر ، والقَائد الرَّائد ، والمفكِّر المُصلِح ، والفيلسوف المنقذ ، والسياسِيّ الموجِّه ، ولم يُرزَق مثل هذا الاحترام والتقدير أحدٌ من أعلام مسلمي شبه القارة قبل في القرن العشرين لا في الهند فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والعربي ، باستثناء الإمام المحدِّث الفقيه الشيخ عبد الحيّ اللكنوي في أوائل القرن ، والعلامة الإمام المفكِّر الداعية الأديب الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ في أواخر القرن ـ رحمهما الله تعالى ـ .

وقد خلَّف شاعرُنا العظيم خمسةَ دواوين باللغة الفارسية وأربعةَ بالأردوية ، وقد آثر الفارسية أولًا لأنها أوسع من الأردوية ، وهي اللغة الإسلامية التي تَلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويشتمل هذا المجموع الكبير من شعره على أُلوف المعاني الأصلية ، والأفكار الجديدة ، والمضامين البديعة ، الذي هو في الحقيقة تُراث شعريّ عظيم في الأدب الفارسي والأردوني . أعرِّف هنا بجميع تلك الدواوين بالاختصار .

أما الدَّواوين الفارسية فمنها :

(١) ـ الأَسرار والرُّموز (أسرار خُودي ورُموز بيخودي)

يُعدُّ هذا الديوان مِن باكورة أعمال محمد إقبال الشعرية بالفارسية ، وهو يفرد فيه فكرة الذاتية ، فيدعو إلى وُجوب دعم الذَّات حتى تقوى وتعد نفسها لكفاحٍ دائمٍ مُتواصلٍ لا يعرف أناةً ولا هدوءاً ، وفي نظره أن الجهاد الدَّائب هو حافظ الحياة ، وأن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذَّة مِن بُلوغه ، ويصرح فيه بأنَّ الأقوام المغلوبة هي التي خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها ، وزيَّنت لها فكرة نفي الذَّات ، وسواء في منظومته « أسرار إثبات

---

(١) روائع إقبال للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

الذّات » أو في « أسرار نفي الذّات » لهذا الديوان أو في سائر أشعار إقبال . . . إننا نجد فكرة الذّاتية مبثوثة أحياناً ومجملة أحياناً أخرى ، ومفصلةً حيناً ، وأحياناً صريحةً وأخرى ضمنيةً .

(٢) رِسالة الشّرق (پيام مشرق)

طُبع هذا الديوان أول مرّة عام ١٩٢٣م ، وقدَّمه الشاعر على أنه شعر الفارسية الكامل ، لأنه قدَّم إلى اللغة الفارسية مجموعة مِن الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر الفارسي مِن الغَزل والرُّباعي والقطع والمثنويّ وغيرها ، ويُصادِفنا في هذا الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت ، والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها ، وضُروب النبات فيها ، وألوان وصُنوف الرَّيحان فيها ، ورَوائحه جمعت أشتات الزهر مِن المشرق والمغرب .

(٣) زبور العجم (زبور عجم)

هذا الديوان مجموعة نفيسة من المنظومات الفارسية ، يُعدُّ من أجود شعر محمد إقبال الفارسي ، وقَصَدَ الشاعرُ من تلك المنظومات غرسَ الروح الجديدة في العالم ، ولا سيَّما في أوساط الشباب وشعوب الشرق ، ويتجلّى فيه إبداع الشاعر ، وكمال فنِّه ، وحُسن سبكِه ، ومحكم رصفِه ، وبديع وصفِه .

(٤) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

هذا الديوان عبارة عن الشعر الفارسي والأردوئي معاً ، ويتألَّف مِن قصائد قصيرة ، أكثرها شخصية ، فيه قصيدة بديعة بعنوان « برلمان إبليس » وصَفَ فيها الشاعرُ وصوَّر جنسة برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يُفيد الاطلاع عليه ، وقد طُبع هذا الديوان بعد وفاة الشاعِر .

(٥) رِسالة الخُلود (جاويدنامه)

يُعدُّ هذا الديوان التحفة الأدبية لمحمد إقبال ، وهو عبارة عن شعر مثنويٍّ للفلسفة الدينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطع شعري مزدوج ، وإنه يبرز قوى الشاعر الفكرية وذراها الرفيعة ، وفيه تورية إلى « جاويد » نجل الشاعر ، وفي هذا الديوان قصة سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي .

(٦) مَاذا يَنبغي أن نصنع يا أُمم الشّرق ؟ (بس چه بايد كرد » أي أقوام مشرق ؟)

هذا آخِر ما نظمه الشاعر بالفارسية ، ومنظومات هذا الديوان في جملتها رائعة بليغة ، نَفَثَها الشاعرُ حِين ملأتْ أحوالُ المسلمين فُؤَادَه أَسى عليهم ، وحَزَّ به ما رَأى مِن فُنون الحضارة الأوربية وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمَّة الضعيفة ، ويُوصِي الشاعرُ في هذا الديوان وينصح الأممَ الشرقية بإقامة الروابط الاقتصادية والثقافية فيها بينهم ، وبيَّن لهم أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة المتعددة ، والعودة إلى أحكام الإسلام وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة .

وأما دواوينه الأردوية فهي :

(٧) صَلْصَلة الجَرس (بانك درا)

هذا من باكورة أعماله الشعرية بالأردوية ، وهو مِن أكثر دواوينه رواجاً وقِراءةً اليوم ، فيه قصائد بديعة عن الأطفال والحبِّ والطبيعة ، كما أنَّه حثَّ المسلمين فيه على التضحية والعمل ، لكي يستعيدوا منزلتهم مِن المجد والرفعة ، ومن أروع وأجمل القصائد وأناشيدِ هذا الديوان قصيدته المشهورة « شكوى وجواب شكوى » ونشيد بعنوان « نشيد المسلم » .

(٨) جَناح جبريل (بال جبريل)

لا يُوجد في الأدب الأردوني ما يُمكن مقارنته بهذا الديوان مِن حيث العُمق وسِعة المطلب والبيان ، يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين ، وبكاءه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية ، وما يلفت النظر في هذا الديوان هو الجزء الخاص منه عن المحاورة بين الشاعر وجلال الدين الرومي ، ويوضح لنا هذا الحوار أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

(٩) ضربُ الكليم (ضرب كليم)

يتعلَّق هذا الديوان بالعصر الحديث ومُشكلاته ، ويبيِّن وِجهةَ النظر السياسية لمحمد إقبال ، والديوان كلُّه مفصَّل على أبواب فيها نظرات في الإسلام ، والتربية ، والمرأة ، والفنون الجميلة ، وغيرها ، وفيه فلسفة محمّد إقبال واضحة ظاهرة في أشعار معيَّنة في موضوعات محدَّدة .

(١٠) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

قد سبق تعريف هذا الديوان آنفاً ، يحتوي القسم الثاني منه على قصائد بديعة ورباعيات قصيرة بالأردوية .

وقد تُرجمت جميع هذه الدواوين إلى اللغة العربية كترجمتها باللُّغات العالمية الراقية ، وقد نجح مترجِمُو هذه الدواوين بالعربية من الناحية الفنية إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكن القارىء النَّبيه الفَطن قد يُلاحِظ أن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تُؤثِّر في نفسه تأثير الشعر الرقيق ، ولا تُعطي صورةً كاملةً واضحةً ، ويغلب عليها رونق اللفظ على عمق المعنى ، بحيث تغيبُ المعاني التي أَرادها الشاعرُ في غَيَاهِبِ الألفاظ المنمقة والمصاريع الشعرية المركزة . وشعر محمد إقبال في اللغة الفارسية والأردوية على السواء شعر يركِّز المعنى الواسع في عبارات مُوجزة هي أشبه بالكلمات القِصار التي يسهل حفظها وتداوُلها على الألسن ، فإذا ما ترجمنا هذا الشعر إلى شعر عربي يفضل الإيجاز على الإطناب والإسهاب ، فإننا نزيد من تركيز الشعر بشيءٍ مِن الغُموض ، يذهب بتأثير الشعر وروعته .

ونحن لا نريد بهذا أن نغض مِن شأن المُترجمين لهذه الدواوين ، خاصةً منهم الذين عُرِفوا بعلو الهِمَّة وجودة القريحة والإخلاص والمثابرة ، كالدكتور عبد الوهاب عزام ، وإنما نريد أن نقول : إن ترجمات الدكتور عزام ـ وأمثاله المترجمين لهذه الدواوين ـ الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر محمد إقبال مِن أسرار ولم تعبر عن قيمته الحقيقية التي تتفق مع الشهرة الذائعة التي أُتيحتْ له .

ولعلّ هذا هو ما دفع الأديب العربي الكبير العلاَّمة علي الطنطاوي أن يوجِّه نداء إلى العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمهما الله رحمة واسعةً ـ في مجلة « المسلمون »[1] في كلمة رقيقة مخلصة يحثّه فيها على ترجمة بعض قصائد محمد إقبال ليعرِّف بهذا الرجل وقوة شاعريته وسموّ رسالته ، يقول في كتابٍ مفتوحٍ موجَّهٍ إلى العلامة الندوي : « **هل لك أن تختار مِن شعرِ إقبال ما يجعلنا نتذوَّق طعمَ أدبه ونلمّ بطريقته ، وتتجلّى أسباب عظمته ، فإن كلَّ ما قرأنا مِن كلامه مترجَماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلَّنا عليه . . . فهل تُضيف يا أخي أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام** »[2] .

وجاء العلامةُ الندوي واقتصر في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها الدكتور عزام بالتعريب ، وكان للديوان « جناح جبريل » أكبر نصيب ممَّا تَرْجمَه العلاَّمة الندوي في كتابه الذي سمَّاه « روائع إقبال » فهكذا كان كِتابه هذا ـ رغم صغر حجمه ـ

(١) التي كانت تصدر يومئذ من دمشق .

(٢) انظر : « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، صفحة (٢٢ ـ ٢٣) .

إضافةً جديدةً للمكتبة العربية بكل ما في هذه الكلمة مِن معنى ، فقد استطاع ـ رحمه الله ـ في براعة وبصيرة أن يختار من دواوين محمد إقبال مقتطفات في نثر سهلٍ ميسورٍ على تمكُّنه من اللُّغتين العربية والفارسية ، وكانت أكبر شهادة بأن كاتبه (العلامة الندوي) كان التوفيق حليفه في فهم شعر محمد إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل محمد إقبال الفاضل الذي أسمى باسمه أحد دواوينه ، هو « جاويدنامه » (رسالة الخلود) ، فقد قال بعد اطلاعه على « روائع إقبال » : « **ولقد عرض مؤلف هذا الكِتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوبٍ أكبر ظني أنه يُوافِق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره** »[1] .

ولكن إن كان المُترجمونَ لهذه الدواوين قد جانَبَهُم التوفيق ـ إلى حدٍّ ما ـ في تراجمهم لها بالشعر ، فقد استطاعَ الشيخ صاوي شعلان ـ رحمه الله ـ بما حَبَاه اللهُ مِن شاعرية متدفقة ، وروحٍ إسلامية حقة ، أن يفصح عن المعاني التي أرادها محمد إقبال ، كأنَّه أُلهِمَها هو في شعرٍ يهتزُّ له الوجدان ، ولعلّ أوضح دليلٍ له في هذا الديوان الذي بين أيديكم في ترجمة القصيدتين : « نشيد المسلم » و« شكوى وجواب شكوى » اللّتان هبّتا هبوب الريح ، وطارتا في الآفاق ، ولا أرى مجازفةً في القول إذا قلتُ : إن محمد إقبال اشتهر في البلاد العربية بهاتين القصيدتين أكثر مما كتب غيرهما ، وقد لا يعرف الكثير من إخواننا العرب أن له غير هاتين القصيدتين قصائد ودَواوين ، ولعلَّه بسبب عدم توفُّر هذه الدَّواوين في المكتبات العربية كونها مترجمة ومطبوعة هُنا وهُناك ، وكثير من تلك الدواوين لَمْ تَصْدر له طبعة بعد الطبعة الأولى ، حتى كادتْ أن تصبح شيئاً منسياً ، فكانت هناك حاجة إلى جمع جميع تلك الدواوين في كتاب أو ديوان واحد مما يسهل الاطلاع عليه على من أراده .

والعمل في جمع تلك الدواوين مع الضبط والتنقيح والتحقيق بالرُّجوع إلى أُصولها الفارسية والأردوية ، وشرح بعض الكلمات الصعبة الواردة في الترجمة ، والتعليق على ما دعتْ الضرورةُ إلى التعليق فيها ، كان يتطلّبُ الجهد الكبير والتفرّغ التّام ، فبدأت بالعمل فيه دون تقدير بالفراغ منه ، حتى يسَّرهُ اللهُ عليّ بمُساعدة بعض أصدقائي الذين وفّروا لي بعض الدواوين المطبوعة في البلاد العربية المختلفة ؛ التي كانت في مكتبات بلادنا عديمة الوجود .

هذه سعادة ناطقي لغة الضّاد بأنهم يتناولون هذه الدواوين كلها بالقراءة في كتاب

---

(١) « روائع إقبال » صفحة (١١) .

واحد ، التي تستحيل لناطقي الفارسية والأردوية ؛ كون تلك الدواوين منظوم بعضها بالفارسية وبعضها بالأردوية إلّا مَن تمكّن من هاتين اللُّغتين كلَّ التمكُّن ، وألمَّ بهما كلَّ الإلمام .

أسأل اللهُ تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد المتواضع ، ويبلِّغ نداء الشاعر العظيم ورسالته كل من يسمع ويعي ، إنه سميع مجيب .

يوم الجمعة ١٢/ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ
٣١/ آب (أغسطس) ٢٠٠١م

كتبه
المعتز بالله تعالى

عبدالماجدالغوري

حيدرآباد (دكن)

محمّد إقبال

عند رجال الفكر والدّعوة ، وأساطين العلم والأدب

« . . إنَّ إقبالاً هو طراز العظمة الّذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر ، وفي كلِّ حين ؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادِّيَّة ، وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ، وهو زعيم العمل بين العدوتينْ من الدنيا والآخرة قوَّام بين العالمين كأحسن ما يكون القوَّام ! . . . . » .

الأستاذ عباس محمود العقاد

« شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبيَّ الإسلاميَّ على الزمان ، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب » .

الدكتور طه حسين

« لا أعرف كشعر إقبال ، معرفاً بالحياة ، داعياً إليها ، معظماً الإنسان ، مشيداً بمكانته في هذا العالم ، نافثاً الأمل ، والهمة ، والإقدام في نفوس الناس . . . »

الدكتور عبد الوهاب عزَّام

« . . . . فقد طلع هذا الرجل على العالم الإسلاميِّ ، وعلى العالم كلِّه بفلسفةٍ جديدةٍ صاغها شعراً ، فإذا هي تهزُّ المشاعر والقلوب ، وإذا هي تُثير كثيرين من عظماء العالم ، فينظرون نظرات إعجابٍ إلى هذا المسلم الَّذي وُلد في الهند ، ونشأ بين أهلها ، ثمَّ أعلن على الناس فلسفةً شعريةً سائغةً لا تتفق مع الفلسفة الهندية في شيء . . . »

الدكتور محمد حسين هيكل

« . . . فإذا كان حسَّان شاعر الرَّسول ، فإنَّ إقبالاً شاعر الرسالة ، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن المحمَّدية ، وشتان بين من يمجد الداعي الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدَّعوة الكبرى عن عقيدة ، وإذا كان في الشعراء الصوفيِّين من عطَّر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغَ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم

الحقيقة ، والتأمُّل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب في قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم . . . » .

الأستاذ أحمد حسن الزيَّات

« . . . إني أحببته ، وشغلت به كشاعر « الطموح ، والحبِّ ، والإيمان » ، وكشاعر له عقيدةٌ ، ودعوةٌ ، ورسالةٌ ، وكأعظم ثائرٍ على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقدٍ لها، وحاقدٍ عليها، وكداعيةٍ إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية، والقومية الضيقتين، وأعظم الدُّعاة إلى النزعة الإنسانية، والجامعة الإسلاميَّة . . »

« . . . إن جلّ ما أعتقده أنَّ إقبالًا شاعرٌ أنطقه اللهُ ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، أنطقه اللهُ الذي أنطق كلّ شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء ، والحكماء ، قبل عصره ، وفي غير عصره . . . » .

« . . . أشهد على نفسي أنّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرتُ بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري . . . » .

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

« . . . كِدْتُ أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني ، وربَّما توافقنا في الألفاظ . . . » .

الشهيد سيد قطب

« . . . ولم أر شاعراً يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليةً عاليةً كتلك الصُّورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرةٍ من شعره ، إنَّه يصوِّر المسلم حيناً كأنَّه ماء في رقَّته ، وحديد في شدَّته يهزأ بالصعاب ، ويعلو على التراب ، ويسري مع الأفلاك ، ويجري مع الأملاك . . » .

الدكتور أحمد الشرباصي

« . . . وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفةً محضةً ، فنقله بذلك من رياض الزهر ، وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة ، والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل تحتها . . لكنه يُريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات ، وحقائق الوجود ، وكنه الكائنات ، وأن يُناجي النسائم ، ويصقل العقول ، ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات . إنَّ (إقبالًا) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات . . . » .

الأستاذ نجيب الكيلاني

« لم يهتم شاعرٌ غير عربي قبل محمد إقبال بأمجاد العرب والإسلام اهتمامه بهما ، فهو الَّذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال أمام الَّذين عاصروه ومن جاء بعده من الشعراء .

تكلَّم عن مجد العروبة ، وأثر الإسلام في رقيِّ الأمم ، وتناول قضايا عربية بحتةً ، مثل قضية فلسطين ، وسجَّل أمجاد العرب في صقلية ، وقرطبة ، ونعى على العرب تفرقهم ، ووجَّه إليهم في دواوينه أكثر من خطاب . . . » .

الشيخ صاوي شعلان

« وكان أعظمُ ما أدهشني رفضَ إقبالٍ أن يدخلَ مسجدَ باريس ، ومقالته : إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق .

فلولا أنَّ الرجلَ كان يعيشُ في حقيقة صريحة ، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطمَّ ، لمَا خطر له هذا الخاطر .

وكم من غافلٍ ساهٍ منَّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة ؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلِّ والضِّعَةِ والعبوديةِ ، والفتنةِ بما زيَّن له أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ » .

العلاَّمة محمود محمد شاكر

« إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلَّب فيها الإنسان في شتَّى أطراف المعمورة ، لا سيما الإنسان المسلم ، كان يعلم مشكلات الرأسمالية ، ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كلَّه . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنَّه عثر على المفتاح الَّذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلَّصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلَّصوا من الذُّلِّ ، والاستعباد ، وتخلَّصوا من التفرُّق والتمزُّق ، فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ ويُنادي دائماً :

أيها الناس ! إنَّ مشكلاتكم التي تضجُّون منها حلُّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ! فما عليكم إلَّا أن تتعرَّفوا عليه ، ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الَّذي كان يتكرَّر في شعر إقبال، ويُنادي به من حوله، لا يزال يُنادي به من خلال سائر ما تركه من آثارٍ ، وأشعارٍ مضرجة لا بدموعه بل بدماء قلبه .

ولكن كان ينبه إلى أنَّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنما هو فروعٌ لمشكلةٍ جذريةٍ

واحدةٍ، هي ضياعنا عن الذات، وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا ، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا » .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

« شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ رحمة الله عليه ـ شاعر ذو مكانة رفيعة بين أقرانه ، وهو نابغة في الفكر والخيال والفلسفة والفنِّ جميعاً ، له آراء حصينة ونظرات عميقة في حياة الإنسان ومكانة المسلم في العالم ، وكلامه في غاية القوة والتأثير يقع في نفس القارىء والسامع موقعاً عظيماً ، ولأفكاره قيمة ، وأهمية كبيرة للعالم الإسلامي والأمة الإسلامية . فكر عالمي ، وعقلية نابغة ، ودراسة عميقة تفاعلت في نفسه خلال حياته التي قضاها في الشرق والغرب في مجتمعات وأوساط مختلفة يبحث في الفلسفات والمدنيات والاتجاهات للأمم المختلفة ، القديمة منها والحديثة » .

الأستاذ محمد الرَّابع الحسني النَّدوي
(رئيس جامعة ندوة العلماء ـ الهند)

« عُرِفَ (محمد إقبال) بفيلسوف الشرق الإسلامي ؛ الذي درس الحياة ، والكون ، والإنسان دراسةً واعيةً عميقةً من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقام كشاعرٍ ثائرٍ على الأوضاع الفاسدة ، يُدافع عن الإسلام وتعاليمه بكلِّ ما أوتي من موهبةٍ شعريةٍ ، وقوَّةٍ أدبية ، ويُنادي بالوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي بشعره القويِّ الزاخر بالمعاني الغزيرة والمفاهيم العالية كما يقول :

«فليتَّحد المسلمون لصيانة وحراسة الحرم الشريف من سواحل النيل إلى تراب كاشغر» .

وقد تفتَّحتْ قريحتُه الشعرية ، وتفجّرتْ ينابيع الشعر في كيانه ، فما لبث أن قال الشعر الإسلامي في جميع المعاني الإسلاميَّة والإنسانيَّة وتحدَّث فيه عن الإسلام وحضارته التي رآها صالحةً للمجتمعات الإنسانيَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ وجيل ، وأتحف الأوساط الإسلاميَّة كلَّها بشعره الجميل الَّذي تغنَّى به كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، وأعجب به الناس في كلِّ طبقةٍ وبيئة » .

الدكتور سعيد الأَعظمي النَّدوي
(رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »)

محمد إقبال

حياته - شخصيته - فكره - فلسفته

أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصَّلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنكليزيةٍ في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّيَّة ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثَّر في الشابِّ الذَّكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثَّقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلِّية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمَّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[١] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدَّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلَّةٍ علميَّةٍ

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبيةٍ في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدَّة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)[1] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيِّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادةً عاليةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولَّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدةً افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

---

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلُّ همِّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدِّين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تُفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارَّةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول » وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعَّمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجُّون إلى أوربة ، ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنَّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنَّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنِّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبُّ من حماسته نيراناً ، ويفجِّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرَّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و« الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلاميِّ في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدَّة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميَّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلاميِّ ، ويتكلم بها قطران مهمَّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و« أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

«Reconstruction of religious Thought in Islam» (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً، وعلَّقوا عليها أهميةً كبيرة، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والطليانية، والروسية، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثِّل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م .

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلَّى فيه لأول مرَّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأوَّلين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ ، وإكرامٍ بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدَّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبَّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوّار ، والعواد ، ويحادثهم في شؤونٍ إسلاميةٍ وعلميةٍ ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردِّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدَّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « **جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبَّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنة أيضاً** » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « **ليت شعري ! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلَّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني** . . ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « **أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً** » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨م[١] .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

١ ـ أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .

٢ ـ رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .

٣ ـ رسالة المشرق ١٩٢٣ (بيام مشرق) .

---

(١) روائع إقبال : للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ٢٨ ـ ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

٤ ـ **أناشيد فارسية** ١٩٢٧ (زبور عجم) .

٥ ـ **رسالة الخلود** ١٩٣٢ (جاويد نامه) .

٦ ـ **المسافر** ١٩٣٦ (مسافر) .

٧ ـ **ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق** ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .

٨ ـ **هدية الحجاز** ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

٩ ـ **صلصة الجرس** أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .

١٠ ـ **جناح جبريل** ١٩٣٦ (بال جبريل) .

١١ ـ **عصا موسى** ١٩٣٧ (ضرب كليم) .

(ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .

١٢ ـ **مراسلات إقبال ومقالاته** (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .

تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

* * *

العوامل التي كوّنت شخصيته[1]

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما **المدرسة الأولى** : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماع ، وأخلاقٍ واقتصاد ، وسياسةٍ ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصِّص فضلاً عن شرقيٍّ متطفِّل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

---

(١) مقتطف من محاضرة العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزَّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلِّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فممَّن يُردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرَّد عقيدةٍ ، أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرُّف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبِّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولا شكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتلَّ قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « **لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة** » ، ويقول : « **مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود** » ويقول : « **لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكنني لا أخافهم ، فإنِّي أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ**

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمَّة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبِّه ، ولمَّا ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول : **« إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نـام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌّ ، ولـم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .**

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد ؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبُّ النبيِّ ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « **أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب ، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي** » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكثر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت : « **إن الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه** » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبُّه ، ومن تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحبَّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحمٍ ودم ، وإذا تجرَّدت منه أمةٌ ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًّى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرَّدت منه عبادة ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ ، أو نظام تعليمٍ ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرَّدت منه حياةٌ ؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلَّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة ، والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشَّهوات ، وبريق المادَّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنِّيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنِّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويّةٌ من الحبِّ .

لقد ضلَّ منْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنَّما يفوقه ؛ لأنَّ الغاية ، أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكَّر ؛ فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جنايةً عظيمةً ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوةً كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبِّ الجنسيِّ ، والغرام المادِّي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنَّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالًا معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالًا ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجمادٍ متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنَّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنَّ شعر إقبال من نوعٍ آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتزُّ له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفُّ بالقوَّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنه قد مرَّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزَّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويُّ الإيمان ، قويُّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدَّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيِّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثَّر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ، ولا شخصيةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ، ومتاعٍ ، ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي بشقِّ النفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءةً تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرٌ في تذوُّقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « **قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت** » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراق جديدٍ ، وقوةٍ جديدةٍ ، وكلَّما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « **إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدِّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولةٍ ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة**»[(١)] .

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديَّةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدَّمها إليه قائلاً : « **إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر** » فبكى الملك وقال : « **لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوَّته كلَّ باب** »[(٢)] .

---

(١) هدية الحجاز (أرمغان حجاز) .

(٢) مثنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « **انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنُّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندَّى جبيني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك** »[(١)] .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « **إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم** » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة : « **يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران** »[(٢)] .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

(٢) المصدر السابق .

بحرِّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : « **لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكنِّي أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك** »[١] ، ويقول مفتخراً : « **إنِّي من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنِّي غنيُّ النفس أبيٌّ** » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها : « **إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك . إنَّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت مخيَّرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن** »[٢] ، ولا شك أنَّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتُحنت عفَّته ، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولةٍ ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ، وقال : « **إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء** » ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال : « **ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة كرامتي** » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوَّته ومواهبه ، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالةٌ ، والنَّظامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجَّهها إلى رسول الله ﷺ : « **إني لأشكو**

(١) جناح جبريل .
(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنّي شاعر نظَّام ، فيقترحون علي اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرِّخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل » ؟ .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ ، والهيام الأدبيِّ ، اللَّذَيْن يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتَّابنا ، وعلماؤنا ! فينتجعون كلَّ كلأ ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظلُّون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظِّ الإسلام والمسلمين في الهند : أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركَّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرِّية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجزْ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلَّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنَّه امتاز بأنه أخضع شاعريَّته القويَّة ، وقوَّته الأدبية ، وعبقريَّته الفنِّية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولًا ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمَّةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القويِّ الهزَّاز القلق الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميَّ بصفةٍ خاصةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلَّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يومٍ من الأيام الدولة المسلمة الحرَّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميِّ ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيُّ ، فإذا تمَّ هذا كلُّه ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريَّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضع ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوَّته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

العامل الرابع :

والمربِّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدَّة المعاني ، وتدفُّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرَّض للنفحات السَّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدَّد كلَّ يوم ، فيتجدَّد شعره ، وتتجدَّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحَر ، ويعتقد أنَّها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالم ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهد ، يقول في بيت : « **كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أَنَّةٌ في السَّحر** » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « **رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام** » ، وكان لا يبغي به بدلًا ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « **خذ منِّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّة السَّحر ، ولا تحرمني نعيمها** » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدَّى هذه الأنَّة السَّحَرية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « **اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدِّينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم**

سمواتك ، التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبِّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنَّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانية ، ونفسيةٍ شديدة ضدَّ الموجة العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبِّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدِّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفِّقٌ قوَّةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيَّة والخلقيَّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد ، وعلمه المتجدِّد ،

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريّ والاضطراب النفسيّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « **قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم** » ، ويقول في بيت : « **لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير** » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدِّد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنَّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « **لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنَّ إقبالًا ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصلٍ كبير** » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شكَّ أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

* * *

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال[1]

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « **إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن** » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة منوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم الشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

---

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردوية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولًا لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » ـ كما يقول إقبال ـ منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها ـ كحاجة اجتماعية وواقع حي ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كَفِيلٍ هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولًا ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[1] ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة[2] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنّتها العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »[3] .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ،

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلاّمة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقتالًا في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالًا ، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1] .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادَّة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجاً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

---

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »[١] .

إن التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب ـ يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ،

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعَبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً

﴿ أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق ـ أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

[البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتفُّ بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالًا ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها »[١] .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ[٢] ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً[٣] ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

---

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلاّمة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك ـ تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل(١) .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكْر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل ـ كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالًا إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصة في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف ـ بالعكس ـ الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذ المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « **إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً** » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي الرائع البنَّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربي الصِّدِّيق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تَرَ هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف[1] ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين[2] .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

---

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي .
(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التتار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »[1] .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ ـ ١٥٣٠م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ » .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورنك زيب » إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه » (١٧١٩م ـ ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن) واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « **إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء.. ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني « الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها** » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة :

« **كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم** »[1] .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها في بيت واحد : « **تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولًا ، ولهو وغناء آخراً** » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

---

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

* * *

فكر محمّد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارىء إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روحٍ أساسية شاملةٍ لكلِّ شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كلُّ شيء . وتسمَّى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ(EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقترب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبدع الحياة ، وتدافع عنها ضدَّ نقيضها الموت ، وهي في نزاعٍ دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهرطيسية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتفعل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلِّص في الحياة شكلها ومداها وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمر الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوِّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلِّ جانب ، كأنها جيوشٌ جرَّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرَّة وألف مرَّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلِّيةٍ واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذَّات المطلق (الأنا) ، وتأكيد هذه الأنا بالسمو درجةً بعد درجةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي - في تطوُّرها وارتقائها - تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .
من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهدٍ كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنَّب الصِّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .
أن تتجلَّى عليه ذاته .
والحقُّ أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .
من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .
ألا تعرف أنَّ الموجة
لا تكون ممتعةً إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذَّات ، الحبُّ أن تصون الذَّات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحبُّ ، وجوهر الحبِّ هو الذَّات .

وهكذا فإن ما نبحث عنه هو الجمال . والذَّات الفردية ، وهي تتكامل بدافعٍ من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبةٍ عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحبِّ يزيده غنىً بنوعٍ من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحبِّ تزداد الوردة ، وشقائق النُّعمان روعةً وجمالًا .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أنَّ تقدُّم الذات الفردية يدلُّ على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أنَّ تراجع الذات يدلُّ على الوجهة التي يزداد فيها القبح[١] .

قال إقبال :

كلُّ ما يبعث على سموِّ الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرِّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحبِّ والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

---

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدلُّ على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الآجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،
كلها يفتقها سرٌّ الفنّ على حساب جوهرنا .

والفن يقدِّم أدلَّته تمجيداً للذات ، والذَّات هي المعيار الوحيد للحكم على قيمته .

الفنٌّ يبعث الحياة في كلٍّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ، وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنيةً فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبين عني ؟!
فأنا لست إلا نسمة الصباح .
والإبداع لا يفتر ، والخلق يطَّرد دون هوادة .

في كلِّ لحظةٍ نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ الإنسان ، حين يكون فنَّاناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .
أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .
أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،
وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرآة .

أنت خلقت السُّمَّ ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفنُّ الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحي بالأمل ، ويعلِّم العيش في شرف .

أما الفنُّ الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحميَّة لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفنُّ الذي يضعف الذَّات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمال[١] .

نفي الذات :

تجنح مجموعةٌ من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقيِّ والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعةً شيئاً بعد شيء . هذه اللأذات في المستوى الشخصي تُكوِّن الذَّات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذَّوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنَّه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذَّات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

---

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالميّ سيتمُّ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كلِّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتَّع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحقَّ في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةٌ ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدةٌ كذلك ، ولأن الحبَّ يدفع إلى رقيِّ الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحبُّ .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحبُّ خالدٌ ، وما من شيءٌ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقَّة ، والوجد ، ولحن الصَّرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظامٍ تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذّات الكونية .

وهكذا يتكوَّن الإنسان الكامل الذي هو سيِّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرِّد » الذي تحرَّر من كلِّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلِّ شيء ، ليس محروماً أيَّ شيء ، وهكذا يتجرَّد . إنَّ هذا الوحي الربَّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلِّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحوُّلات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر » « الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في سموِّه ، وفي رشاقته المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن نتصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن

(في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحقِّ والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه ندٌّ لها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب السُّمانى والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

يبدو المؤمن كلَّ لحظة في نهارٍ جديد .

يتجلى الله في أقواله وأفعاله .

السلطان ، والرِّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :

هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .

إنَّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .

لا يرتبط ببخارى ولا ببدخشان .

ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .

الذي يبدو أنه قارىء (القرآن) وهو القرآن حقاً !

نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .

إنَّه الميزان في هذا العالم ، إنَّه القسطاس في يوم الحساب .

إنَّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .

إنَّه الشي الذي يرعش قلب الأزهار .

أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،

لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .

في معمل فكريٍّ تُصنع النجوم .

وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .

وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمعٍ إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنَّ خير نموذج يقترحه ، وأنَّ خير نظامٍ اجتماعيٍّ هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازاتٍ وإشاراتٍ ، نجدها مبثوثةً في كلٍّ ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالًا وحّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشىء في محيطٍ مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) ـ كما ورد في الإيمان ـ وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلّق بالوجود كله ، والتي ليست خاليةً من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكرٍ الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليٍّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد. . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علّمهم إياه فوق كلٍّ شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذّات الجماعية ، دون أن تتخلى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبيُّ ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كلُّ مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنَّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نموذجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبِّه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالًا تصوَّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :

الذات . .

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .

ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرد يحتلاَّن مركز تفكير إقبال .

يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .

قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء !

حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟

كل أحكامك حق ، ولكنَّ المفسرين

يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنَّهم يعلمون الشَّواهين الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يبني معلم المدرسة صرحاً ،

صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمةً سحرتني :

« لا تبن جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفةٌ ، ولا بصيرةٌ !

ولذلك حمل إقبال على الزُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الزُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذَّات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و(جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عزَّ وجلَّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرَّ منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلَّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبوذٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظةً واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ(بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوَّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمكن أن يصبحا ندَّين يتنازعان ؟ أيمكن أن يكونا حليفين يتعاونان . واأسفاه! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتجُّ هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !
تكفي شرارةٌ واحدةٌ منِّي للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .
إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛
فلماذا وهبت لي كلَّ هذا المقدار من النار ؟
كسر المرمر شرف لي ،
أما كسر الزجاج فعارٌ عليَّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفةٌ فرديةٌ ، وفلسفةٌ اجتماعية في آنٍ واحد، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدَّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدَّعوة إلى صيانة قيمها الذَّاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافةً إلى إنسانية ذات أبعادٍ كونية . ونجد في الميدان السياسي أنَّ أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستيها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعادٍ عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجته الرفيعة .

ثم إنَّ تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، واتَّخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثالًا على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقتير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .
الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .
السجود يعني : الجهد العنيف .
الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .
الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد
وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرةٍ متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمِّرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارَّة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبلٍ مشرقٍ علينا أن نبدعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على ألغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالًا ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيِّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنَّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيَّةٌ ، روحٌ قلقة[1] .

* * *

---

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص١٧ ـ ٣٥ .

فلسفة محمّد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارىء على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه « خودي » (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « **نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل** » .

(جـ) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« **وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ** » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرَى ... فـي سجـدة للقـوة الأفـلاكُ
ولنغمــةٌ مــن دون نــار نفخــة ... ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن ... وهـــاجـــة ولهيبهـــا درّاكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عـالـم الـذات بـه علـو وسفـل ... وبـــه معـــرك قُبــح وجمــالِ
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل ... وقبيـحٌ مـا بـدا فـي الاستفـال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته في هذا :

يا من في القافلة سِرْ ... رفيقــاً وكـــن وحيـــدا

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هـو فـي المجمـع خـال ... ومــن الحشــد طليـق
مثـل شمـع الحفـل ، فـي الحفـل وحيـد ورفيـق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتدّ في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويردّ كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوةً متحابّين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبديَّة لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة ... أو كان فيه صُور إسرافيلا
صمت طير الصبح أولى من غناء ... إن سرى في الرَّوض باللحن ذبولا

والغناء إن أدى إلى ضعف أو خَوَر فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت ... حرُم الناي عندنا والربابُ

(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخّر له كما في القرآن الكريم :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ـ٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومخيّر غير مسيّر . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير ... وهو في العالمين كالميزان

النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطاعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها ... من القضاء قيود ذات إحكام

والمؤمن الحر لا شيءَ يقيّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصد الفنّ في الحياة لهيب ... أبدى فما وَميضُ الشرار ؟

يا خبيراً بفنه فيه تمت ... صنعةُ العصر والعصور الخوالي

كم ترى من طبيعة وتريها ؛ ... أرِنا الذات فوق هذي المجالي

* * *

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تَدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذكَر
هو مِصراعٌ من البيت الذي مضمرٌ فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعَه الثانيَ في سيف فقر تحتويه كفٌّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح في حومة الحرب كالرجوم

وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام وشأن لفقر بدا فيه روح القُرآن

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مِسَناً فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن تؤثر الذل مذعناً ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدّوا حماس العشق والفقرِ الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .

وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقي اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندريّ .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :

إلى عصبات العرب ما أنا مُنْتَمٍ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي

يقول :

فلست أرى في بيدك اليوم جنّة تشبّ بهذا العقل نار التقدم

وفي القطعة التي أولها :

متاعك في الحياة فنون علم :

يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قُصور

وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

في جنوني لك أسرار بدت فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعَد الدرس عن حماك جنونا قال للعقل : لا تَلُذْ بنقاش

وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يرى لهيباً مُضيّا

وظاهر أن إقبالًا يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي يذكر في مقابلة العقل .

وكأنه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا الجنون[1] .

* * *

---

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ « محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ، و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .

الدِّيوانُ الأَوَّلُ

صَلْصَلَةُ الجَرْسِ
بانكادرا

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالعَرَبيَّةِ شِعْرًا

الشيخ صاوي شعلان المصري

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حثَّ فيه الشاعرُ المسلمينَ على التضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أَروع الأناشيد الإسلاميَّة ، وأعظم قصَائد الرثاء .

ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائبَ المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلاميَّة في القوَّة والانسجام ، نُقدِّم هنا نشيداً وقصيدةً مترجمةً بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

النَّشيدُ الإسلاميُّ

الصِّينُ لنَا والعُربُ لَنَا — والهِنْدُ لنَا والكُلُّ لَنَا
أضْحَى الإسلامُ لنَا دِيْناً — وجَمِيْعُ الكَوْنِ لَنَا وَطَنَا
تَوحيدُ الله لنا نورٌ — أعْددنا الرُّوحَ له سكَنا
الكَوْنُ يَزولُ ولا تُمْحى — في الدَّهْرِ صَحائفُ سُؤْددِنَا
بُنيتْ في الأرضِ مَعابِدُها — والبَيتُ الأوَّلُ كَعبَتُنَا
هُو أوَّل بيتٍ نحفَظُهُ — بحياةِ الرُّوحِ ويحفَظُنَا
في ظِلِّ السَّيف تربَّيْنا — وبَنَيْنا العِزَّ لِدَولَتِنَا
عَلمُ الإسلامِ على الأيّا — م شعارُ المجدِ لمِلَّتِنَا
بهلالِ النَّصر يُضيءُ لنا — ويُمَثِّل خِنجَر سَطْوَتِنَا
وأذانُ المُسلِم كانَ له — في الغَرْب صدىً من هِمَّتِنَا
قولوا لِسَماء الكوْنِ لقدْ — طاوَلْنا النَّجْمَ بِرِفعَتِنَا
يا دَهْرُ لقد جَرَّبتَ على — نيرانِ الشِّدَّة عَزْمتَنَا
طُوفانُ الباطِل لم يُغرِقْ — في الخَوفِ سفينةَ قوَّتَنَا
يا ظلَّ حدائِقِ أندلسٍ — أنسيتَ مغانيَ عِشرَتِنَا
وعلى أغصانِكَ أوكارٌ — عمَرَتْ بِطلائِعِ نَشأتِنَا
يا دجلةُ هَلْ سجَّلت عَلى — شطَّيكَ مآثِرَ عِزَّتِنَا
أمواجُكِ تَروي للدُّنيا — وتُعيدُ جواهِرَ سيرَتِنَا
يا أرْضَ النورِ من الحَرَمَيْـ — ـنِ ويا ميلادَ شريعَتِنَا
رَوْضُ الإسلام ودَوحتُهُ — في أرْضِكِ رَوَّاها دمُنَا
ومُحمَّد كان أميرَ الرَّكْـ — ـبِ يقودُ الفوْزَ لنُصرَتِنَا

إنَّ اســـمَ محمَّـــدٍ الهـــادي رُوحُ الآمـــالِ لِنَهْضَتِنـــــا
دَوَّتْ أنشـــــودةُ « إقبـــالٍ » جَـــرَســاً يَحـــدو فيـــه الـــزَّمنَــا
لِيُعيـــدَ قـــوافِلَنـــا الأولَـــى فـــي المَجـــدِ ويبعَـــثَ أُمَّتَنَـــا

* * *

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)[1]

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجىٰ ... ونجومُ ليلي حُسَّدي أو عُوَّدي
أمسيتُ في الماضي أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي
والطيرُ صادحةٌ على أَفْنَانِهَا ... تبكي الرُّبى بأنينها المتجدِّدِ
قد طالَ تَسْهِيْدِي وطالَ نشيدُها ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْنِ النَّدِي
فإلى متىٰ صَمْتِي كأنِّي زهرةٌ ... خَرْسَاءُ لمْ تُرْزَقْ بَراعَةَ مُنْشِدِ

***

قِيْثَارَتي مُلِئَتْ بأنَّات الجَوى ... لا بُدَّ للمَكْبُوتِ مِنْ فَيَضَانِ
صَعدَتْ إلى شَفَتي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْنَ عنها مَنطقي ولِسَاني
أنا ما تَعَدَّيْتُ القناعةَ والرِّضا ... لكنَّما هي قصةُ الأَشْجَانِ
أَشْكُوْ وفي فَمي التُّرَابُ وإنَّما ... أَشْكُوْ مُصابَ الدِّين للدَّيَّانِ
يَشْكُوْ لكَ اللهمَّ قلبٌ لمْ يَعِشْ ... إلَّا لحمدِ عُلاكَ في الأَكْوَانِ

***

قد كانَ هذا الكونُ قبل وُجودِنا ... رَوْضاً وأزهاراً بغير شَمِيْمِ
والوردُ في الأَكْمَامِ مجهولُ الشَّذَا ... لا يُرْتَجىٰ وردٌ بغير نَسِيمِ
بَلْ كَانَتِ الأيَّامُ قبل وجودِنا ... ليْلاً لظَالِمِها وللمَظْلُومِ
لمَّا أطلَّ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرُّبىٰ ... واخضَرَّ في البُسْتَانِ كلُّ هَشِيْمِ
وأَذَاعَتِ الفِرْدَوسُ مَكْنُونَ الشَّذا ... فإذا الوَرىٰ في نُضْرةٍ ونَعِيمِ

***

---

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيحُ ما عَنْوَنها الشاعر بـ « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كان يَهتِفُ باسم ذاتِكَ قَبْلَنَا مَنْ كان يَدْعو الواحدَ القهَّارا
عَبَدُوا تَمَاثِيلَ الصُّخورِ وقدَّسُوا مِنْ دُونِكَ الأَحْجارَ والأشجارا
عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَةً لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارا
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيْدَ داعٍ قَبْلَنَا وهَدَى الشُّعُوبَ إليكَ والأَنظارا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنا لَم نَخْشَ يَوْماً غَاشِماً جبَّارا

* * *

قَدْ كَانَ في اليُوْنَانِ فَلْسفَةٌ وفي الـ ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكانَ المُلْكُ في سَاسَانِ[1]
لَمْ تُغْنِ عَنْهُم قُوَّةٌ أو ثَرْوَةٌ في المالِ أو في العِلْمِ والعِرْفانِ
وبِكُلِّ أرضٍ سامِرِيٌّ مَاكِرٌ يَكْفِي اليهودَ مَؤُوْنَةَ الشَّيطانِ
والحِكْمَةُ الأُولى جَرَتْ وثنِيَّةً في الصِّين أو في الهِنْدِ أو طُوْرانِ
نَحْنُ الَّذِيْنَ بِنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا نَهْجَ الهُدى ومَعَالِمَ الإِيمَانِ

* * *

منْ ذا الذي رفعَ السُّيوفَ ليرفعَ اسْـ ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجومِ مَنارَا
كنَّا جبالًا في الجِبَالِ ورُبَّما سِرْنا على مَوْجِ البِحارِ بِحارَا
بِمَعابِدِ الإفْرَنْجِ كانَ أَذَانُنَا قبلَ الكَتائِبِ يفتحُ الأَمْصَارَا
لَمْ تَنْسَ إفريْقِيَّة ولا صَحْراؤُها سَجَدَاتِنا والأرضُ تَقْذِفُ نارَا
وكأنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حديقةٍ خَضْراءَ تُنْبِتُ حوْلنا الأَزْهَارا

* * *

لَمْ نخشَ طاغوتاً يحارِبُنا ولو نَصَبَ المنايا حَوْلنا أسْوارَا

---

(١) في الأصل هكذا ، وفيه اضطراب ، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون :
قَدْ كَانَ في (اليونانِ) و(الرُّومان) مَدْ رَسَةٌ ، وكانَ المُلْكُ في ساسَانِ

نَـدْعُـو جِهـاراً لا إلـه سِـوىٰ الَّـذي صنـعَ الـوجـودَ وقـدَّر الأقـدارَا
ورؤوسُنـا يـا ربُّ فـوقَ أكفِّنـا نَـرْجُـو ثـوابَـك مَغْنَمـاً وجِـوارَا
كُنَّـا نـرىٰ الأصنـامَ مـنْ ذهـبٍ فَنَهْـدِمُهَـا ونَهْـدِمُ فَـوْقَهـا الكفَّـارَا
لـو كـانَ غيـر المُسْلمينَ لحَـازَهَـا كنْـزاً وصـاغَ الحِلْـيَ والـدِّيْنَـارَا

* * *

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَىٰ مـنْ بـأسِنـا عَـزمٌ ولا إيْمَـانُ
لـو أنَّ آسـادَ العَـريْـنِ تفـزَّعـتْ لـمْ يَلْـقَ غيـر ثَبـاتِنـا الميـدانُ
وكـأنَّ نيـران المـدافـع فـي صُـدُوْ رِ المـؤمنيـنَ الـرَّوحُ والـرَّيحـانُ
تـوحيـدُك الأعلـى جَعَلْنَـا نَقْشَـه نُـوراً يُضـيءُ بصُبْحِـهِ الأزمـانُ
فغـدت صـدورُ المـؤمنيـنَ مَصَاحِفـاً فـي الكـونِ مسطـوراً بِهـا القـرآنُ

* * *

مـنْ غيـرنـا هَـدمَ التمـاثيـلَ الَّتـي كـانـتْ تُقـدِّسُهـا جَهَـالاتُ الـوَرىٰ ؟
حتَّـى هَـوَتْ صُـوَرُ المعـابـدِ سُجَّـداً لجـلالِ مَـنْ خَلـقَ الـوجـودَ وصـوَّرَا
ومَـنِ الأُلـىٰ حَمَلُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ بـابَ المـدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْبَـرَا[١]
أمَّـنْ رَمـىٰ نـارَ المَجُـوسِ فـأطفِئـتْ وأَبـانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نيِّـرا[٢]؟
ومـنِ الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيصـةً ورأى رِضَـاكَ أعـزَّ شـيءٍ فـاشْتَـرَى

* * *

نحـنُ الَّـذيـن استيقظـتْ بـأذانهـم دُنيـا الخليقـةِ مِـنْ تهـاويـل الكَـرىٰ
نحـنُ الَّـذيـن إذا دُعـوا لصـلاتهـم والحربُ تسقـي الأرض جاماً أَحْمَرا

---

(١) هو سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي حمل باب حصن خيبر وجعله تُرساً له في المعركة ، وذلك في غزوة خيبر التي كانت في أول السنة السابعة من الهجرة .

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي .

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مسمع الرُّوح الأمينِ فكبَّرا
محمودُ مثلُ إياز[1] قام كلاهما ... لكَ بالخُشُوعِ مصلِّياً مُسْتَغْفِرا
والعبدُ والمَوْلىٰ على قَدَم التُّقى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرىٰ

* * *

بَلَغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خَيْلُنا ... وكأنَّ أبْحُرَها رمالُ البَيْدِ
في محفلِ الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنَّصر أوضحَ منْ هلال العِيْدِ
في كلِّ موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تُعلنُ آيةَ التَّوحيدِ
أُمَمُ البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في إسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيالُ حرِّيَّاتها ... من بعد أصفادٍ وذلِّ قيودِ

* * *

رُحْماكَ ربِّ هل بغير جِبَاهِنا ... عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفاً ... يحوي جلالَ كتابِكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقاً ... فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُنَاتُها وعُصاتُها ... مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه ... واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

* * *

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البِلىٰ ... واستيقظت من قبل نفخِ الصُّورِ
والكعبةُ العليا توارى أهلُها ... فكأنَّهم مَوْتىٰ لغير نُشُورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها ... وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرِيْنَ وقدْ غدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ

---

(١) إياز : هو مولىٰ السلطان محمود السبكتكين .

بـلْ مِحنتـي أَلّا أرى فـي أُمّتـي ... عمـلاً تقـدِّمـه صَـداقَ الحُـوْرِ[١]

* * *

لـكَ البـريَّـةُ حكمـةً ومشيئـةً ... أَعْيَـتْ مَـذَاهِبُهـا أُولـى الأَلْبـابِ
إنْ شئْـتَ أجـريتَ الصَّحارى أنهُـراً ... أو شئْـتَ فـالأنهـارُ مـوْجُ سـرابِ
فـإذا دُهـي الإسـلامُ فـي أبنـائـه ... حتَّـى انطـوَوْا فـي محنـةٍ وعـذابِ
فثـراؤُهُـم فقـرٌ ودولـةُ مجـدهـم ... فـي الأرض نهْـبُ ثعـالـبٍ وذئـابِ
عـاقَبْتَنـا عـدلاً فهـبْ لعـدوِّنـا ... عـن ذنبه فـي الـدَّهـر يـوم عقـابِ

* * *

عـاشُـوا بثَـزوتِنـا وعشْنـا دُونَهـم ... للمـوت بيـن الـذُّلِّ والإمـلاقِ
الـذِّيـن يَحْيـا فـي سعـادةِ أهلـه ... والكـأسُ لا تبقـى بغيـر السَّـاقـي
أيـن الـذيـن بنـار حبِّـك أرْسَلُـوا الـ ... أنـوارَ بيـن محـافـل العشَّـاقِ
سكَبُـوا اللَّيـالـيَ فـي أنيـنِ دُمـوعهـم ... وتـوضَّـؤُوا بمـدامـعِ الأشـواق
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ ... تُهْـدِي الصَّبـاحَ طـلائـعَ الإشـراقِ

* * *

كيـفَ انطـوتْ أيـامُهـم وهـمُ الأُلـىٰ ... نشرُوا الهُدىٰ وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ[٢]
هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ[٣] ركبُهُمْ ... مـنْ يهتـدي للقـوم أو مـنْ يَقْتـدي
يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ[٤] بطيفِهِمْ ... إلّا علـى مصبـاحِ وَجْـهِ مُحَمَّـدِ
فـازُوا مـن الـدُّنيـا بمجـدٍ خـالـدٍ ... ولهـم خلـودُ الفـوزِ يـوم المـوعِـدِ

---

(١) الصداق : المهر .
(٢) الفَرْقَد : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهتدى به ، وهو المسمَّى « النجم القطبي » .
(٣) أَزْمَعَ : قَصَدَ وتوجَّه .
(٤) لمْ تُلِمَّ : لم تنزل بهم .

يـا ربِّ أَلْهِمْنـا الـرَّشـادَ فمـا لنـا ... في الكَوْن غيركَ منْ وليٍّ مُرْشِدِ

* * *

مـا زالَ قَيْـسٌ والغـرامُ كعهـدهِ ... وربـوعُ ليلـىٰ فـي ربيـعِ جمـالِهـا
وهِضـابُ نجـدٍ مـن مَـراعيهـا المَهـا ... وظبـاؤُهـا الخفـراتِ مـلءُ جبـالِهـا
والعشـقُ فيَّـاضٌ وأُمَّـةُ أحمـدٍ ... يتَحَفَّـزُ التـاريـخُ لاستقبـالِهـا
لـو حـاولـتْ فـوق السَّمـاء مكـانـةً ... رفَّتْ على شمسِ الضُّحىٰ بهلالِها
مـا بـالُهـا تَلْقَى الجـدودَ عـواثـراً[1] ... وتصُـدُّهَـا الأيَّـامُ عـن آمـالِهـا

* * *

هَجْرُ الحبيبِ رمَىٰ الأحبةَ بالنَّوى ... وأصـابهُـمْ بِتَصَـرُّم الآمَـالِ
لـو قـد مللنـا العِشْـق كـانَ سبيلنـا ... أو نستكيـن إلـى هـوى وضـلال
أو نصنـعَ الأصنـام ثـمَّ نبيعهـا ... حـاشـا المـوحِّـد أن يـذلَّ لمـال
أيـامُ سلمـانَ بنـا مـوصـولـةٌ ... وتُقـى أُويـس فـي أذانِ بـلال

* * *

يـا طِيْـبَ عَهْـدٍ كنـتَ فيـه مَنـارَنـا ... فبعثْـتَ نـور الحـقِّ مِـنْ فـارانِ
وأسـرْتَ فيـه العـاشقيـن بلَمْحَـةٍ ... وسقيتهـم راحـاً بغيـر دِنَـانِ
أحـرقْـتَ فيـه قلـوبَهـم بتـوقُّـدِ الإيمـان لا بتَلَهُّـب النِّيـرانِ
لـم نبـقَ نحـنُ ولا القُلُـوبُ كـأنَّهـا ... لـم تَخْـظَ مِـنْ نـارِ الهوىٰ بدُخَـانِ
إنْ لـمْ يُنَـرْ وجـهُ الحبيـب بـوصلِـهِ ... فمكـانُ حُـزْنِ القلـبِ كـلُّ مكـانِ

* * *

يـا فـرحـة الأيـام حيـن نـرى بهـا ... روض التَّجلِّـي وارفَ الأغصـان

---

(١) الجُدود العَواثِر : الحظوظ الخائبة .

ويعـود محفلُنـا بحسنـك مسفـراً كـالصُّبـح فـي إشـراقـه الفينـان
قـد هـاجَ حـزنـي أنْ أرى أعـداءنـا بيـن الطِّـلا[1] والظِّـلِّ والألحـان
ونعـالـجُ الأنفـاس نحـن ونصطلـي فـي الفقـرِ حيـنَ القـومُ فـي بستـان
أشْـرِقْ بنـورِك وابعـثِ البـرق القـديـمَ بـومضـةٍ لِفَـرَاشـكَ الظَّمْـآنِ

* * *

أشـواقُنـا نحـوَ الحجـازِ تطلَّعـت كحنيـنِ مُغْتـربٍ إلـى الأوطـان
إنَّ الطيـورَ وإنْ قَصَصْـتَ جنـاحهـا تسمـو بفطـرتهـا إلـى الطَّيـران
قيثـارتـي مكبـوتـةٌ ونشيـدُهـا قـد ملَّ مـن صمـتٍ ومـنْ كتمـان
واللَّحـنُ فـي الأوتـار يـرجُـو عـازفـاً ليبـوحَ مـن أسـراره بمعـانِ
والطُّور[2] يرتقبُ التجلِّي صارخاً بهـوىٰ المَشُـوْقِ ولَهْفَـةِ الحَيْـرانِ

* * *

أكبـادُنـا احتـرقـتْ بـأنَّـات الجَـوى ودمـاؤُنـا نهـرُ الـدُّمـوع القـانـي
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا وكـأنَّـه شكـوى بغيـر لسـان
أو ليس مـنْ هَـوْلِ القيـامـة أن يكـو ن الـزَّهـرُ نَمَّـامـاً[3] علـى البُستـانِ
النَّمـلُ لا يخشـى سليمـانـاً إذا حَـرَسَـتْ قُـراه عنـايـةُ الـرَّحمـن
أرشـدْ بـراهِمَـةَ الهُنـودِ ليـرفعـوا الـ إسـلامَ فـوقَ هيـاكـلِ الأوْثـانِ

* * *

مـا بـالُ أغصـان الصَّنـوبـر قـد نـأت عنهـا قَمَـارِيْهَـا[4] بكـلِّ مكـانِ
وتعـرَّتِ الأشجـارُ مـنْ حُلـل الـرُّبـا وطيـورهـا فـرَّت إلـى الـوديـانِ

---

(١) الطِّلا : الخمر .
(٢) الطُّوْر : هو الجبل الذي تجلَّى اللهُ عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلَّمه .
(٣) نمَّاماً : هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب .
(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يــا ربِّ إلَّا بُلْبُــلاً لــمْ ينتظــرْ   وحــيَ الـرَّبيـع ولا صَبَـا[1] نَيسـانِ
ألحــانــهُ بحــرٌ جــرى مُتــلاطمــاً   فكــأنَّــه الحــاكــي عــن الطُّــوفـانِ
يـا ليـتَ قـومـي يسمعـونَ شِكـايـةً   هي في ضميري صرخةُ الوِجْدانِ

***

إنَّ الجــواهــر حيَّــرتْ مــرآةَ هــ   ـذا القلبِ فهو على شفا البُركانِ
أَسْمِعْهُمُــو يــا ربِّ مــا ألهَمْتَنــي   وأعِــدْ إليهــمْ يقظــةَ الإيمــانِ
وأذقهــمُ الخمــرَ القــديمــةَ إنَّهــا   عيــنُ اليقيــنِ وكــوثــرُ الــرِّضــوانِ
أنــا أعجمــيُّ الــدَّنِّ لَكِــنْ خَمْـرَتـي   صُنْــعُ الحِجَـازِ وكـرْمِهـا الفَيْنَـانِ[2]
إنْ كــان لــي نغــمُ الهنـود ولحنُهــم   لكــنَّ هــذا الصـوتَ مِـن عـدنـانِ

***

(١) صَبَا : ريح طيِّبة تهب من جهة الشرق .
(٢) الفَيْنَان : أي ذو الأفنان طويل الأغصان .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظم محمد إقبال بعد هذه القصيدة قصيدةً أخرى وضَّح فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم لدينهم ، وعدم إتقانهم أمرَ الدُّنيا ، تبريراً لما جُوزُوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما تغنَّى بهاتين القصيدتين الأطفالُ ، والشبابُ ، وحفظهما الرجال ، والنساء ، وسارتا مسير الرياح وطارتا بغير جناح .

كـلامُ الـرُّوح لـلأرواح يَسْـري[1] ... وتُـذرِكُـه القلـوبُ بـلا عنـاءِ[2]
هتفـتْ بـه فطـارَ بـلا جنـاحٍ ... وشـقَّ أنينُـه صـدر الفضـاءِ
ومعـدنُـه تُـرابـيٌّ ولكـنْ ... جـرتْ فـي لفظِـه لغـةُ السَّمـاءِ
لقـد فـاضـت دمـوعُ العِشْـقِ منِّـي ... حـديثـاً كـان عُلْـوِيَّ النِّـداءِ
فحلَّـق فـي ربـا الأفـلاك حتَّـى ... أهـاج العـالـم الأعلـى بكـائـي

* * *

تحـاوَرَتِ النُّجـومُ وقُلْـن صـوتٌ ... بقـرب العـرش مـوصـول الـدُّعـاءِ
وجـاوبـت المجـرَّة عـلَّ طيفـاً ... سـرى بيـن الكـواكـب فـي خَفـاءِ
وقـال البـدرُ هـذا قلـبُ شـاكٍ ... يـواصـل شـذْوهُ عنـد المسـاءِ
ولـم يعـرفْ سـوى رِضـوان صـوتـي ... ومـا أحـراهُ عنـدي بـالـوفـاءِ
ألـمْ أكُ قبـلُ فـي جنَّـات عـدنٍ ... فـأخـرجنـي إلـى حيـنِ قضـائـي

* * *

---

(١) يَسْرِي : يجري .
(٢) عَنَاء : تعب ومشقة .

وقيـلَ هـو ابـن آدم فـي غُـرُورٍ   تجـاوزَ قَـدْرَه دونَ ازْعِـواءِ[1]
لقـد سَجَـدَتْ مـلائكـةٌ كـرامٌ   لهـذا الخلـق مـن طيـنٍ ومـاءِ
يُظَـنُّ العِلْـمُ فـي كيـفَ وكَـمْ   وسـرُّ العَجْـز عنـه فـي انطـواءِ
ومـلءُ كُـؤوسِـهِ دمـعٌ وشكـوى   وفـي أنغـامـهِ صـوتُ الـرَّجـاءِ
فيـا هـذا لقـدْ أبلغـتَ شيئـاً   وإن أكثـرتَ فيـه مِـنَ المِـراءِ

* * *

عَطـايـانـا سحـائـبُ مُـرْسَـلاتٍ   ولكـنْ مـا وجـدنـا السَّـائلينـا
وكـلُّ طـريقنـا نَـوْرٌ[2] ونـورٌ   ولكـن مـا رأينـا السَّـالكينـا
ولـم نجـدِ الجـواهـرَ قـابـلاتٍ   ضيـاءَ الـوحـي والنُّـور المبينـا
وكـان تـراب آدم غيـرَ هـذا   وإنْ يـكُ أصلـه مـاءً وطينـا
ولـو صـدقـوا ومـا فـي الأرض نهرٌ   لأجـرينـا السَّمـاء لهـم عُيـونـا

* * *

وأخضعنـا لِمُلْكِهِـم الثُّـريَّـا   وشيَّـدنـا النُّجـوم لهـم حُصـونـا
ولكـنْ أَلْحَـدُوا فـي خيـرِ ديـنٍ   بنـى فـي الشَّمـس مُلْـكَ الأوَّلينـا
تُـراثُ محمَّـدٍ قـد أهملـوه   فعـاشـوا فـي الخـلائـق مُهْمَلِينـا
تـولَّـى هـادمُـو الأصنـام قُـدْمـاً   فعـاد لهـا أولئـك يصنعـونـا
أبـاهـم كـان إبـراهيـمَ لكـن   أرى أمثـال آزَرَ[3] فـي البنينـا

* * *

---

(١) ارعواء : كف وارتداع .
(٢) النَّور : الزهر .
(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفةً .

وفـي أَسْـلافِكـم كـانـتْ مـزايـا بكـلِّ فـمٍ لـذِكـراهـا نَشِيْـدُ
تضُـوعُ[١] شقـائـقُ الصَّحـراءِ عِطْـراً بـريَّـاهـا وتبتسـمُ الـورودُ
فهـلْ بقيـتْ محـاسنُهـم لـديكـم فيجمـل فـي دلالكـم الصُّـدودُ
لقـد هـامـوا بخـالقهـم فنـاءً فلـم يكتـب لغيـرهِـمُ الخلـودُ
وكـوثـرُ أحمـد منكـم قـريـبٌ ولكـنْ شـوقكـم عنـه بعيـدُ

* * *

وكـمْ لاح الصَّبـاحُ سَنـاً[٢] وبُشْـرى وأذَّنـتِ القَمـاري والطُّيـورُ
وكبَّـرت الخمـائـل فـي ربـاهـا مصلِّيـةً فجـاوبهـا الغـديـرُ
ونـوم صبـاحكـم أبـداً ثقيـلٌ كـأنَّ الصبـح لـم يـدركـه نـورُ
وأضحـى الصَّـوم فـي رمضـان قيـداً فليـس لكـم بـه عـزمٌ صبـورُ
تمـدَّن عصـرُكـم جمـع المـزايـا وليـس بغـائـبٍ إلا الضميـر

* * *

لقـد ذهـب الـوفـاءُ فـلا وفـاءً وكيـف ينـالُ عهـدي الظَّـالمينـا
إذا الإيمـانُ ضـاعَ فـلا أمـانٌ ولا دُنيـا لمـن لـم يُحْـيِ دِينـا
ومَـنْ رَضـيَ الحيـاةَ بغيـر ديـنٍ فقـدْ جعـلَ الفنـاء لهـا قَـرينـا
وفـي التـوحيـد للْهِمَـمِ اتِّحـادٌ ولـنْ تبنـوا العُـلا مُتفـرِّقينـا
تسـانـدتِ الكـواكـبُ فـاستقـرَّتْ ولـولا الجـاذبِيَّـةُ مـا بقِينـا

* * *

غَـدَوْتُـمْ فـي الـدِّيـار بـلا ديـارٍ وأنتـم كـالطُّيـورِ بـلا وكُـورِ
وكـلُّ صـواعـق الـدُّنيـا سهـامٌ لبيـدَرِكـم وأنتـم فـي غـرورِ

---

(١) تَضُوعُ : تفوح وتنتشر .
(٢) السَّنا : الضياء .

أهـذا الفقـر فـي علـمٍ ومـالٍ | وأنتـم فـي القطيعـةِ والنُّفـورِ
وبيـعُ مقـابـرِ الأجـدادِ أضحـى | لـدى الأحفـادِ مـدعـاةُ الظُّهـور
سَيُعْجَبُ تـاجـرو الأصنـامِ قُـدْماً | إذا سمعـوا بتجَّـار القبـورِ

***

مِـن المتقـدِّميـن إلـى المعـالـي | علـى نهـجِ الهـدايـة والصَّـواب
ومِـن جبهـاتهـم أنـوارُ بيتـي | وفـي أخـلاقهـم يُتلـى كتـابـي
أمـا كـانـوا جُـدُودكـم الأوالـي | بنـاةَ المَجْـد والفـنِّ العجـابِ
وليـس لكـم مـن المـاضـي تـراثٌ | سوى شَكْوَى اللُّغوبِ[1] والاكتئابِ
ومـن يَـكُ يـومـهُ فـي العيش يـأسـاً | فمـا غَـدُهُ سـوى يـومِ العـذابِ

***

أتشكُـو أنْ تـرى الأقـوامَ فَـازُوا | بمجـدٍ لا يـراه النَّـائمـونـا
مَشَـوْا بهـدي أوائِلكـم وجـدُّوا | وضيَّعتـم تـراث الأوَّلينـا
أيُحْـرمُ عـامـلٌ وردَ المعـالـي | ويسعـدُ بـالـرُّقـيِّ الخـامِلُـونـا
أليـسَ مـن العـدالـة أنَّ أرْضِـي | يكـون حصـادُهـا للـزَّارعينـا
تَجلِّـي النُّـور فـوق الطُّـور بـاقٍ | فهـل بقـيَ الكليمُ[2] بطُورِ سِينـا ؟

***

ألـمْ يُبْعَـثْ لأُمَّتكـم نبـيٌّ | يـوحِّـدكـم علـى نهـج الـوئـامِ
ومصحفُكـم وقبلتُكـم جميعـاً | منـارٌ لـلأخـوة والسَّـلام
وفـوق الكـل رحمـنٌ رحيـمٌ | إلـهٌ واحـدٌ ربُّ الأنـام
فمـا نـارُ ألفتكـم تـولَّـى | وأمسيتُـم حيـارى فـي الظَّـلامِ

---

(١) اللُّغوب : التعب والإعياء .

(٢) الكليم : لقب سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

وحســـن اللُّــؤلُــؤ المكنـــونِ رهــنٌ بصـــوغ العِقْــد فــي حُسْــن النِّظــامِ

* * *

وكيــــف تغيَّــرتْ بكـــمُ اللَّيـــالـــي وكيــف تفـرَّقــت بكــمُ الأمــانــي
تــركتــم ديــنَ أحمــدَ ثــم عُــدْتُــم ضحـــايـــا لِلْهـــوى أو للهـــوان
رقــيُّ الشَّعــبِ قــد أضحـى لـديكـم تقــرِّرُه صـــلاحيـــةُ الـــزمـــانِ
وكيـــف تُقــاسُ أوهـــامٌ ولغـــوٌ بحكمــة منـزلِ السَّبــع المثـانـي
أرى نـــاراً قـــد انقلبــت رمـــاداً ســوى ظـل مــريـضٍ مــن دخــانِ

* * *

أَرى الفقــــراءَ عبَّـــاداً تقـــاةً قيــامــاً فــي المســاجــد راكعينــا
هـــم الأبـــرارُ فـــي صــومٍ وفطــرٍ وبـــالأسحـــارِ هُـــمْ يَسْتَغْفِـــرُونـــا
وليــس لكــم ســوى الفقــراء ستــرٌ يــواري عـــن عيـــوبكـــم العُيُـــونـــا
أضلَّــــت أغنيــــاءكــم المـــلاهـــي فهـــم فـــي ريبهـــم يتـــردَّدونـــا
وأهـــلُ الفقـــر مـــا زالـــوا كنـــوزاً لـــديـــنِ الله ربِّ العـــالمينـــا

* * *

أرى التفكيــــرَ أدركــــهُ خمــــولٌ ولــم تبــقَ العــزائــمُ فــي اشتعــال
وأصبــحَ وَعْظُكــم مــن غيــر سِحْــرٍ ولا نـــورٌ يُطِـــلُّ مـــن المقـــال
وعنـــد النَّـــاس فلسفـــةٌ وفكـــرٌ ولكــن أيــن تلقيــن (الغـزالـي[1])
وجلجلَـــــةُ الأذان بكــــلِّ أرضٍ ولكـــن أيـــن صـــوتٌ مـــن بـــلالِ
منـــائـــرُكـــم علـــتْ فـــي كـــلِّ حـــيٍّ ومسجـــدُكـــم مـــن العبَّـــاد خـــالـــي

* * *

---

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة « طوس » .

فـأيـنَ أئمـةٌ وجنـودُ صـدقٍ تهـابُ شَبَـاةَ[1] عـزمهـمُ الحـرابُ
إذا صنعـوا فصنعهـمُ المعـالـي وإنْ قـالـوا فقـولُهـم الصَّـوابُ
مـرادُهـم الإلـهُ فـلا ريـاءٌ ونهجهـمُ اليقيـن فـلا ارتيـابُ
لأمَّتهـمْ ولـلأوطـانِ عـاشـوا فليـس لهـم إلـى الـدُّنيا طِـلابُ
كمثـل الكـأس تُبْصِـرُهـا دِهـاقـاً[2] وليـس لأجلهـا صُنِـع الشَّـرابُ

* * *

جهـادُ المـؤمنيـن لهـمْ حيـاةٌ ألا إنَّ الحيـاةَ هـيَ الجهـادُ
عقـائـدُهـم سـواعـدُ نـاطقـاتٌ وبـالأعمـال يثبـتُ الاعتقـادُ
وخـوفُ المـوتِ لـلأحيـاء قبـرٌ وخـوفُ اللهِ لـلأحـرار زادُ
أرى ميـراثهـم أضحـى لـديكـم مضـاعـاً حيثُ قـد ضـاعَ الـرَّشـادُ
وليـس لـوارثٍ فـي الخيـر حـظٌّ إذا لـم يحفـظِ الإرث اتِّحـادُ

* * *

لأيِّ مـآثـر القـوم انْتَسَبْتُـم ؟ لتكتسبـوا فخـارَ المُسلمينـا
فـأيـن مقـامُ ذي النُّوريـن[3] منكـم ودولـةُ عـزِّه دُنيـا ودِيْنَـا
وفقـرُ علـيٍّ الأواب هـلا ربحتـم فيـه كنـزَ الفـاتحينـا
أقمتـمْ فـي الـذُّنوب وفـي الخطايا وتغتـابـون حتَّـى الصَّـالحينـا
وهـم ستـروا عيـوب الخلـق فضـلاً وإن كـانـوا أبـرَّ المُتَّقينـا

* * *

---

(١) شَبَاةَ ، جمعها الشَّبَا والشبوات : شباة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .
(٢) دِهاق : مُمْتلىء ، يقال : كأس دهاق ، أي ممتلىء .
(٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أريكـةُ قيصَـرٍ[1] وسـريـرُ كِسـرى[2] قـد اختَمَيـا بملكهـم العَمِيـمِ
وأنتـم تطمحـون إلـى الثُّـريـا بـلا عـزمٍ ولا قلـبٍ سليـمِ
تضيعـون الإخـاء وهـم أقـامـوا صـروحَ إخـائهـم فـوق النُّجـومِ
طلبتُـمْ زهـرةَ الـدنيـا وعـذْتُـم بـلا زهـرٍ يضـوعُ[3] ولا شميـمِ
وكـان لـديهـم البستـان محضـاً وهـم أصحـاب جنـات النَّعيـمِ

***

يُعيـدُ الكـونُ قصَّتهـم حـديثـاً ويُنشـيء مـنْ حـديثهـمُ الفنـونـا
فكـمْ نَـزَحُـوا عـنِ الأوكـارِ شَـوْقـاً إلـى التَّخلِيـقِ فَـوْقَ العـالمينـا
ويـأسُ شبـابكـم أدمـى خطـاهـم فظنُّـوا فيـه بـالـدِّيـن الظُّنـونـا
هـي المـدنيَّـةُ الحمقـاءُ ألقـتْ بهـم حـول المـذاهـب حـائـرينـا
لقـد صنعـتْ لهـم صنـمَ المـلاهـي لتحجـبَ عنهـم الحَـرَمَ الأمينـا

***

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيسٌ[4] ومـلَّ مـن الشَّكـايـة والعـذابِ
ويحـاولُ أن يُبـاح العِشْـقُ حتـى يـرى ليـلاه[5] وهـي بـلا حجـابِ
يـريـدُ سفـور وجـهِ الحُسـن لمَّـا رأى وجـهَ الغـرام بـلا نقـابِ
فهـذا العهـد أحـرقَ كـلَّ غـرسٍ مـن المـاضـي وأغلـقَ كـلَّ بـابِ
لقـد أفنـت صـواعقُـه المغـانـي وعاثتْ[6] في الجبال وفي الهضابِ[7]

---

(١) قيصر : لقب ملوك الروم .
(٢) كسرى : لقب ملوك الفرس .
(٣) يَضُوع : يفوح وينتشر .
(٤) قيس : من أشهر عشاق العرب .
(٥) ليلى : من أشهر عاشقات العرب .
(٦) عَاثَتْ : أفسدتْ .
(٧) هِضاب : جمع هَضْبة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هـي النَّـارُ الجـديـدة ليـس يُلقـى ... لهـا حطـبٌ سـوى المَجْـدِ القـديـمِ
خُــذوا إيمــانَ إبــراهيــمَ تَنْبُــتْ ... لكـمْ فـي النَّـار روضـاتُ النَّعيـمِ
ويــذكــو مــن دم الشهــداء وردٌ ... سَنِـيُّ العطـر قـدسـيُّ النَّسيـمِ
ويلمــعُ فــي سمــاء الكـون لـونٌ ... مـن العُنَّـاب مخضـوبُ الأديـمِ
فـلا تفـزعْ إذا المَـرْجَـانُ[1] أضحـى ... عقــوداً للبــراعــمِ والكُــرومِ

* * *

فكَـمْ زالـتْ ريـاضٌ مـن ربـاهـا ... وكـم بـادتْ نخيـلٌ فـي البـوادي
ولكــنْ نخلــةُ الإســلام تنمــو ... علـى مـرِّ العـواصـف والعـوادي
ومجـدُك فـي حِمَـىٰ الإسـلام بـاقٍ ... بقـاءَ الشَّمـس والسَّبـع الشِّـدادِ
وإنَّــك يــوســفُ فــي أيِّ مصـرٍ ... يــرى كنعــانَــه[2] كــلَّ البـلادِ
تسيـر بـك القـوافـلُ مُسـرعـاتٍ ... بـلا جـرسٍ ولا تـرجيـعِ حَـادِي

* * *

ضيــاؤك مشــرقٌ فــي كــلِّ أرض ... لأنــكَ غيــر محــدودِ المكــانِ
بَغَـتْ أمـمُ التَّتَـار[3] فـأدركَتْهـا ... مــن الإيمــان عــاقبــةُ الأمــانِ
وأصبـح عـابـدو الأصنـام قُـدْمـاً ... حماةَ الحِجْر[4] والرُّكن اليماني[5]
فـلا تجـزع فهـذا العصـر ليـل ... وأنــت النَّجـم يشـرق كـلَّ آنِ

---

(١) المَرْجَان : صغار اللؤلؤ .
(٢) كنعان : أرض فلسطين .
(٣) التَّتار : قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا ، أصلهم من المغول ، اشتهروا بغزواتهم ، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد .
(٤) الحجْر : يريد به الشاعر حجْر الكعبة .
(٥) الركن اليَمَاني : هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ بِشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

***

أعذْ من مشرقِ التَّوحيد نوراً يتمُّ به اتِّحاد العالمينَا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي فكيفَ تعيش محتبساً دفينا
وأنت نسيمهُ فاحملْ شذاه ولا تحملْ غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمان شمساً وصُغْ مِنْ ذرةٍ جبلاً حصينا
وكن في قمَّةِ الطُّوفان موجاً ومُزناً يمطر الغيث الهَتُونا

***

فباسم محمدٍ شمسِ البرايا أقيمت خيمةُ الفلك المُنيرِ
تَلألأَ في الرياض وفي الصحارى وفوقَ الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونَبْض الكونِ منه مُسْتَمِدٌّ حرارتَه على مرِّ العصورِ
ومن مراكش[1] يغزو صداه رُبُوعَ الصِّين بالصَّوت الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النُّور إلا ضميرُ المسلم الحرِّ الغَيُورِ

***

ورفعُ الذِّكر للمختار رفعٌ لقدرك نحو غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عينِ الكون واشهد مقامك عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحت على الأعلام أنوارُ الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجابٌ إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ درعٍ وعشقُك خير سيفٍ للنِّضالِ

***

خلافةُ هذه الأرضِ استقرَّت بمجدكَ وهو للدُّنيا سماءُ

---

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفـي تكبيـركَ القـدسـيِّ يبـدو صغيـراً كـلُّ مـا ضـمَّ الفضـاءُ
فيـا مـنْ هـبَّ لـلإسـلام يـدعـو وأيقـظ صـدقَ غيـرتـه الـوفـاءُ
ستـرفـعُ قَـدْرَك الأقـدارُ حتـى تشـاهـد أنَّ سـاعـدك القضـاءُ
وقيـل لـكَ احْتَكِـمْ دنيـا وأخـرى وشـأنُـك والخلـودَ كمـا تشـاءُ

***

الدِّيْوَانُ الثَّانِي

الأَسْرَار وَالرُّمُوز

أَسْرَارُ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَرُمُوزُ نَفْيِ الذَّاتِ

أسرار خودي ورموز بيخودي

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام

يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلاميَّة . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلّا أنَّه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطَّمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورةٌ عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفةٍ حديثةٍ تؤدِّي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أيّة فائدةٍ للتُّرك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظرته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوَّة ، والاعتماد على النفس[1] ولم يقنط محمد إقبال بل كرَّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنَّ مردَّ هذا إلى الآراء الإغريقية الَّتي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوَّل هذا الدين من الإيجابيَّة الدافقة إلى عقيدة مستسلمةٍ تأمليَّةٍ ، الأمر الّذي أدَّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندَّد بأفلاطون ، وشنَّ حملةً على الصوفيَّة الّتي عدَّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدَّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدؤها بالأبيات التالية الّتي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرُّومي[2] : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث

---

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص(١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدَّواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالىٰ والأقزام الّذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروِّح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عنِّي ، أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالًا »[1] . وقد ركَّز محمَّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات الّتي يرتكز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والّتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذَّات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الّذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورةٍ جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأنَّ أخلاق الفرد والأمة تحدِّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والرُّوحانيَّة ، ويؤكّد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيَّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أنَّ الاستسلام للجبرية هو الَّذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرَّغم من قيمهم الدِّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

---

(١) « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن النَّدوي ص٨٥ ـ ٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولًا على المقدمة المنظومة ، يبيّن فيها محمَّد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيل السفر   فهمىٰ دمعي على خدِّ الزهر
غسل الدمع سبات النَّرجس   وصحا العشب بمسرى نفسي
جرَّب الفارس قولي موقدا   مصرعاً ألقى وسيفاً حصدا

ويشير إلى أنَّ الرومي هو الّذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صيَّر الروميُّ طيني جوهرا   منْ غباري شاد كوناً آخرا

فصول الدّيوان :

١ ـ أصل نظام العالم من الذَّاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذَّاتية .

٢ ـ حياة الذَّاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .

٣ ـ تستحكم الذَّاتية بالمحبة والعشق .

٤ ـ ضعف الذاتية بالسؤال .

٥ ـ إذا استحكمت الذاتية بالمحبَّة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

٦ ـ حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ ـ في معنى أنَّ أفلاطون اليونانيَّ ـ الّذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها ـ ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ ـ حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلاميَّة .

٩ ـ تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطَّاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ ـ في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ ـ نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ ـ الوقت سيف .

١٣ ـ دعاء « ويختم به المنظومة »[١] .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضٍ وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفِّقٍ طرباً يثني معجباً ، وصائحٍ يتعجَّب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

* * *

(١) إقبال . . للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها

محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)[1] الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلُق كلَّ المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقةٌ دائمةٌ ، أم أنَّ الحياة تجلَّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلِّياً عرضيّاً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟

إنَّ سيرة الأفراد والجماعات موقوفةٌ على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خِداع الخيال . وهي تعدُّ الخلاص من هذا الغُلِّ نجاةً ، وميلُ أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقَّق حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إنَّ حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإنَّ حالة النفس الإنسانية نتيجةٌ محتومةٌ لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوةً إلى العمل بليغةً ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوقٌ ينال الخلودَ بالعمل ، ولكنَّ تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسّر بها شنكر

---

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلاميِّ . واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامَّة ، فسلبوا الأمَّة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فآراؤهم خيرُ دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي[1] ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتتْ بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرَّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرِّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختتم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرِّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلَّة الفلسفيَّة ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلَّ على الطريق من لم يُسلِّم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

---

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فإنما خيال الشعر فيها وسيلةٌ إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القرَّاء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثَرة ، كما تستعمل في اللغة الأرديّة غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذَّات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر
إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعُ نظرٍ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدْرَك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلُّها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيء . والخالقُ كذلك فرد ؛ ولكنَّه أوحدٌ لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفْني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنىٰ القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الدِّيني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « **تخلقوا بأخلاق الله** » فكلَّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثِّل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخِّر كلَّ الصِّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلُق دائماً مطالبَ ومُثُلاً جديدةً ، وقد خَلقتْ من أجل اتساعها وترقيها آلاتٍ كالحواسّ الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقَّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادَّةُ أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شرّاً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوى الذَّات الخفية تتجلَّى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قَهرت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنَّها إذا قاربت الذاتَ المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحصيل الاختيار . ومقصدُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلَّى في الإنسان تسمَّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبتها حالٌ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضٍ عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكِّننا من إدامة حال التوتر يمكِّننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لِقِيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوَّم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تَعرِض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطّاً ممتداً إلى غير نهايةٍ يتحتَّم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرُ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدَّ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقوفٌ على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغَنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدّاً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدَّ في نيلها . وخاصةُ العشق إفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسمَى ظهر فيه التوحُّد ، ويتحقَّق ضمناً توحُّد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشقُ شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشقُ كائن غيرِ مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالًا ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتَّبع أفكار غيره ، أو يدَّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنَّه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلَّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنَّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلُّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيَّنت أنَّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ ـ إطاعة القانون الإلهي .

٢ ـ وضبط النفس .

٣ ـ والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذ الدنيا هي أعلى درجات الرقيِّ الإنسانيِّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرطٍ لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبيها الروحيِّ والجسميِّ ، فإنَّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمَّةٍ مثاليةٍ يتجلَّى في أفرادها في الجملة هذا التوحُّد الذَّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريَّةٌ يتوحَّد أفرادها ، ويقومِ على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوَّر فوقها ذروة .

وقد رأى نتشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها » إهـ .

هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه ما قدَّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

* * *

القسم الأول

أسرار إثبات الذَّات

(أسرار خودي)

رأيتُ الشَّيخ بالمصباحِ يسعى   لـه فـي كـلِّ نـاحيـةٍ مجـال
يقول : مَللتُ أنعاماً وبَهْماً   وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها   برسْتُمْ أو بحيدرٍ اندمال[1]
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا   فقال : ومُنيتي هذا المحال

(مولانا جلال الدين الرومي)

---

(١) حيدر : عليٌّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .

تمهيد

« ليس في أعواد غابي سقَطٌ ... هي للمنبر أو أعواد صَلْب »[1]

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفَر ... فهمَى دمعي على خدِّ الزهَرْ
غسلَ الدمعُ سُباتَ النَّرجسِ ... وصحا العُشبُ بمَسرَى نفسي
جرَّب الزَّارعُ قولي مُحصَدا ... مِصرعاً ألقَى ، وسيفاً حصدا
إنَّه حَبَّ دموعي زَرعا ... نسجَ الروضَ وأنَّاتي معا
ذرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا ... كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
طينتي منْ جَامِ جَمٍّ أنورُ ... منْ غيوبِ الكون عِندي عبرُ[2]
صَيْدُ أفكاري ظِباء لم تُرَمْ ... لم تُسَيَّب بَعدُ منْ قيدِ العَدمْ
زَانَ بُسْتاني عشبٌ ما ظَهرَ ... وجنيتُ الوردَ في جوف الشَّجر[3]
محفِلُ الشادين مني يرجُفُ ... في وِتار الكون كفِّي تعزِفُ
صامِتٌ فيَّ ربابُ الفِطرةِ ... ما وعَى عنِّي جليسي نغمتِي
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي ... حُبُكاً في فَلَكٍ لم أعْهَد

---

(١) نيت درخشك وتريبشه من كوتاهي ... جوب هرتخل كه منبر شوه داركم

(٢) جامِ جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكأنه قد جناه .

لـم يَـرُعْ ضـوئـيَ سِـربَ الـزُّهُـرِ   أو يُـرَجْـرَجْ زئبَقـي فـي البَصـرِ[1]
مـا رأت رقـصَ ضيـائـي الأبحُـرُ   أو كسـا الأطـوادَ ثـوبـي الأحمـر
عيـنُ هـذا الكـون لـي لا تعهـد   أنـا مـن خـوفِ طلـوعٍ أرْعَـدُ
مـزَّقَ الظلمـةَ فجـرى فسفَـرْ   وبـدا طَـلٌّ جـديـدٌ فـي الـزَّهَـرْ
إننـي أرقـب صبحـاً مُعلمـا   حبَّـذا مـن حـول نـاري زمـزمـا[2]

* * *

أنـا لَحْـنٌ دون ضَـربٍ صَعَـدا   أنـا صـوتٌ شـاعـري يـأتـي غـدا[3]
دونَ عصـري كـلُّ سـرٍّ قـد خَفـي   ما بهذي السوق يُشرى يوسُفي[4]
أنـا فـي يـأسٍ مـن الصّخب القديم   مُشعـلٌ طُـوري ليغشـاه كليـمْ[5]
بحـرُ صحبـي قطـرةٌ لا تَـزْخَـرُ   قطـرتـي كـاليـمِّ فيـه صَـرْصـرُ
مِـن وجـودٍ غيـرِ هـذا لـي غَنـاء   ولـركـبٍ غيـرِ هـذا لـي حُـداءْ
كـم تجلَّـى شـاعـرٌ بعـد الحِمـام   يـوقـظُ الأعيـنَ حينـاً وينـام
وجهـهُ مـنْ ظُلمـة المـوت سَفَـر   ونمـا مـنْ قبـره مثـلَ الـزَّهَـر[6]

* * *

كـم بهـذا السَّهـب مـرّتْ قـافلـهْ   مثـلَ سَيـر النُّـوق رهـواً سـابلـهْ

---

(١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في الأعين اضطراب الزئبق .
(٢) حبذا من صَلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .
(٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .
(٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .
(٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .
(٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرُهم إلا بعد الموت .

غيرَ أنّي عاشقٌ ، ديني النُّواخ ... ثورةُ المحشر في هذا الصياخ
أنا لحنٌ كلَّ عنه الوترُ ... لا أُبالي أنَّ عُودي يُكسرُ[1]
أبعدِ القطرة عن سيلٍ طما ... وانظرنَّ اليمَّ منه التطما
لا تعي موجيَ هذي الأنهرُ ... لا تعي لُجِّيَ إلا أبحرُ
ليس أهلاً لسحابي زهرةٌ ... ليس فيها لنموٍّ روضةٌ[2]
كم بُروقٍ نائماتٍ في الجَنانْ ... ضاقت البيدُ لديها والقِنانْ[3]
إنْ تكن صحراء فاطلب لجَّتي ... أو تكن سيناءَ فاقبس شُعلتي
قد حُبيتُ الوردَ من عَين الحياةْ ... ووُهِبْتُ السِّرَّ من عين الحياةْ[4]
أشعلَ الذرَّةَ لحني الثائرُ ... رفرفتْ فهي يَراعٌ طائر
مانثا ذا السرَّ غيري في البشرْ ... لم يُثقِّب ناظمٌ مثلي الدُّرَر
أقبلنْ إن تَبغ عيشَ الخالدينْ ... أقبلَنْ إن تبغ مُلك العالَمينْ
أفشتِ الأفلاك لي السرَّ القديمْ ... كيف يُخفَى السرُّ من دون النَّديم ؟
أيها الساقي ! من الراح اسقني ... وآسِ في قلبي جِراحَ الزَّمن
شعلةُ الماء التي من زمزم ... قيصرٌ يعنو لها كالخدم
مُقلةُ المُبصر منها أبصرُ ... وشِعابُ الفِكر منها أنور
تجعلُ الريشةَ طوداً قاهرا ... وتُري الثعلب ليثاً زائرا
هيَ تسمو للثُريَّا بالثَّرى ... وتعي القطرةُ منها أبحرا
تجعلُ الصَّمت ضجيجَ المحشرِ ... تجعل الدُّرَّاج حتفَ الأصْقُر
املأ الكأس بصفوٍ نيِّرِ ... نوِّرِ الفكرَ بنورِ القمرِ

---

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .
(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضةً ليست أهلاً لمطره .
(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .
(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأقـود الـرَّكـبَ شطـر المنـزل / بـاعثـاً شَـوقَ السُّـرى فـي المُقَـل
رائيـاً وجـهَ جـديـدِ الأمـل / سـاعيـاً إثْـرَ جـديـدِ العَمَـل
فـأُرى إنسـانَ عيـنِ العـارفيـن / وأُرى لحنـاً بـأُذنِ العـالميـن
مُعليـاً قَـدْرَ الكـلام المُبـدَع / مـازجـاً فيـه غـزيـرَ الأدمُـع
قـارئـاً مـن فيضِ ذا الشيخ العظيم / كُتُبـاً تُضمِـر أسـرار العلـومْ[١]
قلبـهُ مـن شعلـة الـوَجـد استعـزْ / وأنـا فـي نَفَـسٍ منـه شَـرَرْ
قـد رمـى الشَّمعُ فَـراشـي بـاللهبْ / وغـزتْ جـامـي الحُميَّا فـالتهبْ[٢]
صيَّـر الـرومـيُّ طينـي جـوهـرا / مـنْ غُبـاري شـاد كَـونـاً آخـرا
ذرةً تصعـدُ مـن صحـرائهـا / لتنـال الشَّمس فـي عليـائهـا
إنَّنـي فـي لُجِّـه مـوجٌ جـرى / لأصيـب الـدُّر فيـه نيِّـرا
قـد عـرتْنـي نشـوةٌ مـن كـأسـه / وحيـاةً نلـتُ مـن أنفـاسـه

***

ليلـةً رانـتْ علـى قلبـي الشُّجـون / وسرت « يا ربِّ » في الليل السُّكون[٣]

---

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعة من قبل للروم ، واستقرَّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرُّومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدَّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمَّن حكايات لها مغزىً صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسته عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

مـــنْ فــراغِ الكـــأس قلبــي نــائــحُ   مـن صـروفِ الـدَّهـر شـاكٍ صـائـحُ
أرهـــقَ التسيـــارُ فكـــري فثـــوى   هيـضَ سِقْطـاه وللنَّـوم هـوى[1]

* * *

لاحَ شيـــخُ الحـــقِّ ذاك الألمعـــيّ   مـن حكـى قـرآننـا بـالفهلـويِّ[2]
قـال : يـا ولهـان بيـن العـاشقيـن !   من شراب العِشْق فاجرع كلَّ حين
شُــقَّ فــي العيــن حِجـابَ البصـر   وأثِـرْ فـي القلـب هَـوْلَ المحشـرِ
واجعلــنَّ الضِّحْــك ينبــوع البكــاء   وامـلأ العيـنَ دمـوعـاً مـن دمـاءْ
أنـــت كـــالكِـــمِّ صمـــوتٌ أبكـــمُ   انشُـرنْ كـالـورد ريحـاً تَفْعـم[3]
صعِّدنْ من كلِّ عضوٍ ، كالجرس   نـوحـك الصـامـتَ فـي كـلِّ نفَس
أنـــت نـــارٌ فـــأضـــىء للعـــالَميـــن   بلهيـب منـك أذكِ الآخـريـن[4]
سِـرَّ شيـخ الحـان أعلِـنْ فـي هَيـاجْ   كن مُداماً واتخذ ثوبَ الزُّجاج[5]
وكـــنِ الفِهـــرَ لمـــرآةِ الفِكَـــر   واصدَعنْ جهراً وأعلنْ ما استتر[6]
حـدِّثـن كـالنَّـاي عـن غـابٍ نـأى   حـدثـنْ قيسـاً عـن الحيِّ انتـأى[7]
جـــدِّد النَّـــوح بلحـــنٍ محـــدَثِ   ومـن الآهـات فـي الحفـل انفـثِ

---

(١) السقطان : الجناحان .
(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي : الفارسي .
(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت الرائحة : ملأت الأنف .
(٤) أذكى النار : أشعلها .
(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجة ما فيها .
(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مرآة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما للعشق في قلبك .
(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كـلَّ حــيٍّ فيــه رُوحــاً أحْكــمِ ... وزِد الحــيَّ حيـاةً مــن « قُـم »[1]
وهلــمَّ اسلُــك طــريقــاً أُنُفـا ... وانـفِ عــنْ قلبـك مـا قـد سَلَفـا
جــرسَ الــرَّكْــب ! تنبَّــه لا تنـم ... واعـرف اللَّــذة فــي هــذا النَّغَـمْ

* * *

صِــرْتُ نــاراً فــي ثيـابــي تُسعَـر ... صِرْتُ كـالنَّـاي ، هَيـاجـاً أُضمِـر
ثُــرتُ مــن أوتــار نفســي نغمــا ... شِـدتُ مـن حســن بيـانـي إرمـا[2]
فــرفعــتُ الستْـر عــن سرِّ خــودي ... فبـدا الإعجـاز مـن أمـر خـودي[3]
كــان كــونـي صــورة لــم تكمـل ... كــان سِقطــاً مُهمــلاً فــي الهَمـل
مِبْــردُ العشــق بــرانــي رجــلاً ... كيـفَ هـذا الكـون والكـمَّ جَـلا[4]
فــرأت عينــاي نَبــض الأنجُــم ... وبعــرق البــذرِ دَوراتِ الــدَّم[5]
وبكيــتُ النَّــاسَ جنــحَ الظُّلَــم ... فبــدا ســرُّ حيــاة الأمــم
مَصنــعُ الكــون أرانــي مــا حــواه ... فتجلَّــى ســرُّ تقــويــم الحيــاه
أنــا ـ مـن فـي ظلمـة اللَّيـل أنـار ـ ... فـي طـريـق الملَّـة البيضـا غُبـار[6]
صـوتُهـا فـي الشـرق والغـرب عـلا ... لحنُهـا فــي القلــب نــاراً أشعَـلا
ذرَّةً ألقــت وشمســاً حصــدتْ ... ألــفَ رومــيٍّ وعطَّــارٍ جنـت[7]
آهتـي الحَـرَّى سمَـتْ فـوق العَنـانْ ... عِترتي النارُ ، وإن كنتُ الدُّخان[8]

---

(١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتي . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا والكون وكمّه حين سلط على مبرده فسوَّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدَّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) الملَّة البيضاء : الأمَّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمـي فـي مسـرح الفكـر عـلا فجـلا الأسـرارَ فـي السَّبْع العُلَى

* * *

مـا قصـدت الشعـر فـي هـذا النَّغَـم نحـتَ أصنـامٍ وتعظيـمَ صنـم[(١)]
أنـا هنـديٌّ شـآنـي الفـارسـيّ وهـلالٌ أنـا ذو جـام خلـيّ[(٢)]
لا تـؤمِّـل عنـدنـا حسـن البيـان لحـنَ خَنْسـارٍ بـه أو أصفهـان[(٣)]
ذاكـمُ الهنـديُّ يحكـي السَّكـرا لكـن الـدَّرِّيُّ أحلـى مخبَـرا[(٤)]
سحـرَ الفِكـرَ تجلِّيـه وراغ فـإذا لـي شجـرُ الطـورِ يـراع[(٥)]
قـد عـلا فكـري وهـذا الفـارسـيُّ لاءم الفطـرةَ فـي فكـري العلـيّ
أيُّهـا العـائـبُ كـأسَ الخنـدَريـس انظرنْ يا صاح ما تحوي الكؤوس[(٦)]

* * *

في بيان أنَّ نظام العالم من الذَّاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكـلُ الأكـوانِ مـن آثـارهـا كـلُّ مـا تُبصـر ، مـن أسـرارهـا
نفسَهـا قَـدْ أيقظـتْ حتـى انجلـى عـالـمُ الأفكـارِ مـا بيـن المـلا
ألـفُ كـونٍ مختـفٍ فـي ذاتهـا غيـرُهـا يَثْبُـتُ مـنْ إثبـاتهـا

---

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .

(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمَّ نوره .

(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .

(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .

(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .

(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، وينبغي أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلــت بَــزر خصــامٍ بــزرَهــا نفسَهــا تنظــرُ فيهــا غيــرَهــا
خلقــت أضــدادهــا مــنْ نفسهــا لتــرى لــذَّتَهــا فــي بــأسهــا
تبتلــي فــي نفسهــا قــوَّتَهــا لتــرى مــنْ نفسهــا قُــدْرتهــا
خُــدعٌ مــنْ وَهمهــا عيــنُ الحيــاهْ غُسْلُهــا فــي دمهــا عيــن الحيــاهْ[1]
تُخــربُ البستــان أجــلَ الــوردة تُكثــر النَّــوح لأجــلِ النغمــة
لفُليــكِ واحــدٍ ألــفُ هــلال ولحــرفٍ واحــدٍ ألــفُ مقــالْ
عــذرهــا فــي سَــرَفٍ أو قســوةِ أنَّهــا تبغــي جمــال الخلقــة[2]
حُســنُ شيــريــنَ لفَــرهــادَ مِحَــنْ ومــن المسـك رَدَى ظَبـيُ الختَـن[3]
فــي فَــراش حــرقــة كــالمشعَــل عــذرُه فــي شمعــه المشتعــلِ
ألــفَ يــوم سطَّــرتــه يــدُهــا ليُجلَّــى فــي سنــاه غــدُهــا
ألــفُ إبــراهيــم فــي النــار اغتــدى لســراجٍ يُــرتجــى مــن أحمــدا[4]

* * *

همُّهــا الأعمــال فهــيَ الفــاعــلُ وهــيَ العلَّــة وهْــيَ القــابــل
ثــورةٌ فيهــا وإجفــالٌ ، ونــور واحتــراقٌ واختفــاء وظهــور[5]

---

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ ، تهدَّم من أجنه آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسيِّ . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضمُّ بعضها إلى بعض فتكون جبالاً .

سعـــةُ الأيّـــام ميـــدانٌ لهـــا   والسمـــاء النَّقـــعُ يعلـــو سُبلَهـــا
يـذُهـا فـي الطِّيـن ، للكـونِ ازدهـارْ   نومُها الليلُ ، وفي الصَّحو النهار
قسَّمـــتْ شعلتهـــا فـــي شَـــرَر   فـــرأى الأجـــزاء عقـــلُ المُفْكِـــر
تخلـــق الأجـــزاء إمَّـــا تنفطـــر   تُنشـــىءُ الصَّحـــراء إمَّـــا تنتشـــر
ثـم صـارت بـانتشـارٍ فـي مـلال   فـاحـزألَّـت فبـدت شـمُّ الجبـال
شيمـةُ الـذَّاتِ التجلِّـي لا الخفـاء   وهـي فـي الـذرَّاتِ بـاسٌ وضيـاءْ
قـــوَّةٌ صـــامتـــةٌ حِلـــفُ عَمَـــلْ   عمـــلُ اليـــوم لآتيهـــا عِلـــل
قـــوَّة الـــذَّات مـــن الكـــون النـــواةْ   فعلـــى قـــدرِ القُـــوَى قـــدرُ الحيـــاه
كِلْمـــة الـــذَّات تعيهـــا قطـــرةُ   فـــإذا القطـــرة يـــومـــاً درَّةُ
خـــارتِ الخمـــرُ فـــلا شكـــلَ لهـــا   ومـــن الكـــأسِ استعـــارت شكلهـــا[١]
وسهـــا طـــودٌ عـــن النَّفـــس فحـــار   فغـــدا صحـــراءَ تغشـــاهـــا البحـــار[٢]

* * *

يُعقَـــد النُّـــور لخلـــقِ المقْلـــةِ   تخفـــقُ العَيْـــنُ بشـــوقِ الجَلـــوة
وإذا العشـــب نمـــاءَ أضمـــرا   شـــقَّ صَـــدْرَ المـــرج حتـــى يَظْهـــرا
يجمـــع الشَّمـــعُ بعـــزمٍ نفسَـــه   ومـــن الـــذَّرات يُعلـــي رأســـه
ويُـــذيـــب النَّفـــس إمّـــا غَفَـــلا   فتـــراه دمـــع عيـــنٍ همـــلا[٣]

* * *

شـــدَّتِ الأرضُ قُـــواهـــا فـــالقمـــر   فـــي طـــوافٍ حـــولهـــا لا مستقـــر
وكيـــانُ الشَّمـــس منهـــا أكبـــرُ   فلهـــا عيـــن ذُكـــاءٍ تسخَـــر

---

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت درَّة ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .
(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .
(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعـــلا الحــورُ فهـــالَ النَّـــاظـــرا وعـــلا الطـــودَ أبيَّـــاً قـــاهـــرا
وارتـــدى كســـوةَ نـــارٍ حـــاميـــه أصلـــهُ حبَّـــة نبـــت آبيـــه[1]
إنَّ ذاتـــاً جمعـــتْ أسْـــرَ الحيـــاه من غديرٍ أزخرت بحرَ الحياه[2]

* * *

في بيان أنَّ حياة الذَّات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّمـــا يُبقـــي الحيـــاة المقصـــدُ جَـرَسٌ فـي ركبهـا مـا تَقصـد[3]
سِـرُّ عيـشٍ فـي طِـلابِ مُضمَـر أصلُـــه فـــي أمـــلٍ مستتـــرُ
أُحـــيِ فـــي قلبـــكَ هـــذا الأمـــلا لا يَحُـــلْ طينُـــك قبـــراً مُهمَـــلا
يخفِـــقُ القلـــب بـــه بيـــن الصـــدوزْ هـــو فـــي صـــدرك مـــرآة تُنيـــر
يهـــبُ التـــربَ جَنـــاحـــاً يَصعَـــد ولمـوسى العقـلِ خَضْـراً يُرْشِـد[4]
إنمـــا يحيـــا الفـــؤادُ الآمـــلُ وإذا حـــيَّ يمـــوت البـــاطـــلُ
فـــإذا عـــيّ بتخليـــق المُنَـــى هِيـــضَ سِقطـــاه وأودَى وَهَنـــا
أمـــلُ الـــذاتِ لهيـــبٌ يَستعِـــرْ أو هـــو المـــوج الـــذي لا يستقِـــرْ
وهَـــقُ المقصـــودِ حَبْـــل الأمـــل إنَّـــه خَيْـــط كتـــابِ العمـــل[5]
وممـــاتُ الحـــيِّ فقـــدان الـــرجـــاءْ يُطْفـــىءُ الشعلـــةَ فِقـــدانُ الهـــواء

* * *

---

(١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذَّاتية شجر الجنَّار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرةٌ كأنها النَّار . وكل هذا لأن حبته قويةٌ محتفظةٌ بذاتها .

(٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زاخراً من غدير صغير .

(٣) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير .

(٤) هو من العقل كالخَضِر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .

(٥) الوهق : حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيـف فينـا أعيـنٌ قـد ظهـرت ؟ | لـذةُ الـرؤيـة فينـا صـوَّرت[1]
مـن مُنَـى التَّخطـارِ رجـلُ الحجَـل | مـن مُنَـى التغـريـد حَلـقُ البلبـل
حَـيَّ نـايٌ قـد نـأى عـن غـابـه | أطلـق النَّغمـة مـن أوصـابـه
ذلـكَ العقـل الَّـذي الكـون طَـوى | وتَـرى الإعجـاز فيـه والقُـوَى
إنَّمـا أصـل الحيـاة الأمـلُ | فكـذاك العقـلُ منـه يُنسَـل[2]

***

مـا نظـامٌ فـي شعـوبٍ ، وسُنـن ؟ | ما تَرى التجديدَ في علمٍ وفنّ ؟[3]
أمـلٌ مـن قـوة فيـه ظَهَـرْ | بَـرِحَ القلـبَ فغشَّتـه صُـوَر
كـلُّ مـا نملـكُ مـن هـذي الحواس | كـلُّ عضـوٍ فيـه للعيـشِ التمـاس
كـلُّ فكـرٍ وخيـالٍ واعتبـار | كـلُّ حـسٍّ وشعـورٍ وادِّكـارْ
هـي آلات الحيـاة الجـاهـدة | حيـن تَمضـي فـي وغـاهـا صـامـده
ليـس قَصْـد العِلـم والفـنِّ الفِكَـر | ليـس قَصْـد المـرج ألـوانَ الـزهَـر
إنَّمـا العلـم وِقـاءٌ للحيـاةْ | إنَّـه للـذَّات تقـويـمُ النجـاةْ
للحيـاة العلـمُ والفـنُّ خَـدَم | للحيـاة العلـمُ والفـنُّ حَشـم

***

جـاهـلاً سـرَّ الحيـاة ! اجتهـدِ | وامـضِ نشـوانَ بخمـر المقصـدِ
مقصـدٍ كـالصُّبـح فـي أنـواره | محـرِقٍ كـلَّ « سِـوى » فـي نـاره
مقصـدٍ يجتـاز آفـاق السَّمـاءْ | يـأخـذُ القلـب بحُسـنٍ وبهـاء

---

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبختر ، وحلق البلبل من أجل التغريد .
(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .
(٣) كلُّ نظامٍ في الناس وسنن وعلم وفن آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوَّرت صوراً شتى .

ثــــورةٌ فيــــه وفيــــه محشـــرُ   وعلــى البــاطــل حــربــاً يُسعِــر
نحـــنُ أحيــاءٌ بخلــق الأمــلِ   نحــنُ فــي نــورٍ بهــذي الشُّعــل

***

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعِشْق

نُقَـط النُّـور التـي تُـدعـىٰ الـذواتْ   شــرر فــي طيننــا للْحَيَــواتْ
مُشعَـلٌ بـالحـبِّ منهـا الجـوهـرُ   يتجلَّــى مــن قــواهــا المُضمَـرُ
قطـرةٌ بـالعشـق تُـوعِـي ضـرَمـا   وهـي بـالعشـق تُنيـر العـالَمـا[١]
لا يهاب العشقُ في السيف المَضاء   ليـس مـنْ مـاء وتـربٍ وهـواءْ
هـو فـي العـالـم صلـحٌ وخِصـامْ   للحيـاة المـاء مـن هـذا الحُسـام
نظـرةُ العِشْـق بهـا شَـقُّ الصُّخـور   هـو عشـقُ الحـقِّ ، والحـقَّ يَصيـر
فـابـغ فـي طينـك هـذي الكيميـاءْ   اقبِسـنْ مـن كـامـلٍ هـذا الضيـاء[٢]
امـض كـالـرومـيِّ شمعـاً يَشتعـل   وارم من تبريز في الروم الشُّعَل[٣]
إنَّ فــي قلبــك معشــوقــاً ثــوى   أقبِلَــن أنبئْــك عــن هــذا الجَـوى
عــاشقــوه قــد شَــأوْا كــلَّ جميـل   حبُّهــم فــي كــلِّ قلــبٍ لا يَحـولْ
عشقُــه فــي القلــب نــورٌ أسفــرا   للثُّــريــا يــرتقــي منــه الثَّـرى[٤]
تُــربُ نجـدٍ منـه قـد خـفَّ وضـاء   طـار وجـداً مُصعـداً نحـو السَّمـاء
مُهْجـةُ المسلـم مَثْـوى المصطفـى   عِــزَّةُ المسلـم ذكـرى المصطفـى
مـوجـةٌ مـن نَقْعـه الطـورُ الأشـمّ   داره ، للكعبــة العظمــى حَــرَمْ

---

(١) تزعي : تجمع وتدخر .
(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدىء .
(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ، والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .
(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضاق عن آنٍ حواه الأبدُ ... مستمدٌّ من مداه الأمد
آثرت سُحق حصيرٍ عِفّتهُ ... وعلتْ تيجانَ كسرى أمّتُه
خلواتٌ في حِراءٍ خَلَقا ... أمّةً مِنْها وحُكماً مُشرِقا
كم ليالٍ قد قضاها ساهدا ... فحبا الأمة مُلكاً خالدا
سيفه في الحرب قَطّاع الحديدْ ... عينُه في الذكر بالدّمع تجود
سيفه « آمين » تمحو الظالمين ... حين يدعو الحقُّ بالنّصر المُبين
سُنَناً في كوننا قد جدّدا ... ومن الماضين مُلكاً بدّدا
فتح الدُّنيا له مفتاحُ دينْ ... عقِمتْ عن مثلِه أمُّ السِّنين
استوى مولّى لديه وغلام ... هو والعبد سواءٌ في الطعام[1]

***

أسرتْ في غزوةٍ بنتُ الجواد ... مَنْ عَلا طيّاً بجدواه وسادْ[2]
رجلها في القيد والرأس حسيرْ ... مُطرقٌ في ذلّه الطرفُ الكسير
بُردةً ألقى عليها ساترا ... إذْ رأى وجهاً ورأساً حاسرا
نحن أعرى في الورى من أختِ طيّ ... ليس يكسونا لدى الأقوام شي
هو في الدنيا علينا ساترُ ... وهو في الحشر إلينا ناظر
لطفُه والقهر كلٌّ رحمةُ ... لصديقٍ وعدوٍّ رأفةُ
وبيومِ الفَتْح هذا الغافر ... قال : « لا تثريب » وهو القادر[3]
إننا من قَيد أوطان بَراءْ ... نحن من عينين نور لا مِراءْ[4]

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحـــن فـــي مغـــربنـــا والمشـــرقِ — كـالنَّـدى فـي وجـه صبـحٍ مُشـرقِ
أسكـرتْنـا عيـنُ سـاقٍ فـي البطـاح — كزجاجٍ نحن في الدنيا ، وراح[1]
قـد محـا الأنسـابَ طُـرّاً ذا العظيـم — نـارُه قـد أحـرقـت هـذا الهشيـمْ
نحـــن زَهـــرٌ وشَـــذانـــا ائتلفـــا — ضمَّنـــا منـــه نظـــامٌ أَلَّفـــا
نحـــن كنَّـــا سِـــرّه فـــي قلبـــه — فـــأذاعـــت صيحـــةُ الحـــقّ بـــه

* * *

عشقـه ثـارَ بعـودي الصَّـامـتِ — ألـفُ لحـنٍ فـي فـؤادي السَّـاكـت
مـا حـديثـي عـن ولاءِ واشتيـاقْ ؟ — قـد بكـى جـذعٌ مـواتٌ للفـراق[2]
صـــورتـــي قـــد أوضحـــتْ مـــرآتـــه — أنـــا صبـــحٌ أطلعـــتْ آيـــاتُـــه
ثـــورةُ الحشـــر بليلـــي النـــائـــمِ — وهـــدوئـــي فـــي اضطـــرابٍ دائـــم
إنَّنـــي البستـــانُ فـــي آذاره — فـي عـروقـي المـاء مـنْ أمطـاره[3]
قد غَرَسْتُ العين في حقلِ الوِداد — من سراحِ العَيْن لي هذا الحصاد[4]
قد شأى الدارَين من يثربَ طِيب — حبَّـذا دارٌ بهـا مثـوى الحبيـب !
أنـا للجـامـيُّ فـي الشعـر فـداءْ — نظمـه والنثـر مـن جهلـي دواء[5]
قـــال بيتـــاً بـــالمعـــانـــي يفهـــق — فيـه دُرٌّ مـنْ مـديـحٍ يبـرُقُ :
« هـو عنـوان كتـاب العـالَميـن — سيِّـد الكـونيـن ، مـولـى الثقليـن »

---

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .
فكـأنمـا خمـرٌ ولا قـدح — وكـأنمـا قـدحٌ ولا خمـر
(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكانٍ آخر .
(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .
(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .
(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كم يُريكَ العِشقُ من صهبائه فترى التقليدَ من أسمائه[1]

أحكِم العِشْقَ بتقليد الحبيبْ لتنال القربَ من ربٍّ مُجيب

في حِراء القلب فاقعدْ خاليا وإلى الحقِّ فهاجرْ راضيا

اقويَنْ بالحقِّ ثمَّ ارجع إلَيك واحطمنَّ اللاَّت والعزَّى لديك[2]

قوِّيَنْ بالعشق في سلطانه وابتغ الجلوة في فارانه[3]

تظفرنْ بالقربِ يا ذا السائلُ! وتكن تفسير « إني جاعل[4] »

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تضعفُ بالسُّؤال

أيها الجابي من الأسْد الخراجْ! صِرْتَ كالثَّعلب خِبّاً باحتياج

ذلك الإعوازُ أصلُ العِلل كلُّ آلامك منْ ذا المُعضِل

سالبُ الرِّفعة من فكرٍ رفيعْ مطفىء الشَّمع مِنَ الذِّهن البديع

من كنوز الدَّهر أخرجْ ما تريد وخذِ الصَّهباء من دَنِّ الوجود

وعن الرَّحل ترجَّل كعمر احذَرن من منَّة الناس، الحذَر[5]

صاح! حتَّامَ اجتداءُ المنصِب! فيم كالطفلِ ركوبُ القَصَب[6]

تجدِ الإفلاسَ بالسؤل أذلّ وترى السائلَ أخزى وأقلّ

---

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .

(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .

(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .

(٤) إشارةً إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .

(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيَّاها أحد .

(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فــرَّق الــذاتَ ســؤالٌ واجتــداءْ فبــدت سينــاؤهــا دون ضيــاء[١]
إنْ يكــنْ فــي الــرزق والجَـدِّ عَنـاءْ وطغــىٰ حــولــك سيــلٌ مــنْ بــلاء
لا تــرُم فــي الأرض رزقــاً بــالبُكــاء لا تــرجَّ المــاء مــن عيــنِ ذُكــاء[٢]
احــذر الخــزي أمــام المصطفــى يــوم يَخــزى كــلُّ ســاعٍ مــا وفَــى
مــن سمــاط الشَّمــسِ يقتــات القمــرْ فعليــه وَســمُ نُعمــاهــا ظهــر[٣]
جــاهــدِ الأيــام والله استعــنْ مــاء وجــه الملَّــة البيضــاء صُــنْ
علّــم النــاسَ الصــدوقُ الصــائــبُ أنْ « حبيــبُ الله ســاعٍ كــاســبُ »[٤]
ويــح مــنْ يحمــل ذلَّ النِّعمــةِ خــافــضَ الــرأس لثِقْــل المنَّــةِ
أرهــقَ النَّفْــسَ بــوقــر الــذلَّــة بنقيــرٍ بــاعَ تــاجَ العــزَّة
مــرحبــاً بــالظــامــىء الضحيــانِ لا يســأل الخَضْــر شــرابــاً فــي الفــلا[٥]
بســؤالِ النَّــاس لــم يُنــد الجبيــنْ ذاكــم الإنســانُ ، لا مــاءٌ وطيــن
تحت هذي الشمس يَمضي ذا الفتى عــالــيَ الــرأس كسَــرْوٍ قــد عتــا
زاد فــي العُســر مضــاءَ حــدُّهُ هــو يقظــانُ وغــافٍ جَــدُّه[٦]
كُــن حَبــابــاً مــن عطــاء ينفــرُ فــارغَ الكــأس ببحــرٍ يَــزخَــر[٧]

* * *

(١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .
(٢) لا تَسأل الماء ولو من عين الشمس .
(٣) السِّمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .
(٤) إشارة إلى الأثر : الكاسبُ حبيب الله .
(٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .
(٦) همته يقظانة وإن كان جده نائماً .
(٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخِّر قوى العالم الظاهرة والباطنة

أمـرُهـا فـي الكـون طـرّاً يَحْكُـمُ ... حينمـا الـذَّات بعشـقٍ تُحكـم[(١)]

يـدُهـا مـنْ قـوَّة الحـق أثـرْ ... فـإذا مـا أومـأت شُـقَّ القمـر

فـي خصـومـات الـورى أقـوى حَكَـمْ ... صـاغـرٌ فـي حكمهـا داراً وجـمْ[(٢)]

اسْمعَـنْ منِّـي حـديثـاً عـن ولـيّ ... اسمـه فـي الهنـد مشهـورٌ علـيّ[(٣)]

ذلـك الصِّـداح فـي المـرج القـديـم ... قصَّ أخباراً عن الورد الشميم :[(٤)]

سـالـكٌ سكـران مـن خمـرتـه ... قصـد الأسـواق فـي بغيتـه

وأتـى العـامـلُ فـي مـوكبـه ... معـه الحـرَّاسُ قـد حفَّـتْ بـه

صـاحَ للتطـريـقِ جنـديٌّ نكيـر ... أيهـا الأحمـقُ أفسـح لـلأميـر

ومضـى الـدَّرويـش فـي تسيـاره ... غـارقـاً فـي اللـجِّ مـن أفكـاره

فـأتـى ربُّ العصـا فـي شـرَّتـه ... ضـاربـاً رأس الفتـى فـي غفلتـه

فتنحَّـى عـن طـريـق العـامـل ... وهـو فـي ذعـرٍ وحـزنٍ قـاتـل

ومضـى يشكـو إلـى شيـخ الطـريـق ... دمعُـه مـن محبـس العيـن طليـق

---

(١) تحكم أي : تصير قويةً محكمة .

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصِّبْ مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقا فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آنس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس التقية المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زمجرَ الشَّيخ بقولٍ من ضَرَم ... مثلَ برقٍ في ذُرى الطَّود اضطرم
ثم أملى الشَّيخ سطراً من لَهبْ ... قال للكاتب في نار الغضبْ :
أمسكِ المِزْبَر واكتبْ ذا النذير ... أبلغ السُّلطان عن هذا الفقير :
« عاملٌ عندك غرٌّ قد عصى ... وعلا رأس غلامي بالعصا
اعزلِ العاملَ ، هذا الفاجرا ... أو أهَبْ مُلكك مَلْكاً آخرا »
عبدُ حقٍّ فيه لله احتساب ... أرعدَ السلطانَ منه ذا الكتاب
آدهُ غمٌّ وخوفٌ لا يحول ... فحكى في لونه شمسَ الأصيل
قيّد العاملَ بالقيدِ الثَّقيل ... واستغاث الشيخَ للصَّفح الجميل
ورأى خُسرو له خَيْرَ سفير ... ذلكَ الكوكبَ وضَّاء الضَّمير(١)
ساحرَ الألباب في ألحانه ... مستمدَّ الغيب في تِبيانه
ولها خسرو بأوتار الرَّباب ... فأهاج الشيخَ وجْداً وأذاب
فطرةٌ كالطَّوْد في عزّته ... خَشَعتْ لِلَّحْنِ في رقَّته
احذرنْ لا تجرحَنْ قلبَ فقير ... لا تزُجَّ النَّفس في نار السَّعير

* * *

قصة في معنى أن مسألة نفي الذَّات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قد سمعنا أنَّ في عصرٍ قديم ... جَمْعَ ضأنٍ كان في مَرعىً يُقيمْ
وفَرَتْ نسْلاً بذا المرعى الخصيب ... فارغاتِ البال من ليثٍ وذيبْ
ثمَّ ألْوَى بمُناهنَّ القدَر ... ورمَى بالسَّهم فيهنَّ الدَّهر
دهمتها الأسدُ من آجامها ... ناشراتِ الذُّعرِ في أيَّامها
آيةُ القوَّةِ حكمٌ قاهرُ ... سرُّها الظاهر فتحٌ ظافرُ

---

(١) أمير خسرو الدَّهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضــربَ الليــثُ طبـول النـوبــة   آخـــذاً آفـــاق هـــذي الثّلـــة[١]
وكســا المَــرعــى بصبــغٍ أحمــرا   ما سِوَى الفَرسِ لدى أسد الشّرى
وانبـــرى كبـــش ذكــيٌّ ذو عُمُــر   جـرَّب الأحـداث مـن حُلـوٍ ومُـرّ
غمَّــه مــا قــد يعــانــي سِــربُـه   مــن فِعــال الأسْـد يَـدمَـىٰ قلبُـه
أمـــرَه أحكـــمَ فـــي تــدبيـــره   وهـو يشكـو الـدَّهـر فـي تقـديـره
بــاحتيــال العقــل يحمــي نفســه   كـلُّ رِخـوٍ ليسَ يـرجـو بـأسـه
قــوة التـدبيــر فــي دفــع الضــرر   فـي زمـانِ الضَّعـف أقـوى وأمـرّ
فــإذا مــا ثــارَ للثــأر الجنــونْ   صـار عقـلُ العبـد خـلاَّق الفتـون
قــال : أمــرٌ حــار فيــه العــاقــلُ   بحـرُ عـمٌّ ليس فيـه سـاحِـلُ[٢]
كيـــف للضـــأن فـــالُ الأسَــدِ   ســاعـــدٌ رِخـــوٌ وفـــولاذُ يــدِ[٣]
ليــس وعـــظٌ مــنْ بليــغٍ قــادرا   أن يــردَّ الكبـش ذئبـاً كـاســرا
لكــــنِ الليــــثُ رآه حَمَـــــلا   إنْ سهـــا عـــن نفسِـــه أو غفَـــلا
فــادَّعــى فــي القــوم دَعــوى مُلهِــم   مـرسَـلٍ لـلأسـد شُـرَّابِ الـدم[٤]
قــال : كـلُّ القــوم « كـذَّابٌ أشـرْ »   غـافـلٌ عـن يـوم نحـسٍ مستمـرْ[٥]
جئــتُ للنَّـــاس بشــرعٍ مُحكَــم   إنَّنـــي النُّـــورُ لطَـــرْف مُظلِـــم
عجِّلــوا التــوبــة عــن كــل قبيــح   واتـركـوا الحـر إلـى الفعـل الـربيح
ويــح جَلْــدٍ أُحكمــت فيــه قُــواهْ   « نفـي ذاتِ » هُـو إحكـام الحيـاه[٦]

---

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .
(٢) قال الكبش . . إلخ .
(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .
(٤) فادَّعى في القوم . أي ادعى الكبش .
(٥) « كذاب أشر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .
(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

علَـفُ العُشـبِ بـه الـروح تطيـبْ ... عـائـفُ اللَّحـم إلـى الله قـريـبْ
حـدَّةُ الأسنـان عـارٌ مُبـرَم ... بَصَـرُ الإدراك منهـا يُظلـم
إنمـا القـوةُ خسـرانٌ مبيـنْ ... خُصَّـت الجنَّـةُ بـالمستضعفيـن
طلـبُ السُّلطـان شـرٌّ مستطيـرْ ... خيـرٌ الفـاقـة مـن عـزّ الأميـرْ
تـأمـنِ الحبَّـةُ بـرقـاً مُحـرِقـا ... وتـرى البيـدرَ منـه محـرَقـا[١]
ذرةً كُـنْ لا كثيبـاً أفيحـا ... لتنـال النُّـور مـن شمـسِ الضُّحـى
قُـلْ لمـن يُـزهَـى بـذبـحِ الغنـم ... اذبـح النَّفـس بحـقٍّ تغنَـمِ
يقطـع السُّبْـل علـى هـذي الحيـاه ... قـوةٌ فيهـا وسلطـانٌ وَجـاه
يـوطـأ العشـبُ فينمـو صُعُـدا ... يفتـح الأعيـنَ مـن بعـد الـرَّدى[٢]
أغفِلَـنْ نفسـكَ إمَّـا تعقـلِ ... إنَّمـا المجنـونُ مـنْ لـم يُغفِـل
اسـدُدنْ عينـاً وأُذنـاً وفمـا ... ليجـوز الفكـر أقطـارَ السَّمـا[٣]
هـذه الـدنيـا فنـاءٌ فـي فنـاء ... إنَّهـا وهـمٌ فمـا فيهـا رجـاء
كـانـتِ الأسْـدُ جهـاداً مَلَّـتِ ... نـازعـاتٍ نحـو عيـشِ الـدَّعـة
عن هوىً أصغتْ إلى النُّصح المُنيمْ ... فـدهـاهـا الكبـش بـالسِّحـر العظيـم
كـان فَـرس الضـأن مـن سُنَّتهـا ... فـاقتـدت بـالضـأن فـي شِـرْعتهـا
جـوهـرُ الآسـادِ أضحـى خـزَفـا ... حيـن صـار القـوتُ هـذا العلَفـا
ذهـب العُشـبُ بنـابٍ ذي أشَـر ... أطفـأ الأعيـنَ تـرمـي بـالشَّـرَر
ذلـكَ القلـبُ عـن الصَّـدر نـأى ... جـوهـر المـرآة فيهـا صَـدِئـا
فـذوى فـي القلـب شـوق العَمـلِ ... وهُيـامُ السَّعـي خَلْـف الأمـل
ذهـب الإقـدامُ والعـزمُ الأليـلْ ... والسَّنـا والعـزُّ والمجـدُ الأثيـلْ

---

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قرود واحدٌ يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُــرثــن الفــولاذِ فيهــا قــد وَهَــنْ ... واستكــان القلــب فــي قبــرِ البــدن
ونمــا الخــوفُ بنقــص المنَّــة ... قَطَــع الخــوفُ جــذور الهمَّــة
كــلُّ داءٍ فــي سقــوط الهمــم ... يجعــل الأحيــاء مثــل الــرِّمَــم
نــامــت الأســد بسحــر الغنــم ... سمَّــتِ العجــزَ ارتقــاءَ الأُمــم

* * *

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرتْ آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهــبُ المــاضيــن أفــلاطُ الحكيــم ... منْ فريق الضأن في الدَّهر القديم
طَـرفُـه فـي ظُلمـة المعقـول ضـلّ ... فـي حـزون الكَـوْن قـد أعيـا وكـلَّ
فكــرُه فــي غيــر محســوسٍ فُتِــن ... صــدَّ عــن كــفٍّ وعَيــن وأُذن[1]
قــال : فـي المـوت بـدا سرُّ الحيـاه ... فــي خمــود الشَّمــع يــزدادُ سنــاهْ
حُكْمُــه فــي فكــرنــا جــدُّ عظيــمْ ... يمحــق الــدُّنيــا لــه جــامٌ مُنيــم
هــو شــاةٌ فــي لبــاس الآدمــيّ ... وهـو فـي الصـوفـيّ ذو بـأس قـويّ
عــالــمَ الأشيــاء سمَّــاه الهــراء ... وعَلَــتْ أفكــارُهُ فــوق السَّمــاء
فعلُــه « تحليــلُ أجــزاءِ الحيــاه » ... وجفــاف النَّبــع مــنْ مــاءِ الحيــاه
زعــم الخســرانَ ربحــاً فكــرُهُ ... ودعــا الكــونَ فنــاءً سحــرُه
فكــرهُ يُغفــي ورؤيــا يخلُــقُ ... عينــه تُبصــر آلًا يَبــرُق[2]
حُــرمَ المسكيــنُ حــبَّ العمــلِ ... فقفــا معــدومَــه لا يــأتَلــي

---

(١) أعرض عن الحوّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب . الآل : السَّراب .

منكـراً فـي الكـون مـا لا يُفقـد   خـالقـاً فـي الكـون مـا لا يُشهَـد
عـالـمَ الإمكـان للحـيِّ وطـن   عـالـم الأعيـان للميْـتِ حَسَـن[1]
ظَبيـهُ مـن خفـة لا يَجفـلُ   غيـرُ خطّـارٍ لـديـه الحجَـلُ[2]
لـم يُـلألـىء عنـده قطـرُ النَّـدى   طيـرُه مـا فيـه صـوتٌ قـد شـدا
حبـةٌ فـي أرضـه تـأبـى النمـاءْ   وفـراشٌ عنـده يلقـى الضيـاء[3]
فـي وغـى العـالـم نكسٌ مُحجمُ   مُشفـقٌ راهبُنـا لا يُقـدم
قلبُـه يَعشـو لنـارٍ خـامـدةْ   صـوّرتْ عينـاه دنيـا هـاجـدةْ
طـار مـن عـشٌ إلـى الأوج العَلـيّ   ثم لم يرجع إلى العش الخليّ[4]
هُلـك أقـوام بهـذا الثَّمَـل   حُـرِمُـوا بـالنَّـوم ذوق العمـلِ

* * *

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حـرقـةُ الإنسـانِ مـن كـور الأمـلْ   نارُ هذا الطِّين من نورِ الأمل[5]
إنَّـه الخمـرة فـي كـأسِ الحيـاةْ   وبـه وقـدةُ أنفـاسِ الحيـاه
الحيـاة الحـقُّ تسخيـرُ الـدُّنـى   وإلـى التسخيـر تَـدعـوهـا المُنَـى
هـي للمقصـودِ فـي الـدُّنيـا سبيـل   وهـي للعِشْـقِ مـن الحسـن رسـول

(١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردٌّ على أفلاطون .
(٢) خلق أفلاطون عالماً لا يثب ظبيه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .
(٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .
(٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحسّ ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيُّل .
(٥) الكور : مجمرة الحداد .

أمــــلُ الإنســـــان أنَّـــى يظهـــر　　كيف يشجو الحيَّ هذا المزهرُ؟
كـــلُّ خيـــرٍ وبهيـــجٍ وجميـــل　　هـو فـي بيـدائنـا نعـم الـدَّليـلْ[1]
حُسنُـه فـي القلـب نـورٌ يَسْطَـعُ　　تجـــد الآمـــال منـــه تطلُـــع
خُلِـقَ الحســـنُ نضيـرَ الأمـــل　　وأدام الحســـنُ نـــورَ الأمـــل

* * *

مطلـعُ الحسـنِ ضميـرُ الشَّـاعـر　　طُـورُه صبـحُ الجمـالِ البـاهـر
زادتِ الحســنَ جمـالًا نظـرتُـهْ　　زادتِ الفطـــرةَ حبّـــاً صنعتُـــه
غـــرَّد البلبـــلُ مـــنْ تلحينـــه　　ضـاءَ خـدُّ الـوَرْدِ مـن تلـوينـه
نـــاره كـــلَّ فَـــراش كـــاويـــةْ　　قِصـــصُ العشَّـــاق منـــه زاهيـــةْ
مُضمَّـــرٌ فـــي خَلفـــه بحـــرٌ وبـــرّ　　ألْـف كـونٍ محـدَثٍ فيـه استتـر
كـم شقيـقٍ فـي الحشـا لـم يطلُـعِ　　وغنـــاهُ وبُكَـــى لـــم يُسمَـــع[2]
فكـــره للبـــدر والنجـــم نجـــيّ　　يُبـدع الحسـنَ ، وفـي القبـح عيـيّ
خَضِـرٌ فـي ليلـه مـاءُ الحيـاةْ　　تُـزهـرُ الأكـوانُ مـنْ مـاءِ بُكـاه[3]
نحـــن أغـــرارٌ بطـــاءُ الأرجُـــل　　ضـلَّ سـارينـا طـريـقَ المنـزل
لطُفـــتْ فـــي سَيـــرنـــا حيلتُـــه　　وَعَلـــتْ فـــي ركبنـــا نغمتُـــه
يحفـز الـرَّكـب لفـردوسِ الحيـاه　　ويُتـمُّ الـدَّور فـي قـوس الحيـاه[4]
فمضـى الـركبـانُ إثـر الجـرَس　　وشـدا الحـادي بصـوتٍ مـؤنِـس
وســـرَت فـــي زَهـــرنـــا نفحتُـــه　　مـــذ ســـرت فـــي روضنـــا نسمتُـــهُ
نفـــسٌ منـــه حيـــاةٌ تُـــزهـــرُ　　حُـــرَّةٌ لـــوَّامـــةٌ لا تصبـــرُ

---

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلةُ العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .
(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعونه .
(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .
(٤) يكمل دائرة الحياة .

يــأدِبُ النــاس جميعــاً للقِــرى   نــارُه كــالـرِّيـح تسـري فـي الـورى

***

ويــلُ قــومٍ لهــلاكٍ طــائــرُه   صــدَّ عــن ورد حيــاةٍ شــاعــرُهْ
كــلُّ حُسْــنٍ شــاهَ فــي مــرآتــه   فـي الجسـوم السُّمُّ من جَرعـاتـه
تُــذبــلُ الأزهــارَ منــه القُبَــل   ويُعــاف الشَّــدوَ منهــا البلبــلُ
تهِــن الأعصــابُ مــنْ أفيــونــه   ويمــوتُ الحــيُّ مــن تلحينــه
يسلــب السَّــروَ جميــلَ المَيَــل   ويــردُّ الصقــر مثــلَ الحَجَــل(١)
هــو حُــوتٌ نصفــه كــالآدمــيِّ   كبنــات البحــر تقتــاد الغــويّ(٢)
يُسحــر الــربَّــان منهــا بــاللحــون   ولقــاع البحــر تهــوي بــالسَّفيــن
يسلــب القلــب ثبــاتــاً لحنُــه   ويُــري المــوت حيــاةً فنُّــه
يُلبــس النَّفــع لبــاسَ الضَّــرر   ويُــري الحســنَ قبيــحَ الصُّــور
فــي بحــار الفكــر يُلقيــك فــلا   تشتهيــه أو تطيــقُ العمــلا(٣)
شِعــره فينــا يــزيــد الكلــلا   كــأسُــه فينــا تــزيــد المَلَــلا
سَيــلَ بــرقٍ مــا حَــوىٰ نيســانُــه   آل لَــونٍ وشــذًا بستــانــه(٤)
فنُّــه بــالحــقِّ لا يعتــرف   بحــرُه مــا فيــه إلا الصَّــدَفُ
نــوَّمــتْ ألحــانُــه يقظَتنــا   أطفــأت أنفــاسُــه شعلتنــا
بلبــلٌ سُــمُّ قلــوبٍ نغَمُــه   ضِغْــثُ وردٍ فيــه ينــوي أرقمــه
خمــره الــلألاءَةَ اتــرك واحــذرِ   كــأسَــه والطــاسَ والــدَّنَّ اهجــرِ

---

(١) السَّرو : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .
(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .
(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .
(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سرابٌ من اللون والرائحة .

يـــا صـــريعـــاً خمـــرَهُ يَغْتَبِـــقُ | لـكَ صبـحٌ مـنْ سنـاهـا مشْـرِقُ
يـا بَـرودَ القلـب مـن ألحـانـه | قـد شـربـت السُّمَّ مـن تبيـانـه
يـــا دليـــلاً للـــرَّدى أفكـــارُهُ | عُطِّلَـــتْ مـــنْ نغـــمٍ أوتـــارُه
أنـــت للـــذُّلِّ أرحـــتَ البـدنـا | أنـت لـلإسـلام عـارٌ فـي الـدُّنَـى
مـــنْ نسيـمٍ مَـرَّ يَـدمَـى خَـدُّكـا | بعـــروق الـورد يُلـوى قـدُّكـا
أخـزتِ العِشـقَ دُجَـى صيحـاتُكـا | غـضَّ مـن صـورتـه بهـزادُكـا[1]
شـاحـبَ الـوجـه بـدا مِـنْ ضُـرِّكـا | بـردتْ نيـرانُـه مِـنْ قُـرِّكـا
عـــاجـــزُ الهمَّـــة مِـــنْ ذِلَّتكـــا | وعليـــلُ الـــرُّوح مـــن عِلَّتكـــا
أدمـــعُ الأطفـــال فـــي كـــاســـاتـــه | كنـــزه مـــا اعتَـــدَّ مـــن آهـــاتـــه
آه مِـــنْ وغـــدٍ ذليـــلٍ يـــائـــس | هـالـكٍ مـن رَكَـلات الحـارس[2]
صـــار كـالنـاي هـزيـلاً نـائحـا | شـاكـيَ الأقـدار جهـلاً صـائحـا
ليـــس إلا الحقـــدُ فـــي جـوهــرهِ | ليـــس إلا العجـــزُ فـــي مخبـــره
يـــائـــسٌ فَـــسلٌ حليـــف الخيْبـــة | شِقْـــوَةٌ فـــي خِسَّـــةٍ فـــي ذلَّـــة[3]
نَـــوحُـــه روحُـــك منـــه فـــي سَقـــامْ | قـــد حمَـــى جيـــرانَـــه طيـــبَ المنـــامْ
ويـــحَ عشـــقٍ قـــد ذكـــا فـــي الحـــرَمِ | نـــارُه بـــاخـــت ببيـــت الصَّنـــمِ !

***

صيـرفـيَّ القـول ! إن تبـغ النَّجـاهْ | فـاجعلـنْ معيـارَه نـارَ الحيـاه
نيِّـــرُ الفِكْـــرِ يقـــود العمـــلا | مثـلَ بـرقٍ قـادَ رعـداً جلجـلا

---

(١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوَّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .
(٢) يستجدي أو يحاول السَّرقة فيركله الحارس .
(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مـنْ بفكـرٍ صـالـحٍ فـي الأدب ؟ ارجعَـنْ يـا صـاحِ شطـر العـرب[1]
وسُلَيْمـى العُـرب يـا صـاحِ اعشقـا لتـرى صبـحَ الحجـازِ ائتلقـا
فـي ريـاض العجـم قطَّفـتَ الـزهَـرْ فـي ربيـع الهنـد سـرَّحـت البصـر
مـن حَـرور البيـدِ فـاشـربْ يـا رفيـقْ واشـربـنْ مـن تمرهـا الـراحَ العتيـقْ
أسْلِمَـنْ رأسـكَ يـومـاً صـدرَهـا وأَلْقِيَـنْ فـي حـرِّهـا صـرصَـرهـا
قـد لبسـت الخـزَّ طـول الـزمـنِ فـألـفِ الكِـرْبـاس يـومـاً واخشُـنِ
كم وطئتَ الورد في طول المدى غـاسـلاً ، كـالـورد ، خـدّاً بـالنَّـدى
فعلـى رمـلِ الصَّحـارى المُضـرَمِ أقـدِمَـنْ يـومـاً وغُـصْ فـي زَمـزمِ
فيـم هـذا النـوحُ مثـلَ البلبـلِ ؟ وإلامَ العُـشُّ بيـن الظُّلَـلِ ؟
قـد عـلا جـدُّ الهُمـا مـن صيـدكـا اجعلـن فـي الطـود مثوى عُشِّكـا[2]
ابـن عُشّـاً حيـث لا تَـرْقـى الأنـوقْ تختفـي فيـه رعـودٌ وبـروقْ[3]
لتُـرى أهـلاً لأعصـار الحيـاةْ وتُـذيـبَ النَّفـسَ فـي نـار الحيـاةْ

* * *

(١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدُّهم شيء ، ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .

(٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع عشك فوق الجبل .

(٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذَّاتية ثلاث مراحل :
الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى
الطَّاعة

ألفَـــةُ الكـــدِّ شعـــارُ الجمـــلِ ... شيمـــةُ الصَّبـــر وَقـــارُ الجمـــلِ
صـامـتَ الأخفـافِ يمشـي مـاضيـا ... زَورقـاً فـي البيـدِ يَسـري هـاديـا
نقشـت وجـهَ الصحـارى أرجُلُـهْ ... شـاردَ النَّـوم قليـلاً أكْلُـهْ
ثمِـلاً يختـالُ تحـتَ المحمَـل ... راقصـاً يُقـدمُ شطـر المنـزلِ
فـي المَـدى مـن راكبيـه أصبـرُ ... هـائـمٌ بـالسيـر عُجبـاً يَخطِـر

* * *

فـاحمـلِ الفَـرضَ قـويـاً لا تهـابْ ... وارجونْ منْ عنده حُسْنُ المآب[1]
اجهـدَنْ فـي طـاعـةٍ يـا ذا الخسـارْ ... فَمِـنَ الجبـر سيبـدو الاختيـار[2]
بـامتثـال الأمـر يعلـو مـنْ رسـبْ ... وهَـوى الطَّـاغـي ولـو كـانَ اللَّهـب
سخَّـــر الأفـــلاكَ فـــي همَّتـــهِ ... مـن ثـوى فـي القَيـد مـن شـرْعتِـه
قـد سـرى النَّجـمُ يـؤمُّ المنـزلا ... طـوعَ قـانـون لـه قـد ذُلِّـلا
ونمـا العشـب بقـانـون النَّمـاءْ ... فـإذا مـا حـاد يُجفَـى بـالعـراءْ
ولهيـبٌ دائـمٌ ديـنُ الشَّقيـقْ ... دمُه منْ ذاك يسري في العروق[3]
يـربـط الـذَّراتِ قـانـونُ الـوصـالْ ... فهـي بحـرٌ وهـي بـرٌّ بـاتصـال

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .
(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .
(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحتراق .

كـلُّ شـيءٍ فيـه قـانـونٌ سـرى   كيف في هذي المعاني يُمترى ؟[1]
ارجعـنْ يـا حُـرَّ دُستـورٍ قـديـمْ   زَيّنـنْ رِجْلَـكَ بـالقيـد الـوسيـمْ
شـدّةً فـي شـرعنـا لا تشكـوَنْ   وحـدودَ المصطفـى لا تعـدُونْ[2]

* * *

المرحلة الثانية
ضبطُ النّفس

جَمـلٌ نفسُـك تـربـو بـالعلَـف   فـي إبـاءٍ وعنـادٍ وصلَـفْ
فكُـنِ الحـرَّ وقُـدْهـا بـزمـامْ   تبلُغـنْ مـن ضبطهـا أعلـى مَقـامْ
كـلُّ مـن فـي نفسـه لا يحكـمُ   هـو فـي حُكـم سـواه مُـرغَـمُ
إنَّمـا صـوِّرت مـن طيـن لَـزبْ   سيط في أمْشاجه خوفٌ وحبّ :
خيفـةُ الـدُّنيـا وخـوفُ الآخـره   خـوفُ مَـوتٍ ورزايـا فـاقـره
حـبُّ جـاهٍ وثـراءٍ وبلـدْ   حُـبُّ زوجٍ وقـريـبٍ وولـدْ
مـن مـزاج الطِّيـنِ والمـاء البـدن   مَـركـبُ الأهـواء ، مَغلـوبُ الفِتـن
مـنْ يَمسِّـك بعصـاً مـن « لا إلـه »   فلتحطَّـم طِلْسـم الخـوف يـداه[3]
كـلُّ مـن بـالحـقِّ أحيـا نَفْسَـهُ   لا تـرى البـاطـلَ يُحنـي رأسَـهُ
ليـسَ يـدنـو الخـوفُ منـه أبـدا   ليـس ، غيـرَ الله ، يخشـى أحـدا

---

(١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالًا مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .

(٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه . ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ، ففي هذا القيد حريتك لا عبوديتك .

(٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثيرٍ من شعره . قوله : إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل السحر .

كـلٌّ مـنْ مـوطنُـه إقليـم « لا » ... مـنْ قيـودِ الـزَّوج والـولـد خـلا[1]
مُعـرضٌ عمـا سـوى الله الأحـدْ ... يضـعُ السكِّيـن فـي حلـق الـولَـدْ[2]
واحـدٌ مـن نفسـه فـي عسكـرِ ... يبـذلُ الـرُّوحَ بيـومِ الخطَـرِ

* * *

درَّةُ التـوحيـد ، فـاحفظهـا الصـلاة ... حَجُّك الأصغر ، فاعرفها الصلاة
فـي يـد المسلـم هـذا الخنجـرُ ... يُقْتَـل الفحـشُ بـه والمنكـرُ
يفتـك الصـومُ بجـوعٍ وصـدَى ... ضـابطـاً بـالقسـط هـذا الجسـدا
وينيـرُ الحـجُّ قلـبَ المـؤمـنِ ... هجـرةُ الأهـل بـه والـوطـنِ
إنَّمـا الطـاعـة أسُّ الأمـة ... إنهـا خيـطُ كتـاب الملَّـة[3]
بـالـزكـاة العـابـدُ المـالِ ادَّكـرْ ... علَّمـت حـبَّ المسـاواة البشـرْ
تُكثـرُ المـالَ ، وشُحّـاً تمحـقُ ... « لـن تنـالـوا البـرَّ حتـى تنفقـوا »
تلـك أسبـابٌ بهـا تَستحكِـمُ ... إنْ يكـنْ فـي القلـب ديـنٌ مُحكـم
اقـوَ يـا مـؤمـنُ بـالله القـويّ ... تحكُمَـن فـي ذلـك البَكـر الأبـيّ[4]

* * *

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إنْ خَطمتَ الصَّعبَ قُدْتَ العالما ... نـافـذَ الأمـرِ عليـه حَكَمـا[5]

---

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .
(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .
(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .
(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .
(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرضِ ما دارَ الفلك   فترى المُلك الذي يخلُد لك
نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدْ   حكمُه في الكون خُلْدٌ لا يبيدْ
هو بالجزءِ وبالكلِّ خبير   وبأمر الله في الأرض أمير
في فسيح الأرض يمضي طاويا   وعزمُه ، هذا البساط الباليا[1]
ينجلي منْ فكره مثلَ الزَّهر   غيرَ هذا الكون أكوانٌ أخر[2]
يُنضج الفكرة فينا بالضَّرَمْ   يُخرج الأصنام من بيت الحرمْ
رنَّ عودُ القَلْبِ من مضرابه   يَقظٌ في الحق نومانُ به[3]
باعثٌ في الشَّيب ألحان الشبابْ   ناشرٌ في الكون ألوان الشَّباب
هو في الناس بشيرٌ ونذيرْ   وهو جُنديٌّ وراعٍ وأميرْ
مقصدٌ من « علَّم الأسما » هُوَه   سرُّ « سبحان الذي أسرى » هُوَه[4]
مُحضرٌ منْ تحته طِرفُ الزَّمانْ   حينما يُمسِكُ منه بالعنان[5]
يبعث الأرواحَ منه قولُ « قُمْ »   وهي إلى أبدانِها مثلُ الرِّمم[6]
ذاتَه تتبَعُ ذاتُ العالَم   سطوةٌ فيه نجاة العالَم
يبعث الميتَ بإعجازِ العملْ   قِيَمُ الأعمالِ منه في بدَل[7]
سيرُه يخضرُّ في بيدائه   كم كليمٍ هام في سينائه !
جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرٍ جديدْ   عبَّر الرؤيا بتعبيرٍ جديد
كونُه المكنونُ أسرارُ الحياهْ   نغمةٌ يُضمرُ مزمارُ الحياهْ

---

(١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .
(٢) يخلق من فكره أكواناً أخرى ، لا يقيده ما هو واقع .
(٣) المضراب : أداة تضرب بها أوتار العود .
(٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسما » و« أسرى » .
(٥) يعدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .
(٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .
(٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شـــاعـــرُ الفِطـــرةِ غنَّـــى طبعَـــه   ليقيـــم الـــوزنَ إذْ أبـــدَعـــه
نقعنـــا ثـــار إلـــى أوجِ السَّمـــاء   فبـدا الفـارسُ مـن هـذا الهبـاء[١]

* * *

فـــي رمـــاد اليـــوم منَّـــا تـــرقُـــدُ   شُعلـةٌ يـرمـي بهـا الكـونَ الغـدُ
روضـــةٌ تُضمـــرهـــا أكمـــامُنـــا   ضـاءَ مـن صبـح غـدٍ أبصـارُنـا[٢]
أنـــتِ يـا فـارسَ طِـرف الـزَّمـنِ !   أنـــت يـــا نـــوراً لعيـــن الممكـــنِ
مـــوكـــبَ الإنشـــاء هيَّـــا زيِّـــنِ   وتمكـــنْ فـــي ســـواد الأعْيُـــن
قُـــمْ فسكِّـــن مـــن ضَجيـــج الأمـــمِ   وامـــلأ الآذان زهـــرَ النَّغَـــم
جـدِّدَنْ فـي النـاس قـانـون الإخـاء   وأدِرهـــا كـــأسَ حـــبٍّ وصفـــاءْ
أبلـــغ النـــاس رســـالاتِ السَّـــلامْ   وأعـــدْ فـــي الأرض أيـــام الـــوئـــام
مـــنْ بنـــي الإنســـان أنـــت الأمـــلُ   أنـــت مـــنْ ركـــب الحيـــاة المنـــزلُ
أذبَلَـــتْ كـــفُّ الخـــريـــف الشجـــرا   فـــاغـــدُ فـــي الـــروض ربيعـــاً نضِـــرا
نحـــن مـــن فيضـــك نسمـــو للقُلَـــلْ   في جهاد الكون نمضي كالشُّعل[٣]

* * *[٤]

---

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سينفتح عن روضة ، وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يـا أخـا الـوردة كـن صنـوَ الحجـرْ ... وكـن السـورَ لبستـان الـزَّهـر[1]
آدميَّـاً صـوِّرن مـن تُـربكـا ... ثـم شيِّـد عـالَمـاً بـدعـاً لكـا
أنـت إن كنـت تـرابـاً هيِّنـا ... فليضـع غيـرُك منـك اللبنـا
أيهـا الصَّـارخ مـن جَـور الـدَّهـر ... يـا زُجـاجـاً يشتكـي جـورَ الحجـرْ
فيـمَ هـذا النوح ؟ مـاذا المـأتـمُ ؟ ... وإلام الصَّـدرَ حُـزنـاً تَلـدِم ؟
مضمرٌ فـي السعي مضمونُ الحياةْ ... لـذَّة التخليـق قـانـون الحيـاةْ
قُـمْ فشيِّـد عـالمـاً دون مثيـل ... وخُـضِ النـار وأقـدِمْ كـالخليـل
إنمـا السَّيـرُ علـى حُكـم الـزَّمـانْ ... هو رَمْيُ التُّرس في وقت الطِّعانْ
إنَّمـا الحـرُّ الشجـاع الفطِـنُ ... مـن قفـا الآثـارَ منه الـزَّمـنُ
وإذا الـدُّنيـا عَتـتْ عـن أمـره ... حـاربَ الـدَّهـر ، ولـم يعبـأ بـه
يهـدم المـوجـودَ فيمـا آثـرَا ... يمنـح الـذرَّاتِ شكـلاً آخـرَا[2]
يصـرفُ الأيـامَ عـن كـرَّاتهـا ... يمنـع الأفـلاك مـن دوراتهـا[3]
خـالقـاً مـن قـوةٍ فـي قلبـه ... ذلـك العصـرَ الـذي يـرضـى بـه
فـإذا أعـوز عيـشُ الـرَّجُـلِ ... فـالحيـاةُ المـوتُ مـوتَ البطـل
حبـذا عشـقٌ بغَـى الأمـر الجليـلْ ... وجنـى فـي النَّـار ورداً كـالخليـل
تتجلَّـى فـي مِـراس المُعْضـلِ ... قـوة كـامنـةٌ فـي البطـل
عُـدّة الأنـذال حقـدٌ لا سـواه ... استمع : صاح ، ذا شرع الحياه :
الحيـاةُ الحـقُّ بـأسٌ يظهـرُ ... حُـب الاستيـلاء فيـه مضمـرُ
ربَّ عفـوٍ كـان مـن آفـاتهـا ... يكسـرُ المـوزونَ مـن أبيـاتِهـا
يحسَـب العجـزَ قُنـوعـاً خـانـعُ ... لصـروف الـدهـر ذلٌّ طـائـعُ

---

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابةً ، وكن سوراً يحمي الأزهار .
(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يسخّر عالم الطبيعة في مراده .
(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قــاطــعٌ سُبــلَ الحيــاة الخَــوَرُ قَلْبُــه خَــوفــاً وكِــذْبــاً يُضْمــرُ
قَلْبُـــهُ مـــنْ كـــلِّ خيـــرٍ فـــارِغُ ليثــه فـــي كـــلِّ خبـــثٍ والـــغُ
فـــي كميـــنٍ راصـــدٌ هـــذا اللئيـــمْ فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ
احـــذرنْ يـــا صـــاحِ مـــنْ تـــزيينـــه إنَّـــه الحِـــربـــاء فـــي تلـــوينـــه[1]
إنَّـــه يخفـــى علـــى أهـــل النظـــر لَبَـــسَ الحـــقّ عليهـــم واستتـــر
فـــي ثيـــاب الليـــن حينـــاً يظهـــرُ وهـــو حينـــاً فـــي اتضـــاعٍ يُستَـــر
وهـــو طَـــوراً فـــي ثيـــابِ المُجبَـــرِ وهـــو طـــوراً فـــي حجـــابِ القَـــدَر
وهـــو حينـــاً فـــي لبـــاس التَّـــرف يُلبِـــسُ الصِّحـــةَ ثـــوبَ الـــدَّنَـــف
مـــا ســـوى القـــوةِ للصِّـــدق دَعَـــمْ اعـرفـنْ نفسك ، هـذا جامُ جم[2]
هـــي مـــن حقـــل الحيـــاة الحـــاصـــل فُسِّـــر الحـــقُّ بهـــا والبـــاطـــلُ
مـــدَّعـــاه فـــي غنـــىً عـــن حجـــة إنْ تحـــدَّى المـــدَّعـــي بـــالقـــوة
تجعـــل البـــاطـــل حقَّـــاً مـــاثـــلاً وَهَـــنُ الحـــقّ يُحـــقُّ البـــاطـــلا
سطـــوة القـــوَّة تُحلـــي مـــا أمـــرّ إنْ تقـــل للخيـــر شـــرٌّ فهـــو شـــرّ[3]
أيُّهـــا الغـــافـــلُ عمَّـــا حُمِّـــلا أنـــت فـــي الكـــونيـــن أعلـــى منـــزلا
افتحـــنْ عينـــاً وأُذنـــاً وفمـــا تُبْصـــرِ الحـــقَّ طـــريقـــاً مُعلَمـــا

* * *

---

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .
(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .
(٣) ينبغي أن يذكر القارىء أنَّ إقبالًا يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتًى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري[1] شاكياً بغي أعدائه

مُجتبى هُجويرَ مقصودُ الأَمَمْ　　من رأى الجِشتيّ مثواه الحرم[2]
قطع الأطوادَ واجتازَ السُّدود　　باذراً في أرضنا بذر السُّجود
زمن الفاروق منهُ يُشرقُ　　وبه للحقّ يعلو منطقُ
حارسُ العزَّة منْ أمِّ الكتاب　　معقلُ الباطل منه في تَباب
حيَّت البنجابُ من أنفاسه　　صُبْحُنا نوَّر من نبراسه
ذا رسولُ العشقِ ، وهو العاشق　　فيهِ سرُّ العِشق بادٍ بارقُ

* * *

قصةٌ أسرِدُها في أسْطرِ　　طاوياً في الكِمِّ روضَ الزَّهَر :
قد أتى لاهورَ منْ مروَ فتى　　قدُّه كالسَّروِ عالٍ قد عتا
جاء عند السَّيد العالي الجنابْ　　كاشفاً منْ نوره عنه الضَّبابْ
قال : إني في عُداةٍ لؤمُوا　　كزجاجٍ بصخورٍ يُصدَم
علِّمني أيُّها الشيخ الكبيرْ　　كيف عيشي بين أعداءٍ كثير
فأجاب الشيخ ، من فيه الجمال　　قد تجلّى في إطارٍ من جلال :

---

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدِّين الجشتيّ أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثيرٌ من الهنادك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشتيّ قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافلُ عن سرِّ الحياهْ ... لا يَميزُ الخيرَ من شرِّ الحياهْ
حرِّرَنْ نفسَك من يأسٍ وغمّ ... أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنمْ
إن رأى النَّفس زجاجاً حجرُ ... فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسر
وإذا خارت قواه السائرُ ... قطع السُّبْلَ عليه الفاجرُ
كم ترى نفسك طيناً قد حُقِر ... شعلةَ الطُّور من الطِّين أثِر
فيمَ شكواكَ الرفيقَ النافعا ... فيمَ شكواكَ العدوَّ الخادعا
كم عدوٌّ لك ، في الحق صديقْ ... أنت بالأعداء ذو غُصنٍ وريق
قوة الأعداءِ فضلاً يَعلمُ ... من مَقامَ « الذَّات » حقّاً يَفهم
يوقظُ الخَصْمُ قِواك الهاجدهْ ... مثلَ ما تحيي المواتَ الراعدهْ[1]
قوةُ العزم تذيب الحجرا ... لا يبالي السيلُ صخراً إنْ جرى
تشحذُ العزمَ عِقابُ السُّبُل ... امتحانُ العزم بُعدُ المنزلِ[2]
ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحْكَمِ ؟ ... ما غَناءُ العيش مثلَ النَّعَم ؟
زلزلِ العالمَ وافعل ما ترى ... إن حَبَتْك الذَّاتُ عزماً مُسْعَرا
اهجرنَّ الذَّات إن تبغ الفناءْ ... واعمُرنَّ الذات إن شئت البقاءْ
ما الرَّدى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنْ ... أتراه بُعدَ روحٍ وبدن ؟[3]
يا أخا يوسف في الذَّات أقمْ ... ومنَ السِّجن إلى المُلك استقِم[4]
أحْكمنَّ الذات وانهض عاملا ... ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملا
هاكَ سرّاً في حديثٍ مؤنسٍ ... افتح الكِمَّ بحَرِّ النفَس[5]
« حبذا سرّ حبيب يُضْمَرُ ... في حديثٍ عن سواه يؤثر[6] »

---

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .
(٢) العقاب : جمع عقبة .
(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروحُ البدن .
(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .
(٥) أبدي السر في قصة قصيرةٍ ككم الزهرة .
(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهده العطش

طـائـرٌ مِـنْ ظمـأٍ قـد جهـدا ... كـدخـانٍ نفَسـاً قـد صعَـدا
قَـدْ رَأى ألمـاسـةً مثـلَ النَّـدى ... صـاغهـا مـاءً لعينيـه الصَّـدى
خَـدَعتـه شـذرةٌ مثـلُ الشَّـرر ... فـرأى الجـاهـل مـاءً فـي الصَّخَـر
لـم يجـدْ ريّـاً بضَـرْبِ المِنقَـر ... لـم يُصـب مـاءً بنقـر الجـوهـر
قـالـتِ الشَّـذرة : جُنِّبـتَ الهُـدى ... تضـرب المنقـار فـي جسمـي سُـدى
لسـتُ مـاءً . لا تـرانـي سـاقيـه ... مـا أنـا مـن أجـل غيـري بـاقيـه
جـاهـلٌ يقصـد هضمـي مـا اهتـدى ... لحيـاةٍ نـورُهـا منهـا بـدا
كـلُّ منقـارٍ بمـائـي ينكسـرْ ... وتـرى الإنسـان منـه ينبهـر
مـا رأى الطـائـرُ فيهـا أربـا ... فتـولّـى عـن سنـاهـا لغَبـا
حسـرةٌ فـي صـدره تتَّقـدُ ... زفـراتٍ لحنُـه يصَّعَّـد

***

وأضـاءت مثـلَ دَمْـعِ البلبـلِ ... قطـرةٌ فـي غُصْـنِ وردٍ خَضِـل
لضيـاء الشمـس فيهـا مِنَّـةٌ ... ولخـوف الشمـس فيهـا رعـدة(١)
كـوكـبٌ يـرعَـد مِـنْ نَسْـلِ السَّمـاءْ ... شـاقـه الجلـوة فـي هـذا الفضـاء(٢)
غـرَّه الأكمـام والـزَّهـر الخصيـبْ ... لـم يـزوَّد مـن حيـاةٍ بنصيـب(٣)
قطـرةٌ مـنْ دَمْـعِ صـبٍّ تبهَـر ... زانـتِ الهُـدْبَ وكـادت تقطِـر

---

(١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفَّ في أشعة الشمس .

(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .

(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضـى الطـائـر فيهـا راغبـا ... بـلْ بـالقطـرة حَلقـاً لاهبـا
أيُّهـا البـاغـي عـدوّاً تقهـرُ ! ... قطرةٌ أنت ، تُرى ، أم جوهـر ؟
حينمـا الطـائـر أضنـاه صـداه ... حـيَّ نفسـاً بحيـاةٍ مـنْ سِـواه
كـانـت الشَّـذرةُ عضبـاً يُـرهَـب ... لـم تكـنْ قطـرةَ طـلٍّ يُشـربُ
قـوةَ الـذَّات احفظنهـا أبـدا ... وكـنِ الألمـاس لا قطـر النـدى
أنضـج القطـرة كـالطَّـود تُـرى ... حـامـلاً غيمـاً مُفيضـاً أنهـرا
أثبـتِ الـذَّات وفيهـا حَقِّـق ... فِضـةً كـن بـالتئـام الـزِّئبـق[1]
ومـنَ الـذَّات أَبـنْ أسـرارهـا ... حـرِّكَـنْ عـن لحنهـا أوتـارهـا

***

قصة الألماس والفحم

قصـةٌ أخـرى بهـا أُدلـي إليـك ... يفتـح الحـقُّ بهـا بـابـاً عليـك :
قـال لـلألمـاس فحـمُ المعـدِن : ... يـا حليـفَ النُّـور طـول الـزَّمـن !
نحـن صنـوان نَمـانـا والـدُ ... أصلُنـا فـي الكـون أصـلٌ واحـدُ
وعلـى التيجـان أنـت الـزينـةُ ... وأنـا فـي التُّـرب حظِّـي الـذلَّـة
لـك حسـنٌ فـي المـرايـا يسطـعُ ... وأنـا مِـنْ كـفٍّ تـرب أضيَـع
مـن ظـلامـي قـد أضـاء المجمـرُ ... ورمـاداً آض فـيَّ الجـوهـر
مَـوطـىءَ الأقـدام بيـن البشَـرِ ... قـد رمـوا فـي مهجتـي بـالشَّـرَر
إنَّ حـالـي ببكـاء لَحَـرى ... هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
إنَّنـي مـوج دُخـانٍ يُعقَـد ... كـلُّ مـا فـيَّ شـرارٌ يَصعـدُ
ومـن الأنجـم فيـكَ الـرَّونـقُ ... كـلُّ جنـبٍ فيـك نـورٌ يُشـرق

---

(١) كن في صلابة الفضَّة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تـــارةً نـــورٌ بعينَـــيْ قيصـــرا تـــارةً فـــصٌّ يـــزيـــن الخِنجـــرا

* * *

قـال : فـاسمـع يـا رفيقـي وافهمـا ينضـج التـربُ فيغـدو خـاتَمـا
شـنَّ فيمـا حـولـه حـربـاً ومـرّ وغـدا بـالحـرب صلبـاً كـالحجـر
هيكلـي مِـنْ نضجـه قـد نـوَّرا وبصـدري كـم شعـاعٍ أسفـرا
أنـت مِـنْ ضَعـفٍ وكيـان تنفَـق وبليـنِ فـي قـوام تُخْـرَق
اهجُـرنْ خـوفـاً وغمّـاً لا تهُـن وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُن
مـن أجـاد السعـي والأخـذ معـا فهـو فـي الـدَّاريـن بـدرٌ طلعـا
وبحِجْـر الكعبـةِ انظـر حجـرا كـانَ مـنْ قبـلُ تـرابـاً حُقِـرا
جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم
قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاة والـونَى والـذلُّ مِنْ ضعفِ الحياه

* * *

قصَّة الشيخ والبرهمي ، ومحاورة نهر الجنج وجبل همالا في معنى دوام حياة الأمة بالتمسُّك بسنتها

بـرهمـيٌّ فـي بنـاريـسَ علـمْ غـائـصٌ فـي فكـر كـونٍ وعـدَم[1]
بـرجـالِ الله يحفَـى فِعلُـه ومـن الحكمـة وافِرٍ كِفلُـه
عقلُـه فـوق الثـريَّـا قـد عـلا ذهنـه مـاضٍ يحُـلُّ المشكـلا
فكـره العنقـاءُ إمـا حلَّقـا شعلـةٌ منهـا السِّمـاك احتـرقـا
كـأسُـه دهـراً خَلَـتْ مـنْ خمـرةٍ قـد حمـاهُ الـراحَ سـاقـي الحكمـة
فـي ريـاض العلـم ألْمَـى شبَكـا طـائـرَ المعنـى بـه مـا أدركـا

---

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فكـرَه أذمَـى ولكـنْ لـم تـزلْ عُقـد الأكـوانِ فيـه دون حـلّ
أعـربَـتْ عـن يـأسـه آهـاتُـه وحكـت حَيـرتَـه نظْـراتُـه
سـار يـومـاً نحـو شيـخٍ كـامـلِ رُبَّ صَـدْرٍ بفـؤادٍ آهِـلِ
لقـيَ الشَّيـخ بنفـس راجيـه تحسـنُ الصَّمـت ، وأذنٍ واعيـه :
فـأهـاب الشيـخ : يـا خِـدنَ السمـا اهبطـنَّ الأرضَ وارعَ الـذِّمَمـا
ضقـتَ فـي الأرض مجـالًا فعـلا فكـرُك المقـدام فـي أوج العُلَـى
طـاويَ الأفـلاك ! فـي الأرض قُـمِ لا تطِـرْ تطلـب سـرَّ الأنجُـم
لا أقـولُ اهجـرْ غـداً أصنـامكـا كـافـرٌ أنـت فخـذْ زُنّـاركـا
يـا أمينـاً لتـراث الأوّليـنْ ! لا تـدعْ نهـجَ الجـدود الأقـدَمين
بـاجتمـاعِ الشَّمـل تحيـا الأمَّـة وكـذاك الكُفـر فيـه وَحـدة
لـم يكمَّـلِ فيـك حتـى كفـرُكـا ليـس أهـلاً لفـؤاد صـدرُكـا
إنَّ إبـراهيـم فينـا هُجِـرا وبَعُـدتُـمْ أنتـمُ عـن آزرا[1]
قيسُنـا مـا هـام خلـف المحمَـل فـي جنـونِ العِشْـق لمَّـا يكمُـلِ
إنَّ شمـع الـذات فينـا لانطفـاءْ كيـف يُجـدينـا طـوافٌ فـي السماءْ

***

جـاش نهـر الجنـج يـومـاً جـائـلا فـي سفـوح مـن هِمـالا قـائـلا :
حـامـلاً مـن بَـردٍ أوقـارَه ! عـاقـداً مـن أبهـرِ زُنّـاره ![2]

---

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكماله فيه ما دام برهمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إنَّ الموحدين لا يسيرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاورة : أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يودي بها .

صـاغـك الحـقُّ نجيَّـاً للسَّمـاء وحمى رجلَك سيراً في العراء
قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما ؟
إنما العيش مسيرٌ وُصلا وحياةُ الموج في أن يجفِلا
غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهَرِ فرمت أنفاسُه بالشررِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا كم حوى صدري بخاراً مثلَكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ مَنْ يزُل عنْ نفسه يوماً هلكْ
بمقَامٍ لكَ هلاَّ تأبَه ! أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ !
يا وليد الفَلك المرتفعِ ! صِرْتَ دونَ السَّاحل المتَّضِعِ
قد وهبتَ النَّفس بحراً غاصبا وأبحت الرُّوح لصاً سالبا
كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[1]
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ
في دهورٍ لم تُزحَزحْ أرجُلي أتُراني زائلاً عن منزلي ؟
وإلى الأفلاك قدِّي يصعد فعلى سفحي الثُّريا ترقد
أنت تَفنى في خِضَمٍّ خِضرِمِ وقلالي مسجدٌ للأنجمِ
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ وبسمعي طيرانُ المَلكِ
وبنارِ الجدِّ طولَ الدَّهَرِ قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخر ليس للماء إلى ناري ممرّ[2] »
قطرةً إن كنت فاحفظ نفسكا جاهد الأمواج واجنُب يأسكا
وابتغِ النُّور وكنْ درّاً يُضيء ثم كن قُرطاً على وجهٍ وضيء
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا يُشعل البرق ويهمي أبحرا[3]

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .
(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .
(٣) إنْ كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ يجتدي منك البحر ماءه .

يبســـط البحــرُ لجــدواك يــدا شــاكيــاً مـنْ فـاقـةٍ يـرجـو النَّـدى
فهـو فـي فيضـك دون المـوجـة وهـو فـي جـدواكَ بـادي الـذِّلَّـة

* * *

في بيان أنَّ حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض »
فهو حرامٌ في شريعة الإسلام

صبغــةَ الله أنِــزْ فــي قلبكـــا والهـوى والصِّيـتَ دَعْ فـي حبِّكـا
إنَّمـا المسلـم بـالحـبِّ قهـر مسلـمٌ لا حـبَّ فيـه قـد كفـر
غـضَّ بـالحـقِّ ، وبـالحـق نظَـر ولـه فـي الحـقِّ نـومٌ وسَهَـر
فـي رضـاه لـرضـا الحـقِّ فنـاء كيف يرضى النَّاس هذا الادِّعاء ؟[1]
فـي رُبـى التَّـوحيـد أرسـى العَمـدا وعلـى النـاس جميعـاً شهـدا
وعليـه يشهـدُ الـدَّاعـي الأميـن شـاهـدٌ أصـدقُ كـلِّ الشَّـاهـديـن
فـدعِ القـال إلـى الحـال الجلـي وأضـيءْ بـالحـقِّ ليـلَ العمـلِ
وكـن الـدرويـش فـي زيِّ الأميـرْ ذاكـراً لله يقظـانَ الضَّميـر
واقصِـدَنَّ الحـقَّ فـي كـل الفِعـالْ يسطَعَـنْ فيـك مـن الحـقِّ جـلالْ
خيـرُ الحـرب إذا رمـتَ الإلـه شـرٌّ السِّلـمُ إذا رُمـتَ سـواه
نحـن إن لـم يُعـلِ حقّـاً سيفُنـا اكتسـى فـي الحـرب عـاراً صفُّنـا

* * *

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضاه رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانميرُ) الوليّ مــنْ سَنــاهُ كــلُّ سِـــرٍّ ينجلــي[١]
كـان ثَبْتـاً فـي طـريـق المصطفـى مِــزْهَــر العِشْــقِ بحــقٍّ عَــزَفـا
قبــرُه الإيمـــان فـــي أوطــاننــا مشعــلُ النُّــور علــى بلــداننــا
سجــدَ النَّجــمُ علــى أعتــابــه كــان مَلْــكُ الهنــد مــن طُــلاّبــه
غــرس المَلْــكُ هــواه فــي الفــؤاد طــالبـاً فــي حــرصــه فتــح البــلاد
بــالهــوَى أضــرَم نــاراً قلبَــهُ مُقرئاً « هل من مزيد » عَضبَه[٢]
دوّخــت أجنـــاده كـــلَّ وطـــنْ وتــوالــى الفتــحُ فــي أرض الــدَّكَــن
دَيــدن المسلــم للحــقِّ التجــاء يُحكــم التــدبيــرَ منــه بــالــدُّعــاء
قصـــدَ الشيـــخَ العلـــيَّ القَــدْرِ راجيــــاً منـــــه دعـــاءَ الظَّفـــر
صمـــتَ الشيـــخُ لقـــول المـــالـــك وصغَـــى كـــلُّ مـــريـــدٍ ســـالـــك
قطـــع الصَّمـــتَ مـــريـــدٌ أقـــدمـــا أمسكـــت إحـــدى يـــديـــه درهمـــا
قال : مولايَ ! اقبل النذرَ الحقيرْ أنـــتَ للمسكيـــن بـــالحـــقِّ نصيـــرْ
عَــرَقــي مــن كــلِّ عضــو قــد همــى قبـــل أن تمســـك كفـــي الـــدِّرهمـــا
قـــال : سلطـــانـــي بـــه أولـــى يـــدا ســـائـــلٌ فـــي حلـــة المُلـــك بـــدا[٣]

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرا. شاده لزوجه ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيدٍ جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني . . إلخ .

مَلْكنـــا أفقـــر مـــن كـــلِّ البشـــرْ وعلـــى الشمـــس تـــولَّـــى والقمـــر
جـوعُـه بـالنَّـار يُصلـي العـالمين عينــه فــوق سمــاط الآخَــريــن
سيفُـه بـالقَحْـط والمـوت رمـى نفسَــه يَبنــي ويُــردي عــالَمـا
ضجـت الأقـوامُ مـن فقـر لـديهْ شقـي المسكيـنُ مـن جـوع يـديه
حُكْمُـه فـي النَّـاس شـرٌّ وأشَـر قطَـعَ الطُّـرْقَ علـى رَكْـب البشَـرْ
بخـداعِ النَّفـس والجهـل دعـا نهبَـه فتحـاً . وبئـس المـدَّعَـى
عسكـرُ الملـك ومـا قـد أسـروا بسيـوف الجـوع منـه شَـذَرُ
غصَّـةُ السـائـل جـوع السـائـل وخَـرابُ المُلـك جـوعُ الـدائـل
مـنْ لغيـر الله سـلَّ المُغْمَـدا سيفَـه فـي صَـدْرِهِ قـد أغمَـدا

***

نصيحة مير نجاة النقشبندي المعروف ببباي صحرائي
(الأب الصَّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

أنـتَ كـالـوردِ مِـنَ الأرض بـدا مـنْ ضمير الـذَّات نِلـتَ المولـدا
لا تَعَـدَّ الـذَّاتَ واخلُـد أبـدا قطرةً كُنْ واشرب البحر صدى[1]
إنَّمـا الـرِّبـحُ بهـذي الثـروةِ والغِنـى فـي حفـظِ هـذي السلْعـةِ
أنـتَ مـوجـودٌ وفـي خـوف العَـدَمْ يـا أسيـرَ الـوهـم أخطـأتَ الفَهَـم
عنـديَ الخُبْـر بـأوتـارِ الحيـاهْ سـأُنبِّيـكَ بـأسـرارِ الحيـاهْ :
غـوصـةٌ فـي النفس غـوصَ الـدرَّةِ وظهـورٌ بعـد هـذي الخلـوة
هـي جمـعٌ مـنْ رمـادٍ شـرَرا واشتعـالٌ بَعـدُ يُعشـي البصـرا
هـي حـولَ الـذَّات طـوفٌ فـاعلَـمِ واجعلَـنْ نَفْسَـكَ بيـتَ الحـرَم
حَلِّقَنْ في اللَّوح عن جذب التراب منْ هُوِيٍّ لا تخف ، مثل العقاب

---

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمئها . الصدى : الظمأ .

أنتَ إنْ لم تكُ طيراً ويحكا		فعن الغار فابعد عُشَّكا[1]
أيها الجاهد في كسب العلومْ		عن إمام الرُّوم خذ نصحَ الحكيم
« إنَّما العلمُ لدى الجسم شقاء		وهو في القلب دواءٌ وشفاء »[2]
قصَّةُ الرومي تقضي بالعجب :		كان فَيضاً من علوم في حلَبْ
وعلى رجليهِ للعقلِ قيود		في ظلام العقل بالفُلك يَرُود
هو موسى دون طورٍ يُشرق		ما درى ما العشقُ أو منْ يعشقُ
وعن الإشراق والشكِّ حكى		ومن الحكمة درّاً سلكا[3]
وعن المَشَّاء[4] حلَّ العقدا		كلُّ خافٍ من سناه قد بدا
وحواليَه صِوانُ الكتُبِ		وعلى فيه بيانُ الكتُب

* * *

أمَّ يوماً مكتبَ المُلا جلالْ		شيخُ تبريز بأمرٍ من كمال[5]
قال : ماذا القالُ والقيلُ وما		منْ قياسٍ ودليلٍ أوْهَما
صرخَ الروميُّ : مهلاً يا جهول!		لا تهوِّنْ منْ مقالاتِ العقول
اخرُجنْ منْ مكتبي يا أبلهُ !		قالَنا والقيلَ أنَّى تفقه ؟
قالُنا أرفعُ ممَّا تعقل		سُرُج الإدراكِ منه تُشعَل
نارُ شمسِ الدين زادت حُرَقا		فرمى منْ روحهِ ما أحرقا
فاستطارَ البرقُ منْ نظْرتِهِ		وتلظَّى التُّربُ من شُعلتِهِ

---

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عششت عليه . يعني إن لم تكن ذا همةٍ تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمه في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فــإذا الأدراكُ مــنْ نــارِ القلــوب محــرقٌ والكتْــبُ منهــا فــي لهيـبْ
جهـل الـرومـيُّ عشقـاً أُضـرِمـا مــا درت أوتــارُه ذا النَّغمــا
قــالَ : هــذي النــارُ مــا قصَّتُهــا ؟ أحــرقــت أسفــارَنــا وقــدتُهــا
قـال شمسُ الـديـن يـا ذا المسلـمُ ! ذوقَنــا والحــالَ أنَّــى تعلَــم ؟
حــالُنــا أرفــعُ ممــا تُفكِــرُ ولظــانــا الكيميــاءُ الأحمــر[١]

* * *

تجمــع الحكمــةَ زاداً بَــردا فسحــاب الفكــر يهمــي بَــردا[٢]
مِــنْ هشيــمٍ فيــك أذكِ اللهبــا مِــنْ تــرابٍ فيــك أطلِــع شُهُبــا
مــنْ لهيــبِ القلــبِ عِلــمُ الكــامــل مقصــدُ الإســلامِ تــرك الآفــل[٣]
صــدَّ إبــراهيــمُ عمَّــا يــأفُــلُ فحــوتــه كــالجِنــان الشُّعَــل[٤]
قــد نَبَــذتَ الــدِّيــن ظِهــريّــاً ومــا تبتغــي بــالــدِّيــن إلا الــدِّرهمــا
أيُّهــا الســاعــي لكُحْــل المُقَــل غــافــلاً عمَّــا بــه مــن كَحَــل[٥]
مــن فــم التِّنيــنِ فــابــغِ الكــوثــرا واسْــألــنْ مــاءَ الحيــاةِ الخنجــرا[٦]
حجــرَ الكعبــة مــن بيــت الــوثَــنْ التمس والمسكَ في الكلب اطلبن
طفِّــىء العشــقَ بعلــم الحــاضــرِ لا تــؤمِّــلْ كــأسَ هــذا الكــافــر

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .
(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .
(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .
(٤) إشارةٌ إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .
(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشفار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .
(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كلِّ ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعيُ في كل بعيدْ — وعرفتُ السِّرَّ في العلم الجديدْ
وحباني سرَّ هذي الجنَّة — قيِّمُ البستان بعد الخِبْرة
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ — يعبد الوُثْنَ وفيها يَتْجر
من حدود الحسِّ لا ينطلقُ — وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
زلقت رجلاه في سُبْلِ الحياة — وضعتْ في حلقهِ السَّيفَ يداهْ
كشقيقٍ فيه نارٌ هامدةْ — شعلةٌ كالطَّلِّ فيه بارده[1]
منْ لهيبِ العِشق تخلو فِطرتُهْ — في طلابِ الحقِّ تبدو خيبتُه
عِلَلُ العقل لها العشقُ دواءْ — مبضعُ العِشْق لدى العقل شفاءْ
سَجدَ العالمُ للعشقِ الجليل — هو محمودٌ لأصنامِ العقول[2]
جامُه منْ نَشْوةِ الرَّاحِ خلا — ليله عن وَجْد « يا ربِّ » سلا[3]

***

سَزْوكَ الباسقُ قد أغفلْته — كلُّ سَزْوٍ غيرَهُ أكبرتَه[4]
أنت كالنَّاي خلِّي من جواكْ — بلُحون الناس أعليت صداكْ
تبتغي نفسَك في سوقِ سِواكْ — وسماطَ النَّاس تجدوهُ يداكْ
مِنْ سراجِ النَّاس نادينا استعر — أحرقَ المسجدَ مِنْ ديرٍ شرز
ظَبْيُنا خاف سوادَ الكعبةِ — فرماهُ صائدٌ في الثُّغرة[5]

---

(١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كأسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الـــوردةِ كـــالعَـــرفِ انتشَـــرْ　　جـافِـلاً مـن نفسـه! عُـذ للمقَـرّ[١]

يَـا أميــنَ الســرِّ مِــنْ أمِّ الكتــابْ　　هـل إلـى وحـدة مـاضينـا إيـاب ؟

نحـــن حُـــرَّاسُ حصـــونِ الأمَّـــةِ　　كُفــرنـــا تـــركُ شعـــارِ الملَّـــةِ

أكـــؤسُ السَّـــاقـــي أراهـــا كِسَـــرا　　حَفْـلُ نُـدْمـان الحجـازِ انتشـرا

تعمـــرُ الكعبـــةُ مِـــن أصنـــامِنـــا　　يضحـكُ الكُفْـرُ على إسـلامنـا[٢]

شيخُنـــا بـــاع الـــدُّمَـــى مِلَّتَـــهُ　　جـــاعـــلاً زُنّـــاره سُبْحتَـــهُ[٣]

شيَّـــخَ الشَّيْـــخَ بيـــاضُ الشَّعَـــر　　وهـــو لـــلأطفـــال مثـــلُ السُّخَـــر[٤]

قلبـــهُ بيـــتٌ لأصنـــامِ هـــواهْ　　فهـو صِفْـرٌ مقفـرٌ مـن « لا إلـه »[٥]

يَلبس الخِـرْقَـةَ مـنْ يُـرخي الشعَـر　　آهِ ! للتَّـــاجــر بـــالـــدِّيـــن اتَّجَـــر

بمـــريـــديـــه أدام السَّفَـــرا　　فـــي هُـــدَى أمَّتـــه مـــا فكَّـــرا

أعْيُـــنٌ عُمْـــيٌ حكـــاهـــا النَّـــرجِـــسُ　　وصُـــدورٌ مـــن قلـــوب تُفلِـــسُ

عبَّـــد الأشيـــاخَ فينـــا المنصِـــبُ　　حُـــرمـــةُ الأمَّـــة منهـــم تَـــذْهَـــبُ

واعـــظٌ عينـــاه شطـــرَ الـــوَثـــنِ　　وفتـــاوَى تُشتَـــرى بـــالثَّمـــن

وجهَـــه للحـــان ولَّـــى شيخُنـــا　　« يـا رفـاقـي بعـدُ مـا تـدبيـرنـا »[٦]

***

---

(١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسننه . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق فنيت .

(٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .

(٣) الدُّمى : جمع دمية ، يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .

(٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً بابيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسيرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .

(٥) « لا إله » اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .

(٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :

شب أز مسجد سوى ميخانه آمد بيرما　　چيست ياران طريقت بعد أزين تدبيرما

الوقت سيف[1]

نضَّــــر اللهُ تـــرابَ الشَّـــافعـــيّ ... سَحَـــرَ الألبـــاب هـــذا الألمعـــيّ
فِكْـــرُهُ قـــد صـــاد نجمـــاً لامعـــا ... حيـــن سمَّـــى الـــوقـــت سيفـــاً قـــاطعـــا
فـــاتَ خـــوفـــاً ورجـــاءً صـــاحبُـــه ... كفُّـــه كـــفُّ كليـــمٍ ، ضـــاربُـــه
تُغـــدق الصَّخـــرةُ مـــنْ ضـــربتـــه ... ويَغيـــض البحـــرُ مـــن صـــوْلتـــه
كـــانَ هـــذا السَّيـــفُ فـــي كـــفِّ الكَليـــمْ ... فشـــأ التَّـــدْبيـــرَ بـــالعـــزمِ الصَّميـــم
شـــقَّ صـــدرَ البحـــر لمـــعُ القبَـــس ... صيَّـــر القلـــزُم مثـــل اليَبَـــس
وبهـــذا السَّيـــفِ يـــومَ الخطَـــر ... زَلْـــزَلَـــتْ خيبـــرَ كـــفُّ الحيـــدر[2]

***

ممكـــنٌ إبصـــارُ دورِ الفلَـــك ... وتـــوالـــي نُـــوره والحلَـــكِ
يـــا أُسيـــرَ اليـــوم والأمـــس انظـــرا[3] ... انظـــرنْ فـــي القلـــب كَـــونـــاً سُتِـــرا
أنـــتَ فـــي النفـــس بـــذرتَ البـــاطـــلا ... وحسبـــتَ الـــوقْـــتَ خطّـــاً طـــائـــلا
وذرعـــتَ الـــوقـــت طـــولاً ، للشَّقـــاءْ ... بـــذراعٍ مـــنْ صَبـــاح ومســـاءْ
وجعلـــتَ الخيـــطَ زُنَّـــاراً لكـــا ... صِـــرتَ لـــلأصنـــام نـــدّاً ويلكـــا !
صِـــرْتَ يـــا إكسيـــرُ تُـــربـــاً ســـافـــلا ... يـــا وليـــدَ الحـــقِّ صِـــرْتَ البـــاطـــلا
اقطـــع الـــزنَّـــار حـــرّاً لا تَهُـــنْ ... شمعـــةً فـــي محفِـــل الأحـــرار كُـــنْ
إيـــه يـــا غـــافـــلُ عـــن أصـــل الـــزَّمـــانْ ... كيـــف تـــدري مـــا خلـــودُ الحيـــوان[4]
يـــا أسيـــر الصُّبـــح والمُســـى اعقِلَـــنْ ... « لي مع الله » بها الوقت اعرفَنْ[5]

---

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .

(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .

(٤) الحيوان : الحياة .

(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد=

كــلُّ مـــا يظهــرُ ، مـــنْ تِسيـــاره　　والحيـــاةُ الســرُّ مـــنْ أســـراره[1]

مـــا مِـــنَ الشَّمـــس أراه يـــوجَـــد　　إنَّهـــا تفنـــىٰ وهـــذا يخلُـــد

وبـــه الشَّمـــسُ أضـــاءت والقمـــر　　وبـــه فـــي العيـــشِ مـــا ســـاء وســـرّ

قد بسطْتَ الوقت بسطاً كالمكان　　وفَـرَقْـتَ اليـومَ مـن أمـسِ الـزَّمـانْ

يـــا شـــذاً قـــد فـــرَّ مـــنْ بستـــانـــه　　وحبيـــسَ السِّجـــنْ مـــنْ بنيـــانـــه[2]

وقتُنـــا بيـــن الحنـــايـــا ســـافـــرُ　　ليـــسَ فيـــه أوَّلٌ أو آخِـــر

الحيـــاةُ الـــدَّهـــر يـــا مَـــنْ عـــرفـــا　　« لا تسبوا الدَّهر » قول المصطفى

* * *

نكتـــةً كـــالـــدُّرِّ خـــذهـــا رائقـــة　　بيـــن حـــرٍّ ورقيـــقٍ فـــارقـــة :

حيـــرةُ العبـــد مسيـــرُ الـــزَّمـــنِ　　حيـــرةُ الأزمـــانِ قلـــبُ المـــؤمـــن

ينســـج العبـــدُ عليـــه كفَنـــا　　مـــن صبـــاحٍ ومســـاءٍ مُـــذْعِنـــا

وتـــرى الحـــرَّ مـــن الطيـــن نجـــا　　نفســـه حـــول الليـــالـــي نسجـــا

قفـــصُ العبـــدِ صبـــاحٌ ومســـاءْ　　يُحـــرَم التحليـــقَ فـــي جـــوٍّ السمـــاءْ

وبصَـــدْرِ الحـــرِّ ثـــار النفَـــسُ　　طـــائـــر الأيـــام فيـــهِ يُحبَـــس

فطـــرة العبـــد حُصـــولُ الحـــاصـــلِ　　ليـــس فـــي تفكيـــره مِـــن طـــائـــلِ

فـــي مقـــامٍ مـــنْ همـــودٍ راكـــدُ　　نَـــوْحُـــه ليـــلاً وصبحـــاً واحـــدُ

ومـــن الحـــرِّ جـــديـــدُ الخلقـــة　　كـــلَّ حيـــنٍ ، وحـــديـــثُ النَّغمـــة

قيَّـــد العبـــدَ صبـــاح ومســـاء　　وثـــوى فـــي فمـــه لفـــظُ القضـــاءْ[3]

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته يد تسير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحـــرَّ مُشيـــراً للقَـــدَرْ صـوَّرت كفَّـاه أحـداثَ الـدَّهَـر[١]
عنـده المـاضـي التقـى والقـابـل عـاجـلٌ بيـن يـديـهِ الآجـل[٢]

* * *

ضـاقَ عـن معنـايَ حـرفٌ وصـدَى عجـزَ الإدراكُ فـي هـذا المـدى
قلـتُ ، واللفـظُ مـن المعنـى خَجِـلْ وشكـا المعنـى مـنَ اللَّفـظ المَجِـلْ
مـات معنـىً فـي حـروف يُحبَـس نـارُه يُخمـدُ منـك النفَـسُ
سـرُّ غيـبٍ وحضـورٍ فـي القلـوبْ رمـزُ وقـتٍ ومـرورٍ فـي القلـوبْ[٣]
إنَّ للـوقـتِ لَلَحنـاً صـامتـا ولـه فـي القلـب سـرّاً خـافتـا[٤]
أيـنَ أيـامٌ بهـا سيـفُ الـدهَـر صـرَّفتْـه فـي أيـادينـا القَـدَر ![٥]
قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب وجلـونـا الحـقَّ مـن ستـر الغيـوبْ
ومِـنَ الـدُّنيـا حلَلنـا العُقَـدا واستنـار التُّـربُ منّـا سُجَّـدا
مِـنْ دنـانِ الحـقِّ صـرَّفنـا الـرَّحيـق وهَـدَمْنـا حـانـةَ العصـرِ العتيـقْ
يـا مـديـرَ الـرَّاح فـي أضـوائهـا ومُـذيـبَ الكـأسِ مـن لألائهـا[٦]
مـن غـرورٍ واختيـالٍ تَسْكَـرُ ومـن الفقـر لـدينـا تَسْخَـرُ !
كـأسُنـا كـانـتْ سِـراجَ المحفِـلِ صَـدْرُنـا كـانَ لقلـبٍ مُشعَـلِ
إنَّ هـذا العصـرَ مِـنْ آثـارنـا مـن عَجـاجٍ ثـارَ فـي تسيـارنـا

---

(١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .
(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .
(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضةُ الحقِّ ارتوت مِنْ دمنا ... عزَّ أهلُ الحقِّ في الدنيا بنا
كبَّر العالَمُ من تكبيرنا ... كعَباتٍ شادَ مِنْ تعميرنا
« اقرأ » الحقُّ لنا قَدْ علَّما ... بيدينا رزقَهُ قد قسَّما[1]
لا تهوِّنْ قَدْرَ حرٌّ أعدَما ... أن تَرى التَّاج مضى والخاتما
إن نكنْ عندك أصحابَ الخسارْ ... قُدماء الفكر أحلافَ الصَّغارْ
فلدينا عزَّةٌ منْ « لا إلـه » ... نحن لِلْكَونينِ حُرَّاسٌ أبَاهْ
قَدْ تركنا غمَّ أمسٍ وغد ... ووفينا لحبيبِ أوْحَدِ
نحنُ ورَّاثُ هداةٍ للبشرْ ... نحنُ عند الحقِّ سرٌّ مدَّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا ... غيمُنا فيهِ بروقٌ وسَنا
ذاتُنا المرآة للحقِّ ، اعلَمِ ... آيةُ الحقِّ وجودُ المسلمِ

* * *

دعاء[2]

أنت في الكَوْنِ كروحٍ مُستتِر ... روحُنا أنت ، ومنَّا تَستتر
منكَ فيه نغمةٌ عُودُ الحياةْ ... في هواكَ ، الموتُ محسودُ الحياةْ
عُدْ فسكِّنْ ذي القلوبَ البائسةْ ... عُدْ فعمِّر ذي الصدورَ اليائسةْ
عُدْ فكلِّفنَا الفِعال الماجدا ... ألْهبنَّ العِشق فينا الخامدا
إنَّنا نشكو تصاريفَ القضاءْ ... أنت تُغلي السِّعْرَ والأيدي خَلاء[3]
عن فقيرٍ لا تحجِّب ذا الجمال ... عشقَ سَلْمانَ امنحنَّا وبلالْ
عَيْنَ سُهْدٍ لفؤادٍ قَلِق ... امنحنَّا واضْطرابَ الزِّئبَق

---

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .
(٢) الخطاب لله تعالى .
(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيــةً أظهِــر مــن الآي المبيــن — لنَـرى أعنـاق قـومٍ خـاضعيـن[1]
أظهِــر البــركــانَ مِــنْ أعــوادنــا — وامــحُ غيــرَ الله فــي نيــراننــا
كفُّنــا ألقــت بخيــط الــوَحْــدَة — كم ترى في أمرنا مِنْ عُقدة ؟[2]
قَــدْ مضينــا كنجــومٍ حــائــرة — إخــوةٌ لكــنْ وجــوهٌ نــافــرة
انظمَــنْ فــي السِّلــك هــذا الــورقــا — جَــدِّدَنْ سنَّــة حُــبٍّ أخلقــا[3]
ابعثنَّــا مثــل مــا كنَّــا لكــا — ائتمــن فيمــا تــرى أحبــابَكــا
منــزلَ التَّسليــم أبلــغْ رَكْبَنــا — عــزمَ إبــراهيــم يسِّــره لنــا
علِّمــنَّ العشــق مــنْ أفعــال « لا » — رمــزَ إلا الله علِّــم غــافــلا[4]

* * *

أنــا كــالشمــع لغيــري أُحْــرَق — وبــدمعــي كــلُّ حفــلٍ يَشــرَقُ
رَبِّ ! هذا الدمع نورٌ في القلوبْ — ذو هَيــاجٍ واضطــرابٍ ونحيــبْ
أبــذرُ الــدَّمــعَ فتنمــو شُعَــلُ — نــارُ شِقْــر الــرَّوض منهـا تَنصِـل[5]
أمــسِ فــي قلبــي ، وعينــاي الغــدُ — أنـا فـي الجمـع فـريـدٌ مُـوحـد[6]
« ظــنَّ كــلٌّ أننــي نعــم السميــرْ — ليس يدري أيُّ سرٍّ في الضمير »[7]
أيــن يــا ربَّــاه فــي الــدُّنيا النــديــم — نخــلُ سينــاءَ أنــا ، أيــن الكليــم ؟

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤].
(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .
(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .
(٤) « لا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و« إلا الله » هي الإثبات في هذه الكلمة .
(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكنَّ الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .
(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .
(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظـــالـــمٌ نفســـي فَكَـــمْ عنَّيتُهـــا ... شُعـــلاً فـــي صَـــدْرِهـــا أذكيتُهـــا
شُعـــلاً للحـــسِّ تـــذرو مـــا بـــه ... وتَشُـــبُّ النَّـــارُ فـــي أثـــوابـــه[1]
وبهـــا العقـــلُ جنـــونـــاً عُلِّمـــا ... وبهـــا أُحـــرِق مـــا قـــد عُلِمـــا[2]
قد علَتْ من حرِّها شمسُ السماءْ ... حـولهـا لِلْبَـرقِ طـوْفٌ فـي الفضـاءْ
كـــلُّ عِـــرْق فـــيَّ نـــاراً يقطـــرُ ... شُعَـــلاً يَنبُـــتُ فـــيَّ الشَّعَـــرُ
بلبلـــي يلفـــظ هـــذا الشـــررا ... فتـــراه نَغَمـــا مستعـــرا
صَـــدْرُ عصـــري مـــا بقلـــبٍ يـــوهـــن ... نَـوْحُ قيسٍ حينَ يخلـو المَخمِـل[3]
يخفـــق الشَّمـــعُ وحيـــداً وَيْلَـــهُ ! ... فـــي فَـــراشٍ لا يـــرى أهـــلاً لـــه[4]
كـــم أرجِّـــي مُسعـــداً لـــي فـــي البشـــر ... ونجيَّـــاً كـــم أرجِّـــي فـــي الـــدَّهَـــرْ

***

يـــا مـــن الأنجـــمُ منـــه تستنيـــر ! ... أرجِعـنْ نـارَكَ مـنْ روحـي الكسيـر
اسلُبَـــنْ نفســـيَ مـــا أودعتَهـــا ... عَطِّلـــنْ مِـــنْ نـــورهـــا مـــرآتَهـــا
أو فهـــبْ لـــي وجـــهَ خـــلٍّ لَبِـــقِ ... هـــوَ مـــرآةٌ لِعِشْـــقٍ مُحـــرقِ

***

يَخفُـقُ المـوجُ بمـوجٍ فـي العُبَـاب ... لا يسيـرُ المـوج إلّا فـي صِحـاب
ومَـعَ الكـوكـبِ يَسـري الكـوكـبُ ... وعلـى الأقمـارِ يحنـو الغَيْهَـبُ
ومـــعَ اللَّيْـــلِ نهـــارٌ أبـــدا ... ومسيـــرُ اليـــومِ يقتـــادُ غـــدا
نهـــراً ، أُبصـــرُ ، يَفنَـــى فـــي نَهَـــر ... ونسيـمَ الـرَّوض فـي عَرْفِ الـزَّهَـرْ

---

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .
(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم . انظرالكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكليم .
(٣) يبكي إقبال لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلى .
(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبّ حـــانٍ آهـــلٍ مـــنْ شَـــربـــه   راقـــصَ المجنـــونُ مجنـــونـــاً بـــه
أنـــت يـــا واحـــدُ لا شبـــهَ لكـــا   عـــالَمـــاً أنشـــأتـــهُ مـــنْ أجلكـــا
وأنـــا مثـــلُ شقيقـــاتِ الفَـــلا   مُفْـــردٌ ، فـــي بُهـــرَة الجمـــع خَـــلا[1]
هَـــبْ نجيّـــاً يـــا ولـــيَّ النِّعمـــة   مَحـــرمـــاً يُـــدرك مـــا فـــي فطـــرتـــي
هَـــب نجيّـــاً لَقِنـــاً ذا جِنَّـــة   ليـــسَ بـــالـــدُّنيـــا لـــه مِـــنْ صلـــة[2]
رُوحَـــه أودِع مِـــنْ أنَـــاتيـــهْ   وأرى فـــي قلبـــه مـــرآتيَـــه
وأســـوِّيـــه بطينـــي مُحكمـــا   وأُرَى آزرَه والصَّنمـــا[3]

***

(١) الشقيقات : جمع شقيقة واحدة الشقائق التي تسمى شقائق النعمان . هو وحيد وإن كان جماعة .

(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حدٍّ .

(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .

القسم الثاني

رُموز نفي الذّات

(أسرار بيخودي)

٢ ـ رموز بيخودي (أسرار نفي الذَّات) باللغة الفارسيَّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللُغة الفارسيَّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنَّها في الحقيقة تفسر ، وتبيِّن نفس النظرية ، وتعتبر التتمة اللَّازمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلدٍ واحدٍ بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات الَّتي تعيش فيها .

وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادىء الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمَّة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ ـ الأمَّة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوَّة .

٢ ـ أركان الأمة الإسلاميَّة .

أ ـ التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولًا أخرى للتمثيل .

ب ـ الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصُّ قصصاً شتَّى في

هذا الصَّدد . وأن الأمة المحمَّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدُّها مكان ، وأنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة ، وأنَّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنَّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أمَّة محمد القرآن ، وأنَّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدُّب بالآداب المحمَّدية .

٣ ـ حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلاميَّة الحرم .

٤ ـ الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأمَّة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ ـ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمَّة أن تحسَّ ذاتها كما يحسُّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأمَّة .

٦ ـ بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ ـ السيدة فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ لنساء الإسلام .

٨ ـ خطاب إلى المسلمات .

٩ ـ خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ ـ مناجاة المصنف الرَّسول الَّذي بُعث رحمةً للعالمين .

ويبيِّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنَّ « الوطن ليس أساس الأمَّة » فيقول : إنَّ العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبيِّن كيف هجر النَّصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعــل الملــك إلهــاً دينــه   كــلُّ قبــحٍ نــالــه تحسينــه
وزن الحــقَّ بــربــع وجــدى   ولدى الملك خنوعاً مسجدا

صيَّـر الحيلـة فنَّـاً محكمـا ... فـزهـا البـاطـل ممـا أعلمـا[1]

ويخاطب المرأة المسلمة :

احــذري فتنــة عصــرٍ مهلــك ... وإلــى صــدركِ ضمِّــي وُلْــدكِ
بَعُــدَتْ عــن عشّهــا فــي خطــرٍ ... هــذه الأفــراخ ، لا تَطِــرِ
فيــك تسمــو للمعــالــي فطــرةُ ... فـاتبعـي الـزهـراءَ ، نعـمَ الأسـوةُ
عــلَّ غصنــاً منــكِ يـأتـي بِحُسيـن ... فتــرى النضــرَةَ رَوْضَــات ذَوَيْــن

* * *

(١) إقبال ـ للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٣٧ .

جـدْ بنَفْـيِ الـذَّاتِ . لا تهـابْ
اجْتَهدْ ، واللهُ يَهْديكَ الصَّوابْ

(جلال الدِّين الرُّومي)

تمهيد

مهداةٌ إلى الأمَّة الإسلاميَّة

إيــه يــا مُنكــراً أحــاديــثَ عشقــي ... ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي[1]
ختــــمَ اللهُ إليــــكِ الأممــــا ... بــكِ حقّــاً كــلَّ بَــدءٍ خُتمــا
كــم تقــيٍّ فيــكِ كــالــرسْل مُنيبْ ... وجــريــحِ القلــب رفّــاء القلــوب
لــكِ طــرفٌ بــالنَّصــارى سُحِــرا ... وعــن الكَعبــة أبعْــدتِ السُّــرى[2]
يــا مــنِ الأفــلاكُ مِــنْ هَبــوتِهــا ... « مــنْ رنــا الكــونُ إلــى طلعتهــا »[3]
ســرتِ كــالمــوج دؤوب السَّفــرِ ... « أيــن تبغيــن مُــرادَ النَّظــر ؟ »[4]
كفَــراشٍ فــي لظــى الحــبِّ اصبــري ... وخــذي عُشَّــكِ بيــن الشــررِ
أحْكمــي العشــق بــروح قــدْ صفــا ... جــدِّدي العهــد بحــبِّ المصطفــى
صحبــةَ النَّصــرانِ قلبــي هجــرا ... حينمــا وجهــكِ عنــدي أسفــرا
ورفيقــي رهــنُ حســنِ الآخــريــن ... واصــف الطــرَّة منهــم والجبيــنْ

---

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صدَّر به الشاعر هذه التقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبةً .

(٣) الأفلاك من الهبوة التي أثرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سـدَّةَ الساقـي بخـدَّيـه يَـدوسْ		منشـداً قصَّـة غلمـانِ المجـوسْ[1]
وأنـا فيـكِ قتيـلُ الحـاجـبِ		وتُـرابٌ فـي حِمـاكِ الحـادب
أنـا مـنْ نظـم مـديـحٍ أرفـعُ		لسـتُ ممَّـن لأميـرٍ يَـركـعُ
كـمْ مـرايـا صُغتُهـا مـنْ كلِمـي		فَعَـنِ إسكنـدرَ تعلـو هِممـي[2]
لا تَـرى المنَّـةَ جيـدي تـأطِـر		من زهور الروض حِجْري صَفِرُ[3]
مُقْـدِمٌ فـي الـدَّهـر مثـل الخِنجـرِ		منْ قلوب الصَّخر مائي أمتري[4]
أنـا فـي نـار الحيـاة الشَّـررُ		فـي ثيـابٍ مـنْ رمـادي أسْتَـرُ

***

قَصَـدَتْ بـابـكِ روحـي فـي خشـوع		فـي هـدايـا مـن لهيـبٍ ودمـوعْ
إنَّ فـي الـزرقـاء يمَّـاً يقطـرُ		فـوق قلـبٍ لا هـبٍ لا يفتـرُ
أجمـعُ القطـر ربيعـاً جـاريـا[5]		وإلـى روضِـكِ أزجـي صـافيـا
قـد حُييـت الحـبَّ مـنْ محبـوبنـا		أنتِ قلبٌ قد ثوى في صدرنا[6]
قـذف العشـقُ بقلبـي حُـرَقـا		صـاغَ مـرآةَ فـؤادي المُحـرَقـا
وشققـتُ الصَّـدر ، كـالـورد لـكِ[7]		مُـدنيـاً مـرآتـه مـن وجهـك

---

(١) يعني : أنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر الحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النَّصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدم الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إنَّ في شعري مرايا كمرآة إسكندر ، فلست في حاجةٍ إليها .

(٣) يعني : أنه لا يجني الزهر في حجره بل يستكبر أن يجنيه استغناءً عنه .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أن الورد يمزق صدره حين يتفتح ، ويقول الشاعر : إن العشق صاغ قلبه=

لتنـــالـــي نظـــرةً مـــنْ سِحـــرِكِ   وتُــرَيْ مغلــولــةً فــي شَعــرِكِ[١]
ثـــم أشــدو قِصَصــاً مــنْ أمســكِ   فــأذَكّـــي حُــرَقــاً فــي نفسِــكِ

* * *

أســـأل الحـــقَّ حيـــاةً تحصُـــف   لفـــريـــقٍ نفسَـــه لا يعـــرف
نـــائـــحٌ والليـــل ســـاجٍ ســـادلُ   يهجَـعُ النـاسُ ودمعـي هـاطـلُ
تصطلـــي روحـــي بحـــزنٍ وألـــمْ   وردُ « يـا قيُّـوم » أُنْسي فـي الظُّلمْ
أمـــلاً فـــي الصـــدر صيَّـــرتُ دمـــا   ليُـــرَى فـــي أدمُعـــي مُنسجمـــا
مـــا احتـــراقـــي كشقيـــقٍ أبـــدا   فيم أستجدي من الفجر النَّدى[٢]
أنـــا كـــالشَّمـــع دمـــوعـــي غُسُلـــي   فـــي ظـــلام الليـــل أذكـــى شُعَلـــي
محفـــلُ النـــاس بنـــوري يُشـــرقُ   أنشـــرُ النُّـــور ونَفســـي أحـــرقُ
مـــا لنـــاري فـــي الحشـــا مـــن فَتـــرةِ   مـــا بـــأسبـــوعـــي فَـــراغُ الجمعـــة[٣]
إنَّ روحـــي فـــي سحيـــق الجَســـد   آهـــةٌ ثـــوبَ غبـــارٍ تـــرتـــدي[٤]
مُـــذْ بـــرانـــي الحـــقُّ فجـــرَ الخلقـــة   زلـــزلـــتْ أوتـــارَ عـــودي أنَّتـــي
أنَّـــةٌ للْعِشْـــق تُفشـــي ســـرّهُ   آهـــةٌ فـــي العِشْـــق تُـــذكـــي جمـــرهُ
تجعـــل العصـــفَ لهيبـــاً يُحـــرقُ   وفَـــراشـــاً مـــنْ تـــرابٍ تخلُـــق[٥]

* * *

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرآة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

(١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .

(٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .

(٣) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .

(٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .

(٥) تجعل العصف ـ وهو الهشيم ضعيف اللهب ـ ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

فـي ضميـر العِشْـقِ وَسْـمٌ كـالشَّقِـرْ ... ولـــــه وردةُ وجــــدٍ تستعـــرْ
هـــذه الــوردة أحبُــو صَــدركِ ... فـي سُبـاتٍ منـك أذكـي حشـرَكِ
لأرى فـي تُـربـكِ الـروضَ اليـنيـعْ ... وبــأنفــاسـكِ أرواحَ الــرَّبيـعْ

* * *

في معنى ارتباط الفرد والأمَّة

رحمـــةٌ للفـــرد حِجْـــرُ الأمَّـــة ... كــامــلٌ جــوهــرُه فــي الملَّــة
فـالْـزَمَـنَّ الجمـعَ جهْـدَ المستطـاعْ ... فـي ذُرا الأحـرار كـنْ مثـلَ الشعـاعْ
واحْفَظَـنْ مـا قـالـه خيـرُ البشـر : ... كـلُّ شيطـانٍ مـنَ الجمـع نفـرْ
فَـــزْدنـــا مـــرآتـــه أمَّتُـــهُ ... وكـــذا مـــرآتهـــا صـــورتُـــه
وهمـــا سِلْـــكُ نظـــامٍ ودُرَرْ ... أو نجــومٌ تتجلَّــى فــي النَّهَــر[١]
قيمـــةُ الأفـــرادِ جـــدوى الملَّـــةِ ... ومـــن الأفـــراد نظـــم الأمَّـــة[٢]
وإذا الــواحــدُ فــي الجمــع نمــا ... كــان كـالقطـرة صـارت خِضْـرِمـا
جُمـعَ المــاضـي لـــه فـي لُبِّـه ... والتقـىٰ الغـابـرُ والآتـي بـه
صلـــة الأمـــس تـــراه والغَـــدِ ... وقتُـــه لا ينتهـــي كــالأبـــدِ
هـــو بـــالأمَّـــة قلـــبٌ طـــامـــحُ ... وهـــو بـــالأمَّـــة سعـــيٌ رابـــحُ
روحـــه مـــن قـــومـــه ، والبـــدنُ ... ســـرُّه مِـــنْ قـــومـــه والعَلَـــنُ
بلســـانِ القـــوم يشـــدو مـنطقـــا ... وَمِـــنَ الأســـلاف يَقفـــو طُـــرُقـــا
تُنضـــجُ الفطـــرةَ فيـــه الصُّحبـــةُ ... فتـــراه الفـــردَ وهـــو الأمَّـــةُ
تُحكِـــمُ الـــوحـــدةَ فيـــه الكثـــرةُ ... وهـي ، بـالـوحـدةِ فيـه ، وحـدة[٣]

---

(١) نهر المجرة .
(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمّة عليها .
(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي=

أفــرِدِ اللَّفــظ مــن البيــت تــرى ... جـوهـر المعنـى لـديـه انكسـرا[١]
تَسْقُــطُ الأوراقُ مــن غصــنٍ ينيـع ... فتُـرى محـرومـةً وصـلَ الـرَّبيـعْ
طفئــت أنغــامُ أعــوادٍ غِنــاء ... فــاتهــا مــنْ زمــزم الأمَّــة مــاء
يُحـرَم الفـردُ الـوحيـدُ المقصِـدا ... فتــرى نظـــمَ قُـــواه بَـــدَدا
تجمـــعُ الأمَّـــةُ شمـــلَ المُنّـــة ... فيـــه تحبـــوه عظيـــمَ الهمَّـــة
نشَـــأتْ بـــالقيـــد حـــرّاً مطلقـــا ... أثبتـتْ فـي الأرض سَـرْواً بَسَقـا[٢]
ظَبيُــه الــوثَّــابُ مِسكــاً يَعبــق ... إنْ حـــواهُ مـــن نظـــامٍ وَهَـــق[٣]
أنتَ لم تعرفْ «خودي» من «بيخودي» ... أنــت لا ريــبَ مــن الشــكِّ رَدِي[٤]
إنَّ فـــي طينـــك نـــوراً قـــد بـــدا ... بشعـــاعٍ منـــه أبصـــرتَ الهـــدى[٥]
كــلُّ غــمٍّ ورضــاً مــن دورتــهْ ... أنــت حــيٌّ بتــوالــي ثَــورتِــه
أنــت منــه أنــت حقّــاً ، وأنــا ... أنـا وهـو الفـرد لا يـرضـى ثُنـا[٦]
يخلـــقُ النَّفـــسَ ويَـــذْرو ويُقِـــرّ ... ذو دلالٍ فـــي خضـــوعٍ مستتـــر[٧]

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .

(٢) تقيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبده بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتنمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيبه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذَّاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أنَّ الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يـــأســـرُ الشعلـــةَ هـــذا الشَّـــررُ ... لهـــبٌ مـــنْ حـــرِّه مُستعـــرُ[1]
حـــرةٌ رهـــنُ قيـــودٍ فطـــرتُـــه ... جـــزؤه بـــالكُـــلِّ حـــاطـــت قـــوَّتـــه
لكفـــاح دائـــمٍ تنـــزُو قُـــواه ... هو يُسمَى الذاتَ أو يُسمَى الحياه
يستثيـــرُ الحـــربَ فـــي جلـــوتِـــه ... حيـن يُبدي النَّفس منْ خلوتـه[2]
يقطـــع الجبـــرُ عليـــه الطـــرُقـــا ... ولـــهُ بـــالحـــبِّ فـــرعٌ سَمَقـــا[3]
تتشظّـــى الـــذَّاتُ فـــي أمَّتهـــا ... لتُـــرى الـــروضـــةُ مـــنْ زهـــرتهـــا[4]
نكتـــةٌ خـــذهـــا بكـــفٌ مِخْـــدَم ... « وانصـرف عنِّيَ إن لـم تفهـم »[5]

* * *

في معنى أنَّ الملَّة تنشأ من إخلاص الأفراد وأنَّ تكميل تربيتها بالنبوَّة

ما ارتباطُ الجمعِ ، أنَّى يوصَفُ ؟ ... قصـــــةٌ أوَّلُهـــــا لا يُعـــــرفُ
إنَّنـــا نبصـــرُ فَـــرداً فـــي الجميـــعْ ... زهـرةً نقطـف فـي هـذا الـربيـع[6]
فِطـــرةٌ تنهـــجُ نَهْـــجَ الـــوَحـــدةِ ... إنّمـــا تـــزهـــرُ وَسْـــط الـــرَّوضـــة
كـــلُّ فـــردٍ بـــأخيـــه ائتلفـــا ... مثـــلَ درٍّ فـــي سُمـــوطِ أُلِّفـــا
لَفَّهـــم فـــي عيشهـــم معتَـــرَكُ ... كـــلُّ فـــردٍ بـــأخيـــه مُمسِـــكُ

---

(١) شررٌ صغير ، ولكنه كبيرٌ في معناه يقوى على الشعلة الكبيرة .
(٢) يظهر من خلوته أي يبدو في الكون فيثير حرباً هي جهاد الحياة الدائم .
(٣) الجبر والإكراه يقطع عليه الطريق ، وهو بالحق والاختيار ينمو ويعظم .
(٤) تفرق الذات نفسها فتنمو من زهرتها روضة ، أي : تعظم وتكثر بهذا التفريق .
(٥) هذا الشطر من المثنوي لجلال الدين الرومي .
(٦) مذهب إقبال أنَّ غاية الجماعة سعادة الفرد ، وأن الفرد لا يفنى من أجل الجماعة .

مــن جِــذابِ تتــوالــى الأنجــمُ كــوكــبٌ مــنْ كــوكــبٍ مستحكِــمُ

* * *

كــان رَكــبُ النَّــاسِ مــأواهُ الجبــالْ ومــــروجٌ وسُهـــوب ورمــــالْ
نسجُـــه مـــا أُحْكِمـــتْ لُحْمَتُـــهُ فِكْـــرُهُ مـــا فُتِّحَـــت زهـــرتُـــهُ
عـــودُهُ مـــا بلحـــونٍ رَنَّمـــا لحنُـــه لمَّـــا يُـــؤلِّـــفْ نَغَمـــا
لـــم يُثِـــره مِـــنْ رجـــاءِ مِضْـــرب لـــم يَخـــزه بـــزبـــانـــى مطلـــب[1]
محفــلٌ غُفْــل حــديــثِ المــولــد جــامُــه مــن خمــره غيــر نــدي[2]
لـــم يُـــرعـــرعْ فـــي ثَـــراه نجمُـــه كـــزمُـــه مـــا فـــارَ فيـــه دمُـــه[3]
فكـــــره دارٌ لغيـــــلانِ الخيـــــالْ خـــائـــفٌ مـــنْ وهمـــه فـــي كـــلِّ حـــالْ
ذو وجــــودٍ ضيِّــــقٍ ميــــدانُــــه قـــد أحـــاطـــت فكـــرَه جُـــدرانُـــه
طينُـــه مـــن خيفـــةٍ قـــد خُلقـــا قلبُـــه مِـــنْ قَضْـــفِ ريـــحٍ خَفَقـــا
روحُــه مــنْ كــلِّ صَعْــبٍ تهــرُبُ يَـــدُهُ فـــي أرضـــه لا تضـــربُ
كـــل مـــا ينمـــو بـــأرضٍ يقطِـــفُ كـــلُّ مـــا تـــرمـــي سمـــاءٌ يلقَـــفُ

* * *

ثـــم يهـــدي الله ذا قلـــبٍ بصيـــر يكتـــب الأسفـــار مِـــنْ حـــرفٍ يسيـــر
عـــازفٌ فـــي كـــلِّ نفْـــسٍ ينفُـــث وحيـــاةً فـــي مـــواتٍ يَبعـــث
تقبـــسُ الـــذرَّة مِـــنْ أنـــواره كـــلُّ قَـــدرٍ حـــالَ فـــي معيـــاره[4]
يَنشـــر الأنفـــسَ منـــه نَفَـــسُ بشعـــاعٍ منـــه يُـــزهَـــى مجلِـــسُ

---

(١) المضرب ما يضرب به أوتار العود .
(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .
(٣) النجم : النبت الذي لا ساق له .
(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفـــةٌ تُحيــــي وعيـــنٌ تَجـــذبُ وحَـــدا الأشتـــات هـــذا عجَـــبُ[١]

يَهَـــبُ النَّـــاسَ جـــديـــدَ النَّظـــر يَجْعَـــلُ البيـــدَ كـــروضٍ نَضِـــرِ[٢]

فتـــرى الأمَّـــةَ مِنْـــهُ ســـائـــره بلهيـــبِ مِنْـــهُ حَـــرَّى ثـــائـــره

شـــرراً فـــي قلبهـــا قَـــدْ أشعـــلا فـــأحـــالَ الطِّيـــنَ فيهـــا شُعَـــلا

سيـــرهُ يعطـــي التـــرابَ البصَـــرا فـــإذا الـــذرَّةُ سينـــاءَ تـــرَى[٣]

عـــارِيَ العقـــل بجـــدواه كســـا وَهَـــبَ الثـــروةَ هـــذا المفلِســـا[٤]

ينفُـــخُ الجمـــرة فـــي مـــوقِـــده ويـــذيـــب الغِـــشَّ مـــن عسجـــده[٥]

ويفـــكُّ العبـــدَ مِـــنْ أغـــلالـــه ويُجيـــر القِـــنَّ مـــن أقيـــالـــه

قـــائـــلاً أن لســـتَ عبـــداً فـــاعلَـــمِ أتـــرى قـــدرَك دون الصَّنَـــم[٦]

يجـــذب الإنســـانَ شطـــر المقصـــد جـــاعـــلَ الشَّـــرع زمـــامـــاً فـــي اليـــدِ

نكتـــةَ التـــوحيـــد يـــوحيهـــا إليـــه أدبَ الطـــاعـــة يمليـــه عليـــه[٧]

***

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفسٍ واحدة .

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حسن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .

(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .

(٤) العقل عريان مفلس حتى يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .

(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .

(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .

(٧) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمّة الإسلاميّة

الركن الأول : التوحيد

طـوَّفَ العقـلَ بـدنيـا العِلـلِ ... قـاده التَّـوحيـد شطـر المنـزلِ
أعـوَزَ المنـزلُ هـذا السـابـلا ... زورقُ الفكـر أضـلَّ السـاحـلا
فـي « آتـي الـرحمـن عبـداً » مُضمـرُ ... رمـزُ تـوحيـدٍ لقلـبٍ يُبصـرُ[1]
يبتلـي التـوحيـدُ فيـك العمـلا ... فيجلّـي لـك سـرّاً أُغفِـلا
يُشـرق الـدِّيـنُ بـه والحكمـةُ ... ويُـرى الأيـدُ بـه والمُكنـةُ
قـد تجلّـى حيـرةً للعـالِميـن ... وتجلّـى عمـلاً فـي العـاشقيـن
يـرتقـي فـي ظلِّـه المتَّضِـعُ ... ويصيـر التُّـربُ تِبْـراً يَسطـع
يجتبـي التـوحيـدُ عبـداً ثـابَـرا ... فيـردُّ العبـد خلقـاً آخـرا
فهـو فـي الحـق حثيـثٌ دائـبُ ... دمُـه كـالبـرقِ فيـه لاهِـبُ
ريبـهُ يَفنَـى ويحيـا العَمـل ... عينُـه فـي الكـونِ يَقظـى تعمَـلُ
فـي « مقـام العبـد » إن تثبـتْ قـدم ... جَـرَّة السـائـلِ تُصبـحْ جـامَ جـم[2]
« لا إلـٰـه » الـروحُ فـي أمتنـا ... « لا إلـٰـه » اللَّحـن فـي نغمتنـا[3]
« لا إلـٰـه » السـرُّ فـي أسـرارنـا ... « لا إلـٰـه » السمـط مـن أفكـارنـا
صـار قلبـاً إنْ حـواهـا حجـرُ ... كـلُّ قلـبٍ لـم تُتِـرْه ، مَـدَرُ
يتلظّـى الكـونُ مـنْ زَفـرتِهـا ... ويضـيءُ القلـبُ مـنْ وقـدتهـا
وتُسيـل القلـب مـاءً فـي الصـدور ... تصهـر المـرآة منـه فـي الحَـرور

---

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جمشيد .

(٣) تقدَّم أنَّ « لا إلـه » اختصار كلمة التوحيد .

شعلـةٌ فـي روحنـا مثـلُ الشَّقيـق | كـلُّ مـا نمتـاره منهـا الحـريـق
بيَّـض التَّـوحيـدُ مُسـودَّ البَشَـرْ | فـأبـو بكـرٍ أخـوه وعمـر
ليـس إلا القلـب قـربٌ وابتعـادْ | وهـذه الكـأسُ بهـا هـاجَ الفـؤاد
وحـدة القلـب قـوامُ الأمَّـة | أشـرقـتْ سينـاءُ مـن ذي الجلـوة
قـد هـدى الأمَّـة سُبْـلَ العمـل | هـذه الفكـر بهـا والأمـلِ
نـزعـةٌ واحـدةٌ فـي قلبهـا | فعيـارُ الحُسْـنِ والقُبْـحِ بهـا
لا يُجيـد الفكـرُ فـي قيثـاره | دونَ نـارِ الحـقِّ فـي أوتـاره[(١)]
نحـن فـي الإسـلام أبنـاءُ الخليـلْ | من « أبيكم » خذ إذا شئت الدَّليلْ[(٢)]
أُمـمٌ قـد عبـدتْ أوطـانَهـا | وبنـتْ مـنْ نسـبٍ بنيـانَهـا
أتَـرى الأوطـانَ أصـلَ الأمـم | تُعبَـد الأرضُ بهـا كـالصَّنـم؟
إنَّمـا الأنسـابُ فخـرُ السُّفهـاءْ | حُكمها في الجسم ، والجسمُ هَباءْ
ضمَّنـا فـي الحـقِّ أسٌّ آخـرُ | هـو فـي الألبـاب منَّـا مُضمَـرُ
قـد خلصنـا مـن حـدودٍ وقيـود | قلبنا في الغيب إذ نحن شهودْ[(٣)]
ضمَّنـا ، كـالـزهـر ، نظـمٌ مضمـرُ | بصـرٌ ليـس يـراه مُبصـرُ[(٤)]
وُحِّـد الـرئـيُ لنـا والفكـرةُ | كسهـامٍ جمعتْهـا جَعبـةُ[(٥)]
نحـن فكـرٌ وخيـالٌ واحـد | ورجـاءٌ ومـآلٌ واحـدُ
نحـن مـن نعمـائـه حِلـفُ إخـاءْ | قلبنـا والـرُّوحُ واللفـظ سـواءْ

* * *

---

(١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقة الإيمان .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] .
(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .
(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .
(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث[(١)] وقاطعاتٌ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءَ هذه العلل الخبيثة

عُــدَّة المــوت قُنــوطٌ مُحبــطُ ... والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا »[(٢)]
إنمــا العيــشُ رجــاءٌ يُــوصــل ... فقنــوطُ الحــيِّ ســمٌّ يَقتــل[(٣)]
يــأســك القبــر إليــه تــرجــع ... إن تكــنْ ألْـوَنْـدَ فهــو المصــرع[(٤)]
رُبّــت الخيبــة فــي أكنــافــه ... ونمــا العجــز علــى ألطــافــه[(٥)]
آهِ مــنْ نــوم الحيــاةِ المُخــدِر ... إنَّــه آيــةُ ضعــفِ العنصــر
كحلُــه فــي العيــن يُعمــي البصــرا ... ويــردُّ الصُّبــحَ ليــلاً أكــدرا[(٦)]
نفــسٌ منــه سَمــومٌ للحيــاه ... كــلُّ ينبــوعٍ بــه جــفَّ ثــراه
وهــو للغــمِّ حليــفٌ واصــلُ ... إنَّمــا الغــمُّ لحــيٍّ قــاتــلُ
يــا سجيــنَ الغــمِّ أبصِــر واسمــعِ ... من رسول الله « لا تحزن » وعي[(٧)]
ذلــك النُّصــح سـرى فــي قلبــه ... فغــدا الصِّـديــقُ صــدِّيقــاً بــهِ
نمــا المسلــم مثــلَ الكــوكــبِ ... بــاســمٌ فــي سعيــه والــدَّأبِ

---

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) ألْوَنْد : جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني : إن تكن كجبل ألوَند في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، وبفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حرِّرِ النَّفس منَ الغمِّ ودَعْ إنْ عرفت الله ، أغلالَ الطَّمعْ
قوةُ الإيمانِ تُحيي فاعلَمنْ وِرْدَ « لا خوفٌ عليهم » فاقرأنْ[(١)]
قلبه من « لا تخف » قلبٌ سليمْ حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[(٢)]
خوفُ غيرِ الله قتْلُ العملِ وهو للأحياء قطعُ السُّبُلِ
وبه العزمُ يخاف الغِيرا وترى المِقْدَام منه حَذِرا
من نما ذا البذر يوماً في ثَراهْ حَرمتْه من تجلّيها الحياهْ
فهو فسلٌ وهو شادٍ يَعْزِف يد شُلَّت وقلبٌ يرجُفُ
يسرِقُ الرجلَ قُوَى تسيارها يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها
إنْ تجلَّى لعدوٍّ خوفُكا هانَ كالوردِ ، عليه قطفُكا
سيفُه يزدادُ فتكاً في اليد عينُه فيك حسام لا يَدي[(٣)]
غلَّنا الخوفُ ، وكم في بحرنا منْ عُبابٍ مائجٍ في دهرنا
إنْ أبَى النَّغمة يوماً مِزهرُكْ فمنَ الخوف تندَّى وترُكْ
فاعزِكِ الأذنَ يَثُر فيه الغناء ويهزَّ اللحنُ آفاقَ السَّماءْ
كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضمرُ أصله الخوفُ ، إذا ما تُبصِرُ
منْ ديار الموت عينٌ قَدِما مثل ميم الموت قلبٌ أظلما[(٤)]
عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه أذْنه تدليسُ أخبار الحياه[(٥)]
يُزهر الخِبُّ به والمَلِق ونفاقُ القلبِ منه يورقُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .

(٣) لا يؤدي دية من قتله .

(٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .

(٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثـوبـه للـزُّور سـتـرٌ والـريَـبْ ... حِجْـرُه الفتنـةُ فيـه والحـرَبْ
حُـرِمَ الخـوفُ طُمـوحَ الهمَّـةِ ... فهـو خـدنٌ لحليـف الـذِّلَّـةِ
كـلُّ مـن يفقـد سـرَّ المصطفـى ... يجدُ الإشراكَ في الخوْفِ اختفى

* * *

محاورة السَّهم والسَّيف

قـال سهـمٌ مـرهـفٌ يـوم الـزِّحـامْ ... قـال للسيـف وللحـرب ضـرامْ
يـا مـن الجَنَّـة فـي أعطـافـه ... ذو الفقار العضبُ من أسلافه ![1]
خـالـداً صـاحبْـتَ يَفْـري الفيلَقـا ... وعلـى الشَّـام نثـرتَ الشفقـا[2]
نـارُ قهـر الله فـي جـوهـرِكـا ... جَنَّـةُ الفـردوس مـأوى ظلِّكـا !
إننـي فـي الجـوّ أو فـي جَعبتـي ... حيثمـا كنـت ، بجسمـي شُعلتـي
وإذا القـوس رمتنـي للثُّبـور ... بَصُـرَتْ عيني بـأحنـاء الصُّـدور :
إنْ خـلا الصَّـدرُ مِنَ القلبِ السَّليم ... مـا بـه يـأسٌ ولا خـوفٌ مقيـمْ
نَفَـذ النَّصـل خِـلالَ الأعظُـمِ ... فكسـوتُ الجسـمَ درعـاً مـن دمِ
وإذا حَـلاَّه قلـبٌ مـؤمـنُ ... نـورُه الظَّـاهـرُ ممَّـا يُبطـنُ
ذاب روحـي مـن فـؤاد وَقـدا ... وهمـىٰ نصلـي كقطْـرات النَّـدى

* * *

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قِصَّةُ

السُّلطان عالمكير والأسد(١)

إنَّ عالمكيـر عالـي المنـزلِ — مـن بنـي تيمـور فخـرِ الـدُّول
كـانَ لـلإسـلامِ منـه عِـزَّةُ — ولحكـم الشـرع فيـه حُـرمـةُ
آخـرُ الأسهـم فـي جُعبتنـا — فـي ذيـاد الكفـر عـن ملَّتنـا
غَـرَسَ الإلحـاد فينـا أكبـرُ — فنمـا فـي طبـع دارا يُـزهِـر(٢)
وخبـا فـي الصـدر مصبـاحُ الفـؤادْ — وبـدت أمتنـا رهـنَ فسـادْ
فتـولَّـى الهنـد فـي ذي المحنـةِ — زاهـدٌ ربُّ حسـامٍ مُصلـتِ
اجتبـاه الحـقُّ للـديـن المبيـن — اجتبـاه أجـلَ تجـديـد اليَقيـنْ
أحـرَق الإلحـاد مـنْ بـرق الحُسـامْ — وأنـار الـديـنَ فـي هـذا الظـلامْ
حـرَّف الجُهَّـالُ عنـه مـا جـرى — فكـرُهـم عـن قصـده قـد قصَّـرا
كـان إبـراهيـمُ بيـت الصنـمِ — فـي لظـى الحـقِّ فَـراشـاً يـرتمـي
كـان فـي الأمـلاك فـرداً خيِّـرا — زهـدُه مـنْ قبـره قـد ظهـرا(٣)

---

(١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩هـ إلى سنة ١١٤٨هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحيّ الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .

(٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دينٍ سمَّاه الدين الإلهي ، وكان يتقرّب إلى الهنادك ، ويرعى شعائرهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .

(٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجه . فلما ولي عالمكير لم يبنِ لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجه في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكـم المَلـك الفقيـر الجـاهـد | زينـة العـرش المليـك المـاجـد[١]
سـار صبحـاً مُـوغـلاً فـي غَيضـة | معـه مـن جُنْـدِه ذو ثقـة
فـي نسيـم الصبـح نشـوانَ خَطَـر | سـامعـاً تسبيـح طيـرٍ فـي الشجـرْ
وامّحى السلطانُ في شوق الصلاه | مـن مجـاز حـثَّ للحـقِّ خُطـاه
وأتـى ليـثٌ مَهيـبٌ فَتِـك | صـوتُـه يَـرعَـد منـه الفلـكُ
شـمَّ ريـحَ الإنـس بُعـداً فـدنـا | وعلـى السلطـان أهـوى البُـرثُنـا
فـإذا الخنجـر منـه فـي اليـد | بـاقـراً كـالبـرق بطـنَ الأسـد
لـم يفـزَّع قلْبـه بـالبغتـة | خـال ليـث الغـاب ليـث الصُّـورة[٢]
ثـمَّ للحـقِّ دعـاه الـولَـهُ | فـي صـلاة الـوجـد معـراجٌ لـه[٣]
مثـل ذا القلـب الـذي لـم يَهـنِ | دارُه بـالحـقِّ صـدرُ المـؤمـن
إنمـا العبـد أمـامَ الحـقِّ « لا » | وهـو للـزور « نعـم » لـن يَبطُـلا[٤]
أيهـا الغـافـل! قلبـاً حصِّـلا | هيِّئـنْ للحِـبِّ هـذا المحمـلا[٥]
ابـذلِ النَّفـسَ تَنَلْهـا لا مفـرّ | ذلَّ للحـقِّ تَنـلْ عـزَّ الـدَّهـر
أحـرقـنْ بـالعشـق خـوفـاً وانهـدَا | حمـلاً فـي الحـق ليثـاً للعِـدى
إنَّ خـوفَ اللهِ إيمـانٌ جلـيّ | ثـمّ تقـوى غيـرِه شـركٌ خفـي

***

(١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .

(٢) توهم الليث صورة ليث .

(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرةً أخرى .

(٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العربيّان « لا » ، و« نعم » في الأصل .

(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثَّاني

الرسالة

تاركُ الآفِل ، مِنْ قبلُ الخليل ‏‏ هُو للرُّسْل على النَّهج دليل
إنَّه لله فينا آيةٌ ‏‏ رُبِّيَتْ في قلبه ذي الملَّةُ
﴿ طهِّرا بيتي ﴾ إليه أنزلا ‏‏ بعد سَيْلٍ من دموعٍ سُيِّلا(1)
قفرةً من أجلنا قد عَمَّرا ‏‏ وبنَى البيتَ الذي قد طَهَّرا
﴿ تب علينا ﴾ نضَّرت زهرتها ‏‏ فنَمتْ في أرضنا روضتُها(2)
صوَّر الرحمنُ منَّا هيكلا ‏‏ وحباه الروحَ ممَّا أنزلا
أحرُفاً كنَّا ولَسنا كَلِما ‏‏ فتألَّفنا كبيتٍ نُظِما
بالرسالاتِ بدا تكوينُنا ‏‏ شرعُنا منها ومنها دينُنا
ذاكَ مَن « يهدي إليه من يريدْ » ‏‏ حلقةٌ منها حوالينا يشيد(3)
حلقةٌ ذاتُ محيطٍ يُعجزُ ‏‏ ساحةُ البطحاء فيها مركز(4)
نحنُ ممَّا جمَّعتنا أمَّةُ ‏‏ أُرْسلت للنَّاس فيها الرَّحمة
مَوْجُنا في بحرها متَّصلُ ‏‏ موجةٌ منْ موجةٍ لا تُفصل
أمةٌ في حرزِ سُور الحرَم ‏‏ في حفاظٍ مثلَ أسْد الأجم(5)

---

(1) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(2) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(3) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(4) بطحاء مكة .

(5) إشارة إلى بيت البردة :

أحلَّ أمته في حرز ملَّته ‏‏ كالليث حلَّ مع الأشبال في أجم =

إنْ تحقَّق ممعناً في كَلِمي نظرةَ الصِّدِّيق ربّ الفَهَم
فالنبيُّ الروح فينا والعَصَبْ وإلى القلبِ منَ الربِّ أحَبّ
سِفْرُه في القلب نبعُ القوَّة شَرعهُ حَبْلُ وريدِ الأمَّة
قطعُ حبلٍ منه للموت رَديف كذبول الورد في ريح الخريف
حيِّتِ الأمة منْ ترياقه صُبحها نوَّر من إشراقه
وحَّد المرسلُ فينا النغَما والطَّوايا والمُنى والألَما
كثرةُ الأُلّافِ عينِ الوَحْدة ومنَ الوحْدَةِ نَشء الأمَّة[1]
وحدة القصد حياة الكثرة مقصدُ المسلم دينُ الفطرة
علَّم الفطرة خيرُ الرُّسلِ فمضينا للهُدى كالشُّعَل
بحرُه أخرجَ هذا الجوهرَا نحنُ روحٌ واحدٌ منه سَرى
هذه الوَحْدةُ ما لم تفقَدِ تحفظُ المسْلِمَ حتَّى الأبدِ
ختم الله علينا شِرْعَتَهْ وعلى المرسَل فينا بعثَتَه[2]
محفلُ الأيَّام منا يَبسمُ خُتِمَ الرُّسْل بنا والأممُ
خدمةَ السَّاقي إلينا صرفا جامَه الآخِرَ فينا خلَّفا
« لا نبيٌّ بعدُ » فضلٌ عُرفا إنَّه حرمةُ دينِ المصطفى[3]
إنَّه قوةُ هذي الملَّة إنَّه سرُّ اتحاد الأمَّة
كلُّ دعوى بعدها للأفَنِ أحكِمَ الإسلامُ طولَ الزَّمن
ما سوى الحقِّ قلاه المسلمُ قائلاً : « لا قوم بعدي » فاعلموا

* * *

---

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا ائتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمَّة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمَّدية
تمكين الحرِّية والمساواة والأخوَّة بين البشر

عبد الإنسانُ أصنام البَشرْ ... فهو في عُدْمٍ وذلٍّ محتقر
قيصرُ العَسفِ وكِسرى قيَّدا ... منه جيداً ثمَّ رجلاً ويدا
ومن القسِّيس والمَلْك طِلابْ ... بخراج الحقل ، والحقلُ خرابْ
نصب الأشراك للصَّيد الضرَعْ ... بائعُ الجَنَّة أُسْقُفَّ الخُدَعْ
حقله قد عاث فيه البَرْهمنْ ... ومجوسٌ أحرقت ما قد خَزنْ
أضعفَ الرقُّ لديه الهِمما ... لَحنُه في عوده سالَ دما

* * *

وأميناً بعث المولى به ... سلَّم الحقَّ إلى أصحابه
رفعَ العُبدانَ بالحقِّ إلى ... سُرُر الخاقان والزُّورَ قَلى
بثَّ في بَردِ الرَّماد الشُّعَلا ... فعلى برويزَ فَرهادُ علا[1]
سلب السُّلطانَ حِزْبَ الآمرينْ ... فسما بالحقِّ قدرُ العاملينْ
عزمُه هدَّ قديماتِ الصُّوَر ... وبنى حصناً جديداً للبشر
بثَّ روحاً حيَّت الموتى بها ... وافتدى الأعبدُ منْ أربابها
مولدٌ مات به العصر القديم ... وبيوتُ النَّار والوثْنِ حطيم
أزهرَ التحريرُ في روضته ... هذه الصَّهباء من كرمَتِه
عصرنا اللألاء في أنواره ... فتحَ الأعينَ في أحجاره[2]
خطَّ في العالم سطراً مُبدَعا ... أمةً فاتحةً قد أبدعا

---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسيٌّ له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .
(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صدرُها من وَقدة الحقّ أضاء ... ذرّةٌ منها أنارت في ذُكاء
أشرق الكون بها إذ يبتني ... كعباتٍ منْ بيوت الوثنِ
ولدتها الأنبياء القُدُم ... فإذا الأتقى لديها الأكرمُ
إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين[1] ... طينها حريةٌ في العالمين
المساواة لديها فطرةُ ... ومن التمييز فيها نفرةُ
نسلُها كالسَّرو حرٌّ قد علا ... عهدها أحكِم من ﴿ قالوا بلى ﴾[2]
سجدة الحقّ بسيماها غُرَر ... قبّل النجمُ ثراها والقمر

* * *

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوَّة الإسلاميَّة[3]

مُسلمٌ في حَومةِ الحربِ أسَرْ ... قائداً منْ جيش كِسْرى ذا خَطرْ
قائدٌ ربُّ خداعٍ ماكرُ ... عجمَ الأيامَ ذئبٌ غادرُ
لم يعرِّفْ آسريه باسمه ... أو يحدِّث أحداً عن وسمهِ
قال للآسر : يا ذا الكرم ... آمننِّي . ذاك شأنُ المسلمِ
وضع الجنديُّ في الغمد الحسام ... مُعلناً أنْ دَمُك اليوم حَرام
وخبَتْ في الحرب نيران العَجَم ... وهوى منْ آلِ ساسانَ العلَمْ
فإذا المأسورُ جابانُ الكبيرْ ... قائدٌ في جند إيران أميرْ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسيّ .

أقبــل الجنـــد بصــوتٍ قــارعٍ يســأل القــائــد قتــل الخــادعِ
بُـو عبيــدٍ قــائــد العُـزب الأبــيّ عزمُه في الحرب عن جيش غنيّ(١)
قــال يــا قــوم : ألسنــا المسلميــن نغمــةً واحــدةً فــي العــالَميــنْ
مــن أبــي ذرٍّ علــتْ أو حَيْــدر مــن بــلالٍ سُمعــتْ أو قَنبــرِ(٢)
كــلُّ جنــديٍّ أميـــنُ الملَّـــةِ صلحُـــه والحـــربُ عهـــدُ الأمَّـــة
إنَّ جــابـــان عـــدوٌّ غَشِـــمُ لكـــنِ الأمـــنَ حَبــاه مسلـــمُ
دَمُـــه اليـــوم عليكـــم حُـــرِّمــا أمــةَ المختــار ! أوفــوا الــذِّمَمــا

* * *

قصة
السلطان مراد والعمّار(٣)
في معنى المساواة الإسلاميَّة

أخــرجــتْ أرضُ خُجنــدٍ صــانعــا نــال فــي التشييــد صيتــاً ذائعــا
صــانعــاً فــرهــادُ حقّــاً وَلــدا لمـــراد مسجـــداً قـــد شيَّـــدا(٤)
غضـــب السُّلطـــان مـــنْ تقصيـــره لـــم يـــرَ الإتقـــانَ فـــي تعميـــرِه
قـــدَحـــت عيـــنُ المليـــك الشَّـــررا ويـــدَ المسكيـــن فـــوراً بتـــرا
ســـار للقـــاضـــي حـــزينـــاً يجـــأر دمُـــه مـــن يـــده يَنْهَمِـــرُ
قال : يا مَن قولُه الحقُّ المبين ! يــا حفيظــاً شــرعَ خيــرِ المرسليــن !

---

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .
(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نغمة ينطق بها بلال ، أو قنبر هي نغمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .
(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .
(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لستُ للسُّلطان عبداً فاسْمَعِ حكِّم القرآن فينا واقطعِ[1]
قرعَ الحاكم سنَّ المُبلسِ ودعا السُّلطانَ نحو المجلس
فأتى السلطانُ يخشى ذنبَه هيبةُ القرآن تُدمي قلبَه
عينُه من خجَلٍ للقَدَمِ وعلى خدَّيه لونُ النَّدَمِ
وقف الخصمان : خصمٌ يشتكي وخصيمٌ في ثياب الملكِ
جَهر السلطان : إنِّي نادمُ لا أردُّ الحقَّ إنِّي جارم
وتلا القاضي : « حياةٌ في القصاصْ » ذاك قانونُ حياةٍ . لا مناص
ليس دون الحرِّ عبدٌ مسلمُ وحَّدَ المعمارَ والمَلْكَ دمُ
سمع القرآن يُملي حكمةُ فنضا السلطانُ فوراً كمَّه[2]
إذ رأى الخصمُ الذي قد فعلا آيةَ « الإحسان والعدل » تلا[3]
قائلاً : « لله أعفو وكفى إنَّني أعفو لأجل المصطفى »
نَملةٌ عزَّت سُليمان القويّ انظرن سطوة قانون النَّبيّ
جمع القرآنُ مولىً وفتاه وذوي التيجان سوَّى بالرعاء

***

في بيان أنَّ الأمة الإسلاميَّة مؤسسة على التَّوحيد فلا تحدُّها الأمكنة

قلبنا الخفَّاق يأبى مَوطِنا رِيحُهُ العاصفُ تأبى مسكنا[4]

---

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .
(٢) شمَّر كمَّه استعداداً لقطع يده .
(٣) آية : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] القطع عدلٌ ؛ والعفو إحسانٌ .
(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

ليسَ مِنْ هندٍ وروم قلبُنا ... ما سوى الإسلام فيه أرضُنا
كعبٌ الشَّاعرُ في خير العباد ... أنشد المِدحةَ من « بانتْ سعادْ »[(١)]
نَظَمَ الدُّرَّ منيراً في ثناه ... من سيوف الهند سيفاً قد دعاهُ[(٢)]
مَنْ على الأفلاك فيه رفعةُ ... لم ترقهُ لبلادٍ نسبةُ
قال : سيفٌ من سيوف الله قلْ ... يا نصير الحقِّ زوراً لا تقلْ
وكذا كَمْ قالَ ذو القَدْرِ العلي ... من سَناه كحلُ عين الرُّسل :
ليَ مِنْ دنياكمُ قد حُبِّبا ... بعضُ ما فيها حلالًا طيبا[(٣)]
إنْ تكنْ سرَّ المعاني تعلمُ ... فافهم النُّكتة في « دنياكمُ »
كان في الدُّنيا وفيها ما سَكَنْ ... ذلك المشرقُ في ليل الزمَنْ
مِنْ سَناه قد تجلَّى العالمُ ... مُشرقاً إذ كان طيناً آدمُ
لستُ أدري ما حِماه والوطنْ ... أنا دارٍ أنَّه فينا سكنْ[(٤)]
قد رأى في أرضنا دنيا لنا ... وهو في الدُّنيا كضيفٍ بيننا
إذ أضعنا القلب في هذا اليَبابْ ... وفقدنا النَّفس في هذا الترابْ
لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ ... لا يُرَى في تيهِ « أنَّى وكمِ »[(٥)]
ليس للمسلم في الأرض عَطنْ ... حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ[(٦)]

---

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إنَّ الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهندٌ من سيوف الهند مسلولُ

(٣) إشارة إلى الحديث : « حبب إلي من دنياكم ثلاث . . » إلخ . لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .

(٤) سكن الإنسان : من يسكن إليه من أهلٍ ، أو صديق .

(٥) لا يتيه في عالم العلل والمقادير .

(٦) يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم :

إنما الكافر حيرا ... ن له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً ... تاهت الآفاق فيه =

حصِّلِ القلبَ ففي وُسْعَتِهِ ... ضلَّ هذا الكونُ في فُسْحته
عقدةَ الأقوات حلَّ المسلمُ ... هجر الدارَ الإمامُ الأعظمُ[1]
أمةً ملء الدُّنَى قد أسَّسا ... جعل التَّوحيد فيها أسُسا
صارتِ الأرضُ لدينا مَسْجِدا ... إذ أشاعَ الفَضْلَ فينا وهدى
ذلكَ المحمودُ في الذِّكرِ الحكيمْ ... ذلكَ المحفوظُ بالله الرَّحيم
تفزعُ الأعداءُ منْ هيبتهِ ... في ارتعادٍ منْ سَنا طلعتهِ
فلماذا أرضَ أهليهِ هجرْ ؟ ... أتراه خشية الأعداء فرّ ؟
حجبَ القصَّاصُ معنى القصَّةِ ... غلطوا في فهم معنى الهجرة
هجرةٌ شَرْعُ حياةِ المسلمِ ... هجرةٌ سرُّ ثباتِ المُسْلم
إنها التِّسيار نَحْوَ الوُسعةِ ... ولأجل اليمِّ تركُ القطرة[2]
اهجرِ الزَّهرة أجْلَ الروضة ... إنَّ هذا الخسْرَ ربحُ الكثرةِ
شرفُ الشَّمْسِ مسيرٌ مطلقُ ... فيه من فوق البرايا تخفُق
لا تكنْ نهراً من السُّحْب يُمَدّ ... وكن البحرَ ، عُباباً لا يُحَدّ
اقصدن تسخير كلِّ العالَم ... لتُرى سلطانَ أهلِ العالَم
لا يقيّدك مُقامٌ في الورى ... وكنِ الحوتَ يَسيحُ الأبحُرا
كلُّ من حُرِّر مِنْ ذُلِّ الجهات ... فلكٌ يُزهِرُ منْ كلِّ الجهاتْ
تركَ الوردَ شذاهُ فسرى ... في فسيح المزجِ عِطْراً نَشَرا
يا أسيراً قد ثوى في روضةٍ ... عندليباً هائماً في وردةٍ !
سيِّرَنْ نفسك حرّاً كالصَّبا ... ثم عانق كلَّ أزهار الرُّبَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرنْ منْ خدعة العَصْرِ الجديدْ التبـاسَ النَّهـج حـاذرْ يـا رشيـدْ

* * *

في بيان أنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة

قطَّعــوا الأرحــام بيــن الإخــوةِ صيَّــروا الأوطــان أسَّ الأمَّـــةِ
قــدَّســوا الأوطــان إعجـابـاً بهــا قسَّمــوا الإنســان أســرابـاً بهــا
طلبـوا الجنَّـة فـي « بئـس القـرار » « فـأحلُّـوا قـومهـم دار البـوار »[1]
محــق الجنَّــة هــذا الشجــرُ ليــس إلا الحــربَ فيــه ثمــرُ
أنْكَــرَ الإنســانُ وجــهَ الإخــوة وانتهــت قصَّــةُ الإنْســانيــةِ
ذهــبَ الإنســانُ روحــاً وانقضــى بقيــتْ أقــوامُــه وهْــوَ مَضــى
مَنْصِــبُ الــدِّيــن حــواهُ السَّــاســة فنمــتْ فــي الغــربِ هــذي الآفــةُ
ديــنُ عيســى بطلــت قصَّتُــه وَخَبــتْ فــي دُوره شُعلتُــهُ
عجــز الأسقــفُ عــنْ تقــديــره حــادتِ الأزلامُ عــن تــدبيــره
قــوم عيســى حقــروا بِيعَتَــهُ أبطلــوا فــي ســوقهــم سكَّتــهُ
مــزَّق الــدَّهــريُّ ثــوب المــذهــب ومــن الشيطــان قــد وافــى نَبــي
ذا الفُلَــورنَســيُّ عبــدُ الــوثــن كحلُــه أودَى بنــور الأعيــنِ[2]
خــطَّ لــلأمــلاك سِفــراً منكــرا وبــذورَ الحــربِ فينــا بــذرا
مــزَّقَ الحــقَّ بحــدِّ القَلــم فطــرةٌ تــؤثــرُ عَيــش الظُّلَــمِ
آزرُ العصــر ، بــدا تــزويــرُه خطَّــةً بِــدعــاً جــلا تفكيــرهُ
جعــل المُلــكَ إلهــاً دينُــه كــلُّ قبــح نــالــه تحسينُــه

---

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسيُّ : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلَّ للملوك كلَّ وسيلةٍ تبلغ بهم الغاية .

جعــل النفــع عيــارَ الــذِّمَـم ... حينمــا خــرَّ لهــذا الصَّنــمِ[1]
صــارت الحيلــةُ فنَّــاً مُحكمــا ... ونمــا البــاطــلُ ممَّــا علَّمــا
خطــةً لِلْــوَهْــنِ فينــا حبَكــا ... فــي طــريــقِ الــدَّهــر ألقــى حَسَكــا
أرمــدَ النَّــاسَ بهــذي الحكمــة ... إذْ دعــا التــزويــرَ بــالمصلحــة

* * *

في بيان أنَّ الأمة المحمدية ليس لها حدودٌ زمانيَّة أيضاً

أرأيــتَ الطَّيــر فــي عُــرسِ الــربيــع ... وهيــاجَ الكِــمِّ والــوَرْدَ اليـنيــعْ
وعَــروسُ الــزَّهــر نَشــوَى النَّغَــم ... وعلــى الأرض قُــرىً مــنْ أنجــمِ
غسَــل العُشْــبَ دمــوعُ السَّحَــرِ ... وشــدا المــاءُ لنــومِ النَّهَــرِ
وإذا الكــمُّ علــى الغصــن رَبــا ... منحتْــه حِجــرَهــا ريــحُ الصَّبــا
دَمِــيَ البــرعــومُ مِــنْ قطفتــهِ ... ومضــى كــالــرِّيــح عــن روضتــه[2]
عَشَّــشَ الــوُرْقَ وطــار البلبــلُ ... وشــذًا فــرَّ وطــلٌّ ينــزل[3]
ليــس يُكــرى مــن ربيــع رونــقٌ ... حيــن تــذوي زهــرات تَعبِــقُ
محفــل الأزهــار بــاقٍ يضحــك ... لا يُبــالــي كنــزُه مــا يُهلــك
مــوسم الأزهــار أبقــى فــي الــدَّهَــر ... هــو أبقــى مــن ورودٍ وزهَــر[4]
لا يبــالــي جــوهــراً قــد كُســرا ... مَعــدن يُنمــي ويُبــدي الجــوهــرا
كــم شــروقٍ وغــروبٍ ، لا مقــرّ ! ... أكــؤسٌ تــؤخــذُ مــن دَنِّ الــدّهَــر

---

(١) الصنم : الملك .
(٢) الريح : الرائحة .
(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل النَّدى . فالروضة باقيةٌ على تبدل ما فيها .
(٤) موسم الزهر أبقى من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

خمـــرةٌ مـــنْ شَـــربِهـــا لا تنفَـــدُ ... تـذهـب الآمـاس والبـاقـي الغـدُ[(١)]
ثـابـتٌ فـي الـدَّهـر تقـديـرُ الأمـمْ ... مـن مَسيـر الغـدِ سيَّـارِ القَـدَمْ
يَسفُـــر الخِـــلُّ وتبقـــى الصُّحبـــة ... يـرحـل الفـرد وتبقـى الأمَّـة[(٢)]
ولهـــا عيـــشٌ ومـــوتٌ آخـــرُ ... ثـــم ذاتٌ وصفـــاتٌ أُخَـــرُ
ينشـأ الفـردُ مـن الطِّيـن القليـل ... تـولـد الأمـة مـن قلـبٍ جليـلْ
نفَـسُ الأمَّـة يُحصَـى بـالمئيـنْ ... ويعيـش الفـرد عَشْـراتِ سنيـن
وحيـاةُ الفَـرْدِ روحٌ فـي بـدنْ ... وحيـاة الشعـب فـي حفـظِ السُّنَـنْ
مـوت فـردٍ نَضْـبُ وردٍ للحيـاه ... مـوتُ قَـوْمٍ تـركُ قصـدٍ للحيـاه

* * *

كممـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ ... ولهـا يـومـاً قضـاءٌ يُحتَـمُ
أمـــةُ الإســـلام تـــأبـــى أجـــلا ... أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾[(٣)]
لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ ... ﴿ نحن نـزّلنـا ﴾ لـديهـا حجـةُ[(٤)]
دامَ ذكـــرٌ مـــا أقـــام الـــذَّاكـــرُ ... بـدوام الـذِّكـر دامَ الـذَّاكـر[(٥)]
ذلـك المصبـاح أنَّـى يُطفَـأ ؟ ... قال ربي عالماً : ﴿ أن يطفئوا ﴾[(٦)]
أمَّـةُ الحـقِّ إلـى الحـقِّ تُنيـبْ ... أمَّـةٌ يَعْشَقُهـا أهـلُ القلـوب[(٧)]

---

(١) الآماس : جمع أمس .
(٢) يسفر ، أي : يُسافر .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .
(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .
(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .
(٦) الآية : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .
(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُصْلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الصَّقيلْ ... مُصْلتٌ من غمد آمال الخليل[1]
ما سوى الحقِّ محاهُ برقُه ... ليعيد الحقَّ حيّاً نطقُه
نحنُ للتَّوحيد أقوى حجةٍ ... للكتابِ اختارنا والحكمةِ[2]

* * *

أضمرَ الدَّهرُ علينا ثارَهُ ... مخفياً في صدره تاتاره
أطلق الفتنةَ منْ أحبالها ... ورمى بالطَّوْدِ من أثقالها
فتنةٌ موطئُها هامُ الأممْ ... نظرةٌ منْ طرفها قتلٌ عمَمْ
أنفُ هَوْلٍ في حشاها يرقُدُ ... ليسَ للأمسِ بمثواها غدُ
سطوةُ الإسلام للتّربِ هَوَتْ ... ما رأت بغدادُ روما ما رأَتْ
لكن اسألْ ذلكَ الدَّهر المُليمْ ... محدَثَ الأفعالِ ذا المكرِ القديمْ
روضنا كان لهيبُ التتَر ... حَلْيَنا كان نِثارُ الشَّرر[3]
فلإبراهيم فينا فطرةٌ ... وإلى المولى لدينا نسبةُ
من لهيب قد جنينا زهَرا ... نار نمرودٍ رَدَدْنا كوثرا
كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا ... زهراتٌ حين تأتي روضَنا

* * *

ذهب الروم وفُضَّ الموكبُ ... شرقُها أقوى وأقوى المغربُ
كأسُ ساسان من الغمِّ دَمُ ... حانُ يونان خرابٌ مُظلم[4]

---

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي=

وعنـــتْ مِضــرُ لـــدهــرٍ عَــرِمِ   وَثَـــوتْ أعظُمُهـــا فـــي الهَـــرَمِ
وأذانُ الحـــقِّ فينـــا خلَـــدا   أمـــةُ الإســـلام تبقـــى أبـــدا
إنَّ للكـــونِ مـــنَ العِشـــق حيـــاه   وبـــه أجـــزاؤه شـــدَّت قُـــواه
أحيـــت العِشـــقَ قلـــوبٌ تُسعَـــر   شَبّهـــا مـــنْ « لا إلـــه » الشَّـــرر[(١)]
إنْ نكـــنْ كـــالكـــمِّ نُطـــوَى كَمَـــدَا   فـــرَدانـــا فيـــه للـــرَّوضِ رَدَى[(٢)]

* * *

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمَّدية القرآن

أمَّـــةٌ خلَّـــت يـــداهـــا السُّننـــا   ككثيـــبٍ مـــنْ رمـــال وَهَنـــا
سيـــرةُ المُسْلِـــم شـــرعٌ وكفـــى   ذلكُـــم بـــاطـــنُ ديـــنِ المصْطَفـــى
بـــانتظـــامِ الصَّـــوْتِ تعلـــو النَّغمـــةُ   وهـــي مـــن دونِ نظـــامٍ ضجَّـــةُ
إنَّمـــا فـــي الحلـــق مَـــوجٌ مـــن هَـــواء   يَعلَـــق النَّظـــمُ بـــه فهْـــوَ غِنـــاء
صـــاحِ هـــلْ تعلـــم مـــا سُنتكـــا ؟   أيَّ ســـرٍّ ضَمنـــتْ قـــدرتُكـــا ؟
الكتـــابُ الحـــيُّ والـــذِّكـــرُ الحكيـــم   حكمـــةٌ فـــي الـــدَّهـــر تبقـــى لا تـــريـــمْ
إنَّ فيـــه ســـرُّ تكـــويـــن الحيـــاه   يستمـــدُّ النكـــس أيـــداً مِـــنْ قُـــواه
لفظـــهُ لا ريـــبَ أو تبـــديـــلَ فيـــه   آيـــة لا لَبـــس أو تـــأويـــلَ فيـــه
قـــوةٌ فيـــه تشـــدُّ الخـــورَا   وبهـــا يـــرمـــي الـــزجـــاجُ الحجـــرا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منطوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قطَّـعَ الأشـراكَ عـن صيـدٍ كسيـر ... فـدعـا الصَّيَّـادُ منـه بـالثُّبـورْ
ذا بـلاغٌ آخِـرٌ للمـرسليـن ... قـد تـلاه « رحمـةٌ للعـالميـن »
تـرفـعُ الخـامـلَ فيـه رفعـةٌ ... وتقيـمُ الـرأسَ منـه سجـدةٌ
قـاطعـو الطـرْقِ هـداةً صُيِّـروا ... مـن كتـابٍ ، كـم كتـابٍ سَطَّـروا
والبـوادي مـنْ سـراجٍ زَهَـرا ... قـد أضـاؤوا بـالعلـومِ الفِكَـرا[١]
الَّـذي يُصـدَعُ مِنْـهُ الجبـلُ ... وعلـى الأفـلاك منـه وَجَـلُ[٢]
ذلـك الينبـوعُ مـنْ آمـالنـا ... قـدْ حـواه الصَّـدْرُ مـنْ أطفـالنـا
انظُـرِ الظمـآنَ فـي حَـرّ القفـارْ ... عينُـه حمـراء مـنْ وَقْـد النَّهـار
عَنْسُـه كـالظَّبـي فـي تَعْـدائِهـا ... دمُهـا كـالنَّـارِ فـي رمضـائهـا
طـائـفُ الصَّحـراء يـأبـى الجُـدُرا ... ضـاربٌ فـي البيـدِ يقلـي الحضـرا
خَفَقَـتْ فـي قلبـه هـذي السُّـوَرْ ... فـاستقـرَّ المـوج فيـه كـالـدُّرر[٣]
قـرأ الـدرس مِـنَ الآي المبيـنْ ... فغـدا بـالحـقّ حـرّاً لا يَميـن
حكـمَ الـدُّنيـا جميعـاً عـدلُـه ... عَـرْشَ جـمٍّ وطئتـه رجلُـه[٤]
مُـدُنـاً قـد شيَّـدتْ هَبـوتُـه ... وريـاضـاً أنْبَتـتْ زهـرتُـه[٥]

* * *

إنَّ إيمـانـك فـي قيـدِ الـرُّسـوم ... سنـنُ الكفـرِ لـكَ السِّجـنُ المقيـمْ
أمـرُكـم قطعتـمُ فهـو « زبُـر » ... مُسـرعـي السَّيـرَ إلـى شـيءٍ نُكُـرْ[٦]

---

(١) زهر السراج : أضاء .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .
(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه الثائر سكن واستقر كالدرة في الماء .
(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .
(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .
(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ

سَكِرَ الصُّوفيُّ من أحواله ... وانتشى باللَّحن مِنْ قوَّاله[1]
قلبهُ شعرَ العراقيِّ تلا ... ومن القرآن أقوى وخلا[2]
تاجه والعرش صوفٌ وحصيرْ ... فقره يَجبي رباطاً للفقيرْ[3]
وأخو الوعظِ جُزافاً قائلُ ... كلِمٌ عالٍ ، ومعنى سافِلُ
قولُه مِنْ ديلميٍّ وخطيبْ ... فعلُه حِلف ضعيفٍ وغريبْ[4]
لكتاب الله حقٌّ . فاقرأنْ ... كلَّ ما تبغيه منه فاطلبَنْ

* * *

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفِتَن ... طبعُه خلقُ شرورٍ ومِحَنْ
محفلُ الماضين فيه مقفر ... صوَّحتْ فيه حياةٌ تنضُر
أنكرتْ أنفسَنا أنظارُنا ... وجَفَتْ نغمتَها أوتارُنا
شعلةُ التَّوحيد فينا سَلَبا ... نارَه والنُّور منَّا سَلبا
وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه ... فَمِنَ التقليدِ للقومِ نجاه
سُننُ الآباء حَبلُ الملَّة ... ومِنَ التقليد جمعُ الأمَّة
يا خليّاً في خريفٍ من ثَمرْ ... ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجر[5]

= إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : ٦] .

(١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .

(٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .

(٣) يعني : أنه يأخذ مالًا من الفقراء المقيمين في الأربطة .

(٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث . بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .

(٥) يعني : يجب الاستمساك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قد حُرِمْتَ البحرَ فاذكر خُسرَكا ... يا قليلَ الماءِ واحفظْ نهركا[1]

فعسى سيلُ الجبالِ الهادرُ ... منه في مجراك لجٌّ زاخرُ

حالُ إسرائيلَ فيها تَبْصِرَه ... إنْ تكنْ روحُك روحاً مُبصره

انظرنْ كيف ابتلاها الزَّمنُ ... وَعَرتْها في الخطوب المِحَنُ

وجهُها في كلِّ حينٍ يُلطمُ ... كادَ في أعراقها يَفنى الدَّمُ

عصرتْ عنقودَها كفُّ الخُطوبْ ... ذكرُ هارون وموسى في القلوب

إنْ خبا في اللَّحن منها قبَسُ ... لم يزل في الصَّدر منها نفَسُ

سار في إثر الجدود المحملُ ... حينما انفضَّ لديها المَحفلُ

يا من انفض له جمعٌ وجاه ... وخبا في صدره شمعُ الحياه

آيةَ التوحيد في القلب اسطُرا ... ومنَ التقليد أمسك بالعُرا

اجتهادٌ في زمان القهقرى ... يذهبُ الأقوامَ منه شذرا

اقتداءٌ برسومِ الأوَّلين ... هو أولى ، لا اجتهاد الغافلين

لم يُصبْ آباؤنا بالهَوَسِ ... طهُرتْ أعمالُهم كالأنفُسِ

فكْرُهُم كان رقيقاً مرهَفا ... فعلهمُ أوفى بشرعِ المصطفى

فِكَرُ الرازي ونجوى جعفر ... أينَ ؟ والعُربُ هداةُ البشرِ

ضيَّق الدينُ علينا يسرَه ... وادَّعى كلُّ لئيم سِرَّه

قد جهلت الدِّين عنه حائدا ... الزَمَنْ يا حُرُّ نهجاً واحدا

باحَ لي بالسرِّ نبَّاضُ الحياه ... إنَّما في الخلف مقراضُ الحياه[2]

وحدةُ الشرع حياةُ الأمة ... فمن القرآن روحُ الملَّة

نحنُ طينٌ وهو قلبٌ لا جَرَمْ ... هو « حبلُ الله » من شاء اعتصَم

= الشجر أيام الخريف إيراقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قلَّ الماء في نهرك فاحتفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرةً أخرى .

(٢) كلمتا نبّاض ومقراض في الأصل .

فـانتظـمْ فـي سلكـه كـالـدُّررِ أو غبـاراً فـي الـرِّيـاح انتشـرِ

* * *

في بيان أنَّ كمال سيرة الأمَّة من اتِّباع الشَّرع الإلهي

لا تقـلْ فـي الشـرع معنًى مُضمرُ ليـسَ إلَّا النـورَ تحـوي الـدُّرَرُ
جـوهـرٌ أبـدعَ فيـهِ القـادرُ جـوهـرٌ بـاطنـه والظـاهـرُ
ليـس علـمُ الحـقِّ غيـرَ الشِّـرْعـة ليـس غيـرَ الحـبِّ أصـلُ السنَّـة
شـرعُنـا للفـرد مِـرقـاةُ اليقيـنْ تـرتقـي منـه مقـامـاتُ اليقيـن[1]
شِـرعـةُ الحـقِّ نظـامُ الأمـم ومـن النَّظـم دوام الأمـم
إنَّ فيـه الأيـد يـا مـن أخلَصـا اليـدُ البيضـاءُ فيـهِ والعصـا
قـامَ لـلإسـلام بـالشَّـرعِ قـوام بـدؤه الشَّـرعُ وبـالشَّـرع الختـام
لـكَ أيـدِي نكتـةَ الشَّـرع المبيـن أنتَ مَن في حِكْمةِ الدِّين أمينْ :
إنْ يعـارِض ذو عنـادٍ مسلمـا فـي أداءِ النَّفـل مـا إنْ لـزمـا
صـارَ هـذا النفـلُ فـرضُ الأمـة فـالحيـاةُ الحـقُّ عيـنُ القـدرة
وإذا جيـشُ عـدوٌّ فـي الـوغـى تـرك الإعـدادَ والسِّلـمَ بَغـى
وقضـى أوقـاتَـه فـي الـدَّعـة تـاركـاً لِلْحَـرْبِ أخـذَ العُـدَّة
فحـرامٌ أخـذه بـالبغتـة قَبْـلَ أن يـأخـذ كـلَّ الأهْبَـةِ
سـرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البصـر : « الحيـاةُ العيـشُ بيـن الخَطـرِ »
يتحـدَّاك بـرضـوى العـاليـه فـي امتحـانِ لِقِـواكَ العـاتيـه[2]
وينـاديـك أن اقصـمْ ظهـرهـا وبحـدِّ السيـف فـاصهـرْ صخـرهـا
ليـس كـفءَ الليـث فـي صـولتـه حمَـلٌ يـرجـفُ فـي ذلَّتـه

---

(١) مرقاة اليقين ومقلمات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل ألوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إنْ حكى الصَّعوةَ صقرٌ كاسِرُ فهْوَ كالصَّعوة واهٍ خائِرُ
كتبَ الشارعُ ربُّ الحكمة لكَ هذا اللوحَ ، لوحَ القُدْرَة
يَشْحذُ العزم بنارِ العمل ويرقِّيكَ لأعلى مَنْزِل
وإذا تَلْغَبُ يعطيك القُوى ويربِّي منك طوداً ما خَوى
إنَّ دين المصطفى دينُ الحياه شَرْعُه للنَّاس قانون الحياه
إنْ تكنْ أرضاً يصيِّركَ السَّماءْ ويربِّيك كما الحقُّ يشاءْ
يصقل المرآةَ مِنْ صخرٍ شديد وينقِّي الرَّينَ منْ قلبِ الحديدْ
ضيَّع القومُ شعارَ المصطفى ضيَّعوا رَمز بقاءٍ عُرِفا
ذلك الغصن العسِيُّ المعتلي مُسلمُ الصَّحراء ربُّ الجَمَلِ
الذي البطحاء أزكتْ غَرْسَهُ ورياحُ البيد ربَّت نفسَه
أذْبَلتْهُ اليومَ ريحُ العَجم صيَّرته النايَ روحُ العَجَمِ
قاتلُ الآساد ذبحَ الغنم وطءُ نملٍ مسَّه بالألم
من أذابَ الصَّخرَ من تكبيره راعه البلبل في تصفيره
من علا الطودَ سريعاً مُصعِدا غلَّ بالتُّكلان رجلاً ويدا
من برى الأعناق ضرباً عَضبُه يَلْدِمُ الصَّدر ويَدمَىٰ قلبُه
مُوقظ الآفاق مِنْ خطْواتهِ قُيِّدت رجلاه في خَلْواته
منْ أطاع الناسُ طرّاً أمرَه واجتدى دارا وكسرى برَّه
رضي القُنع وأكدَى جِدُّه وارتضى الكِدْيةَ عِزّاً جَدُّه
شيخنا أحمدُ[1] منْ في قُرْبه تكسبُ الشَّمسُ سناً في قلبه
قال يوماً لمريدٍ فهمِ احذرنْ يا صاح فكرَ العجمِ
فكرُهم إنْ كان للنَّجم ارتقى فهْو منْ سُنتنا قد مرَقا

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفيٌّ عراقيٌّ من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرِّفاعية ، انضمَّ إليها خلقٌ كثيرٌ من الفقراء ، كان له به اعتقادٌ كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يـا أخـي فـاسمـعْ لهـذا الـرَّشَـدِ　　استمـع نُصْـحَ الإمـام المُـرشِـد
وبهــذا الحــقِّ فــاشــدُد قلبكــا　　واتبـع العُـزبَ تُصِـبْ شِـرعَتكـا

* * *

في بيان أنَّ حُسْنَ سيرة الأمَّة منَ التأدُّب بالآداب المحمَّدية

ســائــلٌ مثــل قضــاءٍ مُبْــرَم　　صـاحَ بـالبـابِ بصـوتٍ مُبـرِم(١)
بــالعصــا صُلــت عليــه غضبــا　　فهــوَى مــنْ يَــده مــا قشبــا(٢)
إنَّ هـذا العقـلَ فـي شـرْخِ الشَّبـابْ　　لا يبــالــي بضــلالٍ وصــوابْ
ورأى الــوالــدُ فعلــي فنفــر　　وذوى فــي وجهــه روضُ الـزَّهـر
آهــــةٌ فــــي فمــــه تلتهــــب　　قلبُــه فــي صَــدْرِه يَضْطــرب
كــوكــبٌ فــي عينــه قــد ومضــا　　نـوَّر الهُـدبَ قليـلاً ومضـى(٣)
روحـيَ الغـافـلُ فـي الجسـم ارتعـدْ　　ومضـى الصَّبـرُ وخـلاَّنـي الجلَـدْ
مثـلَ فـرْخٍ فـي الخـريـف انتفضـا　　مـنْ ريـاح اللَّيـل فـي العُـشِّ قضَـى
قـال لـي الـوالـد : يـومَ المحشـر　　تلتقــي أمَّــةُ خيــر البشــرِ
الغُــزاة الغــرُّ مــنْ أمَّتــه　　وأولــو الميــراث مــن حِكمتــه
والنجـومُ الـزُّهـرُ أربـابُ الصَّفـاء　　حجـةُ الـدِّيـن فـريـقُ الشُّهـداءُ
وأولــو العلــم وأربــابُ القلــوب　　وأولـو الـزُّهـد وأصحـاب الـذُّنـوب
وعــلا فــي لــجِّ هــذا المحشــر　　صــوتُ هــذا الســائــل المنكسـرِ

---

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصَّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .

(٢) قشب : جمع وكسب .

(٣) يعني دمعت عينه ، علق الدَّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب ! ... ما جوابي حين يلحاني النَّبي :
« قد حباك الحقُّ طفلاً مسلما ... لم تُنِلْه من كتابي مغنما
هيِّن الأشياء قد شقَّ عليك ... لم يَصِرْ ذا الطِّينُ إنساناً لديك[1] »
وأنا في العَتْب من خير الرُّسُلْ ... بين خوف ورجاء وخجَلْ
أفكِرنْ في الأمر واذكر يا بُنيّ ... أمةَ المختار إذ ترنو إليّ
لحيتي البيضاء في الحشر انظرِ ... رِعدتي في الخوف والحزن اذكرِ
لا تزد عبء أبيك الوَهنِ ... عند مولاي غداً لا تُخزِني
أنت كِمٌّ في فروع المصطَفى ... فتفتَّح في ربيع المصطفى
نظرةً من روضهِ فالتمسِ ... وسناً من خُلْقه فاقتبسِ
مرشدُ الرُّوم الذي قطرتُه ... قد حوت بحراً ، سَمَتْ قولته :[2]
« لا تجذَّ الحبل من خير البشرْ ... لا تقل عندي فنون وبَصر »
فطرةُ المسلم طرّاً رأفةُ ... قوله والفعل كلٌّ رحمةُ
العظيمُ الخُلْق منْ شقَّ القمر ... رحمةٌ عمَّت ونُورٌ للبشر
لستَ منْ معشَرنا فاعتزلِ ... إنْ تكنْ منه بعيدَ المنزلِ
طائرٌ أنت على دَوْحتنا ... شدْوُه واللَّحنُ منْ نغمتنا
إنْ تكنْ ذا نغمةٍ لا تُفرد ... بسوى بستاننا لا تُغْردِ[3]
كلُّ من أوتي حظّاً منْ حياه ... في سوى بيئته يلقى رداه
بلبلٌ أنتَ ؟ ففي الرَّوض امرَح ... ومع السِّرْب بلحن فاصدَحِ
إنْ تكنْ صقراً فلا تغش البحَارْ ... ليس إلا خلوةَ الصَّحراء دار[4]

---

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .

(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .

(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .

(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليلزم كل بيئته .

أو تكـن نجمـاً فنـوِّر فـي سَمـاك	لا يكـنْ مَسـراك إلا فـي الحِبـاك

* * *

قطـرَ نيسـانَ اجمعـنْ إنْ تـردِ	واجعلنْ في الروض مأواه النَّدِي[(١)]
لتـراهُ مثـلَ قطـراتِ النَّـدى	تحضـنُ الأكمـامُ منهـا ولـدا
وانشِـف الأنـداء مـنْ جـوهـرهـا	واسلـبِ الـلألاء مـنْ عنصـرهـا
بشُعـاعِ الصُّبْـحِ وضَّـاء البُكـر	الـذي مـن سحـره ينمـو الـزَّهَـر[(٢)]
لـن تـرى دُرَّك إلا كـالحبَـاب	لـنْ تـرى سَعْيَـكَ إلا فـي سـرابْ
ألقِهـا فـي اليـمّ تُعْقَـدْ جـوهـرا	مـاؤهـا يسطـعُ نجمـاً نيِّـرا
قطـرُ نيسـان عـن اليـمِّ نـأى	لجفـافٍ . لـن تـراه لـؤلـؤا

* * *

طينـةُ المسلـم درٌّ يـا بُنـيّ	مـاؤهـا والنُّـورُ مـنْ بحـر النَّبـيّ
قطـرَ نيسـان ! فغُـصْ فـي مـوجـه	وابـرزنْ ، درّاً صَفَـا ، مـن لجـه
صاح ! من شمس الضُّحى كن أنورا	كـن ضيـاءً ليـس يخبـو الـدَّهَـرا

* * *

في بيان أنَّ حياة الأمَّة تحتاج إلى مركزٍ محسوس وأنَّ مركز الأمَّة الإسلاميَّة البيت الحرام

عقـدةٌ تنحـلُّ مـنْ أمـر الحيـاه	حين أفشي لكَ منْ سرِّ الحياه :
كخيـالٍ جَفَلَـتْ مـن نفسهـا	حُـرَّةٌ قـد نفـرت مـن حبسهـا[(٣)]

---

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .
(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .
(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُهـا مـا فيـه أمـسٌ وغـدُ ... فـي دُنَـى الأوقـات ليسـت تُصْفَـدُ
أنظـرنْ نفسَـك حينـاً واعتبـرْ ... لسـتَ إلَّا جَـوَلانـاً يستمـرّ
شعلـةٌ فيهـا أعـدَّت سِتْـرهـا ... مـنْ دخـانٍ فـأشـاعـت سـرَّهـا
مـاؤُهـا قـد عقـدتـه فـي دُررْ ... ليُـرى السَّيـرُ سكـونـاً فـي النَّظـر
نـارُهـا فـي نفسهـا تُخفـي الحـريـق ... وتُرَى في الغُصْن أزهارَ الشقيق[1]
فكـرُكَ العـاجـزُ عنهـا أوهِمـا ... طيـرانَ اللَّـون وَرداً جُسِّمـا[2]
مـا أوى للعُـشِّ هـذا الطـائـرُ ... هـو طيْـرٌ وهْـو لـون طـائـر[3]
هـو حـرٌّ وحـواه مَحبِـسُ ... وهـو فـي النَّـوح لحـونـاً يَنبُس[4]
ريشُـه ينسـلُ طيـراً كـلَّ حيـنْ ... يخلـقُ الأسبـابَ منـه كـلَّ حيـن
عُقَـداً تعقـد فـي أعمـالهـا ... وتحـلُّ العقـد فـي تجـوالهـا
تسكـنُ الطِّيـن علـى إسـراعهـا ... لتـزيـد السَّيـر فـي إهطـاعهـا[5]
كـم لحـونٍ فـي جـواهـا رُقَّـدِ ... يـومُهـا ميـلادُ أمـسٍ وغـدِ
فـي سهـولٍ كـلَّ حيـنٍ وحـزونْ ... كـلَّ حيـن فـي اختـراعٍ وفنـون
إنْ تكـنْ كـالـرِّيـح تـأبـى محبسـا ... تنـزلُ الصَّـدر فتُـدعـى نَفَسـا
حـولَهـا مـنْ خيطهـا نـاسجـة ... حـولَهـا مِـنْ خيطهـا عـاقـدة
هـي فـي العُقْـدة مثـلُ الحبَّـة ... مضمـرٌ فيهـا فـروعُ الـدَّوحـةِ
تفتـحُ العَيْـنَ علـى مـا تُضمـر ... فـإذا الـدَّوحـة منهـا تَظهـر

---

(١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .

(٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر .

(٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها .

خلعـــةُ الطِّيـــن عليهـــا تُـــرفَـــد ... فـــإذا عيـــنٌ وقلـــبٌ ويـــدُ[1]

تـؤثـر الخلـوةَ فـي الجسـم الحيـاه ... وتجلَّـــى نشـــأةَ العـــمِّ الحيـــاه[2]

هكـــذا سنَّـــة ميـــلاد الأمـــم ... مـــركـــزٌ فيـــه حيـــاةٌ تنتظـــم[3]

إنَّمـــا المـــركـــز روحُ الـــدائـــرة ... نقطـــةٌ ، فيهـــا محيـــطٌ ، ضـــامـــره

ومِـــنَ المـــركـــزِ للقـــوم نِظـــام ... وَمِـــنَ المـــركـــز لِلْقَـــوْم دوام

نقطـــة المـــركـــز منَّـــا الحَـــرمُ ... لحنُنـــا والـــوجـــدُ فينـــا الحـــرمُ

نفَـــسٌ فـــي صَـــدْرِنـــا يتَّقـــد ... روحنـــا الغـــالـــي ، ونحـــن الجســـد

مِـــنْ نـــداه نَضَـــرت أغصـــاننـــا ... حَـــيَّ مـــن زمـــزمـــه بستـــانُنـــا

نحـنُ مِـنْ دعـواه فـي الـدنيـا دليـل ... نحـنُ فيـه مـن بـراهيـن الخليـلْ[4]

صـــوتنـــا ينـــدَى بـــه فـــي الأمـــم ... واصـــلاً مُحـــدَثَنـــا بـــالقـــدمِ

وحَّـــد الملَّـــة طـــوفٌ حـــولـــه ... فهـــي صُبـــح قـــد حـــوى صـــدرٌ لـــه

وُحِّـــدتْ فـــي حَسْبـــه كثـــرتُنـــا ... أُحكِمـــتْ مـــنْ وحـــدةٍ قـــوتُنـــا[5]

إنَّ فـــي الجمـــع حيـــاةَ الأمـــمِ ... إنَّ هـــذا الجمـــع ســـرُّ الحـــرَم

* * *

أيُّهـــا المسلـــمُ يـــا ذا البَصـــر ! ... قـــومُ مـــوســـى عبـــرةٌ فـــاعتبـــرِ

زهـــدوا فـــي مـــركـــزٍ قـــد جمَّعـــا ... فتـــراهـــم فـــي البـــرايـــا قطعـــا[6]

يـــا عليـــلاً شـــاكيـــاً جـــورَ الـــزَّمـــن ... يـــا أسيـــراً غَلُّـــه وهـــم وظـــنّ

---

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . . إلخ .

(٢) العمّ : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ، ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذفت هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلــن ثــوبــك ثــوب المحــرِم أطلِــع الصُّبــحَ بليــلٍ مُظلــم
افْــنَ كــالآبــاء مــا بيــن السجــود اسجدنْ حتى تُرى عينَ السجود[١]
مــن خشــوع المسلميــن الأوليــن سيطــروا بــالحــقِّ بيــن العــالميــن
فــي سبيــل الحــقِّ شــوكــاً وطئــوا فــإذا الــروضــةُ هــذا المــوطَــأُ

***

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمَّة الإسلاميَّة حفظُ التَّوحيدِ ونشرُه

اعــرفــنْ عنِّــي لســانَ الكــائنــاتْ ففعــالُ الكــون فيهــا كلمــات
ينظــمُ المقصــدُ أشتــاتَ الحيــاه فتــراهــا « مطلعــاً » راع الــرواه[٢]
طِــرفُنــا مــن تحــت مهمــازِ الطَّلَــبْ صــرصــرٌ مــا نــدَّ عنــه مــن أربْ
إنمــا يُبقــي الحيــاةَ المقصــدُ هــو أشتــات قُــواهــا يَنضِــدُ
حينمــا تــدري الحيــاةُ المطلبــا تجعــل الكــونَ إليــه سببــا
وبــه الأشيــاءُ طــرَّاً تنقــد فتــردَّ الشــيء أو تعتقــد[٣]
يُبحــر الــرُّبــان أجــلَ الســاحــلِ وإلــى المنــزل سَيــرُ السَّــابــل
وعلــى قلــبِ الفــراش الحُــرَقُ لســراجٍ حــولــه يحتــرقُ[٤]
طــاف قيــسٌ فــي الصحــارى ولَهــا قــاصــداً ليــلاه يــرجــو وَصْلهــا
مــا اقتفينــا فــي الصَّحــارى أثــرا مُنــذ ليــلانــا أقــامــت فــي القُــرى

---

(١) السجود الأول جمع ساجد .
(٢) المطلع هنا مطلع القصيدة .
(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .
(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، وليل لقيس .

إنمـــا المقصـــودُ روحُ العمـــلِ ... كيفَــه والكـــمَّ منــه تجتلـــي[١]
دوَران الـــدَّم فـــي أعـــراقنـــا ... مســرعٌ بـــالجــدِّ فـــي أغــراضنــا
الحيـــاةُ الحـــقُّ منـــه تستعِـــرْ ... تجمــع النَّــار بــه مثــلَ الشَّقِــرْ[٢]
هـــو مضـــرابٌ لعُـــودِ الهمَّـــة ... مـــركـــزٌ يَجـــذبُ كـــلَّ القـــوَّةِ
حـــرَّك الأعضـــاء فـــي ركـــب البشـــر ... جـــامعـــاً شتَّـــى عيـــونٍ فـــي نظـــر[٣]
فكـــنِ المجنـــونَ فـــي هـــذا الحبيـــبْ ... طُـــفْ بـــه طـــوف فـــراشٍ بـــاللهيـــبْ
أبـــدعَ القمـــيُّ فيمـــا أسمعـــا ... علَّـــم الأوتـــار معنـــىً مُبـــدَعـــا[٤]
رامَ نَقْـــشَ الشَّـــوك حينـــاً رَجِـــلُ ... فـــاختفـــى عـــن نـــاظـــريـــه المحمَـــل
لحظـــةً يـــا صـــاحبـــي إن تغفُـــلِ ... ألـــفَ ميـــلٍ زاد بُعـــدُ المنـــزلِ
ذاكـــمُ العـــالَـــمُ دَيـــرٌ قـــدُمـــا ... بـــامتـــزاج الأمَّهـــاتِ انتظمـــا[٥]
كـــم وكَـــم يُنبـــت مـــن مقصبـــةِ ... ليـــراعٍ فيـــه نـــار النَّـــوحـــةِ
كـــم تـــدمَّـــت مـــن يـــديـــه روضـــةُ ... لتـــربَّـــى مِـــنْ شقيـــقٍ زهـــرةُ[٦]
كـــم تُـــرى نقشـــاً وكـــم تمحـــو يـــداه ... ليُـــرَى نقشُـــك فـــي لـــوحِ الحيـــاه
كـــم مـــن الأرواح بُثَّـــت أنّـــةُ ... لتَعـــالَـــى مـــن أذانٍ نغمـــةُ[٧]

---

(١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .

(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعر به . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .

(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .

(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
« ذهبت لأنقش الشوك من قدمي فاختفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .

(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .

(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكمل في العالم شاقٌّ أليمٌ ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدَّم هذا أول الكتاب .

(٧) تعالى : تتعالى .

ورجالَ الزور دهراً ربَّبا … وعلى الأحرار والَى الحَرَبا
ثَمَّ في طينك إيماناً بذر … كِلْمةَ التوحيد من فيك نَشَرْ
نقطةٌ دارَ عليها العالَمُ … كلمةٌ صار إليها العالَم
قوةٌ فيها تُدير الفَلَكا … وبها الشمسُ تُنيرُ الحَلكا
لؤلؤ البحر نمى منْ نورها … به الموجُ طما منْ نورها
نَفحُها صيَّر طيناً سنبُلا … وَجدُها صيَّر ريشاً بلبلا[1]
في عروقِ الكَرْمِ منها شُعلة … وبطين الكأس منها لمعةُ
لحنها في مِزْهَر الكَون استتر … أيها العازفُ! يدعوك الوتَر
نغماتٌ فيك تَسري كالدَّمِ … أعملِ المضرابَ في ذا النغَم
كِلْمةُ التَّوحيد منك المقصدُ … أنت للتكبير فيها توجَدُ[2]
الجهاد المرُّ حِلفُ المسلم … أو يُدوِّي الحقُّ بينَ الأممِ
أنتَ لا تدري بآيات الكتابْ … أمةَ العَدْل يسمِّينا الخطاب
أنتَ في الأيام نورٌ وبصرْ … شاهدٌ أنتَ على كلِّ البشر[3]
ادعوَنْ كلَّ لبيبٍ ، أبلغِ … وعن الأمّيِّ قولًا بلِّغ
قوله ما فيه نُطقٌ عنْ هوَى … صادقٌ ما ضلَّ يوماً أو غوى[4]
نبْضَ هذا الكون قد جسَّت يداه … فتجلَّى سرُّ تقويم الحياه
نضَّرَ الأزهار في رَوض الدَّهَر … ومحا الأدناسَ عنها والكدَرْ
دينُه فيه الحياةُ الخالده … لا تراها عنْ هُداهُ حائده
أيها التالي الكتابِ المنزَل … شمِّرنْ ، لا تقعُدنْ عنْ عملِ

---

(١) السنبل : نبات طيب الرائحة .
(٢) فيها : في الدنيا .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .
(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١ ـ ٣] .

يعشق الأصنامَ عقلُ الأمم — ناحتٌ أو عابدٌ للصَّنم
هو أحيا سُنَّةً من آزرا — محدِثاً فيها إلهاً للورىٰ
اسمه لونٌ ودارٌ ونسب — هو من سفك دماء في طربْ[1]
وعَلَى أقدام هذا الصَّنمِ — ذُبحَ الإنسانُ ذَبْحَ الغنمِ
أيها الشاربُ من كاس الخليلْ ! — يا حميَّ النفْس من طاس الخليل !
سيفَ « لا موجود إلا هوْ » خُذِ — وبه الأصنام هذي فاجذُذِ
في ظلام الدَّهر أشرِق للملا — وانشرنْ حقّاً عليكَ اكتملا[2]
خجلتَا لك في اليوم العسيرْ — حينما يسألك الهادي البشيرْ :
قد أخذت الحقَّ عنِّي ما دهاك — لم تبلِّغه بحقٍّ لسواك !

* * *

في بيان أنَّ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالَم

مؤمناً بالغيبِ غير الغافل — كارهاً كالسَّيل قيدَ السَّاحل!
اعلُ عن ذا الطِّين غصناً ناضرا — وصِلِ الغائبَ واغزُ الحاضرا
ذلك الحاضرُ تفسير الغيوبْ — وهو مفتاحٌ لتسخير الغُيوبْ
ما سوى اللهِ لتسخيرِ العملْ — صَدرُه للرَّمي ، فاقذِف لا تُبَلْ
ما سوى اللهِ تراه يُخلق — لترى سهمَك فيه يمرُق[3]
عقدةٌ تلقاك بَعْدَ العُقدةِ — ليُرَى في الحلّ لُطفُ الحيلة
فسِّرَنْ يا كِمُّ ! روضاً نفسكا — سخِّرَنْ يا طلُّ ! ذي الشمس لكا
من يسخِّر عالَم الحسِّ سما — ومن الذَّرَّة يُخرجْ عالَما

---

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحس ، وبيان أنَّ هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كـلُّ مـا فـي الكـون مـن بحـرٍ وبـرّ ... لـوحُ تعليـمٍ لأربـابِ النَّظـر
أيُّهـا النـائـمُ طـالـت غفلتـهْ ... عـالَـم الحـسِّ جفتـه همَّتُـهْ
قُـمْ وفتِّـح بصـراً قـد سُكِّـرَا ... لا تحقِّـر عـالَمـاً قـد حُقِّـرا
إنَّـه تـوسيـعُ ذاتِ المسلـم ... وامتحـانٌ لصفـاتِ المسلِـم
هـو يبلـوك بسَيـف الـزَّمـنِ ... لتـرى أنَّ دمـاً فـي البـدَن
اضـربِ الصَّـدر بقهـر القـوَّةِ ... اختبـرْ عظمَـك فـي ذي الصَّـدمـة
جعـل الحـقُّ الـدُّنَـى للخيِّـريـن ... وجـلاهـا لعيـون المـؤمنيـن
هـذه الـدُّنيـا طـريـقُ الظَّعَـنِ ... هـذه الـدُّنيـا محـكُّ المـؤمـنِ
فـأسِـرَنْهـا قبـلَ أن تـأسـركـا ... لا تُضِـعْ فـي جـوفهـا جـوهـرَكـا
أدهِـمُ الفكـر الـذي يطـوي الفضـاء ... والـذي يجتـازُ آفـاقَ السَّمـاء
سـاقَـه فـي الكـونِ حـاجـاتُ الحيـاه ... فهو في الأرض وفي النَّجم خُطاه
يبتغـي فـي الكـون تسخيـر القـوى ... لتُـرى فيـه بـأعلَـى مُسْتَـوى
نـائـبُ الحـقِّ ، بحـقٍّ آدمُ ... حكمه في الأرض ماضٍ حاكِم[1]
لـكَ مـنْ ضيقـكَ ، منهـا سعـةُ ... ولأعمـالـك فيهـا فسحـةُ
صهـوةَ الـرِّيـحِ اعلُـوَنْهـا آمـرا ... ألْجِمَـنْ هـذا الجـوادَ النَّـافـرا
شـقَّ قلـب الطَّـوْدِ عـن جـوهـره ... شـقَّ مـوجَ البحـر عـن درٍّ بـه
ألـفُ كـون فـي فضـاء تُكفَـتُ ... رُبَّ شمـسٍ قـد حـوتهـا ذرَّةُ
بشعـاعٍ أظهـرنْ مـا احتجبـا ... واكشفَـنْ عـنْ كـلِّ سـرٍّ حُجبـا
مـن شُعـاع الشَّمـس نـاراً فـاقبِـسِ ... ومـنَ السَّيـلِ بـروقـاً فـاخلِـسِ[2]
ثـابـتُ الأنجـم أو سيَّـارُهـا ... التـي قـد عُبـدتْ أنـوارُهـا
كلُّهـا يـا صـاحِ عُبـدانٌ لكـا ... وإمـاءٌ سُخِّـرتْ مـن أجلِكـا
سيِّـرنْ فكـرك فيهـا عسَسـا ... سخِّـرن آفـاقهـا والأنفُسـا

---

(١) يعني أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحقّ ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتـــح العيـــنَ وأنعِـــمْ نظَـــرا / أبصـرن فـي الـراح معنىً مُضمَـرا
كـم ضعيـفٍ فـي قـويٍّ أمَـرَا / حيـن فـي الكـون أجـال البصـرا
أيُّها المقصود من أمرِ ﴿ انظروا ﴾ / كيـف فـي آفـاقهـا لا تنظـر ؟[1]
قطـرةٌ مـن نفسِهـا ذاتُ خَبَـرْ / خمرةٌ في الكرم ، طلٌّ في الزَّهَر
وهـي فـي البحـر تـراهـا جـوهـرا / جوهـراً كـالنَّجـم في الليـل سرى
كـالصَّبـا لا تهـفُ حـولَ الصُّـوَرِ / اطلبـنْ فـي الـروض معنى الـزَّهَـرِ
دون مضـرابٍ لِحـونـاً سيِّـرا / ومـن الأحـرف طيْـراً طيِّـرا[2]
أيُّهـا الظَّـالـع فـي حَـزْنِ الحيـاه / أيُّهـا الغـافـل عـنْ طعـنِ الحيـاة
بلَّـغ السَّعـيُ الـرفـاقَ المنـزلا / أنـزَلـوا ليلـى وحَطّـوا المحمـلا
وبقيـتَ اليـوم قيسـاً مبلسـا / فـي الصحـارى عـاجـزاً مستيئسـا
« علَّـمَ الأسمـاءَ » فخـرُ الآدمـيّ[3] / حكمـةُ الأشيـاء نصـرُ الآدمـيّ

* * *

في بيان أنَّ كمال حياة الأمَّة أن تشعر بنفسها كالأفراد وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن الأمَّة ورواياتها

أرأيـتَ الطفـلَ يـا ذا البَصَـرِ ! / مـا لـه عـنْ نفسـهِ مـن خبـرِ
ليـس يـدري مـا قـريـبٌ وبَعيـدْ / كـرةَ النَّجـم بكفَّيـه يـريـد
مـا سـوى الأمِّ يـرى منـه الجفـاءْ / همُّـه أكـلٌ ونـومٌ وبكـاء
ليـس تـدري أذنُـه مـا النغمـةُ / لحنُـه ثـورتُـه والضجَّـةُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .
(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكره غُفلٌ ضعيفُ الأثرِ ... قولُه فيه صفاءُ الجوهرِ

ليس في تفكيره إلا السؤالْ ... أين ؟ أنَّى ؟ ومتى ؟ في كلٍّ حال

كلُّ نقشٍ عنده ينطبعُ ... وهو كلٌّ غيرَه يتَّبع

عينه إمَّا بكفٍّ تُطبق ... تتنزَّى روحُه في قلَقِ

فِكْرُه في الجوِّ واهِ حذرُ ... كصُقَيرٍ لاصطيادٍ يُجبرُ

خلف صيدٍ في حِذَار يُرسلُه ... ثُمَّ يدعوه إليه يُعجلُه[1]

ثم غشَّاه لهيبُ الفِكَرِ ... فرَمَى خُذروفُه بالشَّررِ[2]

فتراه عينُه مُشتعلنا ... فيدقُّ الصَّدر يعني : ها أنا[3]

ومنَ الذِّكرى ينمِّي نفسَه ... غدَه يربطُ فيه أمسَه

ينظمُ الأيامَ خيطُ الذّهبِ ... نسَقَ الدرِّ بسمطٍ مُعجِب

جسمه يُرمِي ويُكري قائلا : ... مثل ما كنتُ أراني ماثلا[4]

« أنا » هذي بدءُ مقصود الحياه ... اليقظة في عود الحياه

مثَلُ الأمَّة حين النَّشأةِ ... مثلُ الطِّفل ضعيفَ المُنَّة

هي طفلٌ نفسَه لا يعرفُ ... جوهرٌ غشَّى عليه الصَّدَفُ

يومُه بالغدِ لم يوصلْ ولا ... بصباحٍ ومساءٍ سُلسلا

وبعيْنِ الكون إنساناً يُرَى ... كلَّ شيءٍ ما عداه أبصرا[5]

---

(١) كالصقر الصغير الذي يُعلَّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .

(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمرة النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دويّ .

(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .

(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .

(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْـدَ لأيٍ طـرَفُ الخيـط بـدا … بعد ما حلَّت يداها العُقدا[1]

فإذا رازَ قُواها الدَّهَرُ … يتجلَّى ذا الشعورُ المضمرُ[2]

أسطراً تمحو ، وأخرى تسطُر … صفحاتٍ بيديها تَزبرُ

يُبلِس الفردُ إذا ما انتثرا … عِقدُ أيامٍ عليه قُدِّرا

نورُ قومٍ من مداد السِّيَر … نفسَه يعرفُها بالذِّكَر

أمةٌ قد نسيَت سيرتَها … ينسخُ الدَّهرُ غداً آيتها

أنت سِفرٌ كتبته السِّيرةُ … خَيْطُه أيامُك الموصولةُ

ثوبنا أيامُنا في الزَّمن … وخياطُ الثَّوب حفظُ السُّنن[3]

ما ترى يا غِرُّ تاريخ البَشَرْ ؟ … قصةٌ ! أسطورة ؟ لَهو سَمَر ؟

في سَناه أنت بالنفس بصيرْ … في هداه أنت بالسَّيْر خبيرْ

إنَّه أعصابُ جسمِ الأمَّة … إنَّه في الروح مثلُ الشُّعلةِ

هو يجلوك كسيفٍ مخذَمِ … ثمَّ يرمي بك بين الأمم

أيُّ عودٍ ذي فنون تسحَر ! … نغماتُ الأمس فيه تُؤثَر

خامدُ الشُّعلة ، فيه يُشعلُ … يومُه للأمس فيه ماثِلُ

شمعه كوكبُ بختِ الأمم … وسنا اليوم وأمسِ المظلم

عينه تُبصرُ ما قد عَبَرا … وتُرى الماضيَ حيَّاً مُحضَرا

وعتيقُ الرَّاح في كاساته … وخُمارُ الأمس في نَشْواتهِ

صائدٌ يَرجعُ في أشراكنا … طائراً قد طار من بستاننا

فاذكر التاريخَ واستحكِمْ به … عِشْ بأنفاسٍ مضت ، في طبِّه

أحكِمنْ وُصْلةَ يومٍ وغدِ … والحياةُ امضِ بها طوعَ اليدِ

---

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقــدِ الأيــام قَســراً بمِهــازْ أو فعِـش أعمـى بليـلٍ ونهـازْ[1]
صاحِ ! مـنْ مـاضيك تبدو حالُكـا ومـنَ الحـال بـدا استقبالُكـا
إن تُـرِدْ خُلْـدَ حيـاةٍ فصِـلِ مـا مضـى بـالحـالِ والمستقبَـلِ

***

في بيان أنَّ بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأنَّ حفظ الأمومة واحترامها منْ أصول الإسلام

نغَمـاتُ المـرءِ عَـزْفُ المـرأةِ هـو مـن محنتهـا فـي عـزَّةِ
كسـت الـذُّكـرانَ ربَّـاتُ الحجـالْ إنَّ ثوب العِشْق من نَسجِ الجَمال[2]
عَشَـقُ الحـقِّ رَبـاهُ حِجـرُهـا ذلـك اللحـنُ حـواه صـدرُهـا
الـذي قـدْ بهَـر الكـونَ سَنـاه قـرَن الطيـبَ إليهـا والصَّـلاه[3]
جهـلَ القـرآنَ جَهـلاً مُسلـمُ قـد رآهـا أمـةً لا تُعْظـمُ
إنَّمـا الأمُّ علينـا رحمـةُ وإلـى الـرُّسْـل لـديهـا نسبـةُ
رأفـةُ المـرسَـل فـي رأفتهـا سيـرُ الأقـوامِ مـن صنعتِهـا
ومـن الأمِّ علـتْ أقـدارُنـا وبِسيمـاهـا بـدا مِقـدارنـا[4]
لفظـة الأمَّـة فيهـا نُكـتُ أتُـرى فكـرُكَ فيهـا يَثبـتُ ؟
إنمـا الأمـة مـنْ وصـل الـرحِـمْ دونـه أمـرُ حيـاة لا يتـمّ
قـال خيـر الخلـق ، وهـو الحجـةُ : تحـت رِجـل الأمّهـاتِ الجنَّـةُ

---

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبارالرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوبٌ في سيما الأم .

كُشفــت بــالأمّ أســرارُ الحيــاه بخــلال الأمّ تَسيــارُ الحيــاه
وبهــا فــي نهــرنــا يعلــو العُبــابْ ويــدوم المــوج فيــه والحَبــابْ

* * *

هــذه الغِــرّة بنــتُ القــريــة عَبلــةُ الجِسْــم وغُفْــل السَّحنــة
حيَّــة العَيْــن ، كَهــامُ المِقــوَل دون تعليــمٍ وصقــلٍ الصيقــل[1]
ألَــم الأمّ عليهــا يثقُــل وجهُهــا يُعــربُ عمــا تَحمِــلُ
أمــرنــا يُحكَــمُ مــن آلامهــا صبحُنــا يشــرق مــن إظــلامهــا[2]
إنْ تَهــبْ مــن حِجــرهــا لــلأمَّــةِ مسلمــاً حقّــاً عظيــم النَّجــدةِ
والتــي رقَّــت وخفَّــت مَحمِــلا بــاطــنُ المــرأة فيــه عُطِّــلا[3]
شــعَّ نــور الغَــرب فــي فكــرتهــا وتُــرى الثــورةُ فــي مقلتهــا
قطَّعــتْ أوصــال هــذي الأمَّــةِ حيــن طــاشــت عينُهــا بــالنَّظــرةِ
إنَّ حــرِّيتهــا أصــلُ البــلاء إنَّ حــرِّيتَهــا فقــدُ الحيــاءْ
ليلهــا مــا ضــاء فيــه نجمُهــا لــم يطــق أعبــاء أمٍّ علمُهــا[4]
ليتهــا لــم تَنْــمُ فــي روضتنــا ليتهــا تُغْسَــلُ مــنْ حُلَّتنــا

* * *

أنجــمُ التَّــوحيــد فــي غيــبِ الأبــدْ مضمــراتٌ ليــس يحصيهــا عَــددْ
لــم تُسَيّــبْ بَعْــدُ مــن قَيــد العــدَم لــم تُقيَّــد بعــدُ فــي كيــفٍ وكــمّ
جَلَــواتٌ فــي دجــانــا تُضمَــر فــي ظــلام الكــون عنَّــا تستــرُ
قطــراتٌ لــم تَــزِنْ زهــرَ الــرُّبــى وزهــورٌ لــم تفتِّحهــا الصَّبــا

---

(١) كهام المقول : عيية اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .
(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائها .
(٣) صدفت عن الحمل والوضع .
(٤) لم يضيء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنمـا تنبتُ هـذي الـزهَـراتْ ... نـاضـراتٌ فـي ريـاض الأمهـات
أيهـا العـاقـلُ ! مـالُ الأمَّـة ... ليـس مـن عِقيـانهـا والفضَّـةِ
إنَّـه أولادهـا مِـلءُ الأمـل ... فـي ذَكـاءِ ونشـاطِ وعَمـلْ
تحفـظ الأمُّ إحـاء الأمَّـة ... وقُـوى قـرآنِنـا والمِلَّـة

***

في بيان أنَّ سيِّدة النِّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّساء المسلمات

أمُّ عيسـى نسبـةٌ واحـدةُ ... بثـلاثٍ تـزدهـي فـاطمـةُ :
قـرَّة العيـن لخيـر الأوَّليـن ، ... خـاتمِ الـرُّسْلِ ، وخيـرِ الآخِـريـن
نـافـخُ الـرَّوح بـدنيـا الـوهَـنِ ... خـالـقُ العَصْـرِ جـديـدِ السُّنَـن
وهـي زوجُ المـرتضـى ذا البطـلِ ... أسـدِ اللهِ الحكيـمِ الفيْصـلِ
ملـكٌ فـي الكـوخ زهـداً قـد أقـام ... كـلُّ مـا يملـك درعٌ وحُسـامْ
وهـي أمُّ السَّيـديـنِ الأكـرمَيـن ... حسـنٍ خيـرِ حليـمٍ وحُسَيـن
ذا سـراجٌ فـي ظَـلامِ الحـرَمِ ... حـافـظٌ وَحْـدَة خيـرِ الأمـم
ازدرى الملـكَ ابتغـاء الألفـةِ ... أطفـأ النِّيـرانَ بيـن الإخـوةِ
ذاك فـي الأبـرار ربُّ العَلَـمِ ... أسوةُ الأحـرار في الخَطْب العَمي
سيـرةُ الأولاد صنـعُ الأمَّهـات ... وخِـلالُ الخيـرِ طبـعُ الأمَّهـاتْ
زهـرةٌ فـي روضـة الصـدق البتـولْ ... أسـوةُ النِّسـوة فـي الحـقّ البتـولْ
فـاقـةُ السَّـائـل أذرت دمعهـا ... ليهـوديٍّ أبـاعـتْ درعَهـا(١)
كـلُّ مـن فـي الأرض قـد طـاع لهـا ... ورضـاهـا حيـن تُـرضـي بعلَهـا
نُشِّئـتْ مـا بيـن صبـرٍ ورضـا ... في الفَمِ القرآنُ ، والكفُّ الرَّحى

---

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دمعُها من خشية الله جرى ... في مصلاَّها يفوقُ الجوهرا
لقطَ الروحُ الأمينُ الدُّرَرا ... وعلى العرش المعلَّى نثرا
أنا لولا الشَّرع عن هذا نَهَى ... وإلى شرعِ الرسول المنتهى
طفتُ حولَ القبرِ إجلالاً لها ... ناثراً منْ سَجَداتي حولها

* * *

خطابٌ إلى المرأةِ المسلمة

مُشعلٌ مصباحُنا من نارِكِ ... عِرضُنا في الصَّون من أستارِكِ
خَلْقُك الطَّاهرُ فينا رحمةٌ ... قويَ الدِّينُ به والأمّة
طفلُنا علَّمتِه حين الفِطام ... كِلْمةَ التوحيد منْ قَبل الكلامْ
صِيغَ مِنْ حُبِّك أطوارٌ لنا ... فِعْلُنا ، أقوالنا ، أفكارُنا
برقُنا في سُحُبٍ منك ثوَى ... شَعَّ في الأطواد ، والبيدَ طوَى
ضاء دينُ الحقِّ من أنفاسِكِ ... ونما التوحيدُ في أحجارِكِ
ذلكِ العَصرُ غرورٌ ماكرُ ... وعلى الأديانِ باغٍ فاجرُ
عقلُه أعمى وبالله كفَرْ ... كم جهولٍ في شِراكِ قد أسَرْ
عينُه عينٌ وقاحٍ فاتكِ ... بِشباكِ الهُذْبِ كم منْ هالكِ !
صيدُه يحسَب حرّاً نفسَهُ ... مَيْتُه يزعمُ قصراً رَمْسَهُ[1]
بكِ يخضرُّ غِراس الوَحدةِ ... بكِ ينمو رأسُ مال المِلَّة
لا تسيري غيرَ نهج السَّلَفِ ... لا تبالي بجدىً أو تَلَفِ
احذري فتنةَ عصرٍ مُهلكِ ... وإلى صَدْرِكِ ضمِّي وُلْدَكِ
بَعُدتْ عن عشِّها في خطرِ ... هذه الأفراخ ، لمَّا تطِرِ

---

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حراً ، والميت يحسب رمسه قصراً لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فيــكِ تسمــو للمعــالــي فطــرةٌ　　فــاتبعي الــزهــراءَ ، نعــمَ الأســوَةُ
عــلَّ غصنــاً منــك يــأتــي بحُسَيْــن　　فتــرى النضــرَةَ رَوْضــاتٌ ذَوَيْــن

* * *

خلاصة مطالب المنظومة
في تفسير سورة الإخلاص
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ظهــر الصِّــدِّيــقُ لــي فــي الحُلُــمِ　　مُــزهِــراً منــه تــرابُ القــدَم
ذا « أمــنُّ النــاسِ » فينــا مَــن جَــلا　　طُــورُنــا منــه الكليــمَ الأولا[1]
هــو ثــانــي اثنيــن فــي الــدِّيــن وفــي　　صحبة الغار وفي القبر ، الوفي[2]
قلــتُ : يــا صفــوةَ أصحــابِ الصَّفــاء　　مطلَعَ الــدِّيــوان مــن أهــل الــوفــاء !
بــكَ قــرَّ الأسُّ فــي بُنيــانِنــا　　فــانظــرنْ مــا الطــبُّ مــن أدوائنــا
قــال : حتَّــامَ أسيــرُ الــوَهَــمِ　　ســورةُ الإخــلاص بُــرءُ السَّقَــم
نَفَــسٌ فــي كــلِّ صــدر جــائــلُ　　وهــي للتــوحيــد ســرٌّ هــائــلُ
فــاجلُ هــذا الســرَّ فــي كــل الفِعــالْ　　ولتكــن منــه مثــالاً للجمــال
الــذي سمَّــاك عبــداً مُسلمــا　　بــكَ للــوحــدةِ فــي الــدُّنيــا سَمــا
قلــتَ : أفغــانٌ ، وتــركٌ وعَجَــمْ　　لــم تَــزُلْ عمــا تعــودتَ القَــدَمْ
طهِّــرنَّ الحــقَّ مــن هــذي السِّمــاتْ　　اقصــدِ البحــر وخــلِّ القَنَــوات
يــا أسيــراً لِسمــاتٍ ويحكــا !　　قــد بَعُــدتَ اليــوم مــن دَوحتِكــا
أبــدل الــوحــدةَ بــالتثنيــةِ　　لا تقطِّــع صــاحِ ! حبــلَ الــوَحْــدَةِ

(١) إشارة إلى الحديث : « أمنُّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر » .
(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن بجانبه .

عـابـدَ الـواحـدِ ! وحِّـد واهجـرن ... كـلَّ تفـريـقٍ وللحـقِّ ارجعَـنْ
أيُهــا المُغفــلُ معنــى الكلـمِ ... أثْبتَـنْ فـي القلـب ألفـاظَ الفَـمِ
أمــــةً قطَّعتَهـــا فـــي أمـــمِ ... وهَـدَمْـتَ الحصـنَ فيـه تحتمـي
قُـــوَّةَ الإيمــان زِدْ بـــالعمـلِ ... مـــات إيمـــانٌ إذا لـــم يَعمـــلِ

* * *

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

أشعِـرَنَّ القلـبَ « الله الصمـد » ... تَخَلَّصَـنْ مِـنْ قيـد أسبـابٍ وحـدّ
ليـسَ عبـدُ اللهِ عبـدَ السبَـب ... مـا الحيـاةُ الحـقُّ دورَ اللَّولـب(١)
ليـسَ غيـرَ الله يـرجـو المسلـمُ ... وهُــو للنَّــاس جميعــاً سَلَـمُ
لا تبُثَّـــنَّ شَكـــاةً أحــدا ... لا تمـــدَّنَّ إلـــى الخَلــق يــدا
بـالشعيـر اقنـع ، تقيَّـل حيـدرا ... مـرحبـاً فـاقتلـه ، وافتـح خيبـرا(٢)
فيـمَ لـلأجـواد حمـلُ المِنَـنِ ... أنـت ، مـنْ لا ونعَـم فـي حَـزنِ
لا تـرُم رزق لئيـمٍ يُنغـصُ ... يـوسـفٌ أنـت ، فـأنَّـى تـرخُـصُ ؟
إنْ تكـن نمـلاً وكنـتَ المقْعَـدا ... لا تـؤمِّـل مـنْ سليمـان جَـدَى
خفِّـفِ الـزاد ، طـريـقٌ وعِـرُ ... عـشْ ومـتْ حـرّاً . عـداك الغَـرَرُ
اجعلن « أقلِلْ من الدُّنيا » الشِّعارْ ... و« تعش حـرّاً » بهـا كـلَّ الفخـار(٣)
وكــن الإكسيـرَ لا التُّـربَ بهـا ... معطيـاً لا سـائـلاً . فـي حبِّهـا(٤)

---

(١) إن أخلَصَ الإنسان لله ، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليٌّ رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بـو علـيٍّ » ليس مجهـولًا لـديـك جَرعةً من كأسه أهدى إليك :[١]
« تخـت قـابـوس اركلـنْ بـالأرجـل ابـذل الـرأس وبـالعـرض ابخـلِ »
يُفتــح الحـــانُ عَجــولًا نفسَــه لفقيــرٍ لــم يــدنِّــس كــأســه

* * *

قـائـدُ الإسـلام هـارون الـرشيـدْ مَنْ سقَى نقفورَ من ماءِ الحديد[٢]
قـال : يـا مـالـكُ مـولـى الأمَّـةِ أنــت يــا رونــقَ وجــه الملَّــةِ
أنـت يـا بلبـلَ فـردوسِ الحـديـث إنَّنـي أرغـب فـي درسِ الحـديـث
لِــمَ يُخفــى ذا العقيــقَ اليمــنُ ؟ اقصـدَن بغـداد ، نعـم الـوطـن[٣]
حبَّــذا زهــرةُ أيــامِ العــراق حبَّــذا حســنٌ بــه الأعيــنَ راقْ
تــربُــه فيــه مــنَ السُّقْـمِ نجـاه قــاطـرٌ مــنْ كـرْمِـه مـاءُ الحياه
قــال : « إنــي خــادمٌ للمصطفــى وبحسبــي حبُّــه لــي شــرَفــا
أنــا ، مــن قُيِّــدتُ فــي حُبِّــي لــهُ كيــف أنــأى عــن مكــانٍ حلَّــهُ
لــي فــي يثــرب حــبٌّ واشتيـاق[٤] أيـن مـن ليلي بهـا صبحُ العـراق ؟
ويقــول العشــق : أمــري امتثــلا لســتُ أرضــى بملــوكٍ خَــوَلا
أنــت تبغــي أن تُــرَى لــي سيِّــدا أن تُــرى مــولــىً لحــرٍّ عُبِّــدا
ألتعليمـــك أغشـــى بـــابَكـــا خــادمُ الأمَّــة لا يعنــو لكــا
إنْ تَــرُمْ فــي الــديــن علمـاً يُقتنَـى فـاغشيَـنْ حَلْقـة درسـي هـاهنـا »

* * *

---

(١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصُّوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .

(٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .

(٣) اليمن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .

(٤) في الأصل : أنا حيٌّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الـــذي استغنَــى جـديــرٌ بــالــدَّلال ... فـــي دلالٍ عنـــده كـــلُّ جمـــال
صبغــةَ الحــقِّ مَــن استغنــى اكتسَــى ... ورأى صبـــغَ ســـواه دَنَســـا
أنــت مِــنْ غيــرك تجــدو علمكــا ... بطـــلاءٍ منـــه تَطلـــي وجهكـــا
أنـــت منـــه بِشعـــارٍ تفخـــرُ ... أنــت ذا أمْ غيَّــرتــك الغِيَــر ؟[1]
خَشَعـــتْ أرضُـــك مـــن أمطـــاره ... وخـــلا البستـــانُ مـــنْ أزهـــاره
مطـــراً مِـــنْ مـــزنـــه لا تجتـــدي ... لا تُبِــذْ زرعَــك عمــداً بــاليــدِ
سَلْسَلَـــتْ عقلَـــكَ أفكـــارٌ لـــه ... مـــلأتْ حَلْقَـــكَ أوتـــارٌ لـــه
مستعـــارٌ كَلِـــمٌ فـــي فمكـــا ... مستعـــارٌ أمـــلٌ فـــي قلبكـــا
أعـــوزتْ طيــرَك ألحـــانُ الغنـــاء ... ليس في سروك في الجوِّ رُواء[2]
أنـت فـي كـأسـك خمـراً تجتـدي ... وكـذاك الكـأس جـدوى فـي اليـد
لـو يعـودُ اليـومَ فينـا ذو النظـرْ ... من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾[3]
مـــازَ صـــدقـــاً وكـــذبـــاً سمعُـــه ... وابتلـــى كـــلَّ فـــراشٍ شمعـــه[4]
ثـم نـادى « لسـتَ منـي » يـا فتـى ... ويلتـــا يـــا ويلتـــا يـــا ويلتـــا
فـــإلامَ العيـــشُ مثـــلَ الأنجـــمِ ... يَطْلُـــعُ الصُّبـــحُ لهـــا بـــالعـــدَم
أنـــت قـــد غـــرَّك صبـــحٌ كـــاذبُ ... أنـــت عـــن نَفْسِـــك حقّـــاً ذاهـــب
أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين ... لا تُضِنْهـــا مـــنْ نجـــوم الآخـــريـــن
إنَّ فـــي قلبـــك نفســـاً مـــن ســـواك ... بـــاعَـــتِ الإكسيـــرَ بـــالتُّـــربِ يـــداك
بســـراجِ النـــاس مغنـــاك أضـــاء ... وبخمـــر النَّـــاس فـــي الـــرأس انتشـــاء

---

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .

(٢) السَّرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إنَّ طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .

(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لـك حـولَ الشَّمـع فـي الحفـلِ دوار اغشَينْ نارك . هل في القلب نار(١)

ابـقَ فـي مثـواك مثـلَ البصـر لا تـدَعْ عُشَّـك مهمـا تَطِـر(٢)

حَـيَّ فـردٌ نفسَـه قـد عَـرفـا وقبيـلٌ عـن سـواه صَـدفـا(٣)

عـن طـريـق المصطفى لا تـذهبَنْ واتـرك الأربـابَ ، واللهَ اعبُـدَنْ

* * *

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قـد عـلا قـومُـكَ عـن لـونٍ ودَمْ وعـلا أسـودُه حُمـرَ الأمـم

فـي وضـوءٍ قطـرةٌ مـن قنبـر هـي أغلـى مـن دمٍ مـن قيصـرِ

اتـركـن عمَّـاً وأمَّـاً وأبـا وكَسلمـان إلـى الـديـن انسبـا(٤)

يـا خليلـي اسمـع حـديثـي واعقِـلا مـن خـلايـا النَّحـل هـذا المثـلا :

قطـرةٌ مـن شَقـرٍ كـالقَبَـسِ ثـمَّ أخـرى مِـنْ بيـاضِ النَّـرجـسِ

لـم تقُـلْ هـذي : أنـا نَيلَـوْفَـر أو تقـلْ هـاتيـك إنِّـي عَبهَـرُ

شـأنُ إبـراهيـمَ فـي ملتنـا ديـن إبـراهيـم فيـه شهـدُنـا

إنْ جعلـت الـدمَ ركـنَ الملَّـة صـدَعـتْ دعـواك جمـعَ الإخـوة

فـي ثَـرانـا ليـس ينمـو بَـزْرُكـا أنـتَ مـا أسلـم حقّـاً فكـرُكـا

---

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالبصر ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدَّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .

(٤) يروى أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابـــنُ مسعـــودٍ سِـــراجُ المتَّقيـــن   جسمــهُ والـرُّوح وَجْـد المُخبتيــن
أجَّ مـــن مـــوت أخيـــه صَـــدْرُه   وأذابَ القلـــبَ منـــه جمـــرُه
لـــم يجـفَّ الـدَّمـع مـن حـرقتـه   نـاحَ نَـوحَ الأمِّ فـي لَـوعتـهِ :
« آهِ للقــــارىء درسَ العظــــةِ   ورفيقـي فـي طـلابِ الحكمـةِ »
« آهِ للسَّـــروِ الـذي قـــد وَرَفـا   وشـريكـي فـي ولاءِ المصطفـى »
« عينُـــه تُحـــرَم إبصـــار النَّبـــيّ   وأنـا أشهـد أنـوار النبـي[1] »

* * *

مـا مـن الأنسـاب يَقـوَى وصلُنـا   ليـس مـنْ رومٍ وعُـرب أصلُنـا
إنمـا حـبُّ الحجـازيِّ الحبيـب   قـد حبانا ذاكمُ الـوصلَ القريب
حَسْبُنـــا آصـــرةٌ مـــنْ حُبِّـــهِ   حسبُ عيـن نشـوةٌ فـي قـربـه
جــدَّد الــدَّهــرُ بنـا سيـرتَـهُ   مُـذْ حـوت أعـراقُنـا نشـوتَـه
عشقُـــه سِـــرُّ اجتمـــاع الأمَّـــةِ   نبضَـت منـه عـروقُ الملَّـة
صلـةُ العِشْـقِ لنـا أقـوى سَبـب   هو في الروح ، وفي الجسم النسب
أيهـا العـاشـق خـلِّ النَّسبـا   خـلِّ إيـران ، وخـلِّ العَـربـا
نـــورُ حـــقٍّ مثلَـــه أمَّتُـــه   قـــد نمـت أغصـانَنـا دوحتُـهُ
« نـــور حـــقٍّ مـــا حـــواه نسـبُ   ثوبُ حقٍّ ، لا سِدَى أو لُحمةُ »[2]
مـن ثـوى فـي نسـبٍ أو بلـدِ   قد غَفا عن ﴿ لم يلدْ ولم يُولَد ﴾

* * *

---

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾

صاحِ ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقرْ ... عامِراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟
زهْرةٌ من شَقِرٍ في القُننِ ... لم تَرُعها طلعةٌ من مُجتنِ
نَفساً ينفخ فيها السَّحَرُ ... فتراها لهباً يستعرُ
تُشفق الزُّهرُ عليها تحسَبُ ... أنَّها خُلِّف عنها كوكبُ
النَّدى منها نُعاساً يَغسِل ... وشُعاعُ الشَّمس فيها قُبَلُ
﴿ لم يكن ﴾ أمسِكْ بها واشدُد يدا ... لتُرى في الناس حُرّاً أوحَدا
ذلك الواحدُ لا شرِكَ له ... عبدُه يأبى شريكاً مِثلَه
قد سما المسلم أعلَى مَنْ سَما ... ليس يرضى بمُسامٍ في السَّما
وِردُه ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزِق ... ﴿ أنتم الأعلَون ﴾ تاجُ المَفرِق
حملَ الكونين طرّاً ظَهرُه ... وحوى برّاً وبحراً صدرُه
أذْنُه للرَّعد إمَّا جَلجلا ... صدرُه لِلْبَرق إمَّا نزلا
قاتِلُ الزُّور ، وللحقِّ وزَرْ ... أمرُه المعيار في خيرٍ وشرّ
جمرُه كلُّ لهيبٍ في حشاه ... جوهرٌ فيه كمالٌ للحياه
ليس في ضوضاء هذي الأمم ... نغمةٌ إلا أذانَ المُسلمِ
هو في العفو وفي البذل عظيمْ ... وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريم
لُطفُه في الحَفلِ جبرُ المنكسِرْ ... قهرُه في الحرب صهرٌ للحجَر
هو في الرَّوض صفيرُ البُلبلِ ... وهو في البِيد انقضاض الأجدل
قلبه تحت سَماءٍ لا يقرّ ... هو فوق الزُّهرِ ما إن يستقرّ
طائرٌ ينقُر نجمَ الحُبكِ ... طائراً فيما وراء الفَلَكِ
أنتَ ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناح ! ... دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ ... قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران[1]

---

(١) القران : القرآن .

قد هَبَطَتَ الأرضَ طُهراً كالنَّدى | بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلام العيشُ في التُّرب ؟ ارحلا | اصعدَنْ فوق السمواتِ العُلَى

***

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَّرَتْ منك مُحيَّاها الحياه | ورأت تعبيرَ رؤياها الحياه
الجهاتُ الستُّ نورٌ يَسطعُ | منك ، والأقوامُ جمعاً تَبَعُ
إنَّ فقراً فيكَ ذخرُ الكائنات | قد تعالى بك قدرُ الكائنات[1]
أنتَ أشعلتَ مصابيحَ الحياه | وحبوتَ النَّاس من رقٍّ نجاه
صُورُ الكون بدت من دونكا | فاقةً تشكو وتشكو الحَلَكا
نَفَسٌ منك أطار الشَّرَرا | فاستحالَ الطِّينُ مِنْهُ بشرا[2]
وَسَمَتْ للنَّيرينِ الذَّرَّة | وتجلَّتْ من حَشاها القوّة
من أبي أنت وأمي أقرب | مذ رأى وجهَك طَرفي المعجَبُ
عشقُك النارَ بجسمي يُضرِم | فليُذِبْ روحيَ منه ضَرَمُ
ومتاعي أنَّةٌ مثلَ الرَّبابْ | إنها المصباح في بيتي الخراب
كيف لا يُبدي شَجٍ أتراحَه ؟ | كيف لا يُبدي زجاجٌ راحه ؟
ضلَّ عنْ سرِّ النبيِّ المسلمُ | مؤنثاً قد صار هذا الحرَم[3]
كلُّهم في قلبه يثوي هُبَلْ | ومناةٌ فيه والعُزَّى تحُل

---

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكليم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلامٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شيخُنــا يفضلــه البــرَهَمَــنُ   سُمنــاتٌ رأسَــه يستــوطــنُ[1]
هجر العُربَ ، وفي العُرْبِ عِصَمْ   وأطـال النَّـوم فـي حـانِ العجـم
فــتَّ بَــردُ العُجـمِ فــي أعضـائـه   دمعُــه أبــردُ مــنْ صهبـائــه
هـو ، كـالكـافـر ، يَخشى الأجلا   صَــدْرُه مـن قلـب حـيٍّ قـد خـلا
داؤه كــلُّ طبيــبٍ مــا شفــا   فحملـتُ النَّعـشَ عنـد المصطفى
هــالكــاً عــرَّفتــه مــاء الحيــاه   ومــن القــرآن أســرار النَّجــاه
قلــتُ عــن أحبــاب نجـدٍ قِصَّتـي   حَـدثـتْ عـن روضِ نجـدٍ نفحتـي
فــأضــاء الحفــلَ مــن لحنـي أيـاة   ودَرى قــومــي أســرار الحيــاة[2]

* * *

قيــلَ : أهــدي سحــر أوْرُبَّـة لنـا   وبقــانــونِ الفــرنــج افتتنــا[3]
واهبــي عــودَ سُلَيمــى كــرَمــا   والأبــوصيــريَّ بُــرداً كــرُمــا[4]
اهــدِ للحــقِّ ، الــذي قــد أفكــا   الــذي يجعــل مــا قــد ملكــا[5]
إنْ يكــن قلبــي غَــوَى لا يُبصـرُ   أو ســوى القــرآنِ لفظــي يُضْمِـرُ
أنـت يـا مـن نـورُه صبحُ العُصـور !   أنـت يـا عـالـمَ أسـرارِ الصـدور !
اهتكــنْ أستــار فكــري وافضحــنْ   طهِّـرن مـن شـوكتي روضَ الـزَّمن
وحيــاتــي اقطــع لأجــل الأمَّــةِ   واكفيَــنْ شــرِّي أهــلَ الملــةِ
أبعدنْ عن روضتي الغيث المَريع   واحـرمنِّـي مـن شـآبيـبِ الـرَّبيـع
جفّــفِ الــراح بكَــرمــي عــاجـلا   وامــلأنْ واحــيَ سُمَّــاً قــاتــلا

---

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعيد الهنادك بناءه اليوم .
(٢) الأياة : شعاع الشمس .
(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .
(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمى يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .
(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخــزِيَنِّــي يــوم حشــر الأمــم   واحــرمَنِّــي منــك لثــمَ القــدَم
أو أكن أخلصت نصحي في البيانِ   ونظمــت الــدُّرَّ مــنْ ســرِّ القُــرانِ
فــدعــاءٌ منــك أجــري وكفــى   بــكَ كــمْ نــال وضيــعٌ شــرَفــا
اســألــنَّ اللهَ ربَّ العــرش لــي   يجعلَــنْ عشقــي قــريــنَ العمــل
ربِّ قــد أنعمــتَ بــالرُّوح الحزيـن   ونصيباً شئـتَ لـي مـن علـمٍ ديـن
فــاجعلَــنْ فــي الفعــل حظِّـي أوفـرا   واجْعَلَــنْ قَطــرَ ربيعــي دُررا

* * *

أمــلٌ آخــر فــي القلــب أقــام   مُــذْ حــوىٰ قلبــيَ فــي الــدنيــا مُقــام
هــو فــي صــدري كقلبــي نــزلا   شــاهــداً صبــحَ حيــاتــي الأوّلا
أمــلٌ أذكيــتُ منــه لهبــي   مُــذْ شــدا بــاسمــك أمــي وأبــي
كلّمــا غيَّــض منِّــي الــزمــنُ   ودهــانــي ريبُــه والمِحــنُ
شــبَّ فــي قلبــيَ هــذا الأمــلُ   ونمــا بــالعتــق فيــه الثَّمَــل
إنَّــه تحــت تــرابــي جَــوهــرُ   كــوكــبٌ فــي جنــح ليلــي يُسفِــر

* * *

همــتُ حينــاً بــذواتِ الحــوَرِ   وتعشَّقْــتُ ذواتِ الطُــرَرِ
وعلــى الــرَّاح صحبــت الغــانيــه   حيــن أطفــأتُ ســراجَ العــافيــه
وأحــاطــت بَيْــدري نــارُ البُــروقْ   وغــزا قلبــيَ قُطَّــاع الطــريــقْ
وبــروحــي لــم يــزل هــذا العُقــار   وبكيســي لــم يــزل هــذا النُّضــارْ

* * *

لبــس الــزُنَّــارَ عقلــي الآزريّ   وغــزا روحــي بــالنقــش الفــريّ(١)

---

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

فـي إسـار الشـكِّ أمضيـت سنيـنْ … وهـو فـي رأسـي مقيـمٌ لا يَبيـن

أحـرُفـاً مـا نلـتُ مـنْ عِلـم اليقيـن … ومن الحكمة في الريب رهين(١)

لـم يَلُـح فـي ليـل عُمـري نـورُ حقّ … لـم يُنِـرْ ليلـي شعـاعٌ مـن شفَـقْ

وفـؤادي مُضمـرٌ هـذا الـرجـاء … صـدَفٌ فـي قلبـه دُرٌّ أضـاء

ثـمَّ مِـنْ عينـيَّ دمعـاً سَجَمـا … وتجلَّـى فـي فـؤادي نغمـا(٢)

* * *

يـا مَـن القلـبُ سِـواه أغفـلا ! … ائـذنَـنْ أذكـر هـذا الأمـلا

سيـرتـي مـا ضـاء فيهـا العمـلُ … كيـف مثلـي مثـلَ هـذا يـأمُـلُ ؟

أنـا مِـنْ إظهـاره فـي خجَـلِ … منـك لُطـفٌ يسَّـرَ الجُـرأة لـي

يـا رحيمـاً بـك للنـاس مفـاز … كلُّ ما أبغيه موتي في الحجاز(٣)

هَجْـرُ غيـر الله شـأنُ المسلـمِ … كيـف لـي عيـشٌ ببيـت الصنـم ؟

حسـرةُ المسلـم إنْ حُـمَّ الممـات … أن يكـون الـدَّيرُ مثـوى للرُّفـات(٤)

ويـلَ يـومـي ، وهنيئـاً لغـدِي … إن أقُـمْ فـي ذا الحِمَـى مـن لَحَـدي

حبَّـذا أرضٌ تـراهـا مـوطنـا ! … حبَّـذا تـربٌ تـراه مسكنـا !

---

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الّذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوَّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنَّ في قلبه .

(٣) كرَّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجِّ ، وسأله أن يدعو اللهَ ليقبل حجَّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسِّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دارُ حبِّــي ومليكــي والسَّكــن أيَّها العُشَّاقُ ! ذا نِعْمَ الوطن »[1]
كــوكبــي أطلِعْــهُ بــالسَّعــد غــدا في ظـلال الـدَّار هـبْ لـي مـرقـدا
ليــرى الــراحــةَ قلبــي القلِــقُ ويــرى الهــدأةَ هــذا الــزئبــقُ
أيُّهــا الــدَّهــر انظـرَنْ هــذا السَّــلام قـد رأيـتَ البـدءَ فـانظـرْ مـا الختـامْ

* * *

(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .

الدِّيوانُ الثَّالِثُ

رِسالةُ الشَّرْقِ
پيام مشرق

نقلَهُ إلى العربيَّة
الدكتور عبد الوهّاب عزّام

طبع هذا الدِّيوان أوّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشَّاعر فوق عنوان الديوان : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب ديوان الشاعر جوته » .

وقدَّم محمد إقبال هذا الدِّيوان على أنَّه شعر الفارسيَّة الكامل ، لأنَّه قدَّم إلى القارىء اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشِّعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادفنا في الديوانِ الشعرُ الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والدِّيوان روضةٌ من الشِّعر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات فيها وألوان وصنوف الرَّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشتات الزهر من المشرق والمغرب .

* * *

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضَّرب الّذي يسمَّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلًا ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمسٌ وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشَّاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويردّ .

القسم الخامس : الدَّقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الدِّيوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدَّم إليكَ الآن مع مقدمة الشاعر .

* * *

مقدمة محمد إقبال[1]

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمَّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالًا هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصِّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تتيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقالٍ له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارعة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذُ الدكتور عبدُ الوهاب عزَّام .

استراسبورج حيث كان يتعلَّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيَّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتَّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبَّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشَّرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنَّ قصتَه « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت پيكر » واستهلَّها بقوله :

كفت كز جملهٔ ولايت روس

بود شهري بنيكوئي چو عروس

* * *

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتدأ التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمُر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلِّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهيأة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبة أخذت روحه القلقة المحلقة تلتمس عشاءً في فضاء الشرق الساكن الآمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختار آخر الأمر « للديـوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرةً في جوته فحسب ، بل كانت مأخـذاً لخيـالاته العجيبة الغربية ، فيبدو نظمه أحياناً كأنَّه ترجمـةٌ حـرَّةٌ من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوةَ تخيُّله في مصرعٍ

واحدٍ مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغةً في الدِّقة والصُّعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنَّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك السُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السَّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحرُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوتِه المطبوعة تتجلَّى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثَّر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »[1] وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيِّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامَّةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلًا في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلُّف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه ـ ساقي نامه ـ عشق نامه ـ تيمور نامه ـ حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلِّه فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غربيته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

---

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التَّصوُّف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفياً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصُّوفي في كلام حافظ أيَّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرُّومي وحقائقه الفلسفية مبهمةً عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي) »[١] .

والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .

* * *

وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمَّا بلاتن ؛ فقد تعلَّم الفارسيَّة لمقاصد أدبيَّةٍ ، ونظم غزلًا في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدةً في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلُّفٍ ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغزُّل المحض كذلك .

وأمَّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانةٌ عظيمةٌ في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلىء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

---

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية(١) وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظوماتٍ بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدَّةٍ قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرُّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلةٍ بالتأثير الشَّرقي ، ولم يهتمَّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشَّرقي إلا ديوان جوته ، على أنَّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنَّ قلبَ هذا الشاعر الألماني الحرَّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوَّر نفسه مرَّةً شاعراً إيرانياً أُجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنَّ أخاكم في سجن الغم يخفق حنيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلةً ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلةٍ عاليةٍ في العلم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

---

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدَّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقًّا ، ولكن لم يتيسَّر الوقت ، ولا العدَّة لهذا البحث . ولعلَّ هذا البحث المختصر يثير قلب أحد الشبان للتَّحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

* * *

وأما « پيام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنَّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتَّصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنَّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنَّ الاضطراب الباطن في أمم العالم . . الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به ـ هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينيها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطالية » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن واأسفاه لم يستطع عبَّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرةً أدبيةً خالصةً نرى أنَّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مُثُلٍ روحيةٍ صحيحةٍ ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ، والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شكَّ أنَّ أمريكا عنصر صحيح في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ، ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

* * *

إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدِّل ما حولها حتى يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في كلماتٍ يسيرةٍ وبليغةٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبيِّن للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعىً في العالم ـ ولا سيما في بلاد الشرق ـ يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

* * *

وأختم بالثناء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسوَّدات « پيام مشرق » للطبع . ولولا احتماله هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال

* * *

القسم الأول

شَقَائِق الطُّور

- ١ -

شَهيدُ دَلالـه حَفْلُ الوجود ... وكلُّ الكائناتِ من السُّجُود[١]
ألم ترَ أنَّ شمسَ الأُفقِ لاحتْ ... بوجهِ الصُّبح من أثر السُّجُودِ ؟

- ٢ -

بقلبي من تحرُّقه ضياءُ ... ويجلو النُّور في عيني البكاءُ
فزاد من الحياة نوىً غبيٌّ ... يقول : العشقُ مسٌّ أو هُراءُ

- ٣ -

نسيمُ العِشْقِ في الجنَّات جارِ ... ويُنمي العِشْقُ أزهار البراري
ويخترقُ البحارَ له شعاعٌ ... فيهدي العشقُ حيتان البحار

- ٤ -

رموزُ العِشْقِ في ورَق الشقائقْ ... وغمُّ العِشْقِ في رُوحِ الخلائقْ
وإن تَصْدَع طباقَ الأرض تُبصر ... نصيبَ العِشْقِ من دمِ كلِّ عاشِقْ

- ٥ -

وما كلٌّ له في الحُبِّ كفلُ ... وما كلُّ الوَرَى للحُبِّ أهلُ
على وَرَقِ الشَّقائق وَسْمُ غمّ ... ويخلو منْ شرار القَلب لَعْلُ[٢]

- ٦ -

بهذا المزج مثلَ الرِّيح[٣] أسْري ... علامَ أهيمُ فيه ؟ لستُ أدري
فإنْ أظفرْ وإن أُخفقْ فإنّي ... شهيدُ تضرُّمِ الآمال عُمْرِي

---

(١) جمع ساجد .
(٢) اللعل : أي العقيق .
(٣) الريح : الرائحة .

ـ ٧ ـ

يقول العندليبُ : أيا صحابي ! أغيرُ الغمِّ في هذا التراب ؟
يَشيخُ الشوكُ في عَرضِ الفيافي ويذوي الوردُ في عُمُر الشبابِ

ـ ٨ ـ

لبَدْءٍ أو ختامٍ لَستُ أسْرِي أنا سرٌّ أحاولُ كَشْفَ سرٍّ
فإنْ بَدتِ الحقيقةُ دون ستر رجعتُ إلى « لعلَّ » و« ليت شعري »

ـ ٩ ـ

أقلبي ! كالفراش هوى ، إلامه ؟ ولا تمضي مضاء فتى ، إلامه ؟
بنارِكَ فاحترقْ يوماً وأقدمْ بنارِ الأجنبيِّ صلَى ، إلامه ؟[1]

ـ ١٠ ـ

أقمْ بدناً على كفِّ الغُبار[2] شديدَ الأسْر صُلْباً كالحجار
وقلباً فيه جيَّاشاً بهمّ كنهرٍ في حمى الأطواد جار

ـ ١١ ـ

أنجمَ الصُّبح تُسرع في فراقٍ لعلّك من رُقادي ضقتَ ذَرعا
ضللتُ بغفلتي سُبُلي ولكن أتيتَ وجُزْتنا يقظانَ تسعى

ـ ١٢ ـ

وكم ذا في الوجود من الحُبور ! أرى اللَّذاتِ في شَوق الظهورِ
ويَصدَع غُصنَه بُرعومُ زَهرٍ فيبسم للحياةِ منَ الشُّرور

ـ ١٣ ـ

تقول فراشةٌ منْ قبل خلقٍ أنلني لمحةَ قلقِ الحياة
رمادي فاذرُه سَحَراً ولكن أذقْني ليلةَ حُرَق الحياة

---

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .
(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

ـ ١٤ ـ

بني الإسلامِ ! سرٌّ في ضميري يُضيء كرُوحِ جبريلَ الرسولِ
أخادع آزريَّ الطبع عنه[1] فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

ـ ١٥ ـ

أراكَ بسرِّ أفلاكٍ تجولُ وتجهلُ سرَّ نفسك يا جهولُ
فوَجِّه ـ كالنواة ـ إليك عينا ليُنبت منْ قرارتك النخيلُ

ـ ١٦ ـ

تَغنَّى طائرٌ سحراً طويلا فأبدَعَ شدوَه نغماً وقيلا :
أبِنْ عمَّا بصدرك لا تدعْه غناءً أو أنيناً أو عَويلا

ـ ١٧ ـ

أتبغي عند مِثلي مِنْ شرابٍ يرُدُّك منْ وجودك كالبعيد
فلا تطلُبْ بسوقي مِنْ متاعٍ سوى صدرٍ تمزَّق كالورودِ[2]

ـ ١٨ ـ

تَسوءُكَ رَوضتي مَرأىً إذا لم يَسرُّكَ في طلابٍ بذلُ روحِ
أُبيِّن في عُروق الوَرد سِرّاً ربيعي ليس من لونٍ وريحِ

ـ ١٩ ـ

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ على غصْني أنوحُ مع الرِّياح
فإنْ تكُ من رقاق القلب فابعُد فإنَّ دمي ليرشَحُ في نُواحي

ـ ٢٠ ـ

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبلْ وعان الكدَّ في بحر وبرِّ
وموتنْ في الوغى تزدَدْ حياةً إلامَ تحيد عن كرٍّ وفرٍّ ؟

---

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمزِّق صدره ليتجلَّى جماله .

- ٢١ -

لـــه نقـــشٌ يُجـــدَّد كـــلَّ حيـــنٍ فـــلا تَبقـــى الحيـــاةُ علـــى غِـــرار
فـــإنْ صـــوَّرت يـــومـك مثـل أمـسٍ فمـــا يَحـــوي تـــرابـك مِـــنْ شـــرار

- ٢٢ -

بهـــذا المَـــرجِ مـــا علَّقـــتُ قلبـــي مضيـــتُ ولـــم تعـــوِّقنـــي القيـــودُ
كـــريـــح الصُّبـــح طفـــتُ بـــه قليـــلاً مضيـــتُ ونضّـــرت منِّـــي الـــورودُ

- ٢٣ -

أجـــاش بقطـــرتـــي بحـــراً وردَّتْ حُميَّـــاه تـــرابـــي جـــام جـــمٍّ(١)
أقـــام العقـــلُ أصنـــامـــاً بـــرأســـي خليـــلُ العِشْـــق بـــادَرهـــا بهـــدمِ

- ٢٤ -

أتيـــتَ الطُّـــور تلْتمـــسُ التجلِّـــي فـــروحُـك منـك ليسـت فـي وصـال
فـــأَقْـــدِمْ فـــي طـــلابـــك آدميًّـــاً كـــذاك اللهُ فـــي طلَـــب الـــرِّجـــال

- ٢٥ -

لخـــوفِ المـــوت قلبُـك فـي ارتعـادٍ ولـــونُـك حـــالَ مـــنْ خـــوفِ الشَّتـــاتِ
فنفسَـــك أُحْكُمَـــنْ وازدد نضـــوجـــاً فـــإنْ تفعـــل تعـــشْ بعـــد الممـــاتِ

- ٢٦ -

دَع الـــــرازيَّ فـــــي تفسيـــــر آي فـــإنَّ ضميـــرنـــا نعـــم الـــدليـــلُ
يضـــرِّم عقلُنـــا والقلـــبُ يصلـــى بـــذا نمـــرودُ فسَّـــر والخليـــلُ

- ٢٧ -

فـــأبلـــغْ شـــاعـــر الألـــوانِ عنِّـــي : لهيبُـــك كـــالشَّقـــائـــق لا يَضيـــرُ
فنفسَـــك لا تُـــذيـــب بنـــارِ قلـــبٍ ولا ليـــــلاً لمحـــــزونٍ تنيـــــرُ
جميلُـــــك أو قبيحُـــــك لا أراه جَعلـــتَ عيـــاره ربحـــاً وخُسَـــرا
بهـــذا الحفْـــلِ مـــن مثلـــي وحيـــداً ؟ أرى الـــدُّنيـــا بعيـــنٍ فـــيَّ أخـــرى

---

(١) كأس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطآن لا تركنْ إليها ... ضعيفٌ عندها جَرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارِع فيه موجاً ... حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أتكثرُ لي حديثاً عن حياةٍ ... ولسْتُ أراكَ فيها بالحقيقِ ؟
سَكِرْتُ بلذَّة التَّسيار حتَّى ... جعلتُ منازلي مِيْلَ الطَّريقِ[1]

- ٣٠ -

مَرَرْتُ بزهرةٍ ذبلتْ فقالتْ ... وجُودي مثلُ ما طارَ الشرارُ
يذوبُ لِمِحْنَةِ النقاشِ قلبِي ... فليسَ لنقشِ ليقتهِ قرار

- ٣١ -

أرى الدُّنيا على سعةٍ كحوتٍ ... من الأيام في بحرٍ عميقِ
فقلبَك أبصرنْ واعجب لبحرٍ ... منَ الأيام في كاسٍ غريق

- ٣٢ -

أنا في المرح حِدّيثُ الطيورِ ... ومقوَلُ كلِّ بُرعومٍ صَغير
فأسْلَمَ للصَّبا تُربي بموتي ... فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهور

- ٣٣ -

أوادي الورد يُبدي كلَّ شيءِ ... فما سرُّ الشَّقائق في لهيبٍ ؟
بأعيننا الرُّبى أمواجُ لونٍ ... فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغي يَعشق الأصنام كفراً ... يربُّها ويعبد كلَّ حين
فأبصر في فؤادي نارَ عشقٍ ... بعيدٌ أنت مِن سَنَني وديني

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

ـ ٣٥ ـ

عــوالــمُ مِــنْ نجــوم لا تُحَــدُّ   يطيــر الفكــر فيهــا لا يُــردُّ
ولكــن فــي خفــايـا القلــب يُلفــى   لمــا يحتــويــه الحــدُّ ، حــدُّ

ـ ٣٦ ـ

بسلسلــةِ القضــاء ربطــتَ رجــلاً   وفــي سعــةِ العــوالــم ضقْــتَ حــالا
فقُــم إن كنــتَ فــي ريــبٍ وحــاول   تجــدْ للــرِّجــل فــي الــدنيــا مجــالا

ـ ٣٧ ـ

بضــربــك قــد علــتْ أنغــامُ رُوحــي   أفــي روحــي وخــارجَهــا تكــون ؟
بــرقــك خــامــدٌ وبــك اشتعــالــي   بــلا كيــفٍ فكيــف تُــرى بــدونــي

ـ ٣٨ ـ

أيــا قلبــي ! أيــا قلبــي ! أيــا قلبــي !   أيــا فُلْكــي ! ويــا بــرِّي وبحــري !
قَطَــرْتَ علــى تُــرابــي كــالنَّــدى أمْ   نبــتَّ بتُــربتــي بُــرعــوم زهــرٍ ؟

ـ ٣٩ ـ

أتســأل مــن أنــا مــن أيــن جيــت   حبيــتُ بمــا علــى نفســي طُــويــتُ
بهــذا البحــر مثــلَ المــوج أسـري   إذا لــم أطــو فــي نفســي فنيــتُ

ـ ٤٠ ـ

عليــك السَّيْــرَ لا تــرغــب مَقيــلا   وســرْ كــالشَّمــس لا تَــرقُــبْ دليــلا
وهَــبْ لــلآخــريــنَ متــاعَ عقــلٍ   ونــارَ العِشْــق فــاخْفَظْهــا بَــديــلا

ـ ٤١ ـ

ألا يــا عشــقُ ! يــا رمــزَ الفــؤاد !   ويا زرعي النضير ! ويا حصادي !
تقــادمَ أهــلُ هــذا التُّــرب فــاخــرجْ   بــآدم مُحــدَثٍ مــن ذا الــرَّمــاد

ـ ٤٢ ـ

يــرى قلــبُ الشُّجــاع الليــث وهمــاً   وفــي قلــب الجبــان الظَّبــي بَبْــرُ
فــإن تجبُــنْ رأيــت المــوجَ وحشــاً   وإنْ تشجُــعْ فــإنَّ البَحْــرَ بــرُّ

- ٤٣ -

أخمــراً خلَتنــي أمْ كــأسَ خمــرٍ ... ودُرّاً خلتنـــي أم كيـــس درّ
أرانــي غيــر روحــي وهــي غيــري ... متــى أنظــر إلــى مكنــون ســرِّي

- ٤٤ -

تقــول : بطيــرنــا عَلِقــتْ قيــودُ ... وفــي شَــركِ الجسـوم لهــا همــودُ
ومعنــى الــرُّوح بــالأجســام يعلــو ... مِســنُّ سيــوفنــا هــذي الغُمــودُ

- ٤٥ -

فكيــف بقلبنــا وُلِــدَ الــرَّجــاءُ ... وكيــف ســراجُ منــزلنــا يُضــاء
ومــن فــي العيـن يبصر ؟ ما يـراه ؟ ... وكيــفَ حــوَىٰ النُّهــى طيــنٌ ومــاءُ

- ٤٦ -

لنـــا كـــون لأزميـــلٍ ونحـــتٍ ... يقلِّبـــه صبـــاحُـــك والمســـاءُ
مثـــالٌ مـــن تُـــراب لـــم يكمَّـــل ... يســـوِّيـــه بمبـــرده القضـــاءُ

- ٤٧ -

طــريقُــك فــانحتنــه فــي كفــاحٍ ... طــريــقُ ســواك مسلكُــه عــذابُ
فــإنْ أبــدعــت فــي عمــلٍ فــريّ ... وإنْ يــك مــأثمــاً فلــك الثــوابُ

- ٤٨ -

دليــلُ القلــب لا يــرضــى نــزولًا ... ولا يُــرضيــه مــاؤك والتُّــرابُ
فــلا تحسبــه فــي جســدٍ مقيمــاً ... فــلا يــرضــى بشــطٍّ ذا العُبــاب

- ٤٩ -

تَخــذْتُ لخلــوتــي طينــي ومــائــي ... وبُــوعــدَ بيــن أفــلاطٍ وبينــي
فلــم أستجــد يــومــاً عيــن غيــري ... ولـــم أر عـــالمـــي إلَّا بعينـــي

- ٥٠ -

تـــرى رمـــز الحيـــاة بكـــل كـــمٍّ ... مجـــازٌ فيـــه يـــا قلبـــي الحقيقــه
بتُـــربٍ مظلـــمٍ ينمـــو ولكـــن ... لـــه عيـــنٌ إلـــى شمـــس الخليقــه

ـ ٥١ ـ

يُضـيء علـى المـروج وكـلِّ سَهْـبِ ... وكـاسُ الـورد فيـه نـورُ حُـبِّ
ومـا تَغْشَـى الـورى ظلمـاتُ ليـلٍ ... فحـرقتـه السِّـراج لكـلِّ قلـب

ـ ٥٢ ـ

وبـالعـدَمِ استـزابـت ثـمَّ راغـت ... فحلَّـت قلـبَ آدم للثَّـواء

ـ ٥٣ ـ

بقلبـي سـرُّ جُثمـانٍ وروحٍ ... فـلا فـزع إذا أجلـي أتـانـي
فـإمَّـا غـاب عـن عينـيَّ كـونٌ ... فبـاقٍ ألـفُ كـونٍ فـي جنـانـي

ـ ٥٤ ـ

مـزاجَ الـزَّهـر أعـرف فـي يقيـنٍ ... وريـحُ الـورد فـي خَلَـد الغصـونِ
وحبَّبنـي إلـى الأطيـار أنِّـي ... عَـرَفـتُ لهـا مقـامـاتِ اللُّحـونِ

ـ ٥٥ ـ

نظـامُ الكـون مـنْ شعـر الـرَّجـاء ... لـه الأوتـار مِـنْ وتَـر الـرَّجـاء
بعينـي كـلُّ مـا يمضـي ويـأتـي ... هـو اللَّمحـاتُ مِـنْ دهـر الـرَّجـاء

ـ ٥٦ ـ

يهيـمُ القلـبُ فـي أثـر الـرَّجـاءِ ... وصـدري مـن ضجيـجٍ فـي عنـاءِ
فـلا تطمـعْ جليسـي ! فـي حـديثـي ... فـإنـي مِـنْ فُـؤادي فـي نـداءِ

ـ ٥٧ ـ

أرى الحكمـاءَ تحطـمُ كـلَّ شكـلٍ ... ومِـنْ هـذا الـوجـودِ بسـومنـات(١)
يـريـدون المـلائـك فـي طـلابٍ ... ومـا ظفـروا بـآدم فـي الحيـاة

ـ ٥٨ ـ

جلسـتُ مـع الطبيعـة ألـف عـامٍ ... وُصِلْـتُ بهـا وعـن نفسـي فُصِمْـتُ
قُصـارى سيـرتـي فـي ذاك أن قـد ... نحتُّ ، وقد عبدتُ ، وقد حطَمْتُ

---

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

- ٥٩ -

بنفسي جلوةُ الأفكارِ ، ما هذا ؟ وحولي محشر الأسرارِ ، ما هذا ؟
أبِن لي يا حكيمُ : يقيم جسمي وروحي دائم التَّسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إنْ تُحِطْ خُبراً وكمّك يفضْ مِنْ قطرةٍ لك فيض يَمِّك
فيا قلبي لم استجداءُ شمسٍ ؟ من الأنفاس نوِّرْ ليلَ غمِّك

- ٦١ -

أفق ما القلبُ بالأنفاس يَحيا ولا هُو رهنُ ما يبقى ويفنى
أخا الأوهامِ لا ترهَبْ حِماماً فإنْ نَفسٌ مضى فالقلبُ يبقَى

- ٦٢ -

إلى أهل التَّصوُّف والصفاء رجالُ اللهِ أرباب الضياء :
أنا عبدُ الهمَّة عبد نفس بنورِ النَّفس للخلَّاق راء

- ٦٣ -

بعُدَّة حاننا الغبرا غُبار ودورةُ كأسِنا الفُلكُ المُدار
حديثُ جهادنا مُضنٍ طويل ودُنيانا لقصَّتنا اختصار

- ٦٤ -

وما علَّقتُ بالأنغام قلبي وفي نغَم الحياة أنا الخبيرُ
وقد غنَّيتُ في الأغصان حتَّى تَصيحَ الطَّيرُ : من ذا ؟ يا زهورُ !

- ٦٥ -

أثرتُ بنغمتي كلَّ النوادي ومن شرَرِ الحياةِ جَعلتُ زادِي
أضاء القلبُ من عقلي ولكنْ جعلتُ عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجم فتياناً بزمْري وراجَ متاعُهُم منْ بعد خُسرِ
وكانوا هائمين بكلِّ وادِ وقافلةً نَظَمْتُهُم بشعري

- ٦٧ -

بروحِ العُجْمِ مِنْ نَغَمي شرار قرعتُ لهم بأجراسي فساروا

وعاليتُ الحداء لهم كعُزْفي[1] تباطأ محملٌ ونأتْ ديارُ

- ٦٨ -

نفثتُ النَّار مِنْ روحي نفثتُ وصدرَ الشَّرق قلباً قد وَهَبْتُ

وصيَّر طينَه لهباً نُواحي كبرقٍ في سجاياه نَفَذْتُ

- ٦٩ -

بأغصانِ الرَّجاء جنيتُ أكلاً وأفضى الدَّهر بالسرِّ المنيع

أراميّ اخشَ للبستان ربَّاً فإنَّ معي رِسالاتِ الرَّبيع

- ٧٠ -

بحار العُجم ليس لها قرارُ وفي أحشائها دُررٌ كبارُ

ولكنْ لا أحبُّ ركوبَ بحرٍ إذا لم يُخشَ في موجٍ خطارُ

- ٧١ -

على دُنياك تقضي بالهوانِ وسترٌ للمغيَّب كلُّ آن

فأخكم يومَك المشهودَ واعلمْ بأنَّ غداً ضميرٌ في الزمانِ

- ٧٢ -

كَرِهْتَ سيادةَ الإفرنجِ لكنْ سجُودُكَ للقبابِ وللقبورِ

ألفت عبادةَ السَّادات حتَّى لتنحتُ سادةً لك من صخورِ

- ٧٣ -

إلام تعيش في رثِّ الإهاب ؟ إلام تعيش نملاً في ترابِ ؟

فَطِرْ كالصَّقر معتزماً وحلِّقْ إلامَ أسيرُ حبٌّ في اليَبابِ ؟

---

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نوارا تلخ ترمي زن جوذوق نغمه كما يابى

حدى راتيز ترمى خوان چون محمل راكران بينى

ـ ٧٤ ـ

اتخـذ فـي الـوردِ والأزهـار عشـاً ... ومِـنْ طيـرٍ دروسـاً فـي انتحـاب
وإنْ ينقـصْ قُـواك الشيـبُ فـاؤخُـذْ ... مـن الـدُّنيـا نصيبـاً مـن شبـاب

ـ ٧٥ ـ

أهـابَ بمسمعـيَّ تُـراب قبـرٍ : ... وتحـت الأرض يُمكـن أن يُعـاشـا
لـه نَفـسٌ وليـس لـديـه روحٌ ... ذليـلٌ فـي مُـرادِ سـواه عـاشـا

ـ ٧٦ ـ

سمـاطـي ليـسَ فيـه مـا يـروقُ ... ولا فـي الكـأس لألأتُ الـرَّحيـق
غـزالـي يغتـذي عُشـب المَـوامـي ... ولكـن صـدرُه مسـكٌ فتِيـق

ـ ٧٧ ـ

قُلـوبُ المسلميـن قبسـن نـاري ... ودمعـي مـن عيـونهـمُ هَتـونُ
بـرُوحـي مَحْشـر قـد غـابَ عنهـم ... فلـم تـر مـا رأيـتُ لهـم عيـونُ

ـ ٧٨ ـ

أرى للعشـقِ تصـريفـاً عجيبـاً ... يقلِّـب كيـف مـا يهـوى القلـوبـا
رمـاك بـأدمـعٍ وسبـاكَ نفسـاً ... وصيَّـرنـي إلـى نفسـي قـريبـا

ـ ٧٩ ـ

رأيتـك لا تـزالُ أسيـر طيـنٍ ... إلـى تُـركٍ وأفغـانٍ تُـردُّ
أنـا بشـرٌ بـلا لـونٍ وريـحٍ ... وللتـوران أو للهنـد بعـدُ

ـ ٨٠ ـ

أثـار الشِّعْـرُ فـي جنبـيَّ نـارا ... ورَدَّ التُّـربَ فـي طُـرقـي شَـرارا
حـديـثَ الحـبِّ حـاوَلَـهُ لسـانـي ... فـزاد السـرَّ تبيـانـي سِـرارا

ـ ٨١ ـ

تـولَّـى بعـدُ عـن عقـلِ الفنـون ... وأدمـىٰ قلبـه عِشْـقُ الشُّجـونِ
فـلا تستفـتِ إقبـالاً لشـيءٍ ... فـإنَّ حكيمنـا رَهْـنُ الجنـونِ

* * *

القسم الثاني

أفكـــــار

الوردةُ الأولى

لا أرى في المُروجِ لي من قريع | أنا أُولى زهورِ هذا الرَّبيع
أبتغي في الغدير صورة نفسي | لأرى وجهَ مؤنسٍ لي سميع
في سُطوري رسالةٌ بيراع | خطَّ سطر الحياة في ترصيع
أمس قلبي ، وعبرةُ اليوم عيني ، | وغدي مُنْيتي وكلٌّ بديع
وأنا النَّجمُ خلَّفته الثُّريّا | نَسَج التُّربُ ثوبَ وردٍ عليَّا

* * *

دعاء

أيا مالئاً كاسي بحانةِ فِطرتي | أذبْ طينَ كأسي من حرارة خمرتي
وصيِّرْ أنيني ثروة العشق واجْعَلَنْ | تراباً بسينائي تسعُّر شُعلة
إذا متُّ فاجعلني سِرَاجَ شقيقةٍ[1] | وبالبيدِ أحرقني وزدْ نار وشمتي

* * *

رائحةُ الورد

وحوراءَ في الخُلد ضاقتْ فقالتْ : | « جَهلنا بما تحتنا مِنْ جهاتِ
يحيِّرُ عقلي نهارٌ وليلٌ | وما قيل عن مَوْلدٍ أو ممات
غَدَتْ ريحَ وردٍ وذرَّتْ بغُصْنٍ | فحلَّت بعالمِ ماضٍ وآت

---

(١) يعني : زهرةً من الشقائق .

وتَفتَّح عيناً وتَبَسَّم كمّاً وبعد نماءٍ هَوَتْ في شتات
لهذي الطليقة لم تبق ذكرى سوى آهةٍ سمَّت بالشَّذاةِ[1]

* * *

نشيد الوقت

قد أحاطَ الشَّمسَ حِجري وحوى الأنجم صَدْري
أنا لا شيء ولكنْ فيكُمُ روحيَ تسري
أنا في دُورٍ وقفرِ أنا في كوخٍ وقصرِ
أنا داءٌ ودواءٌ وأنا عيْشةُ يُسْر
أنا سيفُ الدَّوران[2] أنا عَين الحيوَان[3]
إنَّ جنكيزَ وتيمو رَ قليلٌ من غُباري
ثورةُ الإفرنج فيها نَفَثَاتٌ منْ شراري
إنَّما الإنسان والدُّنيا نُقوشي وابتكاري
ودماءٌ مِنْ قلوبٍ في ربيعي كالبُهار
أنا لَفْحُ النِّيرانِ أنا رَوْض الرِّضوان
أنا سيَّارٌ مقيمٌ إنَّ هذا الأمرَ إمرُ
إنَّ في خمرةِ يومي منْ غدٍ يظهر سِرُّ
ألفُ كونٍ ، فانظُرَنْها في ضميري تستسرُّ
ونجومٌ في حباك وقبابٌ فيّ خُضرُ
أنا ثوبُ الإنسان أنا سرُّ الرحمن

---

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِــرِّي التَّقــديــرُ والتــد   بيــر مــنْ سحــرِ فنــونِــكَ
أنــــت مجنــــونٌ بليلــــى   أنــــا صحـــراءُ جنــونــك
أنــــا كــــالـــرُّوح بَـــرِّي   مــن خيــالات ظنــونــك
أنــت فــي جــوفــي ســرٌّ   وأنــــا ســـرٌّ شُـــؤونـــك
أنــــا حــــاد أنــــت نُــزُلُ   أنــا حَقْــلٌ أنــت حــاصــل
أنــــت فيَّــــاضٌ بلحــــنِ   أنــت نــار فــي المحــافــل
يــــا أسيـــر الطِّيـــن فكِّـــر   أنــت عــنْ قلبــكَ غــافــل
انظـــرنْـــه مـــلءَ كـــأسٍ   وهـــو بحـــرٌ دون ســـاحـــل
إنَّ مـــوجـــاً فيـــك يعلـــو   منـــه يبـــدو طـــوفـــانـــي

* * *

الرَّبيع

ـ ١ ـ

هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع   يخيِّـــم فـــوق الـــرُّبـــى والـــوهـــاد
وشَـــذو العَنـــادلِ فـــي كـــلِّ وادِ
ودُرَّاجُـــه والقطـــاء فـــي تهـــادي
على حـافـة النَّهـر جذْلـى شـوادي
شقيـــقٌ ووردٌ ضحـــوكٌ يُنـــادي
فطـــرفـــك ســـرِّح بهـــذا المُـــراد
هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع   يخيِّـــمُ فـــوق الـــرُّبـــى والـــوِهـــاد

ـ ٢ ـ

هلـــمَّ فمـــلءُ الـــرُّبـــى والسُّهـــولِ   قـــوافـــلُ أزهـــاره والـــوُرودِ
نسيـــمُ الـــرَّبيـــع علـــى كـــلِّ عـــودِ
وللطَّيـــر إبـــداعُهـــا فـــي النشيـــدِ

ومـزَّقـتِ الجَيْـبَ حُمْـرُ الخـدود[1]
جنـى الحُسـنُ نـاشـىء زهـرٍ نَضيـدِ
وللعِشْـــق إبـــداعُ غـــمٍّ جـــديـــدِ
هلـــمَّ فمـــلء الـــرُّبـــى والسهـــولِ   قَـــوافـــلُ أزهـــارِه والـــورودِ

ـ ٣ ـ

صفيـــرُ البـــلابـــلِ مـــلءُ الجِـــواء   وصوتُ الصَّلاصلِ ملءُ النَّسيم[2]
دمُ المـرج فـي جـوفـه كـالحَميـمْ
فيـا قـاعـداً صـامتـاً لا يـريـمْ !
دعِ الصمـت واتـركْ وَقـار الحليـمْ
وخَمْرَ المعاني اشربَنْ يا سقيمْ !
تـــدثَّـــر بـــوردٍ وغـــنِّ النـــديـــمْ
صفيـــرُ البـــلابـــلِ مـــلءُ الجِـــواء   وصـــوتُ الصَّـــلاصـــل مـــلءُ النَّسيـــم

ـ ٤ ـ

دعِ الـــدُّورَ واطلـــبْ فسيـــح البـــراري   وانظـــر إلـــى صفحـــاتِ الجمـــال
علـــى حـــافـــة المـــاء دونَ مـــلالِ
تـــأمَّـــلْ تَـــرَقْـــرُقَ مـــاءٍ زُلالِ
وحـــدِّقْ إلـــى نَـــرجـــسٍ ذي دَلالِ
بُنَيَّـــاتُ نيســـان ذاتُ اختيـــالِ
وقَبِّـــل عيـــونـــاً لهـــا كـــالـــلآلـــي
دعِ الـــدورَ واطلـــبْ فسيـــح البـــراري   وانظـــر إلـــى صفحـــات الجمـــال

ـ ٥ ـ

وعَيْـــنَ البصيـــرة فـــانظـــر بهـــا   أيـــا غـــافـــلاً عـــن عيـــان الخَلْـــقِ !

---

(١) شقائق النعمان .
(٢) الصلصل : الفاختة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيــقٌ بــدا حَلَقــاً فــي حلَــقْ
بــأعطــافــه لهــبٌ قــد عَلِــق
علــى كبــدٍ فيــه ذات حــرق
يلــوح نــدىً مــن دمــوعِ الفَلَــق
فحــدِّق إلــى أنجــم فــي شفــق[1]
وعيــنَ البصيــرة فــانظــرْ بهــا   أيــا غــافــلاً عــن عيــان الخَلْــقِ

ـ ٦ ـ

ثــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجــه   بمــا أضمــرتْ مُهَــجُ الكــائنــاتِ
فَنــاءُ الصفــات وكــونُ الصفــاتِ
ومــا أبــدتِ الــذَّات مــنْ جَلــواتِ
ومــا خِلْتَــهُ مــن معــانــي الحيــاةِ
ومــا خِلْتَــه مــن معــانــي الممــاتِ
فليــس لــه هــاهنــا مــنْ ثبــاتِ
ثــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجِــه   بمــا أضمــرتْ مهــجُ الكــائنــاتِ

* * *

الحياةُ الخالدة

لا تظــنَّ الخمَّــارَ وافــى ختــامــاً   كَمْ مِنَ الرَّاح في عُروقِ الكروم !
يجمُــل المــرحُ لا بثــوبِ حيــاةٍ   مــزَّقْتــه النَّسيــمُ كــالبُــرعــوم
مــنْ يُحــطْ بــالحيــاة لــم يــرض قلبــاً   لــم تَخِــزْه المنــى بشــوكٍ أليــمِ
مُحكمــاً كــالجبــال عــشْ ، لا ضعيفــاً   واهــنَ النَّــار طــائشــاً كــالهشيــم

* * *

(١) يشبه النَّدى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بكوكبٍ لأخيه يشكو : لنا بحرٌ وليس يَلوحُ ساحلُ
خُلقنا للمسير بلا وقوفٍ فليس لركبنا أبداً مَنازلُ

* * *

فإنْ تمض النجوم كما نراها فما جدوى العناء ؟ وما نُفيدُ ؟
بأشراك الزَّمان لنا إسارٌ سعيدٌ منْ يُجانبه الوُجود

* * *

لَهذا العبءُ محمله شديدُ فليتَ وجودَنا عدمٌ أبيدُ
كرهتُ القبَّة الزرقاء أوجاً حضيضُ التُّربِ خيرٌ لو نريدُ(١)

* * *

فطوبى لأبي آدم في طعانٍ قد استولى على طرْف الزَّمان
خليقٌ بالحياة له قوامٌ يُجدِّد أو يُخلِّق كلَّ آن

* * *

الحياة

بكى في الظَّلام سحابُ الرَّبيع فقال : الحياة بكاءٌ مديدْ
فقال له البرْقُ في ومضه : هل الضِّحْكُ في لمحة ؟ لا تزيدْ
فمن أبلغَ الروضَ هذا الحديث فصَار حوارَ النَّدى والورودْ ؟

* * *

---

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعِشْق

العلم :

أنـا سـرُّ الكـواكـب والجهـات — وفـي قيـدي ثـوى مـاضٍ وآت
وعينـي حـدَّقـت فيمـا أمـامـي — ومـا نظـري وراء السَّـابحـات ؟
وكـم نغَّمـتُ فـي عُـودي وبـوقـي — وأسـراري عـرَّضْـتُ بكـلٍّ سـوْق

العشق :

بسحـركَ سُجِّـرت هـذي البحـارُ — ومـلءُ الجـوِّ سَمُّـك والشـرار
وكنـتَ لـي الصـديـق فكنـت نـوراً — ونـوركَ مـذ هَجَـرتَ حمـاي نـارُ
وُلـدتُ الأمـس فـي حـرم الـرحيـم — وصـرْتُ اليـوم فـي قيـد الـرجيـم
هلـمَّ فَـرُدَّ روضـاً ذا اليبـابـا — ورُدَّ مَشيْـبَ دُنيـانَـا شَبـابـا
هلُـمَّ بـذرّةٍ مِـنْ نـار قلبـي — أقـم فـي الأرض فـردوساً عُجابا
كـلانـا الـدَّهـرَ خـلٌّ لا يجـورُ — للحـنٍ واحـدٍ بـمّ و زيـرْ

***

غناءُ النجوم

وجـودُنـا نظـامُنـا — وسُكْـرنـا انسجـامُنـا
فـي دَوْرنـا دوامُنـا — لا يُـرتجـى مقـامُنـا
فـي فلـكٍ مـرامنـا — ننظـر سـائـراتِ
وجلـوةَ الشهـودِ — ومظهـرَ البـدود[1]

---

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

ومعـــرَك الـــوجـــودِ والعـــذمِ والمـــوجـــودِ
والغَيـــب والمشهـــودِ ننظـــر ســـائـــراتِ

وحَلبـــةَ الطِّعـــانِ ونشـــأةَ الشُّجعـــانِ
وغِيـــرَ التيجـــانِ وذِلَّـــةَ السُّلطـــانِ
ولعـــبَ الـــزَّمـــانِ ننظـــر ســـائـــراتِ

مضـــى زمـــان المـــولـــى والعبـــدُ قـــد تـــولَّـــى
سِكنـــدرُ قـــد ولَّـــى وقيصـــرُ قـــد ذلَّا
والـــوثـــنُ اضْمَحـــلاَّ ننظـــر ســـائـــراتِ

والصمـــتَ والصيـــاحـــا والـــذُّلَّ والكفـــاحـــا
والخنْـــعَ والطمـــاحـــا وتـــارةً أفـــراحـــا
وتـــارة أتـــراحـــا ننظـــر ســـائـــرات

عقلُـــك فـــي عَقـــدٍ وَحـــلّ مِنْ كمْ وكيف في شُغُل
مثـــل غـــزال قـــد عُقِـــل مضطـــربٌ ومضمحـــلّ
ونحـــنُ فـــي العليـــا نحـــلّ ننظـــر ســـائـــراتِ

***

مـــا السـرُّ مـــا الظهـــور ؟ ومـــا الـدُّجـى مـــا النُّورُ ؟
مـــا القلـــبُ مـــا الشعـــورُ ؟ مـــا فطـــرةٌ ضجـــورُ ؟
مـــا الغيـــبُ والحضـــورُ ؟ ننظـــر ســـائـــراتِ

كُفـــركَ عنـــدنـــا أمـــمُ حـــولـــك عنـــدنـــا لمـــمُ
يـــا مـــن بصـــدرِه خضـــمُ قنعـــتَ بـــالظَّـــل انسجـــمْ
نحـــنُ بعـــالـــمٍ نهـــمٌّ ننظـــرُ ســـائـــراتِ

***

نسيمُ الصُّبح

أجـــيء مـــن لـــجٍّ بَحـــرِ ومـــن قـــلال الجبـــالِ
مُسيَّـــــراً لســـــت أدري مـــن أيـــن شُـــدَّت رحـــالـــي
أُزجـــي لِطـــائـــر غـــمٌ بشـــرى ربيـــعِ الجمـــالِ
ونـــاثـــراً تحـــت عُـــشٌ نِثَـــارَ زَهـــرٍ غَـــوالِ
بخُضـــــرة أتـــــرَدَّى وبـــالشقيـــق اتصـــالـــي
حتَّـــى يهـــجَ فيـــه لـــونـــاً وريحـــاً وصـــالـــي
يمـــــسُّ أوراق وردٍ تلطُّفـــي واحتيـــالـــي
فـــلا تميـــلُ غصـــونٌ مـــن طـــوفـــيَ المتـــوالـــي
وشـــاعـــرٍ هيَّجَتْـــهُ همـــومُ عِشْـــقٍ لقـــالِ
مـــزجـــتْ أنفـــاس صـــدري بلحنـــه والمقـــالِ

* * *

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّـــم بنـــيَّ بـــأنَّ الصُّقـــورَ لهـــا قلـــبُ ليـــثٍ وجســـمٌ صغيـــر
فكـــنْ مُحْكَـــم الـــرأي شهمـــاً جســـورا علـــيَّ السجـــايـــا أبيـــاً غيـــورا
بُغـــاث الطيـــور اهجـــرنهـــا بعيـــدا ودعهـــا إذا لـــم تُـــرِدْ أن تصيـــدا
فتلـــكَ الـــرعـــاديـــدُ نســـلُ اللئـــام تـــدسُّ منـــاقيـــرهـــا فـــي الـــرَّغـــامْ
أرى البـــازَ صيـــداً لمـــا اصطـــاده إذا قلَّـــد الصيـــد مـــا اعتـــاده[1]
فكـــم بـــاشـــقٍ قـــد أتـــاه النَّـــوى بصحبـــةِ لقَّـــاطِ حـــبُّ هـــوى

---

(١) يعني : إنْ قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل   جريئاً متيناً قويَّ العضل
ودَعْ للدَّراريج لينَ الجسد[1]   وكن مخلباً كالمُدى أو أحدّ
متاعُ الحياة ، تعلَّم ، جهادُ   وصبرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخٍ عقابٍ عتيق :   « بريق الدِّماء يفوق العقيق »
ولا تبغ سِرباً كَسِرْب الغنم   توحَّدْ كقومك منذ القدم
سمعتُ وصاة الصّقور العتاق   بألا نقيم بظلٍّ وساق
فليس لنا في رياضٍ مجال   فسيحُ الفيافي لنا والجبال
ولقطك حبّاً بأرض خطاء   حبانا الإله عنانَ السَّماء
فأمّا خطىً في التُّراب النجيب[2]   فأشرف منه حمام ريب
فإنَّ بساطَ البزاة الحجر   يحدُّ مخالبهنَّ الصَّخر
نماك الأوابدُ زرق العيون   كأنك عنقاء جوٌّ متين
أصيلٌ أبيٌّ بيوم الخطر   كفيلٌ بإنسان عين النَّمر
جناحُك منْ سَطَوات البروق   من الشُّهب فيك كريمُ العروق[3]
فَطِرْ في السموات لا تخشَ خطبا   وكلْ ما أصبتَ يبساً ورطبا
ولا تقبلنَّ طُعمةً من أحد   وكنْ راشداً واستمعْ للرَّشد

***

سوس الكتب

(الأرضة)

سمعتُ : بمكتبي ليلةً   يُنادي الفراشة سُوسُ الكتاب

---

(١) دراريج : جمع دراج وهو طائر معروف .
(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل .
(٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

يقـول مـررتُ بكتْـب ابـن سينـا ونقَّبْـتُ فـي كتُـبِ الفَـاريـابـي
ولـم أدر حكمـة هـذي الحيـاة وما زلت من ظُلمتي في حجابِ
تُجيـبُ الفـراشـةُ فـي حُـرقـةٍ : أرى نكتـةً لا تُـرى فـي كتـابِ
رأيـتُ الكفـاحَ يُعـدُّ الحيـاه رأيـت الكفـاحَ يُمـدُّ الحيـاه

***

الشَّقيقة[1]

نـارٌ بِصَـدْرِ عِشْـقِ فـي أزلٍ أنيـرُ
شمسـاً أُرى وفـي كـلّ ذرَّة أثـور
شـرارَهـا مـن نـاري السمـاءُ تستعيـر
حللـتُ صَـدْرَ مَـرجٍ كنفـسٍ أدورُ
وكـالنَّـدى مـن تُـربـيَ غُصـنٌ بـدا نضيـرُ
قـال : قفـي قليـلاً ولهبـي يغـورُ
ومـا ثـواء قلـبِ مـن ألَـمٍ يسيـرُ ؟
ثـوى بضيـق غُصـنٍ فـي قلـقٍ يفـور
حتَّـى كُسيـتُ لـونـاً وعبـقَ العبيـر
فـراشـةٌ فـي قلـقٍ تطيـرُ كـلَّ نـاحيـه
علـى اللَّهيـب رفـرفَـتْ حتَّـى كـأنَّـه هيَـه
أنـا وأنـت قـاليـه[2]
أو كـوكـبٌ فـي صـدره مُستتـرُ الضِّيـاءِ

---

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقة القلب . انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التَّعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنت .

وقد تدلَّى هابطاً في الأرضِ لاجتلاءِ
من فلك السَّماءِ

أو قمر مصغّرٌ بجلوةٍ تمامُ
فمنَّةُ الشمس على شُعاعه حرامُ
لم يحوه مُقام

يا لك من يراعة تصوَّرت من نورِ
مَسيرها سِلْسِلَةُ الغيابِ والحضورِ
وسنَّة الظهور

يا مشعلاً للطَّير في معتكرِ الظَّلام
ما حُرقة أحسستها فأنت في هُيام ؟
حرارةُ الإقدام

نحن ـ وقد نبتنا مثلك من تراب ـ
نجهل في اضطرابِ نبصر في اضطراب
نُخفق في الطِّلاب

أقولُ قول واعٍ مجرِّبٍ شفيق :
لا تسعيَنْ لنُزْلٍ وامضِ على الطَّريق
وارضَ بذا التوفيقِ

***

الحقيقة

تقول لبطةٍ صَحبت عُقاب : أرى ما أدركت عيني سرابا
أجابتها محاورةً بحق ولكني أرى ماءً عُبابا
فقال الحوتُ في لُجٍّ عميق : هنا شيءٌ ويضطرب اضطرابا

***

حداء

نغمةُ حادي الحجاز

يـا نـاقتـي الخطَّـارهْ
وظبيتـي المعطـارهْ
وعُـدَّتـي والشَّـاره
والمـالُ والتجـارهْ
يـا دولتـي السيـارهْ !
حُثـي الخطـى قليـلاً منـزلنـا قـريـبُ
مطـربـةُ الـرُّغـاء
جميلـةُ الـرُّواء
محسـودةُ الحسنـاء
وغَيـرةُ الحـوراء
بُنيَّـةَ الصَّحـراء !
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منـزلنـا قـريـبُ
كـم غُصتِ في السَّراب
فـي وقـدة اليبـاب
وسـرتِ لـم تهـابـي
فـي اللَّيـل كـالشُّهـاب
والنَّـومُ عنـك نـائـي
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منـزلُنـا قـريـب
قطعـةُ غيـمٍ غـادي
سفينـةُ الـروَّاد
كـالخضـر فـي البـوادي

تمضيــن فــي ســداد
فلــذةَ قلــب الحــادي !
حُثّــي الخطــى قليــلاً   منــزلُنــا قــريــب
هُيــامــكِ الــزِّمــام
وسَيــــركِ الأنغــــام
يتعبُـــــك المُقــــام
لا الجــــوع والأوام
والسَّفــــر المُــــدام
حُثــي الخطــى قليــلاً   منــزلُنــا قــريــب
ممسيــةٌ فــي اليمــنِ
مصبحــةٌ فــي قَــرَنِ
تــريــنَ حُــزنَ الــوطــنِ
كــالخــزِّ تحــت الثَّفــنِ
إيــه غــزالَ الخُتَــنِ !
حُثّــي الخطــى قليــلاً   منــزلُنــا قــريــب
بــدر السمــاء نَعســا
خلــف التِّــلال خَنســا
والصُّبــحُ قــد تنفَّســا
مــزَّق هــذا الغلَســا
والــريــح تــزجــي نفســا
حُثّــي الخطــى قليــلاً   منــزلُنــا قــريــب
لحنــي دواءُ السَّقــم
والــروحُ مــلءُ نَغمــي
يحــدو الــركــاب كَلِمــي
مــنْ جَــارحٍ وبلســم

هلمَّ بنتَ الحرمِ !

حُثِّي الخطى قليلاً	منزلُنا قريب

***

بين الله والإنسان

خَلَقْتُ الأنام لطينٍ وماء	خلقتُ تتاراً وزنجاً وفُرسا

خلقتُ من التُّرب هذا الحديد	وسهماً خلقتُ وسَيفاً وتُرسا

وفأساً خلقتَ لجذعٍ وغُصنٍ	وسجناً صنعتَ لطير مغنٍّي

الإنسان :

خلقتَ الظَّلام فصُغتُ السِّراج	وطيناً خلقتَ فصُغتُ الكؤوسا

خلقتَ جبالًا وبيداً ومرجاً	خلقتُ حدائقها والغروسا

أنا مِنْ حجارٍ صنعتُ مرايا	أنا مِنْ سمومٍ صنعت دوايا

***

اليراعة

تَقولُ يراعةٌ : لا تحسبنِّي	كنَملِ السُّوء يألمني رفيقي

ولا أعشو إلى نيران غيري	كما يهفو الفراش على الحَريقِ

إذا حلَك الظلامُ كعين ظبيٍ	أنرتُ بنورِ أضلاعي طريقي

***

وَحْدة

قَدْ قلتُ للبحر يوماً	في موجه المتعالي

أراكَ حلفَ طِلابِ ... فما تُكِنُّ ببالِ ؟
وكَمْ حويتَ بصدرٍ ... من لامعاتِ اللآلي
أفيكَ مثليَ صدرٌ ... بجوهرِ القلبِ حالي ؟
فصدَّ عنِّي بجَزرٍ ... ولم يردَّ سؤالي
وقلتُ للطودِ يوماً : ... يا خالياً منْ عَناءِ
أنالَ سَمْعَكَ صوتٌ ... من زفرةٍ وبُكاءِ
إنْ كنتَ تحوي عقيقاً ... به عروقُ دِماءِ
فواسني بحديثٍ ... إنِّي حليفُ شقاءِ
فَصَدَّ عنِّي صَموتاً ... ولم يردَّ سؤالي
جَدَدْتُ في السيرِ حتَّى ... أتيتُ بدرَ السَّماءِ
فقُلتُ : يا نضوَ سيرٍ ... إلى متى في مَضاءِ
الأرضُ مرجُ زهورٍ ... من نورِكَ اللألاءِ
أخْلفَ نورَكَ قلبٌ ... في حرقةٍ وعناءِ
رأى الكواكبَ ترنو ... فلم يردَّ سؤالي
وقُلتُ لله ربِّي ... من بعدِ طوفِ البريَّةِ :
أما بدنياكَ هَذي ... منْ ذرَّةٍ لي نجيَّةِ ؟
أكلُّ طينيَ قلبٌ ... وذي البرايا خليَّةْ
طابتْ مُروجٌ ولكنْ ... ليستْ بشدوى حربه
أجابني بابتسامِ ... ولم يردَّ سؤالي

* * *

قطرةُ النَّدى

قد قيلَ لي تدلَّي ... منْ فَلَكِ الدَّراري
وَاسْتحكمي وسيري ... للبحرِ ذي التَّيَّارِ

فــي المــوجِ لا تحــاري
تحــوَّلــي واخْتَــاري
فــي الــدُّرر الكبــارِ

فمــا رضيــتُ بحــراً لِصُحبتــي بحــالِ
عفــتُ احتســاءَ رَاحٍ تَسلُبنــي خــلالــي
مـا ضقْتُ مـن خصـالي
وعشــت فــي اعتــزالِ
قطــرتُ كــالــلآلــي

الــورد لــي سـؤول : مــا خطْــبُ طيــر السَّحــرِ
ومــا جهــاتُ النَّظــرِ ؟
ومــا وَرَاء البَصَــرِ ؟
مـا الشَّوْك حـول الـزَّهـر
مــا نحــن فــي اصطحــاب ؟ مــن نحــنُ يــا ودُودُ ؟
مــا طــائــري المغنِّــي رجَّحــه الأملــود ؟
مــا يقصــدُ الغــرِّيــد ؟
ومــا الصَّبــا تُــريــد ؟
مــا العــالَــمُ العَتيــدُ ؟

فقُلــتُ : المُــروجُ حــرب الحيــاة فــي الآفــاق
حَفــلٌ لــهُ نظَــام مــنْ لــذَّة الفــراقِ
الــرُّوحُ مــنْ إشْــراقِ
ونَفســي أشــواقــي
ســرٌّ مــن الخَــلَّاقِ

مِــنْ فلــكٍ هُبُــوطــي مــن طينــةٍ فتقــتِ
مِــنْ لــذَّةِ التَّجلِّــي نمــوتِ إذ أشــرقــتِ

فـي الغُصْـنِ قَـدْ خَفقَـتِ
كـم حُجُـبٍ مـزَّقـتِ
نفســك قــدْ حقَّقــتِ

الــــدَّهـــرُ فـــي اخضِـــرار   مـــنْ دَمْعِنـــا فـــي السَّحَـــرِ
وذي الجهــــــات طـــــرَّاً   خِـــداعُنـــا فـــي النَّظـــر
بالصَّدر سربُ الزُّهُر[1]
مـن قَلْبنـا كـالشَّـررِ
ونُــورنــا فــي البَصَــر

فـــــي ثـــــوبِ وردٍ إبـــــرُ   مـــنْ شـــوكـــة تصـــول
شـــوكٌ ، أجـــلْ ، ولكـــن   نـــادمـــه الجميـــل
مـــنْ عشقـــهِ نحيـــلُ   وعنـــده الخليـــلُ
فـــي روضـــهِ أصيـــل

القَلْـــــبَ أخلينـــــهْ   مـــن صُحْبَـــةِ الـــدُّهـــورِ
عينـــــك فـــــافتحَنْهَـــــا   لِلْكَـــوكَـــبِ المنيـــر
وصحبـــــةِ البصيـــــر   مثلـــي هلُـــمَّ طيـــري
وفـــي الفلـــكِ الكبيـــرِ

***

العشق

فكـــريَ قـــد أجـــدَّ كـــلَّ سيـــرِ   وطَـــافَ بَيـــنَ حـــرمٍ ودَيْـــرِ
عـــدتُ للطـــلاب فـــي البَـــرَاري   مـــرتـــديـــاً بـــالنَّقـــعِ كـــالإعصـــارِ

---

(١) الزُّهُر : النُّجوم .

بغيـرِ خضـرٍ أطلُـبُ المنـازل[1] يحمـلُ رحلـي للخيـالِ كـاهـلُ
تطلُـبُ راحـاً كـأسـيَ الحطيـمُ كـالصُّبـح مـن شبـاكـهِ النَّسيـمُ
منطـويـاً كـالمَـوجِ فـي البحـارِ حيـران كـالإعصـار فـي الصّحـاري
عشقُـكَ فَـاضَ بغتـةً بقلبـي وحـلَّ كـلَّ عُقـدةٍ فـي لبِّـي
عـرَّفنـي الـوُجـودَ والفَنـاء وصـار ديـري حَـرمـاً وضَّـاء
علـى حَصيـدي مـرَّ كـالبُـروق[2] عـرَّفنـي لَـذَاذةَ الحـريـقِ
صُعِقـتُ تـوّاً وسُلبـتُ حِسِّـي فُصِلْتُ من نفسيَ مثلَ العَكْسِ[3]
رَفَعـتُ للعَـرْشِ العلـيِّ تُـربـي بـالسـرِّ قَـدْ أفْشَيْتـه لِقَلْبـي
وبلَغـتْ سَفينتـي مُـرسَـاهَـا وفـاضَ قُبحـي رونقـاً وتَـاهَـا
عنـدي حـديـثُ العِشـق لا سِـواه لا أحمـلُ المـلامَ فـي بَلـواهُ
غنيـتُ عَـنْ وَمـضِ العُلـومِ حَسبـي خفقـي ونَـاري ودُمـوعُ الحـبِّ

* * *

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل

غـزالٌ بـثَّ شكـواه غَـزَالَا فَقَـال سـأقصُـدُ البلَـدَ الحـرامَـا
أرى الصَّيَّـاد حـولـي كـلَّ حيـنٍ فـلا أستطيـعُ فـي أرضٍ مُقـامـا
أبـدِّل خيفـةَ الصَّيَّـاد أمْنـا وأنفـي الغـمَّ عـن قلبـي المعنَّـىٰ
أجـابَ رفيقُـه أن يـا خَليلـي حَيـاتَـكَ فـابغِ فـي الخَطَـرِ الجَليـل
ونفْسَـكَ فَـاشحـذنْ فـي كـلِّ آنِ وعش أمضَى من السيف اليمَاني

---

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففـــي الأخطـــار لِلْهِمَـــمِ اختبـــارُ لأرواحٍ وأجســـــــادٍ عيـــــارُ

* * *

الحياة

قــد ســألنــا عــن الحيــاةِ حَكيمــاً قــال : خَمــرٌ يطيــبُ فيهَــا الأمــرُّ
قُلــتُ : بــل دُودةٌ نمــت فــي تُــرابٍ قــال : لا ! بــل سَمَنــدر لا يقــرُّ[1]
قلتُ : والشر طبعها . قال : لا بل خيــرَهــا قــد جَهلــتَ والجَهــلُ شــرُّ
قُلــتُ : مــا شــوقهــا يسيــر لنُــزْلٍ قــال : فــي الشــوقِ منــزل مستــسرُّ
قُلتُ : في الطِّين خَلْقُها قال فانظُر : شقّــت الطيــن حبَّــةٌ فهــي زهْــرُ

* * *

الحور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحور والشاعر لجوته)

الحور :

لا الخمــــرُ يــــومـــــاً تطبّيْـــــكَ ولا إلينـــــا أنـــــتَ نـــــاظـــرُ
إنَّـــــي عَجِبْـــــتُ لشـــــاعـــــرٍ بهـــوى الأحبـــةِ غيـــرِ شـــاعـــرِ
مِـــنْ حُـــرِّ أنغـــامِ الـــرَّجـــاء وحـــرقـــةِ الطَّلـــب المثـــابـــر
نَفـــسٌ تـــذيـــبُ بلـــوعـــةٍ وتغـــزُّلٌ يشجـــو المـــزاهـــرِ
وخلقـــتَ بـــالألحـــان دنيـــا كَ العجيبـــةَ خَلْـــقَ شـــاعـــرِ
تبـــــدو لهـــــا إرَمُ كمـــــا يبـــدو لعيـــنِ فِعْـــلُ ســـاحـــرِ

---

(١) السَّمندر : حيوان خرافي يعيش في النَّار .

الشاعر :

تَخْــدَعَــنْ قلـبَ مسـافـرِ بـالسِّحْـرِ مـنْ وخَـزات قـائـلِ
مـا إنْ تحـاكـي لـذَّةً وخـزاتِ شَـوكِ فـي المجـاهـلِ
مـاذا أقـولُ وفطـرتـي لا تَـرتضـي دَعـة المنـازلِ
قلبـي علـى قلـقٍ كمـا تهفـو الصَّبـا حـولَ الخمـائـلِ
فـإذا نظـرتُ إلـى جميـلٍ رائـعِ حلـوِ الشَّمـائـلِ
خَفَـقَ الفـؤادُ إلـى الَّـذي يعلـوه حسنـاً فـي المحـافـلِ
فمـنَ الشـرار إلـى النُّجـوم إلـى الشُّمـوس رقـيّ آمـلِ
إنِّـي ليهلكنـي القـرارُ فمـا أعـوجُ علـى المـراحـلِ
وإذا شـربـتُ مـنَ الـرَّبيـع الكـاس تسـري فـي المفـاصـلِ
أشـدو بشعـرٍ آخـرٍ وربيعـي الآتـي أغـازلُ
طلبـي النهـايـةُ فـي الَّـذي لا ينتهـي فيـه المُسـائـلُ
لا صـابـرٌ نَظَـري ولا قلبـي عـن الآمـالِ غـافـلُ
تـودي قلـوبُ العـاشقيـن بـدارة الخلـدِ المُـوَاصـلُ
لا صـوتُ محـزونٍ ولا ألَـم ولا واسٍ يسـائـلُ

***

الحياةُ والعمل

(جواب لنظم هاتنا[1] المسمَّى سؤالات)

يقـول السـاحـل المسكيـنُ : دهـراً حييتُ ولم يَبِنْ لي ما أكون.. ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ السُّكون

***

الملكُ لله

طارقٌ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا منْ فعله برشيد
غرباءٌ ومن لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديد :
مُلكنا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ إنَّه مُلك ربِّنا المعبود

***

النهر(١)

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاءٍ ونضره
يقصد البحر ذا العبابُ طروبا وعَزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريبا
مَنَحتْهُ يدُ الرَّبيع طريقاً من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقِ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ في الرُّبى والوهادِ غير رفيقِ

---

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصةٍ إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيءٍ غـريبـا … يقصـد البحـرَ ذا العُبـاب طـروبـا
ومئات الأنهار في الحَزْنِ والسَّهل … تُنـاديـه : يـا فسيـحَ المجـالِ
قَـدْ حمـانـا المسيـرَ قِلّـةُ مـاءٍ … فـازحمنَّا مـن بغـي هـذي الـرمـالِ
أفسـحِ الصَّـدر للـرِّيـاح سـريعـاً … حـامـلاً رفقـةً ضعـاف الحـالِ
يقصـد البحـرَ ذا العبـابُ طـروبـا … حـامـلاً جـوهـراً كثيـراً عجيبـا
هَـدَرَ النَّهـر جـائـزاً كـلَّ سـدٍّ … جـاز ضيـق السُّفـوح والـوديـانِ
فـاض سيـلاً علـى رُبـى ووهـادٍ … جـاز كـلَّ المـروجِ والبلـدان
هـائجـاً زاخـراً سـريعـاً مشـوقـاً … بجـديـدٍ يمـرُّ كـلَّ زمـان
يقصـد البحـر ذا العُبـاب طـروبـا … وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيء غـريبـا

* * *

الجنَّة

وأيـن بجنَّـةٍ لعـب اللَّيـالـي … وليـس هنـاك مـن فلـكٍ يـدورُ
ولا فيهـا ليـوسـف غـمٌّ سجـنٍ … ولا فيهـا زُليخـا تَسْتجيـرُ
وليْـسَ خَليلُهـا يصلَـى بنـارٍ … ولا بكليمهـا شـررٌ يَثـور
وليـس لِصَـرصـر فيهـا هُبـوبٌ … فَـزَوْرَقُهـا علـى أمـنٍ يَسيـرُ
ولا ليَقينها « هـل » أو « عسى أن » … ولا لِـوِصَـالهـا هجـر مـريـرُ
وكيـفَ يلـذُّ عَقـلٌ ذُو ضـلالٍ … إذا وَضحـت طـريـقٌ لا تَجـورُ
فـلا تَحفـل بكـونٍ فيـه نقـصٌ … بـه المـولـى وليس بـه الغَـرورُ

* * *

العِشْق

العقـلُ يُحـرقُ عـالمـاً … فـي جَلـوة منـه تُغيـرْ

لكنّــــه بــــالعِشْـــقِ يعــرفُ   كَيــفَ فــي الــدنيــا يُنيــرْ
العِشْــقُ فــي الأرواح يخلــق   كــــلَّ لـــونٍ أو يثيــــرْ
إنِّــــي لأذكـــــر راقصـــاً   ذا الحـــرف أو هــو بــي يــدور
بــالعِشْــقِ تــرتــاح القلــوبُ   وإنَّـــه فيهـــا سعيــــرْ
مـــا كـــل معنـــىً ينطـــوي   فــي اللَّفــظ ، كــم معنــى يثــور
أنصـــت لقلبـــك ســـاعـــةً   فلعلَّمـــا يـــدنـــو العسيـــر

* * *

لغزُ السَّيف

مــا جــاهــدٌ يُنبــطُ مــاء الحجــر   لا يَهتدي بالخضْر كالإسكندر ؟
كنظـــرِ العيـــنِ صفـــيٌّ مشـــرقُ   لا بلـــل وهـــو غـــريـــقُ نهـــر
مصـــراعـــه مكمَّـــل منفـــردُ   ليـــس عليـــه منَّـــةٌ لـــلأشطـــر

* * *

الجمهورية

تريد معنى العُلى منْ ساقطي هممٍ   وأيـن للنَّمـل إقـدام السُّليمـانـي(١)
فاتبع حكيماً ودعْ جمهورَهم ، أترى   بـألـفِ رأسِ حمـارٍ عقـلَ إنسـان ؟

* * *

---

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الــدَّهْــرُ عــادَ بنــار نمــرود جَـوْهـرُ الإسـلام رَهـنُ تجـديـد
هَلـمَّ نُلـق الحجـابَ عـن حُـرَقٍ كالشَّمس تغشى الورى بتجريد[١]
أمللـتَ حُـور الفـرنـج مـنْ حكـمٍ ورُعــت أصنــامَهُــم بتــوحيــد
فقـل لأهـل الحجـاز عـن سلمـى وبـثَّ فـي التـرك شـوق معمـود
علـى خـراسـان والعـراقَ فعـج وردَّ للعُجْـمِ شـوق تغـريـد[٢]
كـم انتظـرنـا لعـارفٍ ولكـم شجـا « جمـال »[٣] بلحـنٍ مفـؤود
جعلـتَ عشقـاً حـديـث ذي هَـوس نَثَـرْتَ درَّ الكـلام بـالبيـد

* * *

غنَّى الكشميريُّ[٤]

غنّـى أخـو الشّعـر ربُّ البيـان وبلبـلُ كشميـرَ ذاتِ الجنـان
يفتِّـح أبـوابـه إنْ نـدر ويغلقهـا جـاهـداً إنْ حضـر[٥]
فقيـل لـه : يـا أنيـس القلـوب عجبنـا وفعلُـكَ أمـرٌ عجيـب
فمـاذا أجـاب الهمـامُ الفقيـر ؟ فقيـر بملـك المعـانـي أميـر :
أإخـواننـا مـا رأيتـم سـداد أفـي الـدار غيـري متـاعٌ يـراد ؟

---

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقا أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفغاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كـان فـي الـدار ربُّ العـريـن غنَّـى ففيهـا متـاعٌ ثميـن
وإنْ غـاب عنهـا أنيـسُ الـورى فـلا دارَ أفـرغَ منهـا تُـرى

* * *

إلى مصطفى كمال باشا[1]

حزيران (١٩٢٢م)

أمّـة كـانـت ومـن حكمتهـا نحـنُ آثـارٌ علـى مـرِّ العُصـور
قـد عـرفنـا سـرَّ تقـديـرٍ مضـى فمضينـا نقتفـي سـرَّ الـدهـور
شـرراً كنـا ، أجـدنـا نظـراً فـإذا شمـسٌ علـى الكـونِ تسيـر
شيخـاً أطفـأ فـي أحشـائـه نـارَ عِشْـقٍ فخنعنـا فـي فتـور
صـرصـر البيـداء فـي فطـرتنـا أذبلتْ ريحُ الصَّبا فينا الزُّهور[2]
وعلـى الأفـلاك دوَّى صـوتنـا فـاسمعنْه اليوم في نَوحِ الأسير
رُبَّ صيـدٍ قـد أخـذنـا وثبـةً دون أشـراكٍ كمـا انقضَّـت صقـور
وغـدونـا يـوقِـعُ الصيـدُ بنـا ولنـا قـوسٌ وسهـمٌ فـي الجفيـر
« كلَّمـا أمكـن طـرفٌ فـاركضَـنْ كم أمات العزمَ تدبيرُ الأمور[3] »

* * *

الطَّائرة

علـى غصـنٍ وردٍ بـوقـت السَّحـر نغـا طـائـرٌ لطيـورٍ أخـر :

---

(١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلِّد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمُ أوربة .
(٢) يعني خلقنا للجهاد فأضعفنا الترف .
(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقـــد سُلـــب الأجنُـــح الآدمـــيّ ... ومكَّـــن فـــي الأرض هـــذا الغبـــيّ »
فقلـــت لـــه : « يـــا أميـــرَ الـــرِّيـــاح ... أفي الحقِّ إن قلبته من جناح . . ؟
بطـــائـــرةٍ قـــد ركبنـــا الهـــواء ... شققنـــا بهـــا فـــي عَنـــان السَّمـــاء
وأيـــة طـــائـــرة فـــي الفلـــك ... يفـــوت مـــداهـــا جَنـــاحَ الملَـــك
لهـــا عـــزم صقـــرٍ وأيـــدُ عقـــاب ... بـــلاهـــور[1] تـــرنـــو إلـــى فـــاريـــاب[2]
تُـــدوِّي وتـــزفـــر حيـــن السِّفـــار ... وفي العشِّ صمتٌ كحوت البحار
مـــن الطِّيـــن صـــار لنـــا جبـــرئيـــل ... مـــن الأرض نحـــو السمـــاء دليـــل »
وعـــى الطـــائـــر الألمعـــيُّ الكـــلام ... وأبصـــر مـــا قلتُـــه فـــي الخصـــام
فـــأهـــوى إلـــى ريشـــه ينقـــر ... وقـــال مقـــالَـــك لا أنكـــر
فيـــا مَـــنْ يـــروقُـــك عقـــدٌ وحـــلٌّ ... وفـــي قيـــد سحـــرك عُلْـــوٌ وسُفْـــلُ
أأصلحـــت فـــي الأرض بعـــد عنـــاء ... فجئـــت لتصلـــحَ جـــوَّ السَّمـــاء[3]

* * *

العِشْقُ

هو الحرفُ ضاعتْ عليه القلوب ... وليـــس بســـرٍّ وســـرّاً يـــرى
هلـــم أُنبِّئـــكَ قـــولَ الخبيـــر ... بمـــن قـــد رواه وعمَّـــن روى
وعـــاه النَّـــدى خلســـةً فـــي السَّمـــاء ... وأسمعـــه الـــوردَ قطـــرُ النَّـــدى
وبـــاح بـــه الـــوردُ للعنـــدليـــب ... عـــن العنـــدليـــب روتـــه الصَّبـــا[4]

* * *

---

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .
(٢) فارياب ، تقع في تركستان .
(٣) البيت الأخير للشيخ سعدي الشيرازي .
(٤) أبيات تمثِّل تطور العشق من قطرة إلى غِناء بلبل إلى خفق الرِّيح .

القسم الثالث

الخَمر البَاقِية

(غزليَّات)

حبا الربيعُ رُبانا — محافلَ التَّغريد
فاستيقظت أكمام — للبلبل الغرِّيد
لا تحسبنَّ أنْ خُلقنا — في صبح دهرٍ مديد
فما تزال خيالاً — حوى ضمير الوُجود
لا تغترر بعلومٍ — الكأس خير شهيد
إنَّ الفقيه مُريبٌ — فلا تكنْ بمُريد
ضمَّ الربيعُ شتيـ — ـتَ الأورادِ بالتنضيد
وبثَّ ريحاً ولوناً — أنظارنا في الورود
من يُحكمن نظراتٍ — لنفسه في شهود
لم يشدُ يوماً بغيب — كلاَّ ولا موجود
قد قال في ألحان فاسـ — ـمعْ مقال شيخٍ رشيد :
في كلِّ دهرٍ خليلٌ — والنَّار من نمرود[1]
لا تلحينَ أهل ديرٍ — فالعِشْقُ جدٌّ عنيد
أقام أوثان حبٍّ — في القلبِ من محمود[2]
يضيع شدو حياةٍ — ينساب بين الهنود
فالميت ليس بحيٍّ — بالنفخ من داود

* * *

عقلُنا ينحتُ رباً كلَّ حين — فهو من قيدٍ إلى قيدٍ رهين
ارفعِ البرقع جهراً لا تُبلْ — ليس في حيِّك غيري ذو حنين

---

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنـــا مـــن عينـــيَّ غيـــورٌ نـــاسـج	نظـراتـي لـك ستراً فـي العيـون
بسمــــةُ خَلــس ودمـــعٌ ورنــاً	ليس في الحُبِّ سواها من يمين
حبَّـذا العِشْـق ففـي يـوم النَّـوى	زاد بـالـلَّـوعـة عهـدٌ لا يميـن
أيهـا الطـائـر مـن صـدري اقبسْ	لتـزيـدَ النّـار فـي هـذا الأنيـن
عُـود تيمـور مضــى لا لحنُـه	هـو فـي لحـن سمـرقنـد يبيـن
سـادنُ الكعبـةِ لا تـأذَنْ لـه	فـلإقبـال إلـهٌ كـلَّ حيـن

***

شكـــوايَ أمـــرٌ عجيـــب	مـن نـور عينـي شكــاتــي
فنظــرتــي لـــي حجــاب	وأنـــت فـــي الجلـــوات
أبلـــغ خـــلائـــق نـــورٍ	الحـــق مـــن كلمـــاتـي[1]
حـــذارِ كـــفَّ تـــراب	للنَّفـــس فـــي نظـــرات[2]
فـــي محفـــلٍ مـــن ربيـــع	نـــذوب مـــن حـــرقـــات
بـــالـــرِّيـــش منـــا شـــرار	فـــي الفجـــر مـــن آهـــات
يـــا واهـــنَ النَّفـــس تـــدري	مـــن أيـــن لـــي نغمـــاتـي ؟
حـــواكَ كـــونٌ بعيـــدٌ	مـــن عـــالمـي وجهـــاتـي
مثـــلَ الشَّقيـــق تـــرانـــي	بـــالـــرَّوض فـــي حســـرات
والقلـــب غُـــرضـــة رمـــي	مـــن أسهـــم اللَّحظـــات
فـــي عـــرف أهـــلِ قلـــوبٍ	الكَـــدْحُ ســـرُّ الحيـــاة
لكعبتـــي لـــم أســـافِـــر	لـــلأمـــن فـــي طـــرقـــاتـي
وكـــم قبيـــل أقـــامـــوا	وأدبـــروا فـــي شتـــات

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .
(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النَّفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار خودي » .

فـــي دارة ضـــاء فيهـــا | الهـــلال فـــي مشكـــاة[1]
فـــاخلـــق بطينـــك خلقـــاً | ذا يقظـــةٍ وحصـــاة
مثـــلُ اتســـامِ شـــرارٍ | تلبَّـــث الفـــرصـــات[2]
إنْ لـــم تكـــنْ ذا فضـــولٍ | فتلـــك إحـــدى نكـــاتـــي
العِشْـــقُ أبعـــدُ شـــأنـــاً | مـــن ضـــائـــع الأنَّـــات
فـــي العجـــم أزكـــى نشيـــدي | مـــا بـــاخ مـــن جمـــرات
والعُـــرب مـــن نـــارِ شـــوقـــي | لـــم تـــأتهـــم نفثـــاتـــي

***

فـــي ذلـــك الحفـــل ســـؤلـــي | عـــن مَحـــرمٍ بـــي حقيـــق
لـــذاك أزجـــى غنـــائـــي | وفيـــه لحـــنُ الصَّـــديـــق[3]
فـــي خلـــوة كـــلٍّ لفـــظٍ | فيهـــا كستـــرٍ صفيـــق
يبـــثُّ قلبـــي حـــديثـــاً | بمقلتـــي وبمـــوقـــي
مـــن أجـــل نظـــرة وجـــدٍ | لـــوجهـــك المـــرمـــوق
مطهَّـــر نظـــراتـــي | بـــدمـــع عيـــنٍ طليـــق
كـــالكِـــمِّ كـــلُّ أمـــوري | لعقـــدة ولضيـــق[4]
لكـــن الجلـــوة شمـــسٌ | أنمـــو بقلـــبٍ مَشـــوق
كـــالمـــوجِ ، ليـــس كيـــانـــي | يهـــاب سيـــل العقيـــق[5]
ولســـت فـــي البحـــر أبغـــي | إلـــى الشطـــوط طـــريقـــي

---

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .
(٢) فرصات : جمع فرصة .
(٣) اللحن : الرمز في الكلام .
(٤) يتخيَّل الشاعر أن كم الزَّهر لانطباقه معقود .
(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشقُّ الأرض وواد بالمدينة .

مــــا بيــــن عيـــنٍ ورأيٍ		بينـــي وبيـــن صـــديقـــي[1]
مهمـــا تبـــاعـــد عنِّـــي		فكـــلُّ حيـــنٍ رفيقـــي
قـــد خـــطَّ فـــي ستـــر عينـــي		نقـــوشُ كـــونٍ أنيـــق[2]
بشعـــوذات أرانـــــي		فـــي قيـــد سحـــرٍ وثيـــق
فـــي قبَّـــة قـــد أحـــاطـــت		لا أرتضـــي بـــالضِّيـــق
شـــوكٌ بجنـــب سمـــاء		لا بـــدَّ لـــي مـــن مُـــروق
لا أستـــريـــح بعُـــشٍّ		مـــن لـــذة التحليـــق
طـــوراً بشـــاطـــىء نهـــرٍ		طـــوراً بـــروضٍ شقيـــق

* * *

المغنّـــي الصبيـــح فـــي ألحـــانِ		ورِيـــاضُ الـــرَّبيـــع ألـــواحُ مـــانـــي[3]
وتحيـــي دم الـــربيـــع شقيـــق		أيُّ ظمـــأ بـــه إلـــى الألـــوان ؟
نغمـــةٌ تفتـــح العيـــون لمعنـــى		ضـــاق عنـــه طـــرائـــق التبيـــان
فتـــأمَّـــل بعيـــن عشـــقٍ وأبصِـــرْ		منـــه آيـــاً تُضـــيءُ دون بيـــان
فعيـــونُ العقـــولِ تُظْهِـــرُ فيهـــا		هـــذه الكـــائنـــاتُ سحـــرَ العيـــان
وعـــن عشـــقٍ خُـــذْ دروسَ جهـــادٍ		وافعلـــن مـــا تشـــاء فـــي كـــلِّ آن
إنمـــا العشـــق جـــوهـــرٌ لشعـــورٍ		وهـــو روحُ الإدراك والعـــرفـــان
ولنـــا غـــايـــة مـــن الشَّمـــس أعلـــى		إنهـــا الشَّمـــس صُـــوَّة الـــرُّكبـــان[4]
إيـــه يـــا قطـــرةً عـــنِ النفـــسِ تـــاهـــتْ		تطلبيـــنَ المحـــالَ فـــي الأكـــوان

(١) الرأي : رأي العين .
(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمّى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إنَّ هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .
(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورةً في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .
(٤) الصوّة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إنَّ عــاراً معيشــة البحــر إن لــم تطلعــي منــه درَّةً ذات شــان
يــا جهــولًا بقــدر نفســك لــولا أنــت كــان العتيــق كــالصَّــوان(١)

* * *

قد هدمتُ الأصنام لم أرضَ شكلاً أنـا سيـلٌ هـدمـتُ كـلَّ سـدودي
ومـن العِشـقِ قـد رأيـتُ كيـانـي كـان عقلـي يُـرينـي وجـودي
وبـديـرِ ضـراعتـي وهـو أنـي وصـلاتـي بكعبـةِ التَّـوحيـد
ومـن الـذكـر سُبحتـي بيمينـي فـاعجبَـنْ مـن زنَّـاري المعقـود
منبـع الحـزن فيـك غيـر نضـوبِ دمـعُ قلبـي حبستُـه عـن خـدودي
راق قـولـي ، وسيـرتـي لجنـونِ : خمـرُ شـوقِ لسكـرتـي وشهـودي

* * *

طـــوبــى لمحـــرق عقـــلٍ بنـــارِ راحٍ عتيـــق
مَـــنْ يعتنـــي بمتـــاعٍ مـــنْ نـــاره كـــالشَّقيـــق
أوحـــى الـــرَّبيـــعُ إلـــى الـــزا هـــديـــن بيـــع الـــدلـــوق(٢)
فـــاغـــرس بـــالكـــأس الحميَّـــا بستـــان وجـــهِ أنيـــق
قلبـــي رثـــى لفقيـــهِ مجـــاورِ بـــالعتيـــق
مـــا اتبـــاعـــه شيـــخ خـــان فتـــوى بكـــأسِ رحيـــقِ
اللحـــنُ لا تقـــدرُونـــه علـــى غنـــائـــي الـــرقيـــق
فبـــرقـــةُ اللَّحـــن تغشـــى إسكنـــدراً بحـــريـــق
لـــروضِ « ويمـــر » تهـــدي الصَّبـــا ســـلام مشـــوق(٣)
فـــذي الـــدِّيـــار أَضـــاءث لعيـــنِ ذي تحقيـــق

* * *

---

(١) يعني أنَّ الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلَّا بتقديره .
(٢) الدلوق : جمع دلق ، وهو لباس بالٍ مرقع يلبسه الزُّهَّاد والشحاذون .
(٣) ويمر : مدينة في ألمانيا ، أقام فيها الشاعر غوته كثيراً ومات ودفن فيها .

نَـــوح ليلِـــيَ القلـــق ... والهمـــوم فـــي الفلـــق
والأنيـــنُ مِـــنْ شَـــرَر ... والقـــريـــض مـــنْ حَـــرَق
أيـــن حـــرص مجتهـــد ... مِـــن تضـــرُّم العشـــق
ذاك فـــأس فـــرهـــاد ... ذاك خُســـر فـــي مـــذق[1]
قُـــل لســـاكنـــي حجـــب ... عـــنْ تـــرابـــي القلـــق :
ذا الغُبـــارُ ذو نظـــر ... ذا التـــرابُ ذو فلـــق
مطـــربتـــي تسكـــرنـــي ... وتـــزيـــد فـــي حُـــرقـــي
نغمـــاتُ مستحـــر ... بـــالقلـــوب ذي علـــق
مِـــنْ حـــذاره أرضُ سمـــر ... فنـــدبـــت فـــي فـــرق
مـــن هجـــوم جنگيـــز ... أو هـــلاكـــو فـــي الحلُـــق[2]
هـــات مطـــربـــي غـــزلًا ... نظـــم مـــرشـــدي اللبـــق
لأفـــوزَ مـــن لهـــب ... التبـــريـــزي بـــالحـــرق

* * *

مُنيتـــي أن يتجلَّـــى ... ذلـــك البـــدرُ التَّمـــامُ
فيـــدي تُمْســـكُ صـــدري ... وبعينـــيَّ اقتحـــامُ
ويقـــول الحســـن : صبحـــي ... ليـــس يغشـــاه ظـــلام
فيقـــولُ العشـــق : وجـــدي ... ليـــس يخبـــو والهيـــام
ليـــس مـــن يـــومـــي وأمســـي ... وغـــدي فـــيَّ زمـــام
ليـــس لـــي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ... ليـــس يحـــوينـــي مقـــام

---

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمـــــرة الأســـــرار أبغـــــي وكـــــؤوســــــاً لا تـــــرام
وبحـــــانـــــات مجـــــوس دائـــــر عنـــــدي جـــــام[1]
لا تقُـــلْ : مـــالـــي ولحنـــاً لا يـــرى فيـــه انسجـــام
فـــأنـــا طـــائـــر غيـــبِ عـــن حبيبـــي لـــي كـــلام
أرفـــع الستـــر وأشـــدو لـــي فـــي اللَّحـــن مقـــام[2]
أنـــا صمصـــام دمـــاء لـــي بـــالغمـــد كَعـــام[3]

***

غُضْـــنُ الحيـــاة نـــديٌّ مـــن ظمئنـــا فـــي الطِّـــلاب
عيـــن الحيـــاة أراهـــا تعلُّـــه الهيَّـــاب[4]
فَمـــنْ أبـــثُّ حـــديثـــي وأيـــن أزجـــي ركـــابـــي ؟
ولا تـــؤثـــر آهـــي ونظـــرتـــي فـــي حجـــاب
فـــزَمـــزِمـــنْ فـــي غنـــاء واخفـــض نـــواح الـــرَّبـــاب[5]
فـــلا تـــزالُ طيـــورٌ تنـــوح تحـــت نقـــاب
أهـــل الحجـــاز تـــولـــوا قـــوافلـــي بســـلاب
حبيبنـــا عـــربـــيٌّ فـــلا تفـــه بعتـــاب
وزن عُجـــم وهنـــد لا تبـــغ وزن خطـــابـــي

---

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحاناتهم .
(٢) من مقامات الموسيقا .
(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الّذي يخشى صياله ـ وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السّلاح ـ .
(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .
(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فـــأصـــل هـــذي الـــلآلـــي ... بـــالليـــل دمـــع انتحـــابـــي
هلُـــمَّ فـــالـــرَّاحُ عنـــدي ... مـــن دنٍّ عـــالـــي الجنـــاب[1]
وخمـــرة القـــول أصبـــى ... مـــن خمـــرة الأعنـــاب

***

مـن كـرى المـوت لا تفيـقُ عيـونٌ ... دون نـور تفيضُـه مـنْ سنـاكـا
إنَّ مـن دونـك الـوجـودُ محـال ... ومحـالٌ فنـاؤنـا فـي جسمـاكـا
قـد حـوى الكـون قلبنـا وهـو فيـه ... عقـدةٌ لا تحـلُّ فـاكظـم فـاكـا
نغمـاتـي الضعـاف أحـرقـن صحبـي ... حـرقتـي نغمـةٌ أبـت أن تحـاكـا[2]
إنْ تضـنّ الصبـا بطـلٍّ فـدعهـا ... نـار قلـب الشقيـق تـأبـى فكـاكـا[3]
فـإلـى الحـق وجّـه القلـب واصبـر ... لا تـــؤمـــل بغيـــره إدراكـــا
سُـــدَّة الـــوُثْـــنِ هـــذه وعليهـــا[4] ... جبهـات الأبـاة تـأبـى حِكـاكـا

***

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة[5]

لهيـب الـوجـد مـن أسمـاء لا عنـدي ولا عنـدك
وحـرُّ القلـب فـي البيـداء ، لا عنـدي ولا عنـدك

---

(١) جلال الدين الرومي .
(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطاع إظهارها .
(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط الطل فهذه النار لا تفارقنا بأيَّة حال .
(٤) الوثن : جمع وثن .
(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثماني مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا « لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيـخ أنـت فـي حـان وإنـي نـاشـىء سـاق
عطـاش نطلـب الصهبـاء لا عنـدي ولا عنـدك
رهنـاً قلبنـا والـدِّيـن حـبُّ الغيـد مـن عُجـم
ونـارُ الشـوق مـن ظميـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك
حطـام كـان أصـدافـاً علـى شـطٍّ لقطنـاهـا
فقـدنـا الـدُّرَّة البيضـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك
وبلـوى يـوسـف المفقـود مـن يطيـع ذكـراهـا
وخفق القلب في زلخاء[1] ، لا عندي ولا عندك
كفـانـا النُّـورُ فـي المصبـاح قـد أخفتْـه أستـارُ
فطـوق النُّـور فـي سينـاء ، لا عنـدي ولا عنـدك[2]

***

قلبُنـا كـونٌ ولكـن ... مـا بـه دور القمـر
دورانٌ ليـس فيـه ... مـن عشـيٍّ أو بُكـر
ويـل ركـبٍ قـد أسـفّ ... العـزمُ فيـه وضمـر
فهـو يـرتـاد طـريقـاً ... ليـس فيهـا مـنْ خطـر
فـدع العقـل ومـوج ... العشـق صـارع لا تقـر
فبـذاك النهـر ضيـق ... ليـس فيـه مـن دُرر
كـلُّ مـا يجـري خيـالُـك ... أو خيـالـي فـي الأثـر
هـو فـي العيـن ولكـن ... مُستسـرٌّ كـالنَّظـر

***

غيـر مجـدٍ بكـاؤنـا ... ويلتـا ! ضـاعَ ذا النغـم

---

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصِّديق عليه الصلاة والسلام .
(٢) الطوق : الطاقة .

نَـــوح قلـــــبِ ممــــزقٍ   حـــاصـــلُ الغـــمِّ والألـــم
خفـــق القلـــب ســـاعيـــاً   يخلـــق الـــدَّيـــر والحـــرم
هـــــو فينــــا محـــــدِّقٌ   نحـــن فيـــه علـــى قـــدم
نبـــــذ الستـــــر أهلــــه   لُـــذت بـــالنفـس فـــي حـــرم[1]
غيـــرة العشـــق فـــانظـــرن !   أيُّنـــا شـــوقـــه احتـــدم ؟
مطـــربُ ألحـــان فـــي الـــدُّجـــى   قـــد شـــدا معجـــب الحكـــم
ذوق راحٍ محـــــــــــرَّم   شـــربُ راحٍ لنـــا أمـــم
هـــي مسيـــر حيـــاتنـــا   مـــا ســـوى السيـــر يُغتنـــم
ليـــس للمـــوج منـــزل   أو طـــريـــقٌ إذا التطـــم
أشعـــلِ النَّـــار فـــي هشيمـــي   مـــن قـــال فـــي القـــدم :
« منـــزل الكبـــريـــاء لـــي »   مـــرشـــد الـــرُّوم[2] ذا العلـــم

* * *

أبـــدِ مـــن طينـــك نـــاراً تُضمـــر   لا تحـــلَّ بعـــد هـــذا يُقـــدَر
مُلـــك جـــمٍّ « لنظيـــري »[3] مصـــرع :   « ليس مـــن قـــومي مـــن لا يُنحـــر »
ســـاحـــر العقـــل يعبِّـــي جنـــده   لا تُـــرع للعشـــق جنـــد ينصـــر
بمقـــامٍ ولحـــونٍ لـــم تُحِـــط   عُـــود سَلمـــى كـــلُّ حيـــنٍ يَقطـــر
نظـــري فـــي النَّفـــس أحكمـــتُ فلـــم   يتـــوجَّـــه لســـواهـــا النظـــرُ
فتَجلَّـــى الحـــبُّ فـــي كـــل الـــدُّنـــى   وأنـــا فـــي شُغُـــلٍ لا أنظـــر

---

(١) أهل السر الّذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنَّه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العِشْق في البيداء سدًى ... في قرى الحسن تعالوا نجأر[1]
وبصيد الوحش في البحر اهتفنْ ... لا تقــلْ : زورقنـا لا يُبحر
مـلء عينـي دليـل مـا مضى ... فـي طـريـقٍ ليس فيها خطر
اصبحـنْ شُـربـاً خليعـاً واحْـذَرَنْ ... عهـد شيـخٍ ليـس فيـه ذأر[2]
غـايـةُ الإفصـاحِ لمـحٌ وكُنـى ... فلُغـى الخلـوة رمـز يُعبـر[3]

* * *

تضيـقُ بـدار أصنـام ... ولا تـرضـى بمحـراب
ولكـن نحـو مشتـاقٍ ... تسيـرُ بشـوقِ أصحـاب
فـاقـدِم واتخـذ مغنـا ... كَ فـي أرواحِ أحبـاب
وكيـف وأنـت ربُّ الـدَّا ... ر تـدخـل خطـو مـرتـاب ؟
تُغيـر علـى ذوي التسبيـح ... تحمـل كـلَّ أسـلاب
وتطـرق أهـل زنَّـار ... بليـلٍ فعـل نهـاب
وذو جحفـل لجـب ... لسفـك دمـاء أصحـاب
وطـوراً فـي جمـاعـات ... بكـاسـاتٍ وأكـواب
وتـأتـي باللهيـب إلـى ... كليـم غيـر هيَّـاب[4]
وتـأتـي كالفـراش إلـى ... يتيـمٍ شمعُـه كـابـي[5]
فيـا إقبـال خـذ كـأساً ... بخمـر « الـذَّات » لهَّـاب

---

(١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلى وهيامه في البيد ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .
(٢) الذأر : الشرة وحدة الخلق .
(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .
(٤) إشارة إلى النَّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .
(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفـــاكَ الغـــربُ مـــن كـــامـــنٍ   لنفســـك منـــك ســـلاَّب

* * *

لـــذعـــاتُ حـــان العُجـــم ليســـت   كُـــفـءَ نـــاري الحـــاميـــه
ذا أحمـــــد العــــربـــيُّ نَظْـ   ـــرَتُـــهُ تحيـــط جهـــاتيـــه
مـــا حيلتـــي والعقـــلُ فـــي   عُقـــدٍ لـــه متـــواليـــه
نظـــراتُ عينـــكَ ، فـــانظـــرنْ   حلَّـــت طلســـم مجـــازيـــه
حِيَـــلُ العقـــول تفـــوقهـــا   خفقـــات قلبـــي الـــداميـــه
فـــاهجـــر كنيـــس تفلســـفٍ   لحـــريـــمِ نـــاري الحـــاميـــه

* * *

أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين   فاغسلَنْ قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطَّير في الأحرام فاقبسْ واحرقنَّ[(١)]   ذلك العشَّ الذي شُدْتَ بمال الآخرين
وتعلَّم جاهداً خفقَ جناحيك وطرْ   أنت لا تسطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرتي   ممكن قتلي بكأس من زلالِ الآخرين
إيهِ يا أقربَ من روحي ولا أبصره   عندنا هجرُكَ أحلى منْ وصالِ الآخرين[(٢)]

* * *

عنـــدليـــبُ الـــرَّبيـــع جُـــنَّ غنـــاءَ   وعـــروسُ الشَّقيـــق تُـــزهـــى بهـــاءَ
لا مغـــنَّ ولا مـــزاهـــرُ فيـــه   ذاك لحـــنٌ مـــن المغيَّـــب جـــاء
محـــرم الســـرِّ مـــن يســـدد ضـــربـــاً   فـــي وتـــار الحيـــاة أيـــان شـــاء[(٣)]

---

(١) الأحرام : جمع حرم .
(٢) وهذه قطعة أُخرى بنيت على الرمل المثمن ـ والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف ـ .
(٣) الوتار : جمع وتر .

مــن وراء الستــور أنبئــت ســراً ... لست أفشي ، فالدهر لعباً أساء[1]
لا تعنّــفْ وخــذْ سبيــل ودادٍ ... قــدَّر اللهُ فــي الحيــاة التقــاء
أيــن فــي دارة التــراب مقــامٌ ؟ ... كــل شــيء كـالـرَّمـل يمضـي هبـاء
زهـرةٌ مـن ريـاض كشميـر جسمـي ... وبــأرض الحجــاز قلبــي أضــاء
وأغــانــيَّ واللحــونُ نمتْهــا ... أرضُ شيــراز ، حــبَّ ذاك انتمــاء

* * *

نحــن تــربٌ ، وكـالنجـوم سفـارا ... مــن خضـمٍ الـزرقـاء نبغـي قـرارا
نحــن مــن شعلــة الحيـاة جميعـاً ... لـذَّة « الـذَّات » فـرَّقتنـا شـرارا[2]
قــلْ لأهــلِ السَّمــاء : إن تــرابــاً ... نـال بـالعقـل فـي السمـاء مطـارا
نحـنُ فـي العشـق زهـرةٌ فـي نسيـم ... وبكــدٌّ الحيــاة نقــدح نــارا
نحـن فـي المـرج نـرجسٌ نـاظـرات ... كلُّنــا أعيــنٌ فــألــق الستــارا

* * *

ليــردَّ العُــرب دمعــي دامـيــاً ... روضــة تنبــت ورداً وشقيقــا
وليــردَّ العُجــم أنفــاســي وقــد ... صـوَّحـت جنـاتهـم ، روضـاً أنيقـا
مــن حيــاةٍ وخلــودٍ كــدحُنـــا ... يـا تـرابـي ! فلتكـن قلبـاً خفـوقـا
صحــب الله فــؤادي هــائمــاً ... سـار لا يـرضـى مقـامـاً أو طـريقـا
صــوَّر اليــأس علــى آفــاقنــا ... عقلُنـا اليـائـسُ فـاحـذره رفيقـا
وبعــــودٍ قطِّعـــت أوتـــارُه ... قـد حبـا قلبـاً إلـى اللَّحـن مشـوقـا
أنــت نــشء وكــلامــي شُعَــل ... عـلَّ شـدوي مضـرمٌ فيـك حـريقـا
ليــس فــي قلبــي إلا أن أرى ... قطـرةً فيـك غـدت بحـراً عميقـا

---

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالَّذي يسمَّى خيال الظلِّ .
(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عــرا الــرُّوح هــدوء ولتكــن بحيــاة الكــدِّ والكَــدْح خليقــا

***

لا التَّــاج يــزهــو عليــه ولا سنــا الــزِّينــات
فقيــرٌ حيُّــك ، لكــن مــن الملــوك الأبــاة
فــي الشيــب مــاتــت قلــوبٌ وفتيــةٌ فــي سُبــات
فمــا لصــدرٍ نصيــبٌ فــي الفجــر مــن آهــات
لا تقعــدنْ عــن طِــلابٍ فــي واسِــع الفلــوات
فمــا بعصــرك هــذا هــادٍ إلــى الطُّــرقــات
غَفِلْــتَ عــن ســرٍّ وقــتٍ أضعتــه فــي شتــات
وقــتٌ عــداه حســابٌ بــالشَّهــرِ والسَّنــوات
هــذا الــرِّبــاط قــديــم مــا فيــه عيــش مــواتــي
غَفِلْــتَ عــن ســرِّ عيــشٍ وعــن جهــادِ الحيــاة
مــاذا يخــطُّ مــن الــذنــب كــاتبــا الهفــوات
دنيــاكَ مــا قــد أصبنــا فيهــا ســوى نظــراتِ
إقبــالًا الحــرَّ أمســك بــذيلــه فــي ثبــات
فمــا يــرى فــي ربــاط مــن بــائعــي الخــرقــات

***

عشقــي الجــريء صــدرُه سعيــرُ وحكمتــي عــن شــرر تخــور
إنْ يكمــل الهيــامُ صــار ذلًّا قيــسٌ بـ « ليلــى » عنــدنــا شهيــر
إليــك جئــت فــي سجــود وجــدٍ سيمــاه فــوق جبهتــي تفــور
هــب سيــف « لا » لكــافــري وأبصــر « إلا » ي كيف في الدنى تثور[1]

---

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بـــدَّ مـــن دورٍ يعيـــد أمســـي | فـــي جلـــوات مـــن غـــدي يسيـــر
نـــورك فيـــه للـــدُّنـــى نصيـــبُ | « سينـــا » ي كيـــف فـــاتهـــا تنـــويـــر
أحـــدِّث الـــرحمـــن فـــي حجـــابِ | وفـــــي حمــــاك منطقــــي جهيـــــر
أيــــا رســــول الله ! إنَّ ربــــي | محجَّـــــب وأنــــت لــــي ظهــــور

* * *

أسفـي عليـك نحـتَّ أصنـامـاً أخـر | عوداً ولم تبحثْ بقلبك عن أثر[(١)]
أسفي عليك صُهرت في نار الفرنـ | ـجِ ومن لحاظ العين روحك قد قطر[(٢)]
أسفـي عليـك فمـا وُزنـت بنظـرة | فـي حلَّـة فيهـا التـرابُ لـه قـدَر
أسفـي عليـك قـرأتَ أسفـار العقـو | ل وما فهمتَ حديثَ وجدٍ يُستطر
أسفـي عليـك تطـوفُ مـن ديـرٍ إلـى | حـرمٍ وفـي معنـاك لـم تُجِـد النَّظـر

* * *

(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .
(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .

القسم الرابع

نقشُ الإفرنج

نقش الإفرنج

أَبلغـــي يــا ريـــحُ عنِّـــي ... عــالــمَ الإفــرنــج جهــرا :
إنَّمـــا العقـــل أسيـــرٌ ... زادَه التحليـــقُ أَســـرا
يتحـــدَّى العِشـــقُ بـــرقـــاً ... منـــه هـــذا العقـــل فـــرًّا
سُحِـــرَ العقـــلُ ، وكـــان العِشْـــقُ ... بـــالأكبـــاد أدرى
تبصـــرُ الأعيـــنُ لـــونـــاً ... حينمـــا تبصـــرُ زهـــرا
ووراء اللَّـــونِ معنـــىً ... هـــو أجلـــى منـــه يُـــدرى
مـــا عجبنـــا أنَّ إعجـــا ... ز مسيـــحٍ نلـــت خُبـــرا[1]
قـــد عجبنـــا لمـــريـــضٍ ... داؤه عنـــدك أشـــرى[2]
تجمعُ العلم وتلقي القَلْـ ... ـبَ لا تـرغـبُ فيـه
آهِ ذا نقـــدٌ ثميـــنٌ ... ضـاعَ فـي كـفٍّ سفيـه
إنَّمـــا الحكمـــةُ أمـــرٌ ... ليـــس فيـــه مِـــنْ نهـــايـــه
ليـــس فـــي كتَّـــابهـــا للحـــبِّ ... والعِشـــقِ بـــدايـــه[3]
قطعـــت سُبـــل قلـــوبٍ ... يقظـــاتٍ بـــالعمـــايـــه
ذاتُ طـــرفٍ ذي كـــلامٍ ... هـــو فـــي الفتنـــة آيـــه
ودلالٍ لا تـــرى فيـــه ... إلـــى القلـــب سـرايـــه

---

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شرى الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالمسيح في المعجزات ، ولكنَّه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزُّه كما يبرى القلم .

ليـــس فيهـــا لـــذةُ الـــوخـ ـــزةِ مـــنْ غَمْـــزِ الـــرُعـــايـــه
طـــوت البيـــد ولـــم تظـ ـفـــر بظبـــيٍ فـــي النهـــايـــه
طـــافـــت البستـــان لـــم تبـ ـلـــغ مـــن الأزهـــار غـــايـــه
فَهَلُمُّـوا نسـأل العِشْـق ســـداداً ورَشـــادا
واقصدوا العِشْقَ سُجودا وابلغـوا مِنْـهُ مُـرادا

* * *

سلـــكَ العقـــلُ طـــريقـــاً ذا شعـــابٍ حيـــن ســـارا
مـــلأ العـــالـــمَ هـــرجـــاً وأصـــارَ المـــاءَ نـــارا
فـــي يـــديـــه كميـــاء ردَّت الـــرمـــل نضـــارا
لـــم يصَـــغ إكسيـــر حـــبٍّ فـــي قلـــوبٍ أو أنـــارا
سحـــرهُ قـــد خـــال فينـــا فقبلنـــاه جهـــارا
ذاك قطَّـــاع طـــريـــقٍ قطـــعَ السُّبـــل نهـــارا
فنَّـــه قـــد هـــدّم الأفـــر ـــج والنقـــعَ أثـــارا
ثـــمَّ فـــي مُقلـــة عينـــي ذرَّ مـــن ذاك غُبـــارا
كـمْ زرعنـا مِـنْ شـرارٍ وحَصَـدْنـا مِـنْ لهيـبِ
كـمْ عقـدْنـا وحلَلْنـا عُقـداً فـوق القلـوبِ

* * *

أيـــنَ مِـــنْ خفـــق الشَّـــواهيـ ـــن جنـــاحُ العنـــدليـــب
أيـــنَ مـــنْ يلقـــطُ مِـــنْ حـــب علـــى الأرضِ تـــريـــب
مـــن فتـــى يلقـــط عنقـــو د الثُّـــريـــا لا يَخيْـــب
أيـــنَ مـــنْ يســـري بـــروضٍ كنسيـــمٍ فـــي هبـــوب
مَـــنْ بصيـــر فـــي ضميـــر الـــزهـ ـــر للســـرِّ يصيـــب
أيـــن فـــوق الأرض ظـــنٌّ ســـارَ أو شـــكٌّ مـــريـــب
مـــن طمـــوحٍ جـــاوز الأفـــلا ك لِلْمَنْـــرى الـــرَّحيـــب

حبَّــذا عقــلٌ فسيــحٌ قــد أحــاطَ العــالَميـن

نـــورُ أمـــلاكٍ ونـــا ر الأنسِ فيه دونَ مين

نحـــنُ مِـــنْ خلـــوةِ عِشـــقٍ قـــد بـــرزنـــا بـــالسَّجـــايـــا

فجعلنـــا مـــوطـــىء الأقـــدا م فـــي الأرض مَـــرايـــا

فـــانظـــرنْ همَّتنـــا كيـ ـــف لعبنـــا بـــالعطـــايـــا

قـــد أضعنـــا الكـــونَ جهـــراً حيـــنَ حـــزنـــاهُ خفـــايـــا[1]

قـــدْ نـــزلنـــا شـــطَّ نهـــرٍ نبصـــرُ المـــوج سَـــرايـــا

تبصـــرُ الأعيـــنُ سطـــراً مِـــنْ غُـــدُوٍّ وعَشـــايـــا

قَلْبُنـــا بيـــتُ هـــذا الـــدَّيـــر[2] لا يبغـــي سبـــايـــا

فـــرمـــى النَّـــارَ بـــرطـــبٍ ويبيـــسٍ فـــي البـــرايـــا

شعلـــةٌ كنَّـــا جميعـــاً وانتثـــرنـــا كـــالشَّـــرزْ

أهـــلَ شـــوقٍ وحنيـــنٍ ورجـــاءٍ ونَظَـــزْ

أصبـــح العِشـــقُ غـــويـــاً قـــاطعـــاً كـــلَّ وكـــاء[3]

فتنـــةٌ للنـــاس فيهـــا خَفْـــقُ حـــوتٍ فـــي العـــراء

آثَـــر الحَـــزْبَ علـــى الخفـــضِ وعبَّـــى للقـــاء

لـــم يـــروِّ السَّيـــفَ إلا مِـــنْ صـــدورِ الأوفيـــاء

قطـــع الطُّـــرق وسمَّـــى الـ ـقَطْـــعَ حِفْـــظَ الأمنـــاء

أخـــذ الـــدُّفَّ وغنَّـــى راقصـــاً دونَ حيـــاء

رافعـــاً فـــي الكـــفِّ كـــأســاً مِـــنْ دمـــاء الأصفيـــاء

حـــانَ أنْ نُحـدِثَ نهجـاً ونجـــدِّ النظـــرا

---

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلته أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدير القديم ، وهو كناية عن الدُّنيا .

(٣) أحسب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أنَّ العشقَ ، وهو الوجدان السليم قد صار هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فـاغسلـنْ لـوحَ فـؤادِ وأجِـدِّ الأسطـرا
لحـنُ إسكنـدر ولّـى وتقضَّـى لحـنُ دارا
وأتـى فـرهـادُ يبغـي ملـك بـرويـزَ جهـارا
يـوسـفُ فـارق سجنـاً وعـزيـزَ الملـك صـارا
وخـرافـاتُ زليخـا ورُقـاهـا تتـوارى
كـلُّ سـرٍّ كـان يخفـى غشـيَ السُّـوق نهـارا
ومضـى حفـلُ النُّـدامـى وبـريـقُ القـول بـارا
فـافتـحِ العَيْـن وأمعِـنْ لتـرى مـا لا تـرى
إنما تبني الحياةُ اليوم كـونـاً آخـرا
أنـا فـي الأرض بصيـرٌ عـارفٌ سـرَّ الحيـاةِ
أبصـر الـذَّرَّات طـراً كنجـومٍ نـاظـراتِ
وأرى الحبَّـة تحـت التُّـرب مـن قبـل نبـاتِ
ذاتُ أصـلٍ وفـروع وثمـارٍ يـانعـاتِ
وأرى الأطـواد ريشـاً فـي ريـاحٍ قَلِقـاتِ
وأرى الـرِّيـش ثبـاتـاً كجبـالٍ راسخـاتِ
وانقـلابٌ ليـس يحـو يـه ضميـرُ الكـائنـاتِ
قـد أراه لسـتُ أدري كيـف فـي العَيـنِ يـواتـي
حبَّـذا المبصـرُ جهـراً فـارسـاً فـي ذا القَتَـر
ويـرى جـوهـرَ لحـنٍ فـي اهتـزازٍ بـالـوتـر
بـالحيـاة النَّهْـرُ جـار وسيجـري فـي مضـاء
عـاتـق الـرَّاح فتـىً وسيبقـى فـي فُتـاء
كـلُّ أهـلٍ لـوجـودٍ سـوف يحظـى بـالضِّيـاء
ووجـودٌ غيـرُ أهـلٍ سـوف يحـويـه الفنـاء
إنَّمـا العِشـقُ عيـونٌ تـرقـبُ الحسـن ظمـاء
ومُنـى الحسـنِ ظهـورٌ وسيبـدو فـي جـلاء

إنَّ هـــــذي الأرض فيهـــــا لـــي دمـــوعٌ مِـــنْ دمـــاء
سيُـــرى الـــدَّمـــعُ عقيقـــاً فـــي حشـــاهـــا ذا بهـــاء
« فـي ظـلام الليـل جاءتـ ـنـي مـن الصُّبـح بِشـاره
أطفـىء الشَّمـع ولاحَـتْ لي من الشَّمس أماره »[1]

* * *

جمعية الأمم

بـــؤســاءُ الأرضِ رامـــوا سُنَنـــاً لتزولَ الحَرْبُ في هذي العُصور
وسمعنـــا أنَّ نبَّـــاشـــي قُبـــورِ شـــركـــةً شـــادوا لتقسيـــمِ القبـــور

* * *

شوبنهاوَر ونيتشا[2]

طـــارَ مِـــنْ عُشِّــه يسيـــرُ بـــروضٍ فـــأصـــابتـــه شـــوكـــةٌ مِـــنْ زُهـــور
لعـــن الـــرَّوضَ والـــزَّمـــان ونـــادىٰ بثبـــــورٍ لنفســـــه والطُّيـــــور
ورأى وسمـــة الشقـــائـــق جـــوراً وطلَسْـم البـرعـوم خَـدعُ خبيـر[3]
قـال ذي الـدَّار شيَّـذتَ بـاعـوجـاج كـــلُّ صبـــحٍ بهـــا إلـــى ديجـــور
نـــاحَ حتَّـــى تقـــاطـــرت نغمـــاتٌ مـــن دمـــاءٍ ، بـــدمـــع عيـــنٍ غـــزيـــر
وشجـا الهـدهـدَ النُّـواحُ فـوافـى ينـزع الشَّـوك مـن جنـاحِ الكسيـر

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .
(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .
(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الشُّعراء وسمة من الحرقة . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاعه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً مــزّق الــوردُ صَــدْرَه للعبيــر
واجعـل الجُـزحَ بَلسمـاً فستـرضـى واثْلَـفِ الشَّـوكَ تغـدُ كلُّـك روضـا

* * *

الفلسفة والسياسة

لا تقيســوا فلسفيــاً بــارعــاً بسيــاســيٍّ وبــالعــدل احكمــوا
ذاكَ عيـنٌ جهـرت فـي شمسهـا[1] وجمــودُ عيــنِ ذا لا تَــرْحــم
ذاكَ فــي الحــقِّ دليــلٌ واهــنٌ ذا لــدى البــاطــل قــولٌ مُحْكَـمُ

* * *

نيتشا

ثـارَ مِـنْ ضعـفِ الأنـاسـيِّ قلبـه فبــرى الخلــق المكمــل لُبُّــه
فتنـة فـي الغـرب مـن ذي جنـون كـان فـي دار الـزُّجـاجـيِّ ضـربـه

* * *

بايرُن[2]

قطــراتٌ رشحــتْ مــن كــأســه شعلــةٌ تنمــو كــوردٍ وشقيــق
ذو رســالاتٍ بهــا حــرُّ الجــوى فـرسـولُ الحـبِّ منهـا فـي حـريـق
ضــاق بــالإفــرنــج بــرداً طبعــه فهـو فـي الأوطـان في غـمٍّ وضيـق

---

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .
(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيـــالٍ كـــم بنـــى مِـــنْ ملعـــبٍ فيــه للحــورِ مــراحٌ وبــريــق
جَلـــواتٌ للشَّبـــاب ائتلقـــتْ فهــو فــي الغَشْيَــةِ منهــا لا يفيــق
طـــائـــرٌ فـــارق عشَّـــاً ورأى حِلَـق الشُّبَّـاك[1] أولـى بـالحلـوق

* * *

جلال وهيكل[2]

ليلـــةً بـــتُّ أعـــانـــي حلَّهـــا مشكـــلاتٍ لحكيـــم الألمـــانِ
ذاكَ مَـــنْ أبـــرز فـــي إبـــداعـــه أبـديُّ الكـونِ مـن ستـر لآنـي[3]
يخجـــلُ العـــالـــم مـــن أفكـــاره شـــاكيـــاً ضيـــقَ زمـــانٍ ومكـــانِ
ســـرتُ فـــي بحـــرٍ لـــه فـــالتطمَـــتْ سفـــنُ العقـــل بمـــوجِ الطُّـــوفـــانِ
نفـــثَ النَّـــومَ بعينـــي سحـــرُه فحمـــانـــي فكـــرَ بـــاقٍ أو فـــانـــي
وأحـــدَّ الشَّـــوْقَ طـــرفـــي فـــإذا نـــور وجـــهِ لحكيـــم رحمـــانـــي
إنـــه الشَّمـــسُ تجلَّـــت فـــي الضحـــى كـــلُّ أفـــقٍ بسنـــاهـــا نـــورانـــي
نـــورُه فـــي مظلـــمِ الأفـــق ســـرى كمنـــارٍ فـــي طـــريـــقِ الـــرُّكبـــان
تنبـــتُ الأفكـــار فـــي ألفـــاظـــه مثـــلَ مـــا ينمـــو شقيـــقُ النُّعمـــان
قـــال : قـــم يـــا أيهـــا النـــائـــمُ ! هـــل تمخـــرُ السُّفـــن ســـرابَ القيعـــان
« في طريقِ العِشْقِ بالعقل يُسار ؟ بســراجٍ تبتغــي شمــسَ النَّهــار »[4]

* * *

---

(١) الشباك : الشبكة .

(٢) جلال الدين الرومي ، وهيكل الفيلسوف الألماني .

(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .

(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفي
(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياض غَنَّيتَ حيناً … زدتَ قلباً جوىً وأسليتَ قلبا
وخضَّبْتَ الشقيق من دمك المسفوك … وجْداً وجلّ ذلك خضبا
كم بآهِ الصَّباح في المرجِ يسري ، … في صدور الأكمام فَتَحْتَ قلبا
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها … في « مزار » القريض تُدفن حبا
وإلى الترب لم تعد بمماتٍ … ذاك حقٌّ فليس أصلك تربا

***

جلال وجوته[1]

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم[2] … فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعرٌ يشبه ذا العالي الجناب … ما نبياً كان لكن ذو كتاب[3]
قصَّ للعارفِ بالسرِّ القديم … ما وعى إبليسُ والشيخُ الحكيم
فأجابَ الشَّيْخ : يا رب العلاء … أنت صيادٌ ولكن في السماء
قد خلا فكركَ في القلب السليم … فأجدَّ الرُّوح في الكون القديم
فرأيتُ الدرَّ في قاع البحار … ودبيبَ الرُّوحِ منْ خلف الستار

---

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجناب ـ لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب ـ .

ليس كلٌّ قد تجلّى العِشْقُ له ليس كلٌّ أهل هذي المنزله
« قد تجلّى لسعيدٍ ألمعيٍّ مكرُ إبليس وعشقُ الآدمي »[1]

* * *

رسالة برگسون[2]

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدْ بنفسِك عن لظاها كما جَفِلَ الشَّرارُ عن اللهيب
ولا تصحَبْ سوى نظرٍ عريف ولا تمرر بأرْضِك كالغريب
وما صورتُه وهمٌ فأعدد لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

* * *

حانة الفرنج[3]

عهدُ حاناتِ فرنجٍ ذكَّرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرةُ فيها عينَ خمَّار جميلِ
نظرة الساقي رسالا تٌ لشرَّاب الشَّمول
عقلُها الخاتر غاز عشقَها كلَّ سبيل
جوُّها ما أشْعَلَتْه نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها مِنْ خليعٍ فيه ترنيحُ السُّكارى

* * *

---

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .
(٢) فيلسوف فرنسي .
(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء[1]

لوك[2]

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيقٌ[3] يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت[4]

فطـــرةٌ ضـــاءت شـــرابـــاً ولهـــا نجـم كـأسٍ مـــن حـــريـــم الأزل

برگسون

مـــا لـــه مِـــنْ أزلٍ خمـــرٌ وكـــاس نـــاره مِـــنْ حـــرقـــة القلـــب الشَّقيـــقْ

***

شعراء

برونگ[5]

ليـس فـي كـاس الحيـاة البـرد نـارٌ فبمـــاء الخضـــر كـــأســـي أمـــلأ[6]

بايرن

منـــةٌ للخضـــر لا تلهـــبُ صـــدري فبمـــاء القلـــب كـــأســـي أمـــلأ

---

(١) صوَّر الشاعر كلاًّ من هؤلاء الفلاسفة ببيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرمها إسكندر .

غالب[1]

لأزيــد الخمــرَ والصَّــدر لهيبــاً　　أصهَــر الــدَّنَّ وكــأســي أمــلأ

جلال الدِّين الرومي

أيــن مــزجٌ مِــنْ سنــا جــوهــرِهــا　　مِــنْ عــروقِ الكَــرْمِ كــأسي أمــلأ

حانات الفرنج

أمــسِ فــي حــانــة الفــرنجــة وهْنــاً　　راعنــي قــولُ مــاجــنٍ ذي خــلاعــه
قــال : ليســت كنيســةً تغشــاهــا　　فــي دُمــىً للغنــاءِ تبغــي سمــاعــه
إنَّهــا حــانــةُ الفــرنــج وفيهــا　　كــلُّ مــا ذمَّــه البــريــةُ طــاعــه
قــد وزنــا الأعمــالَ فيهــا بــوزنٍ　　غيــر مــا حسَّــن الأنــامُ اصطنــاعــه
لا تــزنْ وزنَ أمَّــةٍ ذات ديــنٍ　　رثٌّ ميــزانهــم فحــاذرْ متــاعــه
كــلُّ قبــحٍ يــزيــدُ جــاهــك ، حسنٌ　　كــلُّ حســنٍ يضــرُّه فهــو شنــاعــه
إنْ تفكَّــرت فــالحيــاةُ ريــاءٌ　　وبهــا الصِّــدقُ قــولــةٌ خــدَّاعــه
إنَّمــا الصِّــدق والــوفــاء حجــابٌ　　يُحــرم السَّــاعــي الغــريــرُ ارتفــاعــه
شيخنــا قــال : مــوِّهــنْ كــلَّ صُفــر　　بنضــارٍ وزيِّفَــنْ كــلَّ ســاعــه
ذاك ســرُّ الحيــاه لا تفشينــه　　تــربحــنْ فــي يــديــك كــلَّ بضــاعــه

***

---

(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .

القسم الخامس

رَقَـائِـق

رقَائِق

ذرَّاتُنـــا ثـــورةٌ تهـــدُر بـــأنفـــاسنـــا محشـــرٌ مضمـــرُ
لقـد أفْصَـحَ الخضـر فـي الظُّلمـاتِ علـى حيـنَ صـاحَبَـهُ إسكنـدرُ
عسيـرٌ علـى النَّـاس فَهْـمُ الممـاتِ وفهـــمُ الحيـــاةِ لهـــمْ أعْسَـــرُ

* * *

حبـةُ الـدُّرِّ تعـرفُ البحـرَ لكـنْ أيُّ علـمٍ لهـا بـدورِ الـرَّحـى ؟

* * *

يصـــرُّ اليـــراع لإعـــواز لـــبٍّ[1] فليـس لمـرودِ كحـلٍ صـريـر

* * *

طفـتُ بـالبيـتِ حـامـلاً أصنـامـي وأمامَ الأصنامِ « هو » قد جأرتُ[2]
وفـؤادي يسيـرُ خلْـفَ طِـلابِ فـي طـريـقٍ كشعـرةٍ قـد مَـرَرْتُ
يقولُ ورد روضٍ : عيشُ الرَّبيعِ أحلى وصبحُ مرجٍ عندي منَ الجميعِ أحلى
مـن قبـل جـور كـفّ لـزينـة تقطفنـي موتٌ بحضنِ نضرٍ من الفروع أحلى[3]

* * *

يـــا صـــاحبـــي ذاك قـــولٌ علـــى الحيـــاة دليـــلُ

---

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .

(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .

(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

اللَّمعَات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بدأتُ هذه المنظومة حينما قرأتُ منظومتَيْ إقبال : « أسرار خودي » ، و« رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شُغلتُ عن إتمامها ، فلبثتُ أعاودُ النَّظم فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پيام مشرق » على النِّهاية عزمتُ على إتمام المنظومة ، فتمَّتْ بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)

أيُّهــا اللَّيــلُ ! إليــكَ المفــزعُ ... كـمْ حَنَتْ منـكَ علينـا أضلـعُ ؟
كَـمْ خفينـا فـي غيابـات الـدُّجى ... ومـلأنـا اللَّيـلَ همَّـاً وشجـا ؟
كـم أَلِفــتُ الليـلَ أمّـاً حـانيـة ... وكـرهـتُ النَّجـم عينـاً رانيـة ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـل وحشـاً راقبـا ... مـن شُعـاعِ الصُّبحِ سهمـاً صـائبـا
كـم بثثـتُ اللَّيـل سـرّاً كتمـا ... فـوعـاهُ الليـل عنِّـي ألمـا ؟
كـانـتِ الظَّلمـاءُ لَـوْحـاً لـلألـمْ ... خطَّـتِ الآهـاتُ فيـه كـالقلـم !
كـانَ لـي الليـلُ مـداداً فَنَفـد ... وطغـى قلبـي بمـدٌ بَعْـدَ مـدّ
جاشتِ الظَّلماء موجاً بعد موج ... وغزاني الوَجْدُ فوجاً بعد فَوْج !
فَنِيَـتْ هـذي ، وهـذا زاخـرُ ... وانْجَلَـتْ هـذي ، وهـذا غـامـرُ
خلتنـي فـي الليـل جمـراً سعـرا ... ونجـومُ اللَّيـل منـه شـررا
إرَّة قَـدْ وقـدتْ فـي أضلعـي[1] ... وسحـابٌ هـاطـلٌ مـن أدمعـي ؟

* * *

كنـتُ سطـراً لـم يُفسِّـرْهُ أحـدْ ... خطَّـهُ فـي غيبـهِ اللهُ الصَّمـد
فـي ضميـري كـلُّ معنـىً منبهـم ... حـرت فـي الإعـراب عنه بـالكَلِمْ
قـد ثـوى العـالـمُ فـي قلبـي ومـا ... خُطَّ شيءٌ فيه إلَّا الحرفُ « ما »[2]
جـلَّ قلبـي أن أراه جـام جـم[3] ... صُـوَرُ الأقطـارِ فيـه تنتظـم
إنَّمـا الأقطـار فـي قلبـي العميـد ... أحـرفٌ أوحـت إلـى معنـىً بعيـد

---

(١) الإرة : جبل النار .
(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .
(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السَّبعة .

ربَّ معنـــىً فـــي ضميـــرٍ يكتـــم　　ليس فـي النـاس عليـه مَحْـرَم[1]
وقلـــوبٍ رمْسُهـــا هـــذي الصُّـــدور　　أتـراني مسمعاً مـن فـي القبـور[2]
أنـــا فـــي النَّـــاس فصيـــحٌ أعجـــم　　نـــاطـــقٌ فيهـــم كـــأنِّـــي أبكـــم !
صمَّـــتِ الآذانُ عـــن هـــذا البيـــان　　ضاعَ في ضوضائهم هذا الأذان !
كيـــف يُجـــدي القـــومَ هـــذا النَّغـــم　　وعلـــى الآذان رانَ الصَّمـــم ؟
كيف يُجدي القَدْحُ في هذا الحجر ؟　　قلبُـــه رخـــوٌ خَلـــيٌّ مِـــنْ شـــرر
إنَّ خَفْـــقَ القلـــب قـــدحٌ مُجْهـــدُ　　بعضُـــه يـــوري ، وبعـــضٌ يَصْلُـــد
كيف يُجدي النفخُ في هذا الرَّمادْ　　طفـىء الجمـرُ ولـم تـورِ الـزِّنـاد !

***

يَخْـــرِقُ اللَّيـــلَ شعـــاعٌ يَخْفـــقُ　　ثـــمّ يلتـــفُّ عليـــه الغَسَـــقُ
كمنـــارِ البحـــرِ يخفـــىٰ ويَلُـــوح　　فيـه بيـن الغيـبِ والـوَمْضِ وُضوح
أو يـــراعِ اللَّيـــل يخفـــىٰ ويُنيـــر　　فهـو سطـرٌ مـنْ غيـابٍ وحضـور[3]
تـــارةً يبـــدو طـــريقـــاً لَحبـــا　　قـــامـــت الأنجـــمُ فيـــه نُصبـــا
أو بيـــانـــاً مـــن بيـــاضٍ وســـوادْ　　كبيـــاضِ الطِّـــرْسِ يعلـــوه المِـــداد
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ مُفْصِـــحُ　　أُلِّفـــت منـــه سُطـــورٌ وضَّـــح
وراَه تـــارةً خطـــاً أجـــمَ　　وكـــأنَّ الضَّـــوءَ تفصيـــلُ الظُّلَـــم
فهـــو سَطْـــرٌ مـــن ظـــلامٍ أرقـــطُ　　أعجمـــت معنـــاه تلـــك النُّقـــطُ
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ أعجـــمُ　　وحـــوى الأحـــرفَ سَطْـــرٌ مظلـــمُ[4]

---

(١) المَحْرم هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .
(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمگ شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبگ سلسله غيب وحضور ست (يا يراعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .
(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارةً تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارةً تُغمُّ عليها الحقائق .

يـا لُبينـى أوقـدي ، طـالَ المـدى أوقـدي عـلَّ علـى النَّـار هـدى[1]
أوقـدي يـا لبُـن قـد حـارَ الـدَّليـل أوقــدي النَّــارَ لأبنــاءِ السبيــل
ارفعــي النَّــار وأذكــي جمــرهــا عـلَّ هـذا الـركـبَ يعشـو شطـرهـا
شــرِّدي هــذا الظــلامَ الجــاثمــا أرشــدي هــذا الفــراشَ الهــائمــا
حبَّــذا النــارُ بليــلٍ تــوقــدُ حبَّـذا المـؤنـسُ هـذا المـوقـدُ ؟
حبَّــذا عنــدك هــذا النــزلُ لــو حــوانــا فــي سفــارٍ منـزل
مـا لـذا المنـزلِ قـد سـار الفـريـق إنَّمــا النِّيــران أعــلامُ الطَّــريــق
قـد تـرحَّلنـا مـن الفـجِّ العميـق لا نبــالــي بقــريــبٍ أوْ سحيــق
رنَّ فــي آفــاقنــا هــذا النِّــداء فـأممنـا البيـت يحـدونـا الـرَّجاء[2]
قــد غنينــا عــن مبيــتٍ ومقيــلْ وعــن الأمــواه والظــلِّ الظَّليــل
وعــن الــرَّغبــة والخــوفِ سُــوى خُلـع النعـلان فـي وادي طـوى[3]
نحــن لا نــرضــى بنــار الغَسَــق نحــن لا نــرضــى بنـور الشَّفَــق
نحـن لا نـرضـى بنجـم الصُّبْـح لاح لا ولا نــرضــى تبـاشيـرَ الصَّبـاحْ
نحــن لا نــرضــى نجـومـاً لامعـه إنمــا نبغــى شمــوســاً طــالعــه
قــد رحلنــا بــالجــوى والحُــرقِ وغنينــا عـــن رسيــم الأينــق
أيــن منــا طــائــراتٌ سبَّــق جَمَــعَ الغَــرْبُ لهــا والمشــرقُ
نحــن ركــبٌ فــي جــواه مُــوضــع لــم يَسَعْــهُ فــي جــواه مــوضــعُ
كــلُّ حُــرٍّ ضــاق عنــه المــوطــنُ وانطــوى دون منــاه الــزَّمــنُ

---

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ [طه : ١٢] .

كـلُّ طيَّـارٍ علـى متـن الفكـر وعلـى متـنِ هيـامٍ لا يقـر
طـائـرٌ منـه يغـارُ الملَـك طـائـرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ فـي اللَّـوْحِ لا ينطفـىءُ كـلُّ غـايـاتٍ لـديـه مبـدأُ
زوِّدينـا بهيـامٍ ووجيـب زوِّدي يـا لُبـنَ مِـنْ هـذا اللهيـب

***

جالَ في الظلماءِ نـورٌ من نغَم مُـزِّقـتْ منه ديـاجيـرُ الظُّلم
أشعـاعٌ فيـه صـوتُ صـائـحِ أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح ؟
أذنَ الـرَّكـب لهـذا المنشـدِ أطربَ النـاشـدَ صوتُ المنشد[١]
سـال في القلب مسيلَ المطـر ينبـتُ الـرُّوح بسهـبٍ مقفـرِ
أو خـريـرِ المـاء مـن نبـعٍ زُلال بشَّـر الغـارقَ في بحـر الـرِّمـال
رَنَّ في نفسـي رنيـنُ الجـرس صـاح في أذنـي فقيـدٌ مبلـس
طـوتِ البيـداءُ عنـه السَّـابلـهْ وهـداهُ الصَّـوْتُ شَطْـرَ القـافلـه
سبـقَ القلـبُ إليـه الأذنـا كبـلالٍ لصـلاةٍ أذَّنـا
دارَ قلبـي شطـرَ هـذا المطـربِ دورةَ الإبـرة شطـر القُطْـبِ
« غنـني يـا منيتـي ! لحـنَ النُّشـور ابـركـي يـا نـاقتـي ! تـمَّ السُّـرور
عُـذتَ يـا عيـدي إلينـا مـرحبـا نِعْـمَ ما روَّحتَ يا ريحَ الصَّبا[٢] »

***

حبـذا الصَّـوْتُ فَمَـنْ هـذا البشيـر ؟ ومـنِ الهـاتـفُ بـالقَلْـبِ الكسيـر ؟
وَمَـنِ المُسْعـدُ فـي هـذي الهمـوم ؟ ومَـنِ البـارقُ فـي هـذي الغيـوم ؟
ومـنِ الهـابـط فـي نـورِ السَّمـا هـاديـاً في الأرض جيـلاً مظلمـا ؟

---

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ، والناشد : منْ ينشدها .

(٢) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومي .

ومـنِ الهـادي إلـى أرض الحبيـب يعـرف النهـج وقـد حـارَ اللَّبيـب ؟
ومـنِ السَّـائـقُ شَطْـرَ الحَـرَمِ وإلـى الأصنـام سَيْـرَ الأمـمِ ؟
وَمَـنِ القـارىءُ فـي بيـت الصَّنـم سـورةَ الإخـلاصِ فـي هـذا النَّغم ؟
ومَـنِ الحـرُّ الـذي قـد حطمـا مـن قيـود الأسـرِ هـذا الأدهمـا ؟
وَمَـنِ الآبـي علـى كـلِّ القيـود وَمَـنِ القـاطِـعُ أغـلالَ العبيـد ؟
ومَـنِ البـاعـثُ فـي ميـت الأمـم ثـورةَ العـزَّةِ مـن هـذي الهِمـم ؟
لاحَ كـالغُـرَّة فـي هـذا السَّـواد بـصَّ كـالجمـرة فـي هـذا الـرَّمـاد
جـرف النَّـاس أتـيٌّ مـزيـد ضـلَّ فيـهِ المقتـدي والمـرْشِـدُ
وطغـى اللُّـجَّ عليـه والتطـم فـرساً كـالصَّخر فـي هـذا الخِضَم
عـارضَ المـوجَ علـى أغمـاره وطـوى اللُّـجَّ علـى تيَّـاره
سبـح اللُّـجَّ وبـالشـطِّ استقـر داعيـاً والنـاسُ غـرقـى فـي النَّهـر
يجـرفُ التيَّـار جسمـاً جـامـدا تَقْـذِفُ اللُّجَّـةُ قلبـاً خـامـدا
إنَّ عـزم الحـرِّ بحـرٌ مُـزْبِـدُ جـائـشٌ فـي الـدَّهـر لا يَتَّئِـدُ
هـذه الأقـدارُ فـي تسيـارهـا هِمـمُ الأحـرارِ فـي أسفـارهـا[١]
ومـنِ الشَّـاعـر يُـذكـي القـافيـه فهـي نـورٌ وهـي نـارٌ حـاميـه ؟
تَقْشعـرُّ الأرضُ مـن أوزانـه ويهيـمُ النَّجْـمُ مـن ألحـانـه
وكـأنَّ الـدَّهـرَ صـوتٌ كُتِبـا قـد حكـاه الشِّعـر لحنـاً مطـربـا[٢]
هـو بـالأشعـار بحـرٌ فـائـض وهـو لـلأزمـان قلـبٌ نـابـض
حـدَّثتـه الأرض عـن أخبـارهـا وحَبَتْـهُ الـزُّهـر مـن أسـرارهـا
هـو بـالأمـسِ خبيـرٌ بِغَـدِ وهـو اليـومَ نجـيُّ الأبـد
كَشَـفَ اللهُ عـن الغيـبِ لـه فلسـانُ الغيـب يُمْلـي قـولـه
عَـرَفَ الشَّـرقَ وراد المغـربـا فـانجلـى السِّـرُّ لـه مـا كُـذبـا

---

(١) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .

(٢) يعني : أنَّ الدَّهر أمام الشَّاعر كعلامات الموسيقا ، والشعر قراءة هذه العلامات .

فـــرأى العلـــمَ سبيـــلاً للـــرَّدى إذ رأى القلـب خليّـاً مِـنْ هـدى
صـوتُ « إقبـال » علـى شـطِّ المزار أسمـعَ اليقظـان فـي هـذي الـدِّيـار

* * *

أيُّهـا الـدَّاعـي إلـى سـرِّ « خـودي » ليـــت أنَّـــا بهـــداهـــا نهتـــدي
فطـــرةُ الله التـــي أوْدَعهـــا كـــلُّ نفــسٍ خـــابَ مـــنْ ضَيَّعهـــا
إنهـــا ســـرُّ الحيـــاة الخـــالـــدة دونهـــا كـــلُّ حيـــاةٍ هـــامـــدة
إنَّهـــا التيَّـــارُ مثـــلَ الكَهْـــربـــاء إن يُعطَّـــلْ لمحـــةً كـــان الفنـــاء
إنَّمـــا العيـــشُ جهـــادٌ لا يَقـــرّ وركـــودُ الحـــيِّ مـــوت مستمـــرّ
مـن يضـيء ذا السـرَّ فـي أعمـاقـه ضـاقـتِ الأفـلاكُ عـن آفـاقـه
وتعـالـى عـن حـدودِ الأزمنـة وتجـافـى عـن قيـود الأمكنـة
شُعـلٌ فـي قـولـه تضطـرم وطمـا فـي القلـب بحـرٌ خضـرم
مُطلـعٌ فـي اليـأسِ صُبْـحَ الأمـلِ نـافـخٌ فـي المـوت روح العمـل
أرأيـت الغيـث فـي أرضٍ مـوات منبتـاً فيهـا أفـانيـن النَّبـات
هِمـمُ الأحـرارِ تحيـي الـرِّمَمَـا نفخـةُ الأبـرار تحيـي الأممـا
لا يُصـدُّ الحـرُّ عمَّـا يـامـل أو يحـدُّ البـرُّ فيمـا يفعـل
هـو بـالله العلـيِّ اتصـلا جـلَّ ربـي عـن حـدودٍ وعـلا
مـنْ يُضـيء فـي قلبـه إيمـانُـه وينـزْ فـي سبلـه وجـدانُـه
فهـو بـالله علـيٌّ وقـويّ وهـو بـالله غنـيٌّ وولـيّ
جـاهـد والله فـي تيسيـره تحسـبُ الأقـدارَ فـي تقـديـره
قـائـمٌ بـالحـقِّ بيـن البشـر مـا لـه فـي بـاطـلٍ مـنْ وَطَـر
يُمْسِـك الـدُّنيـا ولا تُمسِكُـه يملـك الأرضَ ولا تملكـه
وتـرى الـدُّنيـا انطـوت فـي كسبـه ليـس منهـا ذرةٌ فـي قلبـه
إنَّـه القـانـون بـالله سـرى عـادلًا فـي حكمـه بيـن الـورى
يسـعُ النَّـاسَ جميعـاً همُّـه فـي سبيـل اللهِ مـاضٍ عـزمُـه

جـاهـدٌ فـي الخيـرِ لا يتَّئـد   عـزمُـه فـي صَـدْرِه يتَّقـدُ
وفقيـرٌ وغنـاه لا يُحَـدّ   فقـره استغنـاؤه عـنْ كـلِّ يـد
هـو بـاللهِ وفـي اللهِ غنـيّ   ضـاقَ عـن هـذا الغنـى كـلُّ ثـري

* * *

صغار الهمم

إنَّ فـي النـاس قلـوبـاً جـامـده   جـذوةُ الإقـدامِ فيهـا خـامـده
همُّهـا مـا يبتغيـه الجسـدُ   كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ وددُ
حـدَّدَتْ آرابُهـا آفـاقَهـا   فحكـتْ فـي ضِيقهـا أخـلاقَهـا
لا تبـالـي حيـن تبغـي أربـا   عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَـرِبـا
إنَّمـا قـانـونهـا أهـواؤهـا   سُخِّـرتْ فـي نفعهـا آراؤهـا
وتـرى أهـواءهـا تغلبُهـا   كـلَّ حيـنٍ فـي هـوىً يجـذبُهـا
وإلـى الأرض تـراهـا مُخْلِـدَه   لا تُـرى نحـو المعـالـي مُصْعـده
إنَّمـا آفـاقُهـا هـذا البـدن   إنَّمـا مَبْـرَكهـا هـذا العَطَـن
إنَّمـا أحيـاؤهـا كـالـرِّمـم   خـامـداتِ العَـزْم مـوتـى الهِمَـم

* * *

العالمُ مَعْبد

إنَّمـا العـالَـمُ طُـرّاً مَعْبـدُ   كـلُّ مَـنْ أحسـنَ ، فيـه يَعْبُـد
كـلُّ مَـنْ أدلـى بقـولٍ طيِّـبِ   ينبـتُ الخيـرَ كغيـثٍ صيِّـبِ
كـلُّ مـنْ أحسـن يـومـاً عمـلا   كـلُّ مـن أحيـا مـواتـاً همـلا
كـلُّ مـنْ فـي أرضـه قـد زرعـا   ليقيـتَ النَّـاس والعُجْـم معـا
كـلُّ مـنْ يغـرسُ مخضـرَّ الشَّجـر   فيـه لـلإنسـان ظـلٌّ وثمـر

كـل مـنْ يَنْبِـطُ بشـراً فـي السبيـل تنفـعُ الظمـآن مـنْ حـرِّ الغليـل
كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حسنـا كـلُّ مـنْ فـي صنعـه قـد أتقنـا
كـلُّ مَـنْ أحـدثَ علمـاً للبشـر ينفـعُ النـاسَ ولـم يقصـدْ لشـرّ
كـلُّ مـنْ أحـدث فكـراً مُحكمـا يبتغـي للنـاس خيـراً عممـا
كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لـم يجـد لـم يضـع وقتـاً بلهـوٍ ودِدِ
كـلُّ مـنْ أثَّـر فيهـا أثـرا خـالـداً للخَيْـرِ مـا بيـنَ الـورى
كـلُّ مـنْ فـي دهـره قـد أجمـلا فكـرةً أو قـولـةً أو عمـلا
كلّهُـم للهِ نِغْـمَ العـابـدُ كلُّهـم للخيـرِ نغْـمَ القـاصـدُ
فـاصطنـع للخيـرِ فكـراً ويـدا ولسـانـاً وابـغِ فـي الخيـر يـدا

* * *

لا رهبانية في الإسلام

ليـس منـا مـن ثـوى فـي صـومعـه يحبـسُ الأعمـال والفكـر معـه
ضـاق نفسـاً عـن مجـالٍ وسعـا فثـوى فـي ضيقـهِ قـد خَنَعـا
ليـس شيئـاً أنْ تُـرَى معتـزلا عـابـداً تخشـى البـرايـا وجِـلا
إنَّمـا العـابـد مـنْ خـاضَ الحيـاة مـوضحـاً فيـه سبيـلاً للنَّجـاة
آخـذاً بـالعَـدْلِ مـا عنـه حِـول ذاكـراً مـولاه فـي كـلِّ عمـل
إنَّـه بـالحـق مـوصـولٌ ومَـنْ يتَّصـلْ بـالحـقِّ لا يخـشَ الفتـن
ثـورةٌ مضمـرةٌ فـي حلمـه إنْ يفكِّـرْ ظـالـمٌ فـي ظلمـه
أرأيـت الصَّقْـرَ فـي متـنِ الـرِّيـاح يطلـبُ الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
طـائـراً فـي الجـو يسمـو عـازمـا لا يُـرى حـول الـدّنـايـا حـائمـا
يـأكـلُ الجـوع ولا يـرضـى الجيـف لـو يـراه الجـوعُ يـومـاً مـا أسـفّ
فـإذا الجـدُّ رمـاه فـي الشَّـرك لـم يطـقْ صبـراً عليـه فهلـك
ليـس يحـوي الحـرَّ يـومـاً شبـكُ فـأسـار الحـرِّ فيـه مهلـكُ

يـا فتـى هـذا الجهـادُ الأكبـر ... عـزمـاتُ الحـرِّ فيـه تُخبـر
قـلَّ فـي النّـاس عليـه صـابـرُ ... ليـس إلا الحـرُّ فيـه ظـافـر
يـا أسيـر الـوَهْـمِ أقـدم لا تُبَـلْ ... وامـضِ فيمـن صـحَّ عـزمـاً واتَّكـل

* * *

معنى التَّوَكُّل

مَـنْ يَنَـمْ عـن سعيـه لا يتَّكـل ... إنَّمـا التكـلانُ سعـيٌ متَّصـل
مُقْـدمٌ فـي أمـره المتَّكِـلُ ... واثـقٌ بـالله فيمـا يـأمُـلُ
عـازمٌ مـاضٍ علـى خيـرِ سنن ... لا يبـالـي بِعِقـابٍ أو مِحَـن[1]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي نـورِ الصَّبـاح ... تطلـب الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
إنَّهـا تخـرجُ فـي كـفِّ القـدر ... مقـدمـاتٍ لا تبـالـي بـالخطـر
طـالبـاتِ الـرزق فـي كـلِّ رجـا ... تمـلأ الجـوَّ وثـوقـاً ورَجـا
يـا لهـا مـنْ أمـلٍ قـد صـوَّرا ... طـائـراً يطلـب رزقـاً قُـدِّرا
أرأيـت العَـزْمَ فـي شكـل جنـاح ... خـافقـاً لا ينثنـي دونَ النَّجـاح
لا يصـد الطيـرَ خـوفُ التَّهلُكـه ... أو تبـالـي بطـريـقٍ مهلكـه
ضـرب المختـار هـذا مثـلا ... للـذي يسعـى عظيمـاً أمـلا[2]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي أوكـارهـا ... راجيـاتٍ رزقهـا فـي دارهـا ؟
ثـاويـاتٍ تبتغـي أرزاقهـا ... ليـس تَـذْري مـنْ إليهـا سـاقهـا
مـن ونـى فـي سعيـه لـم يتَّكِـلْ ... إنَّـه للـوهـمِ والعَجْـزِ وكـل
إنَّمـا التُّكـلان عـزمٌ وعمـل ... إنَّـه الإقـدامُ فـي ضـوء الأمـل

---

(١) العقاب : جمع عقبة .
(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً .

إنَّــــه الإعـــــداد والعـــــزم معـــا إنَّـــه الحـــرُّ إلـــى القصـــد سعـــى
إنَّــه التقــديــرُ فــي سعــي البشــر هــو عنــدَ الله مــنْ بعــضِ القــدر
هِمَـــمُ الأحـــرار فـــي إيمـــانهـــا سُنَـــنُ الخـــلاَّق فـــي أكـــوانهـــا
سنـــــةُ الله التـــــي لا تبـــــدَّلُ مـــا لهـــا كـــرُّ اللّيـــالـــي حـــوَّلُ

***

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

آهِ مـــنْ لـــي بقلـــوبٍ واعيـــه مُقْـدِمـاتٍ فـي المعـالـي سـاعيـه
آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِمـــا ؟ آهِ مـــنْ يـــدركُ هـــذا النَّغمـــا ؟
أيُّهـــا المسلـــمُ مـــاذا قَـــدْ عـــدا ؟ كنـــتَ فـــي الأرض جهـــاداً وَهُـــدى
آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا آهِ لِلْقَلْـــبِ الـــذي قَـــدْ صَـــدِئـــا
آهِ للنَّـــار الـــذي تشتعـــل فيضـــيء الأرضَ منهـــا شُعَـــلُ
خَمَـــدتْ فـــالقلـــب بـــردٌ وهمـــود خَمَـــدَتْ فـــالنَّفـــس عَجْـــزٌ وركـــود
إنَّ هـــذا القـــول زِنْـــدٌ وحجـــر ليـــت شعـــري هـــل لـــديـــه مـــنْ شـــرر
إننـــي أُضْـــرِمُ هـــذا الألمـــا علَّـــه فـــي القلـــب يـــذكـــي ضَـــرَمـــا
إننـــي أنفـــخُ فـــي هـــذا السَّـــواد عـــلَّ جمـــراً محـــرقـــاً تحـــت الـــرَّمـــاد
علَّنـــي أُذهـــبُ هـــذا الخبثـــا علَّنـــي أمْحَـــقُ هـــذا العبثـــا
إنَّنـــي أبعـــثُ فيهـــم نغمـــي علَّنـــي أبْعـــثُ مَيْـــتَ الهمـــم
إنَّنـــي أُمْطـــرُ فـــي أرضٍ مـــوات علَّهـــا تُنْبـــتُ ألـــوان النَّبـــات

***

الأمل

لا تـــرانـــا فـــي جهـــادٍ نيـــأسُ لَيْـــسَ مِـــنْ أمَّتنـــا مَـــنْ يئســـوا

أشعل الإيمان في كلِّ دُجى واقدحِ العزم إذا الهَوْلُ دجا
وَارْفَعَنْ في كلِّ ليلٍ شُعَلا وابعثَنْ مِنْ كلِّ يأسٍ أملا
وصلِ القَلْبَ بخلَّاق الرجاء واخلقَنْ في كلِّ حينٍ ما تشاء
إنما الإنسانُ فكرٌ وعَمَل يَصْدعُ الظلماءَ في نور الأمل
أمل الإنسان في القلب ضياء وهو في الكفِّ جهادٌ ومَضاء
إنَّه النَّار التي تَشْتَعِلُ إنَّه النَّجمُ الذي لا يأفُلُ
إنْ دَجَا باليأس ليلٌ غَيْهَب يَصْدَعُ الظُّلمةَ هذا الكوكبُ
هو وَحْيُ اللهِ يهدي عبده ويُرِيه في الدَّياجي قَصْدَه
هو نورُ اللهِ في أفق النجاه هو هدي اللهِ في هذي الحياه
إنَّه القُطب إليه يَنْزِعُ كلُّ قلبٍ وإليه يَفْزعُ
إبرةٌ تهدي إلى قَصْدِ السبيل تَقْصِدُ القُطْبَ وعنه لا تميل
يا دليلاً هادياً في كلِّ واد أنت سرُّ اللهِ في كلِّ فؤاد
يَقْدحُ القلبُ إذا ما خفقا شرراً منه منيراً مُحْرِقا
فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْذَعُ يوضح النَّهج وفيه يَدْفعُ
فاؤْمُلْ لخيرٍ وصابرْ لا تملّ إنَّما الدُّنيا رجاءٌ وَعَمَل
وقضاءُ اللهِ عونُ الآملين وهو في عَوْنِ الأباةِ العاملين
لا يردُّ الله قلباً آملا لا يردُّ الله عبداً عاملا
ربَّ عبدٍ مخلصٍ قدْ أقسما فأبرَّ اللهُ مِنْهُ القسما[1]
وجهادُ العبد أولى أن يُبر إنَّه الفعلُ على القولِ أبرّ
إنَّ عزمَ الحرِّ فيه قَسَمُ مُضْمَرٌ يَعْلَمُهُ مَنْ يَعْلَمُ
قد تولَّى اللهَ هذا المقْسِمُ فدعاه في يقينٍ يقسم

***

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

الوجدان السليم

ذلــك الــوِجْـدانُ إنْ لــم يصـدأ ... مِــنْ غَشــاواتِ الهــوى أو يُطفـأ
أو تحجبـــه ريـــاحٌ عـــاتيـــه ... صَــرْصَــرُ الأهــواءِ فيهــا سـافيـه
أو يجلِّلْـــــهُ ظـــلامُ الغفلـــة ... أو يَحْجُبْـــه حِجـــابُ الشَّهـــوة
أيقــظِ الــوِجْـدان يــا مَــنْ غفـلا ... فمضـــى يحيـــا حيـــاةً همـــلا
أيقــظِ الــوِجْـدان واسمــعْ وَحْيَـهُ ... أيقــظِ الــوِجْـدان واتْبَـع هـديـه
إنَّـــه المـــرآة ، إمَّـــا صُقِـــلا ... تبصـــرِ العـــالـــمَ فيـــه مثـــلا
اجْلُـــه بـــالفكـــر والعلـــم معـــا ... واجْلُــهُ بــالــذِّكْـرِ حتَّـى يسطعـا
لا تُضِـعْ فـي السُّوق هـذا الجوهـرا ... لا تُطِــعْ مــن بــاع فيــه واشتــرى
لا تُضِـعْ فـي لغـوهـم هـذي الحِكَـمْ ... لا تَغُـلْ ضـوضـاؤهـم هـذا النَّغـم
نحـن فـي الـدُّنيـا حـوانـا مَهْمَـهُ ... مَجْهـــولٌ أعـــلامـــه تشتبـــه
تقْصِـــد المنـــزلَ هـــذي القـــافلـــه ... فـــي فيـــافٍ خـــافَ فيهـــا السَّـابلـه
فـــاتْبَعَـــنْ خِـــرِّيتهـــا لا تُبلِـــسِ ... وأصِـــخْ فيهـــا لِصَـــوْتِ الجَـــرَسِ (١)
إنَّــه الــوِجْـدَان فـي هــذي الفـلاه ... إنَّـــــه داعٍ يُنـــــادي للنَّجــــاه
أرأيـــتَ الفُلْــكَ تسـري مــاخــره ... فـــي ليـــالٍ وبحـــارٍ زاخـــره
تهتـــدي فيهـــا بِنُـــورٍ بـــارقِ ... مـن منـارٍ فـي الـدَّيـاجـي خـافـقِ
تهتـدي النَّهْـجَ علـى لمحـاتـه ... وتـوقَّـى الصَّخْـر مِـنْ ومضـاتـه
وَهَـــدتْهـــا إبـــرٌ لا تَغْفُـــلُ ... قـــاصـــداتٌ قطبَهـــا لا تعـــدلُ
إنمـا الـوِجـدانُ فـي بحـر الحيـاه ... إبـــرةُ القطـــبِ وَمِصْبـــاحُ النَّجـــاه

* * *

---

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارةٌ إلى قول سعدي الشيرازي ـ ما زمنز مقصود من خبريم ـ أبن قدرهست كه بانگ جرس ميآيد .

طغيانُ العقلِ على القَلْبِ

محنــةٌ للنــاس هــذا الــزمــنُ ... كــلُّ إنســانٍ بــه مُمْتَحــنُ
كــلَّ مــا نبصــرُ فيــه فتــنُ ... فتــنٌ فيهــا تحــارُ الفِطــنُ
أُطْلِــقَ الإنســانُ مِــنْ أغــلالــه ... سُيِّــبَ الشَّيطــانُ مِــنْ أحبالــه
جُــرِّدَ العــالــمُ مــن أستــاره ... وانبــرى يكشــفُ عــن أســراره
وأجــال الفكــرَ فــي طيَّــاتــه ... ومضــى يبحــث فــي ذرَّاتــه
وأحــاط الأرض مــن أقطــارهــا ... ومضــى يبحــث فــي أغــوارهــا
فــارعــاً فــي ظهــرهــا أجبــالهــا ... مخــرجــاً مــن بطنهــا أثقــالهــا
طائراً في اللوح من فوق السَّحاب ... حيــثُ لا يطمــع صَقْــرٌ أو عُقــاب
طــاويــاً أقطــارَهــا لا يغتــرب ... كــل مــا يسمــو إليــه يقتــرب
يَسْمَــعُ الهمــسَ بــأقصــى المغــربِ ... منْ بأقصى الشَّرق فاسمعْ واعجبِ
ضــاقــت الأرض عليــه فــانتحــى ... فــي ذُرى الأفــلاك يبغــي مســرحــا

* * *

آه لــو أُعطــي قلبــاً خــافقــا ... مثــل مــا أعطــي عقــلاً بــارقــا
آهِ لــو يعمــر قلبــاً راحمــا ... مثــل مــا يَغْمــرُ عقــلاً راجحــا
آهِ لــو أعْمَــرَ عينــاً ســاجمــه ... مثــلَ مــا أعمــل كفَّــاً حــاطمــه
آهِ لَــوْ هَــذَّبــهُ إيمــانُــه ... مثــلَ مــا مكَّنَــهُ عِــرْفــانُــه
آهِ لــو سَيْطَــر فــي أهــوائــه ... مثــلَ مــا سيطــر فــي أجــوائــه
آهِ لــو لــم يُغْمِــه طغيــانُــه ... فيهــدِّم فــوقَــه بنيــانــه
ليتَــهُ لــم تُطْغِــه أعمــالُــه ... ليتــه لــم تُغْمــه أمــوالُــه
ليتــه لــم تغشــه أضــواؤه ... وتــوقِــرْ سمعَــهُ ضــوضــاؤه
آهِ لــو أنَّ شعــاع الكهــربــاء ... فــي ظلام الصَّــدر منــه قــد أضــاء

ويلـــه مـــن مـــاردٍ قـــد دمَّـــرا	مـــا بنـــاه مخـــربـــاً مـــا عمـــرا
ليتـــه حـــاط الـــذي قـــد شيـــدا	بـــوئـــامٍ وســـلامٍ وهـــدى
ليتـــه حـــاطَ البـــلاد الـــزاهـــرة	ليتـــه صـــان الجِنـــان النَّـــاضـــرة

* * *

إنَّ هـــذا العصـــرَ روضٌ مُـــزْهـــرُ	كـــلُّ غُصْـــنٍ فيـــه نـــامٍ مثمـــرُ
نَضـــرتْ فيـــه فنـــون الـــزَّهـــر	أيْنَعَـــتْ فيـــه ضُـــروبُ الثَّمـــر
آهِ لكـــنْ فـــي مهـــبِّ العـــاصفـــة	كـــلَّ حيـــنٍ تعتـــريـــه جـــائفـــة
صَـــرْصـــرٌ تـــأتـــي عليـــه لا تَـــذَرْ	تَخْطـــم الأغصـــانَ فيـــه والشَّجـــر
يَخْـــرُبُ البستـــان مـــنْ قـــد غـــرسـا	يَهْـــدِمِ البُنيـــانَ مـــنْ قـــد أسَّســـا
كـــلُّ طـــاغٍ يـــدَّعـــي البستـــانَ لـــه	يبتغـــي الأشجـــار والبنيـــانَ لـــه
لـــو تـــآخـــوا ورَضُـــوا بـــالمعـــدلـــه	وجنـــوا فـــي غيـــر بغـــيٍ أكُلَـــه
لـــو تـــآخَـــوْا واهتـــدَوْا واستثمـــروا	ثـــمَّ أسمـــىٰ عـــدلُهـــم مـــا دمَّـــروا
لأوَوْا مِنْـــه إلـــى ظـــلٍّ ظليـــل	ورأوا فـــي زهـــره كـــلَّ جميـــل
وجنـــــوا أثمـــــاره وانتفعـــــوا	ونمـــا بستـــانهـــم فـــاستمتعـــوا
فتعـــالـــوا ننظـــرِ الـــدَّاء العصـــيّ	ونـــرى الأسبـــاب فـــي الـــداء الـــدَّويّ
إنَّ هـــذا الشِّعـــر لا يحصـــي العِلَـــل	إنَّـــه يعيـــا بـــذا الأمـــرِ الجَلَـــل
إنَّـــه لمحـــةُ عيـــنٍ عـــابـــره	ليتـــه كـــفُّ طبيـــبٍ مـــاهـــره
إنَّـــه نفثـــةُ نفـــسٍ شـــاعـــره	ليتهـــا كـــفُّ حكيـــمٍ قـــادره

* * *

البيت

معبـــدٌ لله مـــا أطهـــره	فيـــه ســـرُّ الله مـــا أظهـــره
روضـــةٌ يَنْبُـــتُ فيهـــا الخَلِـــقُ	وتـــرى الحـــقُّ عليهـــا يُشْـــرِقُ

تنشـأ الخيـراتُ فيـه وتـربّ   مـن رأى الخيـر لـه أمٌّ وأبّ !
أنفـسٌ فيـه كنفـسٍ واحـده   ألفتهـا فـي حماهـا الوالـده
بـل شكـولٌ مُثلَّـث للـوالـد   كـالمـرايـا حـولَ وجـهٍ واحـد
كلُّهـا حـبٌّ وإيثـارٌ فـلا   حسـدٌ فيهـا ولا حقـدٌ ولا
فـأخٌ يفـدي أخـاه جـاهـدا   وكـلا الصنـويـن يفـدي الـوالـدا
وتـرى الأمَّ عليهـم حـانيـه   تَسْهَـرُ اللَّيـل إليهـم رانيـه
وأبـوهـم فـي غـدوٍّ ورواح   يبسـط الحـبَّ عليهـم والجنـاح
روضـةٌ للحـبِّ فيهـا مثُـلا   كـلُّ غصـنٍ بـأخيـه اتصـلا
كـلُّ خيـرٍ هـاهنـا منبعـه   كـلُّ بـرٍّ هـاهنـا مطلعـه
مَسْجـدٌ يَسْعَـدُ فيـه الـوالـدان   وهمـا الخـلَّاقَ فيـه يَعْبُـدان
يَعْبُـدُ الـرَّحمـنَ مـن قـد عبـدا   والـديـه وإلـى البـرِّ اهتـدى
فـإلـى تـوحيـده مِـنْ غيـرِ بَيْـن   قَـرَنَ الـرَّحمـن بـرَّ الـوالـديـن
إن تشـاؤوا مثـلاً لا يُـدفَـعُ   بيِّنـاً كـالشمـس نـوراً يطلـع[1]
فـاقـرؤوا يـا قـومنـا كـي تشهـدوا   ﴿ وقضـى ربُّـك ألا تعبـدوا ﴾
﴿ واعبـدوا الله ﴾ فهيـا فـاقـرؤوا   ﴿ قـل تعـالـوا أتـلُ ﴾ فيهـا النبأ[2]
أحكمـوا الأسـرةَ مِـنْ قـرآنهـا   وارفعـوا بـالـدِّيـن مِـنْ بنيـانهـا
واعمـروا البيـت ببـرٍّ ووفـاء   وسـلامٍ ووئـامٍ وإخـاء
إنَّ هـذا البيـت فـي نظـم الأمـم   مثـل بيـت الشعـر فـي نظـم النَّغـم
كـلُّ بيـتٍ أُلِّفَـتْ آحـادُه   آزرت أسبـابُـه أوتـادَه

---

(١) الآية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الآيتان : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦]
﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ونِظـام البيـتِ مِـنْ نظـم الكَلِـم		كـلُّ لفـظٍ بـأخيـه يَنْتَظِـم
كـلُّ لفـظٍ مـن حـروفٍ أُلِّفـا		كـلُّ حـرفٍ بـأخيـه ائتلفـا
ونظـامـاً واحـداً يُبنـى القصيـد		ليـس فيـه مـن قصـورٍ أو مـزيـد
فـي قـوافٍ أَلِّفَـتْ أبيـاتهـا		ورويٌّ نـاظـمٍ أشتـاتهـا
ومعـانٍ بعـد هـذا غـاليـه		تـرتقـي الأنفُـس فيهـا عـاليـه
هـل رأيتـم قـطُّ مِـنْ شعـرٍ رفيـع		كـلُّ بيـتٍ فيـه ذو معنـىً وضيـع
كيـف تُبنـى للمعـالـي أُمَـمُ		مـن بيـوتٍ جمعهـا لا يُنظـمُ
مـن بيـوتٍ فـي خـلافٍ وشقـاق		يـؤذنُ البيـتُ أخـاهُ بـالفـراق
كـل بيـتٍ فيـه لفـظٌ ثـائـر		كـلُّ لفـظٍ فيـه حـرفٌ نـافـر
لا تقـلْ فيهـا زحـافٌ وعلـل		بـل شـذوذٌ وسنـادٌ وخَلَـل

* * *

ليـت شعـري مـا أصـاب المسجـدا		مـا أصـاب الخيـرَ فيـه والهـدى
لا أرى جمعـاً لـديـه نُظِمـا		لا ولا صفّـاً لـديـه قـوِّمـا
مـا أحسـنَّ اليـومَ تـرتيـلَ القُـرَان		لا ولا أسمـعُ تـرجيـعَ الأذان
خَـرِسَ المنبـرُ عـنْ أصـواتـه		عطـلَ المحـرابُ مـن آيـاتـه
ذهـبَ العبَّـادُ عنـه قـددا		ومضـوا فـي كـلِّ أفـقٍ بَـدَدا
غَلَـبَ الملهـى عليـه والطَّـريـق		ومضـى فـي غَيِّـه كـلُّ فـريـق

* * *

روضـةُ البيـتِ أراهـا ذاويـه		كـانـت الأمـسَ زهـوراً زاهيـه
صـوَّحَـتْ أعشـابُهـا والشَّجـر		وذَوَتْ أوراقُهـا والـزَّهـر
صَـدَفَـتْ عنهـا عيـونٌ واقيـه		وحمتهـا المـاءَ أيـدٍ سـاقيـه
غـاب بستـانيُّهـا دون إيـاب		فطغـى الشَّـوكُ عليهـا والتُّـراب
إنَّهـا يـا قـومنـا إحـدى الكبـرُ		أنْعِمـوا التفكيـر فيهـا والنَّظـر

هـي أصـل الـدَّاء أو أصـل الـدَّواء　　نعمـــةُ الأقـــوام فيهـــا والشَّقـــاء

* * *

اعمـروا بـالخيـرِ هـذا المسجـدا　　وابتغـوا الخيـراتِ فيـه أبـدا[1]
اعمـروا البيـتَ وردّوا والـديـه　　واجعلـوه حـرمـاً يـؤوى إليـه
نضِّـروا الـرَّوضـةَ مـن إروائهـا　　وابتغـوا النِّعمـة فـي أفيـائهـا
أرجعـوا الطيـرَ إلـى أوكـانهـا　　ليشـبَّ الـولْـدُ فـي أحضـانهـا
ألِّفـوا الأحـرف فـي كِلْمـاتهـا　　وانظمـوا الأمَّـة مـن أبيـاتهـا

* * *

تنافر الجماعة

إنَّنـا نُبصـر فـي كـلِّ مكـان　　حسـرةَ الأنفس فـي هـذا الـزَّمـان
مـن وجـوهٍ مـات فيهـا الخَفـرُ　　وعيـونٍ حـارَ فيهـا النَّظـر
يلعـن الـوجـه أخـاه نـافـرا　　يبغُـض الطَّـرفَ أخـاه نـاظـرا
قطَّعـوا مِـنْ بينهـم كـلَّ سبـب　　هجـر النَّـاسُ حيـاءً وأدب
ثـورةً تبصـرهـا كـلَّ طـريـق　　يتجلَّـى الهجـر فيهـا والعقـوق
ليسـت الأمُّ بهـا أمـا تـرى　　لا ولا الـوالـدُ فيهـا عـزَّرا
لا ولا الأخـتُ لهـا حـرمتُهـا　　مـن أخيهـا وُقِـدَتْ حسـرتُهـا
لا صغيـرٌ قـد رعـى حـقَّ الكبيـر　　أو كبيـرٌ راحـمٌ ضعـف الصَّغيـر
فنـرى فـي قبحهـا أفعـالَهـا　　تسمـعُ الألفـاظ أصـداءً لهـا
تلـكَ فيـضٌ مـن قلـوبٍ فـي نفـور　　تقـدحُ النيـران منهـا فـي الصُّـدور
إنَّمـا النـاس صـلاحٌ وفسـاد　　بـالتئـامٍ أو شِقـاقٍ وعنـاد
إننـا نبصـرُ آحـاداً ولا　　نبصـرُ الحُـبَّ بهـا متصـلا

---

(١) المسجد : هو الأسرة .

إنهـا الأعـداد فـي غيـر حسـاب لـم يؤلفهـا علـى النَّهـجِ احتسـاب
ومـن الأعـداد بُغْـضٌ واختـلاف ومـن الأعـداد حـبٌّ وائتـلاف
ومـن الأعـداد حِقْـدٌ وشِقـاق ومـن الأعـدادِ رُحـمٌ ووفـاق
فـإذا سـارتْ علـى غيـر سَنَـن فهـي بغـضٌ وشقـاقٌ وفتـن
وإذا ألَّفتهـا فـي قـاعـدة فـاستقـامـتْ فـي طـريـقٍ واحـده
فهـي نظـمٌ وائتـلافٌ واطِّـراد وحسـابٌ بـالـغٌ كـلَّ مـراد
فـانظـروا مـا النَّظـم فـي أعـدادنـا وانظـروا مـا الجمـع فـي آحـادنـا
انظمـوا هـذي القلـوبَ النـافـره واجمعـوا هـذي الـوجـوهَ الثـائـره
املـؤوا الأنفـسَ خيـراً وهـدى واجمعـوا بـالحُـبِّ هـذا البـددا
اغسلـوا بـالحُـبِّ هـذا الـدَّرنـا أطفئـوا بـالـودِّ هـذا الضَّغنـا

* * *

مـا ينـالُ الحُـبُّ يـومـاً بـالهـوى إنَّمـا الأهـواء أسبـابُ النَّـوى
يجمـعُ الحـقُّ نفـوسـاً شـارده إنَّ للحـقِّ طـريقـاً واحـده
ليـس إلا الحـقُّ فـي جمـع القلـوب مـا سـوى الحـقِّ إليـه نستجيـب
أرضعـوهـا الحـقَّ فـي ألبـانهـا أشعـروهـا الحـقَّ فـي أحضـانهـا
واجعلـوهُ قبلـةً فـي كـلِّ حيـن لا تـزيغـوا عـنْ شمـالٍ أو يميـن
ومـن الحـقِّ إلـى الخيـرِ طـريـق ليـس إلا الحـقُّ للخيـر رفيـق
ومـن الخيـر إلـى الحـبِّ المسيـر ومـن الحـبِّ إلـى الجمـع المصيـر

* * *

لا يُـرى للحـقِّ إلا مَشْـرِق كـلُّ حـقٍّ مـن سنـاه يُشْـرقُ
ليـس للخيـرات إلا منبـعُ كـلُّ خيـرٍ مـن جـداه ينبـعُ
إنَّمـا للحـبِّ نهـرٌ واحـد كـلُّ ينبـوعٍ إليـه عـائـد
مَنْبـعُ الحـقِّ هـو الحـقُّ المبيـن بـاريٌ بـالحـقِّ كـلَّ العـالميـن
منبـعُ الخيـرِ هـو البـرُّ الـرَّحيـم بـرُّه فـي خلقـه فيـضٌ عميـم

منبعُ الحبِّ هو الله العلي ... هو مولى للبرايا وَوَلي
فأضيئوا النفس من إيمانها ... وانظروا الآياتِ من إحسانها
املؤوا الأنفس من نور اليقين ... وانظروا إبداعها في كلِّ حين
إنَّما الإنسان من لحمٍ ودم ... فيه قلبٌ كسراجٍ في ظلم
ذلك اللحم إلى ماءٍ وطين ... ذلك النُّور لربِّ العالمين
فإذا أطفىء فيه ذا الضِّياء ... فهو وحشٌ همُّه سفكُ الدِّماء
إنَّ هذا الجسمَ ذو وزنٍ وحد ... وبهذا القلب كونٌ لا يُحَدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضيقِ الجسدْ ... منْ يعشْ في وسعة القلب خَلَدْ
أنت في جسمك مِنْ طينٍ وماء ... أو قوامٍ فيه لحمٌ ودماء
أنت في الروح حياةٌ وطماح ... ورجاءٌ وجهادٌ وكفاح
أنت في قلبك سرُّ العالمين ... فيه أمرُ اللهِ للخلقِ مبين
لا يحدُّ القلبَ في الآفاق حدّ ... إنَّه يكبرُ عن وزنٍ وعد
أيُّها الغافلُ عن سرِّ الإله ... انظرنْ في القلبِ يوماً لتراه
ضاق عنْ أمرِ الإله العالمُ ... وحواه القلب ، هذا الخاتمُ
كلُّ ما أدركتَ منْ معنىً جميل ... كلُّ ما أبصرتَ مِنْ أمرٍ جليل
كلُّ ما أوعاهُ تاريخُ البشر ... من جلالٍ وجمالٍ وعبر
كلُّ ما سُجِّلَ عن أخياره ... كلُّ ما حُدِّث عن أبراره
هو نورُ الله في القلب الصغير ... أو تجلِّي اللهِ في الكونِ الكبير(١)
هو نبضُ القلبِ في الدُّنيا انتشر ... هو خفقُ القلب يرمي بالشرر
إنَّما الإيمان بالدُّنيا يدور ... فهو نار في دجاها وهو نور
فاجعلوا مِنْهُ تباشيرَ المنى ... واملؤوا الآفاقَ منه بالسَّنا
ارفعوا الأنفسَ فيه صاعده ... ارفعوها عن معانٍ خامده
عن متاعٍ وطعامٍ وشراب ... ومعانٍ كلُّها نبتُ التُّراب

---

(١) الكون الكبير : القلب .

قيمـة الإنسـان قلـبٌ لِلْعُلـى لا ريـاشٌ ومتـاعٌ للبلـى
كـلُّ سـاعٍ قَـدْرُه بغيتُـه وزنُـه بيـن الـورى مَنْبَتُـهُ
أيُّهـا القـانـع دوداً فـي تـراب حلِّقَـنْ فـي جـوِّهـا مثـل العُقـاب
أيُّهـا السـادرُ فـي لهـوٍ وَدَدْ مـنْ لهـذا الكـونِ فـي يـومٍ وغـد
أنقـذوا الإنسـان مـن هـذا الـرَّدى أبصـر الإنسـان يـا قـومـي هـوى

***

أيُّهـا المسلـمُ يـا مـنْ خُلقـا ليكـونَ الحـقُّ فيـه خُلُقـا
انهضـنْ يـا صـاح بـالعـبءِ الثَّقيـل أنـت فـي الأرضِ عـن الله وكيـل
قـد قضـى الخـلاَّق بـالأمـر إليـك قسـم الأرزاق يـومـاً بيـديـك
سطِّـرنْ بـالحـقِّ فـي هـذي البـلاد واحكمـنْ بـالعـدلِ مـا بيـنَ العبـاد
أنقـذِ الإنسـان مـن هـذا الشَّقـاء وأزل مـن أرضنـا هـذا العنـاء
امـلأ الأرض بحـبٍّ وصفـاء وسـلامٍ ووادٍ وإخـاء
واحكمـنْ بـالحـقِّ فـي أرجـائهـا وانْعَمَـنْ بـالأمـن فـي أفيـائهـا
وامـلأ الآفـاقَ حقّـاً وسَنَـا وامـلأنْ بـالخيـرِ آفـاقَ الـدُّنـا
علِّـمِ الإيمـان والحـقَّ العلـي علِّـمِ الإيثـارَ والـزهـدَ الغنـي
زهـدَ مَـنْ يملـك آلاف الألـوف وهـي فـي عينيـه لغـوٌ وزيـوف
قـولـةٌ فـي الحـقِّ أعلـى عنـده فعلـةٌ فـي الخيـر أغلـى عنـده
كـلُّ مـا يمسـكُ منهـا درهـمُ كـلُّ مـا ينفـق منهـا مغنـمُ
هـذهِ الأمـوالُ جمعـاً يـا بنـي لا تسـاوي ذلـةَ الحـرِّ الأبـي
إنَّهـا اللعبـةُ فـي عيـنِ الحكيـم إنَّهـا الـدِّرهـمُ فـي كـفِّ الكـريـم
جـوهـراً يحسـبُ مـن لا يعـرفُ وهـي عنـد العـارفيـن الصَّـدَفُ
إنَّمـا الجـوهـر قلـبٌ قـد أضـاء وَسِـعَ الأرضَ جميعـاً والسَّمـاء
لا يعـافُ الحـرُّ أكـلَ الطَّيبـات آخـذاً فـي الأرض كـلَّ الثَّمـرات
ربَّمـا استـولـى علـى أعـدادهـا ربَّمـا أوفـى علـى آمـادهـا

آخـــذاً أو معطيـــاً لا يَشْـــرَهُ	رابحـــاً أو خـــاســـراً لا يـــأبـــه
عبْـــد الـــدُّنيـــا ولا تستعبـــده	فـــاكهـــاً فـــي نعمـــةٍ لا تفســـده
حـــائمـــاً للـــرِّزقِ صقـــراً طـــائـــرا	لا يُـــريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغـــرا
فـــإذا شِيْـــمَ هـــوانـــاً فـــزعـــا	مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُسعـــا
واستمـــدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه	واستثـــار النـــار مِـــنْ عَـــزْمَتِـــه
فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان	وإذا الحلـــمُ ضـــرابٌ وطِعـــان
وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب	فـــارقَ الـــدُّنيـــا إلـــى غيـــر إيـــاب
إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ فـــي ذلتـــه	وحيـــاةَ الحـــرِّ فـــي عـــزَّتـــه

* * *

قـــالَ لـــي شيـــخٌ وقـــورٌ ألمعـــي	مـــن بنـــي ينبـــع شهـــمٌ عـــربـــي
كنـــتُ يـــومـــاً فـــي عيـــونٍ ونخيـــل	في القرى من ينبع النخلِ الجميل
ومعـــي مـــنْ أهـــل نجـــدٍ نَفَـــرُ	اصطيـــادُ الطَّيْـــر فيهـــمْ وطـــر
وإذا صقـــــرٌ علينـــــا حلَّقـــــا	ســـابحـــاً فـــي جـــوِّه قـــد خفقـــا
أســـرعَ الـــرفقـــةُ فـــي نَصْـــبِ الشَّـــركْ	وسمـــانـــى وضعـــوهـــا فـــي الشَّبـــكْ
وهـــوىٰ فـــانقـــضَّ هـــذا الأجـــدلُ	بـــل هـــوىٰ هـــذا القضـــاءُ المنـــزلُ
فطـــوى سقطيـــه هـــذا المهلـــك	وثـــوى فـــي حَبْلـــه يـــرتبـــكُ
وأتـــى الصَّيَّـــادُ للطيـــرِ الأسيـــر	عينـــه فـــي اللَّـــوح لكـــنْ لا يطيـــر
ســـابـــحُ الجـــو بخيـــطٍ علقـــا	ذلـــك الخفَّـــاق فيـــه أخفقـــا
ذلـــكَ الصَّيـــاد فـــي جـــوِّ السمـــاء	صـــاده بـــالختـــل صيـــادُ القضـــاء
قـــاهـــرُ الجـــو بعـــزمٍ وجنـــاح	بـــدَّلَ الشُّبَّـــاك مـــنْ مَتْـــن الـــرِّيـــاح
ضـــاقـــت الأجـــواء عنـــه مســـرحـــا	كيـــفَ يـــرضـــى فـــي إســـارٍ مطـــرحـــا ؟
ثـــمَّ قـــالَ الشيـــخ جئنـــا ننظـــر	لنـــرى الأجـــدلَ أنَّـــى يـــؤســـر
فـــإذا دمعـــةُ عيـــنِ هـــاملـــه	وإذا المهجـــةُ فيهـــا ســـائلـــه

ذا يسمَّى «الحرُّ» من بين الصُّقور لا يطيقُ الأسر من بين الطيور[1]
فكنِ الصَّقر الأبيَّ العاليا وكنِ الحرَّ الكريم الآبيا
واحذرنْ يا حرُّ هذي التَّهلكه احذرنْ من خوضِ هذي المعركه
إنَّها معركةٌ للأبطن ضلَّ في غوغائها ذو الفِطَن
في وغاها كلَّ حزمٍ ضيَّعا غابَ عنها العقلُ والقلبُ معا
لا تغرَّنْكَ مرايا بارقه وفنونٌ وعلومٌ خارقه
إنَّها رأسٌ بلا قلبٍ يسير إنَّها هزجٌ ومزجٌ وسعير
قد أضلَّ الغيُّ هذي الأمما فثوى إبليس فيها حكما
فدعاها في ظلامٍ تصطدم ورماها في ضلالٍ تحتدم

***

الشيوعية

أحدثُ الدَّعوات في هذي الأمم تسلُك الإنسان في سِلْكِ الغنم
تَعِدُ الإنسان بالمرعى الخصيب فيه عُشْبٌ ورُغاءٌ ونَبيب
تَعِدُ الإنسان أعشابَ الرَّبيع ثمَّ عيشٌ مثل ما عاش القطيع
يوعدُ المرعى ولا شيء له وعصا الرَّاعي تربه أُكْلَه
ليس يرغو سربُهم : أينَ المسير لا ، ولا يثغو إلى أينَ المصير
ويتمُّ الشَّبه فيه بالغنم قطعهُ عن منبعِ الخير العَمِم
كفرُه بالله والخير وما فيه إنسانٌ عن العُجم سما
وضياعُ البيتِ منه والرَّحِم وحنانِ القلب من أختٍ وأم
كافرٌ باللهِ لا بالوثن كافرٌ بالسِّلمِ لا بالفتن
يبصر الظُّلمةَ عند الصَّنم عن ضياء الله والحقِّ عمي

---

(١) الحرُّ : نوع من الصقور قلَّ أن يعيش بعد إمساكه .

كلُّ ما في البيت من ودٍّ وحبّ — لا يساوي عنده مكيالَ حَبّ
كلُّ ما يدعو أناسٌ بالشعور — لا يساوي عنده كفَّ شعير
ذاكمُ السَّيرُ وهذا المنتهى — أنعموا التفكيرَ يا أهلَ النُّهى

* * *

إقبال

بيَّنَ الإقبالُ منْ سرِّ الحياه — وأزالَ السِّتر عن نورِ النجاه
بيَّن الإقبالُ منْ سير الزَّمان — وأفاضَ النُّور من هدي القُران
بثَّ في النفس كلاماً منْ شَرر — منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر
فتقتْ نظراتُه كلَّ حجاب — فرأى الدَّوحة من تحت التُّراب
ضاقتِ الآفاقُ عن نظراته — ضجَّت الأفلاك من أنَّاته
وَصَلَتْهُ نفحةٌ منْ ربِّه — فتجلَّى نورُه في قلبه
قد ثوى في قلبه كلُّ الجهات — واستوى في فكره ماضٍ وآت
سال في ألحانه دمعٌ ودمُ — والتقى الماءُ عليها والضَّرم

* * *

يا بَرودَ القلبِ خذْ مِنْ نارِه — فالحياةُ الحقُّ في أشعاره
يا مواتَ القلب خذْ من رجعه(١) — يا جمودَ العين خذْ من دَمْعه
يا صغيرَ الهمِّ خُذْ من همَّته — يا كليلَ العَزْم خُذْ من عزمته
يا أسيرَ اليأسِ خذْ آماله — في دجى اليأس أثِرْ أقواله
أيُّها المسلم صعد في السماء — وابلغنْ في جوِّها أعلى العلاء
وخذِ الإقدامَ منه والطِّماح — وجناحاً قاهراً هُوجَ الرِّياح

---

(١) الرَّجع : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّين منْ خَلْفِ العُصور قـد أتـى فـي شِعْـرِهِ نـارٌ ونـور[1]
إنَّـــه الإســـلام فـــي عـــزَّتـــه إنَّـــه الإيمـــانُ فـــي قـــوَّتـــه
إنَّـــه القـــرآن فـــي أنـــواره إنَّـــه الفـــرقـــانُ فـــي أســـراره

* * *

بلِّغـي يـا ريـحُ فـي شـطِّ النَّـوى أدمعـــي قبـــراً بـــلاهـــور ثـــوى
وامضِ يـا بـرق بـوجـدي وهيـامـي أبلغـنْ قبـراً بـلاهـور سـلامـي
إنَّ : إقبـــالاً بـــلاهـــور أقـــام رحمـــةُ اللهِ عليـــه والسَّـــلام

* * *

دعاء

فـالـقَ الإصبـاحِ ربَّ المشـرقيـن بـاسـطَ الليـل وربَّ المغـربيـن !
أنـت فـي الصُّبـح ضيـاءٌ فـي جمـال أنـت فـي الليـل ضيـاءٌ فـي جـلال
نـاشـرَ الشَّمـس خِضَمَّـاً مـن ضيـاء طـاوي الـذَّرةِ شمسـاً فـي خفـاء
أنـــت نـــورٌ فـــي ظهـــورٍ وجـــلاء أنـــت نـــورٌ فـــي حجـــابٍ وخفـــاء
يـــا جليســـاً فـــي دُجـــى أستـــاره يـــا خفيـــاً فـــي ضُحـــى أنـــواره
يـــا أنيســـاً فـــي قلـــوبِ العـــارفيـــن وحيـــاةً لقلـــوب الغـــافليـــن
يـا ضيـاءَ العيـن فـي النـور العمـم وضيـاءَ القلـب فـي داجـي الظُّلـم
قـربُـك المـؤنـس فـي هـذي القفـار هـديـك المنقـذ فـي هـذي البحـار
نـاظـمَ الكـونِ البليـغِ المبـدعـا محسنـــاً مطلعَـــه والمقطعـــا
خلقُـــك الألفـــاظُ فيـــه وافيـــه أمـرُك الـوزنُ لـه والقـافيـه[2]
كـــلُّ لفـــظٍ فيـــه نُظَّـــارٌ إليـــك كـلُّ معنـى فيـه بـرهـانٌ عليـك

---

(١) مَولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .
(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منكَ هـذا العقـلُ ، هـذا الثَّـائـرُ ... طـالـبٌ إيَّـاك سـاعٍ حـائـرُ
جـاوز الأفـلاك يسعـى نحـوكـا ... يَكْشـفُ الأستـار يبغـي وجهكـا
منكَ هـذا القلـبُ ، هـذا الخـافـقُ ... فـي الـديـاجـي منـك نـورٌ بـارق
ذاكـرٌ إيَّـاك راجٍ كـلَّ حيـن ... خفقُـه ذكـرٌ وشـوقٌ وحنيـن

* * *

اجعلـن عقلـي ضيـاءً ثـاقبـا ... يَصْـدَعُ البـاطـل حقّـاً صـائبـا
واشـددَنْ فكـري بصـدقٍ وسـداد ... واحبُنـي التـوفيـقَ فـي كـلّ مـراد
وامـلأنْ قلبـي بحـبٍّ وصفـاء ... واخْفَظَنْـهُ مـنْ شقـاقٍ ومِـراء
وازْفَعَنْ في الحـق صـوتـي عـاليـا ... وجنـانـي فيـه عضبـاً مـاضيـا
واجْعَلَـنْ وجهـك قصـدي لا سـواه ... هـوِّنَـنْ فـي عيـن قلبـي مـا عـداه
وامنـح المسلـم قلبـاً خـافقـا ... واحبُـه بـالعلـم عقـلاً بـارقـا
امْنَحَنْـهُ العقـلَ والقلـبَ السَّليـم ... واهـده ربِّ الصـراطَ المستقيـم
واجْعَلَنْـهُ فـي البـرايـا حكمـا ... قـاضيـاً بـالعـدلِ إمَّـا حكمـا
اجْعَلَنْـهُ قـائـداً بيـن البشـر ... هـاديـاً للخيـر لا يسعـى لِشَـر

* * *

أنقـذِ الإنسـان مـن هـذي الغُمَـم ... أنْجِيَـنْ مِـنْ بغيهـا هـذي الأمـم
هـدم الإنسـان مـا قـد عمـرا ... حينمـا أمَّـر عقـلاً كفـرا
فـاهـدِ بـالإيمـان عقـلاً حـائـرا ... واجعـلِ القلـب عليـه آمـرا
أدرِكِ النَّـاس بحـبٍّ ووئـام ... إنَّك الدَّاعي إلى دار السلام[1][2]

* * *

---

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] .
(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچي . ولله الحمد أولاً وآخراً ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

الدِّيْوَانُ الرَّابِعُ

زَبُورُ العَجَمْ

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور حسين مجيب المصري

هذا الدِّيوان ـ في الأصل ـ جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الدِّيوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أومأ إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوةٍ بلغتْ من الجرأة مداها ، يتمسَّك صاحبُها فيها التمسُّك الشَّديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعةً أكثرُها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعةً تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الّذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (گلشن رازجديد) وهو على طريقة «گلشن راز » .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (گلش راز) ، ألَّفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوُّف أرسلها إليه بعض الصُّوفية ، ولهذا سماه الشاعر ـ محمد إقبال ـ « روضة السر الجديد » (گلشن راز جديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفيَّة وصوفيَّة .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيِّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .

وإليكم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الّذي نقله مِن الفارسية إلى العربية شعراً الأستاذُ حسين مجيب المصري :

لـك عيـنٌ ، نظـراً فيهـا خلقـت　　لـك نفـسٌ ، ولهـا دُنيـا خلقـت
نـامَ هـذا الشَّـرقُ لا يـرعـاه نَجْـم　　بنشيـد العَيْـش فجـراً قـد خلقـت[1]

* * *

تمهيد

خبـا فـي الشَّـرق ذيَّـاك اللهيـبْ　　فـأيـن الـرَّوحُ بـل أيـن الـوجيـب[2]
وأضحـى صـورةً تـرنـو إليهـا　　ومـا للعيـش مـن ذوقٍ لـديهـا[3]
يجـافـي قلبُـه طيـفَ الأمـانـي　　ويُسكـت نـايَـه رجـعُ الأغـانـي[4]
عـن المقصـود مـن قـولـي أبنـتُ　　علـى سفـرٍ لمحمـودٍ أجبـتُ
تـوالـت بَعْـدَ ذا الشيـخِ العهـود　　ومـا لِلنَّـار فـي روحٍ وقـود[5]
لنـا كَفَـنٌ ونَـرْقـدُ فـي ثـرانـا　　قيـامُ البعـثِ يـومـاً مـا عنـانـا[6]
وفـي تبـريـزَ عيـنٌ للحكيـم　　رأتْ آثـارَ جنكيـزَ الظَّلـوم[7]

---

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستتراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصَّدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهمَّنا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر چنكيز على سبيل المجاز .

ولكـــنْ ثـــورةٌ أخـــرى وَجَـــدْتُ ‏ وشمـسٌ غيـر هـذي مـا شهِـدتُ
رفعـتُ أنـا عـن المعنـى النِّقـابـا ‏ جعلـتُ الشَّمـسَ مـا كـان الترابـا
ألســتَ تـرى بـلا كـأسٍ خُمـاري ‏ وليـس لشـاعـرٍ غيـري شعـاري[١]
وكـلُّ الخيـرِ فيمـن قـال تَعْـدَم ‏ بـأنّـي شـاعـرٌ يـا صـاح فـافهـم[٢]
فمـــا أشتـــاقُ داراً للحبيـــب ‏ ومـا فـي القلـب مِنْ وَجْدٍ مـذيـب
تـرابـي ليـس مـن هـذا الممـر ‏ وفيـه القلـبُ لا يشقـىٰ بـأسـر
لقـد صـافيـتُ جبـريـلَ الأمينـا ‏ عَـدُوّاً لا أشـاهـدُ لـي مبينـا[٣]
بفقـري كـان لـي مـالُ الكليـم ‏ وجاهُ الملكِ في سَمَل العديم[٤]
ومـا الصَّحـراء تحـوينـي تُـرابـا ‏ ولا الـدأمـاء تطـوينـي عُبـابـا[٥]
زُجـاجـي منـه تـرتعـد الصُّخـورُ ‏ وأفكـــاري بـــلا شـــطٍّ بُحـــور
هـي الأقـدارُ تكمـنُ خلـف ستـري ‏ قيـامـاتٍ أقمـتُ بمحـضِ أمـري
بـذاتـي بـرهـةٌ هـا قـد خلـوتُ ‏ بـدنيـا الخُلـدِ أخلقهـا بـدوت
وليس العارُ من شعري عليا ‏ فللعطَّار لن تجدِ السَّميَّا[٦]

---

(١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .
(٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .
(٣) العدو المبين : الشديد العداوة .
(٤) الكليم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروةٍ ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقدان الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمل : الثوب البالي . العديم : الفقير .
(٥) الدأماء : البحر . والعباب : الموج .
(٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بــروحــي للحيــاة مــع الفنــاء	صــراعٌ ، لا أرى غَيْــرَ البقــاء
رأيــتُ ثــراك عــن روحٍ غــريبــا	ففيـه نفخـتُ مـن روحـي دبيبـا[1]
ولـي فـي القلـب وهـاجُ السَّعيـر	دجـاكَ أنِـر بمصبـاحـي المنيـر[2]
وذاك القلــبُ حــبٌّ فــي ثــراه	كلــوحٍ خطَّــه مــا فــي ســواه[3]
وذوق الــذَّات شهــدٌ فــي لهــاتــي	وهــذا كلُّــه مــن وارداتــي[4]
لقد جربت ذلكَ في البدايه	منحت الشرقَ منه في النهايه
وجبــريــلُ كتــابــي إنْ رآه	أنــارَ لنــا بلمــحٍ مــن سنــاه[5]
لـربِّـي ظـل يشكـو مـن مقـامـه	وحـالُ القلـب بيّـن فـي كـلامـه
جــلاء للتَّجلِّــي لا أريــد	ولكـنْ مـا حـوى القلـبُ العميـد[6]
كففـتُ عـن الـوصـالِ السَّـرمـديّ	لـذذتُ شكـاةَ قلـبٍ لـي شجـي[7]
غرورَ المرءِ هبني والخضُوعا	إذا ما ذابَ أوْ أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحيُّر	فما مفهوم ما يُدعى التفكُّر

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار .
السَّميُّ : النظير هنا .
(١) الدبيب : دبَّ الشراب والسُّقم في الجسم دبيباً : سرى ، وكأنه مشى .
(٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيئة .
(٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .
(٤) اللهاة : لحمة في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّدٍ من الإنسان .
(٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .
(٦) العميد : من هدَّه العشق .
(٧) السَّرمديُّ : الخالد . والشَّجيُّ : الحزين .

طريقٌ شرْطُها من أيِّ فكر ؟ نطيعُ اللهَ ثمَّ نكادُ نكفر !

الجواب

بِصَدْرِ المرءِ منَّا أيُّ نور عجيبٌ ، غيبُه عَيْنَ الحضور
بدا لي الثَّابتُ السَّيارُ جهرةً أراه النَّار أو نوراً بنظره[1]
وفيه النَّار حيناً مِنْ دليل ويَسْطَعُ نورُه مِنْ جبرئيل
بهذا النُّور للرُّوح الشُّروق شعاعٌ منه شمساً قد يفوق
بمسِّ التُّرب ينأى عن مكانٍ بقيدِ اليومِ يخرجُ مِنْ زمان[2]
وما بتردُّدِ الأنفاس يبقى دؤوباً مثله في البحث تلقى ؟
ويهنأ في الشواطىءِ بالمقام يعبُّ البحرَ أحياناً بجام[3]
عصا موسى وهذا كان بحرَه وَقَدْ ضُرِبَتْ فشقَّت منه صَدْرَه
غزالٌ ، وهو يرعى في السماء ويُرْوىٰ مِنْ مجرتها بماء[4]
له في الأرضِ والزُّرقا مقر وحيداً بين قافلةٍ يمر[5]
ومن أحواله ظلمٌ ونور وجناتٌ وموتٌ ثمَّ صُور
لإبليسَ وآدمَ منهُ مظهر ويَكْمُن تحته لا شَكَّ مخبر[6]

---

(١) جهرة : عياناً . أو : بمعنى الواو .

(٢) الترب : التُّراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عبَّ الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .

(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهر .

(٥) الزرقاء : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمَّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليـه العيـنُ فـي شـوقٍ شـديـد تجـلٌ منـه إعجـابُ الحميـد[1]
بعيـنٍ خلـوةٍ هـا قـد رآهـا تجلٌ عينـه الأخـرى مـلاهـا[2]
حـرامٌ عَضْـبُ عيـنٍ بـامتهـان فشـرطٌ للطَّـريـق ، لـه اثنتـان
وذاكَ البحـرُ يخلقـه بنهـره ويُصبـح جـوهـراً فـي مستقـره
فيبـدو صـورةً ليسـت لجنسـه وغـوّاصـاً يصيـر للقـط نفسـه !
هيـاجٌ فيـه منعـدمٌ صـداه لـه لـونٌ ، ومـا أحـدٌ رآه
وهذي كأسُه تحوي الزَّمانا وبالتَّدريج نُدْرِكُه عيانا
حيـاةٌ منـه بـالأوهـاق تُـرمـىٰ ومـنْ يعلـو ولا يعلـو لتُصمـى[3]
ولكـنْ نَفْسَهـا أسـرتْ بـذلـك وغيـرَ اللهِ أوْرَدَتِ المهـالـك[4]
وأنـتَ العـالميـنَ إذا غـزوتـا فَـوَخْـدَك مـن هـلاكٍ قـد نجـوتـا[5]
وهـذا البحـثُ فـي القفـر احـذرنّـه عليـكَ بعـالـمٍ فيـك ادخلـنّـه
ضعيـفٌ ؟ خـذْ مـن الـذَّات قـوى تـريـدُ الله ؟ قـرِّبهـا ، لـذاكـا
بغـزو الـذَّات إنْ يـومـاً ظفـرتـا لـكَ الآفـاقُ فـي ملـكٍ وجـدتـا
لـكَ الـدُّنيـا ، ليسعـد يـومُ نصـرك سمـاءَ قـد شَقَقْـتَ فَتِـهْ بِقَـدْرك
جعلـت البـدر يسجـدُ فـي هـوانٍ عليـه رميـت أوهـاق الـدُّخـان[6]

---

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .
(٢) ملاها : ملأها .
(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشوطة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .
(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوحدانية والانصراف عن التعدُّد إلى الواحد .
(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .
(٦) الأوهاق : تقدَّم شرحها .

بهــذا الــدَّيــر حــرًّا قــد أقمتــا   وأصنــامــاً كمــا تهــوى نحتَّــا[1]
مــن الــدُّنيــا بملــك كــلٌ حــذفــوز   مقــامَ الصَّــوتِ والألــوانِ والنُّــوز[2]
وتنقصـــه وأنـــتَ تـــزيـــدُ فيـــه   تغيِّـــرُه علـــى مـــا تشتهيـــه[3]
بِقَطْعــك عنــه قَلْيــك كــلّ قطــع   وإبطــال الطِّلســم لسحــرٍ تســع[4]
إذا مــا شئــتَ غــوصــاً فــي ضميــره   فَقَمْحَــكَ فضِّلَــنْ علــى شعيــره
وهذا الملكُ ، والملكُ العظيم   وتوءمه هو الدِّين القويم[5]

السُّؤال الثَّاني

وعلمٍ كان ساحلَ أيِّ بحر ؟   بعيــدِ القــاع يُخــرجُ أيَّ درٍّ

الجواب

حيــاةٌ ، يــا لهــا بحــراً يمــور   وســاحلــه الفَطــانــة والشُّعــور[6]
عميــقٌ مــوجُــه أبــداً يميــد   وفــي الشُّطــآن أطــوادٌ وبيــد[7]
عُبــابٌ فيــه قــد عَــدِمَ القــرارا   فــلا تســأل ، علــى شــطٍّ أغــارا[8]

---

(١) الدَّير القديم : من أسماء الدُّنيا في الشِّعر الفارسي .
(٢) الحذفور : الجانب . وجمعه حذافير . يقال : ذكره بحذافيره ؛ أي بجميع جوانبه ، وتفاصيله .
(٣) يريد العالم .
(٤) الطلسم : كتابة للسَّحرة . والتسع هي السموات السبع .
(٥) في رأي إقبال أنَّ الملك ينبغي أن يقوم على أساسٍ من الدين أي : الدِّين الحنيف .
(٦) الفَطانة : الإدراك ، والفهم .
(٧) يميد : يضطرب . الشطآن : جمع شاطىء . الأطواد : جمع طود وهو الجبل . والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء .
(٨) العباب : الموج .

روى الصَّحـراءَ منقطعـاً عـن اليـمِّ   أفاد العين معنى الكَيْف والكمِّ[١]
ومـا تلقـاه جـاء إلـى حضـوره   ينيـرُ بفضـل فيـضٍ مـن شعـوره[٢]
بخلـوتـه انتشـى كـرةَ الـرَّفيقـا   بقلـبِ الكـائنـاتِ بـدا شـروقـا[٣]
ويظهـــــر أولًا للمستنيـــــر   بمـــرآةٍ ليـــؤخـــذ كـــالأسيـــر
وقـــرَّبـــه مـــن الـــدُّنيـــا الشعـــورُ   فـــأدرك ســـرَّهـــا وهـــو الخبيـــر
بـــدا بـــالعقـــل مـــرفـــوعَ النِّقـــاب   ولكـــن قـــد تعـــرَّى بـــالخطـــاب
وفـي دنيـاه ليـس لـه مُقـام   من الدُّنيا له هذا المقام[٤]
تـرى الـدُّنيـا ولكـنْ ليـسَ فيكـا   بمـا تحـويـه فَلْتَـدَعِ الشُّكـوكـا
مـن الأزهـار دنيـا اللـون طـاقـه   نُقيِّـدهـا ، لهـا منَّـا انطـلاقـه[٥]
طـريـق القلـبِ سـرى إليهـا   ويثنـي كـلُّ مخلـوق عليهـا
إذا أغمضْـتَ عنهـا العيـنَ هـانـت   وإلا البحـرَ والأطـوادَ كـانـت[٦]
بـرؤيتنـا لـدنيـانـا النَّمـاء   بنـا لِغُصـونهـا هـذا العَـلاء
ومنظـورٌ ونـاظـرُ غـورِ سـرٍّ   تَضَـرُّعُ قلـبٍ ذرات لأمـر
أنـا المشهـودُ يـا مَـنْ أنـت تَشهـدْ   لتجعلنـي ، فبـالنظـراتِ أوجـد[٧]

---

(١) اليمُّ : البحر .
(٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
(٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .
(٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وبفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنَّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .
(٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنَّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .
(٦) الأطواد : تقدم شرحها .
(٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاتُ الشيءِ تَكْمُلُ بالوجود وبالتمكين من هذا الشُّهود
فليس زوالُها بالبعد عنَّا ونورُ شعورِنا فَقَدَتْهُ منَّا
تجلِّينا به الدُّنيا تكون بنا نورٌ تجلَّى أو رنين[١]
ومنها العونُ في اللأواءِ جَرِّبْ بأحوالٍ لها نظراً فأدِّبْ[٢]
وأيْقِنْ أنَّ آساد الفلاة أرادتْ عونَ نملٍ للنَّجاة[٣]
تعينك ، أنتَ تلكَ الذَّاتُ فاعرف كجبريل الأمين إذاً فرفرفْ
وعالمُ كثرةٍ بالعقل شاهدْ لتدركَ مظهراً يبديه واحد[٤]
ومن ريحِ القميصِ فنلْ نصيبا تنسَّم منْ ضفاف النِّيل طيبا[٥]
وذاتك نيِّرين بها تصيدُ ومن تدبيرها لهما القيودُ[٦]

---

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحسّ ، ويشير إلى أنَّ العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النّمال كما أنجت جنود سليمان من ظلمٍ كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمال ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمال من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسعَ أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شمَّ .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلــك الــذّات فــي دنيــاك أضْــرِم بغـزوكَ مـا تـرى أو غـابَ حطِّـم[1]

* * *

السؤال الثالث

يقال لممكنٍ صلةٌ بواجب وما بعدٌ وقربٌ يا مخاطب ؟[2]

* * *

الجواب

وهــذا العــالــمَ الفــانــي فجــدِّدْ وعقـــلَ كيفـــه والكـــمَّ قيِّـــدْ
لإقليـــــد وطــــــوســــــيٌّ أراه وعقــل قــاس أرضــاً قــد كفــاه[3]
وليــس حقيقــةٌ فيــه الــزَّمــانُ ولا أرضٌ ولا حتَّـــى المكـــانُ
أقــم هــدفــاً لتــرشــقَ بــالسِّهــام وما المعراجُ فافهم من كلامي[4]
أتحــوي مطلقــاً دنيــا الجــزاء وليــس ســوى ضيــاءٍ للسَّمــاء[5]

---

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أنّنا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبلغ العالم الثاني بالرُّوح الملهمة . وتسمى هذي القوَّة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثيرُ والقليلُ .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادىء علم الهندسة السَّطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولاكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافأة . والدَّير في الشعر الفارسي يطلق على الدُّنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النُّور : ٣٥] وعند إقبال أنَّ النور أقرب شيء إلى المطلق .

ومـــا لحقيقـــةٍ زمـــنٌ وَحَـــدّ … فكيـف تـريـدُ دنيـا لا تحـدّ !
لهـا حـدٌّ ولكـنْ ليـس يظهـرُ … ولا يخفـى بهـا مـا كـان أكثـر[١]
وليـس ببـاطـنٍ أيُّ ارتفـاع … ويقبـلُ ظـاهـرٌ كـلَّ اتِّسـاع[٢]
إلـى أبـدٍ لعقـلٍ مـا السبيـل ؟ … فـواحـده كثيـرٌ ، والقليـل
وأعـرجُ كـان ، بغيتـه السُّكـون … علـى القِشْـر اللبـابُ لـه يكـون[٣]
ومـزَّقنـا الحقيقـةَ فـي يَـدَيْنـا … مظـاهـرَ للفـوارقِ مـا رأينـا
وفـي غيـر المكـانِ رأى مكـانـا … وكـالـزُّنَّـار يتَّخـذُ الـزمـانـا[٤]
زمـانٌ مـا بـدا لـي فـي الضميـر … خلقت الوقت يمضي بالشهور[٥]
يمـرُّ العـام ، مـا سـاوى الشَّعيـرا … بـآيـة ﴿ كـم لبثتم ﴾ كـن بصيـرا[٦]
لذاتِك عُذْ ، تَخَلَّص من هديرِ … ونَفْسَك ألقِ في قاع الضَّمير[٧]
وفصـلُ الجسْـمِ عَـنْ روحٍ كـلام … فتفـرقـةٌ وتمييـزٌ حـرام
وتخفـي الـرُّوحُ سـرَّ الكـائنـات … وهـذا الجسـمُ حـالٌ للحيـاة

---

(١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .

(٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقيس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنَّه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزنَّار : ما يشد به النصارى وسطهم .

(٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغيُّر ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .

(٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمَّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدِّم الحجَّة على عجز الحساب عن قياس الزَّمن .

(٧) الهدير : صوت الرَّعد والبحر .

لهـا الحنّـاء مِـنْ صَـوَرٍ عـروس ... هي المعنى ، ففي حُلَلٍ تميس[1]
تستَّـرت الحقيقـةُ بـالنِّقـاب ... ويسعدُها الظهورُ بلا حجاب
وبيـنَ الـرُّوح والجَسَـدِ الفـراق ... بغربٍ ، أين في الحكم الوفاق[2]
رجـالُ الـديـنِ سُبْحَتُهـم تـدور ... بـأمـرِ الحكـمِ ليسَ لهـمْ شُعـور
ففـي التمـويـه منقطـعُ الشبيـه ... هـو الجسـدُ الـذي لا روح فيـه[3]
وقلبُـك ثـمَّ عقلُـك فـاصْحَبَـنْ ... إلـى الأتـراكِ فـارْحَـلْ ، وانظُـرن
بتقليـدٍ لهـم ذاتـاً أضـاعـوا ... بدينٍ ربطُ حكمٍ لم يراعوا
وكـم جـزءٍ لـواحـدٍ قـد رأينـا ... بـأعـدادٍ لنُحصيـه أتينـا
تـرى دنيـاكَ مـا يبـدو كتـرب ... أراهـا بـرهـةً مـنْ صُنْـعِ ربـي[4]
وصـورةَ ميـتٍ رسـمَ الحكيـم ... بـلا عيسـى ولا ضـربِ الكليـم[5]
ومـا مـنْ حكمـةٍ قلبـي رآهـا ... بشـوق حكمـةٍ أخـرى ابتغـاهـا
أرى الـدُّنيـا بثـورتهـا تميـد ... خفـوقٌ هـزَّ بـاطنهـا شـديـد[6]
دعِ الأعـدادَ واطـرحهـا ، لتهمـل ... وبعـض الـوقـت فـي ذاتٍ تـأمَّـل
فمـنْ كـلِّ جـزيء كـانَ أكثـر ... جنـون قـولـة الطـوسـي وآخـر[7]

---

(١) تميس : تتبختر .
(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .
(٣) يريد نظام الحكم الذي ينفصل عن تعاليم الدين . والتمويه : الخداع بالظاهر .
(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلةٌ من المواد ، ولكنَّها أحداثٌ متلاحقة . وسلوكٌ منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادةٌ إلهية ، كما يقول إقبال .
(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكليم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .
(٦) تميد : تضطرب .
(٧) في الأصل: نصير الدين الطُّوسي، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري.

أرسطــو مــرَّةً إيَّــاه فــاعــرِفْ　　وبيكــون لحنَــه يــومــاً لتعــزفْ[1]
لهــذيــن المقــامُ فغــادرنَّــهْ　　تضيــعُ بمنــزلٍ ، فحــذارِ منْــه
بعقلــكَ وهــو يــدركُ كــلَّ كــمّ　　وبــاطــنَ مَعْــدنٍ أو قــاعِ يــمّ[2]
علــى دنيــاكَ سَيْطــرِ ثُــمَّ هَيْمــنْ　　وفــي أفــلاكهــا الأجــرامَ مكِّــن[3]
ولكــن حكمــةً أخــرى تعلــم　　وذاتَــك نــحِّ عــن يــومٍ لتسلــم[4]
ودعْ دنيا الدَّياجي والنَّهار　　يميناً فاطلبن بلا يسار[5]

***

السُّؤال الرَّابع

أهــذا محــدثٌ هجــرَ القــديمــا　　فكانا الكونَ والباري العظيما
أمعــروفٌ وعــارفُــه ، إلهــي　　لم الأشواقُ أرْمَضَتِ الظَّليما[6]

الجواب

حيــاةُ الــذَّات إيجــادٌ لغيــرِ　　وللمعــروفِ بعــدٌ كــلُّ خيــر[7]

---

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .
(٢) المعدن : المنجم . واليمُّ : البحر .
(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .
(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .
(٥) الدَّياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .
(٦) يقول : إنَّ المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى . . وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .
(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قـــديمـــاً أو مغـــايـــره حسبنـــا	طلسمـــاً كـــان حُسْبـــانٌ ، فخبنـــا[١]
ذكـــرنـــا الأمـــسَ والغـــد فـــي دوامٍ	(فكان) و(سوف) أسٌ للكلام[٢]
وفطـــرتُنـــا انقطـــاعٌ عنـــه كـــانـــا	سبيـــلاً قـــد ضللنـــا فـــي سُـــرانـــا[٣]
وليـــس لنـــا بفـــرقتـــه عيـــارٌ	وواصلنـــا ، فـــدامَ لـــه القـــرار[٤]
بنـــا وبـــه ! عجيـــبٌ ، أيُّ حـــالِ	ففـــرقتُنـــا فـــراقٌ فـــي وصـــال[٥]
فـــراق يمنـــح النَّظـــر التـــرابـــا	وقشًـــاً مـــا بـــه بلـــغ السَّحـــابـــا[٦]
وهـــذا العشـــق يـــزكـــو بـــالفـــراق	مـــع العشَّـــاق كـــانَ علـــى وفـــاق[٧]
تبـــاريـــح الفـــراق لنـــا الحيـــاةُ	تخلَّـــدنـــا ، فيبقينـــا الممـــاتُ[٨]
مَـــنِ المـــولـــى ؟ ومَـــنْ إيـــاه يُعبـــد	همـــا ســـرٌّ يـــؤيِّـــدُ أنْ سنخلـــد[٩]
يـــدومُ لـــه التجلِّـــي نـــورُ ذاتٍ	وبيـــن الجمـــع معنـــى للحيـــاة[١٠]
وتلـــكَ محبـــةٌ فـــي الجمـــعِ تُبصـــر	بغيـــرِ الجمـــع ذا مـــا ليـــس تُبصـــر

---

(١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسباناً : عدَّه وأحصاه . وكان هنا تامة .
(٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .
(٣) السرى : السير ليلاً .
(٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدَّنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .
(٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .
(٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .
(٧) زكا : نما وصلح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .
(٨) تباريح الشوق : شدَّته وآلامه .
(٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدَّث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلَّ الخير في اجتماع المحب بالمحبوب .
(١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجليـــاتُ محفَلِنـــا تـــأمَّـــلْ تجلِّـــي الله لا الـــدُّنيـــا تـــأمـــل[1]
فـــلا الأبـــوابَ أمسكنـــا علينـــا ونحـــنُ بـــه بمفـــردِنـــا اختلينـــا[2]
ويجعـــلُ نَفْسَـــهُ عنَّـــا غـــريبـــا يُـــداعينـــا كمعـــزفـــهِ طـــروبـــا[3]
وننحـــتُ مثـــلَ صـــورتـــه الحجـــاره ونسجـــدُ ، مـــا رأتـــه العيـــنُ ، تـــاره
هتكنـــا ستـــرَ فِطـــرتنـــا علينـــا جمـــالَ حبيبنـــا هـــا قـــد رأينـــا[4]
وهـــذا التُّـــرب مـــاجَ بـــه الخيـــال فبـــاطنُـــه أضـــاءَ ولا يـــزال[5]
ولكـــن مـــن فـــراقٍ وهـــو يشكـــو بفضـــلِ فـــراقِـــهِ تلقـــاه يـــزكـــو[6]
بـــه كـــانـــت لـــه هـــذي البصيـــره فهـــذا ليلـــه أضحـــى الظهيـــره
وأنفـــد حـــزنـــه جـــزعُ الصَّبـــور ومـــن حـــزنٍ تبـــدَّل بـــالسُّـــرور[7]
وأصبـــح دمعـــه دُرّاً ثمينـــا الحـــزن أوَّدتِ الغصـــونـــا[8]
وذاتُـــك : إن تعـــانقهـــا طـــويـــلا تجد في الخلد من موتٍ بديلا !
مقـــامـــاتٌ لهـــا بـــالحـــبِّ عقـــدُ ومـــا مـــن منتهـــى يحـــدُوه حَـــدٌّ[9]
تسيـــر لـــه الأمـــورُ بـــلا ختـــامِ بـــه الفجـــرُ الضَّحـــوكُ بـــلا ظـــلامِ

---

(١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .
(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .
(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .
(٤) هتك الستر : مزَّقه أو جذبه من موضعه .
(٥) الترب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .
(٦) يزكو : ينمو ويصلح .
(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصَّبور .
(٨) أوَّدَه : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .
(٩) في الأصل : أنَّه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغـايـر عقلَنـا وعـرُ الطـريـق ... ودنيا كان في وهج الشروق[1]
بـآلاف العـوالـمِ قـدْ مـررنـا ... على بعضِ التوقف هل قَدَرنا ؟
خلوداً في حياتك يا مسافر ... وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر[2]
وليس البحر يغرقُنا انتهاء ... تعلَّق فيه ، ما هذا فناء[3]
وجودُ الذات في ذاتٍ محال ... لتصبغ نفسها ، هذا كمال[4]

السؤال الخامس

أجبني من أنا ؟ وَضِّح (أنا) لي ... وما في الذات من (شدِّ الرِّحال)[5]

الجواب

بـذاتٍ عُـوذةٌ للكـائنـات ... وأوَّلُ نورها أصلُ الحياة[6]
وتصحو مِنْ رُؤاها في كراها ... بكثرٍ بَعْدَ واحدِها تراها[7]

---

(١) الوهج : اتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنَّه عالم في نور برهة .

(٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريقٍ إليك ، واسلكه .

(٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناءً في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصُّوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .

(٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .

(٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنىً في قولنا سافر في الذات) .

(٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرِّ والحَسَد .

(٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثر : الكثرة . وعند إقبال أنَّ الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا ... ولولا ذاكَ منها ما زكونا[١]
يضمُّ صميمُها في العمق بحرا ... وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا
تخالفُ منْ بشيمته تَصَبَّر ... وفي ملأٍ لنا تبدو بمظهر[٢]
كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ ... نجومٌ ، سائر وله القرارُ[٣]
وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد ... وفي الجمع الكبير كَمَنْ توحَّد[٤]
تأمَّل في انطواءٍ كيف تبدو ... ترابٌ ديسَ ، منه كيف تنمو
تثور وراءَ سترٍ للخفاء ... وتبحثُ في دوامٍ عن رواء
بنارٍ في الصَّميم ثوتْ وقامتْ ... تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت
فَمِنْ هذا لعالمنا النظام ... وكالمرآة قد أضحى الرَّغام[٥]
ذواتٌ أطلعتها من شعاعِ ... جواهرُ أُخرِجَتْ كانت بقاع
ترابُ الجسم لِلذَّات الحجاب ... وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب
وتلكَ الذَّات تشرقُ منْ صُدورِ ... بجوهرها التُّراب لنا كنورِ
ومعنى لأنا كمْ قلت بيِّن ... (بذاتك فلتسافرْ) فلتُعيِّن
على صلةٍ بأرواحٍ جُسومُ ... فسافرْ كي تحقِّقَ ما تروم[٦]
بذلك مولدٌ من غير أمٍّ ... ومن سطحٍ كإمساك بنجم
على خلد حصولك بالتياعِ ... كأنك قد رأيتَ بلا شُعاعِ

---

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كربا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبراً . الملأ : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرَّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعـن أمـلٍ وعـن وجـلٍ تنـاءٍ كشـقٍّ أنـت محـدثُـه بمـاءٍ[١]

طلسـمَ البـرِّ والـدأمـاء فـاصـدع وبـدرَ التـمِّ فلتصـدعْ بـإصْبَـع[٢]

بـأوبـةِ مَـنْ يطـوف بـلا مكـان لـه الـدُّنيـا لتحمـلْ فـي الجنـان[٣]

لهـذا السـرِّ تفسيـرٌ محـال وتنفـع فيـه عيـنٌ لا مقـال[٤]

فمـا قـولـي (أنـا) وهـي الضيـاء وفـي ﴿ إنـا عـرضنـا ﴾ مـا نشـاء[٥]

ويـرجـفُ مـن سنـاهـا الأزهـران زمـانٌ تحتضنـه والمكـان[٦]

مقـرٌّ ضمَّهـا كـانَ القلـوبـا لهـذا التُّـربِ أصبحـتِ النَّصيبـا[٧]

عـن الغيـرِ افتـراقٌ ، وارتبـاط بنفـس ضيعـةٍ ، وبـه اختـلاط[٨]

خيـالٌ فـي التـراب لـه الكيـان ! أيحـويـه الـزَّمـان أم المكـان ؟[٩]

سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت ! فمـا الـرَّامي وأوهـاقٌ تـدلَّـت ؟[١٠]

بصـدرك مثـل مصبـاحٍ منيـرِ لـك المـرآةُ ، فيهـا أيُّ نـور

---

(١) التنائي : البعد . الوجل : الخوف .

(٢) الدأماء : البحر .

(٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .

(٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .

(٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفة ولم يفِ ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .

(٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .

(٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .

(٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .

(٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .

(١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا بإدراكِ لذاتِكَ كنْ قمينا[1]

السؤال السادس

أهذا الجزءُ عن كلٍّ يَزيد ! وكيفَ البحثُ عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما لِلذَّات مقياسٌ لدينا وأعظمُ ما يلوحُ لناظِرَيْنا[2]
من الأفلاك تهبطُ ثُمَّ تَعلو ببحرِ الكون تسقط ثُمَّ تَسمو[3]
فَمَنْ بالنَّفس يملكه الشعور سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورُ تناءت جنةٌ ، في الحضن حورُ[4]
لها حكمٌ بها الألبابُ تسحر ومِنْ قاعِ الحياةِ أتَتْ بجوهر
خلوداً في الصميم العيش كانا ولكنْ للعيون بدا زمانا
مقامُ الكونِ منها قد تقدَّر وتحفظه بما للعين يَظْهَر
أتسألُ عن طبيعتها وتسأل وعنها ما بقدرٍ ليس يفصل
وماذا عَنْ طبيعتها لقائل فجير ظاهر والضدُّ ماثل[5]
فما قولي ؟ وفي قول النَّبي بذا الإيمانِ في قولٍ جلي[6]

---

(١) القمين : الجدير .
(٢) الناظران : العينان . يقول : إنَّ الذَّات أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليستْ بالبصر .
(٣) تسمو : تعلو .
(٤) تناءت الجنة : بعدت .
(٥) المراد بالضد هو الاختيار . ماثل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .
(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وبالقدر خيره وشره .

ومـا للخلـقِ عنـدك غيـر جَبْـرِ وَمِـنْ بعـدٍ ومـنْ قـربٍ بـأسـر
وتلـك الـروحُ مـنْ نفـسِ الإلـه بخلـوتهـا تلـوح بـلا اشتبـاه[١]
وهـذا الجبـرُ وهـمٌ أو ظنـون بغيـر إرادةٍ روحٌ تكـون ؟![٢]
تصول بعـالـمٍ لِلْكَيْـفِ والكَمْ وعن جبرٍ إلى المختار تُقْدِمْ[٣]
وذاكَ الجبـرُ منـه إنْ أفـاقـتْ لها الدُّنيا كتلكَ النوقُ ساقتْ[٤]
بـرغبتهـا خفـوقُ النَّجـمِ واجـبْ بـرحمتهـا تـلألأتِ الكـواكـبْ[٥]
تميـط السِّتْـر عمـا أضمـرتـه وجـوهـرهـا بِعَيْنيهـا رأتـه[٦]
وأهـل النُّـور قـد وقفـوا طـويـلا أرادوا أن يـروا وجهـاً جميـلا[٧]
ومِنْ كرْمٍ لها خمر الملائك وكان عيارها ترباً كذلك[٨]
تقـولُ : وهـل إليهـا مـن سبيـل إذاً أوردْ مقـامـاً لِلْعَـويـل
لـكَ الأيـامُ فـاجعلهـا خلـودا ونُح في الفجر ، عقلُك لن يفيدا
لهـذا العقـلِ مـنْ حـسٍّ صـدور ومِـنْ عشـقٍ نحيـبُ الفجـرِ نـور
لعقـلٍ جـزؤه ، للنَّـوح كـل ونـوحٌ دام ، مـا إنْ دام عقـل
وذاك العقـل مـا وسـع الخلـودا مـن الأنفـاس مـا يحصـى عـديـدا[٩]

---

(١) أي أنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
(٢) كان هنا تامة .
(٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
(٤) في الأصل : أنَّها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقت عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
(٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أنَّ السماء تدور بإذنها .
(٦) تميط : تزيح وترفع .
(٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
(٨) الكرم : شجر العنب . والملائك : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدنانير والدراهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والترب : التراب ، فهي تستمدُّ قيمتها من ترابها .
(٩) في الأصل : إنَّ أنفاسنا تحصي الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلــقِ الليــلِ يُشْغَــل والنَّهــار … ومــنْ نــارٍ لــه بعـضُ الشَّــرار[1]

قصـارانـا نـواحُ العِشْـقِ كـانـا … وتحـوي بـرهـةٌ منـه زمـانـا

وذاتٌ إن بــدا المعــروف عنهــا … لحلَّـت عقـدةً فـي العمـق منهـا[2]

لعينــك مثلهــا هــذا الضيــاء ؟ … وتحســبُ أنْ سيــدرِكُهــا الفنــاء

فكيـفَ تخـافُ مـنْ ريـبِ الفنـاء … إذا نَضِجـتْ ، فعنهـا المـوتُ نـائـي

ومــوتـاً غيــر هــذا خــاف قلبـي … وروحــي بـل ومــاءٌ لــي وتــربـي

سكــون الخَفْــقِ فــي شــوقٍ أليـم … وإبعــادُ الشَّــرارِ عــن الهشيــم[3]

وأنفسَنــا بــأيــدينــا نُكَفِّــن … ومــوتٌ جــاءنــا نلقــى بــأعيــن

فــوتُـك كـامــنٌ لـك فــي الكميــن … تـذكَّـر ، واخـشَ عـاديـة المنـون[4]

بجسمـك كـان حفـرٌ للحفيـر … ومنكـرٌ فيـه جـاوره نكيـر[5]

السؤال السابع

ومنْ عبر السبيلَ ومَنْ مسافرْ … ووصفُ كمالٍ منْ في ذكرِ ذاكر ؟

* * *

الجواب

أطــلْ نظــراً علــى قلــب تــردد … بصـدركَ منـزلٌ ، إيَّـاهُ فـاشهـد[6]

---

(١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .

(٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .

(٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكسر من النبات .

(٤) المنون : الموت .

(٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .

(٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفـي حَضـرٍ بـذلـك تلـكَ سفـرةْ ... ومـن ذاتٍ إلـى ذاتٍ ، بخطـرةْ[1]
فـأيـن مقـرُّنـا يـا ليـتَ شعـري ... ومـا لحنـا لشمـسٍ أو لبـدرِ
ومـالـك غـايـةٌ ، لا تبـغ غـايـةْ ... فـروحُـك تنتهـي عنـد النهـايـةْ
بنـا نضجـاً ظننـتُ ومـا نضجنـا ... نقصنـا فـي المنـازل أو كملنـا
وفـي عـدم الـوصـول لنـا الحيـاةُ ... بسفـرتنـا تحشَّـانـا الممـاتُ[2]
تجـوُّلنـا بـرحـبِ الأفـقِ كـانـا ... وطئنـا ذا المكـانَ وذا الـزَّمـانـا[3]
لغبنـا ، حـولَ أنفسنـا نـدورْ ... بقـاعِ الكـون مـوجتُنـا تثـور[4]
ودومـاً كـنْ لـذاتـكِ فـي الكميـن ... ومـن شـكٌّ ففـرَّ إلـى اليقيـن
ومـا لأجيـجِ عِشْـقٍ مـن فنـاء ... ونظـرةُ ذي اليقيـن بـلا انتهـاء[5]
كمـالًا نظـرة كـانـت بـذات ... وذلـك بـالخـروج عـن الجهـات[6]
بـذات الحـقٌ تخلـو آنـذاكـا ... تـرى مـولاكَ والمـولـى يـراكـا[7]

---

(١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .

(٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .

(٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماه . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .

(٤) لغبنا : تعبنا .

(٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .

(٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .

(٧) عند إقبال أنَّ هذا ما تبلغه الذَّات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبته ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .

ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنـور فلتنـر مِـنْ ﴿ لـن تـرانـي ﴾ وإن أغمَضْـتَ عينـكَ أنـت فـانِ[1]
بـذاتِـك كـنْ قـويـاً فـي حضـوره حـذارِ مـن الضَّيـاعِ ببحـر نـوره[2]
وممَّـا مـاج فيـك لتعـط ذرَّه بجـانـبِ شمسنـا لتنيـر مـرَّه
تحـرَّق حيـث يبـدو فـي جـلاء وأظهـرْ منـك ذاتَـك فـي ضيـاء[3]
بـرؤيتـه ، لعـالمنـا إمـام لـه لا للـورى كـان التَّمـام[4]
وإيَّـاهُ اطلبـنْ إذا افتقـدْتـه بفضـلِ ثيـابـه خـذْ إنْ وجـدْتـه[5]
ولا تمـدُدْ إلا المـلأ يمينـا ولا تُغْمِضْ عن الشَّصِّ العُيونا[6]
لأمـرِ الـدِّيـن والـدُّنيـا إمـامُ هـو الـرائـي ، وقـد عمـي الأنـام[7]
كمثـلِ الشَّمـسِ تُشْرِقُ فـي الصباحِ لـديـه شمـوسُ أفكـارٍ صِحَـاحِ
وغـربـيٌّ لـه حكمـاً أقـامـا عـن الشَّيطـان قـد خَلَـعَ الـزِّمـامـا
بغيـر العـزفِ ليـس لـه غِنَـاءُ حـوتـه بمـا يطيـر بـه السَّمـاء[8]
ومـن بستـانـه الصحـراءُ أجمـل مـدينَتُـه فـدغ ، فـالفقـرُ أفضـل

= طلبها .

(١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

(٢) هذا صريحٌ في دَلالته على أنَّ إقبالًا لا يأخذُ بمذهب الفناء في الذَّات الإلهية .

(٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .

(٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتَّمام : الكمال .

(٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمسكن التمسُّك به منها .

(٦) الملأ : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشَّص : الحديدة التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إنَّ مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخْدعُ السَّمكة بالشصِّ لتصاد .

(٧) الأنام : النَّاس .

(٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادِّية .

مــن الســرَّاق شــرذمـــةٌ تغيــر ... وراء الخبـز طــالَ بهــا المسيـر[1]
صحــا جســمٌ وللــرُّوحِ السُّبــاتُ ... مـع الـدِّيـن الفنـونُ محقـراتُ[2]
لــدى الكفَّــار زاد الكفــر عقــلُ ... ولــلإنســان عنــد الغــرب قتــلُ
وهـــذا راصـــدٌ ولـــذا الكميـــنُ ... إلهـي ! كـنْ لهـم نِعْـمَ المعيـنُ !
إذا مـــا شئـــتَ بلِّغهـــم كـــلامـــي ... نظـامُ الحكـمِ كـالسَّيـفِ الحُسَـامِ[3]
علـى هــذا الحســام الــروحُ تجـري ... يصولُ على الرقاب وليس يدري[4]
ليدخل ذلك الصَّمْصامُ غِمْدَه ... وإلا أهلـكَ الإنسـان بَعْـده[5]

السؤال الثامن

أتعرف ما تضمَّنه (أنا الحقُّ) ... أتحسبه هراء حين ينطق[6] ؟

الجواب

أعـــاود عنـــه قـــولًا لـــي يطـــولْ ... وعنـــد القـــوم ســـرٌّ مـــا أقـــول[7]
بحلقتـــه مجـــوســـيٌّ أشـــاعـــا ... (حيـاة بـالأنـا خـدعـت خـداعـا)

---

(١) السُّرَّاق : جمع سارق . والشرذمة : الجماعة من الناس .
(٢) السبات : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأطلقنا الفنون على العلوم والفن .
(٣) السيف الحسام : القاطع . يقول : إنَّ هذا نظام الحكم في بلاد الغرب .
(٤) يصول : يثب . وفي الأصل : إنَّ هذا السيف لا يميز في الضرب بين مسلمٍ وكافر .
(٥) الصمصام : السيف . يريد له أن يستقرَّ في غمده ؛ لأنَّه يقتل نفسه بقتله الناس .
(٦) أنا الحق : قول منسوبٌ إلى الحلاَّج ، ذلك الصوفي الذي كان يتجوَّل في الأسواق ، وقد غلب عليه الوجد والطرب ، وحرص على الدَّعوة إلى آرائه وتعاليمه التي خرجت على مألوف القوم في زمانه ، فبلغت من أهل الدين مبلغاً شديداً ، واتهموه بالحلول والكفر ، وأفتوا بقتله ، فصلب في بغداد سنة ٣٠٩هـ . وإقبال يرى في الحلاَّج رأياً آخر يناقض رأي قومه ، ويعانده . ولذلك انبرى للدِّفاع عنه في عديدٍ من تآليفه .
(٧) عاود الشيء : عاد إليه . والمراد بالقوم هنا أهل إيران والهند .

سبات الربِّ فيه الحلمُ كنَّا وهذا الحلمُ مِنْهُ قد خُلِقْنا ![1]
ولولاهُ لما وُجِد المكان بما يحوي ولا وُجِدَ الزَّمان
هو العقلُ المميزُ بلْ هو القلبُ هو التَّفكيرُ والتَّصديقُ والرَّيب[2]
وفي الأحلام تُغْرِقُ ناظريكا وأقوالاً وأعمالاً لديكا[3]
وباستيقاظه يفنى الجميع فَمَنْ شوقاً سيشري أو يبيع[4]
لدينا العلمُ نورٌ بالقياس وتعويلُ القياسِ على الحواس[5]
تغيُّر حسِّنا سببُ التغيُّر لعالمنا ، فيشملنا التطوُّر
فما مِنْ حولنا ريحٌ ولون ولا يبدي لنا الآثارَ كون[6]
وهذا كلُّه وهمٌ عجاب على وجهٍ لخالقنا حجاب
وخدعةُ حسِّنا لا ريبَ فيها دخلنا مِنْ خِدَاعِ الحسِّ فيها[7]
فما ذاتٌ لنا في الكائنات بذاتِ حسِّنا قطعُ الصِّلات
حريمُ الذَّات ما بَلَغَتْهُ نظره تشاهدها بلا نظر ، بخطره[8]
لها يومٌ بلا فلكٍ يدور تأمَّلها فما شكٌّ يثور[9]
إذا سمَّيتَ تلكَ الذَّاتِ وهما كمظهرِ أيِّ شيءٍ قلت حتما
معي قل : من تخامره الظنون تأمَّلْها ، لتعرفَ مَنْ يكون

(١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنةٌ ولا نوم .
(٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .
(٣) الناظران : العينان .
(٤) يشري : يشتري .
(٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .
(٦) الريح : الرائحة . وطالما سمَّى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .
(٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
(٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرم . الخطرة : الفكرة .
(٩) يقول : إنَّ أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعــالمنــا تــرى ؟ أورد دليـــلا ... بفكــرك كــانَ ذلــكَ مستحيــلا[١]

لقـد خفيـت ، دليـلاً فـاطـرحـن ... تفكَّــرْ ، ذلــكَ الســرَّ اكْشِفَــنْ

أراهـا الحـق مـا فـي ذاكَ بـاطـلْ ... لهـا أكـلٌ ، فـأيقـنْ لا تجـادلْ[٢]

إذا نَضِجَـتْ ، لهـا امتنـع الـزوال ... فـراقُ العـاشقيـن هـو الـوِصـال

جنـاحٌ لـو حبـوت بـه الشَّـرارا ... لخلَّـد فـي الخفـوقِ بـه وطـارا[٣]

بمـا أبـلاه ربـي مـا الخلـود ... ببحـثٍ ليسَ هـذا مـا يُـريـد[٤]

لـروح طـابَ خلـد ، تستعـارُ ... ويَثْمَلُهـا مـن العِشْـق العُقَـار[٥]

ومـا للطَّـودِ والـوادي البقـاء ! ... ستبقـى الـذَّات ، للـدُّنيـا الفنـاء[٦]

عـن المنصـورِ مـا جـدوى الكـلام ؟ ... بـذاتِـكَ فـاطلبـنْ ربَّ الأنـام[٧]

بذاتِك ضعْ ، ودعْ عنك الجِدالا ... وحقِّقهـا بمـا الحـلاجُ قـالا[٨]

السؤال التاسع

وسـرَّ الـوَحْـدَة الخـافي أتـدري ... أيعلمُ عارفٌ يا ليت شعري ؟![٩]

---

(١) يقصد أنَّ العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .

(٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .

(٣) حباه : أعطاه .

(٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .

(٥) يثمل : يسكر . العقار : الخمر .

(٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .

(٧) المنصور : هو الحلاَّج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چريا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .

(٨) دع عنك : اترك وأهمل .

(٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقـــامٌ تحـــت قُبَّتهـــا يطيـــب	وفيهـــا النَّيـــرانِ إلـــى مغيـــب ![1]
ونعـــشُ الشَّمـــسِ يحملـــه المســـاء	كـــواكبُـــه لهـــا الكفـــنُ الضيـــاء
كمنهـــالِ الـــرِّمـــال هَـــوَتْ جبـــالُ	لهـــذا البحـــر بعـــد الحـــالِ حـــالُ
علـــى الأزهـــار عـــاصفـــةٌ تثـــور	ورعـــبٌ للقـــوافـــلِ مـــن مغيـــر
وإنْ بـــالـــدُّرِّ زان الطَّـــلُّ زهـــرا	فبـــاقٍ تـــارةً ليـــزولَ أخـــرى[2]
بغيـــر سمـــاعهـــا الألحـــانُ تفنـــى	وتلقـــى النَّـــار فـــي الأحجـــار دفنـــا[3]
حمـــامٌ عنـــه تَسْـــآلٌ أيجـــدي	مـــن الأنفـــاسِ قُيِّـــدنـــا بقيـــد[4]

* * *

غزل

لنـــا الكـــاســـاتُ دارتْ بـــالفنـــاء	وقـــد ذُقنـــاه مـــن دانٍ ونـــائـــي[5]

---

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء. وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما.

(٢) الطلُّ : النَّدى . وهذا النَّدى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النَّار الكامنة في الحجر.

(٤) الحمام : الموت ، والتَّسآل : السؤال .

(٥) الغزل عند الفرس منظومةٌ ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .
دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تسمَّى ساحةٌ قد جال فيها بدنيا ، مِنْ نجومٍ في ضياء
بها إنْ ذرةٌ أبدتْ نِفَارا فرُقْيَة نظرةٌ كلَّ الغَناء[1]
أتطلبُ أن يقرَّ لنا قرارٌ بنا الأيامُ تجري جريَ ماء
شغاف القلب فاحفظ فيه ذاتاً وكوكبها سراجٌ للمساء[2]
هي الدُّنيا مقامُ الآفلينا وذا العرفانُ عند العارفينا[3]
بقلبٍ باطلاً ما إنْ أردنا وهذا الحزنُ منه قَدْ أفدنا[4]
هنا الرغباتُ ما هم يَرْمقونَهْ وبهجةُ شوقِهم ما يَطْلبونَهْ[5]
وفي الإمكان تخليدٌ لِلذات وجعلُ الوصلِ منْ هٰذ الشتات[6]
ومصباحٌ بِزَفْرَتنا تألَّقْ بإبرتنا سماءٌ سوف تُرتَقْ[7]
لدى القيُّومِ ذوقٌ للكلام تجلَّى في جموعٍ للأنام[8]
فَمِنْ برقِ التجلِّي كان فيه وذاكَ الجامُ مَنْذَا يحتسيه[9]

---

(١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرُّقية السحر .
(٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .
(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحبَّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حالٍ ؛ لأنَّ مثل هذا التغيُّر من صفات الأجسام .
(٤) أفاد : استفاد .
(٥) يرمق : ينظر ويطلب .
(٦) الشتات : التفرق .
(٧) رتق الفتق : سدَّه .
(٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .
(٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدحَ برق التجلِّي في قلبه ، وشربَ تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَــنْ قلــبُ عيــارِ الحســنِ منــه   وطــافَ ببيــتِ مــن ؟ مـا زال عنـه[1]
(ألســتُ) لخلــوةٍ قــد صعَّــدَتْهــا   (بلــى) أيُّ المعــازِفِ ردَّدَتهــا[2]
لعشــقٍ أيُّ نــارٍ فـــي التـــراب   وحــرَّق لحننــا كَــمْ مــنْ نِقَــاب[3]
تــدورُ الكــأسُ ، لكــنْ مــا بقينــا   بمحفلــهِ الحيــاةُ غَــدَتْ رنينــا[4]
لعـــزلتــه فـــؤادي قـــد تحـــرَّق   أهيـــىء محفـــلاً مـــا إنْ تفـــرَّق
وأنثـرُ حبـةً فـي الأرضِ ذاتـي   له قد صُنْتُ لا لِسَواهُ ذاتي !

* * *

(١) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدِّرهم . زال عن المكان : غادره .
وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .

(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألست ، والمعزف الذي ردَّد لحنها .

(٣) التراب هنا هو الإنسان .

(٤) ما بقينا : ما دمنا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

الخاتمة

لِيُشْهَرْ منك ذيّاك الحُسام بغمدكَ لا يطيبُ لك المقام[1]
وتملكُ قدرةً فارفعْ نقابا تنلْ شمساً وبدراً والسحابا
دُجَاك أنرْ بأنوارِ اليقين يداً بيضاءَ أظْهِرْ لِلْعُيون[2]
وعينَك فافتحنَّ على فؤادِك من الشَّرر الثُّريَّا في حصادِك[3]
ومن قلبي لتقتبسِ الشرارا أنا الروميُّ إمَّا شئت نارا[4]
وإلّا ، نارَ غربٍ خذْ وحاذِرْ ومُتْ في القلبِ كي تحيا بظاهرْ

* * *

(١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .

(٢) الدُّجى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٢ ـ ٢٤] .

(٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .

(٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوُّف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوُّف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى الشيخ .

الدِّيْوانُ الخامِسُ

جَناحُ جِبْرِيل

بالِ جبريل

نَقَلَهُ مِنَ الأردويّةِ إلى الفرنسيّةِ نثرًا

السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي

و السيدة سوزان بوساك

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الفرنسيّةِ إلى العربيّةِ نثرًا

الأستاذ عبد المعين الملوحي

ثُمَّ صاغَهُ بالعربيّةِ شِعْرًا

الأستاذ زهير ظاظا

طُبع هذا الديوان عام ١٩٣٥م ، وهو يحتوي على قصائد باللغة الأردوية حول زيارات محمد إقبال لفلسطين ، ومصر ، وأفغانستان ، وإنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا .

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العُمق وسعة المطلب والبيان ، وما يلفت انتباهنا هنا هو أنَّ محمَّد إقبال يحكي خواطره الخاصَّة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلاميَّة التاريخية ، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص عن المحاورة بين محمد إقبال وجلال الدين الرُّومي ، فالمريد الهندي (محمد إقبال) يسأل بالأردوية والروميُّ يُجيب عن كل سؤال من المثنوي ، وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

ربَّما لا يجد القارىء العربي في هذا الديوان محمد إقبال البليغ الجذّاب في شعره الأخّاذ الذي تفرَّد به بين كبار شعراء الأردوية القُدماء والمُعاصرين ، وهو بسبب كثرة نقل هذا الديوان من شعر إلى نثرٍ ، ثم من نثرٍ إلى صياغةٍ شعريةٍ بالعربية ، فهكذا زال جمال الشعر وروعته وخفَّت بلاغةُ الشاعر وإبداعيتُه ، لذا ضَمَمْتُ إلى بعض عيون قصائد هذا الديوان تراجمها النثرية للعلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ملتقطاً من كتابه « روائع إقبال » الّذي قرأ هذا الديوان ـ مع جميع دواوينه ـ بكل عمقٍ ودقَّةٍ بلغته الأصلية فبَلَغَ مُحْسِناً ومُجِيداً بترجمته النثرية مبلغاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده .

***

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتَّى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورةٌ تمثيليةٌ رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطعٌ كثيرةٌ متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المُعين الملُّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوَّتْ بِصَـــرْخَـــةٍ رغبتــــي أركــــانَ حضــــرتـــــه الشَّــــريفـــه
فـــاســــترحمتْـــهُ العــــاكفــــون لفـــرط جـــرأتهـــا المخيفَـــة
هـــي ذيْ مـــلائكـــةُ السَّمــــاءِ وحــــورُهـــا أســــرى خيــــالـــي
بصــــري يكـــدِّرُ مـــا يفيْــضُ بــــه التجلِّــــي مــــن جمـــالِ
إنْ كــــانـــتِ اقْتصـــرتْ علـــى نقـــشِ المســــاجـــدِ همَّتـــي
لـــي ســـاعـــةٌ تجتـــاحُ فيهـــا الكـــونَ جِـــدَّةُ نظـــرتـــي
مـــاذا فعلـــتَ ، أبحـــتَ ســـرِّي هـــاهنـــا ، لكـــن لمــاذا ؟!
وأنـــا هـــو الســـرُّ الـــوحيـــد لهـــمْ بِصَـــدْرِ الكـــون هـــذا
أنـــا مـــا سكـــرتُ بمـــا سُقيْـــتُ فهـــل بكـــأسـك مـــن ثُمَـــالـــهْ
مـــا مـــدحـــةً للبحـــرِ أنْ يهـــب النَّـــدى ظمِئـــاً حيـــالـــهْ

(٢)

لِـــمَ أهتـــمُّ بـــأخطـــاءِ النجـــومْ ؟ وأذيـــبُ القلـــبَ فـــي هـــذا العنـــا
إنْ أصـــابـــتْ شـــأوَهـــا أو أخطـــأتْ فهـــوَ شـــيءٌ ليـــس يعنينـــي أنـــا
ثـــمَّ هـــل يمكننـــي أرثـــي لهـــا وأنـــا أطلـــبُ مـــن يـــرثـــي لحـــالـــي
لســـتُ فـــي كـــونـــك إلا حفنـــةً فلمـــاذا يُشْغِـــلُ العـــالـــمُ بـــالـــي
هـــوَ لـــي أمْ لـــكَ أنـــتَ عـــالمـــي أم عـــالمُـــكْ ؟
كـــلُّ غيـــبٍ وشهـــادهْ ليـــسَ لـــي منـــه نصيـــبْ
جـــاهـــدَ العقـــلُ جهـــادهْ هـــو أم أنـــتَ المصيـــبْ
أنـــا مـــا قصَّـــر فـــي بحـــريـــك هـــذيـــن مضـــائـــي
رُغْـــمَ أنِّـــي ليـــس لـــي علـــمٌ بمـــا خلـــفَ الفَضـــاء
كيـــفَ إبليـــسُ الـــرَّجيـــم قـــال : لا ، للكـــون هـــذا

ولمـــــاذا (أنـــــا حتـــــى الآن لا أدري لمـــــاذا) !!
ليـــت شعـــري أنـــت حقَّـــاً أمْ أنـــا مـــوضـــعُ ســـرِّهْ
أنـــا بـــالنسبـــة لـــي طـــوَّحْـــتُ فـــي خيـــري وشـــرِّه
يـــا أبـــا القـــاســـم يـــا جبـــريـــلُ يـــاقـــرآنُ إنّـــي[1]
حلـــفُ سيـــرٍ فـــإليكـــم أيُّهـــا السَّـــادة عنِّـــي
أيُّنـــا يشـــرحُ مـــا فـــي القـــول هـــذا مـــن حـــلاوهْ
أنـــا أم أنـــت الـــذي يَمْنَحُـــه هـــذي الطَّـــلاوهْ
عطـــرُك اللهـــمَّ فـــي الإنســـان مـــا زالَ ولـــونُـــكْ
وبـــإشـــراقـــة هـــذا النَّجـــمِ قـــد أشـــرقَ كـــونُـــكْ
أنـــا مِـــنْ آدم فـــرعٌ وهـــو مـــنْ صُنْـــعِ يَـــدَيْـــك
هـــل أســـاءت هـــذه الـــرِّحلـــة فـــي شـــيءٍ إليـــك

***

قـــد تـــألَّفـــتَ فـــزدْهُ ألَقـــاً هـــذا العِـــذارْ
وأدمْ لـــي حكمتـــي فـــي أســـره ليـــلَ نهـــارْ
خـــذ إلـــى أســـركَ قلبـــي فَلَقَـــدْ طـــابَ التهـــالُـــكْ
أنـــا لا أرغـــبُ أن يُكْشـــفَ حبِّـــي وجمـــالُـــك
أنـــت كـــاللُّجـــة لا ســـاحـــلَ لـــك وأنـــا الجـــدولُ لا لُجَّـــة لـــي[2]
قـــلْ لهـــا تـــأخـــذني فـــي حضنهـــا وأغثنـــي مـــرةً مـــنْ ســـاحلـــي

---

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنَّ القلب السليم هو الّذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنَّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميِّز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
أما أنت فكاللجَّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها .

إنْ أكُــنْ قــوقعــةً فــارغــةً فمن المسؤول عن هذا السُّلوك ؟
أنت منْ يجعل منْ هذا الحصى جــوهــراً يُلْهــبُ تيجــان الملــوك
ربَّ مــا قَــدَّرت لــي رَجْــعَ الــربيــعْ فــاحفــظ اللهــمَّ هــذا النَّفَســا
فعســـى تـــروي بـــه قُبَّـــرةٌ ذلــك الغصــنَ الــذي قــد يَبِســا
مــع مــا أرهقنــي عــبءُ الحيــاه مــع مــا أخــرجتنــي مــن جنَّتــكْ
ستــرى كــم تــوبــةٍ فــي صفحتــي وأرى كــم رحمــةٍ فــي صفحتــك
أنــا قــد يَحْمــرُّ وجهــي خجــلاً حيــن تبــدو صُحُفــي بيــنَ يــديــك
فــرجــائــي عنــدمــا تقــرؤهــا أنَّنــي أنظــرُ يــا ربــي إليــك
أعــرفُ الحــبَّ الــذي خَبَّــأتَــه عــن قلــوبٍ سُمْتَهــا مــن ضَــرَمِــك
أنــت لــو تجعلــه قطبــاً لهــا لــم تطُــفْ إلا بــه فــي حَــرَمِــكَ
ارحـــم الكَـــلَّ الضعيـــفْ ضـــاعَ فـــي حقـــلٍ وبيـــدرْ
بـــدلاً مـــن ذا الـــرَّغيـــفْ أعطـــهِ قـــوَّة حيـــدرْ

(٤)

ســواء أهــزَّتْــكَ أم لــم تهــزَّك شكــوايَ أطلــبُ تُصْغــي إلَــيْ
أنــا وقــحٌ لســت أســأل عــدلاً فيــا طــالمــا العــدلُ يبغــي علــيْ
سمــاءٌ وأرضٌ وريــحٌ غضــابْ وكــلٌّ علــى قبضــةٍ مــن تــرابْ
فهــل لــك فــي الخلــقِ منْ فــرحــةٍ وهــل هــذه رحمــةٌ أم عــذابْ
أنـــا العطـــرُ خيمتُـــه وردةٌ تقـــاومُ ريحـــاً ببستـــانـــكَ
وبــالــرغــم مــن ضعْــف أسبــابهــا إلــى الآن تــزهــو بــألــوانــكَ
وبــالــرَّغــم مــن أنَّنــي فــي السَّمــاء وضيـــعٌ وأكثـــرُ مـــن مـــزدرىٰ
رضيــتُ ببــؤســي الــذي اختــرتــه وأنشـــأتُ مملكـــةً فـــي العَـــرا
خــلا الــروض مــا فيــه مــن أجْمَــةٍ فتــاهــتْ عليــه المهــا والظِّبــاءْ
إذا كـــان صيـــادُنـــا مـــاهـــراً فليـــس يصيـــدُ بهـــذا العـــراءْ
إلـــى عـــالـــمِ الحُـــبِّ لا تستطيـــعُ وصـــولاً مـــلائكـــةٌ فـــي السَّمـــاءْ

ورايتُـه ليس تُعطى سوى … لمن لا يهابون سَفْكَ الدِّماءْ
ومن أينَ تعرفُ معنى الوِصال … إذا لم تنلْ من ضِرامِ الهجرْ
سألتكَ تملأُ روحَ الشَّباب … بأنَّاتِ إقبال هذا الفجرْ
وتؤتي الشَّواهين عون الجناح … لتنزلَ منزلها في القِمَمْ
وأمنيّة العُمْر هذي الجراح … تقسمُها بينَ كلِّ الأممْ

(٥)

نمطُ العَيْشِ هاهنا … أفقدَ الحبَّ بهجتَهْ
أدركِ الحبَّ أخمدتْ … نفحةُ الموتِ جذوتَهْ
في لهيب انتظاره … بدَّدَ العمرُ حُرْقتهْ
ضاع عمري بلحظةٍ … أخَذَتْ منه زَهْرَتَهْ
تربتْ من شرارةٍ … قاومتْ منه شُعْلَتَهْ
هبْ له خُلْدَ روحه … وأدِمْ فيه سَخْطَتَهْ
وانظرِ الأرضَ عندما … يهبُ الأرضَ نظرتَهْ

* * *

(٦)

أنا أرجو ألا يقوم رمادي … أبداً هاهنا بتقويم قلبي
ورجائي ألَّا يكون عذابي … مثل يومي غداً أمامَك ربي
ثمَّ أرجو ألَّا أخورَ وأبكي … وترى الحورُ لوعتي ونحيبي
وعسى هذه المحافلُ ألَّا … يأخذوا أيَّ فكرةٍ عن لهيبي
ربَّما يذكرُ المسافر يوماً … كلَّ وخزٍ رآه عَبْرَ الطَّريقِ
فرجائي ألَّا يصير حنيناً … ذلكَ الوخزُ في فؤادي الرَّقيقِ
جعلَ الحبُّ من فؤاديَ بحراً … لم أجدْ ساحلاً له في حياتي
أنا أرجو ألَّا أفاجأ يوماً … وأرى ساحلي شعوري بذاتي
ورجائي ألا أكون ببحثي … وهو بحثٌ بغير لونٍ ومنهجْ

كـالـذي ضـاعَ عمـرهُ خلـف ليلـى يقتفـي إثـرَ هـودجٍ بَعْـدَ هـودج[1]
آدمُ الأرض فـي صعـودٍ غـريـب ولهـذا النُّجـوم طـرّاً تمـورُ
ربمـا صـار للسمـوات بـدراً ربمـا عـاد نجمُـه المكسـورُ
مـولاي سرُّك مـاضٍ فـي عـوالمـه من عالمِ الطَّير حتَّى عالم السَّمَك
ولسـت غيـرَ صـراخِ الفَجْـر أملكـهُ أنا بكونك كالعُصْفورِ في الشَّرَك

---

(١) في الأصل ص٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .
إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حبِّ ليلى ؟ عندما رآها فكان يلحق بكل بعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .
وفي تأويلات أخرى أنَّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلى ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .
قال الأستاذ الملّوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلى في قوله :
ولما دخلت الخدر خدر عنيزة . . . إلخ
قلت في ديوان الأسرار ص٧٠ يعلق عزّام على البيت :
صـدر عصـري مـا يقلـب يـؤهـل نـوح قيـس حيـن يخلـو المحمـل
قال : يبكي لخلوِّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلى وقد يكون من ذلك قول المجنون :
أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم وأرى نسـاء الحـيّ غيـر نسـائهـا
وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١هـ : كان السَّهروردي صاحب العوارف مرةً في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :
ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب لـه في الركـب محبوب
فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :
كـأنمـا يـوسـف فـي كـل راحلـة لـه وفـي كـل بيـت منـه يعقـوب
فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرةً فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

(٧)

أيُّهـا السَّـاقـي لقـد قـامَ الغفـاة ... ثـورةٌ فـي كـلِّ شـيءٍ فـي الحيـاة
ذرَّةٌ لـم تَخْـلُ مـن عـاصفـةٍ ... أيُّهـا السَّـاقـي خـذ الكـأس وهـات
نُهِبَـتْ خيـراتُنـا أجمعهـا ... لـم نَعُـدْ ننفـعُ شيئـاً لِلْعبـاد
أيُّ عيـنٍ قـد أصـابـت ركبنـا ... جَعَلَتْـهُ هـائمـاً فـي كـلِّ واد
فتنـةٌ فـي القَلْـبِ قـد أودث بنـا ... نحـن أبنـاءُ أطبَّـاءِ القلـوب
أيـن فـي وديـاننـا المـاءُ الـذي ... قبـلُ أحْيَيْنَـا بـه روحَ الشُّعـوب
لِـمَ لا يَنْطَلِـقُ التَّـوقُ الـذي ... يُـوقـدُ الجـذوةَ فـي صَـدْرِ الحـرمْ
حُجُـبٌ غطَّـتْ عيـونَ المـؤمنيـن ... أن تـرى زمـزمَ قُـرْبَ الملتـزمْ

رغـمَ أنَّ النَّهـر والبستـانَ فـي تبـريـزَ بستـانٌ ونهـرْ
لـم يـزالا لـم تَقُـمْ جـوقـةُ رومـي منـذ دهـرْ
قـل لهـا إن شئـتَ هـذا النهـرَ والبستـان قـومـي
لـو تـرى إذْ رَقَصَـتْ تبـريـز فـي حضـرةِ رومـي

أنـا لا أيـأس مـن حقـلٍ ذوىٰ ... أيُّهـا السَّـاقـي إذا المـاءُ هطـلْ
فـأعـذْ رونقـه إنْ لـم يكـن ... وابـلاً يـا أيُّهـا السَّـاقـي فَطَـلْ
أيُّهـا السَّـاقـي هُـمُ قـد منحـوا ... لـذوي الكـديـة أسـرارَ الملـوكْ
أنـا لـو أُعطيـتُ دنيـا أبـرويـز ... لـم أكـنْ أرغـبُ عـن هـذا السلـوكْ
أنا لا أخلو بما أنعمته من موهبه ... ليس من طغرل أو سنجار في بيتي هبه
أنا بالفطرةِ أصبحتُ رقيباً للوجودْ ... رغمَ هذا ما لجمشيدٍ على قلبي قيودْ

* * *

(٨)

ألا يـا أيُّهـا السَّـاقـي ... مـن الكـاسـاتِ هـاتيـك
لعلـي أنْ أرى يـومـاً ... مكـانـي مـنْ معـانيـك
لمـاذا أغْلَقَـتْ أبـوابَهـا ... الحـانـاتُ فـي الهنـد

مضـــت هـــدراً ثـــلاثُ قـــرونٍ بَعْـــدَ سقـــوطِ ســـرهنـــدِ[1]

مضـــت هـــدراً ثـــلاثُ قـــرون فـــي حـــانٍ هَـــدَمنـــاهـــا
ولـــم تتحمَّـــل النُّـــدمـــان بُعـــدَك أيهـــا السَّـــاقـــي
ذوت غـــزليتـــي لا شـــيء والـــلأشـــيء حـــرَّمـــه
علينـــا بـــائـــع الـــلاَّهـــوت بَعْـــدَك أيُّهـــا السَّـــاقـــي
قلـــوبُ أســـودنـــا فـــي الغـــاب قـــد هَجَـــرَتْ تحقُّقَهـــا
مـــع الصُّـــوفـــيِّ والمـــلاَّ عبيـــدٌ أيُّهـــا السَّـــاقـــي
مـــنِ انتـــزعَ الحقيقـــةَ مـــن مهنَّـــد حبِّنـــا هـــذا
ومـــا أبقـــى لهـــا إلا قـــرابـــاً أيُّهـــا السَّـــاقـــي
كـــلامُ القَلْـــبِ حيـــنَ يكـــونُ حيَّـــاً خمـــرُنـــا البـــاقـــي
وإلا كـــان لـــلأرواح مـــوتـــاً أيُّهـــا السَّـــاقـــي
أنـــا ليـــلٌ بـــلا قمـــرٍ ومـــا لـــي هـــاهنـــا قَـــدْرُ
ألا يـــا أيُّهـــا السَّـــاقـــي بكـــأســـك ذلـــك البـــدرُ
بكـــأســـك ســـرُّ ذيَّـــاك السُّكـــون وهـــذه الحـــركـــة
فـــأيـــنَ المـــاءُ ، مـــاذا كـــان ردُّ الخضـــرِ للسَّمكـــةْ

(٩)

ســـاقـــيَّ مـــا حصـــل الـــذي أبغيـــه الـــذَّات عـــالمهـــا متـــى نلغيـــه
القلـــبُ منشغـــلٌ بمـــا عـــاطيتـــه عمَّـــن يغنيـــه ومـــنْ يَسْقيـــه
ذهبـــتْ بجـــوقتـــه كـــؤوسُـــك كلُّهـــا لـــم تبـــقِ إلا الصَّمْـــتَ فـــي واديـــه

---

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الرّباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

مـا مثلـه متسـوِّلٌ فـي حـانـةٍ　　بـالـلامبـالاة التـي تـرويـه[1]
لـو جـاء مـاءُ الخضرِ كسر كـأسَـهُ　　ورثـى لـذي كلـفٍ بـه يـأتيـه

* * *

سـاقيَّ والكـأس الصغيـرة لـم تعـد　　تكفـي هلـمَّ لـه بمـا يكفيـه
فـرغـتْ دِنـانُ القَـوْم فـي أديـارهـم　　وأتيـتُ أسـألـك الـذي تخفيـه
بصـري علـى طمـحٍ وقلبـي جـامـحٌ　　فـاستـرْ إذا أحببـتَ مـا أنـويـه
غـادرتُ لـؤلـؤتـي الَّتـي أغـرقتَهـا　　فـي البحـر تنعـمُ مـنْ ضيـائـك فيـه

* * *

نظـراتُ هـذا الشِّعـر تَسْحَـرُ لبَّنـا　　والحسـنُ لا يحتـاجُ للتنـويـه
تضفـي علـى لـونِ الشقـائـق رونقـاً　　وتـزيـدُهـا ألقـاً بمـا تضفيـه

* * *

مـرةً تبصـرُ المحـبَّ شـريـداً　　مـرةً تبصـرُ الملـوكَ لـديـه
مـرةً يقحـمُ النُّـزال عـريّـاً　　مـرةً يحشـدُ الـدروع عليـه

(١٠)

أحـرقـتْ رغبتـي بـلاهـةَ سُـوقٍ　　فـأتَتْنـي ملـوكُـه تشتـريهـا
لسـتُ أبتـاعُ سكـرةَ الملـك غُبْنـاً　　بعبـوديتـي الَّتـي أنـا فيهـا
لا يليـقُ الـوجـود هـذا بحـرٌ　　سـرُّه يشتكـي وجـودك ذاكـا
لـم يجـدْ هـاهنـا مـنَ المـوتِ بـدّاً　　أو مفـرّاً مـن الحيـاة هنـاك
لـذَّةُ العِشـق مـن فـراقٍ وهجـرٍ　　فـاتَّـق اللهَ أنْ تقـولَ لمـاذا
مـا تـردَّدتُ أو تشـردتُ يـومـاً　　أو تسكَّعـتُ فـي طـريـقٍ كهـذا
لا يمَـلُّ الشَّـاهيـن مـا يـرتجيـه　　بيـن غـابٍ يـرودُهـا وجبـالِ

---

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويـرى فـي اتخـاذه الغُـشَّ عـاراً نـاعـمٌ بـالُـه شـديـدُ المحـالِ
مـن تُـرى يسَّـر الـذَّبيـح لبـرٍّ بعـدمـا كـان تلَّـه للجبيـنِ
كثـرةُ الـدَّرسِ أمْ نبـاهـةُ نفـسٍ إنَّ فـي ذاك آيـةً للضَّنيـنِ
سلـوة الشـرق حيـن يجـرح شعـري وضـريحـي لكـلِّ طلعـةِ حـرٍّ
جئتُ (آلوند)[1] مرةً بعد أخرى فغبـارُ الطـريـق يعـرفُ سـرِّي
ليـس يحتـاجُ زخـرفَ القـول معنىً كيفمـا قلتَـه سبيـتَ الغـوانـي
مـا استعـارتْ يـدُ الحـديقـةِ لـونـاً حيـنَ صـاغـتْ شقـائـقَ النُّعمـان

* * *

هـو ذا الحـبُّ مـرةً إلْـفَ وادٍ مـرةً وحـدَه يغنِّـي الجبـالا
مـرةً بـالغيـاب يَشْقَـى وأُخـرى يمـلأُ القلـبَ غبطـةً ووصـالا
طـالمـا ألهـبَ المحـاريـبَ وَجْـداً طـالمـا أصْلَـح المنـابـرَ بـالا
مثلـه مثـلُ الإمـامِ علـيّ أخـذ العلـم كلَّـه والقِتـالا

(١١)

ألا يتـذكَّـرُ يـومَ اللقـاءْ وتـاريـخَ لحظتِـه الحـاسمـهْ
ومـا قـدَّس الحـبُّ مـن بقعـةٍ وأسيـافَ نظـرتـه القـاسمـهْ
ذوى الحـبُّ فـي أنفس العـاشقيـن ولـم يبـقَ منـه سـوى وسـوسـهْ
وصـرنـا إلـى زمـنٍ مـالـه إلـهٌ سـوى صنـمِ المـدرسـهْ
يقـولـون أستـاذنـا آزرٌ ولـلآن مـا عـرفـوا رسمَـهُ
هُـمْ وثنيُّـون لا يعـرفـونَ مـن فـنِّ آزرَ إلّا اسمَـهُ
نَعَـمْ هـمْ إلـى الآنَ لـم يعـرفـوا رشـاقـةَ فطـرتـه البـادئـهْ

---

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر جبل آلوند وميمند .

تطـوَّح معبـدُهـم فـي الـرِّيـاح   ولـم تبـق زاويـةٌ هـادئـهْ
تعجَّبـت مـن عـالـمٍ هكـذا   فـلا هُـوَ عُـشٌّ ولا هُـوْ قَفَـصْ
هـب الكـرْمَ رونقَـه يـا كـريـم   فلـم يبـقَ فـي الـدَّنِّ إلا غصـصْ
وحـانـاتُ إيـران قـد أجـدبـتْ   وهـذي التـي فجَّـرت عينَنَـا
يظنُّـون شعـري لأجـلِ الـرَّبيـع   ومـا علمـوا مـا الـذي بيننـا
دمـي وغبـاري همـا الجـوهـرانِ اللَّـذانِ يجيشـان فيمـا تشيـدْ
وأنـت سفكـتَ عليهـا دَمـي   وخلـدُ التـألُّـق أجـرُ الشهيـد
بفضلـك لا أشتكـي الأصـدقـاء   ولا أشتكـي جَـوْرَ هـذا الـزمـانْ
وثـوبُ الحيـاة التـي خضتُهـا   بفضلِـكَ أخلعُـه فـي أمـانْ
فهبنـي بسـرِّك ذوقَ الفَنـاء   كمـا فنـيَ السَّـابقـون الأوَلْ
فـلا الحـزنُ ثبَّـط مـنْ عـزمهـم   ولا الخـوفُ أقْعَـدَهُـم فـي الـدُّولْ
نعـمْ ، عقـدَ الفكـرِ أطلقْتهـا   وخلَّصتنـي مـن شيـاطينـهِ
متـى الحـبُّ تمنحنـي سـرَّه   وتجعلنـي مـن مجـانينـهِ

(١٢)

يَهَـبُ الشَّقيـق بـلا حسـابٍ خمـره   فترى الكؤوس على مدى البُستان
عجبـاً مـن الصُّـوفـيِّ يتـرك زُهْـدَه   لأقـلِّ بـارقـةٍ بهـذا الحـانِ
الحـبُّ يجعـلُ حيـثُ مـدَّ بِسَـاطَـهُ   مـن طعمـةِ المتسـوِّليـن ملـوكـا
يـرثـون شـرفـة أبـرويـز بمكـرِهـم   فتظـنُّ كـان كمثلهـم صُعلـوكـا
هـذي النُّجـومُ عتيقـةٌ كسمـائهـا   هـل مـن نجـومٍ غيـرِهـا وسمـاءِ
يـا ليـتَ شعـري والقيـامـةُ أزلقـتْ   مـا حظُّهـا مـن هـذه الضـوضـاءِ
مـولاي عينـك لـو أدرتَ لحـاظَهـا   عنِّـي لحـلَّ الـويـل بـي فـي لحظتـي
أنـا غبطتـي عنـد الصبـاح تَنَهُّـدي   حـاشـاكَ تحـرمنـي وداعـةَ غبطتـي
لـم لسـتَ مُهْتَمّـاً بهـذا كلِّـه ؟   ولـو اهتممـتَ جعلـت منـه يقينـا
عينـاكَ لامعتـان إلا أنَّهـا   دلَّـتْ علـى عـدم اكتـراثـك فينـا

أنــا لا يــلائمنــي ربيــعٌ طــافــحٌ بــالــزَّهــر لــم يُــدْرِكْ مــدى أحــزانــي
ويظــنُّ مــن خُيَــلائــه عــن فــرحــةٍ غنَّــى لــه العصفــور فــي البُستــانِ
قــالــت لــي الحمقــى تبــدَّد شملُنــا فكنِ ابنَ عصرك أيها المجنونُ[1]
فــأجبتُهــم إنْ كــان غيــرَ منــاســبٍ فمــن المنــاســب حــربُنــا المكنــونُ
حقّاً أبو الحسن المحقِّقُ قال لي : الــرُّوح لا تفنــى إذا فنــي الجســد
أتظــن تبقــى الشَّمــس مشــرقــةً إذا هي أنكَرَتْ هذا الشُّعاعَ إلى الأبد[2]

(١٣)

عــدمُ اكتــراثِــك لــم يــزلْ وشقــائــي لــم أستفــدْ شيئــاً بكــلِّ غِنــائــي
ربَّــاه أيــنَ أنــا وأنــتَ وإنْ يكــنْ هــذا فضــاؤُك أنــتَ أيــنَ فضــائــي ؟
ولــكَ الــوجــودُ جميعُــه أمْ لــي أنــا والكــونُ سِخْــرُكَ أمْ تمــوُّجُ ذاتــي
مــا خضــتُ إلا وقعــةً نشبــتْ بــه فــي ســاحهــا أنْفَقْــتُ كــلَّ حيــاتــي
مــا خضــتُ طــوال العمــر إلا وقعــةً نَشَبَــتْ علــى لغــزٍ مــن الألغــازِ
بحــرارةِ الــرُّومــيِّ كنــتُ أخــوضهــا حينــاً وحينــاً بــاكتئــابِ الــرَّازي
ما أفلحَتْ تلكَ العُقابُ وقد نَمَتْ وتــرعــرعــتْ بيــن النُّســور الكــاسـرهْ
فَلِصَقْــرِنــا الملكــيِّ ســرٌّ واحــدٌ لــم تــدره تلــك العُقَــابُ الحــائــرهْ
لِلْحُــبِّ أغنيــةٌ ومــا لِغِنــائهــا لغــةٌ ، ولا تحتــاجُ لــلألفــاظِ
هــي إن تكــنْ أو لــمْ تكــنْ عــربيــةً فــالســرُّ كــلُّ الســرِّ فــي الألحــاظِ

---

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .
(٢) في الأصل (أيمكن أن تظل الشمس مشرقةً لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أنَّ الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .
قلت : وقريب من هذا .
ربــاه ذاتــك فــي سمــاء حيــاتنــا شمــس أشعتهــا ذوات النــاس
وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيَّة ابن سينا :
يــا نفــس مثــل الشمــس أنــت أشعّــة فــي عــامــرٍ وأشعــة فــي بلقــع
فــإذا طــوى الله النهــار تــراجعــتْ شتى الأشعة والتقت في المرجعِ

مــا بيــن دروشــةٍ ولا ملكيــةٍ فــرقٌ إذا صلحــتْ أمــورُ الــذَّاتِ
كلتــاهُمــا تغــزو الــوجــودَ فهــذه بيــدِ الجنــودِ وتلــكَ بــالنَّظــراتِ
البعــضُ قــد تــرك الرِّكــابَ لغيــرهــا والبعــضُ يكتُــمُ جــرحَــهُ ويعــانــي
لــو أتقــنَ الحــادي مقــامــاً واحــداً لــم يــرغبــوا عنْــهُ لحــادٍ ثــانِ
الفكــرُ حتَّــى بــالفضيلــةِ لــم يَعُــدْ يرضى بقولِ القلبِ في تفسيرها
والقلــبُ حتَّــى بــالتَّجــارب كــافــرٌ ويــردُّ قــولَ الفِكْــرِ فــي تقــريــرهــا
فــإلــى متــى هــذا النفــورُ يقــودنــا وإلــى متــى تجتــاحُنــي أنفــاســي
اللهُ يعلــم مــا رأت نفســي الَّتــي أقســو عليهــا رحمــةً بــالنَّــاسِ

(١٤)

أنــا لا يبــدو مجــالــي هــاهنــا يتعــدَّى أبــداً ظِــلَّ القمَــرْ
وأرى اللُّعبــة مــن مــاءٍ وطيــن ليس في كوني سوى هذا السَّمَرْ
أيُّ عيــنٍ هــاهنــا مــا افتتنــتْ عنــدمــا مــزَّقــتُ أطــرافَ الــرداءْ
تــربــتْ مــن أعيــنٍ كــانــتْ تــرى بقعــةً زرقــاءَ فــي هــذي السَّمــاء
كــمْ لنــا قــافلــةٌ مــرهقــةٌ طــوَّحــتْ خَلْــفَ تــلافيــفِ الأثيــر
إنَّ هــذا المشتــري والنَّيِّــريــنْ بعضُ من صاحبتُ في هذا المسير
هــذه الأرضُ وهــاتيــكَ السَّمــاء فــي رحــابِ الســرِّ لا تنتهيــانْ
قفــزةٌ واحــدةٌ مــنْ عــاشِــقٍ تجعــلُ الأســرارَ فــي جُبَّــة كــانْ
أنــتَ إنْ حــاولــتَ كتمــانَ الهــوى فَضَحَتْــهُ صــرختــي عِنْــدَ الصَّبــاح
صــرخــةُ الحــبِّ التــي تملكنــي لــم تــدعْ للحــبِّ ســراً لا يُبــاح
رغــمَ مــا تطلقُــه مــنْ حيــرةٍ صــرخــةُ التــائــه مــنْ غيــر دليــلْ
هــي عنــدي وكمــا أعــرِفُهــا دعــوةٌ تُعْــرِبُ عــن قُــرْبِ الــرَّحيــلْ

* * *

إنْ تكــنْ ربّــاً فيعنــي عنــدنــا صــرتَ تهتــمُّ بــأرضٍ وسمــاء
وجَــعٌ فــي الــرأس لا يتــركُــه لهنــاءٍ فــي صبــاحٍ ومســاء

أستميـــحُ العُـــذْرَ إمَّـــا إنْ تكـــنْ		مَحْضَ إنسانٍ على هـذي الـوِهـادْ
فهــو لا يعنــي(تمــامــاً) عنــدَنــا		وَجَعاً في الرَّأسِ ، لكنْ في الفؤادْ

(١٥)

واضــحٌ قــولــي ، وفِكْــري نيِّــرٌ		رغــمَ أنِّــي حــافــلٌ بــالحِيَــرِ
طينتــي هــذي الَّتــي أملِكُهــا		كــلُّ مــا أعــرفــه عــن قــدري
ليــسَ عنــدي غيــرَ شــيءٍ واحــدٍ		أنــا أم أنــت الــذي يَمْلكُــه ؟
أنــت لــو مَكَّنْتَنــي مــنْ صــونــه		عــن زمــانــي لــمْ أكــنْ أهْتِكُــه
كيــف لا تُعــرِبُ عنِّــي صــرختــي		كيــف لا تمــلأ أرجــاءَ السَّمــاءْ
أنــا غَنَّيْــتُ كمــا علمتنــي		أنا أم أنـت الـذي صاغَ الغِناء ؟!
خطــأٌ إن كــان فــي تصميمنــا		مــا الــذي يــدعــو إلــى تكــراره
ذلــك الإنســانُ مــا قيمتُــه		ومتــى يخــرج مــن فخَّــاره
رغــم أنَّ الغَــزبَ مــا علَّمنــي		مـن جميـع العلـم غيـر التُّـرَّهـاتْ
فــأنــا يــؤسفنــي (المــلأ) الــذي		صـار لـلإسـلامِ عـاراً فـي الحيـاة

* * *

أيهــا المسلــم[1] يــا نــورَ السَّمــاء		كيــف لا تشــرقُ فــي أرضِ البشـرْ
أنــت سلطــانُ الليــالــي لا كمــا		قــالــتِ الحمقــى أسيــرٌ للقَــدَرْ
إنَّ أصنــامــي التــي فــي مَعْبَــدِي		مثلُهــا تلــكَ التــي فــي معبــدِكْ
لــم تحطمْهــا يــدٌ غيــرُ يــدي		فتــرفَّــغ عــن يــدِ غيــر يــدك
ذلــك الأعمــى الــذي تَقْصِــدُه		مــا لــه علــمٌ بمــا فــي قلبــك
هــو لا يبصــرُ حتَّــى نَفْسَــه		وتــراه تحفــةً مــن ربِّــك

---

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملُّوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى » ص٩٨ .

(١٦)

ربّـاه هـذا السُّـوق ينبـضُ روعـةً ... ويـروجُ حتـى فـي ابتيـاع الـدَّاء
بـالـرَّغـم مـن هـذا فـأرخـصُ سلعـةٍ ... عنـد الشـراء مـواهـبُ العلمـاء
ملـكَ المـرابـون البـلادَ جميعهـا ... وتقـامـروا حتَّـى علـى الأديـانِ
والنـاسُ يعتقـدون رغـم شقـائهـم ... لـلإنكليـز بمطلـق السُّلطـانِ
لـم تمنـحِ العلمـاءَ حتـى قشّـةً ... وجَعَلْتَهُـم أخلـى العبـادِ وفـاضـا
والإنكليـز وهـم عبـادٌ مثلُنـا ... يُغْطـون أبنـاء الحميـر ريـاضـا
ملئـت كنـائِسُهـم بكـلِّ ملـذَّةٍ ... فهنـا اللحـومُ وهـاهنـا الكـاسـاتُ
هـل فـي مسـاجـدنـا بكـلّ بـلادِنـا ... إلا المـواعـظُ تلـك والصلـواتُ[١]
قـرآنُـك الحـقُّ المبيـن وإنْ يكـن ... قـاسـى كـلامَ مفسِّـريـه وعـانـى
لـو يـرغبـون بـرأيهـم أن يجعلـوا القـرآن (بـازنـد المجـوس)[٢] لكـانَ
فـردوسـك اللهـمَّ لـم يـره هنـا ... أحـدٌ وأنـتَ هـو السَّميـعُ المُبْصـرُ
الإنكليـز بـلادُهـم فـردوسُهـم ... والمسلمـون إلـى سمـائِـك تنظـرُ
مـا زال فكـري فـي سمـائِـكَ حـائمـاً ... فـاسجنْـه فـي فلـكٍ مـن الأفـلاكِ
تـأبـى علـيَّ مـلائكيَّـةُ فطـرتـي ... أنْ أستمـرَّ بهـذه الأشْـراكِ
لـك ذلـكَ الـدَّرويـش جـرَّح نفسـه ... حـاشـا تكـون لقلبـه جهتـانِ
لا فـي سمـرقنـدٍ ولا دلهـي ولا ... فـي أصبهـانَ لـه مقـامٌ ثـانِ
أنـا لسـتُ مِسْكينـاً ولسـتُ مـراوغـاً ... والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهدا
غضبـت علـيَّ الأصـدقـاء جميعُهـم ... والحـقُّ لا يبقـي صـديقـاً واحـدا
لـم أستطـع أبـداً أسمِّـي سُمَّهـم ... حلـوى وأعـرفُ أنَّـه قتَّـالُ

---

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللَّادينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأفيستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومند) عندي لا يسمَّى صخرةً ... وعليه من قُللِ الجبال جِبالُ
لما قُذِفْتُ لنارِ نمرودِ أتى ... جبريلُ يسألني فَلَمْ أتكلمِ
وصمتُّ لمَّا قال : هل لك حاجةٌ ... أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شَيلمِ
ربَّاه ! إني أتْعَبَتْني حيرتي ... ما عاد يمكن أن أغضَّ عيوني
الحسنُ من حولي يشيع وصالُه ... والحُبُّ في صدري يذيعُ فتوني
سكرانُ مغتبطُ السَّجيّة منتشٍ ... بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُهُ
يا ليت شعري كيفَ يُحْرَمُ برعمٌ ... من رغبةٍ في الابتسام تهيجُهُ
لم يستطعْ إقبالُ يكتمُ جرحه ... حتَّى أمام الله قام وقالا
من سوف يُسْكِتُ ذلك الوَقِحَ الذي ... لم يبقِ للمتجمِّلين جمالا

* * *

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضَّل جلالة السلطان نادر شاه ـ الذي استشهد بعد ذلك ـ بدعوتي فاغتنمتُ زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدةٍ مشهورةٍ لهذا الفيلسوف[١] ذكرى لهذا اليوم السعيد :

« إنَّنا نسير على خُطى السنائي والعطَّار »[٢] .

* * *

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى تجسيد عقيدة عند أهل التصوُّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لم تَقْوَ صحراءُ الطبيعة هذه ... لما جننتُ على احتواء جنوني
لولا الجنونُ أساء في تقديرها ... لم آتها بمخاوفي وظُنوني
بالذَّات يمكنُ أن نكسِّر سِحْرَ ما ... بعثتهُ من عطرٍ ومن تَلْوين
لا أنتَ تملكُ في الحياةِ ولا أنا ... أسرارَ وحدانية التَّكوين !
صُوَرُ الوجودِ تموجُ نُصْبَ عيوننا ... فاملأ عيونَك ما ملأتُ عيوني
لو يستطيعُ البحر يتركُ موجه ... ألقى بموجِ الظنِّ بحرُ يقيني
بين المحقِّق والفقيه خصومةٌ ... عَصَفَتْ بمِنْبَرِ ذلكَ المسكينِ
لمَّا رُئيَ الحلاَّج فوق صليبه ... كسَرَ الصَّليبَ تعصُّباً للدِّينِ
ما بَيْنَ مِنْبَرِ ذا وبين صليبِ ذا ... لم ألقَ غير خصومةٍ منْ طِيْنِ

***

رجلُ البصيرةِ لا يذوقُ هوانا ... سِيَّان عبداً كانَ أو سلطانا
يختالُ والدِّرع الوحيدةُ زهدُه ... لا يشتكي زمناً ولا شيطانا
جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي ... لا أنتَ أستاذي ولا أنا عَبْدُكَا
أنا إن تَبِعْتُ خُطاك خنتُ خلافتي ... شتَّانَ وَجْدي في السَّماء ووَجْدُكَا
سَفْكُ الدِّماء رسالةٌ مذمومةٌ ... لكنَّها في الأرض أقدسُ فرضِ
أهلُ السَّماء صلاحُهم في أنَّهم ... يستغفرون بها لمن في الأرضِ
كم ذا ذهبتُ مُشَرِّقاً ومُغَرِّباً ... أتفحَّصُ الحاناتِ في الآفاقِ
فهنا كؤوسٌ لا مذاقَ لخمرها ... وهناك خمرٌ ما لها منْ ساقِ
طورانُ من إيرانَ تأخذُ ثأرها ... وبلاطُ قيصر من دمائهما ندي
ذهب الدراويش الذين عهدتَهم ... لا يأبهون لصارمٍ ومهنَّد
وبقيتُ في حرمٍ يتاجر شيخه ... بوشاحِ فاطمةٍ ومصحفِ أحمدِ
لما اشتكى لله إسرافيلُ من ... شكواي قال ـ بحرقةٍ وتنهُّدِ ـ :
هذا الفتى قبل الأوان يريد أن ... ينهي الوجود بشِعْره المتمرِّدِ
فأجابه صوتٌ : أليس أشدَّ من ... هذي النِّهاية ما ترى يا سيدي

إحرامُ أهلِ الصِّين داخلَ سدِّها ورقودُ مكَّةَ في جوارِ محمَّد

* * *

مِنْ (لا إلـه) لنا كأسٌ يمنِّينا
وكؤوس (إلا الله) كُسِرَتْ بأيدينا
الكأسُ طافحةٌ بالنَّفي في الأرواح
والكأسُ في الإثبات تبكي ذهاب الرَّاح
العازفُ الموهوبُ بالعَزْفِ أخرسنا
نبكي بلا صوتٍ ونخونُ أنفسنا
عجباً لأوربَّة بالنَّهر تُغرينا
وبذاتِ لجَّته ضاعتْ معانينا
تُخْفي بهدأتها تيَّارَها الماحي
عصفتْ فما تركتْ وَكْراً لتِمْساحِ
رأيُ العبيد بها لا نطمئنُّ له
وتقرِّرُ الأحرارُ الرأي مجمله
لا شيءَ يُقْنِعُنا إلا اجتهادٌ وفي
يأتي بلؤلؤةٍ من ذلك الصَّدَفِ
ذاكَ الزُّجاج إذا عَجَنْتُه في الكِير
فأنا أسوِّيه صخراً بإكسيري
لي في الجهاد يدٌ فرعونُ يخشاها
بيضاءُ ما مُدَّت إلَّا لمولاها
أتظنُّ أوربَّة أنْ ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري في قشِّها اليَبِسِ
ناري وقد أذكتْ ما اخضَرَّ من قصبي
لا شيءَ يمنعُها من ذلك الحَطَبِ

متفاهمٌ قلبي — لا يعرفُ اليأسا
الحبُّ علّمه — أنْ يُزْغِم النَّفسا
من عُسْرِ عالمه — يستخرجُ اليُسْرا
لا قَضْرَ قيصرِه — يرجو ولا كِسْرى
متعلِّقٌ أبداً — بركابِ سيِّدِهِ
لا غَزْوَ للأقمار — يَسْقُطْنَ في يده
هو سيِّد الأشياء — هو خاتمُ الرُّسُلِ
هو شُعْلةُ السَّاري — في هذه السُّبُلِ
هو مركبٌ من نور — يمشي أمام الرَّكْبْ
أعطى جنون الطُّور — لغبار هذا الدَّرْبِ
هو أولُ المَيْدانِ — هو آخر الدَّرْبِ
في أعينِ السَّكرانِ — من نَشْوَةِ الحبِّ
هو رحمةُ القُرآن — للنَّاس أعطاها
هو سيِّدي ياسين — هو مالكي طه
أقلعتُ عن غَوْصي — وتركتُ أخمالا
لولا (سنائي) ما — أقْلَعْتُ إجلالا
لولاه عن بحري — لولاه ما حِلْتُ
فلآلِيءُ فيه — أضعافُ ما قلتُ

(٢)

الشاعرُ الفرحُ الحزينُ معاً أنا — حذر الحكيمُ أشُوبه بجنونهِ
أوتيتُ ملكَهما بوجهِ معذِّبي — ورميتُ بالاثنين حول عيونه
والزُّهد منْ شِيَم الملوك فإن تجدْ — ذا الفقر فيه فَمِنْ عظيم فتونِهِ

زهـدُ الملـوكِ كـأبـرويـز محبـةً ألقـى ممـالكـه إلـى شيـرينـهِ[1]
وكهـدأةِ الأسـدِ المقيـم كمـا يُـرى مـا بيـن مِخْلَبِـه وبيـن عـرينـهِ
لا قعـدةُ الصُّـوفـيِّ مُنْهـدِمَ القُـوى مـنْ فقـد دُنيـاه وضيعـةِ دينِـهِ
مـا قـول سـادتِنـا الـدَّراويـش الَّتـي سمعـت لآهـات ابنهـا وأنينِـهِ
هـو مـنْ رجـالِ اللهِ إلا أنَّـه سيثيـرُ عـاصفـةَ النُّشـور بطِينـهِ
رجـلٌ تنيـرُ طـريقـهُ شطحـاتُـهُ حـيٌّ كمثـلِ البَـرْقِ بيـن شـؤونـه
ملـكٌ أمـاراتُ الجنـونِ بـوجهـه والعَبْـدُ يفضحُـه غبـاءُ سكـونـه
تيمـورُ أو جنكيـزُ كـانَ كِـلاهمـا ملكـاً وخـدش الله فـوق جبينـه
شعـري بفـارسَ والعـراقِ محيِّـرٌ طـرِبـوا لـه وتحيَّـروا لشجـونـه
الكـافـرُ الهنـديُّ[2] يـذبـحُ دونمـا سيـفٍ ولا رمـحٍ فَمَـنْ لجنـونـه

(٣)

روعـةُ السـرِّ التـي أعطيتُهـا والَّتـي مكَّنـنـي منهـا الجنـونُ
إنَّ أنفـاسـي الَّتـي أحـدو بهـا أُخِـذَتْ مـنْ صَـدْرِ جبريـلَ الأميـنِ
لسـتُ آتـي النَّجـم كـي أسـألَـه عـن مصيـري هـاهنـا كيـف يكـونُ
هـو لا يعـرف مـنْ أيـنَ أتـى فـي رحـابِ الكـونِ منبـوذٌ مَهِيْـنُ
مـا حيـاةُ النـاس إلا سكـرةٌ وهـي فـي اليقظـة أو فـي الحُلْـمِ
لا تُضِـعْ عمـرك فـي تفسيـرهـا كثـرةُ الحيـرة مـوتُ الهِمَـمِ

* * *

فـرحـي تفجَّـر مـنْ قـدمـي إلـى رأسـي

---

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الّذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبّه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبّه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربّاني الجزء الأول ، ص٣٢) .

والقـــــومُ تطلـــــــب أنْ أنْسَـــــلَّ مِــــنْ نفســـــي
مـــــا ســـــرُّ قلبـــــي ؟ آهْ لضميـــــــره العـــــذبِ
وسمــــــوٌّ نظــــرتـــــه فـــــي سكـــــرة الحـــــبِّ
لا أرتضـــــــي بـــــــدلًا عـــــن قلبـــــي المجنـــونْ
بكنـــــوزِ قـــــارونِ وعلـــــومِ أفـــــلاطـــونْ
معـــــراجُ سيِّـــــدنـــــا علـــــمٌ عظيـــــمُ الشـــــانْ
بـــــدتِ السَّمـــــاء بـــــه فـــــي عـــــالـــمِ الإنســـــان
لابـــــدَّ يُـــــذهِشُنـــــا مـــــا كـــــان يُحْتَمَـــــلُ
فـــوجـــودنـــا هـــــذا مـــــا زالَ يَكْتَمِـــــلُ
فـــــي كـــــلِّ آونـــــةٍ نُصْغـــــي إلـــــى إعـــــلان
يلغـــــي خـــــرافـــــاتِ مـــــن ســـــالـــف الأزمـــان
ألهتـــــك أوربَّـــــة بـــــالسِّحـــــر عـــــن ذاتـــــك
إيَّـــــاك أن تـــــرضـــــى عـــــن كَسْـــــرِ مـــــرآتـــــك
لا تتـــــرك الـــــرُّومـــــي[1] ولهيـــــبَ حـــــرقتـــــه
فـــــدواؤك الشَّـــــافـــــي فـــــي نـــــارِ نَظْـــــرَتِـــــهِ

---

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقادمة فإنها لا ترتكز على وهم ، وإنما تحمل قيمةً معرفيةً كاملة .
والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجةٍ مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .
ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريرة التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أو مـــــا اسْتَعَـــــذْتَ بـــــه ... مـــا ضـــاعَ مِـــنْ نَفَسِـــك
إيـــــاك كنـــــت تـــــرى ... جيحـــون فـــي كـــأسـك

(٤)

ألا يـــا عـــالمـــاً فـــي المـــاء ... بيـــن التُّـــرب والأهـــواء
ظـــاهـــر ذلـــك الســـرِّ ... أنـــا أبـــديـــهِ أم أنـــت
وهـــذا الليـــلُ فـــي حـــزنٍ ... وحـــرقَتُـــه وحيـــرتُـــه
ولحـــنُ مـــؤذِّن الفَجْـــرِ ... أنـــا أعطيـــه أم أنـــت
نشـــاط الـــدَّهـــر يطلـــبُ مَـــنْ ... أنـــا أم أنـــت يثقِلُـــه
ويَحْمـــلُ عبئـــه يجـــري ... أنـــا أغـــريـــه أم أنـــت
غبـــارٌ نحـــن يـــا أعمـــىٰ ... ولكنِّـــي أعيـــي ذاتـــي
فحقـــلُ الكـــون لا أدري ... أنـــا أسْقِيـــه أم أنـــت

* * *

(٥)

كمـــا أنـــتَ لا تكتـــرثْ للسِّنيـــن ... وَسِـرْ فـي طـريقـكَ نحـو الأمـام
كمـــا أنـــت لا تُصْـــغِ للقـــائليـــن ... فلســـتَ لنجـــدٍ ومصـــرٍ وشـــام
تعـــالـــى جهـــادُ النَّـــزيـــه الغَيـــور ... تعـــالـــى يكـــونُ لنيـــل الحُطـــام
وجـــائـــزةُ الحـــرِّ غيـــرُ الخمـــور ... وغيـــرُ الغـــوانـــي وغيـــرُ الخِيـــام
علـــى الطُّغـــمِ يسقـــطُ مـــن لا يطيـــر ... ومـــن لا يحلِّـــق فـــوقَ الغَمـــام
إذا سلـــب الغـــربُ قلـــب الغَـــريـــر ... فســـرُّك يغـــزو مصيـــرَ الأنـــام
عصـــاك تُصَـــدِّع صُـــمَّ الجبـــال ... وتعـــرف سينـــاءُ صِـــدقَ الكـــلام
فـــدعْ تـــرفَ الغمْـــدِ مـــا للهـــلالِ ... علـــى فخـــره غيـــرُ شكـــلِ الحســـام
إمـــامُـــك يفقـــدُ معنـــى الخشـــوع ... ويَنْقُـــضُ نجـــواك عـــزُّ القيـــام
أمثلـــك يـــرضـــى بهـــذا الخنـــوع ... وتلـــك الصَّـــلاة وذاكَ الإمـــام

* * *

نسيبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ وحكمةُ الذَّوق تعلو حكمةَ الكُتُبِ
كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها سلَّمُ التَّصوفِ واللاّهوتِ والأدبِ
كنْ ثاقبَ العين في قلب الأسود لها جرحٌ فما لثُغَاء الشاة من عَتَبِ
جسَّ الطبيبُ بقلبي ما أكابِدُه فقال : ويحك ما تخفيه منْ طلب
تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ
وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه وليس هذ الذي في قلبك اللَّجِبِ
هذا الدمُ القِرمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد[١]
ويحثُّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدِّد في النَّشيد
الحورُ صفٌّ بعد صفٌّ والزهورُ مبعثرة
ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

---

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرُّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل ـ الأصل ـ من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .
يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة النَّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثَّـــوب أصْفـــرُ أصفـــرُ والثَّــــــوب أزرقُ أزرقُ
والقِـــرمِـــزيَّـــةُ قِـــرمِـــزيَّـــةٌ والتفـــــرُّدُ مُطْلـــــقُ
ألقـــى نسيـــمُ الصُّبـــح لـــؤلـــؤةً علـــى تـــاج الـــزُّهـــور
والشَّمْـــسُ نـــوَّرت النَّـــدى لتـــزيـــد مـــن ألـــقِ العُطـــور
مـــن هـــذه الغـــابـــاتِ قـــامَ الحســـنُ يبـــدأ رقصتَـــه
فـــي هـــذه الغـــابـــاتِ لا فـــي المُـــدْنِ نفهـــم قصَّتَـــهْ
اغْـــرَقْ بـــذاتـــك مـــا استطعْـــتَ فشـــطُّ بحـــرك فـــي حيـــاتـــك
إنْ كـــان يـــزعجُـــك انتســـابـــي فـــانتســـبْ لجمـــال ذاتِـــك
مـــا عـــالـــمُ القَلْـــبِ ؟ المحبـــةُ والمـــروءةُ والحمـــاســـةْ
مـــاعـــالـــم الجســـدِ ؟ التِّجـــارة والتملُّـــق والسيـــاســـةْ
يـــا أنـــتَ أنـــتَ إذا وَجَـــدْتَ غنـــى الفـــؤاد فَلَـــنْ تُـــرَاع
أمـــا غنـــى الأجســـاد فهـــو وكـــلُّ مـــا فيـــه ضَيـــاع
وإذا وَجَـــدْتَ القلـــبَ ثـــم أضعتـــه فـــالحـــقُّ أنَّـــك مـــا وَجـــدتَـــهْ
والحـــقُّ : أنَّـــك ضـــائـــعُ الخُطـــواتِ مـــن وهـــم تُصَـــدِّق مـــا ظننتَـــه
لـــلإنكليـــــز سيـــــادةٌ فـــي غيـــر قلـــبِ المسلـــمِ
مـــا فيـــه تـــأويـــلاتُ شيـــخٍ أو مســـائـــلُ بـــرهمـــي
لـــو كنـــتَ تَسْمَـــعُ للقلنـــدر حيـــنَ قـــالَ وحيـــنَ جلَّلنـــي حيـــاء
لمـــا انحنيـــتَ أمـــام غيـــرك صـــرتَ مـــنْ جســـدٍ ومـــن قَلْـــبٍ هبـــاء

(٨)

دَمُ المسلـــمِ النُّـــورُ فـــي دَرْبِـــه ومـــوهبـــةُ السِّحـــر فـــي قلبـــه
ويعتـــرفُ العصـــرُ أنَّ الجمـــالَ صَبَـــا وتَـــرَعْـــرَعَ فـــي شعبـــه
ولـــولا مـــدارسُ هـــذي الشُّيـــوخ وأحبـــارُ ســـوءٍ ورهبـــانُهـــا
لـــروّى المـــدينـــةَ ممـــا ارتـــواه وأورقَ بـــالحـــبِّ بستـــانُهـــا
صغـــارُ الشَّـــواهيـــن مـــا ذنبهـــا هُـــمُ علَّمـــوهـــا عنـــاقَ الغبـــارْ

هُمُ قتلوا القَلْبَ في صَدْرِها   هُمُ أبدلوها بهذا الشَّنارْ
ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحاتِ نِسرٍ وغدواتِ بازْ
ومفتي المدينةِ وادٍ سحيق   يضُجُّ بمصطلحاتِ الحجازْ
أنا لستُ أفهمُ هذي الكؤوس   ويؤسفني مثلُ هذا اللَّجاج
ومن كان يحسنُ نَحْتَ الصُّخور   ترفَّع عن أن يَصُوغ الزُّجاج
يقولون إقبالُ ماذا يريدُ   ومن أين جاء بهذا السُّلوكْ
سألتُ الدَّراويشَ عن سِرِّها   وألقيتُه في وجوهِ الملوك

(٩)

هو الحبُّ يمضي حِيالَ الحياة   يغنِّي نشيدة ألحانِهِ
ويرسِلُها في وجوه التُّراب   ويمنحُها بعض ألوانِهِ
يُغَلْغِل في الأرض أوتارَه   ويملأ هيكلَ إنسانِهِ
كما يَتَغَلْغَلُ لين النَّسيم   بسيقانِ زهر وقفطانِهِ
إذا المرءُ لمْ يَدْرِ ما ربُّهُ   تحوَّل عبداً لسلطانِهِ
ومنْ طلَبَ اللهَ لا مِنْ سواه   وأدركَ قيمةَ عِرْفانه
تحوَّل (دارا) له طالباً   و(جمشيدُ) من بعضِ نُدْمَانِه
يجاهدُ للقلب حرُّ الجهاد   وللبطن صعلوكُ أوطانه
وذاك يحصِّل سرَّ الخلود   وهذا يموتُ بميدانه
تمعَّن بقلبك واستثْنِهِ   ولا تسألِ الشَّيخ عن شانه
خلا حَرَمُ الله من أهله   فكنْ أنت جَذْوةَ أركانه

* * *

(١٠)

القَلْبُ يَنقُصُه الهوى   والعَيْنُ يَنْقُصها الصَّفاء
منْ لمْ يُغامِرْ مثلما غامرتُ تدهشه السَّماء
ما سرُّ طينتِك الَّتي   ذوقُ التَّجلِّي نقشُها

أَتَضِيعُ في وهم الحياة وأنت قلبك عرشَها
حاشا لأوروبة الَّتي جفَّت دموعُ عيونها
حاشا تنيرُ بقطرةٍ مُلِئَتْ بليلٍ ظنونها
هل يعرفُ الصوفيُّ والملاَّ حقيقةَ جذبتي
ضنُّوا بكلِّ ثيابهم وأنا أمزِّق جبَّتي
ما مزَّقا يوماً ولا حشواً ولا طرفَ الرِّداء
فاعجبْ لصُوفيٍّ وملاَّ يلجئونك للرِّياء
حتَّى متى يا طينتي تتوسلينَ إلى النُّجوم[1]
كانتْ نجوماً ثمَّ ضاعتْ خلفَ أوهامِ العلوم
إمَّا أكفُّ أنا وإمَّا أن تكفَّ عن الوجودِ
هذا الصِّراعُ الباردُ الواهي طريقٌ للجحودِ
ما دُمْتُ صاعقةً ففي الصَّحراء أعملُ والجبال
عُشْبٌ وقشٌّ يابسٌ لا يستحقَّان انفعالي
الكونُ ميزانٌ يكونُ لذي الشَّجاعة والجلادِ
للمؤمنِ الحقِّ المخاطر بالحياة لما ينادي
حاشا لمن (لولاك)[2] في يده يرى شيئاً منيعا
ما مؤمناً منْ لمْ يكنْ للكونِ علته جميعا

***

(١١)

ألفُ خوفٍ ولا قيامُ لساني بحديثٍ مما يُكَذِّب قلبي
عندما قلت للقلندر[3] هذا قال : أحسَنْتَ إنَّ ذلك دأبي

---

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .
(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .
(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في =

= عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريزي ذلك بتصرف في الخطط (٢/ ٤٣٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٤/ ٢٩٢) . النعيمي (٢/ ٢٠٩) معجم البلدان (ساوة) ، تلبيس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ٣/ ١٩١ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ١/ ٤٨ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣/ ٣٨٩ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (١/ ٣٥٣). والعبر (٥/ ١٤١) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحّص رأي دائرة المعارف الإسلامية « النسخة الفرنسية » من أنَّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية .

كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . « النسخة الإنكليزية » والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و« شاه نامه » الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية .

فثمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنَّ الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي . =

الـــذي يَحْشُـــد الجمـــوعَ بحـــانٍ ... ظُـرْف ساقٍ مُنَشَّـأٌ فـي الخـلاعـةْ
خَــورُ القلـــبِ لا يــداويــهِ رازي ... رغـمَ مـا فـي كـلامـه مـنْ بـراعـةْ
المـــريـــدُ البسيـــطُ وهـــو نقـــيٌّ ... يُـرفِـقُ التَّـوبـةَ النَّصـوح بكـاء
اســـأل الله نعمـــةً مثـــل هـــذي ... للشُّيـــوخ الَّتـــي تمـــوت ريـــاء
ربّ مـــا زال نجـــلُ آدم هـــذا ... إسـرَ وهـــمٍ وشعـــوذاتٍ قـديمـةْ
صنـمُ النَّفـس تحـت إبطيـه يُضْفـي ... حُلَّـة النَّصـر فـوق شـرٍّ هـزيمـةْ
لستُ فـي صـرختـي أبـرِّىء نفسـي ... فـاحتـراف الإيمـان روحُ الشَّجـاعـه
وأنـــا ، كـــلُّ تهنـــآتـــي (لمـــلاّ) ... يـدَّعـي حمـلَ مثـلِ هـذه القنـاعـةْ
مـــؤمـــنٌ لا يكـــون للحـــبِّ أهـــلاً ... مـؤمـنٌ فـي الجحـود جـدُّ عـريـقِ
وإذا الكُفـــرُ صـــادفَ الحـــبَّ يـــومـــاً ... قـــاده الحـــبُّ مـــرغمـــاً لطـريقـي

(١٢)

أو لا تـــزال مســـافـــراً تســـري ... وتَغُـــرُّك الـــدُّنيـــا بمـــا فيهـــا
والعصـــرِ إنَّ القـــوم فـــي خُسْـــرِ ... وســـلِ الطبيعـــةَ عـــن فيـــافيهـــا

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج٢ ص٣٠٤) .

ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .

ويتوسَّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناي وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلُّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أأنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافقُ في نقائصه لا زاهداً حقًّا ولا ملكا
وترى الموفَّقَ رغم محنته مَلِكاً يُبَجَّل أينما سلكا
كفُّ المنافق لا تساعده في حمل سيفٍ يَبْعَثُ الفرقا
والمؤمن الصدِّيق محنتُه قدرٌ يشوبُ سيوفَه ألَقا
ما للمنافقِ مِنْ إرادته حزٌّ ولا مِنْ صَوْلةِ القَدَرِ
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً مُتعلِّلاً بالعِلْمِ والنَّظَرِ
المسلم المغوار حجَّتُنا نرمي بها الجهلاء بالدِّين
في نفسه أقدارُ أمَّتِه متستِّرٌ في زيٍّ مسكين
حتى تحسَّ بما أكابده مزَّقْتُ أسراري إلى الأبدِ
وجذورُ غفلتك التي سَكِرَتْ لا أستطيع بلوغَها بيدي

(١٣)

الحورُ في الغرب سكرُ القلبِ والبَصَرِ فاهدأ قليلاً وكنْ منها على حَذَرِ
بحرُ الوجود تعالى أن نحيط به وبعضُ ما فيه موجُ الشَّمْسِ والقمر
حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر
صوفيُّنا خلفَ لاهوتيٍّ أديرةٍ يريد يستبدلُ البخُّور بالحَجَرِ
والمنبرُ اليوم والمحرابُ قد فرغا من صيحةِ الحقِّ أو من صرخةِ السَّحر
أين الأذانُ الذيْ كانت تميد له روحُ الجبال وأينَ الصَّعْق في الصُّور
طوَّفتُ في أمَّةِ الصحراء أسألها فإذ بها أمةُ الصَّحراء في خَوَرِ
رأيتُهم في سجودٍ لا اتجاه له وماله في وجوهِ القومِ من أثر
مهلاً فقرطبة الحمراء ما بَرِحَتْ تلوحُ بين دخانِ الغَرْبِ بالشَّرَر
حماسةُ الشِّعر هذا من شبيبتها تفوحُ رَغْمَ حروبِ الكُفْرِ والأشَرِ

* * *

(١٤)

يَقِظٌ كما الفاروقُ يقظةُ قلبِه يقظٌ كمِثْلِ المرتضى في حربِهِ

حجرُ الفلاسفة المجرَّب مثله يستخرجُ الذَّهبَ الدَّفين بتربِهِ
أيقظ فؤادَك إنَّ عُمْرَكَ ضائعٌ ما دام قلبُك غارقاً في حجبِهِ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده إنْ لم يذقْ ذوقَ الكليم بضربِهِ
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ إنْ كانَ لم يَصْحَبْك مُزهَفُ شَمِّكَا
وغزالُنا التَّتريُّ لستَ تصيدُه مهما نصبتَ له حِبَالةَ وهمكا[1]
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُك الَّذي عصفتْ بطيبةِ نفسه الرُّهبانُ
أيروحُ في طلبِ الشواطىء مخطئاً والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي للمُسْلِم المطروحِ حول منارِهِ
كُتِمَتْ مخافةَ برهميٍّ لم يزلْ يخفي شرارته بمعبد نارِهِ
فإلى متى صمتي وحولي أمَّةٌ يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِه وكلاهما مما تكدّ يعيش
سمحتْ حضارتُنا الحديثةُ هذه للنَّاس يتَّجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها حرّيةٌ والواقعُ استعبادُ
مولاي خُذْ بيدي ليشربَ إنَّه بترابِ يشربِك المطهَّرِ مرهمي
ضيَّعْتُ معرفتي وإيماني على شكِّ الفِرَنج ووسوساتِ البرهمي

* * *

(١٥)

عيونُ اللَّذات دافقةٌ خلال الدرِّ والصَّدف
بغيرِ تصنُّعٍ منها ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانتْ لها أسلوبها في الهَجْر والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها وذلك منتهى الذَّوقِ

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أتطلبُ جيفةَ الغربانِ هاتيكَ الشَّواهينُ
إذا أخفَقتْ مخالبها فأعينُها سكاكينُ
متى الأوتار تلهبُها بلوعةِ ذلكَ الحبِّ
فَنَغمةُ صورِ إسرافيلَ لا تفتنُ في القلبِ
أتيتُ الغربَ لم أعبَأْ بسكرةِ دلٍّ ساقيها
كرامُ النَّاس لا تشجو على مرأى أعاديها
غزاةُ العصر ليس لها على عشَّاقنا عونُ
وما من عاشقٍ إلا له من حبِّه كونُ
غيابٌ كالحضورِ به من الهيجان أدومُهُ
لعلَّ الهجر للجُرحِ الذي في الوَصْل مرهمُه
ولولا ذاك عانيتُ ما عانيتُ من غُصَصي
ولو أنِّي ظَفِرتُ به رجعتُ ولم تَطُلْ قِصَصي !
إذا أحببتُ تلمُسه فذلكَ فيضُ أشجاني
أقمْ في عزلةٍ واقرأ (مزاميري بإيرانِ)[1]
ولا يحزنْكَ ما تقرأ من شطحي ومن مَيْلي
يقال : يَرُنُّ صوتُ السِّرِّ في منتصفِ الليلِ !

(١٦)

شبابٌ قعودٌ رقودٌ نيامْ لعجزِ الأميرِ وفوضى الجنود
فواأسفاً كيفَ هذي السِّهام تطيشُ بلا هَدَفٍ في الوجود
يقولون بحرٌ عميقٌ عميقْ وما أضيعَ البحرَ ما أضيعَهْ
بحثتُ به موجةً موجةً وقلَّبتُ قوقعةً قوقعهْ
أما آنَ تهجرُ أصنامَهم أما آن تخرجُ من قُمْقُمِكْ

---

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغـــايـــةُ أصنـــامهـــم أنَّهـــا تـــزخـــرفُ هيكلَهـــا مـــن دَمِـــكْ

أنـــا كيـــفَ أجهـــرُ هـــذا المســـاء بســـرٌ كهـــذا الـــذي أهتِكُـــهْ

وشغـــلُ الحكيـــم بهـــذا العـــراء كشغـــلِ المحـــبِّ بمـــا يُهلكـــه

هـــو الحـــبُّ ينسيـــك وقـــعَ الجِـــراح وتَفْضَـــحُ ســـرَّك آثـــارُه

ومـــا الحـــبُّ إنْ لـــم تمـــت عـــزّةً ومـــا العيـــش جَلَّلَـــهُ عـــارُهُ

أنـــا لـــم أرَ السِّـــرَّ لـــوْ لَـــمْ أنـــلْ طـــريقـــةَ رومـــيٍّ وأحـــوالَـــهُ

ومـــنْ بَـــدْءِ تلمـــذتـــي قـــال لـــي ومـــا زلـــتُ أحفـــظ مـــا قـــالَـــهُ

رأيـــتُ فـــلاسفـــةً بـــالألـــوف رؤوسهُـــمُ تحـــتَ أطمـــارهـــا

وذو الـــوحـــي يَـــرْفَـــع مـــنْ رأســـه ويكشِـــفُ أوهـــام أفكـــارِهـــا

إذا خُضْـــتَ معـــركـــةً فلْتكـــنْ كمـــوســـى بخطـــوتـــه الضَّـــاربـــهْ

فَمِـــنْ ﴿ لا تخـــف ﴾ شعلـــةٌ لـــم تـــزل تصـــاعـــدُ فـــي الأجمـــة الـــلّاهبـــهْ

بـــريـــقُ الحضـــارة أوجُ التَّـــرف لـــدى الغـــربِ لـــم يستطـــعْ فتنتـــي

أنـــا ابـــنُ المـــدينـــة وابـــنُ النَّجـــفْ غبـــارُهمـــا كـــانَ فـــي مُقلتـــي

غبـــارُهمـــا قطـــرةٌ للعُيـــون وأنفـــعُ طـــبٍّ لـــذي علَّـــةِ

مقيـــمٌ بـــرغـــمِ ريـــاحِ القُـــرون ومـــا كـــان مـــن مستبـــدٌ عتـــي

(١٧)

كـــانَ الشِّتـــاء كمثـــلِ السَّيْـــفِ حـــدَّتُـــهُ وكان طَرفُ الهوىٰ في مَيْعَةِ الولعِ

أيـــامَ لنـــدنَ مـــاخـــورٌ لطـــالبهـــا بمـــا تضـــمُّ مـــن الحـــانـــات والبِيَـــعِ

أيـــامَ كنـــتُ صـــلاةَ الفجـــر أبعثُهـــا على الصَّقيع بمرأى الفاجرِ الهلِع

ما لي هنا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي يثيـــر فـــي حتمـــه آلام مجتمعـــي

وكيفَ كانتْ هناكَ النَّاسُ تُنكِرُني وتـــدَّعـــي أنَّ هـــمَّ الشـــرقِ جـــاء معـــي

أيـــام آلـــت مقـــاليـــدُ الأمـــور إلـــى مـــا تـــدَّعيـــه يـــد العُمَّـــال مـــن شُـــرعِ[1]

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤م ، =

فكـان فـي دربِ قُطَّـاعِ الحجـارة مـا — لأبـرويـز مـن التَّـدليس والطَّمـع[1]

يـا لعبـةً مـن دمقـراطيـةٍ طَلَبَـتْ — عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ

كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها — إنَّ السيـاسـةَ جنكيـزيـة الجَشَـعِ

ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها[2] — فكنـت بينهمـا فـي ملتقـى وجعـي

كـلا الـدروس لهـا سحـرٌ وأبَّهـةٌ — ربَّـاه عفـوكَ قـد أبْعَـدْتَ مُنتجعـي

(١٨)

استفتِ قلبكَ كيفَ المسجدُ افترقا — وكيـف نخـرج مـن محـرابـه فِـرَقـا

وأيـن ذو جَلَـدٍ منهـم يمـرُّ بـه — تقـوى طـويّتُـه إنْ تكتـمِ الحُـرقَـا

الحبُّ ، يَعْـرِفُ مـن زلَّـت لـه قـدمٌ — بـأنَّـه أقصـرُ الأشيـاء أزمـانـا

وأنَّـه جـرحُ سهـم إنْ صبـرت لـه — أوتيـتَ مـنْ جُعْبَـةِ الصَّيـاد سُلوانـا

ضـاعـتْ عقيـدةُ قـومٍ فـي مصـادمـةٍ — بـاثنـي وسبعيـن وادٍ مـن معـانيهـا

هيهـاتَ يُـدْرِكُهـا مـنْ لَيْـسَ فـي دمـه — وجـدٌ يـؤلِّـف قـاصيهـا ودانيهـا[3]

درسُ الشَّريعةِ غيرُ الوَجد وهو كما — رأيـتُ مُنْتشـرٌ فـي جُمْلَـة الفِـرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهلم إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُتَيَّمْ بها أبرويز فسوف يتيّم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمرالمائدة المستديرة ، الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وأنَّــه وكمــا نَمَّــتْ تجــاربُنــا | إسلامنا الغير مكتوب على الورقِ
غصنُ اليقين الرَّطيب الوَجْدُ ينبتهُ | ولا يفــوحُ بغيــر الــوَجْــدِ معنــاه
فقــل لــذي هِمَّــةٍ بــالــدرسِ مجتهــدٍ | هيهــات تبلــغُ بــالأوهــام مغنــاه
الحــبُّ فــي قحــة يحلــو وفــي سفــهٍ | فكــنْ بحبِّــك فــي هــذيــن سكِّيــرا
ولا تكــونــنَّ ذا حُــبٍّ بــلا سفــهٍ | فــإنَّ ذلــك لا يجــديــكَ قِطْميــرا
لن تهدأَ الرِّعْدَةُ الملقاةُ في خَلَدي | ولــن تــراقــبَ يــوم الحشــر ذا جــاهِ
إنْ لــم تَشُــقَّ بسيفِ السُّكــر جذبتها | شقَّــت أمــام البــرايــا معطــفَ الله[1]

(١٩)

الــزُّهــد إخضــاعُ هــذا الطِّيــن والشَّــرر | وليس في بُعْدنا عن عالمِ البشر
فقــل لصــوفيَّــةٍ بــالفقــر راضيــةٍ | هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخور
ومــا عليــك إذا أنكــرت مَــذْهَبَهــم | وقلتَ : أطلب منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ
فالزُّهد والملكُ لا يُسْتحسنان لمن | أضــاع أمجــاد تيمــورلنــك فــي سمــر

* * *

يا حبَّذا يغفلُ السَّاقي الجميلُ فلا | يليــقُ بــالقــول هــذا جسمُــه القمــري
إنَّ الــرِّفــاق إذا جــاشــت قــرائحُهــم | وأيقــظَ الطَّيْــشُ منهــم رَقْــدَةَ الفِكَــرِ
خاضوا بكلمة (عفواً) ما يروقُ لهم | ومــزَّقــوا ســرَّهــم فــي ثــوب معتــذر
أفيلســـوفٌ وصـــوفـــيٌّ ومجتهـــدٌ | في سكرةٍ من كؤوس السَّمعِ والبصر
ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفاً | من روح ذي طمحٍ في عين مُنْبَهِر
كــانــت بــزاويــةِ الأقفــاصِ بغيتُهــم | لــو أمعنــوا قبــل هــذا التيــهِ بــالنَّظــر

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
لن تسكني رعدتي حتى في يوم الحساب ، إما أن تشق ثوبها أو أن تشق معطف الله !
يريد الشاعر أن يقول : لن أضحي بهذه الرعدة التي تمتلكني ولا بدّ لي من أن أجد من يُصغي إليها ولو لم يبقَ إلا الله فإنني سأتمسك بمعطف كبريائه ولن أبرح حتى أشقه بجذبتي أو يمحوها بخمره . (انظر ص١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سجنُ التَّفلُّتِ لا قضبان تُمسِكُه ... ورُبَّ غلٍّ خفيٍّ بالغ الأثر
تغنيكَ إنْ حرتَ فيما قلتُ تجربةٌ ... فما التَّجارِب إلا مرهمُ الحِيَرِ
انظرْ خرابَ فؤادِ الغَرْبِ يأكلُه ... وعقلُه في كمالٍ وافرٍ بَطِرِ
يقوده العقلُ في نهرٍ يفجِّره ... وخَلْفَه قلبُه يمشي على كَدَرِ

***

(٢٠)

رُغْمَ أنّ العقل لا يمنعُه قربٌ وبُعْدُ
إنَّه والحق : ما أُهِّلَ للحَضْرةِ بَعْدُ
اسألِ الله تعالى والتَمِسْ عيناً لقلبك
إنَّها أثمنُ ما تكسِبُه من فَضْلِ ربِّك
أنا لا أنكرُ أنَّ العلمَ للنَّفس حُبُور
هو فردوسٌ ولكنْ فارغٌ ما فيه حورُ
ما أحقَّ النَّاس بالرأفة من عصرٍ سفيه
ليسَ في العالم قلبٌ يجدُ الغِبْطةَ فيه
إنَّه صحوٌ بآنٍ واحدٍ هذا الجنون
ذلكَ النَّوعُ جنونٌ ما له صحوٌ يكون
قلقُ القلب غذاءٌ وعطاءٌ حيويٌّ
إنَّ قلباً ليس فيه قلقٌ ، قلبٌ شقيٌّ
أنت للحَضْرة سرٌّ ما لها سرٌّ سواك
إنَّها إنْ كُنْتَ حيّاً حيثما كنتَ هناك
كَسَّرَ اللؤلؤُ كَسْراً كلَّ أصدافِ البُحور
فلماذا أنتَ يا لؤلؤتي تأبى الظُّهور
مسلمٌ أنْتَ وقد ألهبتُ سينائي عليكَ ؟!

أولا يـــزعـــج قـــولـــي : ﴿ أرنـــي أنظـــرْ إليـــكَ ﴾[1]

(٢١)

إنَّهـا الـذَّاتُ إن تمعَّنْتَ بحـرٌ ... مـالـه سـاحـلٌ لِخَـوْضِ جبـانِ
ومحـالٌ تكـونُ جـدولَ أنـسٍ ... ومحـلاًّ لجمـع أهـل الهـوانِ
رُبَّمـا تكسـر السَّمـاء بفـأس ... فبنـاءُ السَّمـاء سبـكُ زجـاج
والـذي يجعـلُ البحـارَ بحـاراً ... تُتَّقـى أنَّهـا محـلُّ الهِيـاجِ
لا يطيـق الجبـان لجَّـة ذاتٍ ... ويغـوصُ الشُّجـاعُ فيهـا ويطفـو
وقـوام الشُّجـاع ليـس علـومـاً ... تَـرِبَ العلـمُ فـالشجـاعـةُ لطـفُ
كيـف يستـوعـبُ المنجِّـمُ هـذا ... بطـريـقٍ مكبَّـلٍ بـالنُّجـوم
أنـت مـن طينـةٍ يحـكُّ عليهـا ... سـرُّك الحـيُّ زيـفَ كـلِّ العلـوم
إنَّ فـردوسنـا علـى الأرض هـذي ... فيـه جبـريـلُ لا يغيـبُ وحـورُ
حبَّـذا أنْ تكـونَ ثـاقـبَ عيـنٍ ... حجـرُ العيـن فيـه مـاءٌ ونـورُ
بجنـونـي فهمـتُ عصـري تمـامـاً ... وتحمَّلْـتُ وقعـةً بعـد وقعـه
ألْبَـسُ الـدِّرْعَ مـن نسيـجِ جنـونـي ... ليـس ثـوبـاً مـرقَّعـاً ألـفَ رُقْعـهْ
إنَّ شـحَّ الطبيعـة اليـومَ هـذا ... وهـيَ مـن طبعهـا السَّخـاءُ لَعَـارُ
لليـواقيـتِ كـاللَّهيـب احمـرارٌ ... شكـلُ نـارٍ وليـس فيهـا شـرارُ

(٢٢)

جـاءَ مـنْ نَسْمَـةِ الصَّبـاح كتـابٌ ... وأنـا جـالـسٌ علـى عـرشِ ذاتـي
فـإذا فيـه : مبصـرَ الـذَّات أقبـلْ ... صـرتَ فـي رتبـة الملـوكِ الكُمـاةِ
شـرفُ الـرأي ذاكَ جـاءكَ منهـا ... والحيـاةُ الكـريمـةُ المستقيمـه
وحيـاةٌ تكـونُ مـن غيـر ذاتٍ ... أيُّ معنـىً لهـا وأيَّـةُ قيمـة

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أيُّها الفيلسوفُ دعكَ وشأني ... فأنا مدركٌ إلى أينَ أمضي
لستَ مثلي مسافراً كيف أشكو ... لكَ دربي وأنتَ في غَيْرِ أرضي
ليس سهلاً إذا الدَّراويش حجَّتْ ... من بعيدٍ إلى مدارسِ شعري
القضايا دقيقةٌ فاستلمْها ... واقضِ في أمرها إذا كُنْتَ تدري
لستُ أخفيك أنَّني لم يَرُقْ لي ... ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الصَّوامع
لا يصيد[1] العنقاءَ صيَّاد سوءٍ ... مُلِئَتْ نفسُه بذلِّ المطامع
طِرْتَ أم غُصْت في سماءٍ وبحرٍ ... أم تراجعتَ عنهما وجَبُنْتَ
ليس يدعو إلى الرِّثاء وجودٌ ... كالوجودِ الذي تعانيه أنتَ
وسواءٌ ، فلا تقل عربيٌّ ... كنتَ أو لم تكنْ فليس يُفيدُ
سترى الذكرَ أجنبيّاً إذا لمْ ... يَكُ للذِّكْرِ في الفؤاد شهيدُ

* * *

(٢٣)

النخلة الشمَّاءُ أختُك كُوِّنتْ ... مما تبقَّى من بقايا طينتِك[2]
أتطوفُ في الحاناتِ تسقي كأسَها ... وتطوفُ مخنوقاً بعلمانيتك
ما في مدارسِك الَّتي ترتادُها ... إلا بحوثُ مغفَّلٍ وبليد
سرُّ الدِّراسةِ في فؤادك كامنٌ ... لو كنتَ تُتْقِنُ صَرْخَةَ التَّوحيد

---

(١) يرى الدكتور كفافي أن اصطياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العِرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الّذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .
يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملُوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الّذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لـم تبـق يـا مسكيـنُ إلا فـرصـةٌ ... لـك فـي استعـادة سِـرِّكَ المفقـودِ
اطلـبْ علـومَ القلـب مـن أستـاذهـا ... واجهـدْ لنيـل مقـامِـكَ المحمـودِ

***

إن كـان زيُّـك زيَّ سلطـانِ ... أو كـان زيُّـك زيَّ مسكيـنِ
فغِطـاؤنـا لا رأسَ يَحْمِلُـه ... فيليـق إلا رأسُ شـاهيـنِ
ليـس النُّجـوم بـرغـم لعبتهـا ... مسـؤولـةٌ عـن هـدم أمجـادكْ
بـل مـوتُ ذاتِـكَ بعـدمـا شَقِيَـتْ ... مـا بيـن قُمْقُمِهـا وأصفـادِكْ
أنـا آسـفٌ جـدّاً ويُحـزِنُنـي ... غضبـي علـى ديـري ومـدرستـي
ضـاعـتْ هنـاك بصيـرتـي وذوى ... حبِّـي وأظلـم دربُ معـرفتـي

***

(٢٤)

دواءُ البصيـرة ـ هـذا الـدواء ـ ... رجـاؤك فـي كشـفِ داءِ البصـرْ
ومـا العقـلُ إلا جـدالُ العلـوم ... وحـربُ الظُّنـونِ ورجـمُ النَّظـر
مصيـرُكَ أرفـعُ مـنْ وقفـةٍ ... وأوّلُ معنـاه ذوقُ السَّفـر
وسـرُّ الـلآلـىء خُلْـدُ البـريـق ... وإلا فمعـدنُهـا مـن حَجَـرْ
ومـا هـي جـدوى دمٍ فـي العـروق ... إذا كـانَ يطفـىءُ نـارَ الفِكَـرْ
فقـلْ للشَّقـائـق فـي خِـدْرِهـا ... تجلَّـيْ فـإنِّـي نسيـمُ السَّحَـرْ[1]
ومـا عـدَّه الغـرب سقـطَ المتـاع ... بمـذهبنـا رأسُ مـال الظَّفَـرْ
يقـولـون إقبـال فـي فقـره ... غنـيٌّ علـى أيِّ كَنْـزٍ عثـرْ
وعـالمُـهُ لَهَـبٌ كلُّـهُ ... ولا يمنـحُ النَّـاس إلَّا الشَّـرَرْ[2]

---

(١) المقصود قل لهذه المتعلمنة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالًا وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

(٢٥)

أعيـنُ الـدَّرويـش لـم تعبـأ بمـا | أظهـرتْ أبَّهـةُ الإسكنـدرِ
هـذه التِّيجـان مـا قيمتُهـا | وهـي تستجـدي نسـاءَ البيـدرِ
كيـف لا تيـأسُ تـرجـو صنمـاً | ومـنَ الله تعـالـى تيـأَسُ
أنـتَ هـل تعـرف كفـراً آخـراً | غيـر هـذا أيهـا المنتكـسُ
أنـا لا أفهـم مـا قصـدُ السَّمـاء | وهـي بـالسُّلطـة لـو شـاءتْ تطيـح
تهـبُ السُّلْطـةَ مـن لا يملكـون | أيَّ مفهـومٍ عـن الشَّعْـبِ الجـريـح
وحـدَهـا النظـرةُ مـا أطلبُـه | وشـؤونَ القَلْـب عنهـا تَصْـدُرُ
نظـرةٌ خـاليـةٌ مـن جـذبـةٍ | نظـرةٌ فـارغـةٌ لا تَسْحـرُ
وأنـا مـنْ أجـلِ هـذا كلِّـه | بـاعتـزالِ القَصْـر محكـومٌ علـيّ
أنـا لا أجهـل مـا تَقْصِـدُه | ومصيـرُ الكـلِّ معلـومٌ لـديَّ
مـع هـذا لا أرى مـنْ زاهـدٍ | مـالـهُ مِـنْ طَمَـعٍ فـي السُّلطـةِ
أنـا لا أقتـلُ ذاتـي هكـذا | أنـا حـرٌّ سُلْطتـي فـي خِلْطتـي
وحيـاتـي عنـدمـا شـرَّدتُهـا | أرْضَـتِ النَّـاسَ جميعـاً كَلِمـي
قيمـةُ الأشعـارِ هـذي أنَّهـا | خطـراتٌ فـي قلـوبِ الأُمـمِ

* * *

= للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسيأتي قوله :

حطـب المـوقـد الغليـظ ممـلٌّ | وأنـا رغبتـي بحـرق الـدقـاقِ
أنـا لا أمنـح الحصـاد لحقـلٍ | عملـي الفـرد والـوحيـد احتـراقـي

(٢٦)

لستَ لهذي الأرضِ والسَّماءِ
وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لكَ

ولستُ موضوعَهُما وإنَّما
هذان جانبانِ منْ موضوعِكَ

تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القَلْبِ
شرارتان من لهيب الحبِّ

والعُشْبُ موجودٌ ليحرقاهُ
في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّحْبِ

والرُّوض هذا بقعةٌ تصطفقُ
بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ

أعشابهُ ليستْ لصنعِ عشٍّ
كلُّ الجمال عندما تحترقُ

حتَّى متى مركبُ هذي الذَّاتِ
يمخُرُ في النِّيل وفي الفُراتِ

قُدِّرَ أن يركبَ بحراً ماله
من ساحلٍ في هذه الحياةِ

فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ
بأنْ يدلَّها المدارُ الحائرُ

ركَّابُهم بالرُّغم من نشاطها
يَنْقُصها اليومَ دليلٌ ماهرُ

ألحاظُ موهوبٍ وعينٍ ثاقبه
وسحرُ ألفاظٍ وروحٌ لاهبه

كلُّ الَّذي يملكهُ منْ عُدَّةٍ
قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه

فيا لحسنِ فارسٍ ووحيهِ
وبالكأسِه وبالغصَّتي

بحثتُ طولَ العُمْرِ في بستانه
فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتي

تَرْقُد في حَنْجَرتي أغنيةٌ
لو قلتُها لحيَّرت جبريلا

أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً
هناكَ سوفَ أنْقَعُ الغليلا

* * *

(٢٧)

لستَ يا أنتَ في الفضاء سجيناً
لستَ دمعاً على منازلِ رسمِه

يَشْهدُ الحرُّ أنَّ سرَّ التَّجلِّي
بين صَلْصَاله وهيكلِ جِسْمِه

لا يخاف البستانُ شَهْرَ خريفٍ
فلماذا مَلأتَ بالخوف عشَّكْ

يرقص العشُّ في السَّماء لهيباً
عندما تحرِقُ الصواعقُ قشَّكْ

الحياةُ الحياةُ لفظةُ سرٍّ
ملأتْ عالَم القَلَنْدرِ طيبا

إنَّهـا السَّهـمُ منـذ كـانـت رَمْتُـهُ ومـن القـوس لا يـزالُ قـريبـا
لا تعيـقُ النُّجـومُ سـرَّك هـذا فسمـاءُ النُّجـوم غيـرُ سمـائـك
أخـطُ فـي المـوقـع الـذي أنـت فيـه لتـرى زرقـةَ السَّمـاءِ بمـائـك
لا تقـلْ للـدَّليـل دعنـي لـوحـدي إنَّ أمـراً كمثـلِ هـذا بـديهـي
لا يطيـقُ الكـريـمُ ذلَّ سـؤالِ فـاجتهـدْ وَحْـدَكَ اجتهـادَ فقيـهِ

***

(٢٨)

تـأمُّـلُ فيلسـوفٍ كـلُّ مـا أعطـانـيَ الفِكـرُ
ولـولا الحـبُّ مـا أدركـتُ مـا يضَمَّـنُ السَّكـرُ
ونظـرتُـهُ هـي الشَّـررُ المُشِـعُّ بمحفـلِ القلـب
بـلا دنٌّ ولا خمـر تـدور كـؤوسُهـا جنبـي
تظـنُّ تنـافُـر الكلمـاتِ مِـنْ شعـري ومـنْ أدبـي
فحـانتـا علـى علـمٍ بمـا مـزَّقـت مـنْ حُجُبـي
إليـكَ البـرعـمَ الظَّـامـي لِمَقْـدَم نسمـةِ الصُّبْـحِ
تـأمَّلْـه تجـدْ فيـه حكـايـةَ ذلـكَ الجُـرْحِ
غيـابٌ أم حضـورٌ لسـتُ أدري مـا أكـابـدُه
فهـلْ مـن بينهـم أحـدٌ يشـاهـدُ مـا أُشَـاهِـده
هنـا يـا أنـتَ كـلُّ النـاس يعـرِفُ بعضُهـم بعضـا
هنـا إلا أنـا فيهـم غـريـبٌ يُنْكِـرُ الأرضَـا
وكنـتُ بقصـرِ أوريَّـة مـن المُمْكِـنِ أن أبقـى
شـريطـةَ تحمُّـل الصَّحـراء حيـن أُجـنُّ مـا تلقـى
مضـى إقبـالُ هـونـاً فـي دروبِ الفِكْـرِ واجتـازا
ولمـا جـاءَ دربَ الحـبِّ مـالَ القلـبُ وانحـازا

(٢٩)

وأخيراً انتبهتُ ولبّتْ صَرختي هذي السَّماءْ
وسمعتُ ما قالوا : أخيراً سوف يَنْكشفُ الغِطاء
للعاشقين حكايةٌ وتكاد تتَّفِقُ الحكايه
نارٌ وحزنٌ وانفجارٌ في البدايةِ والنِّهايهْ
فانظرْ إلى قَدَرِ الشُّعوب وكيف يبدأُ بالسُّيوف
فإذا انتهى فإلى المزامير الشَّجيَّة والدُّفوف
حاناتُ أوربَّة كذلك والغريبُ طقوسُها
السُّكْرُ يبدأ أوّلًا   وتدورُ بعدُ كؤوسها
سِيَّانِ تيمورلنك في سُلْطانه سلطانِ نادرْ
الكلُّ تسقطُه أخيراً سَكْرةُ الزَّمنِ المُبادرْ
ولَّى زمانُ الوَحْدة المطروح في دَرْبِ الفناءْ
خرجتْ أخيراً من صدور الغَيْم عاصفةُ البقاءْ
لم يتحمل موجةَ الشَّطحاتِ هذي أيُّ ساحل
هتكْتَ يا مجنونُ أسرارَ الكتابِ بغيرِ طائل

(٣٠)

يرحلُ كلُّ كائنٍ ويذهبُ   حوتٌ وطيرٌ ، لجةٌ وكوكبُ
وأنتَ أنتَ فارسُ الميدان   وقائدُ الجيوشِ في الزَّمان
يا سيِّد الجبالِ والصَّحراء   جندُك في الأرضِ وفي السَّماء
أهكذا قيمتُك الذَّاتيه   هدرتُها وروحُك الفتيَّه
فيا لها بصيرةٌ في كدرِ   ويالـه من قِصَرٍ في البصرِ
لا تعبدِ الأرضَ فإنَّها لكا   كنْ راهباً إنْ شئتَ أو كُنْ مَلكا
لا شكَّ فيما قُلْتُهُ ولا جَرَمْ   فقد رأيتُ اليوم سيِّدَ الحَرَم
قولٌ بلا فِكْرٍ ولا إشاره   وعملٌ تَنْقُصُه الحراره

كـلُّ شـيءٍ إلـى التَّجسُّـدِ يسعـى رغبـةً فـي النُّمُـوِّ يهلـكُ نفسَـهُ
وحيـــاةٌ بغيـــر ذوقٍ ظهـــورٍ يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهُ
قُـوَّةُ الـذَّات قـوةُ الـذَّات سـرٌّ يَهَـبُ النَّصـرَ فـي الحيـاة لأعـزَلْ
خَـوَرُ الـذَّات يجعـل السَّيـف عبثاً ويـرى فـي الجبـالِ حبَّـة خـردلْ
شـرَّدتْ نفسَهـا النُّجـومُ ولكـنْ ليـسَ يعنـي ضـلالـةً واختـلاطـا
لفـراقٍ يـؤولُ كـلُّ وجـودٍ ليس عـن صُـدْفةٍ وليس اعتباطـا
يظهـر البَـدْرُ آخـر الليـل فـردا أصفـرَ الـوجه في السَّمـاء وحيـدا
كـلُّ نـورٍ أخَـذْتَـه مـنْ غـريـبٍ سـوف تخبـو بـه رويـداً رويـدا
قلبُك الشَّمسُ فـاقْبِسِ النُّورَ منه كـلُّ مـا تـرتجيـهِ نفسُـك عنـدكْ
كـلُّ شـيءٍ سـواك ـ أنـت ـ سرابٌ شَهِـدَ اللهُ أنَّـك الحـقُّ وَحْـدَك
شـوكُ صحـرائنـا يحـلُّ بلطـفٍ عِقْـدَ السَّـالكيـن مـن حيثُ يُـدمـي
فـامضِ فـي الشَّوك حـافيـاً وتقـرَّح لسـتَ تنجـو بـلا جنـونٍ وحـزمِ
لغـزُ هـذي التَّـداخـلاتِ وإنْ لـم يستطـعْ أن يفكَّـه العِلْـمُ كلُّـهُ
شـوكُ صحـرائِنـا يغـورُ بـرفـقٍ وبـأسلـوبِـه اللَّطيـفِ يحلُّـهُ

(٣٢)

مـا لِمُلْـكِ الغـرب خُلْـدٌ بَلَـغَ العَصْـرُ أشُـدَّهْ
كلَّمـا شيَّـد صـرحـاً ضَحِـكَ الشـرق وهـدَّه
عنـدمـا أنهيـتُ عشـيٍّ قيـل هـبْ للعُـشِّ ذاتـا
صـرخـاتُ العُـشِّ بـرقٌ تمـلأُ العُـشَّ حيـاةَ
أنـتَ عبـدُ الله فـالـزمْ ليـس للحـرِّ تحـوُّلْ
مـا عـدا عـزِّ العبـوديـة لله تسـوُّلْ
سيِّـدُ الأحـرارِ عبـدٌ حـرم الله بـذاتِـهْ
فـاحفـظِ الـذَّات وصُنْهـا إنَّهـا مـنْ عَتَبـاتِـهْ
كيـفَ (إلا الله) لـم تَـدْمَـغْ أسـاطيـرَ مسطِّـرْ

أيـــــنَ ذاكَ الكَلِـــــمُ الطيِّـــــبُ والطَّبــــــعُ المُسَيْطـــــرْ

كـــمْ قلـــوبٍ فـــي صـــدورٍ ذُعِـــرَتْ مـــنْ نَظْـــرَتِـــك

درس العلـــم اللَّـــدُنِّــي وذوى فـــي فطـــرتـــك

ربمـــا أشـــرفَ إقبـــال علـــى الســـرُّ القـــديـــم

حـــدَّث السِّـــرُّ حـــديثـــاً كحميــــمٍ لحميــــمْ

(٣٣)

لِمَ تسألون القومَ ما هو مصدري ؟ وأنـا بنفسـي لـم أُحِـطْ بمصيـري

ما زلتُ منذ وُجِدْتُ أشرقُ سائلاً وأغيبُ في وَجْدي وفي تفكيـري

الحـرُّ يَسْمـو فـي الحيـاةِ بـذاتـه ويصـوغُ مـا يختـارُه مِـنْ أمـره

يـا أنـتَ حتـى اللهُ جـلَّ جـلالـه أفتـى بـرأي كليمِـه فـي عمـره

أسـرارُ روحِـك جَـدُّ سيمـائيـة فَلِمَ النِّزاع على هياكلَ مِنْ حَجَر

بلهيـبِ أنفـاسـي الَّتـي أطلقْتُهـا شـاهـدتُ مـا تخفيـه أعمـاقُ القَـدَر

سِـرِّي تتـرجمـه سـلاطـةُ أعينـي لا تسـألـونـي مـن تكـونُ ومـا هـي

لـو أن (نيتشـه) جـاءنـي بحمـاسـهِ لأريتُـــه (زردشتَـــه) وإلهـــي

صرخاتُ وَجْدي في الصَّباح تلَطَّخَتْ بـدمـي ولـم أسْمَـعْ لهـنَّ جـوابـا

ربَّـــاه ! أيُّ جـريمـــةٍ قـــارفتُهـــا لأكـونَ مـن قتلىٰ الصَّبـاحِ عقـابـا

(٣٤)

تَـدَخُّـلُ الحـبِّ بـأطـوار السُّلـوكْ يكشـفُ للعبيـدِ أسـرارَ المُلـوكْ

مـــا كـــان للـــرازيْ وَلِلْغـــزالـــي والـرُّومـيْ والعَطّـارِ مِـنْ نـوالِ

لـو لـم يعـانـوا رغبـةَ الصِّيـاح وصـرخـةَ الحيـرةِ فـي الصَّبـاح

فيـا رئيـسَ الـرَّتْـل كـنْ حليمـا لا يقتـلُ اليـأس فتـىً حكيمـا

تنقُصنـا شجـاعـةُ الـرَّسـولِ لا تَنْقُـصُ الـرَّغبـةُ فـي الـوصـولِ

إيـاكِ يـا قُبَّـرتـي مـن التَّلـفْ فالموتُ خيرٌ لكِ من هذا العَلَفْ

يُعَـــزْقِـــلُ الجنـــاحَ أن يطيـــرَ وربَّمـــا يتـــركُـــه كَسِيـــرا

أعــزُّ مــن أُبَّهــة الإسكنــدر ... وملــك (دارا) نظــرة القَلَنْــدَرِ
دَرْوشــةٌ تَنِــمُّ عــن قلــبِ ملــيْ ... فيــه عبيــرُ أَسَــدِ علــيّ
شــريعــةُ الشجعــان هــؤلاء ... الجهــرُ بــالحــقِّ بــلا رِيــاء
ومــا لهــؤلاءِ قــطُّ غــالــبُ ... هــذي أســودُ اللهِ لا ثَعــالِــبُ

* * *

(٣٥)

جـاءَ مـنْ عِنْـدِهـم كتـابٌ جـديـدٌ ... صـرخـة الليـل أوصَلَتْـه إليَّـا
فـإذا فيـه : يـا مسـافـرُ أمْسِـكْ ... وتفكَّـرْ بمـا قَطَعْـتَ مليَّـا
ربمـا كُنْـتَ ذاهبـاً مـن جـديـدِ ... فـي طـريـقٍ كمثـلِ تلـكَ عَسِيْـره
غُـصنْ طـويـلاً فـأنـتَ أيضـاً عميـقٌ ... وافهـم القَصْـدَ فـالحيـاةُ قصيـرة
أنا (سيفاً خرجت) من غير غِمْدٍ ... ضـاعَ فـي غَمْـرَةِ المعـاركِ غِمْـدي
يجـرحُ النَّـاسَ منظـري مـن بعيـدِ ... ويخـوضُـون فـي مـرامـي وقَصْـدِي
أيُّ مُسْتَهْتِـــرِ بكــلِّ مـــلامِ ... خطَّ فوق المِحْرَابِ تلكَ الحروفا
(هــذه الأغبيــاء تسجــدُ لمَّــا ... يقتضـي الأمـرُ أنْ يكـونـوا وقـوفـا)
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاءِ بصمـتٍ ... إنْ تكنْ موضوعي لمزَّقْتَ نفسك
بعـدمـا الحفلـةُ انتهـت وتـولَّـوا ... جاء دوري وقيل : كأسَك كأسَك
وهـــبَ المسلميـــن إقبـالُ نـــاراً ... فـإذا النَّـار ذاتُهـا فـي ذُبـولِ !!
مـا على الكـأسِ فـي الحقيقـةِ لـومٌ ... خـامـلٌ طـافَ بيـن أهـل الخمـول
ذاك إقبــالُ كنــتُ أبحــثُ عنــه ... وهـــو مُسْتَغْصِــمٌ بحصــنٍ ورُخِّ
وأخيــراً وبعــد لأي طـــويــلِ ... وقـع البـازُ فـي حبـائـلِ فخِّـي

(٣٦)

أنـــا لـــولا مـــوجـــةُ الـــرَّغْبَـــة لـــم تـــوجـــد حيـــاتـــي
فحيـــاتـــي مـــوجـــةُ الـــرَّغبَـــة فـــي أعمـــاقِ ذاتـــي

كـــلَّ حيـــنٍ عـــالمـــي يَضْطـــرُّنـــي أطلـــقُ وَجْـــدي
عـــلَّ إنســـانـــاً جـــديـــداً يحمـــلُ اللَّـــوعـــة بعـــدي
ممكـــــــنٌ للنَّـــــار أنْ تحـــرِقَـــهُ عشَّـــك هـــذا
تســـألُ السَّـــاقـــي إذا لـــم تـــكُ ظمـــآنـــاً لمـــاذا
لا تقـــلْ فـــي الغَـــزبِ رأيـــاً ببـــريـــقٍ يتعلَّـــق
مـــاسُـــه مـــنْ كهـــربـــاء جعَلَتْـــهُ يتـــألَّـــق
لا تتـــوقُ النَّفـــسُ أنْ تَحْكُـــمَ آفـــاقَ الفَضـــاء
حيـــنَ لا تتَّصـــف الأبصـــار حقًّـــاً بـــالمَضـــاء
أنـــا لـــو لـــم تسقـــطِ الأوراقُ عـــن عشِّـــي اللَّطيـــف
عَجِـــزَ الصَّيـــادُ عـــن صيـــدي ولـــو وقـــتَ الخـــريـــف
عـــن قـــريـــبٍ تَقْلِـــبُ النيَّـــاتُ أقـــدارَ الخـــلائـــق
ليـــس أوهـــامُ غبـــيٍّ إنَّهـــا جـــدٌّ حقـــائـــق

* * *

(٣٧)

العقـــلُ هـــذا ليـــس يَقْهَـــرُ وسعُـــه وســـعَ الطبيعْـــه
وجهـــاً لـــوجـــهٍ ضَعْهُمـــا وانظـــرْ لقـــوَّتهـــا المطيعـــهْ
الحـــقُّ : أنَّـــك قـــد أضعـــتَ الـــذَّاتَ فـــاطلـــبْ مـــا أَضَعْتَـــا
وعلـــى العطـــورِ وعـــالـــمِ الألـــوان سيْطـــرْ مـــا اسْتَطَعْتَـــا
وانظـــر مقـــام القبّـــة الـــزرقـــاء ليـــس لـــه حـــدود
واختـــرْ مَقـــامـــاً مثلـــه يَسْمـــو بـــذاتِـــك فـــي الـــوُجـــود
أشجـــارُ حَـــوْرِكَ عـــاريـــاتٌ حـــول قـــارعـــةِ الطَّـــريـــق
أوقـــفْ تمـــزُّق وردك الظَّـــامـــي وتحطيـــمَ الشَّقيـــق
لـــم يستطـــعْ ذوقُ الطبيعـــة أن يـــؤكِّـــد وسْعَـــهُ
اصْنَـــعْ بِـــذَوقـــكَ أنـــت مـــا لـــم تستطـــع هـــي صُنْعَـــه

(٣٨)

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرِّثاءِ ... وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ
حصادُ جهودِهم ظلماتُ شكٍّ ... جَرَتْ في قلبهم مجرى الدِّماء
بنفسك ثِقْ تجدْ (نغفور) عبداً ... ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)[1]
أنا حزني على هجري تبدَّى ... بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقيقهْ
بسكرةِ قربه ، بصُراخِ وَجْدٍ ... رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحيقهْ
ومن يكُ شأنُه حبّاً وسكراً ... تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقه
جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ ... إذا كان الهوى كانَ الجنونُ
وذنبُ الرَّاجعين بلا نصيبٍ ... من الحسناء تفضَحُه العيونُ
أما كانت بنو تيمور تركا ... بنو عثمان أتراكٌ كذاكا
أولئك في ترابِ السند ضاعوا ... وصخرُ أولاء مرتفعٌ هناكَ
بمَ النُّسَّاكُ في الحَرَم استبدَّت ... بإقبال الذي هَجَرَ القُصورا
ولم تَقْوَ الملوكُ عليه يوماً ... وقد ملأتْ عوالمَهَا نُسورا
فما هو سرُّهُ ؟ الشَّاهين هذا ... ملوكيٌّ لجينيٌّ خفيفُ
يطيرُ على القُصور فيزدريها ... ويدمي قلبَه الحَرَمُ الشريفُ

(٣٩)

العلمُ أطْلَقَ الحياةَ الراقدهْ ... في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدهْ
من كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ ... بلا عصا الكَليمِ لا يُعاشُ
ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ ... بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ
والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدُ ... وما لَهُ إلا طريقٌ واحدُ
حُجَّاجُه تَظَلُّ في تلهُّفِ ... لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

---

(١) ابن السَّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنتسبُ الكؤوس النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإنْ هُمُ ... بدوا مقيمين لم يراهُمُ
ليس يسيراً هاهنا انتقالُكَ ... بالزاد والمطيّة انشغالُكَ
وأنت لو ألقيتَ ذلك الثِّقَلْ ... لكنت كالنَّسيم تعبُرُ الجَبَلْ
يا أنتَ ! ثروةُ الحكيم طرًّا ... في أنْ يعيشَ ويموتَ حُرّا
والآخرون جَهْدُهم مُنْتَهبُ ... نفوسُهم كما يريدُ الذَّهبُ
أرواحُهم ترزحُ في المصائبِ ... ورأسُمالهم من الضَّرائبِ

(٤٠)

حياةٌ تُمزِّق صَدْرَ الفضاءْ ... يصاحبُها ركبُها المستمرّ
مغامرةٌ خلفَ أخرى تخوض ... وقافلةٌ خَلْفَ أخرى تمرُّ
كذلك حبُّكَ لا ينتهي ... ولا تَسْتَقِرُّ معاناتُه
هناكَ تجارِب أخرى له ... إذا هي زالتْ سمواتُه
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتئبْ ... ففي روضنا ألفُ عشٍّ لكَ
ولولا بساتينُ أخرى هناكَ ... لكنتُ بكيتُ له مثلكَ
فَطِرْ ليس لِلْبَاز أن يستريحْ ... ولا تبكِ عشّاً رماهُ القَضاءْ
ففي دَرْبنا ألفُ قلبٍ جريحْ ... وألفُ مناسبةٍ للبكاءْ
سمواتُنا تلكَ لا تنتهي ... وأنت قُصاراك في أن تَطِيرْ
فإيَّاك أغلالَهم إنَّها ... تضيِّعُ نَكْهةَ هذا المسيرْ
أنا قد تخلَّيتُ عن حُمْقِهم ... وألقَيْتُ في وجْهِهم وَخْدَتي
وأصبحتُ لي أصدقاءُ هناك ... بأخبارِهم ترتوي جَلْوَتي

***

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أنَّ بقاءَ الرَّفاه أن يستمرَّ بهذا النَّهجْ

فكم يفعلُ الطَّيشُ في عقله   ويُنْقِصُ رغبته منْ نُضجْ
لقد بلغتْ صرختي أوجَها   كذلكَ أعْلَنَ شيخُ الحَرَمْ
وحذَّرني اليومَ منْ كَتمِها   لِتَسْمَعَ ذلكَ كلُّ الأممْ
أنا لم أقل ﴿ أرني ﴾ مرةً   كموسى لأعرفَ أسراره
فموسى جديرٌ بإلحاحِه   ومثلي جديرٌ بما اختاره
وبالرُّغمِ من أنَّ أهل القلوبْ   تُهتِّك أسرارَها في البلادْ
فإنَّ الطرائق هذي الجريئة يَصْعُبُ إطلاقُها للعبادْ
تضرُّعُ حاشية السالكين   عيونٌ ضعافٌ وقلبٌ هلوعْ
فأين الحماسةُ أين النَّضارةُ أين السَّكينةُ أين الدُّموعْ
أنا لم أزل عَطِشاً ما ارتويتْ   كمِثْلِكَ عطشان لم ترتوِ
هو الحبُّ أسمى صعودٍ لنا   ولكنَّنا فيه لم نَنْضَوِ
نهضنا بأسلوبِ درويشنا   فكانَتْ لنا أرضرومُ وشَامْ
ولما زَهِدْنا بأسلوبه   ذهبنا دواليكَ خلفَ الأنام

(٤٢)

ذاتَك فالذَّاتُ الَّتي تَدْعَمُها   معرفةٌ يغبطُها جبريلُ
وإنْ أضافَ الحبُّ عوناً أطْلَقَتْ   في النَّاس ما يُطْلِقُ إسرافيلُ
أنا خليلُ هذه الأصنام   وعُدَّتي معرفةُ الأيام
في النَّارِ ألقَوْني كإبراهيمَ   فكنتُ في النِّيران في نعيم

* * *

قافلةُ القَوْم بوضعٍ يؤسفُ   حائرةٌ يَسْحَرُها التوقُّف
ورُغمَ هذا غِبْطةُ السِّياحه   تجاوزتْ غِبْطةَ تِلك الرَّاحه
أنا على شِعْري شديدُ الغيرهْ   فقمْ إذا كنتَ بلا بصيره
أنا مجالي الذَّاتُ في مشاعري   نبيلةٌ كحدٍّ سيفٍ بَاتر

* * *

تـذكـرتْ روحـي دروسَ الغَـرْبِ		أيـامَ حـوره سَكِـرْن جنبـي
فـآهٍ يـا لفـرحـةِ الحضـورِ		وآهٍ مـن منطقـه المَغْـرُور

* * *

هـذا الـزَّمـانُ ليلُـه شـديـدُ		وأنـتَ عـن قـافلتـي بعيـدُ
لهيبُ زَفْـرتـي هـو المصبـاح لـكْ		يُبَـدِّدُ الليـلَ وَيَقْشـع الحَلَـكْ

* * *

حكـايـةٌ ليـس لهـا نظيـرُ		بسيطـةٌ لكنَّهـا تُثِيـرُ
ثبـاتُ إسمـاعيـلَ مُبْتَـداهـا		ومَقْتَـلُ الحسيـنِ منتهـاهـا

* * *

(٤٣)

غصنُ العَقيـدة فـي المـدارس عـارِ		ومـذاقُ أديـرةٍ بـلا أسـرار
بالرُّغم من طُول الطَّريق وعُسْره		عينـاكَ ظـاعنـةٌ وقلبُـك سـارِ
أسفـاً لـديـنٍ ليـسَ يَكْسِـبُ دولـةً		ولـدولـةٍ وقفـتْ كخيبَـر وجهـه
مـن أيـنَ لـلاثنيـن كـرَّةُ حَيْـدَر		يلقـي سخـافتهـا ويُصْلِـحُ فقهَـهُ
لا تبلـغُ العلمـاءُ بـاطـنَ مـؤمـنٍ		ومـذاقَ رغبتـه ولطـفَ تـأمُّلِـهْ
أسـرارهُ فيمـا وراءَ حُـدودهـم		وجمـالُـه فيمـا وراء تجمُّلـه
وعجـوزُ حـانتنـا يقـولُ مـؤكِّـداً		عـن صـرحِ أوربَّـة المضـيءِ المعتمِ
هـذي المـرايـا مـن جليـدٍ مـا لهـا		وُسْـعٌ لِتَعْكِـسَ نـورَ قلـبِ المسلمِ

(٤٤)

الحـادثُ المحجـوبُ قَبْـلَ ظهـوره		للنَّـاس تُعْلِنُـه نقـاوةُ مُهْجَتـي
لا حـظَّ لـلأفـلاك مـن دورانهـا		فـالسـرُّ مظهـرُه جسـارةُ صَـرْختـي
أتَـرى بـلا روحٍ شـرارةَ أنّتـي		أم أنَّ عُشْبَـك مـا يـزالُ نـديَّـا

صرخاتُ هذا القلب في صَلْصَاله ... تُـذْكـي لهيبَـك بكـرةً وعَشِيَّـا
لـن يَخْمُـد اللَّهـبُ الـذي فـي طينتـي ... حتَّـى يُحـرِّر كـلَّ شـيءٍ فيهـا
بـالـرُّغـم مـن قَـدَرٍ قـد ارْتَبَكَـتْ بـه ... فُضِحَـتْ شيـوخُ السُّكـر فـي ناديهـا

(٤٥)

مـا وَجَـدْنـا وقـد بَحَثْنـا كثيـرا ... فـي حـواشـي الصُّـوفـيِّ إلا غُبـارا
يـدَّعـي أنَّـه يخـوضُ حـروبـاً ... كبَّـدَتْـه هـزيمـةً وشَنَـارا
كيـفَ زالـتْ حـرارةُ الحـبِّ عنـه ... وارتضـى هـذه الحيـاةَ السَّقيمـهْ
حـربُـه لـم تكـنْ لِيَغْنَـم شيئـاً ... وقُصَـاراه أن يكـونَ غنيمـه
كُتُـبُ القَـوْمِ عنـده فـوقَ بعـضٍ ... يصـلُ الليـلَ حـولهـا بـالنَّهـار
مـا تبقَّـى لـديـه إلا حكـايـا ... أوليـاءَ يقـولُهـا للصِّغـارِ
مـا تعجَّبـتُ أنْ يشيـعَ خـرابٌ ... فـي الـزَّوايـا وفـي تكـايـا السُّلـوك
عجبـي مـن نهـايـةٍ مثـلَ هـذي ... كيـفَ دبَّـت إلـى قُصُـورِ الملـوك
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاء بصمـتٍ ... أيُّ يـومٍ مضـى عليـكَ كيـومـي
مثـلَ سَجَّـادةِ الصَّـلاة نفـاقـاً ... يَطْفَـحُ التَّـاجَ فـي منـازِلِ قـومـي
الكتـابُ الَّـذي يمـوجُ بيـاضـاً ... والَّـذي عنْـد كـلِّ مُـلَّا وصـوفـي
يمـلأُ الحشـرَ حيـرةً وارتبـاكـاً ... ووقـوفـاً يكـونُ مثـلَ وقـوفـي
وسـواءٌ كـان ابـنُ آدم هـذا ... عـربيّـاً أم لا ، معـانيـه بيـضُ
وعـنِ العَـالَـم الَّـذي هـو فيـه ... وعـنِ العـالـمِ الأخيـرِ يفيـضُ
ذهبـتْ سكـرةُ المسـاء ولكـنْ ... نظـرةُ السَّـاقـي فـي الفـؤاد كنصْـلِ
ولهـا فيـه طعنـةٌ بعـد أخـرى ... فَسَلُـوهُ فـديتُـه لِـمَ قَتْلـي ؟
لا يـذمُّ البستـانُ مُـرَّ غنـائـي ... يَصْبُـغ الـرُّوحَ مِنْـه لـونـاً فلـونـا
رُبَّ سُـمٍّ يكـونُ تـريـاقَ داءٍ ... ودواءٍ يكـونُ للـدَّاء عَـوْنـا

***

(٤٦)

أقصى مواهبِ أوربّة النشيطةِ أن تَقْلِبَ العَصْرَ في ليلٍ من التِّيهِ
كم وردةٍ قصفتْ في روضنا يدُها ما مزّقت طوقَ زرٍّ واحدٍ فيه
حرارةُ الحبِّ من خمر اليقين وما لمنكرِ الحبِّ إلا الوهمُ يُفْنِيه
هَبِ المدارس يا رباه حُرْقَتَها فحسنُها باردٌ لا رُوحَ تُذْكيه
متى سمواتُنا تنشقُّ وَرْدَتُها متى ابنُ آدمِنا هذا ترقِّيه
هذي السَّماءُ التي أغرتْ كواكبَنَا اللاَّزَوَرْديَّةُ المجنونةُ الفَرِحَةْ
سماءُ شيطانٍ ما فيها ملائكةٌ رأسٌ منيرٌ واكنْ نظرةٌ وقحةْ
العقلُ حجَّتنا طُرّاً فما أحدٌ إلا وَلِلْعَقْلِ مصباحٌ بمذهبه
هذا الجنون ـ ومن يدري حقيقتَه ـ لعلَّه هو أيضاً أن يُصاب به
العقلُ عند جميع النَّاس منهجُه ولم يكن من خصوصيات إنسان
والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه ميراثُه ، وأنا ـ لولاك ـ برهاني

(٤٧)

ليسَ سهلاً فَقَبْلَ بدئِك فارجع يرفضُ البَحْرُ أن يقول لماذا
موضعُ الدُّرَّةِ الفريدةِ صعبٌ وخلالَ الطَّريق تعرفُ هذا
ما لسنجارَ أو لـ (طغرل) حظٌّ من عيونِ القَلَنْدَر[1] الملكية
حيرةُ الفِكْرِ أم حماسةُ رومي ؟ وجُدُ موسى أم فكرةٌ فلسفيه ؟
هي أسلوبُ ثعلبٍ في ظَلامٍ أم (يَدُ الله) في طريقة حُبِّه ؟
حيلةُ الإنكليز تظهرُها أمْ هجماتُ التُّركيِّ داخلَ حربه
أهي في هذه الشَّريعة قامتْ تخرُسُ المعْبَدَ الذي شيَّدَتْهُ ؟
أمْ هي الوَجْدُ في فؤادٍ مُلَبٍّ يُمْسِكُ الكعبةَ التي ألهبتْهُ

---

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كـنْ غنيـاً وكـنْ إذا شئـت عبـداً ... أو أميراً مـا بيـن (سمعاً وطاعـه)
كـلُّ هـذي الألقـابِ ألقـابُ وَهْـمٍ ... لا يكـونُ الـوصـولُ دونَ شَجَـاعَـةْ

(٤٨)

ليـس لِلْجُنْـدِ غيـرُ شكـلِ سيـوفٍ ... ليـس للتَّـاج غيـرُ لمعـةِ جـوهـرْ
فـي عـروشٍ وفـي جيـوشٍ بحثنـا ... مـا عثـرنـا علـى فـؤاد القَلَنْـدَرْ
لـمْ تحصِّـلْ مـن (لا إلـه) ضيـاءً ... هـذه الـذَّاتُ للطَّـريـقِ الطَّـويـلِ
أصبحـتْ معبـداً لأصنـامِ وهـمٍ ... عنـدمـا ضيعـتْ حـوارَ الخليـلِ
يصنـع الحـرُّ كـونَـه بجهـادٍ ... ويـرى فـي تَـدَخُّـلِ النَّـاس عـارا
لَسْـتَ آجـرّةً لقصـرِ غـريـبٍ ... لَسْـتَ فـي وقعـةِ الحيـاة غُبـارا
كـلُّ مـا فـي سمـائنـا مـن مَـدَارٍ ... لا يسـاوي مـدارَ هـذي القلـوبِ
ومَصِيْـرُ القلـوبُ أبعـدُ شـأواً ... مـن غبـارٍ مشـرَّدٍ فـي الـدُّروبِ
قـال أهـلُ البِحـار أهـلُ البـراري : ... ليـس لِلْغَـرْب غيـرُ راحـةِ يـأسـهِ
واقـفٌ فـي طـريـق سيـلٍ عنيـدٍ ... ليـس يقـوى علـى حمـايـة نفسِـهِ
قِـفْ قليـلاً فـأنـت أيضـاً قـديـرٌ ... ولـكَ الحـقُّ فـي اختيـارِ الحيـاة
كـلُّ فجـرٍ يطـلُّ تبـدعُ كـونـاً ... صـرخـةُ الـوَجْـد فـي عـوالـم ذاتـي
أنـا فـي حـانتـي قنعـتُ بـدَنِّـي ... لست ممَّنْ يطوف حول الكنائسْ
أبـداً لا تقـدِّم الخمـرُ هـذي ... نَفْسَهـا فـي رحـاب تِلْـكَ المـدارس

(٤٩)

لـم تَهَـبْ لـي الطبيعـةُ اليـوم فِكْـراً ... ثـاقبـاً ، غيـر أنَّنـي لا أُبـالـي
عُـدَّتـي طينتـي التـي وهبتنـي ... طيـرانـي المُخِـفُّ عَبْـرَ الليـالـي
طينـةٌ بـالجنـون تَصْقُـل حِسِّـي ... طينـةٌ تَجْعَـلُ الغبـيَّ نبيهـا
ربمـا مَـزَّقـتُ لجبـريـل سـرّاً ... ورأى قـولـه : ﴿ أتجعـل فيهـا ﴾
طينتـي لا يهمُّهـا صُنْـعَ عـشٍّ ... مـنْ دقـاقِ الأغصـانِ فـي البُستـان

وجبيــنُ النُّجــوم يَــرْشَــحُ عــاراً لبــريــقِ الــدُّمــوعِ فــي أجفــانــي

(٥٠)

يَقْصِــدُ المُبْــدعُ الغَيُــورُ بــلاداً لمعــانيــه غيــرَ كــلِّ البــلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعتْ كَسْـرَ سيـفٍ ولا إلـى بغـداد[١]
نظــراتــي التــي تمــوجُ فتــونــاً والّتــي تمــلأ الفــؤاد حُبُــورا
مَنَحَتْني فــي حــانةِ الغرب صحــواً ونشــاطــاً وغبطــةً وسُــرورا
لســت أحتــاج فيلســوفــاً ومُــلاّ مــوتُ قلــبٍ همــا وفِسْــقُ بصيــره
كيــف لِــلاهــوتــيٍّ أُبــدي ازدرائــي حيـن ألقـاه وهـو رأسُ العشيـره !!
الــدَّراويــشُ يطــربــون لهــذا والــدَّراويــش دأبُهــم غيــرُ دأبــي
لســتُ أُغنــىٰ بمثــلِ هــذا فــدعنــي أبحــثُ اليــوم عــن تفتُّــحِ قلبــي
ممكــنٌ يُشْتــرى غنــى (أبــرويــزِ) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرىٰ[٢]

---

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانيّة أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .

وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحةً سليمةً مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحبوب معاً .

وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .

قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر=

والـــذي يجعـــل القَلَنْـــدَرَ حـــرًّا ... أنَّـــه لا يخـــاف للســـرِّ نشـــرا
لســتُ عــن متعــةٍ أمــزِّق ثــوبــي ... تلــك أســرارُنــا وليــس وســاوسْ
طمعــي الفــردُ والمطــامــع كُثْــرٌ ... هَبَّــةُ الفِكْــر مــن رُقــاد المــدارسْ
رأيُ غــانــدي إنْ كنــتَ غيــرَ قــويٍّ ... غيــرُ مجــدٍ فــي ملَّتــي واعتقــادي
ليــس إلا عصــا الكليــمِ لسحــرِ ... بــرهمــيٌّ مشعــوذٍ فــي البــلادِ

(٥١)

إقبــالُ تُحــزِنُــه المــلائكــةُ الَّتــي ... عــابــت أمــام الله جــرأة صَــرْخَتِـه
وقـــحٌ يُهَتِّـــك للطبيعـــة ســـرَّهْ ... ويجمِّــل الــدنيــا بلــؤلــؤِ نَظْــرَتِــهْ
لا ينتمــي لــلأرض وهــو سليلُهــا ... لا الشَّــامُ مــوطنُــه ولا قــاشــانُ
مُتَعــدِّدُ الأوصــاف فــي قــدراتــه ... ملــكٌ وفــي رغبــاتــه إنســانُ
قَلِــقٌ ريــاحُ الخــدِّ تمــلأ صــدره ... ويعيقــه بستــانُــه المتنــاهــي
فــي ظــلِّ مــذهبــه المــلائكــةُ اهتــدتْ ... لطــريــقِ آدم فــي رحــابِ الله

(٥٢)

لُعْبــةُ النَّــرْدِ لــم تكــنْ دونَ نــردٍ ... أرنــي مظهــراً لِتِلْــكَ المغــازي
خمــرةُ القــومِ لا تُنَــالُ بِبَخْــثٍ ... فــازَ رومــيٌّ بهــا وأخْفَــقَ رازي
كــأسُ جمشيــدَ لمعُهــا فــي دوامٍ ... أيُّ ملكيــــةٍ بــــلا شعــــوذاتِ
ليس قلبي وليس قلبُك فابحثْ ... إن تمكَّنْــتَ فــي صُــدورِ الفِئــاتِ
ليــس للعــاجــزِ الضَّعيــفِ حيــاةٌ ... ودواءُ الضَّعيــــف ذوقُ العبــــادهْ
لا تقلْ في الصَّلاة : وجهت وجهي ... فصَــلاتــي كمــا صــلاتُــك عــادهْ
نحـــن سجَّـــادةٌ لـــه حـــركـــاتٌ ... فـــوق سَجَّـــادةٍ بغيـــر حـــراكِ
إنَّ حــربــاً أبطــالُهــا نحــنُ حــربٌ ... تُعْلــنُ النَّصــر قَبْــلَ بــدءِ العِــراك !!

* * *

= ص٣٥٧ (القاهرة) .

لغـــةُ التُّـــركِ والعَـــرَبْ عـــذبـــةٌ ملـــؤهـــا الطَّـــرَبْ
لكـــن الحـــبَّ لـــم يكـــنْ ملـــكُ تـــركٍ ولا عَـــرَبْ
حَسْبُـــهُ البعـــدُ عنهمـــا حَسْبُـــه كنـــزُه الـــدَّفيـــنُ
حَسْبُـــهُ الحُـــبُّ إنَّـــه لهجـــة النَّـــاس أجمعيـــنْ
نحـــتُ أصنـــامِ آزرٍ صَنْعَـــةُ العـــاجـــزِ الـــذَّليـــلْ
والـــذي يطلـــب العُـــلا حَسْبُـــه صَنْعَـــةُ الخليـــلْ
لســـت نقعـــاً مجـــرَّداً إنَّـــك النَّجْـــمُ والمـــداز
مـــن جنـــونٍ مشـــابـــرٍ ذلـــك النَّقْـــعُ والغُبَـــاز

***

(٥٣)

دوَّى النِّـداءُ علـى القـوافـلِ معلنـاً بـدءَ المسيـرِ فَقُـمْ مـع الـرُّكبـانِ
أواهُ مـاذا يفعـلُ السَّـاري الَّـذي يتـوقَّـع التَّـرحـال كـلَّ أوانِ
انهـضْ فَخَمْـرُك لا تنـاسـب هـاهنـا ديـراً وعصـرُك غيـرُ طبعِـك فـانِ
سِيَّـان كـانَ القَلْـبُ عبـداً طـائعـاً أو لـم يـدعْ للعقـلِ مـنْ سُلْطـانِ
فـالـدَّربُ يـا هـذا المسـافـرُ صعبـةٌ وطـويلـةٌ وكثيـرةُ الأشْجـانِ

***

(٥٤)

نَفَسـي يُـؤجِّـجُ نـارَ وَرْدَتِـك الَّتـي خَمَـدَتْ لـواعجُهـا علـى الأغصـانِ
لـم يهـدأ البستـانُ منـذ أتيتُـهُ فـانظـر لآثـاري مـدى البُستـانِ
أيقظـتُ قلـبَ العـارفيـن بِصَـدْرِهـم وهَتكْـتُ للبُسطـاء سـرَّ الحـانِ
ووهبـتُ للجيليـن ذوقَ لهيبهـم ومـلأتُ أنفُسَهـم بـرشـحِ دِنـانـي
أنـا أعجمـيُّ الحـبِّ إلا أنَّنـي أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَاني
كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ علـى متضـرِّعٍ مـزقْتُـه بـاللَّحـن مـن ألحـانـي

متلطخٌ قلبي بنظرةِ عادلٍ — بسهامِ سيدنا الحُسين رماني
في الشَّام أم في الكوفةِ النَّرْدُ الَّذي — كانا على شقَّيْه يختصمان
أخشى يكونُ كلاهُما متعثراً — فالنَّرد هذا ماله شقَّانِ
لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ — ورداؤه قطعٌ من الأحزانِ
فقرُ الجُنَيْدِ وملْكُ سنجارٍ به — وجنونُ طيفور الطَّليقِ العاني
بالرُّغمِ ممَّا قُلْتُ قبحي ظاهرٌ — تأذَّى به عيناك حين تراني

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقِه يتسامى — أبداً يريدُ الكرَّ والإقداما
لولا تجاوزه لكلٍّ وجوهه — ما كان في فَلَكِ السَّماء إماما
لا تفتحُ الأنسامُ بُزعمَ وردةٍ — بلهاءَ عن شمسِ الصَّباح تحيدُ
طهرُ العيونِ هو الحقيقة كلُّها — والقَلْبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ
هذي الشَّقائقُ تَخْرِقُ القلبَ ارتمتْ — في الحَقْل ما احتملت سيوفَ سنابلِهْ
كوقائع (الغوري) و(أيبك)[1] عُطّلاً — ونشيد (خسرو) في قلوب بلابلِهْ

(٥٦)

يا أيُّها الإنسانُ كُنْ يَقِظاً فَدَرْبُك في السَّماءْ
لا ترم نَفْسَك خَلْفَ هذا الصُّبْح أو ذاكَ المساءْ
الدَّرْبُ ذلك ماله زمنٌ ليأسفَ ركبُهُ
ومَنِ الَّذي يدري ويَعْرِف أين تَنْشبُ حربُهُ
لا سرَّ ينبضُ في التسكُّعِ والتمحُّل واليقين
فوق المواخرِ والمساجدِ والكنائسِ أجمعين

---

(١) هو قطب الدين أيبك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللــــؤلــــؤُ الفــــردُ الَّـــذي   قــد نــدَّ عــن صــدرِ المَحَــارهْ
مجــلاهُ فـــي دَمْـــعِ الصَّبــاح وليــس فـــي خِــدَعِ الحضــارهْ
القــــرمــــزيُّ الخـــدُّ لا يحتـــاج مسحـــوقــاً يبـــاغْ
والعـــازفُ المــوهــوبُ لا يـــرضـــى بـــألحـــان الـــرُّعـــاعْ
ألحـــانُ هـــذا العصـــر يلـــزمهـــا الكثيـــر مـــن الـــذَّكـــاء
إذْ طـــالمـــا الصَّـــوتُ الـــذي فـــي الســـرِّ يخطـــىء فـــي الغِنـــاء

(٥٧)

يَمَّمْــتُ مــدرســةَ الأســود رأيتُهــا   تبكــي أبــاطــرة الــزَّمــانِ الــذَّاهــب
جارتْ عليها الحادثاتُ فأصبحتْ   مــرعــىً لخــرفــانٍ ووكــرَ ثعــالــبِ
مــا للقــوافــلِ مــنْ يقــود رِكــابَهــا   بحــوارِ مــوســى فــي رحــاب الله
مــن أيــن للعصفــورِ ذوقُ نشيــده   والجمـــع ســـاهٍ والمـــرَدِّدُ لاهِ
لآهٍ لأنفـــاسٍ مَضَـــتْ وكـــأنَّهـــا   طيـــفٌ ومـــرَّ بـــذلـــك البُستـــانِ
وهــي الَّتــي أذكــت لهيــبَ جمــالــه   وهـــي التـــي روَّتـــه بـــالألحـــان
فـــي ليـــلِ دهشتـــه هنـــاك وَوَجْـــدِه   ظلمـــاتُ تـــاريـــخٍ يُكَـــرِّرُ نفسَـــهُ
هـــل دهشـــةٌ أخـــرى ووَجْـــدٌ آخـــرٌ   يـــروي حقيقَتَـــهُ ويمـــلأ كَـــأسَـــهُ
جُـرحـي تـألَّـق كـالبـروق بليلهـم   ليـــروا حقيقـــةَ هـــذه الحسنـــاءِ
وليعلـــم الغُـــربـــاءُ ليســـت فجـــةً   ثمـــراتُ هـــذا السَّيـــرِ فـــي الصَّحـــراءِ

(٥٨)

أتَـذْكُـر البيـت الَّـذي قـد قـالـه   سلمان[١] ذاك الشاعِرُ الحرُّ الأمين
(سيظـلُّ عـالمنـا بـرُغـمِ صعـابِـه   (سيظلُّ) مفتوحاً أمام العاملين)
البحـثُ يلـزمـه مـواهـبُ بـاشـقٍ   وفـؤادُ ليـثٍ لا يخـاف جـروحـا

---

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي (إقبال) .

مــن غيــرِ معــرفــةٍ وغيــر قــراءةٍ ... يجـدُ الشُّجـاعُ طـريقـه مفتـوحـا
دعْ عَنْـكَ طـاووسـاً يتيـه وبلبـلاً ... يَشْـدُو فليـسَ السـرُّ فـي الاثنيـنِ
الســرُّ ليــس بنغمــةٍ وبصــورةٍ ... الســرُّ فــي سَمْــعٍ ورقــةِ عيــنِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليـس يقـوى علـى القَلَنْـدَر دهـرٌ ... قلبُــه تحـت عَـرْشِـه مُسْتَقَـرُّهُ
سـرُّه ليـس فـي العُلـوم ولكـنْ ... علمُـه بـالتجـرُّد الحـقِّ سـرُّهُ ؟
هـي تـرمـي لصَقْـلِ عَقْـلٍ وفكـرٍ ... وهـو يـرمـي لصَـوْغِ عيـنٍ وقَلْـبِ
هــو دربٌ بــذاتــه مُسْتَقِــلٌّ ... وهــي بحـثٌ علـى مجـرَّد دَرْبِ
هـو عنـد الصِّعـاب عيسـى ومـوسـى ... وهــي للنَّـاس فيلسـوفٌ وقـاضِ
هــو لِلســرِّ والبصيــرة روحٌ ... وهـي ليسـت سِـوى أقـاويـلَ مـاضِ
هـو سكـرانٌ بـالفضيلـة سـارٍ ... وهــي سكـرانـةٌ بِخَمْـر الـرَّذيلـهْ
مُطْلـقُ السُّكـر فـي الحقيقـةِ حـالٌ ... ليــس فيــه رذيلــةٌ وفضيلــهْ
الــذي يقتضــي التجـرُّدَ شــيءٌ ... ليــس سِيَّـان والــذي يقتضيهـا
نظــرةُ النَّفــي لِلْقَلَنْــدَرِ سيــفٌ ... طَبَعَتْــهُ الــذَّات الَّتــي يقتفيهــا
واحـدٌ مـن جنـودِهـا الحـقّ يُغْنـي ... عـن جيـوشٍ تخـاف وَهْـمَ الفَنـاء
وإذا المـرءُ كـان صـاحـبَ قلـبٍ ... كَسَــرَتْ عينُــه مــرايــا السَّمــاء

(٦٠)

وقـف الجميـعُ يعـارِضـون نـدائـي ... لــم يُجْمِعــوا إلّا علــى إقصـائـي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم ... وبقيــتُ مجنــونــاً بــلا صحــراء
حمـداً لِمَـنْ رَحِـمَ العباد فـأسْدِلَـتْ ... أستــارُ كعبتنــا بــوجــهِ صيــاحـي
وبقيـتُ وحـدي مـرةً أخـرى وَقَـدْ ... طافتْ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحي
فقهــاؤنــا وقفــوا بصــوتٍ واحــدٍ ... دونــي ومــا حــاروا بــأيِّ جــوابِ

لا مثلَ أفلاطونَ بين حضورِه ... وغيابِه والسَّلبِ والإيجاب
كانت رجالُ الفِكْرِ تَنْبُضُ جراَةً ... وحميَّةً أوحتْ بها الأعرافُ
نفسٌ إذا القرآنُ ما انتفعتْ به ... لا الكشفُ يَنْفَعُها ولا الكشَّافُ
إنْ كُنْتَ منْ وهمٍ بشيءٍ مفرحٍ ... تأسى فإنَّك في السَّفينةِ تَغْرَقُ
في خمرِ أوربَّة شُعاعٌ ذائبٌ ... بالرُّغْمِ من أكدارها يتألَّقُ

(٦١)

عجباً من مغامراتِ ذكيٍّ ... جعل الوَجْدَ والتعقُّلَ دربا
لم تزل حولَه المواجدُ حتَّى ... تركتْهُ في ساحةِ الحبِّ نَهْبَا
كيفَ ناحَتْ حمامةُ الأيكِ قربي ... ثمَّ كانتْ عَذُولَه ورقيبَهْ
إنَّني مدركٌ إلى أينَ يمضي ... مخفلٌ يُزبِكُ الضميرُ خطيبَهْ
قيل إن الأتراك بالشِّعر أدرى ... فأقرئوهم من شِعْر إقبال بيتا
(لا يكون القويُّ جارَ ضعيفٍ ... كلُّ ما في يديه لولا وَلَيْتَ)
ما طقوسُ المساجدِ اليومَ ؟ ظلمٌ ... وانتهاكٌ لحرمةِ السَّاجدينَا
ما سلوكُ الكنائس اليومَ ؟ سوقٌ ... لوجوه الرُّهبان والسَّالكينَا
في ردائي الَّذي تمزَّق سرٌّ ... من بقايا الأسرار يُكْشَفُ بعدي
لا يليقُ الجنونُ فالعصر هذا ... ليس عصراً لذي جنونٍ وَوَجْدِ
أضِعِ النَّفس في البحار وغامِرْ ... ثم غُصْ في البحار واعثُرْ عليها
وأَقِمْ بين ضجَّةٍ وتَلَوٍّ ... ليس من شاطئٍ يقودُ إليها
هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ ... منْ تُراني أنا وما جنسي ؟!
جئتُ للأرضِ ؟ أم تخلَّفْتُ منها ؟ ... قفصي الكونُ ؟ أم نهايةُ نفسي ؟
كَمْ تَعَثَّرتُ في متاهاتِ ذاتي ... وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ
بين نفسي منَ الخصامِ وبيني ... سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ
قصَّةُ الحبِّ ألفُ نقشٍ ولونٍ ... وغِنائي أشدُّ نقشاً ولونا
تارةً أملأُ الحياةَ وِصَالاً ... تارةً أطلبُ الفِراق لأفنى

اليقيــنُ اليقيــنُ جلســةُ حــبٍّ ... مــن خليــلٍ بنــارِ نمــرودَ يُمْسِــكْ

ســـرُّهُ أنْ تقـــومَ لله شُكْـــراً ... وقصــاراه أن تلــوذَ بِنَفْسِــكْ

كعبــةُ العُــزْبِ أطلقــتْ كــلَّ لحــنٍ ... طــافــت الفــرسُ والمغــولُ عليــه

كيــف تسمــو حضــارةٌ ليــس فيهــا ... حــرمٌ يجمــعُ القلــوبَ إليــه

صــوت قيثــارتــي الَّتــي سَمِعــوهــا ... أعجمــيٌّ لكــنَّ لحنــي حجــازي

شَهِــدَ الغــرب أنَّنــي غــزنــويٌّ ... حيــن جــرَّعتُــه مصيــر إيــازِ(١)

أيهيــمُ الفــؤادُ فــي كــلِّ حســنٍ ... أمْ يُغَنِّــي لــوحــده فــي الــزِّحــامِ

رُغــم أنَّ الــزَّمــان للقلــب غِــلٌّ ... لا يــذلُّ الــزَّمــان قلــبَ هُمــامِ

أيهــا المسلــمُ الــذي يشتكينــي ... لا تَلُمْنــي فــأنــتَ تفضــحُ عينَــكْ

لا تخفْ من صراحتي في حديثي ... إنَّ هــذا الحــديــث بينــي وبينــكْ

طيــرانُ الأنبيــاء ليــس كهــذا ... مــالــكَ اليــوم فــي السَّمــاءِ اجتيــازْ

ليــس يعنــي إنْ كــان جــدُّك بــازاً ... أنَّــك اليــوم بــالــوراثــة بــازْ

آهِ للمُسلــم الــذي بــات رسمــاً ... شَغَلَتْــه عــن الحيــاة جُــدُوْدُه

سألوني فقلت : يوجد ، قالوا : ... أيــنَ سلطــانُــه وأيــنَ وجــودُه

لا يبــالــي الــدَّرويــشُ عُسـرَ طريــقٍ ... ويــرى العُسْــر عــونَــهُ ونصيــرَه

اســـألِ اللهَ أن تكـــونَ بصيـــراً ... فســلاحُ الــدَّرويــش نــورُ البصيــرهْ

إنَّهــا الــذَّاتُ عنــدمــا تتجلَّــى ... تَنْعُــمُ النَّــاسُ فــي ظــلال النُّبُــوَّه

إنَّهــا نَفْسَهــا حجــابُ إلــهٍ ... عنــدمــا تــأخــذ الكتَــاب بقــوَّهْ

تَصِلُ الــذَّاتُ قــابَ قــوسيــن لكــنْ ... لا تــرى نَفْسَهــا بعــرشٍ وكــرســي

كــلُّ شــيءٍ هنــاك تُغْــرِبُ عنــه ... صــرخــةُ الفَجْــرِ فــي قــرارة نفســي

صَنَــمُ العَيْــنِ كــلُّ لــونٍ تــراه ... يجعــلُ الكــونَ هيكــلاً للعُقــولِ

---

(١) كما قصَّ الغزنوي ضفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بضفائر أوروبة فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .

إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمْكِنٌ أنتَ أنْ تكونَ خليلاً   في صُراخِ الصَّباحِ بعد الأفولِ
فيمَ هذا المُحبُّ يَعْبَثُ سُكْراً   بحبالِ الصَّيْدِ الَّتي أوقعته
لم تَزِدْهُ الشِّباكُ إلا حُبُوراً   وكأنَّ الشِّباكَ قد أطلقته
عِلْمُ رازيْ تَهَوُّرٌ وانحدارٌ   وحياةُ القلوب علمُ القَلَنْدَرْ
قِمَّةُ الفِكْرِ والمحبَّة تبدو   في السُّلوك الذي يمتُّ لِحَيْدَرْ
أينَ منْ أطلقَ الحياةَ بعقلي ؟   أينَ ذاكَ الَّذي أبادَ حَصَادي
هو في عُزلةِ الفؤاد مقيمٌ   وسؤالي الوحيدُ أينَ فؤادي ؟
أنا لا أركبُ الهوادجَ هذي   أنا لا أمتطي الرِّكابَ دليلا
أرشدُ الرَّكبَ للطريق وأمضي   لستُ عمَّا يُفَتِّشون بديلا
حطبُ المَوْقِدِ الغليظِ مُملٌّ   وأنا رغبتي بحرق الدِّقاقِ
أنا لا أمْنَحُ الحصادَ لحقلٍ   عملي الفردُ والوحيدُ احتراقي
قد تنفَّسْتُ ليس من نارِ قلبٍ   نفساً بارداً أهاجَ رمادا
شعلةُ الفِكْرِ للطَّريق ضياءٌ   ودليلٌ له ولَيْسَ مُرادا
أرضُنا هذه لطُهْرِك تهفو   أنتَ برهانها وأنتَ هُداها
قلبُك المطمئنُّ قبضةُ نورٍ   مَنَحتْ أعْيُنَ السَّماء مداها
عن يدِ الله طِرْتَ لا عن غباءٍ   أنتَ شاهينُه وأنتَ رسولُه
ولكَ الحُورُ والملائكُ صَيْدٌ   ذاك دينٌ وليس شعراً أقولُه
أتُرىٰ ما لِلْمُسْلمين نصيبٌ   من جنونِ الحبِّ الَّذي أطلقوه
دمُهم كان للشُّعوب مناراً   ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها   لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ   وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو   ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيداً ووحِّدِ الله واكشِفْ   سِحْرَ ألواننا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ   يدرسُ الشاطىءَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ   لا تغرنَّك الإقامةُ فيه

النَّـدى شـفَّ عـن صُـدور ورودٍ ... ليـس فيهـا مـن الخـلاعـة كُـفْءُ
فـوَّر الخضـرةَ النسيـمُ صبـاحـاً ... فـورةً مـا لهـا هُنـالِـكَ دِفْءُ
احمـرارُ الشَّقيـق صـورةُ نـارٍ ... ضـاعَ فـي غمـرةِ الحيـاةِ فـؤادُهْ
شعلـةُ العقـلِ للمسـافـرِ عـونٌ ... والَّـذي يُلهِـبُ الطَّـريـقَ مُـرادُهْ
مـا هـو العقـلُ ؟ إنَّـه ليـس إلَّا ... نـارَ مصبـاحنـا بهـذا الطـريـقِ
وضجيـجُ الطَّـريـق مـنْ فعـلِ قلـبٍ ... ليـس للعقـلِ مِنْـهُ غيـرَ بـريـقِ

* * *

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبِّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظيرٌ في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكارُ الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفَّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصَّادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمَّنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء، وأنَّ الآثار التي تخلفها الأجيال، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[1] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النُّور

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والسُّرور ونشوةَ الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالةٌ لا يزال في سير وانتقال ، وحلٍّ وترحال، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « **تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت** » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « **إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلقه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللَّوعة واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟!** » .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[1] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « **انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيدُ والإيمان** » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمّة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكمُ البنيان ، كثيرُ الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « **إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة !** » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « **إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانُه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب**

وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتَّوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السَّامي ، ومسراتِه وأشواقَه ، وتواضعَه ودلالَه » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : « إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبةٌ ، فتَّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة ، أُلقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ، قويٌ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول : « يا مثابةَ هواة الفنِّ ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدَّست في أعين المسلمين ، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنَّى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أنَّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « **لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[1] ، هكذا الرُّوح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادثَ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل** » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « **إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيَّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبةً عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها** » .

ثم يعود مرَّةً ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « **كلُّ حياة لا تجديد**

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بتَّارٌ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختتم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجاربَ واسعةٍ ، ودراساتٍ عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا[1] ؟

* * *

(نُظمَتْ في مسجد قرطبة)

إنَّ هـــذي الصـــرخـــةَ اليـــومَ التـــي تفضـــحُ أمـــري
صـــرخـــةُ القلـــبِ التـــي خبَّـــأتهـــا طيلـــةَ عُمْـــري
صحبـــةُ الأطهـــارِ نـــورٌ ورضـــا الله حُبُـــور
وشقيـــقُ الـــرَّوض كـــاســـاتٌ علـــى النَّهـــر تـــدور
هـــاهنـــا يمكـــن أنْ أذكـــرَ وَغثَـــاءَ المسيـــرْ
ووضـــوئـــي لِصـــلاتـــي مـــنْ دَمِ القَلْـــبِ الكسيـــرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني النَّدوي .

مــع مــنْ يمشــي الَّــذي يمشــي علــى هــذا الطَّــريــقْ
وأنـــا إلَّا رجـــائــي ليــسَ لــي فيــه رَفيــقْ
أيكــونُ القَضــرُ عُشِّــي وأنـــا أكــره لــونَــهْ
أنْــتَ ذاك العُــشُّ والغُصــنُ الــذي يَسْتُــر كــونَــهُ
أنْــتَ مــن أطلقــت مــنْ صــدري صــراخَ الفَجْــر بعثــا
لــي مــن التَّــوحيــد نــارٌ تُلْهِــبُ العــالــمَ بحثــا
بــكَ أنفــاســي تغنَّــى لــكَ تغــدو وتــروحْ
ذات شجــوٍ وحمــاسٍ ونــدوبٍ وجــروحْ
أملــي أنــت وشُغلــي طلبــي أنــتَ الــوحيــد
وأنـــا هــذا نصيبــي غيــرَ هــذا لا أُريــد
عنــدمــا تخطِر قــربــي تصبــحُ الصَّحــراءُ بحــرا
وإذا لــم تــكُ فــي البُستــان فــالبُستــان صحــرا
أتمنَّــى مــرَّةَ أخــرى ولــو جــرعــةَ كــأسٍ
علَّ أنْ أخــرجَ يــومــاً مــنْ طــوافــي حــولَ نفســي
أنــا منهــا فــي خمــارٍ كيــفَ لــي أشــربُ منهــا
كــلُّ حــانــاتِ الــورى حطَّمْتُهــا فــي البَحْــثِ عنهــا
أيُّهــا السَّــاقــي متــى تنظــرُ لــي عيــنُ حنــانــك
ومتــى الجمهــورُ بــالأقــداح تــروي مــنْ دِنــانــك
خلقُــك اللَّهــمَّ هــذا لــم يَــذُقْ ذوقَ فتــونــي
وأنـــا ، إنْ لــمْ تبــدِّلْــه يبــدِّلْــه جنــونــي
مــا هــو العــارُ الــذي يَلْحــقُ هــذا الفيلســوف
وهــو بــالســرِّ الــذي خبَّــأتَــه أنــت يطــوف ؟!

* * *

نسمــةُ الأسحــار هــذي نفحــةُ اللهِ الخبيــزْ

فـــي نسيـــج الـــرُّوح يجـــريهـــا كنُشْـــغٍ فـــي الضَّميـــر
يصبـــح الـــرَّاعـــي كمـــوســـى بتعـــاليـــمِ شُعيـــب
﴿ لا تخـــف ﴾ سيـــفٌ فخـــذهـــا وهْـــي وحـــيٌ دون ريـــب

* * *

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصةٍ في قرطبة)

(١)

ضيـــاءُ الصُّبـــحِ بعـــد الليـــلِ آتِ (ومـــن هـــذيـــن كـــلُّ الحـــادثـــاتِ)
همـــا فـــي الـــدَّهـــر خيـــطٌ مـــنْ حـــريـــرٍ تلـــوَّن بـــالحيـــاة وبـــالممـــاتِ
همـــا إيقـــاعُ أغنيـــةِ الحِجَـــابِ ولحـــنُ الحـــقِّ فـــي هـــذي الـــرِّحـــاب
علـــى وتـــر الخُلـــود لهـــم نشـــاطٌ مُلِـــمٌّ بـــالقَـــرار وبـــالجَـــواب
وعنـــدهمـــا بكـــلِّ النَّـــاسِ علـــمٌ همـــا حجـــرُ المحَـــكِّ لكـــلِّ شَعْـــبِ
فـــلا تفخـــرْ بقلبـــك دون زيـــفٍ وجـــرِّب مثلمـــا جَـــرَّبْـــتُ قلبـــي
فـــإن هـــو كـــان زيفُـــك مثـــلَ زيفـــي ولـــمْ يـــكُ لـــي ولا لـــكَ أيُّ قيمـــهْ
فعيـــدُك مثـــلُ عيـــدي عيـــدُ مـــوتٍ وحظُّـــك مثـــلُ حظِّـــي فـــي الـــوليمـــه
ومـــا المعنـــى ليـــومِـــك أو ليـــومـــي بـــلا ليـــلٍ يكـــون ولا نهـــار
إذا عبـــر النُّبـــوغُ بـــأرضِ قـــومٍ تـــولَّـــى مثـــلَ زوبعـــةِ الغُبـــار
حكـــايـــةُ كـــوننـــا وهـــمٌ وظـــنٌّ وهـــذي كـــلُّ أطـــوار الحكـــايـــهْ
مـــن العَـــدَمِ البـــدايـــةُ أخـــرَجتنـــا وتـــرمينـــا إلـــى العَـــدَمِ النِّهـــايـــهْ

(٢)

المـــوتُ لا يَمْحـــو رجـــالَ اللهِ مـــنْ هـــذا الـــوجـــود
الحـــبُّ فـــي دمهـــم تلـــوَّنَ بـــالثبـــاتِ وبـــالخلـــود

مهمــــا يكـــنْ جـــريـــانُ هـــذا العصـــرِ جبَّـــاراً عنيفـــا
فـــالحـــبُّ يَجْـــرُفـــه ولكـــنْ سيلُـــه يَبْـــدُو لطيفـــا
الأمـــسُ والغـــدُ ليـــس وُجْهتَنـــا الَّتـــي نسعـــى إليهـــا
الحـــبُّ أزمنـــةٌ بـــلا أسمـــاءَ نُطلِقُـــه عليهـــا
مـــا الحـــبُّ ؟ مـــا هـــو ؟ إنَّـــه وثبـــاتُ أوقـــاتِ الصَّفـــا
فـــي نفحـــةِ الـــوحـــي الأميـــنِ علـــى فـــؤادِ المصطفـــى
مـــا الحـــبُّ ؟ سكـــرةُ وردةٍ خَلَـــعَ الجمـــالَ عـــذارُهـــا
لَعِـــبَ النَّسيـــمُ بهـــا عليـــه فقطعـــتْ أزرارَهـــا
الحـــبُّ فـــي ســـاحِ الجيـــوشِ هـــو المقـــدَّمُ والنَّبيـــه
والحـــبُّ فـــي الحَـــرَمِ الشَّـــريـــفِ هـــو المشـــرِّعُ والفقيـــه
أســـألْ بـــه متسكِّعـــاً خلْـــفَ الهـــوادجِ والقـــوافـــلْ
بيـــن الألـــوفِ مـــن المنـــازلِ والألـــوفِ مـــن المـــراحـــلْ
الحـــبُّ ليـــسَ مغنِّيـــاً الحـــبُّ إبـــداعُ الأغـــانـــي
أوتـــارُه نـــورُ الحيـــاة وقـــوسُـــه نـــارُ المعـــانـــي

***

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و(٥) و(٦)

قصـــرُ التَّـــاريـــخ ومسجـــدُهُ مـــا أروعَ مـــا صَنعـــتْ يـــدهُ
لِلْقَـــوْمِ بِصَـــدْرِ حكـــايتـــه صـــوتٌ مـــا زال يُـــرَدِّدُهُ
ظمـــأٌ لا ريَّ لـــهُ وبـــهِ طلـــبُ الظمـــآنِ ومَقْصِـــدُهُ
يـــزدادُ بـــرؤيتـــه ولهـــاً ويـــريـــدُ يقـــومُ فَيُقْعِـــدُهُ
وكـــأنَّ عـــلائـــقَ زينتـــه خَفَقـــاتُ القَلْـــبِ ومَعْقِـــدُهُ
فـــي الصَّخْـــرِ فنـــونُ ســـرائـــرنـــا بلطـــائفنـــا نتعهَّـــدُهُ

لِيَهِيْجَ رنينُ جوانبه بأنين الرُّوحِ نزوِّدُهُ
يا ظلَّ الغَرْبِ ودوحتَه من ذا تاريخُك يجحده
بكَ أضحتْ تربةُ أندلسٍ حَرَماً في الغربِ نُمجِّده
لاندَّ له في سؤدده إلا الإيمانُ وسؤددهُ
عربيُّ اللَّحن حجازيٌّ روحُ الإسلام تُخلِّدهُ
يمنيُّ العِطْرِ تهبُّ به أنسامُ الشَّام وَتَحْشُدُهُ
نظراتُ ظبائِك لاعبةٌ بسهامِ الحبِّ تكبِّدُهُ
أنا من كفَّارِ الهند وفي نظراتي ما لا تَجْحَدُهُ
وحماسةُ أغنيتي هذي من لحنِ قَلْبِك يُنْشِدُهُ
وصلاةُ الحبِّ على شفتي (وعلى خديكَ تورُّده)
الفتنةُ وجهُكَ يوقدها وأنا أشرحُ ما تُوْقِدُه
توحيدُ اللهِ لنا نورٌ وحياةُ القَلْبِ توحُّدُهُ
لو كلُّ رياحٍ في الدُّنيا اجتمعتْ لا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يحكيك جمالاً وجلالاً رجلٌ للهِ تعبُّدهُ
وحماسُ ضحاه وَوَجْدُ مساه وما يخفيه له غدهُ
ومسرَّتُه ومحبَّتُه وتواضُعُهُ وتودُّده
عذبُ الكلماتِ خفيفُ الرُّوحِ رقيقُ القلبِ مُسَهَّدهُ
أبديُّ الحبِّ نقيُّ الحَزْبِ مصونُ العِرْضِ مهنَّدُه
وعلى يده لله يدٌ بلطيفِ القُدْرَةِ تَعْضُده
العالمُ قصرُ خلافته وسماءُ العَالمِ مَعْبَدُه
سرُّ الكونين بنظرته وعن الكونين تجرُّده
وسرابُ العَصْرِ بنورِ الدِّين ونارِ الحبِّ يُبَدِّدهُ
هو أوَّلُ سرٍّ في الدُّنيا ورجاءُ الكون ومَقْصِدُهُ
هو مِثْلُكَ شاغل عالمه بقديمِ الحُسْنِ يُجَدِّدُهْ

كنخيــل الشَّــام وأعْمُــدِهــا شَمَخَــتْ فــي المسجــدِ أعمُــدُه
تتــألَّــقُ زرقــةُ قبَّتــهِ وتقيــمُ الليــل وتُقْعِــدُه
وتَنَهُّــدُهــا فــي وَخْــدتهــا كــالطُّــورِ كــواهُ تنَهُّــدُهُ
بَعَثَــتْ جبــريــلَ منــائــرُهــا بجمــالٍ أنْــتَ مُحمَّــدُه
نــادى إبــراهيــمَ ومــوســى لشهــودِ هــذا مَشْهَــدُه

(٧)

إنَّ أرضــاً أنــتَ فيهــا لسمــاءٌ لِلْعُيــونْ
كيــف لــم يسمــع أذانــاً أهلُهــا مُنْــذُ قــرونْ
ليــت شعــري كيــفَ أســرى مــوكــبُ الحــبِّ الغَضُــوبْ
ليــت شعــري مــا يــرى الآن وفــي أيِّ الــدُّروب
هيَّــج الألمــانُ حــولَ الــدِّيــن إصــلاحــاً عــريقــا !
بــدَّدَ الأســرارَ لــم يتــركْ لهــا بيتــاً عتيقــا
أصبحــت منــه هبــاءً عصمــةُ البــاب العجــوزْ
وأفــاق الفِكْــرُ لا يعــرفُ شيئــاً لا يجــوزْ
منــذ أنْ ثــارتْ فــرنســا بــدأ الغــرب العِــراكــا
لــمْ تَعُــدْ تُبْصــرُ فيــه بعــدهــا إلا ارتبــاكــا
هــي ذي رومــا التــي شــاخَــتْ علــى العَهْــدِ القــديــم
تحتســي خمــراً جــديــداً معهــا البــابــا نَــدِيْــم
فــي فــؤادِ المُسْلِــمِ اليــومَ كهــذا الغَليــان
هــو ســرُّ الله عــن تبيــانــه كــلَّ اللســان
فــارقُبــوا مــنْ ذلــكَ الــواثــبُ فــي بحــر القضــاء
وارقبــوا الكُــوبَ الــذي يختــارُه مَــاءُ السَّمــاء

(٨)

تميـــلُ سحـــابـــةُ الـــوادي فتحكـــي فيـــه غطـــاســـا
رمَتْهـــا الشَّمـــسُ بـــاليـــاقـــوتِ أكـــداســـاً فـــأكـــداســـا
وأغنيـــــةُ ابنـــــة الفَـــــلاَّح تُطْـــربُ رُغْـــمَ ركَّتِهـــا
بِـــرقَّتهـــا إذا غَنَّـــت وآهتهـــا وأنَّتهـــا
كـــأنَّ غنـــاءَهـــا فيـــضٌ يُقـــلُّ سفينـــةَ القلـــب
تغـــازلُ نهـــرَ قُـــرْطُبَـــة الـــذي يـــذخـــرُ بـــالحـــبِّ
هنـــالـــك يَـــرْتَـــعُ السَّـــاري هنـــالِـــكَ تَصْـــدَحُ الـــورقُ
كـــأن النَّهـــر تـــاريـــخٌ يغنِّـــي فـــوقـــه الشَّـــزقُ
نعـــمْ ، مـــا زال عـــالَمُـــه الجـــديـــدُ يحـــوطُـــهُ القَـــدَرُ
ومثلـــي ليـــسَ يُعْجـــزُه علـــى إدراكِـــه نَظَـــرُ
ولـــو هَتَكْـــتُ أستـــاري وأسْفَـــرَ وجـــهُ أفكـــاري
لَكـــلَّ الغـــربُ أن يحمـــل مـــا غنَّتـــه أوتـــاري
حيـــاةٌ ليـــس فيهـــا ثـــورةٌ مـــوتٌ لطـــالبهـــا
وهـــل لحيـــاتنـــا فكـــرٌ يكـــونُ لغيـــر غـــالبهـــا
وبـــدءُ الفِكْـــرِ بـــدءُ تـــأهُّـــبِ الأحـــرار للخَطَـــر
وشعـــبٌ واثـــقُ الخطـــوات سيـــفٌ فـــي يـــدِ القـــدر
إذا الآثـــارُ جـــوهـــرنـــا أبَتْـــهُ عـــابَهـــا النَّقْـــصُ
وإنْ لـــم تـــأخـــذِ الأنغـــامَ عنَّـــا أضحـــكَ الـــرقـــصُ

* * *

صرخة « المعتمد »[1] في السِّجن

تكـادُ صـرخـةُ قلبي عنـد حَنْجَـرتـي تشـقُ مـن كَتْمها قلبـي وتنطلـقُ
كـأنَّهـا جمـرةٌ فيـه بـلا شَـرَرٍ قلبـي بهـا دون كـلِّ النـاسِ يحتـرقُ
كـذاك تفعـلُ بـالحـرِّ الحيـاةُ إذا أرادَ شيئـاً وحـالـتْ دونَـه الطُّـرقُ
أليـسَ عـاراً علـى الأحـرار يسجنُهُـمْ مـع العبيـد دعـيٌّ جيشُـهُ الحَمَـقُ
لعـلَّ فـولاذَ سيفـي صِيْـغَ ثـانيـةً غـلاً لكفـي الَّتـي لـم يَثْنِهـا فَـرَقُ
لا أشمـتَ اللهُ بـالأقـدارِ حـاسـدَنـا فليـسَ شـيءٌ مـن الأقْـدار يُسْتَبَـقُ

* * *

(١) المعتمد بن عبّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .
وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى[1]

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٣/ ٥٤ وقد غُرِسَت النَّخلةُ في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقريّ) .

تبدَّت لنا وسط الرُّصافَةِ نخلةٌ   تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخل
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنَّوى   وطولِ اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ   فمثلكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المُنْتأى الذي   يسُحُّ ويستمري السِّماكينِ بالوَبْلِ

---

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترعْرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرُك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارَك في الأرض الغربيَّة
عسى أن يكونَ ندى الصَّباحِ هو الذي يَسْقيك .

(٢)

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربةُ مثلنا ... وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرَّملِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى ... مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي
وما منْ حياةٍ للَّذي أنِفَ الرَّدى ... وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً ... وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ
وما ضرَّنا مُلْكٌ تركناه خلفنا ... فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرنا ... وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَضَبَتْ أجسادُنا منْ دمائِنا ... فمنزلُنا ريَّانُ من غَدَقِ البَذْلِ
ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ

* * *

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردَّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضرةٌ تتجدَّد

* * *

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ
ملؤوا وهادَك بالخيامِ ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ
إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ
يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلماً ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

* * *

ما كان صقرُ قريشٍ غيرَ موحِّدٍ عجباً أما في المسلمين موحِّدُ
خَمَدَتْ حقيقتُنا وزالَ لهيبُنا وبريقُ قرطبةَ الشَّريدُ مخلَّدُ
ووقفتُ لا نومي حَمَدْتُ ولا السُّرى أتكبَّد الجرح الذي أتكبَّدُ
عانيتُ مشهدهم وقُلْتُ وقيل لي سِيَّان قولٌ في العزاء ومَشْهدُ

* * *

ستُهتك الأستارُ عن سينائنا وتُباحُ أسرارٌ لنا وتُبدَّدُ
ويكونُ أول من يقومُ بهتكها للناس أولَ مصلحٍ يتحمَّدُ

* * *

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « **أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** »[1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرةٍ ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمةَ السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوةً لا تُهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

---

(١) قطعة من خُطْبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلِّداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلوَّ همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويِّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]. حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢](٢) .

* * *

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظمت في ساحة المعركة في الأندلس »

هـذي الكُمَـاة عبـادُك الأخيـارُ ... حملـوا عَنَـاءَ العـالميـن وسـاروا
أصحـابُ سـرِّكَ والسِّيـادةُ طبعهـم ... والنُّـور فـي نظـراتهـم والنَّـارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم ... وتـراجعـت لخطـاهـمُ الأنهـارُ
البَحْـرُ حَبَّـة خـردل فـي كفِّهـم ... والعِشْـقُ فـي أرواحهـم إعصـارُ
عـزفـوا عـن الـدَّاريـن إلا أنَّهـم ... علـمٌ علـى الـدَّاريـن لا ينهـارُ
نيـلُ الشَّهـادة للمـوحِّـد مطمـحٌ ... وإذا تقحَّـمَ فـالجـراحُ غبـارُ
لا سَبْـيَ غـانيـةٍ وسَلْـب خـزانـةٍ ... ومطـامـحُ الهمـمِ الكبـارِ كبـارُ
كلُّ العباد على اختلافِ عروقهم ... تـرجـو رجـاءَ شقـائـقِ النُّعمـانِ
تـرجـو مـن العـربـيِّ لـونَ دمـائـه ... وتضـجُّ ليـلَ نهـارَ فـي البُستـانِ
ربَّـاه أنـت بَعَثْـتَ مـن صحـرائهـم ... سكَّـانهـا وجعلتهـم أفـذاذا
ومـلأتَ صَـدْرَ الصُّبـح من آهـاتهـم ... وجَعَلْـت أعـرابيَّهـم أستـاذا
طـوتِ الحيـاةُ الـدَّهـر تنشـد طُلْبـةً ... عـزَّتْ وطلبتُهـا مـذاقُ النَّـار
وبـروحهـم عثـرتْ عليهـا بعـدمـا ... كلَّـت مـن التِّـرحـال والتِّسيـار
المـوتُ ليـس نهـايـةً فـي عينهـم ... هـو للبصيـرة بَـابُهـا المفتـوحُ
ربَّـاهُ ! فـابعـث مسلميـن أعـزَّةً ... يتـوسلـون كمـا تـوسـلَ نـوحُ
لتغيُّـرات العَصْـر مـن ثـوراتـه ... وهـمٌ وأنـت الفـرد لا تتغيَّـرُ
ربـاهُ ! أنـت هـو الحقيقـةُ كلُّهـا ... والنَّـاس منهـا مـوسـرٌ أو مُعْسـرُ
الـدَّهـر ملـك يـديـك ليـس لأهلـه ... إلا ظنـونُ الـواهـم المتقـوِّلُ
يتنـازعـون علـى تفهُّـم عـالـمٍ ... سكـرانَ مـن مـاضٍ ومـن مستقبـلِ

* * *

« لينين » أمام الله[1]

يـــا مـــن نـــرى فـــي النَّفـــس والآفـــاقِ مـــن آيـــاتـــهِ
الحـــقُّ : أنَّـــك خـــالـــدُ حـــيٌّ يقـــوم بـــذاتِـــهِ
مـــا كـــان يمكـــنُ فـــي وجـــودك أنْ يكـــونَ علـــى يقيـــنْ
والعقـــلُ يخـــرجُ مـــرغمـــاً عـــن رأيـــه فـــي كـــلِّ حيـــنْ
مـــا كـــان يـــدركُ عقلُنـــا فـــي طيـــشِ نظـــرتـــه السَّـــريعـــهْ
مـــا كنـــتَ تُـــرْسلُـــه مـــن الأنغـــام فـــي خَلَـــدِ الطبيعـــهْ
سِيَّـــان رصَّـــادُ النُّجـــوم ومـــن تـــوغـــل فـــي النبـــات
وقفـــوا علـــى مِـــرْصـــادهـــم والكـــلُّ ينقصـــه الثبـــات
اليـــومَ أعلـــنُ بعـــدمـــا شـــاهـــدت عـــالمـــك الأخيـــرْ
وأنـــا الـــذي كـــابـــدتُ أفهمُـــه وعـــانيـــت الكثيـــرْ
أنِّـــي ـ وتعلـــم ـ لـــم أكـــنْ وحـــدي هنـــالـــكَ فـــي غُـــرور
كـــانـــت أســـاطيـــر الكنيســـةِ حـــول عَتَمَتِنـــا تـــدور

---

(١) علَّق الأستاذُ الملُوحي على القصيدة بقوله : يهمُّ القارىء أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص٧٣ :
هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطىء من يرى فيها تغيُّراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
ويجب أن نقول إنَّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرَّاعد الذي كلُّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص٧٩ وما بعدها .

كنَّــا هنــاك مكبَّليــن بكــلِّ أغــلالِ الليــالــي
أيــامَ أنــتَ تصــوِّر الأزمــانَ فيــه علــى التَّــوالــي
قلبــي يمــزِّقــه ســؤالٌ فيــه فــائــذن بــالســؤال
تــركَتْــه خــوفــاً مــن عــواقِبــه أبــاطــرةُ الجِــدال
هــذا الســؤال وكــان طــول العُمْــرِ يــرمينــي شــريــدا
ويثيــرُنــي تحــت السَّمــاء أســيَ ويتــركنــي وحيــدا
هــذا الــذي ألقــى بــأيــامــي حُطــامــاً فــي الــوِهــادِ
هــذا الســؤالُ وكــان مغــروســاً كشــوكٍ فــي فــؤادي
هــذا الســؤال عــن الأنــام ولــن أجــور علــى الأنــام
وأنــا تضــايقنــي مــراقبــة الطَّــريقــة فــي الكــلام
فــالمــرءُ لمــا تعصــفُ الأفكــارُ فــي أرجــاء روحــه
لا يستطيــع تخيُّــر الكلمــات تخــرج مــن جُــروحــه
[مــنْ كــان آدمُ حيــنَ كــان الطيــن صلصــالًا عليــه
مــنْ كــان سيِّــده ســؤالٌ لا أوجهــه إليــه]
إيَّــاك يعبــد ـ لا أظــنُّ وأنــتَ عــلَّامُ الغيــوب ـ
عــاصَــرْتُــه أيــامَ كــان الــدِّيــن أفيــونَ الشُّعــوب
عــاصَــرْتــه متــرنِّحــاً بهيــاكــل الصَّنــم القبيــحْ
فــي درب أوربَّــة التــي ائتمــرتْ علــى الشَّــرق الجــريــحْ
فــي درب أوربــة التــي تبــدو منــاراً للحيــاة
والحــقُّ أنَّ النَّبــع فــي ظلمــاتهــا نبــعُ الممــات
تــاهــت بــأبنيــةِ المصــارفِ فــوق أبنيــةِ الكنــائــس
وأتَــتْ لهيكلِهــا الجــديــدِ بكــلِّ أنــواعِ النفــائــس
قــالــوا تجــارات تــدارُ وكــلُّ مــا فيهــا قمــار
ومصــادفــاتٌ تجعــل البُلــدان فــي جيــب الكِبــار
أيُّ السيــاســةِ والحكــومــةِ والكنيســةِ والسَّمــاء

رفعوا مساواةً تقال وأشربوا حُبَّ الدماء

العُزيُ والفقر المبادلُ والبَطالة والفَساد

آياتُ أوربَّة التي انتشرت بأنحاءِ البلاد

أسفاً لشعبٍ كاملٍ ردَّ المحبَّة للسَّماء

حُصِرَتْ روائعُه بما أوحتْ إليه الكَهْرباء

لم يَبْقَ بعد حكومةِ الآلات معنىً للقلوب

كان الحنان ملاذُنا فَمَحَتْه من بين الشُّعوب

وبرُغم هذا كلِّه تبدو الدَّلائِلُ أنَّهم

سيُبَدَّدُون وَيَقْرَعون على الهزيمةِ سِنَّهم

حاناتُهم وقعت بما نصبوه من تلكَ الشِّباك

فإذا شيوخُ السُّكر مما يشربون بلا حَراك

الحمرة الملقاةُ فوق وجوههم عِنْدَ المساء

آثارُ خمرٍ زائفٍ وخضابِ زورٍ لا دِماء

ربَّاه ! أنت القادرُ الحقُّ الرَّحيم العادِل

من ذاق من مرِّ المعيشة ما يذوقُ العامِلُ

الرأسماليون مركبُهم يُعَرْبِدُ في بحارك

فمتى تُغَرِّقُه وتأخذُ من مظالمهم بثارك

* * *

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لينين »

الفِكْـــرُ حـــرٌّ لا يُـــرَدُّ جِمــاحُــهُ   والحــبُّ لا مــأوى لــه يُـؤويــهِ
ربـاه ! لـوحشُـك التي لـم تكتمـلْ   جـارت علـى السرِّ الَّـذي تطـويـه
كُهـان خلقـك فـي صفـوف طُغـاتهـم يَقِفُـون للبسطـاء بـالمرصـادِ
محـنٌ صبـاحَ مسـاءَ لا معنـى لهـا إلا لجـوءُ النَّـاس لـلإلحـادِ
فقـراؤهـم مـن بـؤسهـم فـي سكـرةٍ   والأغنيـاء مـن الـرَّفـاه سُكـارى
عبـدٌ يلـمُّ مـن الشَّـوارع خبـزَه   عـوَزاً ، وعبـدٌ يُطْعـمُ الأقمـارا
هـل تَسْلَـمُ الحكمـاءُ والفقهـاءُ من   طمـعٍ تـأجَّـج فـي النُّفـوس وَقِيْـدُهْ
أمْ تَسْلَـمُ الآراءُ مـن لعنـاتـه   هـذي عطـايـاه ، وتِلْـكَ عبيـدُهُ
يـرعَـونَ كـلَّ ضغينـةٍ لبقـائهـم   والحـبُّ مـن ألـم الشَّقـاء يصيـحُ
سبحـانَـك اللهـمَّ فـالحـبُّ الـذي   يـأسـو جـراحَ البـائسيـن جـريـحُ
ذاتُ الحيـاةِ الحـبُّ جـوهـرُ سرِّهـا   والحـبُّ جـوهـرُه حيـاةُ الـذَّاتِ
أسفـاً لهـذا السيـف يخبـطُ سـرَّه   فـي الغِمْـدِ بيـن الـذُّلِّ والآهـاتِ

* * *

« أوامر الله للملائكة »

قـومـوا إلـى كـونـي الغـريـقِ وأطلقـوا فقـراءَه فيـه علـى الأمـراء
أيبـدِّلـون مسـاجـدي بقصـورهـم   جـوراً علـى خلقـي وهـم أُجَـرائـي

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا   فيهم ولا تأسَوا على أسراره
قولوا لحائرِهم تبدَّل أمرُكم   فاستبدلوا بَرْدَ اليقين بنارِه
قوموا إلى ضعفائهم وهَبُوهُمُ   ما يجعلُ العُصفورَ يَصْرَعُ بازا
وامحوا منَ الماضي جميعَ ذيوله   لا تتركوا للجامِدين مفازا
وخذوا من العَذل الأخير لأرضهم   سيفاً يقيمُ بحدِّه الإصلاحا
وتقلَّبوا بالنَّار في الحقل الذي   تجدونه لا يشبعُ الفلاَّحا
لم هذه الحُجُبُ التي تلهو بهمْ   وتحولُ بينَ الخلقِ والخلاَّقِ
لا تتركوا في الأرض ستراً مسبلاً   أرخاه كاهنُهم على أرزاقي
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقينَ بلُجَّة الأوهام
لله قد شُرع السُّجود وما عدا   هذا، مؤامرةٌ مع الأصنامِ
جوسوا الكنائسَ والمساجدَ لا   أرى لكنيسةٍ ولمسجدٍ مصباحا
أنا غير راضٍ عن رخامٍ أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا
وابنوا من الطِّين المعابدَ علَّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ
يتنافسون بِنَقْشِها   وبرَقْشِهَا والطِّينُ لا يهديه إلا الطِّينُ

* * *

فتَّشتُ في هذي الحضارةِ كلِّها   لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير
فتداركوا الشَّرقَ الذي يرنو لها   وليغلُ شاعرُه بصوتِ نكيرِ
في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها   تهديمُ صَرْحِ الذَّات في الإسلام
وصميمُ ذاتك في حوار إلهها   وحوار موسى ليس محضَ كلام
آثارُ دروشةِ القلندر لم تعُدْ   سراً ودروشة القلندر تاجُهُ
في كبرياء الفقر صونُ ذواتنا   والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُه

* * *

في أرض فلسطين

تحرَّكت السياراتُ التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، ودخلت في الفضاء الواسع، وطلعت الشمس، وأرسلت خيوطها الذهبية، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر، والتقى جمال المكان بجمال الزمان، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي، وبدأ يتمتَّع بهذا المنظر الخلاب، ويسخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب، فكلُّ نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالربح العظيم، لأنها تشحن «بطاريته» بالنور الجديد، والقوة الجديدة.

هذا وقد تهيأ الجو، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون، وهبَّ النَّسيم عليلاً بليلاً، وهفت أوراق النَّخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل، وأصبحت الرِّمال في نعومتها وصفائها حريراً.

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً، وأثافيَّ[1] منثورةً هنا وهناك، وبقايا من خيام وأخبية، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت.

وطاب المكان والزَّمان للشاعر، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

---

(١) الأثافي: الحجارة التي توضع عليها القدور.

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[1] .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنَّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلًا طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتيٌّ ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

---

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحبِّ أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : **« إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغيةُ المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون »** .

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلَّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة ، وقلة البضاعة[١] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدره .

الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « **إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد** » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « **إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب** » ، ويناجي ربه ويقول : « **إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد** » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍّ حلفاء ، ولكلٍّ معسكر(١) .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التفَّ حولها أبو بكر وعمر(٢) .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثرُ هذه الأبياتِ في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراكِ في المؤتمر العالمي الإسلاميِّ .

مــن الفقــرِ أن تــأتــي وفــاضــك فــارغٌ وقد طُفْتَ في تلكَ الرياضِ جميعِها(٣)

« سعدي »

نـزلـت بـريّـة الـوادي بـذي سلـمِ والشَّمس تـرتـعُ بيـن البَان والعَلَمِ

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحســرتــا قــد عــدت فــارغ اليــد مــن تحـف الـدنيـا لهـذه البلـد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفـاحَ ريـحُ صبـاحٍ مـن مـواجـدهـا ... يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقَم
بنظـرةٍ لجمـال الـوادي واحـدةٍ ... تقحَّـم القلـبُ منهـا ألـفَ مُقتحـمِ
وللمسـاء سحـابٌ مـن غـلائلهـا ... حمـراءُ زرقـاءُ مـن وردٍ ومـن عَنَـم
ألْقَـت بـراقـعَ مجـلاهـا علـى إضـمٍ ... وأومضَ البرق في الظَّلماء من إضمِ
نقيَّـةُ الخـدِّ سعـفُ النخـل مشـرقـةٌ ... مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
والرَّمل كالخزفي في أرجاء كاظمةٍ ... يموجُ فيها بما في الخزِّ من عَمَمِ
هنـا بقيَّـةُ أطـلالٍ ، هنـا لهـبٌ ... يذوي ، هنا بضعُ أشلاءٍ من الخِيَم
كمْ خَلْفَ ليلى ركابٌ منْ هنا عبرتْ ... وعـضَّ من لَغَبٍ نضـوٌ علـى لُجُم
هُـمُ أقـامـوا سكـارى هـاهنـا زمنـاً ... فـإنْ رضيـتَ بسكـر هـاهنـا أقـمِ
يـرى هنـا مـن نـأتْ عنـه أحبَّتُـهُ ... سَلُـوَّهُ ، ويهيـج الـوَجْـدُ بـالشَّبـم

(٢)

خمـرُ الحيـاةِ كمِثْـل السُّـمِّ عـاقبـةً ... عندي، ومن ذا الذي يُصْغي إلى كلمي
صيـاحُ وجـهٍ جـديـدٌ لا يقيـمُ لـه ... وزنـاً زمـانٌ تعـاطـى سكـرة القِـدم
أمـا لمعتـركِ الأيَّـامِ مـن طَمَـعٍ ... بغـزنـويٍّ جـديـدٍ غيـر منهـزمِ
عباد (سومناث) تخشى أن يحرِّمَها ... أمام (سومناث) مبعوثٌ من الحَرَم
لا في لهيبِ تراثِ العُرْبِ من رَصَدٍ ... يُرَجَّى ، ولا في غِنَاءِ الفرس من نَغَمِ
هل في الحجاز حسينٌ من بني مُضَرٍ ... وهـل هنـالك محمـودٌ مـن العَجَـم
ألا يهيـم علـى وجـه الفُـرات لهـم ... قلـبٌ ، ولـم يلقَـه خـالٍ ولـم يَهِـمِ
أحُسْـنُ دِجْلـة لـم يفتـنْ سـرائـرهـم ... وحسنُ دجلةَ في محرابهم صنمي
أمـا لهـم مـن بقـايـا الحـبِّ بـاقيـةٌ ... وهـم سـلالـةُ أهـل الحـبِّ والتَّيـمِ
أستغفـرُ الله هـل للـدِّيـن مـن قِيَـمٍ ... بغيـر حـبٍّ وهـل للشعـب مـنْ قِيَـمِ
بـالحـبِّ قـدَّم إبـراهيـم واحـده ... وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسين رُمي
فسـل حُنينـاً وبـدراً عـن حـروبهمـا ... كم ضرَّج الحبُّ فيهما من فؤاد كمي

في آية[1] الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولـو تجلَّيـت مـا أبقيـتَ مـنْ عِصَـم
لأجـل معنـاك مـا تلقـى ومـا لَقِيَـتْ قـوافـل القـوم فـي الـوِديـان والأكَـمِ

* * *

رهبـاننـا انقطعـت عنَّـا بـأديـرةٍ وكلُّ منقطعٍ في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلًا بالرُّغم من أنَّ ساقي الناشئين ظمي

* * *

أنا - وفي غزلياتي الَّتي اشتهرتْ بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قومٍ هنا عُدِمتْ أخبارُهـم وهنا سادوا على الأمـم

* * *

لِلشَّوك كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ونسمـةُ الصبـح للـرَّيحـان والسَلَـم
أنـا أعِيْـبُ علـى وردٍ بـلا جـذلٍ كمـا أعيـب علـى شـوكٍ بـلا ألـم

* * *

هـذا الغنـاءُ الَّـذي مـاج الـرجـاءُ بـه تسيـل أنفـاسُـه مـن مُهْجتـي ودمـي
كمـا تسيـلُ دمـاءُ العـازفيـن علـى أوتـارِهـم وتـروّىٰ مـن أكفِّهـمِ

* * *

فـلا تـدع لهيـاج القَلْـب فـرصتَـه فـإنَّ ذلـك يعنـي فـرصـةَ العَـدَمِ
أرجـو جـدائـل هـذا الشعـر تنصفنـي بمـوجـةٍ مـن معـانـي هـذه اللَّمَـمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللَّوحِ من قَدَرٍ وكـلُّ مـا فيـه مـن سطـرٍ ومـن كَلِـمِ

---

(١) يبدو أن إقبالًا في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .
ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لـو تنطـقُ القبَّـة الـزرقـاء ما كَـذَبَـتْ   بــأنَّهــا ذَرَّةٌ فــي بحــرِكَ العَــرِمِ

* * *

لـك الجـلالُ الـذي لـم تبـقَ روعتُـه   مِـنْ ملـك سِنْجـار إلا عبـرةَ النَّـدم
لـولا جمـالُـك مـا ذاق الجُنَيْـدُ نـوىً   ولا أهيـل علـى طيفـورَ بـالتُّهَـمِ
نـداكَ لا تَعْـرِفُ الأنســابَ نفحتُــهُ   يا منْ غَمَرْتَ جميعَ النَّاس بالكَرَمِ
إنْ لم تكن نُصْبَ عيني في الصَّلاة فلا   قامت على الزُّور في محرابها قدمي

* * *

مذاهبُ الفِكْر منْ بحثِ الغيابِ وَهَتْ   ومشهدُ الحبِّ منْ وَثْب الحضورِ دمي
بالرُّغم من ثورةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ   ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

* * *

(٥)

أنـا ـ وتعـرف أيـامـي التـي سلفـت   وما تحمَّلْتُ من كدِّي ومن سأمي ـ
مـا كنـتُ أعـرفُ أنَّ العلـمَ مضيعـةٌ   وأنَّــه سبــبُ الأطمــاع والنَّهَــمِ

* * *

هزرتُ كلَّ نخيلِ الفِكْرِ ما سَقَطَتْ   علـيَّ غيـرُ عـراجيـنٍ مـن الهَـرَمِ
لقـد تيقَّـظ وِجـدانـي الَّـذي عَصَفَـتْ   بــه مقــالاتُ مــوتــورٍ ومُنْتَقِــمِ

* * *

الفِكْـرُ مـن حيـث تـأتيـه أبـو لهـبٍ   وكلُّــه كلُّــه مكــرٌ مِــنَ الأمَــمِ
والحبُّ حيث يكون المصطفى يدُه   وكلُّــه كلُّــه مــن مقلتيــه نُمِــي

* * *

أخـذتُ عنـه فنـونَ الحـبِّ فـاغتنمـوا   مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهايـةُ الحـبِّ أحلـى مـن بـدايتـه	وربمـا صَحَّـتِ الأجسـام بـالسَّقَـمِ

* * *

وليـس أغـربُ منـه عنـد مُبْتَـدَأ	وليـس أعْجَـبُ منـه عنـد مُخْتَتَـمِ
إذا رمـاك فمـا للقلـبِ مـنْ حِيَـلٍ	وإنْ جُـرِحـتَ فجـرحٌ غيـرُ ملتئـم

* * *

يـا سـائلـي عـن فـراقـي بعـد ليلتنـا	وعن حظوظي من البلوى وعن قِسَمي
فـراقُـه رغبـةٌ فـي القَلْـب محـرقـةٌ	وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءُ فمي
أهلُ الوِصال لهم قلبٌ بلا طَلَبِ	وأيُّ معنـىً لقلـبٍ غيـرِ مُضْطَـرمِ
وهـل لقطـرةِ مـاء مجـدُ تسميـةٍ	إلا إذا نُبِـذَتْ مـن عجمـة الـدِّيـم

* * *

حـاولـتُ لمـا تجلَّـى أنْ أشـاهـده	وسـوَّلـت لـي نفسـي هَتْكَـةَ الحُـرَمِ
بالرُّغم من أن طرفي في الهوى وقحٌ	أغضيـتُ لمَّـا تجلَّـى خشيـةَ الـدَّهَـمِ

* * *

الفراشةُ واليراعة

قـال الفـراشُ لنفسـه لمَّـا رأى	رَقْصَ اليَراع على المِدَاد الأسودِ
كـمْ فـي حيـاتِـك مـن غبـيٍّ أحمـقٍ	مـا ذاقَ تصليـةً بنـارِ المَـوْقِـد
سمـعَ اليَـراعُ كـلامَـه فـأجـابَـه	حـاشـا لأمثـالـي بمثِلـك تقتـدي
حمـداً لـربِّـي مـا خُلِقْـتُ فـراشـةً	بجنـاحهـا وسـمُ العبيـد الـرُّقَّـد
أنـا لسـت أستجـدي سـواي تسـوُّلاً	أنـا فـي فـؤادي جُـذْوتـي وتـوقُّـدي

* * *

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبنـيَّ ! لحـنُ الـذَّات فـي أعمـاقنـا ... بـاقٍ يـدلُّ علـى خلـود حيـاتِـهِ
أبنـيَّ ! ليـلُ الشَّعـب ليـس يضيئُـه ... إلا تصلِّيـه بشعلـةِ ذاتِـهِ
أبنـيَّ ! قـولـك : كـان آدمَ جـدُّنـا ... مَلِكـاً لهـذي الأرض قـولُ نبيـهِ
فيـه مِـنَ الإيمـانِ ألـفُ حقيقـةٍ ... ومِـنَ التـألُّـق ألـفُ نـوعٍ فيـهِ
أبنـيَّ ! لـن يصـل الغـرابُ لعشِّنـا ... مهمـا استطـالـت فـي السَّمـاءِ قـواهُ
هـذي الشَّـواهيـنُ التـي يلهـو بهـا ... أبنـاءُ سيِّـدهِ الـذي ربَّـاه
أبنـيَّ ! صـان الله وجْهَـك عـاليـاً ... مـا فـي زمـانِـك مـنْ يَصُـوْنُ حيـاءَهُ
إيَّـاك أن يـأتـي لقبـري زائـرٌ ... ويقـولُ لـي جـاويـدُ يبـذلُ مـاءَهُ
إقبـالُ مـا رضـيَ التـرهُّـبَ سيـرةً ... لنقـاءِ فكـرتـه وخِصْـبِ فـؤادِهِ
أبنـيَّ ! ليـس بُنـيَّ إلا مَـنْ روى ... بـوصيتـي هـذي جميـعَ بـلادِهِ

***

تسول

صـاحَ فـي الحـانـة سكِّيرٌ ظـريـفْ ... إنَّمـا السُّلطـان شحَّـاذٌ جَلِـفْ
أيُكُـمْ يخـرجُ عـن بـزَّتِـهِ ... طمعـاً فـي ذلـك التَّـاج الصَّلِـفْ
أيُكُـمْ يُصْبـح عُـريـانَ لِكَـيْ ... يرتدي في القَصْر ثوباً منْ ذَهَبْ
كـأسُـه حمـراءُ فـي لـون الشَّقيـق ... وعليهـا مـن دَمِ النَّـاس حَبَـبْ
كـلُّ مـا فـي قَصْـرِه جَمَّعَـهُ ... بقـرارٍ مُجْحـفٍ إثـرَ قـرار
ليـس مَـنْ يَسْرِقُ فـي جِنْحِ الـدُّجى ... مثـلَ مَـنْ يَسْرِق فـي وَضَحِ النَّهـارْ
كَـمْ بـذاكَ الحَقْـلِ مـن فـلاَّحـةٍ ... شَحَـذوا منْهـا طعـامـاً للـدَّجَـاجْ
بلِّغـوهـم أنَّنـي قلـتُ لكـم ... إنَّمـا الشَّحـاذُ مـن سـنَّ الخـراجْ

***

المُلاَّ والفردوس

أنــــا أيضــــاً كنـــتُ لكـــنْ ... مـــا تحمَّلـــتُ السُّكـــوت
كنـــتُ مِـــنْ شـــدَّةِ غيظـــي ... أتمنَّـــــى أنْ أمـــوت
كنـــتْ إذْ بَشَّـــرتِ الحجَّـــابُ بـــالفـــردوسِ (مُـــلاّ)
فتقـــدَّمـــتُ أنـــادي : ... عفـــوكَ اللهـــمَّ كـــلاَّ
ليـــس للمُـــلاَّ اهتمـــامٌ ... بمغـــانيـــك وحـــورك
هـــو سكـــرانٌ ، نعـــمْ سكـــران ، مـــنْ غيـــر خمـــورك
مـــا درى مـــن لُجَّـــة الـــذَّوقِ ســـوى قيـــلَ وقـــالْ
يَحْسَـــبُ الـــدِّيـــنَ الـــذي أنـــزلـــتَ تـــاريـــخَ جـــدالْ
أنـــا لا أرضـــى لنفســـي ... أنْ أرى عبـــدي جبـــانـــا
كيـــفَ تـــرضـــاهُ زعيمـــاً ... وهـــو لا يُحْسِـــنُ شـــانـــا
لـــم يَعُـــدْ يـــأبـــهُ إنســـانٌ بمـــلاّكَ المنفِّـــر
فـــإذا مـــا جـــاء يـــومـــاً ... قيـــل قـــد جـــاء المكفِّـــر
لا يـــرى فـــي خَلْقِـــكَ المسكيـــنَ إلاَّهُ مُطيعـــا
كيـــف تـــرضـــى عـــن غبـــيٍّ ... كفَّـــر النـــاسَ جميعـــا
ليـــس فـــي الفـــردوس ذكـــرٌ ... لكهـــوفٍ وصـــوامِـــع
إنَّمـــا الفـــردوسُ فيـــضُ الحـــبِّ مـــن صَـــدْرِ الجـــوامـــع

***

الدِّينُ والسِّياسة

عنـدي لـرهبنـةِ الكنـائـسِ طُـرْفَـةٌ ... فهلُـمَّ نَضْحَـكُ للحيـاة قليـلا
بُنيـتْ لأعـداء الملـوكِ وأصبحـتْ ... للطـامعيـنَ مـن الملـوكِ سبيـلا

رأسُ الكنيسة في الوَدَاعة غارقٌ ... والقَصْرُ فوقَ النَّاس يرفعُ أنفَه
تنوي المضيَّ فيستبدُّ أمامَها ... وتريدُ تلعنه فتمشي خلفَه
هذا التناقضُ كيفَ أمكنَ دمْجُهُ ... سبحانَك اللهمَّ ربَّ النَّارِ
ما لِلْقُصورِ وللكنائسِ حيلةٌ ... في النَّاس غير تبادلِ الأدوار
فصلوا عن الدِّين السياسةَ بعدما ... وصلوا بفتنتهم إلى التِّيجانِ
وتطاول البابا فقيل له : استرِحْ ... أصبحْتَ سلطاناً بلا سُلطانِ
وتلفَّتَ الشَّعبُ الجريحُ فلم يجدْ ... حظّاً له من ذلك التغييرِ
كانتْ مصالحَ راهبٍ ومتوَّجٍ ... صارتْ مصالحَ حاكمٍ ووزيرِ
ثنويةٌ لم تُبقِ درباً صاحياً ... سقتِ الدِّيانةُ كأسَها والدَّارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمةٌ ... تُزجي التناقضَ يمنةً ويسارا
هي لعنةُ الدُّنيا كما أفضى لنا ... بالسرِّ هذا سيِّدُ الصَّحْراء
لن تعرفَ النَّاسُ السَّلامةَ ساعةً ... إنْ لم تَقُمْ من حُمْقِ هذا الدَّاء
أبداً مرقَّعةُ الجُنَيْد لِوَحْدِها ... لن تستطيعَ لأمرنا ترقيعا
إنْ لم يكنْ هو أردشير صراحةً ... خَرَقَ الطرائقَ أردشيرُ جميعا

* * *

الأرض لله (١)

الحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان يُنْبِتُه ... من ظلمة الطِّين ربُّ الحبِّ والطِّينِ
والغَيْمُ من لُجَجِ الأمواجِ يَرْفَعُه ... إلى السَّموات سلطانُ السَّلاطينِ
يسوقُ للزَّهر أنساماً تهيِّجُها ... فيطلقُ الزَّهرُ أنغامَ البساتينِ
للشَّمس من نورِه طوقٌ يزيِّنُها ... وللنَّدى نسبٌ من حوره العينِ

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقـلْ لصـاحـبِ تـاجٍ يـدَّعيـه لـه		أفِـقْ فـإنَّـك مسكيـنُ المسـاكيـن
مالي ومالَكَ من هذا التُّرابِ سوى		ضجيجِ حين نُولّي عنه في حَيْنِ
الأرضُ لله يعطيهـــــا أحبَّتـــــه		والحُـبُّ عـاقِبَـةُ الغـرِّ الميـاميـنِ

***

رسالة إلى شاب

سَجَّـــــادُكَ العَجَمِـــــيُّ هـــــذا والأثـــــاثُ الإنكليـــــزي

ماذا يفيدك يا عزيزي !

مـــاذا تفيـــدك ثـــروةٌ حصَّلْتَهـــا		فـــي مثـــل أبَّهـــة الملـــوك بـذلتَّهـــا

أبكي لأجلك يا عزيزي !

هــل ذُقْــتَ يــومــاً غِبْطَـةَ الإيمــانِ		أو بـأس حيـدرَ أو رضـا سلمـانِ

ارحم شبابك يا عزيزي !

سلـعُ الحضـارة لا تقـاسُ بـذاتكَـا		أتظنُّهـــا ثمنـــاً لكـــلِّ حيـــاتكَـــا

أخطأت جِدّاً يا عزيزي !

المـؤمـنُ الصـدِّيـق سيِّـدُ سـاعتـه		ورقـيُّ عـالمـه رقـيُّ قنـاعتـه

فاعرِف مكانَك يا عزيزي !

لو دَبَّ روح النِّسْر في قلب الشَّبابْ		لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابْ

إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !

باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته		والمؤمنُ الصدِّيق برهانُ الإله سريرتُهْ

فاربأْ بنفسِك يا عزيزي !

يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمْسَكُوك

فارْجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

***

نصيحة

قـالَ للبـازِ الفتـى نَسْـرٌ عجـوزْ | أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ
لـي رمـوزٌ كنـتُ قـد حصَّلتُهـا | من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموز
لا تقـلْ أصلـي وفصلـي أبـداً | قيمـةُ الشَّـاهيـنِ فـي أخـلاقِـهِ
إنَّمـا الشَّـاهيـن مـن يَخـرُقُـه | دمُـهُ الشَّخصـيُّ فـي أعمـاقِـهِ
قسـوةُ التَّـدريـبِ روحُ السُّـؤددِ | لا تضيِّعْـه سـدىً هـذا الكـلامْ
ستـرى قيمتَـه يـا ولـدي ! | حيـن تنقـضُّ على فَـرْخِ الحمـامْ
مـا أرينـا فـرحـةً أمتـعُ مـن | فـرحـةِ المنقـضِّ مـن أفـقِ السَّمـاء
فـرحٌ والله لا يعـدلـه | فـرحٌ ، حتـى ولا سفـكُ الـدِّمـاء !

* * *

شقائق النعمان في الغاب(١)

لِمَـنِ السَّمـاءُ تـزيَّنـتْ بـلآلـي | والـدَّيـرُ مـن أهـلِ الصَّبـابـة خـالِ
أشقيقـةَ النُّعمـان هـل تجـديـن في | تلـك البـراري مـن يـرُقُّ لحـالـي

---

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على ضفافه .
قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها ضيعتْ معناها .

ولهيـب دائـم ديـن الشقيـق | دمـه مـن ذاك يسـري فـي العـروق

إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها ... قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً ... فتعاليْ نَقْتسمِ الهمومَ تعالَيْ
وعلام أيَّتُها الشقيقةُ سيرنا ... وإلامَ هذا الكدُّ في التَّرْحال
موسى غريبٌ عن نوى ودِيانيا ... وشتاتُ بالِك في الجبال وبالي
سيناءُ أنتِ ونار واديها أنا ... وأنا تجلِّيها وأنتِ جبالي
مِنْ ذلكَ الغَوَّاصُ أخرجَ درَّنا ... من بين أوصالٍ ومن أوحالٍ !
هل كان مَخْفيّاً فرام ظهورَه ... أم فرحةً بتفوُّقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةٌ ... منه وتَفْضَحُ سرَّه في الحالِ !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجةٍ ... فسألتها فاستغربتْ لسؤالي
قالتْ : ألا تبكي لثورةِ موجةٍ ... لم تلطم الشَّطَّ الغبيَّ السَّالي
أتعيقُها تلك الرِّمالُ أمامها ... وأنا أجرُّ إلى السَّماءِ رمالي

* * *

آلامُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ ... والشَّمْسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِه وحماسه ... لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

* * *

قطعة

إقبال غنَّى أمَامَ الرَّوض أغنيةً ... رشيقةً هيَّجت في الرَّوض شكواهُ
ما كنتُ كالزَّهر رَهْنُ الرِّيح عالَمُهُ ... إنْ شاء مزَّقه أو شاءَ أبقاهُ
أمشي ويمشي جنوني في الطَّريقِ معي ... ولا يمزِّق ثوبي غير حُمَّاهُ

* * *

كتاب السَّاقي

(١)

نَثَرَ الرَّبيعُ على الفلا يَدَهُ وأطلقَ عسكرهْ
وتحوَّل الوادي إلى حانٍ فقامَ وأسكرهْ
الوردُ والنِّسرينُ يُمْسِكُ بالأكفِّ وبالقدودْ
في صَبْغَةِ ألوانها من كلِّ ما خَلَعَ الوجود
وشقائقُ النُّعمان تَرْقُصُ في الوِشاح الأحمرِ
ما بينَ بسمةِ أبيضٍ يرنو وغَمْزَةِ أسمرِ
وترى السماءَ من السُّرور تكادُ تَسْقُطُ في الفِجَاجْ
وندى النسيمِ خلال زُرْقتها تكسَّر كالزُّجاجْ
وتدفَّق الدَّمُ في الحِجْر ومضى يكابد ما هجرْ
والقُبَّراتُ تركن في الأعشاشِ أغلال الشَّجَرْ

* * *

آهٍ لهذا الجدولِ المحزونِ يَقْفِزُ في الوِهادْ
لا يشتكي ضيْقَ الحياةِ ولا يَمَلُّ من الجهادْ
ينسابُ ، يَرْقُدُ ، يستقرُّ ، يهيجُ ، يَصْخَبُ ، يلتوي
يروي الجلوسَ على الضِّفاف وبالتمزُّق يرتوي
وإذا تجمَّعتِ الصُّخورُ عليه شتَّت حزبَها
واختارَ من ثغراتها درباً ومزَّق قلبَها
يا أيُّها السَّاقي فهاتِ من الكؤوسِ من الدِّنان
لا تُثْخنِ القلبَ الجريحَ وأنتَ أجْدَرُ بالحَنَان

هــذي الشَّقــائــقُ جــوقـــةٌ بــالسرِّ تَـرْقُـصُ فـي الطَّـريـق
دعنـــي أبـــدِّدُ خمـــرتـــي أسفــاً علــى الكــأسِ العتيــق
مـــا كـــلُّ مـــا دار السُّقــاةُ بـــه تـــدورُ بـــه القلـــوب
أنـــا أطلـــب الخَمْـــرَ التـــي كـــانـــت تُشَـــقُّ لهـــا الجيـــوب
كـــانـــت تَفِيْـــضُ كـــآبـــةً كــالــوَرْدِ يَـــذْبُــل فــي الخُـــدود
فتُســـرُّ إشكــــالاتنــــا وتـــذيـــعُ أســـرارَ الخلـــودْ
أيُّهـــا السَّـــاقـــي هتِّـــك الأستـــار
عُمْـــرُنـــا البـــاقـــي جلـــوةُ الأســـرار
لـــذَّةُ التَّلحيـــن ليـــس فـــي الأوتـــار
يَضْـــرَعُ الشَّـــاهيـــنُ أصغـــرَ الأطيـــارْ

* * *

(٢)

بـــدَّلـــتَ أنغـــامَ الـــزَّمـــانِ ونـــوطـــةَ العَـــزْفِ البليـــد
وتـــداخلـــت آلاتُـــه وتمـــرَّد النَّغَـــمُ الجـــديـــد
فَـــرِحٌ للُغْـــزِ الإنكليـــز وللَّـــذي عـــرَّىٰ غـــرورهْ
ولأن ذات الســـرِّ يَعْكـــسُ مـــن زُجـــاج الصِّيـــن نـــورَهْ
هُـــوذا علـــى مـــرأى وسمْـــعِ الكـــون يَـــرْقُـــصُ فـــي المـــرايـــا
ويجيـــش فـــي (آلـــونـــد) يلمـــعُ فـــي رؤوس الهيمـــلايـــا
فَـــرِحٌ لأنَّ الأرضَ تَلْفـــظُ كـــلَّ سلطـــانٍ مهيـــنْ
وتُعَلِّـــم الشَّعْـــبَ المكبَّـــلَ كيـــف يـــأخـــذ بـــاليميـــنْ
فَـــرِحٌ لأنَّ الـــرأسمـــال ينـــالُ منـــه جنـــونُ طـــورِهْ
ولأنَّـــه كـــالسَّـــاحـــر المفضـــوحِ بعـــد أداء دورِهْ

* * *

لـــم يبـــق إلا الـــرُّوحُ تلـــكَ وذلـــك الشَّعـــبُ العـــراءْ
نـــزلـــت علـــى سينـــاء صعقتُهـــا فَلَمْلَمَهـــا حِـــراءْ
مـــا مسلمـــاً مَـــنْ يســـأل التَّـــوحيـــد يَصْقُـــل فـــأسَـــه
لِيُحَطِّـــمَ الأصنـــامَ أجمَعَهـــا ويتـــركَ نفســـه
نفـــسٌ أقـــام لأجلهـــا مـــا شـــاءَ مـــن أصنـــامِـــه
ويـــريـــدُهـــا صنمـــاً يـــرافِقُـــه إلـــى إســـلامِـــهِ
هـــذا هـــو الصَّنَـــمُ الـــذي شيطـــانُـــه عَقْـــلُ العليـــم
خُـــدَّامُـــه أهـــلُ الطَّـــريـــق كتـــابـــه العلـــمُ الأليـــم
أسفـــاً لحـــقٌ يتـــركُ الطَّـــاغـــوتَ يـــودعُـــه صـــروحـــه
ويـــرى الفقيـــر يكـــاد يَلفِـــظُ فـــي خِضَـــمٍّ الجهـــلِ روحَـــه
كلمـــاتُـــه هـــذا المبشِّـــرُ تَجْـــذِبُ القَلْـــبَ الغـــريـــر
لكـــنَّ ذوق الحـــبِّ يَنْقُصُهـــا ويَنْقُصُـــه الكثيـــرْ
ولـــه مـــواعِظُـــهُ ينظِّمهـــا بـــدقَّـــةِ منطقـــه
لكنَّهـــا ســـرعـــان مـــا تخفـــى بِعُقْـــدَة رونقـــه
حتـــى المـــريـــدُ فـــؤادُه بقيـــودِ سُبْحَتـــه أسيـــر
حبَّـــاتُ فـــخٌ أوْقَعَتْـــه وكـــوان شـــاهينـــاً يَطِيـــرْ
هـــذا المســـافـــرُ كيـــف يـــرجـــعُ مـــن ظُنـــونِ الارتقـــاء
هـــو نفسُـــه مـــا عـــادَ يَعْـــرِف مـــا الفنـــاءُ ومـــا البَقـــاء
خَمَـــدَتْ حقيقتُـــه ونـــارُ الحـــبِّ تـــاهَـــتْ فـــي فـــؤاده
فـــإذا هـــو المتحـــرِّق المجنـــونُ يَشْحَـــطُ فـــي رمـــادِهْ

(٣)

قلـــوبُ القَـــوْم مـــا عـــرفـــتْ كلـــذَّة خمـــركَ البـــاقـــي

(أدرْ كـأسـاً ونـاوِلهـا ألا يـا أيُّهـا السَّـاقـي[1])
رمـادِيٌّ ذَرُّ أجنحـةٍ ببـابِ السـرِّ تكتـظُّ
ومـا مِـنْ ذرةٍ إلّا لهـا مِـنْ حبِّنـا حـظُّ
بـودِّي أنْ أرى شيخـاً يغيِّـر وضعنـا هـذا
يقـومُ ويجعـلُ التِّلميـذَ لـلأستـاذ أستـاذا
يخـاف البـازُ عصفـوراً يُقَلِّـمُ ظُفـرَ مخلبـهِ
فـآتِ شبـابنـا نـوراً تفيـضُ علـى الشُّيـوخ بـهِ
وخلِّصهـم بمـا تختـار مـن قيـدِ العبـوديَّـهْ
ولـو ألقيْتَهـم حطبـاً بنيـرانِ الـوجـوديَّـه
تصـرَّفْ بـالجنـونِ لهـم وفجِّـرهْ بهـمْ شُعَبـا
فليسـوا شعبـةً منـه إذا لَـمْ يسقطـوا تعبـا
شبـابٌ لا يليـق بهـم مثـالُ الجَمْـرِ فـي ضَـرَمِـهْ
كقلـب المـرتضـى بـأسـاً وكـالصِّـدِّيـق فـي كَـرَمِـهْ
بظـلٍّ جمـالـك الـريّـانِ أورقَ شِعْبُنـا اليبـسُ
ولمّـا أنْ بخِلَـتْ بـه تـوقَّـف ذلـك النَّفَـسُ
أسَهْمُـكَ لـم يعـد يقـوى علـى تجـريـحِ أمثـالـي
أمِ الـرَّكـبُ الـذي تـرميـه أصبـحَ فـارغَ البـالِ
سـألْتُـك هـذه الحسنـاءُ تُطْلِقُهـا مـن الخـدْرِ
ليعـرفَ عُـذَّلـي معنـى لهيـبِ العِشْـقِ فـي صـدري
بشعـري ضـغ لهـم شَـرَكـاً وهـاتِ الحـبَّ مـن سَلْبـي

---

(١) ذكر العلامة السودي في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .
انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص٣ .

وخلٍّ حُسامَك الهنديَّ يجرحُ كلَّ ذي قلبِ

مرادي رشفُ أسرارٍ | تؤوِّل راحة اليأسِ
وإلا قلتُ للطلاب | ما أخفيهِ في نفسي
ركبنا البحر في فلكٍ | بأعينه صنعناهُ
فأجرى الرِّيحُ عاصفةً | وعكسَ الرِّيح أجراهُ
ذوتْ عيناي من أرقٍ | على قلقٍ طوىٰ جَنبي
وهذا الدَّمْعُ في عينيَّ | طلٌّ مِنْ ندى قلبي

* * *

خُشوعي في عَذاباتي | وَوَثْبي في طُموحاتي
ونوعُ طرقتي هذي | الَّتي أمحو بها ذاتي
وفكري وهو بُستانٌ | ونفسي وهيَ مرآتي
وحِصْنُ يقينها المُضْنى | وجَيْشُ ظنونها العاتي
وقلبي وهو ميدانٌ | تَضِجُّ به عراكاتي
ودروشتي الَّتي تبدو | نصيبي من مُعاناتي
سألتُك أن تعتِّقها | وتَمْزُجَها بآهاتي
وتسقيها لقافلتي | بموكبِ جيلنا الآتي

(٤)

إنَّه البحرُ دائمُ الحركات | وثبةٌ بعد وثبةٍ في الحياةِ
ذاكَ بحرٌ من الحياة تجلَّى | واحداً في تموُّجات الذَّواتِ
اللَّهيبُ الذي تأجَّجَ فينا | والَّذي يحتوي جنونَ الدُّخانِ
يرفضُ المُكْثَ بين ماءٍ وطينٍ | وهو راضٍ عن كلِّ ما يصنعانِ
ما الَّذي يطلبُ اللهيبُ بهذا | إنَّه قاطنٌ وسارٍ بآنِ
في فرارٍ إلى السَّماء تراهُ | حَذِرَ المَوْتِ في شِبَاك المعاني

إنَّهـا الـوَحْـدةُ الَّتـي كبَّلتْهـا ... حلقـاتُ التَّعَـدُّديَّـة هـذي
رُغْـمَ كـلِّ التَّعـدُّديَّـة تبقـى ... وَحْـدةٌ مـا لهـا نظيـرٌ محـاذي
إنَّ أبعـاد مَعْبَـدِ العصـرِ هـذا ... ذاتُ أبعـاده القـديمـة ستَّـهْ[1]
ولسـومنـاتَ كـلِّ عصـرٍ وجـودٌ ... إنَّ سـومنـات لا يُكَـرِّرُ نَحْتَـهْ
نحـنُ فـي ظلِّـه معـاً واختـلافـي ... عنك يـا أنـت كـاختـلافـك عنِّـي
واللهيـبُ الـذي تـأجَّـجَ فينـا ... خلـق الحـادثـاتِ منـك ومنِّـي
حلقـاتُ اللهيـب نحـنُ ولكـن ... هـو فـي قلبهـا يظـلُّ وحيـدا
فـي بـروقٍ وفـي نجـومٍ مُشـعٌ ... تَسْبُـك التِّبْـرَ نـارُهُ والحـديـدا
فـي غيـاضٍ وفـي ريـاضٍ مقيـمٌ ... كـلُّ مـا فـاضَ فيهمـا فـاضَ عنـه
لا يَعِـبْ زهـرك المُفَتَّـح شـوكـي ... كـلُّ شـوكـي وكـلُّ زهـركَ منـه
ليـتَ شِعْـري يفيـدُ كيـدُك هـذا ؟ ... ليت شعري عـرفتُ مـا هـو كيـدُهُ
هـو ذا يَنْسِـفُ الجبـال بحـزم ... هـوذا الحُـورُ والمـلائـك صَيْـدُه
هـو حينـاً تـراه بـازاً وحينـاً ... حَجَـلاً فـي دمـائـه يتشحَّـطْ
وهـو حينـاً حمـامـةٌ دون عُـشٍّ ... فـي شِبَـاكِ حِيَـالَـه تَتَخَبَّـطْ

(٥)

الـرَّاحـةُ الكُبـرى بقلبـكَ والسَّكينـةُ خُـدْعَتـانْ
فـالكـونُ ذرَّاتٌ يهيِّجهـا بـرقصتـه الـزَّمـان
وقـوافـلُ الأشيـاء فـي الآفـاق تَضْـرب بـالـدُّفـوفْ
وتـروح تُمْعِـنُ فـي التَّجَـدُّد لا تفكِّـر بـالـوُقـوف
السَّيْـرُ معنـاهـا العَمِيْـقُ بـه تَجُـول بـه تَصُـولْ
فَـدَعِ الـوُصـول لمـن يـريـد فليـس مَطْلَبُنـا الـوُصـول

---

(١) اهتمَّ إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي في ترجمته النثرية) .

تَوْقٌ إلى الطَّيرانِ يترُكُ سِرَّها يتفطَّر
وتحسُّ راحة صَدْرِها   في وثبةٍ لا تَفْتُرُ
وتَحِلُّ ، تَعْقِدُ ما تَحِلُّ ، تُقيمُ تهْدِمُ ما تُقيمُ
فِرْدَوْسُها أن تستمرَّ وروحُها السَّيرُ المُقيمُ
وإذا ابتداها الموتُ وهو النِّد في وَجْهِ الحياة
ومن العسير كفاحُه   تمضي إليهِ في ثبات
وَبِذَوْقِها الثَّنويِّ تنقسمُ اثنتين إلى النِّزال
وتروح تُحْشَدُ في السُّهول تعودُ تُحْشَدُ في الجبال
كالغُصنِ إنْ جرَّدْتَه   من سَكْرَة الدُّنيا صحا
وازدادَ في وقتِ الرَّبيع تنوُّراً وتفتُّحا
لا شيءَ أسرعُ مِنْ تَدارُكِها لما أَفْسَدْتَ منها
الوقتُ سلسلةٌ وكلُّ جهاتِه يَصْدُرْنَ عنها
شفتان في فمها   أزلٌ إلى أبد
الوقتُ بينهما   كالنَّفس في الجسد !

(٦)

موجةُ الأنفاسِ سيفٌ   جَعَلَتْه اللَّذات حدَّا
طَلَبَتْ ذاتُك شيئاً   نيلُه يَصْعُبُ جِدّا
هذه ذاتُ شَريدٍ   هذه ذاتُ مُقيمِ
إنَّها اليقظةُ والعزلةُ والسرُّ الحميم
إنَّها اللَّذات سؤالٌ   في طريق المستدلِّ
مثلما الشَّوقُ إلى العُزْلة في وقت التجلِّي
إنَّه البحرُ الَّذي تحملُه قطرةُ ماءْ
وهي في الظُّلمة والنُّور على حدٍّ سواء
وُلِدَتْ منك ومنِّي   فأضعناها كلانا

وأنـــــا أُزْهِـــــقُ ظنِّـــــي   هـــو مِـــنْ أيْـــنَ اجتـــلانـــا
أزلِيَّـــــــاتـــــــي وَرَائـــــي   أبَـــدِيَّـــــاتـــــي أمـــام
وأنــــا رُغْــــمَ غبـــائــــي   طـــامــــحٌ نحـــو التَّمــام
إنَّهـــا الـــذَّات الَّتـــي تمخـــر فـــي بحـــر الحيـــاةْ
فتُنـــاغـــي لطمـــاتِ   وتُقـــاســـي لطمـــاتْ
عنـــدمـــا تَطْمَـــعُ أن تقلـــب آمـــالَ الشَّبـــاب
تتخفَّـــى وتـــديـــرُ الَّلحـــظَ مـــن تحـــت النِّقـــاب
فتـــرى الصَّخْـــرَ تـــرابـــاً   صَعِقـــاً ممَّـــا تُـــديـــر
وتـــرى العـــالـــم وَجْـــداً   يتمنَّـــى لـــو يَطِيـــر
إنَّهـــا البَـــذْءُ جميعـــاً   إنَّهـــا ذاك الغُبـــار
إنهـــا فـــي البَـــذْرِ أضـــواءٌ وفـــي الصَّخْـــرِ شـــرار
إنَّهـــا فـــي ظُلمـــةِ النُّـــور إذا شـــعَّ النَّهـــاز
مـــا لهـــا أعلـــى وأدنـــى   مـــا لهـــا جـــارٌ ودار
مِـــنْ قليـــلٍ وكثيـــرِ   ويَميـــنٍ ويَســـار
لَـــمْ تَـــزَلْ حِلْـــفَ كفـــاحِ   وانقـــلاب وانتصـــار
أحـــرقـــتْ آدمَ لمَّـــا   جسَّـــدَتْـــه لِلْقَضـــاء
فـــإذا آدمُ لحـــنٌ   وإذا الـــذَّاتُ حِـــدَاء
وإذا فـــي بـــؤبـــؤ العَيْـــنِ انطبـــاعـــاتُ السَّمـــاء
قبـــحُ السَّـــلامـــة أنَّهـــا   فـــي عيـــن صـــاحبهـــا قـــذى
والعُمْـــرُ حـــربُ الـــذَّاتِ فـــالشَّـــرف الـــرَّفيـــع أو الأذى
الـــذَّاتُ عنـــد تجـــاهـــل الأهـــواء مـــرهمُهـــا الأكيـــد
وتجـــاهُـــلُ الأهـــواء دربُ الـــذَّات والخبـــزُ الـــوحيـــد
(محمـــود) تـــرفـــع رأســـه   ذاتٌ تـــؤلِّـــف جنـــده
و (إيـــاز) عنـــد النـــاس مـــلءُ الأرض ممَّـــا عنـــده

لمـــا أراد الغَـــزْنَـــويُّ يحطِّـــم الصنـــم الكبيـــرْ[1]
جـــاؤوا إليـــه بكـــلِّ أصنـــاف الجـــواهـــر والحـــريـــرْ
فـــرمـــى بمـــا جمعـــوه فـــي بحـــرٍ وبـــدَّدَهُ جميعَـــهْ
وأجـــابَ جئـــتُ لِكَـــيْ أحطِّمـــه وَلَيْـــسَ لكـــي أبيعَـــهْ
فَـــلأنْ أسمَّـــى هـــادمَ الأصنـــام خيـــرٌ فـــي السُّلـــوك
مـــن أن أسمَّـــى بـــائـــعَ الأصنـــامِ مـــن بيـــن الملـــوك
ليـــسَ السُّجـــود تهـــدُّل الكتفيـــن مـــن فَـــرْطِ القُعـــود
مـــا كـــان يغنـــي عـــن سجـــودٍ آخـــرٍ فهـــو السُّجـــود
مِـــنْ هـــذه الأصـــواتِ والألـــوانِ عـــالمُنـــا خليـــط
وجَـــلٌ يطـــارِدُه الفنـــاء مـــن المُحيـــط إلـــى المُحِيـــط
أصنـــامُ ألـــوانٍ وأصـــواتٍ تلـــمُّ الكـــونَ لمَّـــا
أسفـــاً علـــى سمـــعٍ وعيـــنٍ ألَفـــا عُمْيـــاً وصُمَّـــا
الأمـــرُ مـــرحلـــةٌ ودربُ الـــذات تَـــذْخَـــرُ بـــالمـــراحـــل
مـــا أبعـــدَ الجُـــزُرِ الَّتـــي تغـــريـــك عـــن تلـــك السَّـــواحـــل
يـــا أنـــت نـــارُكَ لـــم تكـــنْ مِـــنْ مـــوقـــدٍ هـــذا لهيبُـــه
ضـــاعـــتْ شـــرارتُـــك الَّتـــي كـــانـــت بنظـــرتهـــا تَهيبُـــه

* * *

عبـــدُك العـــالـــمُ فـــاؤمـــر فهـــو لا يَهْـــرُبُ مِنْـــكَ
غيِّـــرِ المـــوقـــفَ وانظـــرْ إنَّـــه يَصْـــدُرُ عَنْـــكَ
امـــضِ لا تـــركـــن لشـــيءْ وانـــضُ عـــن كـــونِـــكَ هَـــوْلَـــهْ
لهشـــة الـــرَّاكـــن مِـــنْ سُـــرْعـــة مـــا يبصـــرُ حـــولَـــهْ
ظـــاهـــرُ العـــالـــم سحـــرٌ وعصـــا مـــوســـى ثبـــاتُـــكْ

---

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همّة محمود .

أَسَـــــدُ الله الَّـــــذي يقتنـــــص العـــــالـــــمَ ذاتُـــــك
جـــوهـــرُ الكـــون قـــديـــمٌ فكـــرُك الكشـــفُ الجـــديـــد
أيـــنَ كـــفٌّ تَنْظِـــمُ الجـــوْهَـــرَ فـــي سِلْـــكٍ فـــريـــد
أيُّهـــا المسلـــمُ فـــارقُـــبْ نظـــرةَ الـــدُّنيـــا إليـــك
فـــي مـــلاءٍ مـــن رجـــاء يُعْقَـــدُ العَـــزْمُ عليـــك
إنَّ لـــلآمـــاد شغـــلاً حـــولَ أقطـــار الـــوجـــود
عنـــدمـــا تَكْشِـــفُ عـــن ذاتـــك تُـــدعـــى للسُّجـــود
لســـتُ فيمـــا قلتُـــه أشـــرح لِلْعـــالـــم قـــدرَك
فـــأنـــا حـــاولـــتُ حتـــى الآن أن تَفْتَـــحَ صَـــدْرَك
مَـــزَّقَ الكلْمـــةَ ضيـــقٌ عـــن معـــانٍ نقتفيهـــا
نحـــنُ مـــرآةُ معـــانٍ كَـــدَرُ الكلْمـــة فيهـــا
زفـــرتـــي تُضْـــرِمُ صـــدري وأنـــا بيـــن السُّيـــوف
غيـــر أنَّ القـــول مـــن خشيتـــه يـــرجـــو الـــوقـــوف
أنـــا مـــن كثـــرةِ مـــا حلَّقْـــتُ ألهبـــتُ النَّـــواحـــي
فلـــو اجتـــزت قليـــلاً أحـــرقَ النُّـــورُ جنـــاحـــي

* * *

الزَّمن

شُعْلـةُ العُمْـرِ من لهيب الثَّواني أشْعَلَتْهـا تغيُّـرات الـزَّمـان
غَـدُكَ الطُّعْـمُ فـي حِبَـالـةِ أمسٍ فتـرفَّـقْ بيـومـك المُتَفـانـي
يَـرقُـبُ النَّـاسُ طـالعـاً ذا خيـالٍ ويخـوضـون فـي جميـع الأمـانـي
وأنـا ذلـك الخيـالُ ولكـنْ يَصْعُبُ اليومَ شرحُ تلك المعاني
يَسْقُـطُ العـالـمُ الجـديـدُ بكـأسي قطـرةً قطـرةً كـرشـح الـدِّنـان
سُبَـحُ القَـوْم لعبـةٌ فـي يـديهـم أنـا سُبْحتـي ليـالـي زمـانـي

كلُّ حَبّاتها عَرَفْتُ ولكنْ لا أسوِّي بين الجميع بشاني
ولكلٍّ طريقةٌ وسلوكٌ بعضها فارسيٌّ وأخرى حِصاني
مرةً أجعلُ الأعنَّة سوطاً مرةً أجعلُ السِّياط عِنَاني
لكَ من حفلةِ اللقاء نصيبٌ فإذا لم تكنْ فلستَ بجانِ
ليس من عادتي أخبِّئُ كأساً لنديمٍ على كرامةِ حاني
بدءُ هذي التَّعرُّجات عسيرٌ وهي ليستْ تعرُّجات جَبَانِ
وهيَ ليستْ لراصدٍ في غرورٍ وهي ليست لمقتفٍ في هَوان
إنَّ عيناً خبيرةً بقُواها غيرُ محتاجةٍ لحَمْلِ سِنان
شفَقُ الأفقِ ذاكَ نهرُ دماءٍ فتحمَّلْ نهرَ الدِّماء وعانِ
وانتظرْ مَطْلِعَ الصَّباح وقهقهْ حاكتِ اللُّغزَ ذاك أسطورتانْ

* * *

هذه الفِكْرةُ الجريئةُ عرَّتْ سلطاتِ الطبيعةِ المستبدَّهْ
إنَّ عُشَّاً هي الصَّواعقُ فيه ليس صعباً لمثلها أنْ تَهُدَّه
إنَّها الرِّيح والفضاءُ جميعاً إنَّها البحرُ والسَّفينةُ عندهْ
كان جُنْدُ القضاء للموت ذعراً فإذا بالقضاء يَقْتُلُ جندَهْ
وإذا أنت جئت بالسَّيفْ طفلاً أمسَك الطِّفلُ للجمال فِرِنْدَهْ
ذهبَ العالمُ القديمُ قتيلاً أترى يَسْلَمُ المقاتلُ بعدَه
قامر الإنكليز حتى تولَّوا وكذا الدَّهر لا يقامِرُ وحدَه
إنَّ هذا الصُّوفيَّ يحمل ناراً لا تبالي بريح تلك الشُّكوكِ
ملأَ اللهُ دربَه بمعانِ علَّمتْ قلبَه سلوكَ الملوكِ

* * *

آدمُ يُغادرُ جنَّةَ عَدْن
والملائكة تودِّعه

أنتَ موهوبٌ وإلّا ... لم نَجدْ للُغزِ حلاّ
كُنتَ من طينٍ ويبدو ... أنَّ ذاك الطينَ ولَّى
كانتِ النَّفخة منه ... زئبقاً في السرِّ حلَّ
ويقولون ترابٌ ... قل عسى هذا وعلَّ
ومع النكتة هذي ... أحملُ العالم كُلاَّ
كَلِفٌ بالحُسْنِ حتَّى ... أنت في الحُلْمِ تَصَلَّى
لك في الحُلْمِ نعيمٌ ... يغمرُ اليقظةَ ظِلاًّ
دمعُك الصُّبحَ لدينا ... يملأ الجنَّة طلاًّ
يطلبُ الرَّوض ليسقي ... زهره ممَّا تملَّى
فاكشِفِ الأسرارَ وارقُصْ ... تَرقُصِ الجَوْقَةُ دلَّا
إنَّما الدُّنيا بكاءٌ ... وغِنَاءٌ ليس إلا

* * *

روح الأرض تستقبل آدم

فأتى الأرضَ فقالت ... إنَّه آدمُ جاء
أنتَ يا آدمُ فاعلمْ ... كُنْتَ من طينٍ وماء
حَوْلَكَ العالَمُ فانظرْ ... وتمعَّنْ في السَّماء
ووراء الحُجُبِ حُسْنٌ ... فتأمَّلْ ما وراء
لا تكنْ نافذَ صبرٍ ... واحتملْ وَهْمَ الشَّقاء
ضجَّةُ العالَم هذا ... حربُ خوفٍ ورجاء
لك ما في الكون مُلْكٌ ... من بحارٍ وفضاء

هــــذه السُّحْـــــبُ جميعـــــاً   هــــــذه البِيْــــــدُ العَـــــراء

(٢)

كنــــتَ مــــن وجــــه مــــلاكٍ   فــــي انــــدهــــاشٍ وفنــــاءْ
فَخُــــــذِ المــــــرآة وانظــــــرْ   فيــــــك أســــــرارَ القضــــــاءْ
نظــــــراتٌ ذاتُ مغــــــزىً   أطلقَــــــتْ ســــــرَّ البقــــــاء
وشــــــراراتُ صــــــراخٍ   يتعــــــالــــى فــــي السَّمــــــاء

(٣)

إنَّ ضــــوء الشَّمــــس هــــذا   مــــن شــــراراتِــــكَ ضــــاء
عــــالــــمٌ أنــــت جــــديــــدٌ   أنــــت والكــــونُ ســــواء
أنــــتَ فــــردوسُــــك ذاتٌ   مــــالهــــا قــــطُّ انتهــــاء
جســــدٌ ؟ لا ليــــس هــــذا   جســــداً هــــذا جــــزاء
أيُّهــــا الــــزَّهــــرةُ فــــانظــــرْ   كيــــفَ تمضــــي فــــي العَطــــاء

(٤)

كــــلُّ أوتــــارِك تبكــــي   أيُّهــــا العــــودُ الشَّــــريــــد
كــــلُّ ميــــراثــــك حــــبٌّ   فتخيَّــــر مــــا تــــريــــد
سيِّــــدُ الأســــرار فــــي المعبــــد مــــن وقــــتٍ بعيــــد
تنفــــق الــــذَّاتُ وتبلــــى   ثــــم تُبْــــدي وتُعِيــــد
ثُــــمَّ فــــي غيــــر كثيــــرٍ   تمتطــــي كــــلَّ جــــديــــد

***

قطعة

خطــــاي كمِثْــــل نسيــــم الصَّبــــاح   تُبْطــــىء حينــــاً وتُسْــــرِع حينــــا
أنــــا شــــوكتــــي إبــــرةٌ للــــورودِ   تــــرقــــعُ مــــا انقــــدَّ عبــــر السنينــــا

بـدأبـي كَسَـوْتُ ثيـابَ الحـريـرِ   هـذي الشَّقـائـقَ واليـاسمينـا

***

المُرشِدُ والمُرِيد

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده أسئلةً نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه (المثنوي) وهو يوردها بنصِّها بالفارسية .

قـالَ إقبـالُ لـرومـيِّ   يـا إمـامَ العـاشقيـن
لـم يـزلْ يمـلأُ سمعـي   ذلـكَ القـولُ المبيـن
وتـرُ العـودِ وقشـرُ العـودِ والعـودُ سجـونْ
عنـدمـا تيبَـسُ فيـه   ييبـسُ اللَّحـنُ الـدَّفيـنْ
عصـرُنـا النشـوان هـذا   تنتشـي منـه الظُّنـون
رقصـةُ الأجسـادِ لا تمحـو أسـى القلـبِ الحـزيـن
مبـدأُ العـالـم يـا أستـاذُ مـا شـاؤوا يكـون
ليـس فـي قلـبِ حضـورٌ   أو بـوجـدانٍ يقيـن
كيـف يستـوعـبُ سـراً   ذلـكَ الصَّـدْرُ المُهيـن
ردَّ للصِّـدِّيـق مـا يـروي عـن الـوحـي الأميـن
كيـف جَـرَّتـه إلـى الأوهـام قيثـارةُ طيـن
رُغْـمَ مـا أنفقـه للمَجْـد مـن كـدِّ القُـرون
قـال رومـي أيُّ فـرقٍ   بيـن لحـنٍ وطنيـن
إنَّ فـنَّ الاستمـاع الحـقَّ   سلطـانُ الفنـون
كـالعصـافيـر وليسـت   كلُّهـا تـأكـلُ تيـن
قـال : طـوَّفـتُ لأجـل العِلْـم فـي شـرقٍ وغـربِ

وأنـــــا الآن وحيــــدٌ والأســــــى يمـــــــلأ قلبــــــي

قـــال : هـــذا طــبُّ كــفٍّ ليــس أهــلاً لعــلاجِــك

جَعَلَــتْ منــكَ مــريضــاً فــي فــراشٍ مــن لَجاجـك

اســـألِ الأمَّ عـــلاجـــاً مـــن عقـــاقيــر الأمــانْ

إنَّ نصـــف الطـــبِّ مـــن علـــمٍ ونصفـــاً مـــن حنـــانْ

قـــال يـــا مـــنْ شَـــرَحَـــتْ نظـــرتُـــه ضيـــقَ فــؤادي !

أَمَلــــي أفهــــمُ مــــا تَفْهَــــم مــــن أمــــرِ الجهــــادِ

قـــال : مـــن ســـوَّى لـــك الأصنـــام ســـوَّى لـــك فـــأسه

وبـــأحجـــار الحبيـــب يضـــربُ الحـــاذقُ كـــأسه[1]

لا تقـــلْ ليـــت ولـــولا مـــا علـــى همِّـــك بـــاسُ

أنـــت يـــا هـــذا الـــذي يجـــرحُ فـــي الـــدَّهـــر ويـــأســـو

قـــال : حـــورُ الغَـــرْب ألقَـــتْ فِتَـــنَ الشَّـــرق شبـــاكـــا

صَـــرَعَـــتْ ذا اللُّـــبِّ حتـــى لا تـــرى فيـــه حِـــراكـــا

قـــال : يـــا إقبـــال ! احْـــذَرْ ظـــاهـــراً يَطغـــىٰ عليـــكَ

عنـــدمـــا تَفـــرِكُهـــا الفضـــةَ انظـــر ليـــديـــكَ

قـــال : يـــا رومـــي ! وسِحْـــرُ الإنكليـــزيِّ إلامَـــا

يـــأخـــذ الطـــالـــبَ لحمـــاً ثـــم يـــرميـــه عظـــامـــا

قـــال : كـــالعصفـــور إنْ لـــمْ يُكْمِـــلِ الـــريـــشَ وطـــار

هجـــم القـــطُّ عليـــه ورمـــاه للصِّغـــار

قـــال : إنَّ الـــدِّيـــن والقـــوميَّـــة اليـــومَ صـــراعُ

---

(١) في المثنوي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه د . كفافي : إنه لاحق لإنسانٍ في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء كان ذلك بفعل مباشرٍ أو بأمر واجب الاتباع مما نصَّت عليه الشريعة .
انظر ترجمة د . كفافي للمثنوي ص٦١٣ .

أنـــتَ هـــل تـــدري بمـــاذا ينتهـــي هـــذا النـــزاعُ
قـــال : مـــا فـــي اللَّيـــلِ للـــزائـــف والمحـــضِ عيـــاز
ودليـــلُ الـــذَّهـــب الخـــالـــصِ إشـــراقُ النهـــاز
قـــال يـــا شيـــخ! بمـــاذا أمـــلأ الـــدَّرب القصيـــره
وبـــأيِّ الأمـــر أغنـــىٰ بعِيـــانٍ أم بَصيـــره
قـــال : يـــا إقبـــالُ مـــا هـــذا الـــذي ليـــس يَبيـــنُ
إنْ تكـــنْ تُبصـــرُ يعنـــي أنـــت إنســـانٌ مبيـــنُ
يمـــلأ المُهْجـــة حـــقٌّ وحبيـــبٌ دامـــغُ
مـــا عـــدا ذلـــكَ يـــا إقبـــالُ جـــوزٌ فـــارغُ
قـــال : يـــا مـــن مـــلأ الشَّـــرق بمـــا يحيـــي القُلـــوب
مـــا الـــذي يَعْصِـــفُ بـــالشَّـــرقِ ومـــاداء الشُّعـــوب
قـــال : مـــا أعـــرف شعبـــاً مـــات إلا مـــات لمَّـــا
حَسِـــبَ الأحجـــار بخـــوراً وظـــن الشَّهْـــد سُمَّـــا
قـــال : يـــا شيـــخُ ! وهـــذا المسلـــمُ الضَّـــائـــعُ كـــونُـــهْ
دمُـــه أصبـــح ثلجـــاً عطـــرُه غـــابَ ولـــونُـــهْ
قـــال : يـــا إقبـــالُ ! إنَّ الله لا يظلـــمُ شعبـــا
ورجـــالُ القَلْـــبِ لا تجـــرؤ أنْ تَجْـــرَح قلبـــا
قـــال : يـــا أستـــاذ ! إنَّ السُّـــوق والحـــقَّ أقـــول
كَسَـــدَتْ فـــالبيـــعُ أيُّ البيـــع يحظـــى بـــالقَبـــول
قـــال : اذهـــب واشْتـــر الحيـــرة بـــالعقـــل الظَّنيـــن[1]
إنَّـــه وهـــمٌ وظـــنٌّ وهـــي حـــقٌّ ويقيـــن
قـــال : جيـــرانـــي جميعـــاً نـــدمـــاءٌ لـــلأميـــر

---

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفافي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يولِّيه ظهره » ص١٠٢ .

وأنـــا فـــوق حصيـــري حـــاســـرُ الـــرأس فقيـــر
قـــال : كـــن خـــادمَ حـــرٍّ قلبُـــــه دون حـــــدود
لا تكـــنْ فـــي مجلـــس السُّلطـــان مـــن بعـــضِ القـــرود
إنْ تكُـــنْ عبـــداً لإنســـانٍ لـــه قلـــبٌ كبيـــر
هـــو خيـــرٌ مـــن طـــوافٍ بيـــن نُـــدمـــانِ الأميـــر
قـــال : يـــا هـــذا الـــذي يُسْهِـــمُ فـــي وَجْـــدِ الكبـــار !
ضعـــتُ مـــنْ قلـــةِ علمـــي بيـــن جبـــرٍ واختيـــار
قـــال : يـــا إقبـــالُ ! مـــا الشَّـــاهيـــن ؟ يبـــدو كـــالغُـــراب
ريشُـــه يُضبـــحُ تـــاجـــاً ريـــشُ هـــذا للتُّـــراب
يطلـــب المـــوتـــى غـــرابٌ ظُفْـــرُهُ عـــبءٌ عليـــه
وتـــرى الشَّـــاهيـــن يمضـــي أكْلُـــه صنـــعُ يـــديـــه
قـــال : مـــاذا يـــأمـــل الإســـلام مـــن هـــذا السُّلـــوكْ
ألكـــي نـــرضـــى بفقـــرٍ أم إلـــى طيـــشِ الملـــوكْ
قـــال رومـــي : جنَّـــة الإســـلام فـــي ظـــل السُّيـــوف
ليـــس مـــا تطلبـــه الـــرُّهبـــان مـــن أمـــنِ الكهـــوف
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! كيـــف الخـــوضُ فـــي مـــاءٍ وطيـــن
أيـــن مـــا يـــوقـــظُ قلبـــي وهـــو فـــي صَـــدْري سَجيـــن
قـــال : لا تشمـــخْ كنعـــشٍ فـــوراء النَّعـــش كـــفُّ
وتـــواضـــعْ كحصـــانٍ أينمـــا شـــاء يخـــفُّ
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! أيـــن البعـــثُ مـــن ضعـــفِ يقينـــي
وأنـــا أجْهَـــلُ مـــا أجهـــلُ مـــن أســـرار دينـــي
قـــال : مـــا أنـــت وهـــذا ابْعَـــثِ النَّفـــس بـــذاتـــك
ثـــم ســـلْ نفســـك مـــاذا إنَّهـــا دربُ حيـــاتـــك
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! إنَّ الـــذات تمضـــي فـــي السَّمـــاء
تحمـــلُ الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء

مــــع هـــــذا غـــــابَ عنهـــــا مــــــا يجلِّيـــــه الفِـــــراقُ
هـــي مِـــنْ فَقْـــدِ التَّجلِّـــي فـــي جحيـــمٍ لا يُطـــاقُ
فــــي ازدهـــــارٍ وانهيـــــارٍ شـــأن أربـــابِ الـــوصـــول
هــــي ممـــــا افتـــرسَتْـــه فـــي جـــراحٍ لا تـــزول
قـــال رومـــي : ليـــس إلا الحـــبُّ أهـــلاً للعـــراكِ
لكـــنِ المـــوضـــوع (مـــنْ يـــوقعـــه بيـــن الشِّبـــاكِ)
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! قـــلْ لـــي هـــل لهـــذا الشَّعـــب حَـــرْقُـــكْ
أنـــت لـــلإســـلام شمـــسٌ فـــي ضميـــر الكـــون شـــرقُـــك
قـــال رومـــي : كـــلُّ حَـــبٍّ يـــرغـــبُ العُصفـــورُ نَقْـــرَهْ
لا تكـــنْ بُـــرْعـــمَ وردٍ تقصـــفُ الأطفـــالُ ظهـــرَهْ
كـــنْ علـــى حبِّـــك فخّـــاً يمنـــعُ الحـــائـــم طـــولَـــهْ
واستُـــرِ البُـــرْعُـــمَ واضْـــرِب قصبـــاً نفسَـــك حـــولَـــهْ
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! مـــا الحـــربُ الَّتـــي تمـــلأُ جنبَـــكْ
أنـــا مـــا جئتـــكَ إلا قلـــتَ لـــي قلبَـــك قلبَـــكْ
هـــو ذا قلبـــي بِصَـــدْري وأنـــا حِلْـــفُ طـــريقـــي
بيـــن كـــدٍّ وخمـــولٍ مِـــلْءَ مـــرآتـــي بـــريقـــي
قـــال : يـــا إقبـــالُ لَسْنـــا أهـــلُ فقـــهٍ وأصـــولْ
أنـــا لـــي مثلُـــك قلـــبٌ وكمـــا أنـــت تقـــولْ
إنَّمـــا القَلْـــبُ سمـــاءٌ عـــرشُـــه فـــي مستـــواهـــا
ولـــه ربٌّ حـــواه ولهـــا ربٌّ حـــواهـــا
مـــا لملـــك القلـــبِ يـــا إقبـــالُ دربٌ تسلكُـــهْ
مُنتهـــى الحكمـــةِ أنْ تبحـــثَ عمَّـــن يَمْلِكُـــه
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! فكـــري للسَّمـــوات دليـــل
وأنـــا فـــي الأرض هـــذي خـــائـــرُ العَـــزْمِ ذليـــل
لِـــمَ نستـــرشـــد بـــالمُصْلِـــحِ لا يُصْلِـــحُ أهلَـــهْ ؟

ولِمَا العارفُ بالدِّين بغيرِ الدِّين أبلهْ
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبيرْ :
في سماءِ الله يسري مَنْ على الأرض يسير
قال : يا أستاذ ! لا أبصِرُ في الدَّرْبِ منارا
أين مَنْ يَقْدَحُ للحكمة في صدريَ نارا
قال : يوري العلمَ ناراً يابسُ الخبز الحلالْ
والذي يأكل كدَّ النَّاس يُفْنيه الضَّلالْ
قال : يا أستاذ ! إنَّ العصر يستدعي النِّزالْ
ولهيبَ الشِّعر يخبو وقدُهُ دون اعتزالْ
قال : يا إقبال ! لسنا نَقْصِدُ العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي تُصْبِح الخِلْطَةُ شهْدا
بدِّدِ العُزلةَ واذهبْ من قطيعٍ لِقَطيع
تشتري الناسُ فراءً ليس من أجلِ الربيع
قال : أين الهندُ ضاعتْ لا لهيبٌ لا ضياءْ
ورجالُ القَلْبِ فيها تُعَساءٌ أشقياءْ
قال : يا إقبال ! هذي الناس لا تعرفُ روحا
أجْلِ الدمعةَ هذي وكفى اليومَ جروحا
يَلْفظُ الحقُّ بعيداً جَسَداً ما فيه قلبُ
إنَّ ربَّ النَّاس حيٌّ وهو للأحياء ربُّ
كلُّ ما في الشِّعر هذا منْ صُراخٍ وصياح
ليس ما يُدهشُ أنْ يذهبَ أدراجَ الرِّياح

* * *

جبريلُ والشَّيطان

التقى سيِّدُنا جبريلُ إبليسَ الرَّجيم
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخلُّ القديم ؟!
ما جرى في عالم الألوانِ والعِطْرِ الجديدْ
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدْ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلقُكْ
أولا يُمكن أن يُرْقعَ في الجلبابِ خرْقُكْ
قال : هيهاتَ ولكنْ لَسْتَ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشْقِي وهو في الحقِّ يَسُرُّ
قَدَحُ السرِّ الذي أسْكَرني منه تكسَّرْ
ورجوعي للأعالي بعد سُكْري يتعسَّرْ
أنا حتَّى لا أطيقُ العَيْشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرَّحمة حالٌ وأنا اللَّعنةُ حالي
ذلك العالم ما معناهُ من غير أوابدْ ؟
إنَّه الموتُ الذي تَعْرِف لولا ما أكابدْ
فإذا كنتُ حياةً بقنوطي للوجود
أترى الواجبَ أبقى في قُنوطي أمْ أعود
قال : لكنْ عندما استنكفتَ كِبْراً أن تطيعَهْ
نالك العارُ ونال الملأَ الأعلى جميعَه
صارَ شُغْلَ الملأ الأعلى أمام الله خوفَهْ
يَهْدرُ الذُّعْرُ عليه تملأ الرِّعدةُ جوفَه
قال : يا جبريل لكنْ جرأتي سرُّ البقاء
وهبتْ للحمأ المسنون شوقاً للنَّماء

أنــت فــي الشــاطــىء تــرنــو　　لِصِــراعــاتِ المــواقــف
أنــا أم أنــت الــذي تَضْفَعُــه تلــكَ العــواصــف
عنــدمــا تَعْصــفُ ريحــي لُجَــجَ البحــر الجليلَــهْ
لا يــرى إليــاس والخضــرُ مــن الــواقــع حيلــه
فــإذا أمكــن يــومــاً　　تســألُ الله تعــالــى
فــأنــا أرجــوك أن تســألَــه هــذا الســؤالا
دمُ مــنْ ذاك الــذي خضَّــبَ تــاريــخ ابــن آدمْ[1]
دَمُ مــنْ هــذا (دمــي أم دمُــه أم دمُ آدم)
صــاغنــي الله تعــالــى　　شــوكــةً تجــرحُ قلبــه
أنــت لا تُتقِــن إلا النَّفْــيَ والإثبــاتَ قــربَــهْ

***

قطعة

بالأمسِ أوصى مُرْشدٌ أصحابَه　　بوصيةٍ سبحان ربِّكِ منْ وَهَبْ
أغلى وأثمنُ من بحور لآلىء　　يـا ليتَهـا كُتبتْ بمـاءٍ مـنْ ذهـبْ
فـي خمـرِ أوروبـة لشعـبٍ كـامـلٍ　　سُــمٌ يُسَمِّــمُ ذاتَــه وإرادتَــهْ
تفنـي بنيـه بـالتسكُّـع خلفهـا　　تمحـو مـواهبَـه تُبيـدُ كـرامتَـهْ

***

---

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشيطان بشوكته الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبح للأفلاك يوماً لاحِيا
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحيا
سخَّر المريخَ ممَّا قاله نجمُ الصَّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحياً أو غير صاحِ
تدركُ الأقدار ما تفعلُ في هذا الظَّلامْ
وأرى الخير لمداومته في أنْ تنامْ
قالت الزَّهرة : أفٍّ غيِّروا الموضوع هذا
تُنْفِقُ الليلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيم نهتمُّ لهذي الذَّرَّةِ العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو وهو يبدو في النَّهار
روحُه سرُّ الليالي قلبُه قَطْبُ المدار
وهو لو أدرك معنى سهرِ الليل وذاقَه
جاز أطباق الثُّريا وأرى الله طباقَه
إنَّه في صَدْرِه يستر نوراً باهرا
وهو أطلقه لم يبقِ نجماً ساهرا
فعلا صوتُ أذانٍ بينما هُمْ في جِدال
يا لها صرخةُ وعظٍ صدَّعتْ قلبَ الجبال

* * *

قطعة

رُغْمَ ما يوجد في رِكَّة شعري منْ عُيوب

ربمـــا تبلـــغ يـــومـــاً كلمـــاتـــي للقلـــوب
مـــا علـــى الشَّـــارع لـــومٌ كيفمـــا قـــال وعبَّـــز
أنـــا يُغْنينـــي عـــن الشعـــر نـــداءُ (اللهُ أكبـــر)
أنـــا تغنينـــي إذا أخفقـــتُ فـــي كَشْـــفِ النَّـــوايـــا[1]
صلـــواتٌ وتـــراتيـــلٌ بهـــاتيـــكَ الـــزَّوايـــا
مَعْشـــرُ الجـــانـــب هـــذا دينُهـــم لا يستطـــاعُ
عـــرفـــوا النَّفـــس ولمـــا نظـــروا فـــي اللهِ ضـــاعـــوا
وعبـــادُ الجـــانـــب الآخـــر عُمَّـــالُ منـــاجـــمْ
هـــم عـــن الـــلاَّهـــوت أغـــرابٌ وفـــي البَحْـــثِ أعـــاجـــمْ

* * *

الحب

مَـنْ شهيـدُ الحـبِّ الـذي زعمـوهُ ابحثـوا عنـه فـي جميـع الفِجَـاج
سِمَـــةُ العِشْـــقِ لا تُتَـــاحُ لشعـــبِ دونَ شعـــبِ ولا تُبـــاحُ لـــراجـــي
فـــي هيـــاجِ الفـــؤاد للحـــبِّ سـرٌّ كهيـــاجِ الفَـــراش حـــولَ السِّـــراج
إنَّمـــا الغـــزنـــويُّ صنـــوُ إيـــازٍ إنْ يكـــنْ قلبُـــه بغيـــر هيـــاج
روَّجَ الحـــبُّ ســـوقَ كـــلِّ حكيـــم حـــاك آراءَه بـــه للـــرَّواج
هـــي لـــولا تـــدخُّـــلُ الحـــبِّ فيهـــا لعبـــةٌ مـــن لآلـــئ مـــنْ زُجـــاجِ
رجـــلُ الحـــبِّ لا يَـــذِلُّ لشـــيءٍ مستقـــلُّ الفـــؤاد حـــرُّ المـــزاجِ
ليـــس يحتـــاجُ أو يخـــافُ مليكـــاً إنَّمـــا الخـــوف مظهـــرُ الاحتيـــاجِ
تـــاجُ إسكنـــدر الشَّهيـــر متـــاعٌ وأنـــا الفَقْـــرُ والتـــدروشُ تـــاجـــي
أنـــا أبنـــي الـــرِّجـــال بـــالفقـــر هـــذا وهـــو يبنـــي مـــدينـــةً مِـــنْ زُجـــاجِ

* * *

---

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لي يقول : محالٌ ... أن يعيق الظلامُ شُعْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ ... فأنِرْ باللَّهيب ليلَ الحياةِ

* * *

إلى جاويد(١)

لتكنْ لِقَلْبِكَ يا بنيَّ مكانةٌ ... في موطن الحبِّ البعيد النائي
كُنْ في أماسيه وفي أسمارِه ... نَغَماً يُجدِّد حرقة النُّدماءِ
وعي الفؤاد حقيقة الدُّنيا فإن ... وَهَبَتْك إيَّاه يدُ الرَّحمنِ
أخرَجتَ من صَدْرِ الورود حديثها ... ونزعتَ صمتَ شقائقِ النُّعمانِ
إيَّاكَ يوماً أن تدينَ لصانعٍ ... في ليلِ أوربة يَصُوغُ زُجاجا
صُغْ من ترابِ الهند كاسكَ وافتخرْ ... وارفعْ بلادك فوقَ رأسك تاجا
أبنيَّ عرجونٌ بداليةِ (أنا) ... أبياتُ شعري هذه أعنابي
من هذه الأعناب أعصرُ خمرةً ... حمراء تُلْهِبُ بالحياة شبابي
أنا عيشة الأمراء لم آبه لها ... أنا عِشْتُ درويشاً مع الفقراء
فادْخُلْ سجلَّ الفقر باسمك إنَّه ... فخرُ النَّبيِّ وسيِّدُ الأسماء

* * *

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّين من يد فيلسوفٍ ... محلُّ الشَّمس من كَبِدِ السَّماء

---

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

لــه فــي كــل يــومٍ وهــمُ بحــثٍ ... يكــونُ مــن الصَّبــاح إلــى المســاء
أنــا فــي ظــلٍّ بيتــي أم غــريــبٌ ... وهــل سفــري بعيــدٌ أم قــريــب؟
قــد استــوحشــتُ مــن جبــلٍ ووادٍ ... فــأيــنَ تــراه يستتــر الحبيــبُ
أضعــتُ علــى رســومِ القــوم عُمْــري ... أفتِّــشُ عــن بصيــرٍ بــالــرُّســومِ
تعجَّب جئت من أين (ابن سينا) ... وساءلني ستذهب أين (رومي)
أرافــقُ فــي طــريقــي كــلَّ ســارٍ ... وأُعْطيــه نصيبــاً مــن طــريقــي[1]
ولــم أرَ فــي طــريقــي مستعــدّاً ... يكــونُ إلــى نهــايتــه رفيقــي

* * *

رسالة من أوربة

الاعتصــامُ بحبــلِ الحــسِّ ضيَّعنــا ... في الليل من بحثنا عن شاطىء البصر
وَلِلْبَصيــرة بحــرٌ عــاصــفٌ حظيــت ... مــن قعــره غطســةُ الــرومــيِّ بــالــدُّرَرِ
أنــا لقــافلــةِ الــرُّومــيِّ متَّبــعٌ ... وهــل لقــافلــة الــرومــيِّ مــن أثــر
هَــبْ عصــرنــا مثنــويّــاً آخــراً فلقــد ... جــارت رســالــةُ أوربــة علــى البَشــر
طــريــقُ حُــرِّيــةِ الأحــرارِ مُظْلمــةٌ ... تضيئهــا شعلــةُ الــرومــيِّ بــالشَّــرَر

* * *

---

(١) شاهِدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوئي الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلى أنِفاً ... كظبي (خوتان)[1] يرعى نبتةَ الجودي
ولا يجوزُ له بلْ لا يليقُ به ... أكلُ الشَّعير ورعي العشب والعُودِ
هُمْ يُضحُون بالمُقْتاتِ من كلأٍ ... ويَخْضَعُون لمن ناواهُمُ الشَّانا
ومن تخلَّق بالقرآن مجَّدَهُ ... وأصبَحَتْ نفسُه للنَّاس قرآنا

* * *

على قبر نابليون

التَّوْقُ للفِعْل سيفُ الخالدين به ... تشقُّ في جُبَّة الأسرار أقدار
وقبل مولد نابليون خاضَ به ... إسكندرُ الأرضَ أمصاراً فأمصار
جبال (آلوند) هدَّتها حماستُه ... وأطلقَتْ سيلُ تيمورلنك تيارا
تصير صرخةُ أهل الله صَرْخَتَه ... إذا أصرَّت على الإيمان إصرارا
والتَّوْقُ لحظته لا تستمرُّ فإنْ ... لم تغتنمْ نَيْلَه في وقته غارا
وقام يثأر ليلُ القَبْر منك له ... لا يستقرُّ إلى أن يأخذ الثَّارا
(مسيرنا نحو وادِ الصَّمت لذَّتُه ... أنْ تملأ القُبَّةَ الزرقاء آثارا)[2]

* * *

---

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها ظباء المسك .
(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (١)

نشـــاطٌ جـــديـــدٌ وفكـــرٌ جـــديـــد　　يثيـــرُهمـــا أَمَـــلُ الثَّـــائـــرِ
صَبَـــا شعبُـــه أن يـــردَّ الصِّبـــا　　إلـــى مجـــدِ أُمَّتِـــه الغـــابـــرِ
نشـــاطٌ جـــديـــدٌ وفكـــرٌ جـــديـــد　　وهـــذان معجـــزةُ القـــادر
يصـــوغـــان مـــن حجـــرٍ لـــؤلـــؤاً　　وتـــاجـــاً لحـــاضـــره الـــزَّاهـــر
تـــأمَّلـــت رومـــا وقـــد جـــددتْ　　بتجـــديـــدهـــا حيـــرةَ النـــاظـــر
فقلـــتُ : أيـــا ربِّ مـــاذا أرى　　وهـــذا الهُـــدى خطـــأٌ أم صـــوابْ
حيـــاة تُقـــرُّ عيـــونَ الشُّيـــوخ　　وتـــذكـــي الطُّمـــوحَ بصـــدرِ الشَّبـــاب
فيـــا للتَّجلِّـــي الـــذي هـــاهنـــا　　ويـــاللحمـــاســـةِ مـــاذا تُـــذِيـــع
وهـــل تستطيـــعُ رؤوس الـــزُّهـــور أنْ تتـــوارى بفصـــلِ الـــرَّبيـــع
سمـــاؤُك يـــا نغمـــةَ الثَّـــائـــريـــنَ　　تهـــزُّ أغـــانيـــك أقطـــارَهـــا
وروحُـــك تنتظـــرُ العـــازفيـــن　　فَمَـــنْ سيهيِّـــجُ أوتـــارَهـــا

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .
وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :
بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .
وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :
واأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٤ ـ ٧٥ .

ومـنْ ذا الَّـذي صـاغَ هـذا الجمـال وبـاركَ بـالحـبِّ تِلـك النُّفـوس
هـو الحـرُّ ذو النَّظـراتِ الَّتـي بهـا تَقْتَـدي نظـراتُ الشُّمـوس

***

سؤال

قـال درويـشٌ أبـيٌّ يسـألُ الله تعـالـى
أنـا لا أشكـو إليـك الفقـرَ والعيـشَ المحـالا
لكـن اللهـمَّ قـلْ لـي أنـتَ أرسلـت المـلائـك ؟
ليقيمـوا سلطـةَ الأوغـاد فـي ظـلٍّ سمـائـك

***

إلى فلاح البنجاب

أيُّهـا الفـلاحُ مـا سـرُّ الحيـاة ؟ مـا الَّـذي يكتُمـه هـذا المـدارْ
أنـت فيهـا منـذُ آلاف السنيـن خَلْـفَ محـراثٍ يُغَطِّيـكَ الغُبـار
خمـدتْ نـارُك فـي الطِّيـن الَّـذي علقـتْ أكـوامُـه فـي نَعْلِكَـا
قـلْ لِمَـنْ أذَّن فـي هـذا الصَّبـاح أرنـي اللهَ الـذي فـي فعلكَـا
لـم يقـلْ للنَّـاس حـيَّ للفـلاح إنَّمـا حـيَّ علـى الفـلاَّح قـالْ
هـو يـدعـوهـم إلـى مـأدبـةٍ أنـتَ أرسلـتَ لهـا كـلَّ السُّلالْ
كيـف تـرضـى أن يكـونـوا هكـذا وهُـمُ مِثْلُـكَ مـنْ حمـأةٍ طيـنْ
إنَّ نَبْـعَ الخضـر لا يبلغُـه وجِـلٌ مـن ظلمـاتِ المعتـديـن
ليـس يُجـدي الهَـمُّ فـي شـيءٍ إذا لـم تَضَـعْ ذاتَـك تحـتَ التَّجـرِبَـة
حطِّـم الأصنـامَ يـومـاً واحـداً لا تخـفْ معبـدَهـا أنْ تخـربَـه
حطِّـم الأوثـان أوثـانَ العـروق واهـدمِ الأصنـامَ أصنـامَ القبـائـل

وانــــضُ أغـــلالَ التقـــاليـــد التـــي   تتعنَّـى خلفهـا مـن غيـرِ طـائـل
لا تقـلْ أنشـدُ فـي الـدِّيـن الخـلاص   وامنــــحِ الكهَّـــانَ روحـــانيتَـــهْ
إنَّ ديـــنَ الله فـــي الـــدِّيـــن الـــذي   يهـــبُ الإنســـانَ وحـــدانيتَـــهْ
احْفَـــظِ القلـــبَ الـــذي تحملُـــه   لا تـــدَعْـــه تحـــتَ أقـــدامِ العبـــاد
الَّـــذي يـــزرعُـــه فـــي صَـــدْرِهِ   يجـــدُ المتعـــة أيـــامَ الحصـــاد

***

نادر شاه ملك الأفغان

فـــي حضـــور الحـــقِّ كـــان الحَـــدَثُ الفـــردُ الكبيـــر
غيمـــةٌ تحمـــلُ فـــي أعمـــاقهـــا روحَ الـــزُّهـــور
رأتِ الفـــردوسَ فـــي الـــدَّرب فقـــالـــتْ للسَّمـــاء[1]
آهِ مـــا أجمـــلَ هـــذا   هـــاهنـــا نلقـــي الـــدِّلاء
فـــأجـــابتهـــا وقـــالـــت   نتـــرك الهِنْـــد لقـــابـــل
أدركـــي عشبـــاً جـــديـــداً   ظمئـــاً فـــي أرضِ كـــابـــل
وعســـى نـــادرُ يـــأتـــي   ليـــرى هـــذي الحقـــائـــق
علَّـــه يَغْســـلُ بـــالـــدَّمـــع جـــراحـــاتِ الشَّقـــائـــق[2]

***

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الّذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُّعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِيّ(١)

كــلُّ شــيء حــولنــا يَسْلُبنــا مجدَنا حتى سَجاجيدُ الصَّلاة(٢)
أنــا لا أستــاء أن تَــزْمُقَنــا شــزراً أعيــنُ أولادِ الطغــاةْ
بَلِيَــتْ أثــوابُنــا أجمعُهــا جبَّــةُ الشيــخِ وجلبــابُ الأميــر
مــا الَّــذي أفْعَلُــه فــي وحــدتــي مــا الَّــذي يفعـل إيمـانـي الكسيـر

***

وصية « خوش حال خان »(٣)

يــا أمــة الأفغــان شــدُّوا بعضَكــم بعضــاً وكــونــوا ســادةَ الأفغــانِ
مــا شــاهَــدَتْ عينــاي أجمــلَ منظــراً كجمــال صيَّــاديكُــمُ الفتيــانِ
يــرمــون فــي بحــر السَّمــاء شِبــاكَهــم (صيدُ النُّجوم رياضةُ الشُّجعان)
أطفــالٌ كــوهستــان وعــدٌ مفعــمٌ متــواثــبٌ فــي قلــبِ كــوهستــان
ليســوا أقــلَّ مــن المغــول شجــاعــةً ليســوا بــأدنــى منهــمُ فــي شــانِ
أنا (خوش حال) أحبُّ قبراً إن أمتْ فــوق الجبــالِ ممــرَّدَ البُنيــان
لا رِيــحَ تصفعُــه بنقــعٍ خــامــلٍ مــرَّت عليــه خيــول مغلستــان
مــا تبقَّــى غيــرُ جمــرٍ هــامــدٍ يتخفَّــى تحــتَ أكــوامِ الــرمــادْ

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيِّد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أنَّ إقبالًا رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أيُّ ريحٍ فوقه لو عَصَفَتْ جَعَلَتْ منه حديثاً للعِبَادْ
غطَّت الرِّيحُ بُخارى كلَّها وسمرقندَ بليلٍ قاتم
(وتَطَلَّعْتُ لنفسي فإذا أنا فصٌّ ماله من خاتم)[1]
بينما أنْدُبُ حظِّي فجأةً زلزلتْ أرضَ سمرقندَ السَّماء
وإذا مرقد تيمورلنك قد بدَّدَ اللَّيلَ بسيفٍ منْ ضياء
كان نوراً أبيضاً في صُفْرةٍ كضياءِ الشَّمس منْ قَبْلِ الأُفول
قال لي : يا أيُّها الباكي أنا روحُ تيمورلنك فاسْمَعْ ما أقول
إنَّ باب الله مفتوحٌ وإن سَدَّتِ الأيامُ أبواب التترْ
أنْتَ من أبناء طوران وإن فرَّقَتْ أبناءُ طورانَ البشرْ
فهبِ الذَّاتَ لهيباً آخراً وبريقاً ثانياً من مقلتِك
أنا حطَّمْتُ بهذين الجيوشَ لِمَ لا تَخْلُفني في أمَّتِك

* * *

الحالةُ النَّفسية والظَّرف

الرَّأيُ بعد شجاعة الشجعان هي أولٌ وهو المحلُّ الثَّاني
إنْ كنتَ يقظاناً فأنْتَ مظفَّرٌ والحالُ خيرُ ذخائرِ الإنسان
كلُّ الحياة على اختلافِ ظُروفها ظلٌّ تؤلفه ظروفُ الحال
في كلِّ وقتٍ للمسافر جِدَّةٌ ومنازِلُ القَلْبِ المقيم خوالِ
كلماتُنا مع أنَّها لم تَختَلِفْ لا في معانيها ولا في لَفْظِها
في سَجْدَةِ الجنديِّ نلمح غبطةً ليست كسَجْدةِ ناسكٍ في وعظها
هو مسلمٌ لكن وهذا مسلمٌ ما زاد عن قرآنِهِ قرانُه
للنِّسرِ كالشَّاهين جوٌّ واحدٌ لكنْ لكلٍّ منهما طيرانُهُ

---

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربَّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إنَّ المعرِّيّ لم يكن أبداً
ليأكل اللَّحم لا يلوي على دينِ
يقـالُ : كـان نبـاتيـاً بمـذهبـه
وليـس يقتـاتُ إلا مـن يـدِ الطيـن
شـوى لـه مـرةً مستهـزىءٌ حَجَـلاً
يـريـد يلقـاهُ فيمـا اختـار مُـرْتَبِكـا
لكـنَّ شيـخَ اللُّـزوميَّـات حيـن رأى
شنـاعـة السيخ ألقـى فـوقـه وبكـى
وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفَتْ
يـداك حتَّـى دَخَلْـتَ النَّـار بـالسَّيـخِ
لو كنتَ بازاً لأعطَوك الدَّجاج فِدًى
ومـا لجـأتَ إلـى شَجْبـي وتـوبيـخي
لـم تُلْـقِ بـالـكَ لـلأديـان إذْ وَعَظَـتْ
وللطبيعـةِ إذْ قـالـت لطـالبهـا
اللهُ سخَّـر لـلأقـوى خـلائقَـه
وقـدَّر المـوت للمستضعفيـن بهـا

* * *

سينما

أيعـودُ آزرُ مـرةً أخـرى
ويـذيـعُ فـي السينمـا معـانيـه
أصنـامُهـا فـي صَـدْرِ صـالتهـا
عـادت لـه بِـرَواجِ مـاضيـه
مـا كـان يُنْحـتُ قبـلُ مـن صنـم
جـاءت تُـريـدُ تبيعُـه فينـا
صـاغـت لنـا الـدُّنيـا لنعبـدَهـا
وثنـاً وصـاغَ لِعَصْـرِهِ الـدِّينـا
مـا كـان فنَّـاً فنُّـه أبـداً
مـا كـان غيـرَ طقـوسِ أوثـانِ
فتفحَّـصِ السِّينمـا الَّتـي ظَهَـرَتْ
هـي فـي الحقيقـةِ ثـوبُـه الثَّـانـي
هـو صـاغ أصنـامـاً لعـالمـه
مـا صـاغَ مـن طيـنٍ وفخَّـارِ
وتصـوغُ صـالتُهـا لعـالمنـا
أصنـامَهـا مـن مـارجِ النَّـارِ
مـا فـي زوايـا المعبـدَيْـنِ سِـوى
هـذا الـرَّمـادِ وذلـكَ الطِّيـنِ
إنْ لـم يـلِ التَّـوحيـدُ أمـرَهمـا
لـمْ يتـركـا شـرفـاً لِمِسْكِيـنِ

* * *

إلى جماعة « بيرزاده »[1] في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحِ مجددٍ[2] ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
وعلى التُّرابِ من الضَّريح تألُّقٌ غبْطَتُه في قَصْرِ السَّماء جواري
لا غروَ للأسرارِ تَلْمعُ هاهنا فهاهنا توارى صاحبُ الأسرار
من ردَّ جاهنكير عن يده وما ذلَّتْ عمامتُه لوصمةِ عارِ
هذا المكانُ من الوجود ضريحُه وهنا يقيمُ معلِّمُ الأحرارِ
الهندُ تعرف أرضُها وسماؤُها كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
هو أحمدُ المختار لِلْمِحَنِ الَّتي نالتْ شريعةَ أحمدَ المختارِ
لما وقفتُ على ضريح مُجَدِّدٍ دار الحديثُ عن الزَّمان الدائرِ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمان له وما ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذِ
من أين ألتمس البصائر إنَّني أصبحت في عينيَّ كالمنبوذِ
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجاب
لا تكتَرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ مجنونةٍ ولو ارتدى جلبابي
أرني قلنسوةً لِدَرْويشٍ لهم لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
ذهبوا مع الفقهاءِ خلف ملوكهم لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

***

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولًا أدوارنا في لعبة التِّيجانِ

---

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى الماديِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقٌ   هذا اختيارُ اللاّعبِ الشَّيطانِ
إنَّ البيادق إنْ أعاقت نفسها   دلَّتْ على شاهٍ بلا سُلطانِ

* * *

التَّجَرُّد

ليس التَّجَرُّد أن تقيمَ على الطَّوَى   وقواكَ خائرةٌ وبيتُك مُعْدَمُ
فَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يطيحُ بأهله   ومِنَ التَّجَرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً   أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارةِ مسلمٌ   فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

* * *

الذَّات

لا تَرْضَيَنْ فضةً بالذَّاتِ أو ذهبا   ولا تبغ بِشَرارٍ ذلكِ اللَّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتْ   للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُه   فلا تكنْ وَقِحاً إنْ رمتَه طلبا)[١]

* * *

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحا
غَزَلَتْهُ من ذهبِ الحرير فصار للدُّنيا وشاحا
والكونُ مُغْتبطٌ بما   جَلَبَ الفراقَ من التَّسلِّي

---

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

متــــرنــــحٌ فـــي صمتـــــه نشـــوانُ مـــن مُتَـــعِ التَّجلِّـــي
هـــل تعـــرف الأنهـــارُ والأفـــلاكُ أســـرار التشـــوُّف
هـــل يـــرتـــوون من الفـــراق ويكتـــوون مـــن التلهُّـــف
أنـــا قسمتـــي قلـــقُ الفِـــراقِ ســـواه مـــالـــي مـــن مُنـــىٰ
هـــو فـــي الصَّميـــم مـــن التُّـــرابِ ومـــا التُّـــرابُ ســـوى أنـــا

***

الدَّيـــر

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُحتملٌ ولا أنـــا أستطيـــع اليـــوم إلغـــازا
مضـــى الَّـــذيـــن إذا قـــالـــوا لميِّتِهـــم قـــمْ ، قـــامَ فيهـــم بـــإذنِ اللهِ واجتـــازا
فما الَّذي بعدهم في الدَّير تفعله جمـــاعـــةٌ بمـــذاقِ الـــدَّيـــر كفَّـــارُ
أخِـــذمـــةٌ لقبـــورِ القـــوم مـــا بَـــرِحـــوا أمْ أنَّهـــم لقبـــورِ القـــومِ حُفَّـــارُ

***

شكوى الشَّيطان

قـــال إبليـــسُ الـــرَّجيـــمُ يشتكـــي الله تعـــالـــى
مـــا لِنَجْـــلِ الطِّيـــن هـــذا فـــوقَ نـــاري يتعـــالـــى
هُـــوَ ذا آدم بعـــــدي هُـــو ذا كـــومُ التُّـــرابِ
واهـــنُ الـــرُّوحِ كبيـــرُ الكِـــرْشِ مـــوفـــورُ الثِّيـــابِ
عقلُـــه فـــي الأوجِ لكـــنْ قلبُـــه يَلْفِـــظُ روحَـــه
مـــا لقلبـــي غيـــرَكَ اللهـــمَّ لـــو تـــأســـو جـــروحـــه
كلَّمـــا يجعـــلُ منـــه الشـــرق معيـــارَ النَّجـــاسَـــة
لا تبـــالـــي حكمـــاءُ الغـــرب أنْ تـــرفـــعَ راسَـــه

حورُ فردوسِكَ تخشى عالمَ الفِرْدَوْسِ يُقْفِرْ
جئتُكَ اللهمَّ بالحُجَّة كي ترضى وتغفِرْ
فسَّرَ الغربُ الدِّيمقراطيُّ تَزكي لِسُجودي
لم يعدْ من بعده في الأرض معنىً لوجودي

* * *

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ السُّوء من رجلٍ إنْ كانَ فيه دمٌ وناموسُ
وارغبْ عن المحروم منْ دمه فالخيرُ مِنْ كفَّيْهِ ميؤوسُ
رجلٌ يحرِّكُ قلبَه دمُهُ لا الفَقْرُ يُحْزِنُه ولا الجودُ
إيَّاك منْ لم يَهْدِهِمْ دمُهُمْ سودُ الدِّماء عقولُهم سود

* * *

الطَّيران

تشكَّتِ التينةُ للعُصفورِ مِنْ معبدِ الألوان والعُطورِ
قالتْ له : يا أيُّها المغرِّدُ حتَّى متى يكفرُ هذا المعبَدُ
لو أنَّ لي أجنحةً وعَوْنا أغْرَقْتُ بالجمالِ هذا الكونا
أجابها العصفورُ في وداعةْ إجابةً في منتهى البراعةْ
قال لها : أيَّتُها المسكينةْ كيف تطيرين وأنت تينةْ
قولُك لا يَنِمُّ عن غباءِ وإنَّما يدعو إلى الرِّثاءِ
أتدَّعينَ الظُّلمَ في عينِ العَدلْ وأنتِ أحرى من أريتُ بالعَذلْ
الطَّيران سرُّنا المحجوبُ لا يستطيعُ نيلَه مجذوبُ

* * *

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التَّلاميذ الَّتي اختنقت ... يبني المعلِّم هذا صرحَ فخَّار
الحقُّ ما قال كاغاني[1] وَيَسْحَرُني ... ما قال من بيت شعرٍ بذَّ أشعاري
(إذا الجدارُ أمام الشَّمس ترفعُه ... فلن ترى نورَها في باحة الدَّار)

***

الفيلسوف

يعرفُ الفيلسوفُ كيفَ يطيرُ ... وهو في العِلْم غايةٌ في البراعهْ
جسدٌ فارغٌ وعِلْمٌ غزيرٌ ... لو أضافوا إليه روحَ الشَّجاعهْ
يَرْسُم النَّسرُ في السَّماء دوائر ... كالشَّواهينِ والطيورِ الحرائر[2]
لا تغرَّنَّكَ المظاهر هذي ... فهو يخفي نقيضها في السَّرائر
هي تقتاتُ من إوزٍّ وبطٍّ ... وهو يقتات جيفةً وفطيسهْ
أيُّ معنىً له إذا حرموهُ ... متعة الانقضاض فوق الفريسَهْ

***

---

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النَّسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلّى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبةً ما إذا سيبقي على شيء لها أم لا .

الشّاهين(١)

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ثمْ أَلْقَيتُ كلَّ شيءٍ ورائي
ذلكَ العالمُ الذي زعموه ليس يقتاتُ غير حَبٍّ وماءِ
أنا نَجْلُ الصَّحراء والزُّهدُ ديني وهما في سجيَّتي ودمائي
أجْهَلُ الزَّهرَ والنَّسيم وما في لوعةِ العندليب عند المساء
ورجالُ البُستان تغري ولكنْ ليس تُغْري منشَّأً في العَراء
أين مجدي إذا شقيتُ لجوعٍ وأذلَّتْ حمامةٌ كبريائي
بافتراسي أصونُ عزَّة وجهي وأروِّي حماستي وإبائي
كلُّ طيرٍ له من الأرض عشٌّ وأنا هاهنا حليف مضائي
كيف يبني قلندر الطَّير عشاً وهو الفَرْدُ في رحابِ السَّماء

* * *

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ ـ لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .
٢ ـ يطير إلى الأعالي .
٣ ـ ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهيد .
٤ ـ لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر(١)

أنــا فــانــوســي الــذي أمْلِكُــه   شمعــةٌ فــي قصعــةٍ مــن خَــزَفِ
إن أقَمْـــتُ الليـــل ذابـــتْ وإذا   هَبَّــتِ الــرِّيــحُ عليهــا تنطفــي
مـــا الَّـــذي يفعَلُـــه سيِّــدنـــا   بــالمصــابيــح الَّتــي حــول المزار
ثــمَّ مــا معنــى مــزارٍ وضــريــح   وستـــورٍ وعطـــورٍ وجِمَـــار
يــا إلهــي كــمْ لنــا مــن كعبــةٍ   كــم لنــا مــن صنــمٍ فــي الحــرمِ
وفقـــاعـــاتِ قبـــابٍ فـــوقَهـــم   جعلتنـــا ضحكـــةً لـــلأمـــم
ليــس مــا يعطــى لهــذي الأوليــاء   مــن نــذورٍ بــاسمهــم إلَّا رَبَــا
المـــرابـــي دائمـــاً مختبـــئٌ   وولــيُّ القَــوْم فــي القبــر اختبــا
أتـــراهـــم سلكـــوا كـــالأوليـــاءْ   إنَّمــا هــم أوليــاء بــالــوراثــةْ
مـــلأ الغـــربـــانُ أوكـــار النُّســـور   خلَّــصَ اللهُ مــن القــومِ تــراثــهْ

***

آخر وصايا هارون

قـــال الـــرَّشيـــد لابنـــه يـــوصيـــه : هـــا أنـــذا احْتُضِـــرْتُ
ستمـــرُّ بعـــدي أنـــت فـــي هـــذا الطَّـــريـــق كمـــا مـــررتُ
أبنـــيَّ إنَّ المـــوتَ نـــورٌ فـــي عيـــونِ المـــؤمنيـــن

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدِّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدةً ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدَّير) .
وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّــــور هـــــذا لا تشــــاهِـــدُه عيـــونُ الكـــافـــريـــن

* * *

إلى عالمِ نفس

دعْ عنـكَ فكـرَكَ فـالإعصـار جـرَّارُ   وليـس تجـدي ببحـر الـذَّات أفكـارُ
وأيـن أنـتَ بهـذا البحـر مـن جُـزُرٍ   صغيـرةٍ مـا أتـاهـا قـطُّ بحَّـارُ
إن لـم تشـقَّ كمـوسـى ثـوبَ لُجَّتهـا   فحظُّـك الصَّمْـتُ إنْ وافـاك إعصـارُ

* * *

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)[1] في المِرْصاد واقفةٌ   مَكْـرُ الثَّعـالـب يَفْـري قـوّةَ الأسَـدِ
لا بـدَّ تسقـطُ أوربـة إذا نَضِجَـتْ   في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

* * *

الأسدُ والبغلة

قـالَ للبغلــةِ يــومــاً أســدٌ   أنـتِ حقـاً لـكِ سـرٌّ مـن أبـوكِ
فــأجــابتــه الا تَعْــرِفُنــي   أنـا خـالـي فَخْـرُ إصطبـل الملـوكِ

* * *

---

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة(١)

ألا تــــرثـــــي لعُصفـــــورٍ عـــن الطَّيـــران قـــد مُنعـــا
إذا استخفـــــى وحـــــاول أنْ يطيـــرَ لـــوَخْـــدِه وقعـــا
يحـــــاولُ أن يكـــــون فـــؤادُه بيتـــاً لجبـــريـــلِ
وليـــس لـــه مـــن الطَّيـــران غيـــر القَـــال والقيـــلِ
هـــل العصفـــورُ بيـــن الشَّـــوك كـــالعصفـــور فـــي الجنَّـــة
بـــربـــك هـــذه حـــريَّـــةٌ فـــي الفكـــر أم جِنَّـــه
فقـــل لمفكِّـــر حـــرٍّ أضـــلَّ الفكـــرُ وجـــدانَـــه
تعـــالـــى الله أن يلهـــمَ مـــا يُبْطِـــلُ قـــرآنـــه
وهـــل يهـــدم مجـــدَ الشَّعْـــب غيـــر الفِكْـــرَة الحـــرَّه
وهـــذي الفكـــرة البلهـــاء سيِّـــدُهـــا (أبـــو مـــرَّه)

* * *

النِّسرُ والنَّملة

قـــالـــت النَّملـــة للنِّســـر الـــذي مـــرَّ يـــومـــاً مـــا علـــى وادي النَّمـــلْ
أنـــت تـــرعـــى فـــي بســـاتيـــن النُّجـــوم وأنـــا فـــي شقـــوة العيـــش المُـــذِلْ
قـــال : لكـــن أنـــا لا أبحـــث عـــن مـــؤنـــي مثلـــك فـــي هـــذا التُّـــراب
لســـتُ ألقـــي نظـــرةً حتَّـــى ولا للسمـــواتِ التـــي فـــوق السَّحـــاب

●●●

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكّر ويتحدث في حريّة في موضوع الدين) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
محمد إقبال عند رجال الفكر والدعوة	١٣
محمد إقبال ـ حياته ـ شخصيته ـ فكره ـ فلسفته	١٧
أسرته وولادته	١٩
نشأته ودراسته	١٩
نبوغه في الشعر	٢٠
رحلاته	٢٣
وفاته	٢٤
آثاره في الشعر والنثر	٢٥
العوامل التي كونت شخصيته	٢٧
الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال	٤٣
فكر محمد إقبال	٦٣
فلسفة إقبال	٧٦
تفسير اصطلاحات في الديوان	٨٣
الديوان الأول : صلصلة الجرس	٨٧
النشيد الإسلامي	٩١
الشكوى وجواب الشكوى (حديث الروح)	٩٣
جواب الشكوى	١٠١
الديوان الثاني : الأسرار والرموز	١١١
محتوى الديوان	١١٥
خلاصة المقدمة التي كتبها محمد إقبال للديوان	١١٧

الموضوع	الصفحة
خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون	١١٩
دوام الذات أو الشخصية	١٢٠
تربية الذات	١٢١
القسم الأول : أسرار إثبات الذات	١٢٥
تمهيد	١٢٧
نظام العالم وتسلسل حياة أعيان الكون	١٣٣
حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها	١٣٦
الذات تتحكم بالمحبة والعشق	١٣٨
الذات تضعف بالسؤال	١٤١
الذات تسخر قوى العالم الظاهرة والباطنة	١٤٣
نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة	١٤٤
آراء أفلاطون وأثرها في تصوُّف المسلمين وآدابهم	١٤٧
في حقيقة الشعر وانسلاخ الآداب الإسلامية	١٤٨
مراحل التربية الذاتية	١٥٣
المرحلة الأولى : الطاعة	١٥٣
المرحلة الثانية : ضبط النفس	١٥٤
المرحلة الثالثة : النيابة الإلهية	١٥٥
فتى مرو وبغي الأعداء	١٦٠
قصة الطائر الذي أجهده العطش	١٦٢
قصة الألماس والفحم	١٦٣
قصة الشيخ والبرهمي	١٦٤
حياة المسلم لإعلاء كلمة الله	١٦٧
نصيحة مير نجاة لمسلمي الهند	١٦٩
الوقت سيف	١٧٤
دعاء	١٧٧
القسم الثاني : رموز نفي الذات	١٨١

الموضوع	الصفحة
محتوى الديوان	١٨٣
تمهيد : مهداة إلى الأمة الإسلامية	١٨٧
في معنى ارتباط الفرد والأمة	١٩٠
الملة تنشأ من إخلاص الأفراد	١٩٢
أركان الأمة الإسلامية	١٩٥
الركن الأول : التوحيد	١٩٥
التوحيد دواء العلل الخبيثة	١٩٧
محاورة السهم والسيف	١٩٩
قصة السلطان عالمكير والأسد	٢٠٠
الركن الثاني : الرسالة	٢٠٢
مقصود الرسالة المحمدية	٢٠٤
قصة أبي عبيد وجابان	٢٠٥
قصة السلطان مراد والعمَّار	٢٠٦
الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد	٢٠٧
الوطن ليس أساس الأمة	٢١٠
الأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية	٢١١
شريعة الأمة المحمدية القرآن	٢١٤
التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد	٢١٦
كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي	٢١٨
حسن سيرة الأمة من التأدب بالآداب المحمدية	٢٢٠
مركز الأمة الإسلامية البيت الحرم	٢٢٢
مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره	٢٢٥
توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم	٢٢٨
كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد	٢٣٠
بقاء نوع الإنسان بالأمومة	٢٣٣
سيدة النساء فاطمة الزهراء	٢٣٥

الموضوع	الصفحة
خطاب إلى المرأة المسلمة	٢٣٦
خلاصته مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص	٢٣٧
شكوى إلى من أرسل رحمة للعالمين	٢٤٤
الديوان الثالث : رسالة الشرق	٢٤٩
محتوى الديوان	٢٥٢
مقدمة محمد إقبال	٢٥٣
القسم الأول : شقائق الطور	٢٦١
القسم الثاني : أفكار	٢٧٥
القسم الثالث : الخمر الباقية (غزليات)	٣٠٥
القسم الرابع : نقش الإفرنج	٣٢٣
القسم الخامس : رقائق	٣٣٧
اللمعات	٣٤١
الديوان الرابع : زبور العجم	٣٦٩
محتوى الديوان	٣٧١
تمهيد	٣٧٣
الخاتمة	٤٠١
الديوان الخامس : جناح جبريل	٤٠٣
محتوى الديوان	٤٠٦
القسم الأول	٤٠٧
القسم الثاني	٤٢١
القسم الثالث ـ في مسجد قرطبة	٤٦٩
النخلة الأولى	٤٨٣
إسبانيا	٤٨٥
دعاء طارق	٤٨٦
لينين أمام الله	٤٩٠
الملائكة تغني	٤٩٣

الموضوع	الصفحة
أوامر الله للملائكة	٤٩٣
في أرض فلسطين	٤٩٥
الفراشة واليراعة	٥٠٣
وصية إقبال لولده جاويد	٥٠٤
تسول	٥٠٤
الملا والفردوس	٥٠٥
الدين والسياسة	٥٠٥
الأرض لله	٥٠٦
رسالة إلى شاب	٥٠٧
نصيحة	٥٠٨
شقائق النعمان في الغاب	٥٠٨
كتاب الساقي	٥١٠
الزمن	٥١٩
آدم يغادر جنة عَدْن	٥٢١
روح الأرض تستقبل آدم	٥٢١
المرشد والمريد	٥٢٣
جبريل والشيطان	٥٢٩
الأذان	٥٣١
الحب	٥٣٢
رسالة نجم	٥٣٣
إلى جاويد	٥٣٣
الدين والفلسفة	٥٣٣
رسالة من أوربة	٥٣٤
على قبر نابليون	٥٣٥
موسوليني	٥٣٦
سؤال	٥٣٧

الموضوع	الصفحة
إلى فلاح البنجاب	٥٣٧
نادر شاه ملك الأفغان	٥٣٨
حلم تَتَرِيّ	٥٣٩
وصية خوش حال خان	٥٣٩
الحالة النفسية والظرف	٥٤٠
أبو العلاء المعري ـ سينما	٥٤١
إلى جماعة بيرزاده في البنجاب ـ سياسة	٥٤٢
التجدد ـ الذات ـ فراق	٥٤٣
الدير ـ شكوى الشيطان	٥٤٤
دم في الشرايين ـ الطيران	٥٤٥
معلم المدرسة ـ الفيلسوف	٥٤٦
الشاهين	٥٤٧
المريد الثائر ـ آخر وصايا هارون	٥٤٨
إلى عالم النفس ـ أوربة ـ الأسد والبغلة	٥٤٩
فكرة حرة ـ النسر والنملة	٥٥٠
فهرس الموضوعات	٥٥١

* * *

ديوان

محمد إقبال

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

دار ابن كثير
(دمشق — بيروت)

بسم الله الرحمن الرحيم

دِيوَان

مُحَمَّد إقْبَال

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

1428 هـ ـ 2007 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير

الدِّيوانُ السَّادِسُ

ضَربُ الكَلِيم

ضرب كليم

نَقَلَهُ إلى العَرَبِيَّةِ شِعرًا

الدكتور عبد الوهّاب عزّام

هذا الديوان الثالث[1] لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداناً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاورُ ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكليم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ سديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمَّاه إقبال « ضرب الكليم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارىء يقدِّر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

---

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

محتوى الديوان

قسَّم الشاعر هذا الديوان على ستة أقسام ، وقدَّم قبلها قطعتين وقصيدة : القطعة الأولى أبيات قدَّم بها الديوان إلى أمير ولاية بهوفال حميد الله خان ، والثانية يُخاطب فيها القرَّاء ، والقصيدة سمَّاها تمهيداً .

وهذه أقسام الديوان الستة :

القسم الأول : الإسلام والمسلمون .

القسم الثاني : التعليم والتربية .

القسم الثالث : المرآة .

القسم الرابع : آداب الفنون الجميلة .

القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب .

القسم السادس : أفكار محراب حبل الأفغاني .

وهذه الأقسام مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة ، لا تتجاوز العشرة إلاَّ قليلاً .

والقسم الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسماً تختلف أقسامها أوزاناً وقوافي ، ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية .

وقد نقل هذا الديوان من الأردوية إلى العربي شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وكتب الأستاذ غلام أحمد برويز لهذا الديوان كلمات قيمة يعرِّف فيها هذا الديوان ، يقول فيها :

« هذا الديوان الذي نقدم إلى القراء ترجمته ، سماه العلامة إقبال « ضرب كليم » ووصفه بأنه (إيذان العصر الحاضر بالحرب) وأرى أنَّ هذا الوصف لا يخصُّ ضرب الكليم ، بل يشمل جانباً كبيراً من رسالة إقبال العظيمة ، فنحن إذا قسمنا رسالة إقبال انقسمت إلى قسمين خطيرين :

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حبالة « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنيّة بالصور والأشكال ، كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .

* * *

والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذ يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد، وحدَّ حدوداً، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدٍّ هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا الينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته ممكنات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكنات وتجلِّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلَّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامَّة ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(جـ) ثم فلاح النوع الإنسانيّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يُتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدُّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثّل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمِّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلَّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيَّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيَّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة ـ التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل ـ قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلٌّ واحدٍ في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسّر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلَّل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

* * *

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلماتٍ قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحادٍ ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسها منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيِّىء الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أنَّ في كلِّ ستةٍ من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أنَّ أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

* * *

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلَّت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في السُّحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالًا إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥م : **« ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العشُّ على غصنٍ رطيبٍ ضعيفٍ مضطرب »** .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذِّر الناس عامَّةً والأمم الإسلامية خاصَّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

* * *

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلَّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية[1] ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةٍ وفارسيةٍ ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذاً لا يتأتَّى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملمّاً بحدود تلك المصطلحات الخاصَّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردخُر » وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالًا أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمَّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكليم » يتحتَّم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمةٍ موجزةٍ قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابةَ عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلَّا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وَهْم وخدْعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حباب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمةٍ دائبةٍ في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عُني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخصُّ جميع الموجودات كُلاًّ على حدة ، حتى أنَّ الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكَّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أنَّ الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلِّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أنَّ أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أنَّ المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكامنها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت ـ الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أنَّ كلَّ عمل يؤدي إلى إضعافها شر .

ويبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأماني هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمَّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبطُ النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتمُّ التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلَّى بأكمل وجهٍ في الذات الإلهية الجامعة لصفاتٍ متضادةٍ متعادلةٍ للغاية .

وإذا تمَّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدَّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمِّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلَّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوَّ المحل ، وانعدام شاغله أولًا) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه ـ الحال التي تسمَّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

ميـــان امتـــان والامقـــام اســـت — كـه آن امـت دوكيتـي را امـام است
نيـــاســـا يـــد زكـــار آفـــرينـــش — كه خواب وخستكي بروي حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنَّها أمةٌ نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنَّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« بـاغـان عنـدليبـي خـوش صفيـري بـراغـان جـره بـازي زودكبـري
أميـــر أو بسلطـــانـــي فقيـــري فقيـــر أو بـــه درويـــش أميـــري

(إنها في البساتين عندليبٌ حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها أمير على الرغم من كونه درويشاً)[1] .

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

---

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة) .

فطْرةُ الحُرِّ لا تُطيق مُقاماً   فائلف السيرَ دائباً كالنسيم
ألفُ عَينٍ تشقُّ صخرَك فاضربْ   بَعْدَ غَوْصٍ في (الذَّات) ضربَ الكليم

إلى القارئين

إذا لـم تُصب فـي الحيـاة النظـرْ ... فليس زجـاجُـك كُـفءَ الحجـر[1]
كِفـاحٌ شـديـدٌ ، وضـربٌ سـديـد ... فلا ترجُ في الحرب عَزفَ الوتر
مَعيـنُ الحيـاة دمـاءُ القلـوب ... ولحـنُ الـدِّما لا الميـاهِ الفِطَـر[2]

* * *

(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دمٍ ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المياه .

تمهيد

(١)

يَقْظَـةُ « الـذات » لا أراهـا بـدَيْـرِ ... لا ولا تُجتلَـى لـدى المِحـرابِ
إنَّ روحَ الشُّعـوب فـي الشرق غـافٍ ... من سموم الترياق ، رهنُ غياب[١]
إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعاً ... فحـرامٌ مسـراكَ فـوقَ السَّحـاب[٢]
ليـس مـن خيفـة الممـات نجـاةٌ ... إن تَرَ (الذات) هيكلاً من تراب[٣]
ليس يُخفـي صـروفَـه الـدهـرُ لكـنْ ... لـك قلـبٌ ونـاظـرٌ فـي حجـاب
قـد مُنِحـتُ الهشيـمَ فـي آسيـا إذ ... أنَّ نـاري حـديـدةٌ فـي التهـاب[٤]

(٢)

ذَنـبُ إقبـالِ البيـانُ وإن كـان ... شبيـةَ الـزَّمـان نـزرَ الـوصـال[٥]
هـاج أنغـامُـه عكـوفـاً علـى الخشخـاش مَـوْتَـى ، إلـى طـلابِ المعـالـي
فمهيـضُ الجنـاحِ ألـفُ دارٍ ... قـد رَنـا اليـوم للفضـاء العـالـي[٦]
فعـداهُ التغـريـدُ فـي الأسحـار ... وحنيـنٌ ومُتعـةُ الأبصـار[٧]

---

(١) الترياق : الأفيون .
(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .
(٣) يرى إقبال أنَّ الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .
(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة .
(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .
(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .
(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .

القسم الأول

الإسلام والمُسلمون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الصبح

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمُنِ
لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له ظُلَمُ العوالم ، من أذانِ المؤمنِ

* * *

لا إلٰه إلا الله[1]

مُسْتسرٌّ في الذات معنىً بعيدٌ سرُّه لا إلٰـه إلا اللهُ
سيفُ الذاتِ قاطعٌ غيرُ نابٍ شَحذُهُ لا إلٰـهَ إلا الله
عصرنا يبتغي خليلاً حَطوماً وُثْنَه . لا إلٰـه إلا الله[2]
إنَّ دنياك مَوثن لا تصدِّق زوره . لا إلٰـه إلا الله
في متاع الغرور تسعى وتبغي ربحه ! لا إلٰـه إلا الله
يا أسير الخسار والربح يَنسى نفسه ! لا إلٰـه إلا الله
مالُ دنياك والبنون خداعٌ كلُّه . لا إلٰـه إلا الله
هي أصنامُ واهمٍ قد براها وهمُه . لا إلٰـه إلا الله
حبسَ العقلَ في مكانٍ ووقتٍ كفرُه . لا إلٰـه إلا الله
لا زمانٌ ولا مكانٌ فحطِّم غلَّه . لا إلٰـه إلا الله

* * *

---

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .
(٢) الوُثْنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر[1]

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثُّريَّا
إلى (التقدير) ردُّوا كلَّ سَعْيٍ ... وكان زَماعُهم قَدراً خفيَّا
تبدَّلت الضمائر في إسارٍ ... فما كرهوه صارَ لهم رَضِيَّا

***

المعراج[2]

وذَرَّةٍ طار فيها الشَّوقُ صاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمرِ
يا رِفْقةَ المَرجِ ! تلقى الصقرَ مُقدمةً ... دُرّاجةٌ تملأ الأنفاسَ من شرَرِ
المسلمُ السَّهم ، والأفلاكُ غايتُه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فاذَّكر[3]
جهلتَ ﴿ والنجم ﴾ أسراراً فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجاً إلى القمر[4]

***

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحقُّ أنَّ العبودية بدلت النفوس ، فرأوا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .

(٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .

(٣) يريد أن في المعراج سرُّ الروح . وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .

(٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجيباً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه .

إلى سيدٍ مصابٍ بالفلسفة

لـو لـم تُـؤَلّ « ذاتَـك » النّسيـانـا ... لمْ تَحمِلَنْ زُنّار (بَرْجَسَانا)[1]
أصـداف (هيكـلٍ) مـن الخـوالـي ... طِلْسَمـــهُ جميعـــه خيـــالـــي
فكيـــف صـــاحِ تُحكَـــمُ الحيـــاةُ ... وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟
وطَلَـــبُ الإنســـان للثبـــات ... وقصــــدُه دستـــور ذي الحيـــاة؟
يُحـوِّل الـدُّجـى إلـى الإشـراق ... أذانُ مـــؤمـــنٍ نِـــدا الآفـــاق
وإنّنـي فـي الأصـل سُـوَمنـاتـي ... إلـــى مَنـــاةَ سَلَفـــي والـــلاتِ[2]
وأنـــت مـــن أولاد هـــاشمـــيٍّ ... وطينتـــي مـــن نسْـــلِ بَـــرْهَمـــيٍّ
فـــي عَصَبـــي فلسفـــةُ الأشيـــاء ... قـــد مُـــزِجَـــتْ بطينتـــي ومـــائـــي
أحـــاط إقبـــالٌ بهـــا تفصيـــلا ... وإن يكـــن عـــرفـــانُـــه قليـــلا
عـــاقبـــةُ العقـــلِ إلـــى شَتـــاتِ ... فلسفـــةٌ بُعـــدٌ مـــن الحيـــاة
ونَغْمـــةُ الأفكـــار دونَ صَـــوت ... للـــذّة الأعمـــال حـــادي المـــوت
الـــدِّيـــنُ فـــي حيـــاتنـــا تقـــويـــم ... الـــدِّيـــن أحمـــدٌ وإبـــراهيـــمُ
(قلبَـك فـاربـط بـالهُـدَى المحمـديّ ... « أبـا علـيٍّ » اتـركَـنْ يـابـن علـيّ
إنْ تـكُ بـالطـريـق غيـرَ داري ... فـالقـرشـيُّ اتبَعـه لا البخـاري)[3]

***

---

(١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .

(٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .

(٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاح عَلَّ الذي رأيتَ ربيعاً   هو في أعيُن خريفُ الزَّمان
سالكَ النَّهج ! كلَّ حينٍ شُؤونٌ   لا تفكِّر في الربح والخسران
رُبَّ ما خِلتَه بدنياك أوْجاً   هو أرض لعالَمِ غاب ثانِ

***

اضمحلال المسلمين

إنَّ كان ذا الذهبُ الذي   يَقْضي الحوائجَ في الدُّنى
فالفقرُ صاحِ مُيَسِّرٌ   ما لا يُيَسِّرُه الغِنَى
شُبّانُ قومي لو تحلَّوْا   بالشَّجاعة دِيدَنا
لم تُلْفَ صَعْلكتي أقلَّ   من الملوك تَصَوُّنا
الأمر ليس كما زعمتَ   وقد وصفتَ المؤمنا
فزعمتَ أنَّ طماحه   من قِلَّة المال انثنى
إنْ كان في الدُّنيا بدا   لي جوهرٌ فيه سَنا
فَمِنَ التَّصَعْلُكِ قد بدا!   لا بالخزائنِ والقُنَى

***

العلم والعشق

قال لي العلمُ غُروراً :   إنَّما العِشْقُ جنونْ
قال لي العِشْقُ مجيباً :   إنَّما العلمُ ظَنينْ
لا تكنْ سوسَ كتابِ   يا أسيراً للظنون
فمن العِشق شُهودٌ   ومن العِلْم حجابْ
مِنْ لهيب العِشْقِ ثارتْ   ثورةٌ في الكائناتْ

وشهــــودُ (الــــذَّاتِ) للعِشْـــق ، وللعلـــم الصِّفــــات
ومِـــنَ العِشْـــق ثبـــاتٌ وحيــــاةٌ وممــــات
عِلْمنــــا سُــــؤْلٌ جلــــيٌّ عِشقُنــــا خــافــي الجـــوابْ
معجـــزاتُ العِشْـــق مُلـــكٌ زانَـــه فقـــرٌ ودِيـــن
وعبيــــدُ العِشْـــق أدنـــا هـــم لـــه عـــرشٌ مكيـــن
ومـــن العشْـــق زمـــانٌ ومكـــانٌ ومكيــــن[1]
إنَّمـــا العشـــق يقيـــنٌ وبـــه يفتـــحُ بـــابْ
أُلْفَـــةُ المنـــزل فـــي شـــرعِ مـــن الحُـــبِّ حـــرام
خطَـــرُ البحـــر حـــلالٌ راحـــةُ السِّـــرْبِ حـــرامُ
خفقـــةُ البـــرق حـــلالٌ وَفْـــرة الحَـــبِّ حـــرام[2]
علمنــــا نَسْـــلُ كتــــابِ عِشْقُنــــــا أمُّ الكتــــابْ

* * *

اجتهاد

حكمـةُ الـدِّيـن كمـا قـد زعمـوا عُلِّمَتْ في الهند من أيِّ طريقِ ؟
مـا بهـا لـذةُ سعـيٍ دائـبٍ لا ولا فيهـا مـن الفكـر العميـقِ
أيـن منهـم جُـرأةُ العقـل لـدى مَخفـلٍ يهفـو إلـى الفكـر مَشـوق
آه للتقليــد والأســر بمــا أَلِفـــوه وزوالِ التحقيـــق

---

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردي .

بـــدَّلـــوا القـــرآنَ لا أنفُسَهـــم كـــم فقيــهٍ مُبعَـدٍ مــن تــوفيــقِ[1]
وكفـــى القـــرآنَ نقصـــاً أنَّـــه ما هدى المؤمنَ منهاجَ الرقيق[2]

* * *

شكر وشكوى

لــك الحمــد إنِّــيَ عبــدٌ جهــولٌ ولكــنْ وُصِلْــتُ بســرِّ الغيــوبْ
مَنَخْــتُ القلــوبَ هُيــامــاً جــديــداً أثــرتُ البعيــدَ بــه والقــريــب
ومن حرِّ شَذْوي يُرى في الخريف طَــروبــاً بصحبتــي العنــدليــب
ولكـــن خُلِقْـــتُ بـــأرضٍ بهـــا نفـــوسُ العبيـــد بـــرِقٍّ تطيـــب

* * *

الذكر والفكر

ذانِ للســالــك الطَّمــوح مقــام نَــزَلَــتْ فيــه « عَلَّــمَ الأسْمَــاءَ »[3]
ومقــام التفكيــر قــولُ ابــنِ سينــا ومقــامُ العطَّــار بــالــذِّكــر ضَــاء[4]
ولــذكــرِ « سبحــانَ ربِّــيَ » والفكـــرُ يقيــسُ الــزمــانَ والأرجــاء[5]

* * *

---

(١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .

(٢) يعني أنَّ الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .

(٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

(٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .

(٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغلٍ بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عليكَ مقامُ آدمَ في الورى   فالنفسُ ما نالَ الإلٰه وصَالُها[1]
ما في أذانك من صباحي دعوةٌ   أو في الصلاة جمالُها وجلالُها

* * *

القدر[2]

ربما يبلغُ اللئيمُ مُناه   وينالُ الكريمَ ضيمُ الزمانِ
علَّ في منطقِ القضاء خفاءً   ويُرَى دون منطقٍ في العيانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذي الحقيقةَ طُرّاً   وجلاها التاريخُ كلَّ أوانِ
نحو مسعى الأقوام يرنو القضاءُ   نظرةٌ كالحُسام فيها مَضاءُ

* * *

التوحيد

قوَّةٌ كان في الحياةِ على الأرض   فصارَ التَّوحيدُ علمَ الكلام
رَدَّهُ في الفعال غيرَ مضيءٍ   جهلُنا اليوم ما لنا من مقام
قائدَ الجيش ! قد رأيتُ غُموداً   مِن « هُو اللهُ » ما بها من حُسام[3]

---

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخلدت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقةً لا جدال فيها ، هي أنَّ عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

مـا درى الشيـخُ أنَّ تـوحيـدَ فكـرٍ ... دون فِعـلٍ ، يُعـدُّ لَغْـوَ كـلام[1]
يـا إمـامـاً لـركعـةٍ كيـف تـدري ... فـي الـوَرَى مـا إمـامـةُ الأقـوام ؟

* * *

العلمُ والدِّين[2]

العلـم يخلـق إبـراهيـم مـوثنَـه ... إذا تـراه نـديـمَ القلـبِ والنَّظـرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما بُدِلا ... مـا مُحـدَثٌ وقـديـمٌ قـولُ ذي بصَـر
ما يُحسنُ المرجُ تربيبَ الزُّهور إذا ... لم تَشْرِك النَّسماتُ الطَّلَّ في الزَّهَر
العلم إن لم يُضِف نَجوى الكليم إلى ... رأي الحكيـم فمـا للعلـم مـن قَـدَر

* * *

المسلمُ الهندي

قـال البَـرَهْمَـنُ : خـائـنٌ أوطـانـه ... والإنكليـزُ تقـول : هـذا مجتـدي
ونُبُـوَّةُ البَنْجـاب قـالـت : كـافـر ... مستمسـكٌ بقـديمـه لا يهتـدي[3]
أيَّـانَ صـوتُ الحَـقِّ يعلـو هـاهنـا ؟ ... ويلٌ لقلبي في الصِّراع المُجْهد[4]

* * *

---

(١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .

(٢) العلم وحده عاجز مُضل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيمه ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلِّ والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما في تربية الزهر .

(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .

(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظٍ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف[١]

أيهـا المسلـمُ تَـدْري اليـومَ مـا ... قيمـةُ الفـولاذ والعَضْـب الـذكَـر
هـو مصـراعٌ مـن البيـت الـذي ... مضمـرٌ فيـه مـن التَّـوحيـدِ سِـرّ
وأرى مصـراعـه الثـانـيَ فـي ... سيـفِ فَقْـرٍ تحتـويـه كـفُّ حُـرّ
أنـتَ يـا مسلـمُ ـ إن تظفـر بـه ـ ... خـالـدٌ أو حيـدرٌ يـوم المَكـرّ[٢]

* * *

الجهاد[٣]

الشيـخُ أفتَـى أنَّـه عصـرُ القلـم ... ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممْ
أمـا دَرى الشيـخُ بـأنَّ وعظَـه ... في مسجدٍ قد صار من لَغْوِ الكلِم ؟
فمـا تـرى السِّـلاحَ كـفُّ مسلـمٍ ... بـل قلبُـه مـن لـذَّةِ المـوت حُـرِم
مَـنْ قلبُـه يهـابُ مَـوْتَ كـافـرٍ ... فكيـف ميتـةَ الشَّهيـدِ يَغْتنـم[٤] ؟
فعلِّمَـنْ تـرك الجهـادِ طـاغيـاً ... مِـنْ كَفِّـهِ يسيـلُ فـي العـالـم دَم
أمـا تـرى الغـربَ بـدا مُـدَجَّجـاً ... ليحفـظَ البـاطـلَ فـي عِـزٍّ عَمَـمْ ؟
يـا مُفتيـاً علـى الكنيـسِ مُشْفقـاً ... قـد حـارَ فـي أحكـامِـه أولـو الفَهَـم
الحـربُ فـي المشـرق شـرٌّ داهِـمٌ ... والحربُ في المغرب شرٌّ لا جَرَم

---

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حَرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إن يَبْتَغِ الحقَّ فكيف حاسب المسـ　　ـلـم لا الفِـرِنْـجَ ذلـك الحَكَـم ؟

***

القوة والدين

كم أصاب الإنسانَ في هذه الأر　　ضِ مِـنَ إسْكَنْـدَرٍ ومـن جَنكيـزِ
ويقـول التـاريـخُ فـي كـلِّ عصـر :　　خَطَـرٌ فَـرْطُ قُـوَّةٍ لعـزيـز
هـي سيـلٌ غُثَـاؤه الفَـنُّ والعِلـمُ　　ومـا أثَّـلَ الـورى مـن كنـوز
وهـي سُـمٌّ بغيـر ديـنٍ . وبـالـدِّيـن　　دَواءٌ لكـلِّ سُـمٍّ نَجيـز

***

الفقر(١)

الفقـر يمضـي بـلا سـلاحٍ　　فـي حَـوْمـةِ الحَـرب كـالـرُّجـوم

---

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدُّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كلِّ سؤدد ، والمقتحم كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيهـا المسلـم تـدري اليـوم مـا　　قيمـة الفـولاذ والعضـبِ الـذَّكـر
هـو مِصـراع مـن البيـت الّـذي　　مضمـرٌ فيـه مـن التّـوحيـد سرّ
وأرى مصـرَاعـه الشـانـي فـي　　سيـف فقـر تحتـويـه كـفُّ حـرّ

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقـر يمضـي بـلا سـلاحٍ　　فـي حـومـة الحـرب كـالـرُّجـوم

وقوله في قطعة « السُّلطان » :

تعلَّـم فـألـف مقـام وشـان　　لفقـر بـدا فيـه روحُ القـران

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمـرُّ عليـك مـن فقـر مِسَنّـاً　　فيطبـع منـك سيفـاً للمنـايـا =

وكــلُّ ضــربٍ لــــه ســـديــدٌ | إنْ ثـــار مــــن قلبــــه السَّليـــمِ
حَمــاسُــهُ قَــصَّ كــلَّ عصــرٍ | قِصَّـــةَ فـــرعـــونَ والكليـــمِ
يـــا غَيـــرةَ الفقـــر أنجـــدينـــا | واهـــدي إلـــى نَهجِـك القـــويـمِ
عبـــادةُ الغـــرب جمـــعُ مـــال | تَنْخَـــرُ فـــي رُوحـــه السقيـــم

= وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملـــك مقـــام فقـــر ، ولكـــن | تـؤثـر الـذلّ مـذعنـاً مـا احتيـالـي

وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

ومـــا إن ذلَّ قـــوم قـــد أعـــدُّوا | حمـــاس العِشْـــق والفقــرِ الغيــورُ

ويتبين للقارىء من التأمّل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارىء من كلام الشاعر : أن الفقر الّذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملُّك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربّما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عمّا فسَّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَقَ في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فاتَ ، أعني أن لا تكون الدُّنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشــقُ والسُّكــر مــا أبــاحــا	أنْ أضبِـطَ النفـسَ فـي همـومـي
فعُقــدة الكِــمِّ لــم تُفَتَّــح	إلا بمَـــوْجٍ مـــن النسيـــم[1]

* * *

الإسلام

إنَّ نار « الذَّات » ، والنورُ لديها	هــي لــلإســلام رُوحٌ مستنيـر[2]
إنَّ نار « الذات » ، فاقبس من لظاها	فــي حيــاة الخَلْــقِ نــورٌ وسُفــوز
هــي تقــويــمُ وجــودٍ وهــي أصْــلٌ	للتَّجَلّــي أُخْفِيَــتْ خَلْــفَ سُتــور
إنْ قَلَى الغـربُ مـنَ الإسـلامِ لفظـاً	فلـه اسـمٌ آخـرُ : الفقـرُ الغَيـور[3]

* * *

الحياة الأبدية[4]

صــدَفٌ لنــا هــذه الحيــاة ، وذاتنــا	كالقطر من نَيسان في الصدَفات[5]
مــا قيمـة الصَّـدف الـذي لا يستطيـع	يُحيـــل قَطَـــراتٍ إلـــى دُرَّات
إنْ صــانــتِ الــذَّاتُ المتينــةُ نفسَهــا	أعيَـتْ علـى الأيـام كـلَّ مَمـات

* * *

---

(١) كِمُّ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنَّسيم تفتح بهما نفسه .
(٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .
(٣) إنَّ نفر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .
(٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .
(٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتنطبق عليها حتى تتحوَّل دُرَّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذَّات قطرةً من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفةُ القطرةَ دُرَّةً .

السُّلطان[1]

تَعَلَّمْ ؛ فألفُ مقام وشانِ ... لفقر بدا فيه روح القُرَانِ
إذا انجلت (الذَّات) في قهرها ... فهذا مقامٌ لملكِ الزَّمان
وتوزن في ذا المقام القُوَى ... قُوَى مؤمنٍ تُبتلى بامتحان
وإنَّك في ذا المقام عظيمٌ ... وظلٌّ من الله في ذا المكان
وما ذاك بغيٌ وقهرٌ ولكن ... هو العشقُ والوَجْد ملءَ الجَنان
فما يستطاع بقهرٍ وبغيٍ ... على الأرض حفظُ الورى في أمان
وأعياك في الدَّهر حفظٌ لفقرٍ ... فأصبحت في الرقِّ خِدنَ الهَوان
وكان على الدِّين سيما سجود ... تُباري الكواكب مِلء العيان
وكان على الشمس منه سَناً ... فهل في نجومك منه معانِ ؟

* * *

إلى الصُّوفيِّ

ترى عيناك دنيا المعجزاتِ ... وفي عينيَّ دنيا الحادثاتِ
ومن دنيا الخيال عجبتَ ، فاعجب ... لدنيا للحياة وللممات
تبدِّلها بنظرةِ غيرِ واعٍ ... وكمْ تدعوك دنيا الممكنات

* * *

---

(١) السُّلطان الحقُّ هو أحد شؤون الفقر ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلي « الذات » ـ ذات الفقير ـ بالتسلُّط . وليس السُّلطان طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صريع الفرنج

- ١ -

مِـنْ تجلّـي الفـرنـج نلـتَ وجـوداً فهـمُ منـك هيكـلاً قـد أقـامـوا
ومن (الذات) هيكل التُّرب خالٍ أنـت غِمـدٌ مُـذَهَّـب لا حسـامُ

- ٢ -

ووجـــودُ الإلـــه عنـــدك ريـــبٌ وأرى الـريـبَ فـي وجـودك أنتـا
إنَّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى فـانظـرنْ أيَّ جـوهـرٍ قـد دفنتـا

***

التصوُّف(١)

إنَّ علـم الـلاهـوت فـي ملكـوتٍ ليـس للـديـن آسيـا ـ ليـس شيًّـا
وقيـامُ الأسحـار فـي طـول وَجْـد ليـس للـذات راعيـاً ـ ليـس شيًّـا
ذلـك العقــلُ صــاعـداً للثُّــريـا ليس بـالـوجـد ساريـاً ـ ليـس شيًّا
ينطــق العقــل « لا إلـٰــه » ولكــنْ ليس بالقلب مسلماً ـ ليس شيًّا(٢)
كلمـاتـي خـوافـق وسَنـا الإصبـاح لــم يبــدُ خــافقــاً ـ ليــس شيًّــا

***

---

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بـــوحـــدة الأفكـــار تحيـــا أمّـــةٌ ... ودونهـــا الإلهـــام يُلْفَـــى ملحـــدا[1]
لا تُحفــظ الـــوحـــدة إلا بـــالقُـــوَى ... لـــم يُفلـــح العقـــلُ هنـــا ولا اهتـــدى
يـــا عـــابـــداً ليـــس لـــديـــه قـــوّةٌ ... اذهـــبْ إلـــى كهـــفٍ وسبِّـــح واعبـــدا
وهـــات إســـلامـــاً بـــه تصـــوُّفٌ ... إلـــى الـــردى والـــذلّ واليـــأس هـــدى
للشيـــخ فـــي الهنـــد أجيـــزت سجـــدةٌ ... فحسِـــبَ الإســـلام حُـــرّاً سيّـــدا

* * *

قطعة[2]

مـــا القلـــب مـــات ، قلـــبٌ ... فـــأحـــيِ ذا الـــرميمـــا
يمحـــو الفـــؤاد داءَ ... فـــي أمـــم قـــديمـــا
بحـــرُك فـــي سُكـــونِ ... سُحِـــر أم أنيمـــا ؟
لا وحـــشَ أو هيـــاجـــاً ... أو ســـاحـــلاً لطيمـــا
وفـــي السمـــاء ســـرٌّ ... لســـتَ بـــه عليمـــا
مـــا هـــاج طـــرفُ نجـــمٍ ... منـــك فتـــى كليمـــا
رمـــى نشيـــدُ صبحـــي ... أبـــاءك الهشيمـــا[3]
شـــرارةً أكِنَّـــت ... فـــي طينتـــي قـــديمـــا
دُنيـــا غـــدٍ وأمـــسٍ ... يُبصـــرهـــا عليمـــا

---

(١) بغير توحد الأفكار تعمُّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .
(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .
(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنَّه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَــــن حـــــاز مثلـــي عينـــاً   جــــريئـــــةً هَجــــومــــا

* * *

الدُّنيا(١)

كـذاكــم بــدا لــيَ بُــوقلمــونِ   وقلَّبــتُ فــي الملكــوت النظــرْ
فهـــذا هـــلالٌ ، وهـــذي نجــومٌ   وهـــذا عقيـــقٌ وهـــذا حجــر
وعيـــنُ البصيــــرة أعملتُهــــا   فــأوحــت إلــيَّ صحيــحَ الخبــر
فهـــذا تـــرابٌ وتلـــك سمـــاءٌ   وذلـــك طَـــودٌ وهـــذا نَهَــر
ولا أكتــم الحــقَّ : أنــت وجــودٌ   ولا شــيء مــا ســاح فيــه البصــر

* * *

الصَّلاة(٢)

تلــوَّنُ فــي كــلِّ ثــوب مَنــاةُ   وشــاب بنــو الــدَّهــر وهــي فتــاةُ
فهـــذا السجـــود الـــذي تجتـــويــه   بــه مــن ألــوف السُّجــود نجــاة(٣)

* * *

---

(١) أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبه بوقلمون ، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض . . إلخ ، ولكني أرى أنَّ الإنسان وجودٌ حقٌّ ، وما عداه ليس شيئاً .

(٢) الأصنام لم تنقطع عبادتها ، فلا تزال تظهر بين الناس في صورٍ مختلفةٍ ، فتعبد ضروب العبادات . فاعلم أنَّ سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام .

(٣) تجتويه : تكرهه .

الوحي[1]

ليس هذا العقل ذو الوهـ ـن حريّاً بالإمامهْ
فحياة الظنّ والتّخمين ضَعفٌ وسَقامه
ليس في فكرك نورٌ أو إلى السعي استقامه
كيف يجلو في حياةٍ ذلك الليلُ ظلامه ؟
إنَّ لغز الحسن والقبح ليُعيي ذا الفهامه
حين لا تجلو الحياة السرَّ منها مستهامه

* * *

هزيمة

خلا الصُّوفيُّ مِنْ حُرقٍ وكدٍّ ؛ شرابُ (ألستُ) معذرةُ البطالهْ[2]
وفرّ إلى ترهُّبه فقيهٌ يَرى في الشرع معتركَ البساله[3]
إذا خشي الرجال وغى حياةٍ فتلك هي الهزيمةُ لا محاله

* * *

العقل والقلب

سيطر العقلُ على الكون أميراً وطوى الأفلاكَ والأرضَ مسيرا
ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلب ثار بالعقل جسورا

---

(١) العقل ظنٌّ وتخمينٌ ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقبيح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .

(٢) يوم « ألست » أو عهد « ألست » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألست » يتعلَّل به ، ويعتذر لبطالته .

(٣) لما رأى الفقيه أنَّ الشرع جهادٌ وكفاحٌ فرَّ إلى الترهُّب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفيِّ سُكرُ الحال ... وطـريـقُ الفقيـه سُكـرُ المقـال
ونشيـد الشِّعْـر المـرجَّـع مَيْـت ... خـامـدُ اللَّحـن لـم يُشَـب بجمَـال
بيـن نـومٍ ويقظـةٍ غيـرُ صـاحٍ ... بيـن سُكـر الأفكـار والبَلبـال
وبنفســي مجـاهــدٌ لا أراه ! ... فيـه سكـرُ الأعمـال لا الأقـوال

***

القبر(١)

لا يجــد القلنــدريُّ راحــةً ... وإن ثـوى بقبـره تحـت الثَّـرى
سكينـةُ الأفـلاك فـي الضَّـريـح لا ... فسـاحـةُ الأفـلاك أو طـولُ السُّرى

***

همَّة القلندر(٢)

يقــول للــزمــان ذلــك الفتــى : ... امـض إلـى حيـثُ يسيـر المـؤمـنُ
مـالـكَ فـي معتـركـي مِـن طـاقـةٍ ... حـذارِ مـن قلنـدرٍ لا يُـذعـن

---

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبةٌ أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الّذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُديمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .
وسُمّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .
وقد رأى المترجم أن يبقي اللفظ في الترجمة لأنه عَلَم في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نسَب إليه ، فقال : القلندرُ والقلندريُّ .

إذا طغـــى اليـــمُّ فهيَّــا أقــدمـــنْ	مــا حــاجتــي مَــلاّحــه والسُّفُــن
لقــد محــا سحــرَك تكبيــري فهــل	تَقْــوى علــى جحــوده يــا وَهِــن ؟
يحـــاســـب الأفــلاكَ ذا القلنــدر	وقـــاهـــرٌ أيـــامَـــه لا يُقهـــر

* * *

الفلسفة

ليــس يَخفــى علــى القلَنْــدر فكــرٌ	ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفيّا[١]
أنــا عنــدي بكــلِّ حــالِــكَ خُبــرٌ	فبهــذا الطــريــق ســرتُ مليّــا
لا يقيــم الحكيــمُ فــي شَــرَك اللفــ	ــظ ولا بــالحــروف كــان حفيًّــا
ليــس هــمُّ الغــوّاص أصــدافَ بحــرٍ	يبتغــي الغــائصــون دُرّاً بهيّــا
إنَّ فــي حلقــة المجــانيــن عقــلاً	فــي شَــرارٍ يــرى لهيبــاً مضيًّــا[٢]
إن أغلــى مــن الجــواهــر ، معنــى	صــدَّق القلــبُ ســرّه مطــويــا
فلسفــاتٌ مــا سطّــرت بــدم القلــب	مَـــــواتٌ أو للمــــات تُهيّـــا

* * *

رجال الله

إنَّمــا الحــرُّ مــن يُجيــد ضِــرابــا	لا الــذي حــربــهُ تــدور هُــراء
وسجــايــا الأحــرار تجمــع تــاجــاً	ذا سنــاء ، وخــرقــةً وقَبــاء[٣]

---

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصُّوفية لابسي الخرقة ، وفيها فقه العلماء لابسي القباء .

من خفايا تُرابهم أخذ الدَّهرُ ... شَراراً فصاغ منه ذُكاء
فِطرةٌ حرَّةٌ تعاف الدنايا ... من طَواف الأصنام عاشت بَراء
أنت في الكفر والتديُّن جَمْعاً ... وثنيٌّ تُقدِّس الأهواء[1]

* * *

الكافر والمُؤمن[2]

أمسِ عند البحر قال ... الخضر لي قولًا أعيه[3]
تبتغي الترياق من سُمٍّ ... فرنجٍ تتقيه ؟
فخُذنْ قولًا سديداً ... هو بالسيف شبيه
ذا مضاءٌ وضياءٌ ... خبرةُ الصَّيقل فيه :
إنَّما الكافر حيرانُ ... له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً ... تاهت الآفاق فيه

* * *

---

(١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .

(٢) يكرِّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنَّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلُّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنَّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرُّومي . فقد قصَّ المثنوي قصة افتقاد حليمة الرسول في طفولته وطلبها إيَّاه والهةً ، وأنَّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق تتيه فيه .

(٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلٌّ ثَوى في مَحبسٍ من صُنعه : سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرقِ[1]
والشَّيخُ في حَرمٍ وحَبر كنيسةٍ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السياسة في شِراكِ قديمِهم والشِّعرُ أفلس في خَيالٍ مُغلق
من لي بمهديٍّ له نظرٌ يزلزلُ عالَم الأفكار ، غيرَ ممخرِق

***

المُؤمن

- ١ -

في الدُّنيا

مع الصَّحبِ لَيِّن كمسِّ الحرير بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ[2]
حديدٌ إذا ما طغى باطلٌ جريء لدى المَعْرَك ، المؤمنُ
من الطِّين ، لكنْ على الطِّين يسمو ويأبى على الفلك ، المؤمن
وما همُّه صيدُ طيرٍ ولكن يصيد من المَلَك ، المؤمن

- ٢ -

في الجنَّة

تقول الملائك في غبطةٍ : حَبيبٌ إلى قلبنا ، المؤمن

---

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والرويُّ الكاف التي قبلها .

وللحـــور شكـــوى إلـــى ربِّهـــا : ســريـعٌ إلـى هجـرنـا ، المـؤمـن

***

محمَّد علي الباب[1]

أجـــابَ (البـــابُ) فـــي حفـــل مفيضـــاً فـــي مقـــالاتِ
وفـــات الشيـــخَ تـــوفيـــقٌ بـــإعـــراب (السَّمـــواتِ)
ســـرَتْ فـــي الحَفْـــل غلطتُـــه فـــلاقـــوه ببسمـــاتِ
فقـــال (البـــاب) : لـــم تَـــذْروا وفـــاتتكـــم مقـــامـــاتـــي
ثـــوى القـــرآنُ بـــالإعـــراب فـــي حَبـــسٍ وإعنـــاتِ
وإنَّ إمـــامتـــي جـــاءت بتحـــريـــرٍ لآيـــاتِ

***

القدر[2]

الخالقُ وإبليس

إبليـــس : يـــا إلٰهـــاً أمـــره كُـــنْ ليـــس عنـــه مـــنْ مَحيـــدْ
لـــم يُصَـــب آدمُ منـــي بعـــدوٍّ أو حســـود
ويـــلُ غـــرٍّ ، مِـــنْ زمـــانٍ ومكـــانٍ فـــي حـــدود
كيـــف أستكبـــر عـــن أمـــرك أو كيـــف أحيـــدْ

---

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلحن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إنَّ بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كـــان فـــي علمـــك أنـــي حـــائـــدٌ عـــن ذا السجـــود

* * *

الخـالـق : هـل عـرفـت السرَّ هـذا قبـــلَ أو بعـــدَ الجحـــودْ ؟
إبليس : بعـدُ ! يـا مـنْ مِـنْ تجلِّيه كمـــالاتُ الـــوجـــود

(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِسَّـــةُ الفطـــرة فيـــه علَّمتـــه ذاك عـــذرا
قـــال : مـــا شئـــتَ سجـــودي أنـــا لا أملـــك أمـــرا
ذلـــك الظـــالـــم سَمَّـــى اختيـــاراً فيـــه جَبـــرا
إنَّـــه سمَّـــى رَمـــاداً شُعلـــة فيـــه وجَمـــرا

* * *

أين روح محمَّد !(1)

أرى الملَّـة البيضـاء بُـدِّد نظمُهـا فمسلمُك انظر حاله ، أين يذهب ؟
وليـس ببحـر العُـرب لَـذَّةُ ثـورةٍ وفي الصَّدر موجٌ غاله ، أين يذهب ؟
ولا رَكْـبَ للحـادي ولا زادَ عنـده وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب
فبيِّـن لنـا الأسـرارَ روح محمـد ! حفيظٌ لآيٍ ، ياله ، أين يذهب ؟

* * *

(1) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمَّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافٍ هائلةٌ . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أينَ يذهب .

مدنية الإسلام

حياةُ المسلم أعرف في بياني | كمالُ العقل فيها والجنونُ[1]
سَناً كالصُّبح مَغربه طُلوعٌ | وحيدٌ ، كالزَّمان له شؤون
ولا كالعصر ، خِلوٌ منْ حَياءِ | ولا فيها من الماضي فُتون
حياةٌ بالحقائق في قَرارٍ | وليستْ ما يُطلسِم أفلَطون[2]
عناصرُها يؤلِّفُها جَمالٌ | تمثَّل فيه جبريلُ الأمين
وحسنُ الخَلْق من عُجْمٍ لديها | ونارُ العُرب فيها والشُّجون

***

الإمامة[3]

أتسألني : الإمامةُ ما مَداها ؟ | حبَاك الله مثلي بالخفايا
إمامُ العصر حقّاً من تراه | فتسأمُ ما تشاهدُ في البرايا
بمرآة الممات يريكَ وجهَ الـ | ـحبيب فتجتوي عيشَ الدَّنايا

---

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذَّةٌ لا نظير لها ، ولكنَّها كالزمان في شؤونٍ متعددةٍ، وهي قائمةٌ على الحقائق ، وجامعةٌ عناصر الجمال والقوَّة .

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال مَنِ ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعــــركَ التخلُّــفَ عـــن كمـــالٍ فينفـخُ فيـك مشبـوبَ السَّجـايـا[١]
يُمــرُّ عليــك مِــنْ فقــرٍ مِسَنّــاً فيطبــعُ منــكَ سيفــاً للمنــايــا
فُتــون الملَّـــة البيضـــا إمـــامٌ كـــأنَّ المسلميـــن بـــه سبـايـا[٢]

* * *

الفقر والترهُّب[٣]

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقــرُ عنـدك كـالتـرهُّـب يظهـر
شتَّانَ ، فانظر ، بين خَلوة راهبٍ وشِــراع فقــرٍ فــي عُبــابٍ يمخُــر
فــي الــروح والأبــدان يبغـي جلـوةً فنهـايــة الإيمــان (ذاتٌ) تبهــر[٤]
هــو صيــرفــيٌّ الكــائنــات وجـوده فعــن الفنــاء أو البقــاء يخبِّــر[٥]
فــاسـألــه عمــا تــرتئيــه أعــالــمُ أم مــوج رائحــة ولــون يــزخَــر ؟
لمــا أضـاع المسلمـون علـى المدى ذا الفقر ـ لما ضاع هذا الجوهر
لــم يبــق فيهــم مــن سليمــانٍ ولا سلمـــانَ دولـــةُ عِـــزَّة لا تُقهــر

* * *

---

(١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .

(٢) فتنة الملّة الإسلامية إمامٌ يمكِّن أصحاب السُّلطان من إذلال المسلمين .

(٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدُّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .

(٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلِّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .

(٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة(١)

متاعُك في الحياة فنونُ علمٍ | تظَلُّ الدَّهرَ منها في حُبور
وما عندي متاعٌ غيرَ قلبٍ | طموحٍ ما أراه بالصَّبور
لأهل الفكر معجزةٌ تجلَّت | بفلسفةٍ معقَّدة السُّطور
وأهلُ الذكر شادوا معجزاتٍ | على موسًى وفرعونٍ وطور(٢)
أقول لمسلم : ما فيك صدرٌ | لأنفاس بها حَرُّ النشور
ومزقتُ الجيوبَ وأنتَ خالٍ | جُنوني ـ لا ألومك ـ في قصور(٣)
أقِلَّ القولَ وافتحْ عينَ قلبٍ | ولا تكُ مُهْذراً عند البصير
وما إنْ ذلَّ قومٌ قد أعدُّوا | حَماسَ العِشْق والفقرِ الغَيور

* * *

التَّسليمُ والرِّضا

على كل غصنٍ تبيَّن أن النبات مَشوقٌ لِرَحْبِ الفضاء

فما قرّ في ظلمةِ الترب حَبٌّ | جُنونُ النشوء به والنَّماء
فلا تَبغِ في فِطرةٍ تركَ سعيٍ | فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النَّماء فضاءٌ فسيحٌ | وما ضاقَ مُلك الإلٰه ، فسيحوا

---

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمَّى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكَّرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليَّ لا عليك .

نكتةُ التَّوحيد(١)

إنَّ سـرَّ التَّـوحيـد طـوعُ بَيـانـي — شِدتَ في الرأس مَوْثَنا، ما احتيالي ؟(٢)
رمـزُ شـوقٍ بـلا إلٰـهٍ خفـيٌّ — ليس في الفقه بيِّنا، ما احتيالي ؟
كـم سـرورٍ فـي حـرب حـقٍّ وزورٍ — لستَ في الحرب مطعنا، ما احتيالي ؟(٣)
كـم تُجلِّـي الآفـاقَ نظـرةُ حـرٍّ — حجب الرقُّ أعينا ، ما احتيالي ؟
أيُّ مُلـكٍ مقـامُ فقـرٍ ! ولكـن — تـؤثر الـذلَّ مُـذعنا، ما احتيالي ؟

***

الإلهام والحرية

إنَّ للحُـرِّ ملهمـاً نظـراتٍ — تحفِـز القـولَ والفِعـالَ بنـار
حَـرُّ أنفـاسـه يَشيـع بـروضٍ — فتـرى الـروض مُـزهـراً مـنْ شَرار
يَهـبُ العنـدليـبَ سيـرةَ بـازٍ — كيـف حـالـت طبـائـعُ الأطيـار ؟
يَنـحُ المجتـديـن شَـوكـةَ جـمٍّ — عـارفُ النفـس والـهُ الأسحـار(٤)
ووقـى الله حكمـةَ لـذليـلٍ — مثـل جنكيـز طـالـعٍ بـالـدَّمـار(٥)

***

---

(١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .

(٢) يمكن أن يبين سرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانه ، ونحوهما .

(٣) كم سرورٍ في مجاهدة الباطل بالحقِّ في هذه الحياة .

(٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .

(٥) يريد أنَّ حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم(1)

تحيّر الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل وثـورةٍ وسـرورِ النفـس والحـزن
ومشكـلٌ لـك أنَّ الخمـر مـن قـدحٍ أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن(2)
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمـرٌ بـدا فـي رَمـادٍ منـه للفَطِـنِ

* * *

« لَاهور » و « كراجي »(3)

قـد تـولـى اللهَ عبـدٌ مسلـمٌ مـا آمـرا
هـو بـالمـوت إلـى عـا لَـم روحٍ سـافـرا
كيـف تَفْـدون شهيـداً لخلـودٍ آثـرا
دَمُـه مـن حَـرَم أعلـى وأغلـى جـوهـرا(4)
آه للمسلـم غفـلانَ نَسِيّـاً مـا درى :
سـرَّ ﴿ لا تـدع مـع الله إلٰهـاً آخـرا ﴾(5)

---

(1) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(2) الزكن : الفطنة .

(3) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(4) يعني : أنَّ كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(5) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُــوَّة[1]

لســـتُ المحـــدِّثَ والفقيـــهَ ... ولا الـــولـــيَّ ولا المجـــدِّد
لا علـــم عنـــدي بـــالنبـــوّة ... كيـــف تـــوصـــف أو تحـــدَّد
لكـــن إلـــى الإسـلام فـــي الأيـام ... لـــي نظـــرٌ مســـدَّد
أوحـــى إلـــيَّ بســـرِّه الفلـــكُ ... المحيـــطُ فـــلا أفنَّـــد
فـــرأيـــت فـــي ظلمـــات هـ ... ـــذا العصـــر ذا الحـــقِّ المـؤيَّـد :
عنـــدي حشيـــش المسلميـــن ... نبـــوّةٌ فيهـــم تجـــدَّد
مـــا إن لـــديهـــا دعـــوةٌ ... للبـــأس والمجـــد المخلَّـــد

* * *

الإنسان

ذا طِلَسْـــمُ الكَـــون والعَـــدَمِ ... سُمِّـــي الإنســـانُ مـــن قِـــدَم
هـــو ســـرُّ الله جـــلَّ فـــلا ... يحتـــويـــه الـــوصـــفُ فـــي كِلَـــم
إنَّ هـــذا الـــدهـــرَ مـــن أزلٍ ... مـــن سفـــارٍ بـــاء بـــالسَّقَـــم
ومضـــى الإنســـانُ سيـــرتَـــه ... لـــم يُصَـــبْ بـــالضَّعـــف والهَـــرَم
وإليـــك الســـرَّ أُعلنـــه ... إن تَسَعْـــه غيـــرَ متَّهِـــمِ :
مـــا بـــدا روحـــاً ولا بَـــدَنـــاً ... ذلـــكَ الإنســـانُ للفَهَـــم

* * *

« مكة » و « جنيوا »

كـــم حـــديـــثٍ عـــنِ الشُّعـــوب سمعنـــا ... وحـــدةُ النـــاس حُجِّبـــت عـــن عيـــانِ

---

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادَّعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكفِّ عن الجهاد .

حكمةُ الغرب فُرقةُ النَّاس والإسـ ـلامُ فيه توحُّدُ العُمرانِ
ومقالٍ من مكةٍ لجنيوا قد وعاه اللبيبُ في كلِّ آن :
خبِّريني اليقين : هل عصبة الأقـ ـوام خيرٌ أو عصبة الإنسان ؟

* * *

يا شيخَ الحرم

ودِّع الخلوةَ يا شيخَ الحرم واسمعنْ في الفجر منِّي ذا النغَم
يحفظُ اللهُ لك الفتيان في حُكمِ نفسٍ ، واشتعالٍ في الهمم
هُمْ عن الغرب زجاجاً أخذوا علَّمَنهمْ صَدمة الصَّخرِ الأصم
طُول ذلٍّ أظلم القلبُ به أدرِكِ الحيرانَ في هذي الظُّلَم
في جنوني منك أسرارٌ بدتْ فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللَّمم[١]

* * *

المَهدي[٢]

أرى الأقوامَ تَمضي في حياة على قدر التخيّل في الحياةِ
فمجذوبُ الفرنج على خيالٍ من المهدي قاد إلى النجاةِ[٣]

(١) يعني : أن نشوته وولهه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشياها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنَّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلَّم عن الإنسان الكامل .

فــإنْ تنفــر مِــنَ المهــديِّ يَنفِــرْ غـزالُ المِسْكِ مـن هـذي الفـلاةِ[1]
إذا مــا الحــيُّ مــن جَهــل تــردَّى بــأكفــانٍ وأغــرَقَ فــي سُبــاتِ
أتُسلِــم ذا الجهــولَ إلــى الــرَّدى أم تمــزِّق عنــه أثــوابَ الممــاتِ ؟

* * *

المُؤمن

إنَّ للمــؤمــن العجيــب الشــانِ كــلَّ حيــنٍ جــديــدَ شــانٍ وآنِ
هـو فـي قـولـه السَّـديـدِ وفـي الفعـل علــى الله واضــحُ البــرهــانِ
فيــه قــدسيّــةٌ إلــى جبــروتٍ ومــن القهــرِ فيــه والغفــرانِ
إنْ تُــؤلِّــف هــذي العنــاصــرُ كــان المسلـمُ المستعلـي على الحِـدْثـان
هــو تُــربٌ سمــا يجــاورُ جبــريــلَ ويــأبــى الحلــول فــي الأوطــان
لســت تــدري بســرِّه فتــراه قــارئــاً وهــو صــورةُ القــرآن
فيــه عــزمٌ علــى القضــاءِ دليــلٌ وهـو فـي العَـالَميـن كـالميـزان[2]
هــو بَــرد النَّــدى بقلــب شقيــقٍ وبقلــب البحــار كــالطُّــوفــان[3]
ليلــه والنهــار لحــنُ حيــاةٍ فــي انسجــامٍ كســورةِ الــرَّحمٰــن
إنَّ فكــري مطــالــع لنجــومٍ نجمك أعرف طلوعه في بياني[4]

* * *

---

(١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .

(٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .

(٣) هو تارةً كالنَّدى يبرد قلب الشقائق ، وتارةً كالموج الهائج في البحر .

(٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوالع النُّجوم هلمَّ أدلُّكَ على أسباب السعادة ، فإنَّ فكري يطلع نجوماً صادقةً تدلُّ على السَّعد والنَّحس .

المُسلم البَنْجابِي[1]

مجـدِّدٌ فـي كـل حيـن مـذهبـا   يحـلُّ فـي مـرحلـة ليـركبـا
فـي حَلبـة التحقيـق نِكـسٌ وإذا   قـامـره داعٍ غـويٌّ غُلِبـا
حبـالـة التـأويـل إن تُنصَـب لـه   هـوى مـن العُـشِّ إليهـا مُعجبـا

* * *

الحُرية[2]

ألا مَن يطيق اليوم نُصحاً لمسلمٍ   وحـريـةُ الأفكـار مـن ربِّـه أمـر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ   فمـوثَـن أفـرنـج بـه الـزورُ والسِّحر
وإن شئـت فـالقـرآن تـأويـلُ لاعـبٍ   فجـدِّد لنـا شـرعـاً يـلائمـه العصـر
رأيـتُ بـأرض الهنـد أيَّ عجيبـة   فـإسـلامُهـا عبـد ومسلمهـا حُـرُّ

* * *

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هـذي الحضـارةُ مـا تـديَّـن قلبهـا   فـأخـوّة الإفـرنـج بـالعَصَبـاتِ
فلئـن تنصَّـر بـرهمـيٌّ لـم يـزل   لـلإنكليـز إليـه نظـرةُ عـات
وَلَـو انَّهـم قـد أسلمـوا لـم يـرفقـوا   بـالمسلـم المنكـودِ مـن إعنـات[3]

* * *

---

(١) عُرف أهل البنجاب بكثرة النِّحل والدعوات المبتدعة .

(٢) ينعى إقبال في هذه الأبيات على من يدَّعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .

(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا[1]

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ... ما نشَّرت في فضاء النُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ« لا » في البدء نافية ... وفـي النهـايـة « إلا » تُكمـل الشـانـا
إنْ لـم تجـيء بعـدهـا « إلا » مثبّتـةٌ ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إنْ أمـةٌ روحهـا لـم يمـض معتـزمـاً ... عن « لا » فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

* * *

إلى أُمراء العرب[2]

هل يُسْعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقُه ... مخـاطبـاً أمـراء العُـرْب فـي أدبِ
من أمَّةٌ قبل كلِّ النَّاس قد أخذتْ ... بحكمـةٍ فـأعـانتهـا علـى النُّـوب :
إخـــاءٌ مصطفـــويٌّ دون تفـــرقـــةٍ ... وهجـرُ كـلِّ غـويٍّ مـن أبـي لهـب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤُها ... من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العَرب

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيىء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبن فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّةً والروس الشيوعيين خاصَّةً .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلٰهية(١)

قيدَ القضاء تَرى أم قيدَ أحكام ... ما أعجزتْ هذه أربابَ أفهامِ
في كلِّ حينٍ ترى التقديرَ في غِيَر ... رهينُها بين لذَّاتٍ وآلام(٢)
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها ... من القضاء قيودٌ ذاتُ إحكام
والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيِّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

* * *

الموت(٣)

في اللحد أيضاً يبقى ... الغيابُ والحضور
إنْ يك قلبٌ حيّاً ... فالقلبُ لا صبور
هذي النجوم تمضي ... كَشَرَرٍ يطير
والذاتُ فيها راحٌ ... في أبدٍ سُرور
إنْ مسَّ جسماً موتٌ ... واحتجب الظُّهور
فللوجود قُطبٌ ... مَناله عسير

* * *

---

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها ، وأمّا المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحيَّ لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بإذن الله(١)

إن تَحُـــل دنيـــا فلـــم تَفْـــنَ أرضٌ وسمـــــاءٌ ، قـــم بـــإذن اللهِ
مِنْ « أنا الحقُّ » انطوى فيك قلب ومضـــاءٌ ، قـــم بـــإذن الله(٢)
لا تُـــرعْ ممـــا تـــرى ؛ لفـــرنـــجٍ سِيميـــاء ، قـــم بـــإذن الله(٣)

***

(١) في هذه الأبيات يبشّر إقبال بالمستقبل الوضّاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قم بإذن الله » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تنتسب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .

القسم الثاني

التَّعليمُ والتَّربيةُ

المقصود[1]

اسبنوزا :

يبصر العاقلُ الحياةَ وليست   غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ

أفلاطون :

يبصر الموتَ عاقلٌ . فحياةٌ   كشرارٍ بجنحِ ليلٍ يشبُّ
ما إلى الموت والحياة التفاتٌ   مقصدُ الذات رؤية الذاتِ حسبُ[2]

* * *

إنسان هذا العصر

حُرم العِشقَ وللعقل به   نكَزاتٌ كشجاعٍ يثارُ[3]
تبعَ العقلَ شروداً سادِراً   ما هدى العقلَ لديه بصرُ
لم يسافرْ في دُنَى أفكاره   وعلى الأفلاك دام السَّفرُ
هو من حكمته في شَرَكٍ   غابَ عنه نفعُه والضررُ
من شُعاع الشَّمس في قبضته   ما به ليلُ حياة يُسفرُ !

* * *

(١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٢) هذا رأي إقبال .

(٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أمم الشَّرق

كيــف تُجلــى حقــائــقٌ لعيــونٍ   عَميــتْ بــالخضــوع والتقليــدِ
كيف يُحيي الفرنـجُ عُزباً وفُرْساً   بفنــونٍ تسيــرُ نحــو اللُّحــود

* * *

التَّنبه[1]

نظـر المنجِّـم فـي حِبـاك نجومـه   لكــنْ مَقــامُ الــذات عنـه يُسْتَـر
مَــن يَـدرِ أنَّ الــذات أرفـعُ منـزلًا   عَـرف الـزَّمـان وصـرفـه لا يُقهـر[2]
وجميــلَ أنظــار يــرى وقبيحَهــا   وحــلالَ قلــب والمحــرَّم يُبصــر

* * *

مُصلحو الشَّرق[3]

يَئســت فــلا أرجِّـي فــي أنــاسٍ   لهــم فــنٌّ كفــنِّ السَّــامــري[4]

---

(١) في هذه الأبيات ينعى إقبال أيضاً على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه ، ويقول : إنَّ تقوية الذَّات وتقديرها يعين الإنسان على الحادثات ويبصره الجميل والقبيح في البصيرة ، والحلال والحرام ، حلال القلب وحرامه (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون) .

(٢) أرفع منزلًا من الفلك .

(٣) يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئاً ، وأنهم لم يستمسكوا بالسنن الصالحة القديمة ، ولا أخذوا بالسنن الحديثة .

(٤) السامري : الذي صنع لقوم موسى عجلاً من الذهب ، ودعاهم إلى عبادته ، فنُّه سحر وضلال .

سُقاةٌ في رُبوع الشرق طافوا على النُّدماء بالقَدح الخليِّ
سحابٌ ما حوى برقاً قديماً وليس لديه من برقٍ فتيِّ

* * *

الحضارة الغربية

أرى تثقيفَ إفرنج فسادَ القلب والنَّظر
فَروحُ حضارةٍ لهمُ خَلَتْ منْ عفَّة الوطر
إذا ما الروح جانبها جمالُ الصَّفو والطُّهُر
فأين جمالُ وجدانٍ ولطفُ الذَّوقِ والفِكَر

* * *

أسرار ظاهرة(١)

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ منْ حَديد يُصاغُ فيهم شبابُ
أين منكَ الأفلاكُ ؟ إنَّك حُرٌّ وهي قَهْرٌ ذهابها والإيابُ
ما اصطخاب الأمواج ؟ لذة سعيٍ واللآلي يصوغها الوهَّاب
ليس يَهوى الشاهينُ مِنْ طولِ خفْقٍ يا أخا العزمِ لا ينلْك التُّرابُ

* * *

---

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : منْ ملك الحديد ملك كلَّ شيء . فأجاب إقبال : من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه الأبيات .

وصية السلطان تِيبُو (١)

طاويَ البيداء شوقاً ! أقبلنْ ... لا تعرَّج ، منزلًا لا تقبلَنْ (٢)

لا ! وإن سار بليلى محملٌ ... فامض شوقاً ، محملاً لا تقبلنْ

جدولَ الماء ! تقدَّمْ مُسرعاً ... واغدُ نَهْراً ، ساحلاً لا تقبلنْ

لا تحَزْ في مَصنَمِ الكونِ وسرْ ... في البرايا ، ضَلَلاً لا تقبلنْ

يا مُذيبَ الحَفلِ ! لا تقبل له ... حُرقة ، كنْ مِشعلاً ، لا تقبلنْ

كلُّ قلبٍ ذلَّ للعقل فقد ... قال ربي أزلًا : لا تقبلنْ

وحّدَ الحقُّ وثنّى باطلٌ ... فشَوْبَ حقٌّ باطلاً لا تقبلنْ

* * *

قطعة

إلى عَصبات العُرب ما أنت منتمٍ ... ولستُ بهنديٍّ ولا أنا أعجمي

---

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولًا إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعةٍ فمات سنة ١٢١٣هـ .

وهو عند إقبال ممن تتجلَّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه .

وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :

يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلى ، وإلى المضي والتقدُّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلًا وساحلاً . . . إلخ .

فقد علَّمتني (الذاتُ) تحليقَ نافرٍ يمرُّ على الدارَين غيرَ محوِّمِ

بعينك أني كافرٌ غير مسلمٍ وأنت بعيني كافر غير مسلم

فدينُك تعدادٌ لأنفاس مُحجمٍ وديني إحراقٌ لأنفاس مُقْدِمِ(1)

تبدَّلتَ فالتبديل في الشرع حكمةٌ فليس يُطيق الظبيُ شِرعة ضيغَم(2)

فلست أرى في بيدِك اليومَ جِنّةً تشبُّ بهذا العقل نارَ التَّقدُّمِ(3)

إذا حاد عن نار الحياة منغِّمٌ فموتُ شُعوبٍ لحنُ هذا المنغِّمِ(4)

* * *

اليقظة

خِدنُ حقٍّ تنبَّهت فيه (ذات) كالحسام المصمِّم البرَّاقِ

نظراتٌ لديه تُشرقُ فيها ما انطوى في الذرّاتِ من إشراق

إيهِ عبدَ الآفاق ! كيف تداني رجلَ الله صاحبَ الآفاق

أنت في البرِّ قاعدٌ عن طِلابٍ وهو في البحر مَحرم الأعماق

* * *

تربية الذات

ربِّبِ « الذاتَ » بالرعاية تُبصرْ (كفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا(5)

---

(1) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .

(2) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .

(3) يرمز إلى هيام مجنون ليلى في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .

(4) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدِّها فهي مميتة للهمم .

(5) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إنَّ سرَّ الكليم في الدهر بيدٌ   وشُعيبٌ والرعيُ ليلَ نهارا[1]

* * *

حرية الفكر

بحرية الأفكار هُلك جماعةٍ   إذا لم يكن فيها تَدَبُّرُ عالِمِ
فحريةُ الأفكارِ في رأسِ جاهلٍ   طريقٌ لِرَدِّ الناس مثلَ البهائم

* * *

حياة الذات

إنِ الذَّاتُ حيَّتْ فالفقير مملَّكٌ   ترى طُغرَلًا أو سنجَراً لا يشاكلُ[2]
إنِ الذَّاتُ حيَّت فالبحارُ ضحاضحٌ   إنِ الذَّاتُ حيَّت فالحزونُ مخاملُ
ترى في الحياة الوحشَ قاهر لجِّه   وفي موته موجُ السَّراب سلاسلُ

* * *

حكومة[3]

يَرضى المريدونَ قولَ حقٍّ   ليسوا عن الحقِّ بالعُتاةِ
والشيخُ قولَ الفقير يَقلي   وليس للحقِّ بالمُواتي
قد قَعَدَتْ أمَّةٌ وباءتْ   في حَلبة السَّعي بالخَزاةِ
إنْ شغلت عقلَها ببحثٍ   فلسفةُ الذَّات والصِّفاتِ

---

(۱) يعني فسحة البيداء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .
(۲) طغرل وسنجر من ملوك السَّلاجقة .
(۳) بمعنى حكم .

دستـــورُ ذا الـــديـــرِ ليـــس فيـــه ... للخمـــر والشَّـــرب مـــنْ ثَبـــاتِ[1]
لكنمـــــا راحُـــــهُ نصيـــــب ... لأمـــــة حُـــــرَّةِ السِّمـــــاتِ
الشَّهـــدُ عنـــد الشبـــاب فيهـــا ... المـــرُّ مـــن مـــورد الحيـــاة

* * *

المدرسة الهندية

إقبالُ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ ... فمـا لمـدرسـةٍ هـذي المقـالاتُ
الخيـر ألَّا تُـرَى فـي عيـن قُبَّـرةٍ ... مـن البُـزاة مقـامـاتٌ وحـالاتُ
فلحظـة الحـرِّ عـام للـذليـلِ فكـم ... تبطـىء السَّيـرَ بـالعُبـدان أوقـاتُ
ولحظـة الحـرِّ مـن خُلـدٍ رسـالتُـه ... ولحظـةُ العبـد مـن مَـوتٍ فُجـاءاتُ
وفكـرةُ الحـرِّ مـن حـقٍّ منـوّرةٌ ... وفكـرةُ العبـدِ تغشـاهـا الخرافـاتُ
كـــرامـــةٌ حيَّـــةٌ مـــاثلـــةٌ ... والعبـدُ مـنْ غيـره تـأتـي الكـرامـاتُ
حســب المُقيَّـدِ تعليمـاً وتـربيـةً ... تصـويـرُه ولحـونٌ والنبـاتـاتُ[2]

* * *

التربية

فـــرقُ علـــمٍ وحيـــاةٍ ... ليـــس فيـــه مِـــنْ خفـــاءْ
هـــو فـــي الـــرأس ذكـــاءٌ ... وهـــي فـــي القلـــب ذَكـــاءْ[3]
قـــدرةٌ فـــي العلـــم تبـــدو ... ومتـــــــاعٌ وثـــــــراءْ

---

(١) يكني عن الدُّنيا بالدَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .
(٢) يعني : حسب الذليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .
(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضـــــلٌ أنْ ليـــــس فيـــــه   فـــي خُطـــا السَّيـــر اهتـــداءْ
وأولـــــو الأبصـــــار نـــــزرٌ   وأولـــــو العلـــــم زُهـــــاءْ
ليـــس بِـــدعـــاً أنَّ كـــأســـاً   لـــــك مـــــنْ راحٍ خَـــلاءْ
مـــا طـريـــقُ الشَّيـــخ فـــي المكتـــب   للقلـــــــبِ ضيـــــــاءْ[1]
كيـــف بـــالكبـــريـــت إشعـــا   لُ ســـــراجِ الكهـــــربـــــاءْ ؟

* * *

الحسن والقبيح[2]

إنَّ للفكـــر طُلـــوعـــاً وغـــروبـــاً   كنجـوم سـابحـاتٍ فـي العـوالـي
عـــالـــمُ الـــذات بـــه عُلْـــوٌ وسُفـــلٌ   واعتـــراكُ القبـــحِ فيـــه والجمـــالِ
فـي اعتـلاء الـذات مـا يبـدو جميـلٌ   وقبيـــح مـــا بـــدا فـــي الاسْتفـــالِ

* * *

موت الذات

منْ ممات الذَّات في الغرب ظلامٌ   وبموتِ الذَّات في الشرق جذامْ
مِنْ ممات الذَّات في العُرب خمودٌ   ولـــدى العُجـــم عـــروقٌ وعظـــامْ
مِـنْ ممـات الـذَّات فـي الهنـد جَناحٌ   هِيضَ في الأقفاص والعشُّ حرامْ
مِـنْ ممـات الـذات يُعـري مسلمـاً   مِـنْ ثيـابِ سـادنُ البيـتِ الحـرامْ[3]

---

(١) المكتب ـ المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول : ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفساف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرُ أولي المدارسِ في ازدحامٍ ... بأفكارٍ كما امتلأ القفيزُ
وهذا العصرُ ماضٍ في هواه ... جميلاً من قبيحٍ لا يَميزُ
ففي جَنَبات قلبك أخلِ بيتاً ... عسى يثوي به ضيفٌ عزيزُ[1]

* * *

العصرُ الحاضر

فأينَ يُصيب المرءُ ناضجَ فكرةٍ ... وأجواءُ هذا العصر لا تُنضِجُ الثَّمر
مدارسُ فيها كلُّ عقل محرَّرٌ ... ولكنْ بها الأفكارُ عِقْدٌ قد انتثر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ ... وعبَّدَ عقلَ الشَّرق فَوضى من الفِكَر

* * *

طالب العلم[2]

الله يحبوك عِلماً ... بمائجاتِ العُبابِ
فإنَّ بحرَكَ رَهْوٌ ... ما يُبْتَلى باضطرابِ
لن تستطيع فراغاً ... في السِّفْر من أبواب

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فـــأنـــت قـــاري كتـــابِ ولســـتَ أهـــلَ كتـــاب

* * *

امتحان(١)

قـال نهـرُ الطَّـوْد يـومـاً للحجـر : بسقـــوطٍ وانتكـــاسٍ تفتخـــر !
أنـــت لـــلأقـــدام والغـــمّ لَقًـــى وأنـــا يشتـــاقنـــي بَحـــرٌ وبَـــرّ
لـــم تُـــدَهْـــدَهْ مـــن جِـــدارٍ مـــرَّةً كيـــف تُـــدرى أزجـــاجٌ أم حجـــر ؟

* * *

المدرسة(٢)

مَلَـكُ المـوتِ عصـرُنـا يتـوفَّـى كـلَّ نفـس بفكـرةٍ فـي المعـاش
يَـرجُـف القلـبُ مِـنْ كفـاحِ حيـاةٍ وهـي مَـوتٌ لمُشفـقٍ مـن هِـراش
أبعـدَ الـدرسُ عـن حِجـاك جُنـونـاً صـاحَ بـالعقـل : لا تَلُـذ بنِقـاش(٣)
عيـــنُ صقـــر مُنِحتَهـــا وعليهـــا وضـــع الـــرقُّ نظـــرةَ الخفَّـــاش
حجبـــتْ دونـــك المـــدارس سـرّاً هـــو فـي البيـدِ والـرَّواسـخِ فـاشِ

* * *

---

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء ـ يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعايش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها ! .

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه[(١)]

أي قــدرٍ لــذا الحكيــم ولكــن ... لــم يكــن أهــلَ نكتــةِ التَّــوحيــدِ
ليــس إلا لــذي البصيــرة يبــدو ... ســرُّ معنــىً بـ (لا إلَــه) بعيــدِ
أرســلَ الفكــرَ أسهمــاً فــي سمــاء ... وحوى الشمسَ بالخيال المديدِ
طـاهـرُ الطِّيـن فـي الترهُّـب لكـن ... لـذةُ الإثـم نُصـبُ طَـرْفِ حـديـدِ

* * *

الأساتذة

إنْ كان تربيةُ الياقوتِ مقصِدَنا ... فما شعاعٌ رمَته الشمسُ حيرانُ[(٢)]
وما المدارس أو ما الدارسون بها ... وللــروايــات عــمَّ الأرضَ إذعــانُ
كـانـت جـديـراً بقَـود العصـر أدمغـةٌ ... يقـودهـا العصـر مـا فيهـنَّ نُكـرانُ

* * *

قطعة

يبلــغُ المنــزلَ ســارٍ لا ينــامْ ... مُســرجٌ عيــنَ هِــزبْـرٍ فــي الظــلامْ
إنَّمــا للعبــدِ تُمنَــى راحــةٌ ... ليــس للحــرِّ علــى الأرض حمــامْ

---

(١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنَّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً، وأنه كان صرورة عفّاً، ولكن كان يتشوَّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها ».

(٢) يقول الطبيعيون القدماء : إنَّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قـد أزاغَ العيـنَ فـي الغـرب سَنـاً   لك من صاحبِ ﴿ ما زاغ ﴾ إمامْ[1]
ذاكـمُ الحفـلُ الـذي أكـؤسـه   كنجـومٍ ، لمحـةٌ فيـه المُقـامْ
أعمَـتِ الأسفـارُ حِسّـاً فـالصَّبـا   لـم تعطِّـر لـك مـن روضٍ مشامْ[2]

* * *

الدِّين والتعليم

قـد عـرفنـا قـدرَ أشيـاخ الحَـرَم   كـلُّ دعـوى دون إخـلاصٍ سَقَـم
ولتعليـم النَّصـارى نغـمٌ   ليـس مـن ديـنٍ وخُلْـقٍ ذا النَّغَـم
تكتـبُ الـذُّلَّ علـى أقـدارهـا   أمّـةٌ بـالـذات فيهـا لا تُهَـمّ
ربمـا تَغفِـرُ للفـرد ولا   تغفِـرُ الفطـرةُ آثـام الأمـم

* * *

إلى جَاوِيد[3]

- ١ -

حَـربٌ علـى الأديـان ذا الـزمـانُ   مـركَّـبٌ فـي طبعـه الكفـرانُ

---

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ العكوف على الكتب أمَات الحس . فالصَّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاويد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاويد نامه » الديوان الخالد .
والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامى الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُـدَّة أهـل الله ـ فـاطلُبْنهـا ـ أرفـعُ ممـا شيَّـد السُّلطـانُ
لكنـه « الحـقّ » عصـرُ سحـرٍ السِّحـرُ فـي أمـوره ميـزانُ
عيـنُ الحيـاة مـاؤهـا نَضُـوبٌ فـأيـنَ راحُ الليـل والـرَّيحـانُ
مَـنْ كـان فـي نظـرتهـم سِهـامٌ منهـم خـلا الكُتَّـاب والـديـوان
لكنمـا الـدَّار التـي سـراجٌ أنـت لهـا مَـذاقُهـا عِـرفـانُ[1]
إنْ تـك (لا إلٰـه) فـي ضميـر فـالغـرب مـن تعليمـه أمـانُ
عُشُـك فـوق (الـذات) أحكِمَنْـه ثـم اطـرَبَـنْ مـا شـاءت الأغصـانُ
الآدمـيُّ يـا بنـيَّ بحـرٌ فـي كـلِّ قطـرةٍ بـه طـوفـانُ
مِـن حَبَّـة تـرى ألـوفَ حَـبٌّ إمّـا جفـا راحَتـه الـدِّهقـانُ
لا تغفلَـنْ فـلاتَ حيـن لِغـبِ العلـمَ حصِّـلْ واسْتَهِـنْ بـالصَّعْـبِ

ـ ٢ ـ

إنْ لـم يكـنْ فـي الصَّـدر حرُّ قلـب لـم تنضـجِ الحيـاة فـي هُمـام
إن ينشَـطِ الغـزالُ فـي ذَكـاء لـم يظفـرِ الصَّيـادُ بـالمَـرام[2]
مـاءُ الحيـاة هـاهنـا قـريـبٌ طـريقُـه حـرارةُ الإقـدام[3]
فـي غيـرةٍ أرى طـريـقَ حـقٌّ الفقـرُ بـالغيـرة فـي تَمـام

---

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطىء . فإن كان يقظاً وثَّاباً لا يظفر به الصياد . فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحملِ القلب الذَّكيَّ وصارماً وأنفـاً حميـاً تجتنبْـكَ المظـالـمُ

(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكدُّ ، وشدَّة العطش . كما قال في رسالة المشرق :

غصـنُ الحيـاةِ نـدي مـن ظمئنـا فـي الطِّـلاب

يـــا قــــرةَ الأعيُــــنِ مستحيــــلٌ لبــاشـــقٍ ضَــراعـــةُ الحَمــام[1]
ليـس المقــالُ فــي الأنــام نـزراً كـم أنـوريٌّ عنـدهـم وجـامـي[2]
وإنمـــا بيـــن الـــورى متـــاعـــي نُـــواحُ خـــالٍ فـــي دُجـــى الظَّـــلام
وصـــدقُ أقـــوال بهـــا تـــرانـــي فـــي نظـــر الـــدُّنيـــا مـــن الكـــرام
مـــوهبـــةُ الخـــلاَّق لا تُـــراثٌ نبـــاهـــة الـــذِّكـــر علـــى الأيَّـــام
لنـــور عينيـــه يقـــولُ نصحـــاً مـــا أجمـــل المقـــالَ مـــن نظـــامـــي[3]
أبـــوَّتـــي ليســـت بـــذات بـــالٍ فـــي حَلبـــة السَّبـــقِ إلـــى المعـــالـــي

- ٣ -

عـبءٌ علـى المـؤمـنِ ذي الليـالـي الـدِّيـنُ والـدولـةُ فعـلُ هـازي
ولا أرى نشـــوان فـــي كِفـــاحِ فليـــس إلا كَلِـــمٌ نَـــوازي
فـــإن تكـــن ذا همَّـــة فـــأقـــدم وابتـــغ فقـــراً أصلـــه حجـــازي[4]
الآدمـــيُّ منـــه فـــي صِفـــاتِ كـــالله مستغـــنٍ بـــلا إعـــواز
هـــذا المَقـــامُ للبُغـــاث حَتـــف فـــإنمـــا هـــذا مقـــام البـــازي
تُضـــيء عيـــنُ العقـــل مـــن سَنـــاهُ مـــا بـــابـــن سينـــا كُحِلـــت والـــرازي
سطـــوةَ (محمـــودٍ) تُصيـــب فيـــه إنْ لـــم يكـــن طبعُـــك مـــن إيـــاز[5]
فـــذاك فـــي دنيـــاك إســـرافيـــلٌ مـــن نَفَخـــات النَّـــاي فـــي اشمئـــزاز[6]

---

(١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .
(٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .
(٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .
(٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .
(٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلامه إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .
(٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظـــرتُـــه المثيـــرةُ الليـــالـــي   ســاريــةٌ بــالكــون فــي ارتجــاز
وصــاحــب الفقــر الغيــورِ هــذا   بــلا ســلاحٍ فــي الــزمــان غــازِ
إمــارة المــؤمــن فيــه ســرٌّ   عطيّــةُ الــوهّــاب هــذا الفقــر

***

القسم الثالث

المَــرأة

الرَّجل الإفرنجِي

كـــم حكيـــمٍ قـــد تمنَّـــى حلَّـــه مشكـلُ المـرأة فـي هـذي الحيـاةِ
لا تلُمْهــا فـــي فســادٍ شــائــعٍ شهــدتْ بــالطُّهــر كــلُّ النيِّـراتِ
عِشـــرة الإفـــرنـــج نهـــجٌ مُفســـدٌ جهِـل الحمقَـى طبـاعَ المحصَنـاتِ

* * *

سؤال

إلـى عـالـم الغـرب مـن أسلسـت له الرومُ والهندُ يُزجى سؤالْ :
كمـــال معـــاشـــرةٍ عنـــدكـــم حيـالُ النِّسـاءِ وعُطْـلُ الـرِّجـال ؟[1]

* * *

حِجاب

أرى فلكـــاً كـــلَّ حيـــن للـــونٍ ولــم تَنـضُ دنيـاك هـذا الإهـابْ
ولا فــرق مــا بيــن عِــرسٍ وعِــرسٍ فــذي فـي نقـابٍ وذا فـي نقـابْ[2]
ولـــم يـــزلِ النَّـــاس رهـــنَ حجـــابٍ ومــن بَــرزتْ ذاتــهُ مِــنْ حجــابْ ؟

* * *

(١) الحيال : الخلو من الحمل .
(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أنَّ الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَضَــحَ العصــرَ جِنّــةٌ بــالسُّفُــورِ ... نُــورُ عَيْــنٍ وظُلمــةٌ فــي الصُّــدورِ
إن تجُــز متعــةُ العيــون مَــداهــا ... كــان فيهــا الشتــاتُ فــي التفكيــرِ
قطـــرةُ المـــاء لا تُحـــوَّل دُرّاً ... دون أصـــدافهـــا بقـــاعِ البحـــورِ
تُمسـكُ الـذّاتُ نفسَهـا حيـن تَخلـو ... لا خـــلاءٌ بمسجـــدٍ أو ديـــورِ

* * *

المرأة

إنَّمـــا المـــرأةُ لـــونٌ ... فـــي رســـوم الكـــائنـــاتِ
لحنُهـــا ينفـــث نـــارَ الـــوَجـــد فـــي صـــدر الحيـــاةِ
ذلـــك الطيـــنُ تعـــالـــى ... فـــوق أوْج النَّيِّـــراتِ
إنهـــا دَرجٌ لـــديهـــا ... كـــلُّ دُرٍّ مـــن صفـــاتِ
مـــا لأفـــلاطـــون تَـــروي ... مـــن قضـــايـــا معضـــلاتِ
وهـــو منهـــا كشـــرارٍ ... مـــن ذكـــيِّ الجَمـــرات(١)

* * *

حرِّيةُ النِّساء

قضيـةُ عصـرٍ لسـتُ فيهـا بفَيْصـلٍ ... وإنْ كنتُ بين الشَّهد والسُّمِّ أفرِقُ
ومـا نفـعُ أقـوالٍ تـزيـدُ مَـلامتـي ... وقبـلاً بنـو التمـديـن عنِّي تفـرقـوا
يبيِّـنُ هـذا السِّـرَّ وجـدانُ مـرأةٍ ... ويَعْجِزُ عنه فـي الـرِّجـال المحقِّقُ

---

(١) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحــرِّيــة النِّســوانِ أجمــلُ زينــةً ... أم الجيـدُ بـالـدرِّ الثميـنِ يطـوَّقُ[(١)]

* * *

حصانة المرأة

فــي الصَّــدر حــقٌّ ليـس يُـدركـه ... مــن حــاز بــردَ دِمــائــه عَصَــبُ
حفــظُ الأنــوثــة فــي يــديْ رجــلٍ ... لا العلــم يحفظهــا ولا الحُجُــبُ
إنْ غــاب هــذا الحــقُّ عــن أمــمٍ ... فكســوفُ شمــسٍ فيهــمُ كَثَــبُ

* * *

المرأة والتعليم

مَوْتَ الأمومة إن رامت حضارتُهم ... فالموتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إنْ يجعـلِ المـرأةَ التعليـمُ لا امـرأةً ... فالعلمُ مَوتٌ يراه صاحبُ القلبِ
إنْ تحـرمـنَّ الفتـاةَ الـديـنَ مـدرسـةٌ ... فالعلمُ والفنُّ موتُ العِشق والحبِّ[(٢)]

* * *

المرأة

بغيــره يتجلَّــى جــوهــرُ امــرأةٍ ... ووحــدَه يتجلَّــى جـوهـرُ الـرَّجـلِ
حــرارةُ الشَّــوق ســرٌّ فــي بــلابلهــا ... كيــانُهــا لــذَّةُ التخليــق كــالشُّعَــلِ

---

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .
(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

من هـذه النـار أسـرارُ الحيـاة بَـدَت		والخلقُ والموتُ منها في وغىً زَجِلِ
كـذلكـم فـي فـؤادي للنســاء أسـىً		لكنَّهـا عقـدةٌ أعيـتْ علـى الحيـل[1]

***

(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحدٍ في هذا .

القسم الرابع

الأدب والفنون

الدِّينُ والفنُّ

الدِّينُ والفنُّ والتدبير والخُطَب ... والشِّعر والنَّثر والتحريرُ والكتبُ
كـلٌّ يُحيـط بمكنـونٍ يَضـنُّ بـه ؛ ... فـي صـدره يتـوارى جـوهـرٌ عَجَـبُ
ومـن ضميـرِ سليـلِ الطِّيـن مطلعُهـا ... لكنْ لها من وراء الزُّهْر مضطرَبُ[1]
إنْ تحفظِ « الذاتَ » هذي فالحياةُ بها ... أوْ لم تطقْ ذاك فهيَ السِّحر والكَذِبُ[2]
كم أمةٍ تحت هذي الشمسِ قد خَزِيتْ ... إذْ جانبَ الذاتَ فيها الدِّينُ والأدبُ

***

التخليق

جِـدَّةُ الـدُّنيـا بتجـديـد الفِكَـر ... ليسـت الـدُّنيـا بصخـرٍ ومَـدَرْ
همَّـةُ الغـائـص فـي « الـذَّات » لهـا ... مـن غـديـرِ المـاء بحـرٌ قـد زَخَـر
قـاهـرُ الأيـام مـن أنفـاسـه ... هـي أعمـارُ خلـودٍ فـي الـدَّهَـر
ريـحُ أصحـابٍ مـن البيـد أتـت ... لا عجيـبٌ إنْ بـدا خِـدْن سفَـر[3]

***

---

(١) سليل الطين : الإنسان .

(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .

(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعدٍ له ، يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنون

واهــنُ البيــت شــاعــرٌ وفقيــهُ وطـوى البيـدَ ـ ويحـه ـ المجنـونُ
فــي طمــاحِ الجنــون أيُّ كمــالٍ حيـن تعـدو البيـداء منـه فنـونُ[1]
فلــه فــي الــدروس أيضــاً مجــالٌ ليـس وقفـاً علـى الفيـافي الجنـون

* * *

إلى شعره

لــيَ مــن فعلــك شكــوى : همــتَ فــي حُــبِّ الطلــوعْ
شِغْــتَ عــن قلبــيَ فــالأسـ ــرارُ عــن قلبــي تَشيــعْ
لا تكــنْ مثــلَ شَــرارٍ نــدَّ عــن نــارٍ يضيــعْ
والتمــس خلــوةَ صــدرٍ فيــه مــن نــارٍ ضلــوعْ

* * *

مسجدُ « باريس »

يــا نظـري لا يخــدعنَّــك فنُّــه للــزُّور هــذا الحــرَمُ المغــرِّبُ
وليــس هــذا حــرَمــاً لكنَّــه عنـد الفـرنـج للغـرام ملعـبُ
قـد أخفـت الإفـرنـج رُوحَ مَـوثـنٍ فــي صـورةٍ مـن حـرَم تُكـذِّبُ[2]
إنَّ الــذي شيّــد هــذا مــوثَنــاً دمشــقُ مــن عُــدوانــه تخــرَّبُ

* * *

---

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضر فنونه ، وفيه إشارةٌ إلى مجنون ليلى .
(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب[1]

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً	من العقل الإلٰهيِّ القويم
وليس يُريق ماءَ الوجه ذلًّا	على عَتبات محبوبٍ غريم
محا التقليدَ في روح قديمٍ	وأحيا الروح في جسدٍ قديم

* * *

البصيرة

الربيعُ النضيرُ مِلءُ الفضاء	وجيوشُ الشَّقيقِ في الصحراء
وشبابٌ ومتعةٌ وسُرورٌ	ودلالٌ ونشوةٌ بالفَتاء[2]
وعيونُ النُّجوم في حَلَك الليل	وسَبْح الأفلاك في الدأماء[3]
وعَروسُ الهلال في هَودج الليل	تَهادى بموكبٍ للقاء
وتبدِّي ذُكاءَ في رَونق الصُّبح	وصمتُ الأفلاك في ذا الرُّواء
سرِّح العينَ ، لا تكلَّفُ أجراً	لا يباعُ الجمالُ في ذا الفضاء

* * *

مسجدُ قُوة الإسلام[4]

تملأ صدري همومُ مفؤودِ	لم يبق إلا ادِّكارُ مفقودِ[5]

---

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث ، فهو مزاج من القلب والعقل . وهو يجدد الروح في صور قديمة ، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة . (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال . ـ رياض المنزل ـ دار السيد راس مسعود) .

(٢) الفتاء : الشباب .

(٣) الدأماء : البحر .

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي ، هدمت بعض جدره .

(٥) المفؤود : حزين الفؤاد .

قـد خمـدت « لا إلٰـه » لا حُـرَقٌ ولا تجـلٌ ثَـواءَ ملحـودِ
فـي الخلـق كـلُّ العيـون تنكـرنـي أعيـا إيـازاً مقـامُ محمـودِ[1]
مِنْ صَخـركَ المسلمـونَ فـي خجَـلٍ لجـوهـرٍ كـالـزُّجـاج معـدودِ[2]
فـإنَّمـا كُـفءَ مـا تمثُّلـهُ صـلاة حُـرٍّ ربيـبِ تـوحيـدِ
جـلالُ تكبيـره لـذي أذُنٍ فيـه وغـى هـالـكٍ ومـوجـودِ
ومـا صـلاتـي بقلـب ذي حُـرَقٍ ولا دُعـائـي دعـاءُ معمـودِ
ولا أذانـي جـلالُ مقتـدرٍ فكيـف تـرضـى سجـودَ رِعـديـدِ

***

مسرح

تضـيء حـريـمَ وجـودكَ ذاتُـك كِفـاحٌ بهـا وسـرورٌ حيـاتُـك
لهـا فـوقَ أوجِ الثُّـريـا مَقـام جُليـتَ بهـا وتجلَّـتْ صِفـاتُـك
أمِـن « ذات » غيـرك تَعمُـر قلبـاً معـاذ الإلٰـه ! تُـرَى أيـن ذاتُـك ؟
فـلا تبعثـنْ وُثنَهـا بعـد مـوتٍ فتحيـا منـاتُـك فيهـا ولاتُـك[3]
كمـال المحـاكـاة أنـت تَفنـى فيكفيـك هـمَّ الحيـاة ممـاتُـك[4]

***

---

(١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .
(٢) لجوهرهم الضعيف كالزُّجاج .
(٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .
(٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل(1)

-١-

تنادي أشعتَها في ضجَر ... ذُكاءُ وتجمعُ منها النشَرْ[2]
عجبتُ لدنيا نهارٌ وليلٌ ... عجبتُ عجبتُ لدنيا الغِيَر
إلامَ الهُيامُ بهذا الفضاء ... وجورُ الزَّمان بكنَّ استمرّ
فلا دِعَةٌ في اتقادٍ برملٍ ... تَلألأُ ذرّاتُه كالشَّرر
ولا دِعَةٌ في دوام طوافٍ ... طوافَ الصَّبا في رياض الزَّهَر
تجمَّعْنَ في صدريَ المستنير ... ودعْنَ البداةَ ودَعْنَ الحضَر

-٢-

تداعى الأشعةُ من كلِّ صَوبٍ ... إلى الشمس تبغي لديها قرارا
وصاحت : تعذَّر في الغرب نورٌ ... دُخانُ المصانع يكسوهُ قارا
وفي الشَّرق قلبٌ بصيرٌ ولكن ... كعالَم غيبٍ بصمتٍ توارى
أنوارَ العوالم ! لا تهجُرينا ... إلى نور صدركِ آوى الحَيارى[3]

-٣-

شُعاعٌ جريءٌ له نظرةٌ ... كنظرةِ حوراءَ تغزو الضميرْ
ولا يستقرُّ على حالةٍ ... ترى زئبقاً في ضياءٍ يموزْ
يقول : أُضيءُ على الشرق حتى ... أرى ذرَّةً كشموسٍ تنيرْ

---

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس يئست من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بيأسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تيأسي ، فكل ليلٍ إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلـو عـن الهنـد هـذا الظـلام ... فـأوقـظ نُـوَّامهـا للنُّشـوز
ففيهـا مـن الشَّـرق آمـالـه ... « وإقبـالهـا » بـالـدُّمـوع مَطيـر
تضـيء بهـا أعيـن النيِّـريـن ... حصـاهـا يَلـوح كـدرٍّ منيـر
وكـم عـاش فـي أرضهـا غـائـصٌ ... يـرى كـالضَّحـاضِـحِ لـجَّ البحـور
فـأعـوزَ أعـوادَهـا عـازفٌ ... وكانت تَهيجُ الجَوى في الصدوز
ينـام البَـرَهْمَـنُ فـي سُـدَّةٍ ... لـدى مَـوْثَـنٍ والـزَّمـانُ يسيـز
ومسلمهـا خِـذْنُ محـرابـه ... ينـوحُ ومـن قَـدَرٍ يستجيـز
فـلا يحـزُنَنـكِ مـن الشـرق نـومٌ ... وفـي الغـرب لا تـرهبنَّ الشُّـرور[1]
قضـت فطـرةُ الله أن تُبْـدِلـي ... بليـلِ الظـلام صبـاحَ السُّفـور

* * *

أمل[2]

لسـتُ مـن أجنـادِ حـربِ ... لا ولا ربُّ لـواءْ
بيـد أنـي فـي صـروف الـدَّهـ ... ـر ثَبْـتٌ فـي اللقـاءْ
عُـدَّتـي ذكـرٌ وفكـرٌ ... وهُيـامٌ وغنـاءْ
لسـت أدري أهـو شعـر ... أم سـواه ذا العطـاءْ[3]
إنَّ عبـد الحـق يُـزهَـى ... فـي محيَّـاه ضيـاءْ
مـن جـلالٍ ظـلَّ فكـرُ ... الكـون منـه فـي امتـلاء
ليـس دون الكفـر إنْ لـم ... يـكُ كفـراً ذا البـلاء
أنْ يُـرى بـالحـاضـرِ المشـ ... ـهـود للحـرِّ سِبـاءْ[4]

---

(١) الخطاب للشمس .
(٢) كتب في بهوبال ـ رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
(٣) هو يدري أنّه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر .
(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحرَّ ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحرُّ =

لا تـذب غمَّاً فكم في الدهـ ـــر أدوارٌ وِضـــاءْ
كـــم نجـــومٍ حـــادثـــاتٍ ســـوف تجلـــوهـــا السَّمـــاءْ

* * *

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرَها شـوقُ الظُّهـور يَثـورُ فـي ذرَّاتهـا
إنْ صاحبَ النظَراتِ شـوقُ بصيرةٍ تتبـدّلِ الأيـامُ فـي جَلَـواتهـا[١]
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أنبـاء مـن خضعـوا لهـا ساداتها
مِـنْ ذي البصيـرة لـي جنـون ثـائـرٍ عَـرفـتْ بـه الـذَّراتُ طيَّ فلاتها[٢]
هـذي البصيـرةُ لا تيسَّـر لامـرىءٍ تَخْـزَى القلـوبُ بنفسـه وسِمـاتهـا

* * *

إلى أهل الفنِّ[٣]

رأيـت الكـواكـبَ لَمْحـاتِ نـورٍ وذاتُـك بـالعِشْـق رَهـنُ خلـودْ

= لا يقيده ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنَّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدُّنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنَّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنَّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات » صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة . وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد غير خاضعة لهذا العالم . والرُّوح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كلِّ لونٍ فعفتَ من اللَّونِ كلَّ القُيودْ
وغيبةُ ذاتك ذكرٌ وفكرٌ ومحضرُها شعرُها والنَّشيدْ
إذا أضنَتِ الروحَ آلامُ رقٍّ ففنُّك عبدٌ رهينُ سجودْ
وإنْ عرفتَ قدرَها كنتَ حقاً على الجنِّ والإنس ربَّ الجنودْ

***

قطعة

ثائِرَ الموج كم لدى البحر درٌّ وعلى السَّاحل الصَّموت غُثاءُ[1]
في شَراري سنا البروقِ ولكنْ رَطبة العُود هذه القَصباءُ[2]
ولكَ الوقتُ والتصرُّف فيه ليس يا غِرُّ ! للنُّجوم غَناءُ
قد رأينا عجيبةً من جنونٍ فيه رَفْو لما يشقُّ القضاء[3]
إنَّما الكامل الخلاعةِ شهمٌ دون مَنٍّ الكروم فيه إنْشاء[4]
وإلى اليوم حانةُ الشَّرق فيها خمرةٌ للشُّعور منها جَلاء[5]
يئس المبصرون من أمم الغـ ـرب ففيها بَواطنٌ سَوداء

***

---

(١) الدرُّ في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغثاء ، فالحياة جدٌّ وكدٌّ ، لا سكون .
(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرَّطب لا تشتعل .
(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً الطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاء وقدراً في هذا الكون .
(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .
(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنتَ تحت الشَّمس تَمضي كشرارٍ ... لستَ تدري ما مَقاماتُ الوجودْ
ليس في فنِّك للذات بناءٌ ... ويلُ تصوير وشدوٍ وقصيدْ
ليس في المكتب والحانة إلا ... درسُ إفناءٍ به الذات تبيدْ
ليت شعري هل تعلمتَ وجوداً ... لحياةٍ ودوامٍ وخلودْ

* * *

الغناء

صاح من أين لناي نشوةٌ ؟ ... صَوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حيّ ؟
صاح ما القلبُ ؟ ومن أين له ... قوةٌ سَكرى تحدَّث كلَّ شيّ
ولماذا نظرة منه سرت ... مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تَخت كَي[1]
ولماذا ذلك السرُّ له : ... من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيّ[2]
ولماذا كلَّ حينٍ مبدلٌ ... وارداتٍ زُمَراً تهفو إليّ
ولماذا صاحبُ القلب ازدرى ... ملكَ روم ومُنَى شامٍ و ريّ
إنْ وعى للقلب رمزاً مطربٌ ... طُوِيَ الفنُّ له أسرعَ طيّ[3]

* * *

---

(١) كي : كيكاوس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .

(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .

(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والنَّدى

النسيم :

لـم أرقَ فـي فلـك النُّجـوم وإنَّنـي ... فـي شـقِّ أثـواب الأزاهـر أعمـلُ
وأسيـرُ عـن وطنـي غـريبـاً مجبَـراً ... فـي مسمعـي شـدوُ البـلابـل يثقـلُ
قل لي ، فقد أعطيتَ سرَّ كليهما ، ... المرجُ أم فلكُ الكواكبِ أجملُ(١)

النَّدى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه ... لـرأيتـه سـرَّ الكـواكـب يحمـلُ(٢)

* * *

أهرام مِصر(٣)

شـادت الفِطـرة كُثبـانـاً لهـا ... فـي سُكـونٍ مـن يَبـاب قـد وقَـد
روَّع الأفـلاكَ فيـه هـرمٌ ... أيُّ كـفٍّ صـوَّرت هـذا الأبـد !
مِـنْ إسـارِ الكـون حـرَّرْ صنعـةً ... صـائـدٌ ذو الفـن أم صيـداً يعـدّ(٤)

* * *

---

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبياتٍ أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاك باني الهرم كثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليقة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليقة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قـد رأى ذو بصـرٍ سـرَّ الـذَّات   وجـلا الفـنُّ لعيـنِ جَنَّـاتِ[(١)]
مـا بـه الـذَّات ولا الكـون يُـرى   فهـو مـن جهـدٍ حيـاة فـي نجـاةِ[(٢)]
تعـسَ الكـافـرُ مَـن أصنـامـه   مـن حُطـام لمنـاةِ والـلاتِ[(٣)]
هـالـكٌ صلَّـى عليـه فنُّـه   فـي ظـلام اللَّحـد يـرنـو للحيـاةِ[(٤)]

***

إقبال

قال للروميِّ[(٥)] في الخلدِ سنائي :   لا يـزالُ الشـرق بـالتقليـد يُـؤسَـر
قـالَ منصـور : ولكـنْ قـد سمعنـا   أن سـرَّ الـذات أفشـاه قلنـدرُ

***

الفنونُ الجميلة

نظَـراتُ الآفـاق مُتعـةُ عيـنِ   سرِّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

---

(١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
(٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
(٣) المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .
(٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
(٥) جلالُ الدين الرومي أكبرُ شعراء الصُّوفية ، ومجدُ الدين السَّنائي طليعةُ شعراء الصُّوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسينُ بن منصور الحلاَّج الصُّوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرُّومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْرَ أنِّي أقول : ما نظراتٌ لا تجلّي كوامنَ الأسرارِ[1]
مقصدُ الفنِّ في الحياة لهيبٌ أبديٌّ فما وَميضُ الشَّرارِ ؟[2]
قطرُ نَيسانَ ! ما اللآلىءُ إنْ لم تتلاطمْ بها قلوبُ البحارِ[3]
ما نسيمُ الصَّباحِ في الشِّعر واللَّحن إذا ما أذوَى سنا الأزهارِ[4]
ليس إلا الأعجازُ يحيي ففنٌّ ليس ضربُ الكليم فيه ، عواري[5]

* * *

صُبْحُ المرج[6]

الزَّهرة :

وافدَ الأفلاك ! هل خِلْتَ بعيداً موطني ؟ لا إنَّه غيرُ بعيد

النَّدى :

من يَطِر ما بين أرضٍ وسماءٍ يتبيَّنْ أنَّه غيرُ بعيد

---

(١) إن لم تنفذ نظراتُ صاحب الفنِّ إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
(٢) الفنُّ يصوِّر لهيب الحياة الأبدي ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
(٣) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدرُّ في الصَّدف . يقول الشاعر : يا قطر نيسان ! ما قيمة الدرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم .
(٤) إنْ كان نسيمُ الصبح المتمثِّل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الزَّهرَ في الرَّوضة ولا ينضِّره فأيُّ نسيمٍ هو ؟! .
(٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عاريةٌ لا دوام لها .
(٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافلٍ عن عالم الغيب ، كضوءِ الصُّبح يُغشى السهول والجبال ولكنَّه موصول بالفلك ، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض ليست بعيدةً من السماء .

الصُّبح :

أقبلنْ في الرَّوض كالصُّبح رفيقاً ليس يؤذي وطؤه قطرَ النَّدى
واحضِنِ الأجيالَ والبيدَ ولكنْ من عُرا الأفلاك لا تحللْ يدا

***

الخَاقَانِي(١)

ذا صاحبُ تحفةِ العراقَيْن ذو القلب يراه قرَّة العَين
تنشقُّ لفكره السُّتور الحُجْبُ جميعُها تُنير
يجتاز بعالم المعاني لا يسمعُ قولَ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾(٢)
فاسأله بذلك التُّراب والدَّهرُ يجيشُ في عُباب(٣)
ذا مَحرَم عالِم الثَّوابِ كم دلَّ بموجَز الخطاب(٤) :

---

(١) شاعرٌ فارسيٌ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢هـ . وله من الكتب « تحفة العراقين » . سجل فيها ما رأى في العراقين العربي والعجمي حينما مرَّ بهما في طريق الحجِّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشَّرقي وهو مشتقٌ من الأوزان العربيَّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أوَّلها :
يا منْ لعبت به شمولُ ما ألطفَ هذه الشمائل
وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيدَ في شعرنا مثالاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .
(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .
(٣) اسأله عن هذا العالم الأرضيِّ وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي اسأل عنه .
(٤) المحرم : المطلع على السرِّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« نـاهيـكَ بشـرٌ هـذا العـالـمِ إبليـسُ ثـوى ومـاتَ آدم »[١]

* * *

الرُّومي[٢]

ما زال طَرفُك في خَلْطٍ وفي سِنَةٍ وعنكَ ذاتُك في الأسرارِ لم تَزَلِ
ولـم تـزلْ فـي صـلاةٍ لا قيـامَ لهـا وبالضَّراعة عزَّ الرُّوح لم تَصِلِ[٣]
ومِـزهـرُ « الـذَّات » أوتـارٌ مقطَّعـةٌ ما زلتَ عن نغمةِ الرُّوميِّ في شُغُلِ

* * *

الجدَّة[٤]

إنْ صدقَتْ نفسُك في الدَّهر النظرْ تُنـوَّر الأفـلاكُ منـكَ فـي البُكَـرْ
وتستضـيءُ الشَّمـسُ منـك بـالشَّـرر وينجلـي قـدرُك فـي سيمـا القمـر
والبحـرُ يلقـى منـك مـوجـاً ذا دُرر وتستحـي إعجـازَ صُنعـك الفِطَـر[٥]

---

(١) حسبُك تعريفاً بهذا العالم أنَّ آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعاتُ الشرّ في هذا العالم . فهو عالمُ محنةٍ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والضَّراعة (ناز ونياز) أي : الخضوع والسِّيادة ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيامٍ . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنَّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخرٌ لك .

(٥) تستحي الخليقة من صنعك المعجز ، تراه أحسن منها .

تخــذتَ أفكــار الــورى مــرآتَــك   فكيــفَ لا تبلــغُ حتَّــى ذاتَــك[1]

***

مِرزا بَيْدَل[2]

ذي سمــــاءٌ وجبـــــالٌ وفِجـــاجْ   ذاك حقٌّ أم عيونٌ في اعوجاجْ ؟
فـــــرَّق الآراءَ إثبـــــاتٌ ونفـــــيٌ   أهيَ دنيـا أم خداعٌ في الحِجاج ؟
عقــدةٌ قــد حلَّهــا يبــدلُ حقــاً   أعجـزتْ مـنْ قبلـه كـلَّ عـلاج :
« ما بدا ذا المراجُ لو في القلب وُسعٌ   بان لونُ الخمر منْ ضيق الزُّجاج »

***

الجلال والجمال[3]

حسبــي كمــالًا قــوةٌ مــن حَيــدرِ   وكفــاك مــن أفــلاطُــنَ الإدراكُ

---

(١) إنَّك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .
(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعرٌ صوفيٌّ له ديوانٌ كبيرٌ يغلب فيه التعمُّق وتكثر الدَّقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرةٍ في بيتٍ لبيدل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أنَّ هذا العالم الحسِّي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يُظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النثر :
« لو اتَّسع القلبُ ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدَّة ضيق الزُّجاج » .
(٣) الشَّاعر من المعجبين بالقوَّة ، الدَّاعين إليها ، وهو يدَّعي هنا الإجمال بغير جلالٍ ، يرى الكمالَ في شجاعة عليٍّ لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالًا ـ وقد تخيَّل الشعراءُ أنَّ انحناء السماء في رأي العين سجودٌ ـ والنغمةُ التي لا قوَّة فيها نفخةٌ ضائعةٌ ، بل لا يحبُّ أن يجازى إلا بنارٍ شديدةِ الالتهاب .

وأرى جمالاً في بهاء أن ترى ... في سجدةٍ للقوّة الأفلاكُ
ولَنغمةٌ من دون نارٍ نفخةٌ ... ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن ... وهّاجةً ولهيبُها درّاكُ

* * *

المصوّر(١)

قلّد الغربَ فنُّ عُجْم وهندٍ ... عمَّ هذي البلادَ موتُ الخيال
شفَّني الغمُّ أن بِهزادَ عصري ... يُفقد الشرقَ بهجةَ الآزال(٢)
يا خبيراً بفنّه فيه تمّت ... صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم تَرى من خليقةٍ وتُريها ... أرِنا الذّاتَ فوق هذي المجالي

* * *

الغناء الحلال(٣)

تفتح القلبَ نغمةٌ من غناء ... أيَّ فتحٍ والقلبُ رهنُ هُمودِ ؟
في صُدور الأفلاك لحنٌ خفيٌّ ... صاهرٌ حرُّه نجومَ الوجودِ

---

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوِّر وكلَّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظْهِرَ ذاته فيما يصوِّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصورٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدّولة الصفوية ، والشاعر يغتمُّ لأنَّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلَّ لحنٍ يحلُّ إنْ كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويَحْرُمُ إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟! وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النُّجوم ، وتبرىء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيَّةُ التي يُحلُّها فقهاءُ الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ النـاسَ منـه خـوفٌ وغـمٌّ   إيـازٌ يسمـو إلـى محمـودِ[1]
تيـهُ هـذي النُّجـوم يفنَـى ولكـن   أنـت تبقـى ونغْمـة التَّـوحيـدِ[2]
قـد أحلَّـت شـريعـةُ الـذَّات لحنـاً   لـم يـزل فـي انتظار شـادٍ مُجيـدِ[3]

* * *

الغناءُ الحرام

مـا بـذكـرى مـن التصـوُّف وَجـدٌ   أو بـرأيـي ثـوابُهـم والعـذابُ
قـرَّب الله مـذهبـي مـنْ فقيـهٍ   عُـرِفـت عنـه سُنَّـةٌ وكتـابُ :
« إنْ سَرَت في اللحون دعوةُ موتٍ   حَـرُم النـايُ عنـدنـا والـرَّبـابُ »[4]

* * *

النَّافُورة

لا يُطَيِّبنـي مسيـرُ النَّهـرِ مطَّـرداً   مُسـايـراً تُـربَـه جنبـاً إلـى جنـبِ
دع ذاك ، وانظرْ إلى نافورةٍ بَسَقتْ   تُصَعِّـدُ المـاء منهـا قـوةُ القَلْـبِ[5]

* * *

---

(١) السُّلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .

(٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .

(٣) اللحن الذي أحلَّته شريعةُ الذَّاتِ ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .

(٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .

(٥) لا يُعجب الشَّاعر بالنهر يساير الأرض ، بل يُعجب بنافورةٍ قويةٍ تقذف الماء عالياً في الهواء .

الشاعر[1]

في غابة الشرق نايٌ يبتغي نَفَساً
يا شاعرَ الشَّرق هل في صدرك النَّفَسُ؟

مـن كـانَ فـي ذاتـه مـن رقّـةٍ خَـورٌ
فقلْ له من لُحونِ العُجْم يَحترِسُ

إنـاؤهـا مـن زجـاجٍ كـان أو خـزفٍ
اجعـل بخمـرك سيفـاً لمعُـه قَبَسُ

لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها
مجـدٌ بغيـر الجـلاد المـرَّ يُلتمَسُ

طُـورٌ جـديـدٌ ، وبـرقٌ كـلَّ آونـةٍ
لا قـرَّب اللهُ للعشـاقِ مـا التمسـوا

***

شعر العجم

كم بشعر العُجْم من سِحر ولكنْ
منه سيفُ الذَّات ذو حدٍّ كليلْ

صَمتُ طيرِ الصُّبح أولى من غِناء
إن سرى باللَّحن في الرَّوض ذبولْ

ليـس ضـربـاً مـا يشـقُّ الطَّـودَ لكـنْ
ليـس منـه عـرشُ بَـرويـز يميـلْ[2]

يَنْحِـتُ العصـرُ أيـا إقبـالُ ! صخـراً
فاحذَرنْ من كلِّ ما يُبْدي الوَذيل[3]

***

---

(١) ينفرُ إقبالُ من شعر الرَّخاوة والذلَّة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرقَّة والترف .
ولا بدَّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجةٍ أو صراحيةٍ ، ينبغي أن تكون محرقةً . وليس لشوق الشاعر غاية ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلّي جديد .

(٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .

(٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرآة . والشَّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرآة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلَّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركن إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تخيُّلهُم جَنازةُ كلِّ عِشقٍ ... وظُلمةُ فكرهم للحيِّ قَبرُ
ومَوثنُهم به نقشُ المنايا ... وليس لفنِّهم بالعيش خُبْرُ[1]
يُنيمُ الرُّوحَ في إيقاظ جسمٍ ... ودون المجد يُسدَل منهُ سِترُ
يُسخِّر للأنوثة كلَّ شيءٍ ... لهم قَصصٌ وتصويرٌ وشِعرُ[2]

***

الرَّجل العظيم

هو في الحب عميقْ ... وهو في البُغْض عميقْ
قهره فروقُ عبادِ الله ... بَرٌّ وشفيقْ
نشَّأته ظلمةُ التَّقليد ... بالنَّاس تَحيقْ
غير أنَّ الطَّبع بالإبـ ... ـداع والخَلق خَليقْ
هو في المَجْمَعِ خالٍ ... ومن الحَشدِ طليقْ
مثلُ شمع الحفل ؛ في الحفل وحيد ورفيقْ[3]
مثلُ شمس الصُّبح ؛ فِكرٌ ... فيه نُورٌ وبَريقْ
لفظه حرٌّ يسيرُ ... لكنِ المعنى دقيقْ
نظرٌ فيه سديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ

---

(١) الموثن : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخِّر كل شيء للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليــــس يـــــدري أيُّ حـــــالٍ فيــــه أشيــــاخُ الطـــريــــق

***

عالَم جديد(١)

مَنْ كانَ حيَّ القلب في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلـو لـه رؤيـاهُ كـونـاً مُحـدثـاً بِـدعَ المثـالِ يَـروقُـه تصـويـرُهُ
فـإذا جـلا صـوتُ الأذان منـامَـه شـادَ الـذي فـي حُلمـه تعبيـرهُ
ولهَيكـلُ الـدُّنيـا الجـديـدةِ طينـهُ هـذا الضئيـلُ ، وروحهـا تكبيـرهُ

***

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني مِن الخلّاق مَوهبةٌ لكـنَّ للفـنِّ فـي الفنَّـان إجهـادا
مِنْ حُزْقَةٍ في دَمِ الباني ، مشيَّدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زُونات بهزادا(٢)
مـا جـوهـرٌ يتجلّـى دون مَجهـدةٍ منْ ومضةِ الفأس نارت دارُ فرهادا

***

---

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .
وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشىءٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُّمى ، يضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقا

دلَّ علـــى بـــردِ دَمِ المُغنِّـــي ... لحـــنٌ لـــه الـــوجـــوه لا تُنيـــرُ[1]
أنفـــاسُ زامـــرٍ سُمـــومُ لَحـــنٍ ... إنْ كـــان لـــم يَطْهُـــرْ بـــه ضميـــرُ[2]
بـــالشَّـــرق والمغـــرب فـــي رِياضٍ ... مـــن الشقيـــقِ شـــاقنـــي المسيـــرُ
فمـــا مـــررتُ بينهـــا بمـــرجٍ ... شقَّـــت بـــه جُيـــوبهـــا الـــزُّهـــورُ[3]

***

لذَّةُ النَّظر

أيُّ ذاتٍ حَوَى فتى الصينِ مَن قا ... لَ لجـــلاده أمـــام الحِمـــام :
منظـــرٌ رائـــقٌ ، تمهَّـــلْ ، تمهَّـــلْ ... لأرى لحظـــةً وميـــضَ الحُســـامِ[4]

***

الشِّعر

لـــم أدرِ ســـرَّ الشِّعـــر إلا نكتـــةً ... سِيَـــرُ الشُّعـــوب تُبينُهـــا تفصيـــلا

---

(١) اللَّحن الذي لا تنير له وجوه السَّامعين دليلٌ على برود نفس المغني ، وخمود عاطفته .

(٢) لا بدَّ للمطرب من طهارة الضَّمير لتكون ألحانه صدى الضمير الطاهر ، وإلا فأنفاسه في اللحن سمٌّ للسامعين .

(٣) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزنٍ أو فرح - يعني : لم يظهر المطربون أسرار النفس ، ويبدو مكنون الضمير الإنساني ، ولا تزال « الذات » محجوبةً .

(٤) رجلٌ صينيٌّ قام أمام الجلاد والسيف مصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السَّيف ، فقال للجلاد : أمهلني لأمتِّع النفس بهذا المنظر . فهذا يعجب به إقبال أيَّ إعجاب ، ويرى فيه ذاتاً كاملة .

الشِّعرُ فيه من الحياة رسالةٌ أبديةٌ لا تقبَلُ التبديلا
إنْ كانَ من جبريلَ فيه نغمةٌ أو كانَ فيه نفخُ إسرافيلا[1]

* * *

الرَّقص والمُوسيقا

إنَّ للشعر بهجةٌ ضاء منها روحُ جبريل والرَّجيمُ اللعينْ
ومن الموسيقا ابتهاجٌ شوقٌ وكذا الرَّقص نشوةٌ وفُتون
قد سمعنا في الصِّين قولَ حكيم فيه أفشى مخبّآت الفنون :
إنَّ للموسيقا من الشعر رُوحاً ومن الرَّقص جسمُها في العيون

* * *

ضبط النفس

دأبُ أهلِ الزمان شكوى الزمانِ ليس للحرِّ آهةٌ في طِعانِ
قد أسرَّ النجوى إليّ عليمٌ منْ شيوخِ القلوب والعِرفانِ :
إنَّ كَظم النُّواح شيمةُ ليْثٍ ومن النَّوحِ شيمةُ الثُّعْلبانِ

* * *

الرَّقص

دعْ لأهل الغرب رقصاً بجسومٍ إنَّ رقصَ الرُّوح من ضَرْبِ الكليمْ
فبهذا الرَّقصِ سُلطانٌ وفقرٌ وبذاك الرَّقص همٌّ لا يَريمْ

* * *

---

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبديةً إن كان جميلاً هادياً ، كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صعقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .

القسم الخامس

سياسيَّاتُ المشرقِ والمغربِ

انقلاب

أبمشــــرقٍ أو مغــــربٍ ... نـارُ الحيـاة ونـورُهـا
فهنــا تمــوتُ ذواتُهــا ... وهنـاكَ مـاتَ ضميـرُهـا
وأرى القلــوبَ لثــورةٍ ... مِـلءُ البـلادِ زفيـرُهـا
فلعـلَّ دنيـاكَ القـديمـةَ ... للممـــاتِ مَسيـــرُهـــا

***

تملُّق(١)

جهلتُ أمورَ الناس غيرَ مجرِّبٍ ... ولكـنَّ ربَّ القلـب للغيـب يَشْهَـدُ
فقـلْ لـوزيـرٍ مـا بـدا لـك مـادحـاً ... فــذانــك دُستــورٌ وعهــدٌ مجــدَّدُ
إذا قـال : صقـرُ الليـلِ للبـومِ مـادحٌ ... فهــل ذاك حــقٌّ أو دِهــانٌ يــردَّد(٢)

***

المناصب(٣)

سِحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ ... يا ويحَ عيني قد هَمتْ عَبَراتُها

---

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الدَّاخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السَّابقة .

فلعـلَّ منصِبـكَ الـرفيـع مبـاركٌ	فـالـذَّاتُ مِـنْ جَـرَّاه حـانَ ممـاتُهـا
هـذي القضيـةُ معضِـلٌ إخفـاؤهـا	وضَحـتْ لكـلِّ مفكِّـرٍ آيـاتُهـا :
« لا شِـركَ فـي حكـمٍ لعبـدٍ إنَّمـا	شُرِيَتْ عقولُهُمُ وخابَ شُراتُها »[1]

***

أوربَّة واليهود[2]

نظـامٌ ومـالٌ وعيـشٌ رغيـدٌ	وظُلمـةُ صَـدرٍ لهـا القلـبُ يَقْلـي
دخـانُ المصـانـع فـي الغـرب داجٍ	فـواديـه ليـس بـأهـل التَّجلِّـي
رأيـتُ حضـارتَـه فـي احتضـارٍ	تموت اعتباطاً ، وما الموت يُملي[3]
فليـس غـريبـاً تـولِّـي اليهـود	كنـائسَـه بعـد هـذا التـولِّـي

***

عبوديةُ الأنفس[4]

ليـس يخلـو زمـانُ شعـبٍ ذليـلٍ	مِـن عليـمٍ وشـاعـرٍ وحكيـمِ
فـرَّقتهـم مـذاهـبُ القَـوْلِ لكـنْ	جَمَـعَ الآراءَ مقصـدٌ فـي الصَّميـم :

---

(١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظمٍ . شُريت : بيعت ، والشراة : البائعون .
(٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهدْ حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّطُ اليهود على أوربة وأمريكا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارفٍ خبير .
(٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .
(٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتَّى إلى غايةٍ واحدةٍ ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجاياها الإقدام حتى ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويلٍ في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« علِّموا الليث جفلة الظَّبي وامحوا قصصَ الأُسْد في الحديثِ القديمِ[1]
همُّهم غبطةُ الرَّقيق برقٌ كلُّ تأويلهم خِداعُ عليمِ

***

الرُّوسُ الشُّيوعيون

إنَّ سَيرَ القضاء جِدُّ عجيبٍ أيُّ سرٍّ حوى ضميرُ الزَّمانِ
ليس يألو الصليبَ سرّاً قَبيلٌ كان يرجو النجاةَ بالصُّلبانِ
أمرَ الوحيُ مُلحدي الرُّوس « هُدُّوا ما أقام القُسُوسُ من أوثانِ »

***

اليَوم والغَد

مَن عداه ليومِه في جهادٍ نورُ نفسٍ وشُعلةٌ في الكُبودِ
مالَه الحقُّ في مَتاع وهمٌ يستسِرَّان في الغدِ الموعودِ
ليس أهلاً لمعرَك الغدِ مَن في سيره (اليومُ) ليسَ بالمعدودِ

***

المشرق

جَيبُ الشَّقائق من شَدوي غدا مِزَقاً ونسمةُ الصُّبحِ رَوضاً تطلبُ الآنا[2]

---

(١) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين .
(٢) أنا شدوت حتى مزَّقتْ شقائقُ النعمان جيوبها وجداً ، ونسيمُ الصبح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهارَه .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلّى حقيقتها فالروحُ في الشرق جسماً تطلب الآنا[1]
وحـقٌّ ذاتـي عِقَـابٌ غيـرَ أنَّ لهـا ذا العصرُ جِذعاً وحبْلاً يطلب الآنا[2]

***

سياسةُ الإفرنج

يـا ربِّ نِـدُّك فـي غـربٍ سيـاستُـه ومـا تعبَّـد إلا الهـامَ والـرُّوسـا[3]
خلقتَ إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومـن تُـرابٍ أقـامـت ألـفَ إبليسـا

***

العبيد

تعلَّمتُ بين الغرب والشَّرق حكمةً أراها لأهلِ الرقِّ أجدى الفوائدِ :
فـلا مُلْـكَ أو فقـراً وديـنـاً وحكمـةً يـؤسَّـس إلا فـوقَ صخـرِ العقـائـدِ
فـإمَّـا خـلا منهـا ضميـرُ جمـاعـةٍ فـأفعـالُ رعـديـدٍ وأقـوالِ هـامـدِ

***

إلى أهل مِصر

مـن أبـي الهـول أتتنـي نكتـةٌ وأبو الهول طَوى السرَّ القديم[4]

---

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقُّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صلبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بـــدَّلــتْ سَيــرَ شعـــوب جملـــةً   قـــوَّةٌ لـــم يجْفُهـــا العقـــلُ الحكيـــم
طبعُهـــا فـــي كـــلِّ عصـــرٍ مـــائـــلٌ   يُبـــدِلُ الشكـــلَ ويَبقـــى فـــي الصَّميـــم
فهـــي طَـــوراً فـــي حُســـام المصطفـــى   وهي طَوراً في عصا موسى الكليم

***

الحَبشة

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عِقبـــانُ أوربَّـــة بغيـــر علـــم   فـــي جيفـــة الأحبـــاش أيُّ ســـمّ !
قد آن للمَيتةِ أن تَجيفا
حضـــارةٌ تكمـــلُ بـــالمَخـــزاة   وعيـــشُ أقـــوامٍ علـــى الغـــارات
وكلُّ ذئبٍ طاردٌ خروفا
وجـــهُ الكنيســـة اكتســـى شَنـــارا   رومـــا أراقـــت مـــاءَه نهـــارا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا[1]

***

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السَّاسة[2]

عليكـــم بـــالبَـــرَهْمَـــن فـــاربكـــوه   بـــأشـــراكِ السيـــاســـة والحبـــالِ

---

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشَّاعر في هذه الأبيات عملَ السَّاسة بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلِّها من الدِّين ، ولاسيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصَّ العربَ الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدِّين . . إلخ .
ثمَّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرَّوض لأنَّ نَفَسهُ يشعل الحقائق ؛ أي : يثير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

وأصحـابَ الـزَّنـانيـر اطـردوهـم ... مـن الـدَّيـر القـديـمِ بـالاحتيـالِ
وذلكـم الصَّبـورُ علـى الـرزايـا ... ومَـن هـو بـالمنـايـا لا يبـالـي[1]
فـروحَ محمـدٍ منـه اسلبـوه ... لتعمـلَ فيـه أحـداثُ الليـالـي
وفـي العَـرَب اقـذفـوا فـي كـلِّ فكـرٍ ... مـن الإفـرنـج ألـوانَ الخيـالِ
بـأرض العُـزب لـلإسـلام كيـدوا ... ليُسـرعَ فـي الحجـاز إلـى الـزَّوالِ
وفـي الأفغـان بـالـدِّيـن اعتصـامٌ ... وليـس عِـلاجُ هـذا بـالمحـالِ
عليكـم بـالفقيـه فـأخـرجـوه ... مـن الأرض المنيعـةِ والجبـالِ
وقُـوَّامـاً علـى الحـرَم اسلبـوهـم ... لهـم سُننـاً تحيـدُ عـن الضَّـلالِ[2]
غَـزالَ المسـك مـن خَتَـنٍ أثيـروا ... وخَلُّوا الأرض من هذي الغوالي[3]
وإقبـالٌ لـه شَـذْوٌ مثيـر ... بـه زَهَـر الشقـائـق فـي اشتعـال
مـن المَـرج اطـردوا هـذا المغنّـي ... لتحمـوا النـاس عـن هـذا المقـال

***

جماعةُ الأُمم الشَّرقية[4]

سُخِّـر المـاء والهـواءُ مسخَّـرْ ... ليـس بِـدعـاً إنِ القضـاءُ تغيَّـرْ
جبـروتُ الفـرنـج غَـرَّتـه رؤيـا ... علَّهـا غيـرَ مـا رآه تُعبَّـر
إنْ جنيـوا للشـرق طهـرانُ صـارت ... فلعـلَّ التبـديـلَ لـلأرض يُقـدَر

---

(١) ذلكم الصبور . . إلخ . يعني : المسلم .
(٢) يريد بقوَّام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره .
(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تنٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتَّصل به .
ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .
(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إنــي لغَــوَّاص المعــانــي فِطــرةً لكنَّنــي بَحــرَ السِّيــاســةِ أحــذرُ
مــا إن يُحــبُّ الــدَّهــرُ مُلكــاً خــالــداً ولــو أنَّ فيه مــن الــرُّؤى مــا يسحَرُ
فَرهادُ أبقى الدَّهرُ نحتَ صخوره لــم يَبــقَ مــن بــرويــز مُلــكٌ يُــؤثَــر

* * *

الجمهورية

بــدا الســرُّ فــي قــولــةٍ مــن أريــبٍ ومــا كــان مــن قَبلــه يُعلــنُ[1] :
نظــامُ الجمــاهيــر حُكــمٌ بــه تُعــدُّ العِبــادُ ولا تــوزَنُ

* * *

أوربة وسورية

أهــدت الشَّــام إلــى الغــرب نبيًّــا هــو عَــفٌّ ومُــواسٍ وصَبــور
ومــن الغــرب إلــى الشــام هــدايــا مــن قمــارٍ ونســاءٍ وخمــور

* * *

من مُوسولِيني
(إلى أنداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يأبى من مُسولينَ جُرمَه وأخيــارُ أوربــة علــيَّ غِضــابُ

---

(١) سيظهر .

كـلانـا بـآلاتِ التمـدُّنِ آخـذٌ أتنقِـم أفعـالَ السُّيـوفِ حِـرابُ
وقـد نقَمُـوا منّـي غـرامَ تَملُّـكٍ أما ثـار منهـم بـالضِّعاف ضِـرابُ
لِمَنْ شعبَذاتُ الحكمِ تُبقي ممالكاً ولا مُلْـكَ أو ملـكٌ بهـنَّ يُصـابُ
أينفُـخُ فـي الأعـواد أبنـاءُ قَيصـرٍ ويُجبَـى إليكـم عـامرٌ ويبـابُ[1]
نهبتم خيامَ البدو والزَّرعَ والقُرى وكـمْ كـانَ منكـم للعُـروشِ نِهـابُ
قصَـدنا مـن التمـديـنِ قتـلاً وغـارةً أأمسُكـم فخـرٌ ويَـومـيَ عـابُ ؟

* * *

شكوى

مستقبلَ الهندِ منْ يدري ؟ وما بَرِحَتْ يا ويحها ، درَّةً في التَّاج تُرتَهنُ[2]
دِهقـانُهـا مـن ظـلامِ اللَّحـد مطَّـرح ولم يزل مِزَقاً تحت الثرى الكفَنُ
الجسـمُ والـرُّوح للبـاغيـن قـد رُهنـا لـم يَبـق فـي أرضهـا دارٌ ولا سَكَـنُ
رضيـتَ رقّـاً لأوربَّـة بـلا أنَـفٍ فمنكَ شكواي لا منها ، وبي حَزَنُ

* * *

انتداب

مَلَكُ الحضارةِ أين يُحتَم سَيرهُ ؟ في عصرنا هذا السؤالُ يسيرُ :
فـي حيـثُ لا خمـرٌ ولا قَمْـرٌ ولا ضيـقُ الثيـاب علـى النِّسـاء يجـورُ
والـرُّوحُ فـي بَـدَنٍ قـويٌّ خـافـقٌ لكـن علـى سَنـن الجـدودِ يسيـرُ
حيـثُ المـدارسُ غـائـضٌ ينبـوعُهـا وابـنُ البـداوة فـي الـذَّكـاء جَسـورُ

---

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحارى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أثمنُ درَّةٍ في تاج الإمبراطورية .

يُفتـي جهـابـذةُ الفِـرنجـة أنَّمـا ... هـذي البقـاعُ مـنَ التمـدُّنِ بُـور[١]

***

السِّياسةُ اللاَّدينيَّة

ما الحقّ مخفٍ عن فؤاديَ سِرَّه ... فلقـد حبـانـي الله قلبـاً مُبصـرا

فسيـاسـةُ الـلاديـنِ عنـدي خِسَّـةٌ ... مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى[٢]

لمّـا قلَـى حكـمُ الفـرنـج كنيسـةً ... سـاسـوا كشيطـانٍ بـلا قيـدٍ جـرى

شَـرِهَـتْ لأمـوالِ العبـاد كنيسـةٌ ... فإذا الخَميس سفيرُها بين الورى[٣]

***

شبكة التمدين

أمـانتُهـا علَـتْ عـن كـلِّ ريـبٍ ... وإقبـالٌ مُقِـرٌّ دون نُكـرِ

فـأوربـة نصيـرةُ كـلِّ شعـبٍ ... تشكّـي الـدهـرَ مـن ظلـمٍ وضُـرٍّ

كـرامـاتُ القسـاوسِ أنْ أضـاؤوا ... سـراجَ الكهـرُبـاء بكـلِّ فِكـرِ

ولكـنْ مِـن فلسطيـنَ بقلبـي ... وللشَّـام الكسيـرةِ حَـرُّ جَمـرِ

وتلكـم عُقـدةٌ ليسـت لحـلٍّ ... تُـلاقـي كـلَّ تـدبيـرٍ بِعُسـرِ

مـن التـرك الجُفـاةِ نَجـوا فـلاقَـوا ... بـأشـراكِ التمـدُّن شَـرَّ أسـرِ[٤]

***

---

(١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدُّن ، فأرسلوا إليها ملك التمدُّن باسم الانتداب .

(٢) إبليس افتراها .

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) في هذا استهزاء : يقول : إن أوربة ادَّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرِّ أسر .

نصيحة

قال لُرْدٌ من الفرنج لنَجلٍ ... ابغِ مَرأىً يدومُ فيه المراد[1]
أظلَمُ الظُّلم للمساكين إعلامُ ... خِرافٍ شريعةَ الآساد[2]
إنَّ للملك سِرَّهُ فاكْتُمَنْه : ... لا تَرُم بالسُّيوفِ قهرَ العباد
وبحمض التَّعليم فاغمِس نفوساً ... ثمّ صُغْ طينَها وفاقَ المُراد
أينَ منه الإكسيرُ ؟ هذا محيلٌ ... جَبلَ التِّبرِ كَومةً مِنْ رماد

* * *

قرصانُ وإسْكَنْدر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانٌ ... أو التصميمُ من سيفي العتيقِ[3]
فقد صيرتَ وُسعَ البحر ضيقاً ... بما أمعَنتَ في قطع الطَّريق

القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم توَفَّقْ ... أيجمُلُ بالفتى فَضحُ الرَّفيقِ ؟
فإنَّ القتل دَأبي لا أماري ... كذاك القتلُ دأبُك يا صديقي
كلانا اليوم قرصانٌ : ببرٌ ... تَصولُ ، وَصُلتُ في بحرٍ عميق

* * *

---

(١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحدُّ .

(٢) أظلمُ الظُّلم أنْ تعلمَ الغَنَمُ سيرةَ الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .

(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبةُ الأمم[1]

مِسكينــةٌ منــذ زمــان تُحتضــز   لا فـاهَ مِقـوَلـي بسيِّـىء الخَبـرْ[2]
ومــوتُهــا محتَّــمٌ لكنَّمــا   يدعو القُسُوسُ أن يزولَ ذا الخطر
عجــوزُ أوربــةُ يجــوز عَيشُهــا   علـى رُقَـى إبليسَ أيـامـاً أُخَـر[3]

* * *

الشَّامُ وفِلسطين

مَـرحَـى لحـانـات الفـرنـج فقـد   مـلأت بهـنَّ زجـاجَهـا حَلـبُ
إنْ فـي فلسطيـن اليهـودُ رَجَـتْ   فلْيـأخـذَنْ إسبـانيـا العَـربُ
لـلإنكليـز مقـاصـدٌ خفيـت   مـا إن يُـراد الشَّهْـدُ والـرّطَـب[4]

* * *

أئمةُ السِّياسة

مـا رجـائـي بسـاسـة قـد أسفُّـوا   وإلـى الأرضِ أخلـدوا إدراكـا
نظـراتٌ إلـى ذُبـابٍ ونمـلٍ   فهـمُ العنكبـوتُ مـدَّتْ شِبـاكـا
حبَّـذا الـركـبُ قـد هـداه أميـرٌ   ذُو مـرامٍ تُجـاوز الأفـلاكَـا

* * *

---

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .
(٢) يعني لا أودُّ أن أخبرَ بموتها .
(٣) الظاهر أنَّ الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها .
(٤) بلاد العرب كلُّها معروفةٌ في الهند بالنخل ، ويقول الشاعر ليس قصد السياسة الإنكليزية ما تعلن من عمرانِ البلاد بل لها مقاصدُ خفيَّةٌ .

نزعات العبودية

بـأسبـابِ سُقـم الشُّعـوبِ خَفـاءٌ   يقصِّـر فـي شـرْحِهِـنَّ البيـانْ :
بشـرع الأسـود إمـامُ العبيـد   يـرى دائمـاً حِكمـةَ الثُّعلبـانْ[1]
كليـمُ الإلٰـه يُـرَى لعنـةً   علـى قـومـه فـي خُطـوب الـزَّمـانْ
إذا كـان فـي السـرّ هـذا الكليـمُ   لقُـوّةِ فـرعـونَ طـوعَ البنـانْ

* * *

صلاة العبيد[2]

قـالَ بعـدَ الصَّـلاة حِلفُ جهـادٍ :   كـم يطيـلُ الصَّـلاةَ فيكـم إمـامُ
ما درى ذاكُمُ المجاهدُ المؤمنُ الغِرُّ   صـلاةُ العبيـد كيـف تُقـامُ
كـم لـدى الحُـرِّ فـي الحيـاةِ كفَـاحٌ   غَيـرةُ الحـرِّ للشعـوب قِـوامُ
حُـرم العبـدُ حـرقـةَ الكـدِّ عجـزاً   فعلـى وقتِـه المُضـيُّ حَـرامُ
لا تعجَّـبْ إذا أطـال سجـوداً   مـا لـديـه سـوى السُّجـود مَـرامُ
رَبِّ وَفِّـقْ أئمـةَ الهنـدِ يـومـاً   لسجـودٍ تحيـا بـه الأقـوامُ

* * *

---

(١) أسباب مرض الأمم أئمةٌ أذلّةٌ ، يرون في شريعة الأسود فلسفةَ الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثُّعلبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمامُ الصَّلاة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاةَ إمامُكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فِلسطين

لا يـزالُ الـزَّمـانُ يَصلَـى بنـارِ ... لم تزل في حَشاكَ دونَ خمودِ[1]
لا دواءٌ بلنـــــدن أو جنيـــــوا ... بـوريـدِ الفـرنـجِ كـفُّ اليهـودِ[2]
ومـــن الــرقِّ للشعــوبِ نجــاةٌ ... قــوةُ الــذَّاتِ وازدهـارُ الــوجـودِ

الشَّرق والغربُ

علَّـــة الشَّـــرق ذِلـــةٌ واقتـــداءُ ... ونظـامُ الجمهـور فـي الغـرب داءُ
مَــرضُ القلــب والبصيــرةِ فــاشٍ ... مــا بشــرقٍ ولا بغَــربٍ شفــاء

* * *

نزعات التسلُّط

(إصلاحات)

أرى رحمــةَ الصَّيــاد سِتــراً لقهــره ... ولم يُجدِ فينا ذا الصفيرُ المجدَّدُ[3]
وقـد زيَّـن الأقفـاصَ بـالـزَّهـر ذابـلاً ... لعــلَّ أسيــراً لــلإســار يُغَــرِّدُ

* * *

---

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الدَّاخلي ، يقول :
ما يزال الصيَّاد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرقفه أن تجدد له غناء . وإنما همُّه أن يرضى الأسير فهو يزيِّنُ الأقفاص بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .

القسم السَّادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم بجبالهم ، وحميتهم الإسلاميَّة ، وقد تخيَّل الشاعر أنَّ شاعراً (محراب غل) أنشأَ هذا الشعر الّذي في الصَّفحات التَّالية ، بيَّنَ عمَّا في نفوس هؤلاء النَّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر (إقبال) .

- ١ -

يـا جبـالـي أيّـانَ عنـكِ المسيـرُ وتـرابُ الآبـاء هـذي الصُّخـورُ
لا زهـورٌ ولا صَـدى عنـدَليـبِ فيـكِ منـذُ الآزال تـأوي الصُّقـورُ
جنّتـي فيـك مَخـرمٌ وشعـابٌ مـاؤك النُّور ، والتُّـرابُ العبيـرُ
لـن يكـونَ الشّـاهيـنُ عبدَ بُغـاثٍ ألحفـظِ الأبـدانِ روحـي أُبيـرُ
خلعـةُ الإنكليـز أم سُحْـقُ ثَـوْبٍ إيـهِ فقـري الغيـور ! مـاذا تشيـر ؟

- ٢ -

تنـافـرُ النَّـاس دائـمٌ أبـداً لسـتُ ولا أنـتَ القضـاءَ فصَّلَـهُ
في الذاتِ غُصنٌ ، للزَّمان ذا أَمَلٍ دواؤه فـي الجـروح أرسلـه
تبقـى علـى الـدهـر واحـداً بطـلاً إنْ كان في القلب « لا شريك له »

- ٣ -

يجـوز أن تُبـدَل أنـتَ ، لا تَخَـلْ بـدعـوةٍ أنَّ القضـاءَ يُبـدَّلُ
إذا سـرى فـي ذاتـك انقـلابُهـا فجـائـزٌ أنَّ الفضـاءَ يُبْـدَلُ
يبغـي الشـرابَ والفِنـاءُ إذ تـرى رسـمَ « السُّقـاةِ » والإنـاءَ يُبْـدَلُ
تـدعـو بتحقيـقِ الـرَّجـاء جـاهـداً ودعـوتـي أنَّ الـرَّجـاء يُبْـدَلُ

- ٤ -

ومـا فَلَـكٌ جـائـرٌ فـي السَّيَـرْ ومـاذا ذكـاءٌ ومـاذا القَمَـرْ ؟
أرى رَكْبَهـا جـاهـداً فـي المسيـر وأقْعَـدَهـا طـولُ هـذا السَّفَـر
سِكنـدرُ زمْجَـرَ كـالـرَّعـد حينـاً وعنـدك يـا مـوتُ صِـدْقُ الخبـر
وعـاشـتْ بـدهلـي يـدا نـادرٍ بضـربـةِ سيـفٍ حكـى فـاخْتَصَـر[١]

---

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلي ، وتوفي سنة ١١٦٠هـ .

وتبقـــى الجبـــالُ وأفغـــانُهـــا لـك الملـك والحكـم ربَّ القُـدَر !
تُـذلُّ الحـوائـجُ صيـدَ الـرِّجـال تـرى الليـث كـالثَّعلـب المحتقَـر
إنِ الـــذَّاتُ أيَّـــدهـــا فَقْـــرُهـــا فعنـــدي وعنـــدك مُلـــك البَشَـــرْ
قِـــوامُ الشُّعـــوب بحُـــرٍّ فقيـــرٍ إلـــى سُـــدّة المُلـــك مـــا إنْ نظـــر

ـ ٥ ـ

مـــدارسُ ثـــم ضـــوضـــاءٌ ولهـــوٌ وغـــمٌّ دام فـــي العيـــش الـــوفيـــر
وســـمُّ الحـــرِّ هـــذا ليـــسْ علمـــاً إذا كـــان الجَـــدَا كـــفَّ الشعيـــر[١]
ومـــــا أدبٌ وفلسفـــــةٌ غنـــــاءٌ قِـــوام الفـــنِّ فـــي جَهـــدِ المسيـــر[٢]
تحكَّـــمَ فـــي الطبيعـــة ربُّ فـــنٍّ يضـــيء الليـــل كـــالصُّبـــحِ المنيـــر
فـــربُّ الفـــنِّ مِـــن بـــركـــاتِ فـــنٍّ يطـــوعُ لحكمـــهِ كـــلُّ العَسيـــر
وذلـــك إن يشـــأ قَطَـــرَتْ عليـــه أيـــاةُ الشَّمـــسِ كـــالطـــلِّ النَّضيـــر[٣]

ـ ٦ ـ

عـــالَـــمُ التَّجـــديـــدِ إن يظفـــرْ بحـــرٍّ مـــوجِـــدٍ مـــنْ حـــولـــه طـــافَ الـــزمـــانْ
لا تَـــدعْ ذاتَـــك بـــالتَّقليـــدِ لَغـــواً جـــوهـــرٌ فـــردٌ فحُطْـــه بصِـــوانْ
بـــاركَ التَّجـــديـــدُ قـــومـــاً ليـــس فيهـــم غيرَ حفلِ الأمس ، ذِكرى وعِيان[٤]
خشيتي أنَّ وغى التَّجديد في الشَّرق علـــى التَّقليـــدِ للغـــربِ دِهـــان

ـ ٧ ـ

تبـــدَّل الأقـــوامُ فـــي البُلـــدانِ فـــي الـــروم والشـــام وهنـــدُسْتـــان

---

(١) العلم الذي جدواه كفٌّ من شعير ؛ أي : متاعٌ قليل ، ليس علماً ولكن سُمّاً للأحرار .
(٢) الفنُّ بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) ربُّ الفنِّ إن شاء قطرت عليه أياةُ الشمس (أي شعاعها) كالنَّدى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركةٌ لقومٍ لا يذكرون ، ولا يرون إلا صورَ الماضي .

يـــابـــن الجبـــالِ هُـــبَّ للـــزَّمـــان   وأدْرِكَـــنْ ذاتَـــك بـــالعـــرفـــانِ

ذاتَك بالعِرْفانِ

يا غافل الأفغانِ

ذا مـــــوســـــمٌ ومـــــاؤه عُبـــــابُ   وعَسجـــــداً يُنبـــتُ ذا التـــرابُ

مـــن لـــم يـــروَّ زرعَـــه احتســـابُ   فكيـــف يُـــدعَـــى الغِـــرُّ بـــالـــدهقـــان

ذاتَكَ بالعِرْفان

يا غافلَ الأفغان

مـــا لـــم يَهِـــجْ فـــي مَـــوْجِـــهِ الـــزخَّـــارِ   فـــأيُّ بحـــرٍ ذاك فـــي البحـــار ؟

مـــا ليـــسَ فيـــه ثـــورةُ الإعصـــارِ   فكيـــفَ يُـــدعـــى عـــاصـــفَ الأكـــوان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

مـــن اهتـــدى ونفسَـــه أصـــابـــا   مقلِّبـــاً فـــي طينـــه التـــرابـــا

فحـــرثُ ذا العبـــدِ الـــذي قـــد طـــابـــا   يُفـــدَى بكـــلِّ الجـــاه والسُّلطـــان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

جهلُـــك هـــذا مـــا بـــهِ مِـــنْ عـــارِ   قـــد صيَّـــر الجهـــلَ مـــن الفَخـــار

كـــم عـــالـــمٍ فـــاضـــلٍ ممـــاري   متـــاجـــرٍ بـــالـــدِّيـــن والإيمـــان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

- ٨ -

يـــدَّعـــي الـــزاغُ أنَّ ريشَـــكَ قُبـــح   ويقـــول الخفَّـــاش : أعمـــى جهـــول

مـــا رُذال البُغـــاث يـــا صقـــرُ ! تـــدري   فـــي عَنـــانِ السَّمـــاءِ كيـــفَ تصـــول

كيـــف تـــدري بحـــالِ طـــائـــرِ عـــزمٍ   كلُّـــه فـــي المطـــار عيـــنٌ تجـــول

- ٩ -

لا يسُفّ العشقُ دأبَ الهوسِ بذبابٍ بازياً لا تَقِسِ
ربَّ روضٍ حال حتى ليَرىٰ عندليبٌ عشّه كالمحبِس
مُزمعُ الأسفار لا يبغي صدىً منْ أذانٍ برحيلِ الغلَس
أتُرى قافلةُ الموج لها في مسير حاجةٌ بالجَرس
خدعَ العينَ فتى مدرسةٍ فَبَدتْ فيه حياةُ الأنسِ
وهو مَيْتٌ ومن الغرب اجتذى ما سرَىٰ في صدره منْ نَفَس
إنْ تُرِد تربيةَ القَلْبِ فَمِن نظر المؤمنِ شَزْراً فاقبِس

- ١٠ -

سوادُ عيون عِتْرتِهِ فَتيٌّ حليفُ طهارةٍ وفتى ضِرابِ
يُرى في السلم ظبياً ذا جمالٍ وفي يومِ الكريهة ليثَ غابِ
به نارٌ تُحرِّقُ كلَّ شيءٍ وحسبُ الغاب من شَرر الثُّقابِ
حباه الله أبَّهةً ومُلكاً بفقرٍ حيدريٍّ واحتسابِ
سبيلُ التّاج حسرُ الرأس عنه فلا تنظرْ إليه بارتيابِ[1]

- ١١ -

في بارحاتك لألأتْ أنوارُه يَسطيعُ نُوراً ذا السِّراجُ الخابي[2]
يشكو الضَّعيفُ من الزمانِ صُروفَه والحرُّ فيه باسمٌ لِحرابِ
مِنْ صوتِ طير الصُّبح يدهشُ ذا الفتى أتراهُ أهلَ تطاعنٍ وضِرابِ

---

(١) وهو حاسر الرأس ولكنّه طموحٌ إلى التاج ، أو هو في همته وعزّته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنّه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهلٌ لأن يضيء مرّةً أخرى ، يعني : الإسلام .

حـذري لأنَّـكَ فـي طِبـاع طفـولـةٍ والغـربُ تـاجـرُ سُكَّـرٍ وجُـلابِ[1]

ـ ١٢ ـ

بـــــلا ديــــنٍ ولا تيــــنٍ هـــوَتْ فـــي الفـــخّ رجـــلاه[2]
دواءُ العـــاجـــزِ المغلـــوبِ « لا غـــــلاّبَ إلا هُـــــو »
وصيَّـــادُ المعـــانـــي مـــا رَجَـــتْ فـــي الغَـــرب عينـــاه
فضـــاءٌ مـــونِـــقٌ لكـــنْ غـــزالُ المِســـك خَـــلاَّه[3]
يقـــوِّم ذاتَـــه سحَـــراً بـــدَمـــعِ العَيْـــنِ أوّاهُ[4]
فهـــذا الـــزَّهْـــر أحسَنُـــه علـــى الأمـــواهِ تلقـــاهُ
وديـــرُ الكـــون ، زُونُ الـــرِّيـ ـــح والألـــوانِ معنـــاهُ[5]
علـــى الكُفـــار مُستـــوْلٍ وذو الإيمـــان مـــولاه
إمـــامَ المسجـــدِ ! امْنَعْـــهُ أميـــراً حيـــن يغشـــاهُ
زوى المحـــرابُ حـــاجِبَـــه ولـــم تُعجِبْـــهُ تقـــواه[6]

ـ ١٣ ـ

دنيـــاك فـــي عينـــيَّ شَـــيءٌ آخـرُ أنَّـى لعينكَ ـ ليت شعري ـ تَظْهَـر

---

(١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافتُ على تجارتها .
(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً ، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية .
(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .
(٤) الأواه : المتعبِّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .
(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح ، يستعبد الكفرَ ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن .
(٦) تخيل زاوية المحراب تقطيباً لصلاة أميرٍ ليس فيها معنى الصلاة .

ماذا التقلّبُ في عقول شبابنا | في كلِّ صدرٍ قد تبدَّى مَحشرُ
شيخَ المساجدِ! ما دُعاؤُك سُخرةً | أبه الحياةُ بلا جهادٍ تَظفَرُ[1]
ما « الذّات » يُرجى في رِباطٍ خَلقُها | هل للشَّرار من الرَّماد تَسعُّر[2]

- ١٤ -

كلُّ عشقٍ دون إقدامٍ هوى | ويدُ الله بعشق مخطر
ويلتا مِنْ ترفٍ! أين فتىً | تَخِذَ الأهوالَ زاد السَّفَرِ
خَلوةُ الأطوادِ ليست وَحشةً | يَعْرِفُ « النَّفس » بها ذو البَصَرِ

- ١٥ -

عِلمُ فقرٍ لسالكٍ غيرُ صَعْبٍ | حدَّثَ الناسَ عن هُداه الضميرُ
لا يكون الفولاذُ جوهرَ سَيفٍ | إنْ يكنْ في الطباع منه حريرُ
إنَّ قَهرَ الإلٰه فقرٌ ذليلٌ | وسبيلُ السُّلطانِ فقرٌ غيورُ
قد سباك الفرنجُ نفساً ولكنْ | أنت يا مؤمنُ البشيرُ النذيرُ[3]

- ١٦ -

مَوتُ الشُّعوب بُعدُها | عن جَذَباتِ المركزِ
والذَّاتُ إمَّا رُكِزت | فللمعالي تُركَزِ
فقرٌ تراه شاكياً | جَوْرَ الزَّمان اللحزِ
باقٍ عليه مسحةٌ | من اجتداءِ الكَزِزِ
ولم يزل مُيسَّراً | للبرِّ فعلُ المعجِزِ
أنْ يجعلَ الصُّخورَ كالذرّات غيرَ مُعجَزِ[4]

---

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عامَّة .
(٢) الرِّباط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .
(٣) جاء هذ المصراع في الأصل بالفارسية .
(٤) لا يحول دون همة الحرِّ شيء من عالم المادَّة فهو يحيل الصخور ذراتٍ ، فلا تكون في=

فـأيـن يـا مـؤمـنُ أنـتَ اليـومَ لـم تُبَـرِّز
مـا فـي جهـادٍ لـذةٌ جَمْـرُكَ فيـهِ مُعـوزي[1]
يـا شَمْـسُ مـن سُـرادِقِ المشـ ـرقِ هيَّـا فـابـرُزي
واكسـي جبـالـي حُلَّـةً تُـزهـى بلـون القُـرْمُـزِ

- ١٧ -

إنْ يكـن فـي الألـوف ربُّ يقيـنٍ نفَـخَ النـارَ فـي شَبـابٍ وشِيْـبِ
ربمـا تنشـىء الصَّحـارى فقيـراً يخلقُ الدرَّ من حصىً في الجيوب[2]
بيـراعٍ لـكَ اكتبـنْ لـك حظّـاً لـم يَخُـطَّ الجبيـنَ ربُّ الغيـوبِ[3]
ذا الفضـاء الـذي يُسمَّـى سمـاءً ليس شيئـاً لـدى العُقـاب النجيـبِ
هـو فـوق الـرؤوسِ يُـدْعـىٰ سمـاءً وهـو أرضٌ تحـت الجنـاحِ الهَبـوبِ

- ١٨ -

أيُّ قـولٍ لشيـرشـاه رشيـدِ فـي اختـلافِ القبيـل ذلّ العبيـدِ[4]
خلعـوا ثـوبَ أمَّـة جَمعتْهـم وازدهـوا بـالـوزيـرِ والمحسـودِ[5]
ذهـبَ الـدِّيـنُ فـي الجبـال شعـاعـاً كـلُّ حـزبٍ للُبـده فـي سجـودِ[6]
حَـرَمٌ فيـه حُـرمـةُ الـلاَّت تـرعـى فحبـاكَ المـولـى بضـربٍ سـديـدِ[7]

= طريقه عقباتٌ .

(١) ليس في الجهاد لذةٌ ما لم تكن فيه حرارةُ الإيمان . وجمرُ المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .

(٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .

(٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .

(٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .

(٦) اللبد : الصَّنَم .

(٧) هذا حرمٌ ولكن فيه أصنام . فالله يوفقك لضربٍ تكسرُ فيه الأصنام ، كما كسر الرَّسولُ=

- ١٩ -

ليس الذي يُدركُ الألوانَ بالبَصرِ ... بل مُغْتَنٍ عن ضياءِ الشَّمسِ والقَمَرِ (١)

يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلَةً ... تَقدَّمَنْ . ليس هذا مُنتهَى السَّفرِ

وحانةُ الغَرْبِ للصَّادي مفتَّحةٌ ... ما السُّكر فيها بعلم العصر بالنُّكُرِ

لك المماتُ بهذا السُّكْرِ مُستترٌ ... إنْ لم يكن فيك للتَّوحيدِ مِنْ شَرَرِ (٢)

هل يَسَمَعنَّ بنو الخانات موعظتي ... في شملةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرِ ؟ (٣)

- ٢٠ -

مقاصدُ الفِطْرةِ العلياء يحفظُها ... مَن عاش في البيد أو في الطَّود إنسانا

يراقبُ السِّحرَ في التمدين يُبطله ... في فقره أودَعَ الخلَّاقُ سُلطانا

للحُسْنِ واللُّطفِ صاغَ الروضُ بلبلَه ... وتُنشىءُ البيدُ للإقدام عِقبانا

يا شيخُ كم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةٌ ... لكنَّ في البيد فاروقاً وسَلْمانا (٤)

هل يعرفُ الدَّهر للإسلام منْ شبَهٍ ... في نشوةٍ تتحدَّى السَّيفَ غضبانا

* * *

= أصنام الكعبة .

(١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .

(٢) لا ضير في أن تأخذ علومَ العصر وتنتشي بها ، ولكنَّ الهلاكَ فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتَّوحيد .

(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثيابٍ خشنةٍ ، لست ملكاً ولا أميراً .

(٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .

الدِّيْوانُ السَّابِعُ

رِسَالَةُ الخُلُوْدِ
جَاوِيدنَامَه

نَقَلَهُ إلَى العَرَبيَّةِ شِعْرًا

الدكتور حسين مجيب المصري

يعتبرُ هذا الدِّيوانُ التُّحفةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢م ، وإنَّه يُبرزُ قُوى الشاعرالفكريَّة وذراها الرفيعة ، وفيه توريةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الدِّيوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أنْ تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّوميِّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثمّ يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليلَه جلالَ الدين الرُّومي إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم الأول يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الروميُّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرةٍ يأكلُ ويشربُ في تأمُّلٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثُه مع الرُّوميِّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافةِ الشَّرقية والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملاً المادِّيات ، بينما الغرب قد ركز على المادِّيات مهملاً الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّوميِّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النَّوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعر إلى وادي جرغميد ، حيث يرى الشاعرُ كتب البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربعِ شخصياتٍ ، فتعاليمُ بوذه تُشْرحُ على لسان فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليم المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشَّاعرُ بعد ذلك إلى « عطارد » حيث يقابل جمالَ الدِّين الأفغانيَّ[1] وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدِّم الرُّوميُّ الشاعرَ على أنَّه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الّذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغانيِّ ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاءَ الّتي ترتكبها أممُ الشَّرقِ خاصَّةَ الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشَّرق والغرب ، ويبيِّن أنَّ إنقاذ وخلاصَ الجنس البشريِّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تزاوج العقل بالعشق .

ويحكي سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنَّهر الحيِّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلاَّ » فقد اقتصرت وظيفتُه على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشَّاعر في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّوميُّ الشاعرَ إلى إقليم يقعُ مباشرةً تحت نهرٍ ، حيث يقيم فرعون وكتشنر ، ويقدِّم فرعونُ الاعتذاراتِ ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحذِّرُ الآخرين كي يكونوا أكثر حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّوميُّ بين « الأتوقراطية »[2] والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المرِّيخ » حيث يقابل فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المريخ مشكلةَ القضاءِ والقَدَر ، وفي رأي الحكيم أنه من

---

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريّين » أصدر والشيخ محمد عبده مجلةَ « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

الممكن بالنسبة للإنسان أنْ يغيِّر قدره ، والإنسانُ يجب أن يحاول أن يحرص على السيطرة التامَّة على القدرة .

وفي **القسم الخامس** ينتقلُ الشَّاعر إلى كوكبِ « المشتري » حيثُ يتقابلُ مع الشَّاعر غالب[1] والصُّوفيِّ منصور الحلاّج[2] وغيرِهم ، ويناقش معهم فلسفة الحياة والموت ، بينما تستمرُّ هذه المحادثة يظهر الشيطانُ على مسرح الأحداث ، ووصفُ الشيطان هنا رائع ، ويحتاجُ إلى دراسةٍ مفصلة .

وفي **القسم السادس** يصلُ الشاعر إلى كوكب « زحل » ، حيثُ يقابلُ أرواحَ المتَّهمين بالخيانة العظمى ضدَّ أوطانهم : مير جعفر من البنغال ، ومير صادق من الدكن ، والاثنان في قارب يكافحان دونما أملٍ ضدَّ عاصفةٍ مثيرةٍ في بحر من الدِّماء ، وفي تلك اللحظة .

وفي **القسم السابع** يصل الشاعر إلى « ما وراء الأفلاك » ، وأول من يقابل ، يقابل نيتشه ، الذي ظلَّ طوالَ حياته يحاول البحث عن الله ، لكنَّه فشلَ ، لأنَّه اعتمد أساساً على العقلِ الَّذي لا يؤدِّي إلى شيء . وبعد نيتشه يطيرُ الشَّاعر إلى قصر عبد الصَّمد حاكم بنجاب ، ثم يقابلُ أخيراً الشَّاعر الشيخ سيد علي همداني ، والشَّاعرُ غنيٌّ من كشمير ، ويشيرُ بعد ذلك إلى بيعِ البريطانيين لكشمير .

---

(١) هو ميرزا أسد الله غالب (١٧٩٧م ـ ١٨٦٩م) كان من أعظم شعراء الأردوية ، قد سبقت ترجمته في الديوان الثالث « رسالة الخلود » .

(٢) هو الحسين بن منصور أبو مُغيث ، كان من عظام فلاسفة الإسلام ، وكبار الصوفيّين الزهّاد ، أصله من البيضاء بفارس ، عاش في خلواتِ الصُّوفية لاسيّما مع الجنيد وسهل التستري ، اتُّهم بالزندقة والقولِ بالحلول ، فحكم عليه ، وسجن ثماني سنوات ثم عُذِّب وصُلِبَ عام ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م له كتبٌ كثيرةٌ ، لم يبق منها إلاّ « كتاب الطواسين » في شرح مذهبه الّذي أنشأ في التصوّف ، وأثارَ حوله الجدل ، فقدّمه البعضُ وكفَّره آخرون .

ويقابلُ الشَّاعر كذٰلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعرالهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوْتَ الإلهيَّ المقدَّس يوضحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يَكْمُنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي القسم الثامن الذي هو الأخير يخاطب فيه الشَّاعرُ الشَّبابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحُهم بتجنُّب الرفقةِ الشرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاحِ المستمر .

وقد نَقَلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذُ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدَّم الآن إلى القراء هذا الدِّيوان في عنوانه الأصل الّذي سمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالةُ الخلود) توريةً إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم » .

***

مُناجاة

إنَّمـا الإنسـانُ فـي دنيـا السَّـراب لا يني عن نوحِهِ شبه الرَّباب[1]
شـوقُـه لِلْخِـلِّ نـارٌ تَضْطَـرِم رقَّـتِ الشَّكـوى ومنهـا كـمْ علـم
عـالـمٌ يحـويـه مـن مـاءٍ وطيـن والهٌ في الصَّدْرِ خفَّاق الوتين ؟[2]
تضُمُّـتُ الـدَّأمـاءُ والبيـدا معـاً وكـذا طـوْدٌ وبـدرٌ لَعْلَعَـا[3]
وذُكـاءٌ وسمـاءٌ حـولهـا كلُّها فـي الـوِقْـر تشكُـو سَمْعَهـا[4]
النُّجـومُ فـي السَّمـاء عِـدَّةٌ كـلُّ نَجْـمٍ أوْحَشَتْـهُ وَحْـدةٌ![5]
مثلُنـا المسكيـنُ أمسى كـلُّ نجم ضـلَّ فـي الـزَّرقـاء مغشيـاً بهـم[6]
مـا أعـدَّ الـرَّكْـبُ زاداً للـرَّحيـل آهِ مـنْ تيـهٍ ومـن ليـلٍ طـويـل
صيـدُنـا الـدُّنيـا ونحـنُ الصـائـدون أوْ أُسـارىٰ مـا تـراهـم يَـذْكُـرون
نحثُّ في الشَّكوى وما منْ مستجيب أيـنَ لـلإنسـانِ خِـلٌّ أو حبيـب
شـاهـدتْ عينـاي يـومـاً أشـرقـا فـي ضيـاءٍ كـلَّ شـيءٍ أغـرقـا
مـنْ جفـولِ النَّجـمِ فـي الـدُّنيـا ظَهَـر بـرهـةً يبـدو ولكـنْ مـا استقـر[7]
مـا لَـدَيْنـا مثـلَ هـذا المُعْجِـبِ مـالـه ظهـرٌ ولا مـنْ مَغْـرِبِ[8]
إنْ أنـارَ الـرُّوحَ ومـضٌ مـنْ سَنَـاه أصبـحَ الصَّـوْتُ كلـونٍ إذ تـراه

---

(١) لا يني : لا يضعف ، ولا يفتر .
(٢) الوتين : عرقٌ في القلب والمراد هنا القلب .
(٣) الدأماء : البحر . والبيداء : الصحراء . والطود : الجبل . ولعلع : لمع وتلألأ .
(٤) ذكاء : الشمس . والوِقر : ثقلُ السمع أو ذهابه .
(٥) العدة : الجماعة .
(٦) الزرقاء : السماء .
(٧) جفل : ندَّ وشرد .
(٨) المعجب : الذي يثير العجب .

بـــدَّدَ الغيــبَ بنــور قــد بــدا ... وعلـى الـدَّهـرِ سيبقـى سَـرْمَـدا[1]
يـا إلهـي مثـلَ هـذا اليـوم هَبْنـي ... إنَّ يـومـي مُـزمَهِـرٌ فلتُغنِْنـي[2]
آيــةُ التَّسخيــر فيمَــنْ أنــزلــت ... هــذه الأفــلاكُ فِيْمَــنْ حَيَّــرت[3]
(علَّــم الأسمــاء) ســرٌّ مــنْ دَراه ... أسكرتْ مِنْ خمرِها أو مِنْ سقاه[4]
مِـنْ جميـعِ الخَلْـقِ منـذا تَصْطَفـي ... فـإليـهِ بُحْـتُ بـالسـرِّ الخَفـي[5]
قَـدْ رَشَقْـتَ الصَّـدْرَ منَّـا بـالسِّهـام ... حرفُ ﴿ادعوني﴾، لمن هذا الكلام؟[6]
لــكَ وجــهٌ هــو قــرآنــي ودينــي ... أتضـنُّ ؟ وعلـى روحـي الحـزيـن
لــو رَمَــتْ ألــفَ شعــاعٍ شمسُنــا ... مـا رأتْ فـي الشَّمـسِ نقصاً عينُنـا
قَيْـدُ هـذا العصـرِ قيـدٌ مـنْ نُهـىٰ ... أيـنَ روحٌ لـي تنـاهـى صبـرُهـا[7]
ويمـرُّ الـدَّهـرُ مـنْ عمـرِ الـوجـود ... كـي نـرى روحـاً ومـا فيهـا خُمـود
أنـتَ مـا لَـمْ تَفْلَـحِ الأرضَ الجديبـة ... لم تنلْ ما كنتَ تبغي مِنْ رغيبة[8]
إنْ نَمَـا مـنْ ذَلـكَ الطِّيـنِ المَهِيـن ... قلــبُ إنســانٍ فــذا كنــزٌ ثميــن
أنــتَ بـدرٌ مـرَّ بـي فـي مَخْـدعـي ... ظلمــةَ الــرُّوحِ تــأمَّلهــا معــي

---

(١) السَّرمد : الدائم .
(٢) ازمهر اليوم : اشتدَّ برده .
(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والثمار ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .
(٤) إشارةٌ إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناسَ التي خلقها ، وعلَّمه أنَّ هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .
(٥) اصطفى : اختار .
(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ؛ أي : اعبدوني أثبكم .
(٧) النُّهى : العقل . وتناهى : بلغ النهاية .
(٨) فلح الأرض : شقها ليزرعها . والرغيبة : الأمر المطلوب .

لـــمْ نُـــنْءِ عـــنْ هشيـــمٍ شعلـــةً أيخـــافُ البـــرقُ ليـــلاً زلـــةً !
عِشْتُ ما قد عِشْتُ لكنْ في الفراق اهــدني ربَّـاه مـزرقَّ الـرُّواق[١]
افْتَحَــنْ كــلَّ بــابٍ لــي هُنــالــك واجْعَـلِ الطِّيـن نَجِيـاً للمـلائـك[٢]
هــاكَ صــدري فيــه أشْعِــلْ لهبــا وَدَعِ العُــوْدَ وأضــرِمْ حَطَبــا
نــحٌ تلــكَ النَّــار عــودي أوقــدَنْ وعلــى الكــونِ دُخــانــي بــدِّدَنْ
أجِّــجِ النــارَ بكــأســي خمــرةً وبغــضِّ الطَّــرفِ هبنــي نظــرةً
قَــدْ طلبنــاكَ ومــا تبــدو لنــا إنَّمــا كــانَ عمــانــا ذنبُنــا
وعــنِ الســرِّ أمِــطْ ســتــراً خفــاه أوْخُــذِ الـرُّوح التــي مــا إنْ تــراه[٣]
دوحُ فكــري لا يُــرجَّــى مــنْ ثمــر أرسـلِ المعـولَ أو ريـحَ السَّحـر[٤]
قَدْ وُهِبْتُ العقلَ فامنحني الجنون واهدِ هذا القلبَ للجذبِ الدَّفين
إنَّمــا للعلــمِ فــي الفِكْــرِ المَقَــام عُــشُّ ذاك العِشْــقِ قلــبٌ لا يَنَــام
وإذا العلــمُ عــن العِشْــقِ انفــردْ مســرحــاً أضحــى لأفكــارٍ تُعَــد
فيــه سِحْــرُ السَّــامــريِّ ظــاهــرُ علمُنــا مــنْ غيــرِ وحــيٍ ســاحــرُ[٥]
بــالتَّجلِّــي عــالــمُ القــومِ اهتــدى مــا رمــاهُ الــوهــمُ فــي جــوفِ الــرَّدى
عيشُنــا لــولا التَّجلِّــي سقمُنــا عقلُنــا مَــسٌّ وجَبْــرٌ دينُنــا
هــذه الــدُّنيــا بهــا بحــرٌ وبــر نحنُ نرنو وهي منْ يروي الخبر

---

(١) مزرق الرواق : السماء .
(٢) يريد بالطين نفسه ؛ لأنه إنسانٌ خلق من طين . والنَّجي : صاحب السر . والملائك : الملائكة .
(٣) خفاه : أخفاه .
(٤) الدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة .
(٥) بعد أن ذهب موسى لميقات ربه ، تحيَّن رجلٌ يسمى السَّامري غيبته ، وأخذ من بني إسرائيل حلي نسائهم ، وألقاها في النار ؛ ليسبك منها عجلاً ، وجعله بحيث يكون له صوتٌ كالخوار ، وخدعَ بني إسرائيل بقوله : هذا إلهكم وإله موسى .

فإلى الدَّار فؤاداً ضلَّ رُد   فِلْقةُ البَذرِ إليه فلتَغْد[1]
من ترابي ما نما إلّا الكلام   وكلامُ الهجر يخلو منْ خِتَام
إنَّني في الكون ذيَّاكَ الغريب   من بعيدٍ فلتقلْ إنِّي قريب
ريثما كالشَّمسِ يُطوى بالغروب   فكلُّ صوبٍ وشمالٍ وجنوب
مِنْ غَدي والأمس إنِّي مُنْطلق   ووراءَ كلُّ نجمٍ استبق[2]
أنتَ نورُ خالدٍ نحنُ الشَّرار   ولنا الأنفاسُ عمرٌ مستعار
قلْ لمن ما مازَ موتاً منْ حياه   أي عبدٍ غارَ منْ صُنْعِ الإله[3]
جابَ آفاقاً وليسَ بالصَّبور   لم يسرَّ بغيابٍ أو حُضور[4]
إنَّني الفاني فهبْ أنتَ البقاء   وأنا الأرضُ أسكنِّي السَّماء
يا إلهي هَبْ فعالي والكلام   كلَّ خيرٍ ، ومسيري للأمام
ليس منْ دنياي هذاك الخطابْ   لا ولا تِلْكَ السَّما هذا الكتاب
إنَّني بحرٌ سكوني لا يليق   أينَ منْ غاصَ على قاعي العميق[5]
وعلى السَّاحلِ دُنيا تستقر   وترى في البحر موجاتٍ تفر
قد يئستُ منْ شيوخِ الأقدمين   ولديَّ عن غدي قولٌ مبين
وعلى الفتيان يسرْ ما أقول   وليكنْ كلُّ عميق كالضَّحول[6]

* * *

(١) فلقة البدر بكسر الفاء : القطعة منه .
(٢) استبق : تسابق .
(٣) ماز الشيء : فرزه عن غيره .
(٤) جاب البلاد : قطعها .
(٥) غاص على اللؤلؤ : غطس يستخرجه .
(٦) الضحول : جمع ضحل ، وهو الماء لا عمق له .

تمهيدٌ سَماوِيٌّ

فــي اليــومِ الأولِ لِلْخَلْــقِ ، تنثنــي السَّمــاءُ علــى الأرضِ بــالمــلام

لِلْحُضــــورِ لــــذةٌ أو لِلْغيـــاب ... وبهــا قــدْ خُلِـقَ الكــونُ العُجـاب

كــانَ لــلأنفــاسِ خيــطٌ فــانْقَطَـع ... بَنَـتِ الحيـرةُ صـرحاً ما انْصَـدَع[1]

حيثُمــا تمـضِ تُشــاهــدْ قــائــلا ... بَعْدَ شوقٍ : لَسْتَ مثلي يا فُلا[2]

علِّمُــوا الأنجــمَ طُـرّاً سَيْـرَهــا ... مَنَحُـوهـا فـي السَّمـاءِ نُـورَهـا[3]

هــذه الشَّمــسُ أقــامــتْ خيمــةً ... زانَهـــا التِّبْــرُ رســومــاً جمَّــةً

أوّلُ الإصبــاحِ فــي الأفــقِ انْبَثَــقْ ... ورأى الكــونَ وليــداً فــاعْتَنَــقْ

كــانَ لــلإنســانِ أرضٌ قــاحلــةْ ... لا تمــرُّ فــي ثــراهــا قــافِلَــةْ

الجبــالُ ليــس فيهــا مــن نَهَــرْ ... والفيـافـي تَحْـتَ غيـم ما انْهَمَـرْ

مــا شَـدَتْ في الغُصْـنِ طيرٌ بـالغِناء ... لا ولا في المَرْجِ سِربٌ مِنْ ظِباء

التَّجَلِّــي غــابَ عــنْ بحــرٍ وبـرّ ... ولهـــا الثــوبُ دخـــانٌ وانْتَشَـــر

فــي ربيــعٍ مــا بَـدَتْ مـنْ خُضْـرَةٍ ... وانْطَـوَتْ تحـتَ الثَّـرى فـي غبـرةٍ

لامَ تِلْــكَ الأرضَ مــزرقُّ الفَلَــكْ ... « ما رأتْ عينٌ كهذا هَيْتَ لك! »[4]

وفضـائـي ليـسَ فيـه مـنْ ضَـرِيـر ... لــكَ نــورٌ مــنْ سِـرَاجـي أيَّ نـور

قــد يطـولُ التُّرْبُ طـوداً فـي السمـا ... لا يضــاهــي فَلَكــاً أو أنْجُمــا[5]

فَلْتعيشــي مثلمــا عــاشَ الجميــلْ ... أوْ فمـوتـي مـن شَنَـارٍ لِلـذَّليـل[6]

فــاعترىٰ الأرضَ مـنَ اللّـومِ الخَجَـلْ ... بَعْــدَ حــزنٍ وضَيــاعٍ لِــلأمَــل

---

(١) الصرح : كلُّ بناء عال .

(٢) يا فلا : ترخيم يا فلان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعالَ .

(٥) الترب : التراب . والطَّوْد : الجبل .

(٦) الشَّنار : العيب والعار .

ومِـــنَ الظُّلْمـــةِ أَضْـــوَاهـــا الألـــم ... ونـــداءٌ جـــاء مـــنْ فـــوقِ القِمَـــم[1]
يـــا أميـنـــاً لَسْـــتَ تـــدري مـــا الخبـــر ... أيَّ بـــأسٍ ؟ ذاتَـــكَ امْنَحْهـــا النَّظَـــر
النَّهـــــارُ نـــــورُه مـــــنْ مُعْتـــــرك ... ليـسَ مـنْ نـورٍ أتـانـا مـنْ فَلَـك[2]
نورُ هذا الصُّبْح منْ شَمْسٍ جريح ... مـنْ صُـروفِ الـدَّهـرِ أنـوارٌ لـروح
نـورُ تِلْـكَ الـرُّوحِ مـاضٍ فـي سَفَـر ... يسبـقُ الشَّمْـسَ شُعـاعـاً والقَمَـر
منْ كتابِ الرُّوح أَسْقَطْتَ « المنى » ... وهي تبدي منْ ثراكَ ذا السَّنا ![3]
يملـكُ العَقْـلُ مـنَ الـدُّنيـا العَنَـان ... ولهـذا العِشْـقِ غـزوُ الـلاَّمكـان
يهتـدي الفِكْـرُ ومِـنْ غيـرِ الـدَّليـل ... عينُـه يقظـى وفـاقَـتْ جِبْـرئيـل !
يـــا لَـــهُ تـــربـــاً يطيـــرُ كـــالْمَلَـــكْ ... ولـــه يَبْـــدُو رِبـــاطـــاً ذا الفَلَـــكْ[4]
يَخْـزُ الـزَّرقـاءَ جسـمٌ فـي المسيـر ... إبـرةٌ قـد خَـرَقَـتْ ثـوبَ الحـريـر
ثـوبُ دُنيـانـا محـا عنـهُ الـوضَـر ... فضَّلَـهُ فـي عينهـا نـورُ البَصَـر[5]
ورقيـقُ الـدِّيـنِ سفَّـاكُ الـدِّمـاء ... وهو كالمِهمازِ في جَنْبِ القضاء[6]
تستنيـــرُ عينُـــه بـــالكـــائنـــات ... لتـرى الـذَّاتَ تَجَلَّـتْ فـي الصِّفـات
مـنْ تَلَظَّـى عِشْقُـه مـنْ حُسْـنِ ذات ... سيـداً أضحـى لِكُـلِّ الكـائِنـات[7]

* * *

(١) أضواها : أضعفها .
(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .
(٣) السنا : النور .
(٤) الرباط : مبنى لنزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .
(٥) الوضر : الوسخ .
(٦) رقيق الدين : الملحد .
(٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة[1]

ويـــومـــاً تبهـــر الصلصـــال نـــوريـــاً بـــأنـــوار
ويـــومـــاً تُضبـــحُ الأرضُ سمـــا مـــنْ نجـــمِ أقـــدار
خَيـــالُ المـــرءِ ظمـــآنٌ ، سيـــولُ الـــدَّهـــرِ تـــرويـــه
ويـــومـــاً خـــارجَ الأفـــلاكِ فـــي أمـــنٍ سَتُلْقيـــه
وفـــي معنـــىً لإنســـانٍ تـــأمَّـــل أنْـــتَ ثـــمَّ اســـأل
ويـــومـــاً بَعْـــدَ تطـــويـــعٍ سَيُمْســـي ذلـــكَ الأكْمـــل
ويعلـــو منْـــهُ شـــأنٌ لـــم يكـــنْ فـــي أمســـهِ شيَّـــا
ويـــومـــاً أنْـــتَ لا تلقـــاهُ عِنْـــدَ الله مَـــرْضِيَّـــا

***

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوحُ روحُ جلال الدِّين الرومي ، وتتناولُ بالشَّرْحِ سرَّ المعراج

شُغْلـةٌ لِلْعِشْـقِ شَبَّـتْ فـي المـدينـة — ضجـةٌ لِلْقَـوْمِ تَطْـويهـا دَفينـة
تَنْشُـدُ الخلـوةَ فـي طَـوْدٍ أشَـم — أو على السَّاحلِ مِنْ بحرٍ خِضَم[2]
مـا وَجَـدْتُ لـي حميمـاً مـرَّةً — فَقَصَـدْتُ البَحْـرَ أُلقـي نظـرةً
ورأيـتُ البَحْـرَ في وقـتِ الغُـروب — زرقـةً فيهـا يـواقيـتُ تَـذُوب
للضَّـرِيـرِ واهـبٌ نـورَ البَصَـرِ — للمسـاءِ مكسـبٌ لـونَ السَّحـر
ثـم نـاجيـتُ طـويـلاً مُهْجَتـي — وطَلَبْـتُ فـي خيـالـي مُنْيَتـي[3]

---

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسيٌّ أصلاً ، ولا يستعملُ إلا رباعياً، غيرَ أنَّ الفرس يستعملونه ثمانياً . وقد أوردناه ثمانياً كما ورد في هذا الشعر الفارسيِّ .

(٢) الطودُ الأشم : الجبلُ المرتفع . البحرُ الخِضَمُّ : العظيمُ الواسع .

(٣) المُهْجةُ : دَمُ القلب . والمرادُ به هنا القلب .

إنَّنـي الفـانـي ومـالـي مـنْ خلـود   وأنـا حـيٌّ ومثلـي فـي اللُّحـود
ظـامـئٌ والنَّبـع عـن ثغـري بعيـد   فـإذا بـي منشـدٌ هـذا النَّشيـد

* * *

غزل

افتَـحِ الثَّغْـرَ لـذةَ الشَّهْـدِ أطْلُـبُ   أظهرِ الخدَّ روضةَ الوَرْدِ أطْلُبُ
هـذه الكـأسُ فـي يـدي وبـأخـرى   شَعرُه ، إنَّ رقصةَ الوَجْدِ أطْلُبُ(1)
فـي دلالٍ تقـولُ قُـمْ أنـتَ عنَّـا   قلْ وكرِّرْ ، فقولةَ القَنْدِ أطْلُبُ(2)
أنـتَ يـا عقـلُ فـانصرِف عـنْ هُـذاءِ   أنْتَ يا عِشْقُ صحوةَ الجدِّ أطْلُبُ(3)
إنَّ تلـكَ الحيـاةِ كـالسَّيْـلِ تمضـي   وأنـا الحـوتُ لُجَّةَ المـدِّ أطْلُـبُ(4)
ذاكَ فـرعـونُ أرْمَـضَ النَّفْـسَ جَـوْراً   نـورَ مـوسـى بليلـةِ البَـرْدِ أطْلُـبُ(5)
طـافَ فـي الليـلِ شيخُنـا بسـراجٍ   قـالَ إنِّـي مـؤجَّـلَ العَـوْدِ اطْلُـبُ(6)
ورفـاقٍ كَـرِهْـتُ مِنْهُـمْ خِصـالاً   رُستمـاً لـي وسيِّـدَ الأسْـدِ أطْلُـبُ(7)

---

(1) يريد برقصة الوجد رقص المولوية ، وهم أتباعُ جلال الدِّين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أنَّ الرَّقص والسماع مما يثير في القلوب لوعةَ العِشْق الإلهي . وسنصفُ رقصهم تفصيلاً في الصفحاتِ الأخيرة من الكتاب .

(2) القَنْدُ : السكر .

(3) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .

(4) اللجة : معظم الماء . والمدُّ : ارتفاع ماء البحر .

(5) ذكرنا ليلة البرد هنا لأنَّ موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح بزَنْدِه فما أخرج الزّندُ ناراً غير أنَّه شاهد ناراً من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(6) العود : العودة وجعلناها مؤجلةً للمبالغة .

(7) رستم : بطلُ الأساطير الفارسية المشتهرُ بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو عليٌّ كرم الله وجهه .

كــم بحثنــا ، وأيَّ شـــيءٍ وجــدنــا
قلــتُ إنِّــي بــرغــمِ ذا الفَقْــدِ أطْلُــبُ

فــوقَ مــاءٍ أغبــرِ المــوجُ نــام ... غابتِ الشَّمسُ وفي الأفقِ الظَّلام
إنَّ منهــا اللَّيْــلُ شيئــاً قــد سَــرَق ... يَشْهـدُ الكـوكـبُ بـالنُّـور ائتلـق
روحُ « رومـي » مـزَّقَـتْ كـلَّ السُّتور ... ولهـا مـنْ خَلْـفِ أطـوادٍ ظُهـور[1]
إنَّــهُ شَمْـسُ الضُّحَـى فـي طَلْعَتِـه ... وشبـابُ شيبـه ، فـي مَيْعَتِـه[2]
وبنـــورٍ ســـرمـــديٍّ قـــدْ أضـــاء ... مـنْ حُبُـورِ الخُلْـدِ غطَّـاه الـرِّداء[3]
شفتــاه فيهمــا ســرُّ الــوجــود ... فـكَّ عنـهُ القَـوْلَ فكَّـاً للقُيـود
إنَّ هـــذا القَــوْلَ مــرآةٌ تــدلَّــت ... وهـو عَلَـمٌ فيـه نـارٌ قـد تجلَّـت
غَيْـرُ مـوجـودٍ ومـوجـودٌ ؟ أجبنـي ... غيـرُ محمـودٍ ومحمـودٌ ؟ أجبنـي
قال لي الموجودُ ما يبغي الظهور ... فـالـوجـودُ يقتضـي هـذا الظُّهـور
للـوُجـودِ زينـةٌ تُـدْعـىٰ « أنــا » ... رغبـةٌ فـي الـذَّاتِ بـرهـانٌ لنـا[4]
ألِفُــوا يــومَ « ألَسْــتُ » مجمعــا ... « أينَ مَنْ يشهد ؟ » قالوها معا[5]
إنْ تكـنْ حيّـاً أو الميـتَ الـدَّفيـن ... أو تَجُدْ بالرُّوح سلْ عن ذا الأمين[6]
شــاهــداً فلتتخـــذْهُ مــنْ شعــور ... أو عيـــونٍ مـــا لهـــا إلاكَ نـــور

---

(١) روميٌّ : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .
(٢) مَيْعةُ الشباب : أوَّله .
(٣) السَّرمديُّ : الخالد . والحُبورُ : السُّرور .
(٤) أنا هنا بمعنى الذَّات أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كلِّية في واقع الأمر ، وتجلِّي الحياة في الفرد ليس إلَّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارةُ الإسلام .
(٥) يُكْثِرُ شعراءُ التصوُّف من الفرس ذكرَ يوم « ألستُ » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
(٦) المراد بهذا الأمين : الشَّاهد .

واجعلِ الثاني شعورَ الآخرين شاهد الذَّاتِ بعينِ الآخرين
ولتكنْ ذاتُ الإله خيرَ شاهد ولها نورٌ به ذاتاً فشاهد
أنتَ إنْ واجهتَ ذيّاكَ الضِّياء نِلْتَ طولًا سرمديّاً للبقاء
الحياةُ هي للذَّات الوصول وهي ذاتٌ ليس يُخفيها سُدول[١]
لم تلائمْ مؤمناً قطُّ الصِّفات ما اختيارُ المصطفى إلا لِذَات
ما هو المعراجُ ؟ مرجاةٌ لشاهد واختبارٌ ، وتراهُ عينُ شاهِد
شاهدٌ عدلٌ وممَّا قاله عيشُنا البستانُ أزهارٌ له
ما لإنسانٍ ثباتٌ في الحضُور أو هو الكاملُ لا يشكُو القُصور[٢]
ذرةً لا تلق من هذا اللَّهيب ثم صُنْهُ مِثْلَ تِذْكارِ الحبيب
أنْ تزيدَ النُّورَ فيك ذاك أخْلَقُ أنْ تضاهيه بشمسٍ ذاكَ ألْيَقُ
جسمَك الباليَ جدِّدْ بالصِّقال واختبرْ ذاتك عِشْ فالعمرُ طال

ليس بالمحمودِ إلا ذو الوجود
عيشُنا لولاهُ ما يعلو الوقُود[٣]

قلت كيفَ نحنُ نمضي قصدُنا الحقُّ لجبالٍ ومياهٍ كيفَ ذا الشقُّ[٤]
وبعيدٌ آمرٌ عن أمرنا والزَّمانُ شَصُّه في حلقنا[٥]
قلت والسُّلطان إمَّا كانَ لك لاستطعتَ اليومَ تحطيمَ الفَلَك[٦]
انتظرْ يوماً تعرَّى الكائنات والغبارُ طالَ منْ ذيلِ الجهات

---

(١) السُّدول : جمع سدل ، وهو الستر . واللام في للذات بمعنى إلى .
(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبيُّ عنده كالحكم العينيِّ . ونقيضُه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيبَ عن نفسه ، ويستطيع مشاهدتها .
(٣) الوقود : النار واتِّقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرِّقٌ متبدد .
(٤) الحق : هو الله جل وعلا .
(٥) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .
(٦) إما : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

الأقــــلَّ لا تـــــرى والأكثـــــرا 		أنــتَ منـه وهـوَ مِنْـك مـا تـرى
قـولُـه ﴿ إلا بسلطـان ﴾ تَـذَكَّـرْ 		أو فَمُتْ في الوَحْل والذرِّ المبعثر[1]
بـــــولادِ أيُّهـــــذا الألمعـــــي 		كنتَ فـي دنيـا الجهـات الأربـع[2]
بـولادِ أنْـتَ قـد تمضـي بعيـدا 		وتفـكَّ عنـك هـاتيـكَ القُيـودا
ليـسَ مِـنْ مـاءٍ وطيـنٍ ذا الـولاذْ 		مـــا دراهُ قـــطُّ إلا ذو فـــؤاذْ
ذاكَ مــنْ جبــرٍ وذا بـــالاختيـار 		ظــاهــرٌ هـذا وذا خَلْـفَ السِّتـار
بـــالبكـــا ذاكَ وذا بـــالابتســام 		بـاحـثٌ هـذا وللثَّـانـي المـرام
ذا سكـونٌ ، سيـره فـي الكـائنـات 		ذاكَ قـطُّ لا يسيـرُ فـي الجهـات
ذا لليـلٍ ولصبــحٍ حـــاجتُــه 		مـــا همـــا إلا لـــذاكَ دأبتــه
مــولــدٌ للطِّفْـل بطنـاً قـد فطـر 		للـرِّجـالِ المـولـد الـدُّنيـا فَطَـر
ودليـــلُ العـــالميْـــنَ فـــي الأذان 		ذاكَ بـالـرُّوح وهـذا بـاللِّسـان[3]

مــولـــدٌ للـــرُّوح حلَّــت جسمَنــا
زَلْــزَلَ الــدُّنيـا فمـاجَـتْ حـولَنـا

قلـــتُ لمـــولـــدٍ معنـــىً لا أراه 		قـال شـأنٌ مـن شـؤونٍ للحيـاه
إنَّمـــا دنيـــاكَ غيـــبٌ أو حضـــور 		ثـابـتٌ هـذا وللثـانـي المُـرور
ولـــذاتٍ ذوبُهـــا فـــي جلـــوةٍ 		وتـــراهـــا جَمَعـتْ فـــي خلـــوةٍ
جلـوةٌ للـذَّات فـي نـور الصِّفـات 		لكـنِ الخلـوةُ مـنْ نـورٍ لِـذَات
عقلُهـــا الـــدَّافـعُ نحـو الجلـوةِ 		عِشقُهـا المـاضـي بهـا لِلْخَلْـوةِ
وإلـى العـالـمِ هـذا العقـلُ جـاء 		كـي يَحُـلَّ اللُّغْـزَ مـن طيـنٍ ومـاء

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .

(٢) الولاد : الولادة . والألمعيُّ : الذكي الحصيف .

(٣) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

كـلُّ جلمـودٍ لــه أضحـى أديبـا ثـم أمسـى البَـرقُ والغَيْـمُ الخطيبـا

عينُــه تــألــف ذوقــاً للنَّظــر لا كعـربيـدٍ جـريءٍ فـي الغَـرَر[1]!

يَـرْهَبُ السَّيْـرَ فيمضـي كـالضـرير نملــةً أنــتَ تــراه إذْ يسيــر

حيـثُ كـانَ العقـلُ فـوقَ القـوَّة أمَّ مَـنْ يهـوىٰ وئيـدَ الخُطْـوَة[2]

أمــرُه شيئــاً فشيئــاً ينتظــمْ فمتــى أمــرٌ لــه يــومــاً يَتـمْ

مـا درىٰ العِشْـقُ شهـوراً مـنْ سنيـن لا ولا حتَّـى قـريبـاً مـنْ شَطُـون[3]

وَيَشُـقُّ العقـلُ شقّـاً فـي الجبـل أو حــواليــه يطـوفُ فـي مهـل

ومِــنَ العِشْــقِ جبــالٌ كـالهشيـم وقلـوبٌ كـالسُّمـوكِ إذْ تعُـوم[4]

إنَّمـا العشــقُ بَيـاتُ الـلأَمكـان والممــاتُ دونَ قبــرٍ لِلْعِيَـان[5]

ليس يقـوى العِشْـقُ مـن ريحٍ ومـاء لا ولا مــنْ قُــوَّةٍ لــلأقــويـاء[6]

خيبــراً نــال بخبــزٍ مــنْ شعيــر شــقَّ ذلــكَ البــدرَ المنيــر

رأسَ نمــرودٍ بــلا ضــربٍ حَطَـمْ جيشَ فـرعـونَ بـلا حـربٍ هـزم[7]

إنَّـه فـي الـرُّوحِ ، فـي العَيْـنِ البصر كــامــنٌ فيهــا وهــا منهــا انتشـر

والـرَّمـادُ العِشْـقُ والعِشْـقُ الضَّـرم يفضـلُ الـدِّيـنَ ومـنْ علـمٍ أهـم

وهــو سلطــانٌ وبــرهــانٌ مبيــن ولــه قــدْ عفَّــر الكـونُ الجبيــن

أمسُنــا والغــدُ وهــو الــلأَزمـان مــا دنــا أو شــطَّ وهــو الـلامكـان

مــنْ إلــهِ الكَــوْن ذاتــاً يطلــب ولــه الكــونُ جــوادٌ يُــرْكَــبُ

---

(١) العربيد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصُّوفي . والغرر : التعرُّض للهلاك .

(٢) أمَّ : قصد . والوئيد : البطيء .

(٣) الشَّطون : البعيد .

(٤) السُّموك : الأسماك .

(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .

(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .

(٧) حطم بمعنى حطَّم .

منــه يبــدو مــا لقلــبٍ مــن مَقــام يبطــلُ الفتنــةَ فــي دنيــا الحطــام
يَهــبُ العشَّــاقُ ربَّــاً نَفْسَهُــم بــاذليــنَ العقــلَ قــربــانــاً لهــم
عاشقٌ أنت ؟ على اللاصَوْب أقدِمْ وعلــى ذاتِــكَ مــوتــاً فلتُحَــرِّم(١)
أنتَ يا منْ أنتَ ميتٌ في الحفير القيــامُ ممكــنٌ مِــنْ غيــرِ صــور(٢)
لــكَ لحــنٌ مُطــربٌ فــي المَسْمَــعِ فــإلامَ منــكَ صــوتُ الضِّفْــدَعِ
المكـــانَ والـــزَّمـــانَ اركَبَـــنْ ذلــكَ الــزُّنَّــارَ عنْــكَ اطْــرَحَــنْ(٣)
اشحَـــذِ الأذنَ واشحَـــذْ عينكـــا مــا تــراهُ عَنْــهُ فــاســألْ عَقْلَكــا
« منْ بسمعٍ منْهُ صوتُ النَّملِ مرَّا فَمِن الدَّهر وعَىٰ للدَّهرِ سرًّا »(٤)
تَخْــرِقُ النَّظْــرةُ لــي كــلَّ الستــور فــي عيــونٍ مــا لهــا ذُلُّ الأسيــر

إنَّمـــا الإنســـانُ هـــذاكَ النَّظْـــر
فبـــهِ مَـــنْ كـــانَ يَهـــوىٰ قَـــدْ غَمَـــر
كــلَّ هــذا الجســم فــاصْهَــرْ فــي النَّظــر
فعليـــكَ وعليـــكَ بـــالنَّظْـــر(٥)

مِــنْ سمــواتٍ تَخــافُ ! لا تَخَــفْ وُسْعةَ الدُّنيا تخاف ! لا تَخَفْ(٦)
الـــزمـــانُ والمكـــانُ فلتشـــاهـــدْ فيهمــا حــالًا لــروحٍ أنــتَ وَاجِــدْ
نظـــرٌ مـــن جلـــوة إمَّـــا سبـــق فــاختــلافُ الغَــدِ والأمــسِ انبَثَــقْ
حبـــةٌ فـــي جـــوفِ طيـــنٍ مظلـــم لا تـــرى عُلـــو الفضـــاء الأعظـــمِ
وهـــي لا تـــدري قـــريبـــاً أنَّهـــا قـــد تمـــدُّ فـــي السمـــاء غصنَهـــا

(١) الصَّوب : الجهة .
(٢) الحفير : القبر .
(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .
(٤) هذا البيتُ للشاعر الفارسي جلال الدِّين الرُّومي .
(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .
(٦) الوسعة : الاتِّساع .

ولهـــا الجـــوهـــرُ نعـــرقُ للنمـــاء
ومقـــامٌ ، وهمـــا أيضـــاً ســـواء[1]

قلـتَ إنَّ الجسـمَ لـلأرواحِ مَحْمِـل أبصـرِ الـرُّوح وعـن جسـمٍ فَمِـل[2]
إنَّمـا الجسـمُ تعلـك الـرُّوح حـال قـولُـك المحمـل زوراً ومحـال
ما هي الرُّوح؟ احتراقٌ بالوجيب وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرَّحيب[3]
واعتيـادُ اللـونِ والـريـحِ والجسـد والمَقَـامُ فـي الجهـات بـالعـدد[4]
القـريـبُ والبعيـدُ فـي الضميـر إنمـا المعـراجُ تغييـرُ الشُّعـور
في الشُّعـور ذاك مـن جـذبٍ وشـوق خلِّصـنَّ الـذَّات مـن تحـتٍ وفـوق

ليـسَ هـذا الجسـمُ للـرُّوح النَّظيـرا
والتُّـرابُ مـانعـاً مـن أنْ نطيـرا[5]

***

« زروان » وهو روحُ الزَّمان والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي[6]

دبَّ فـي روحـي فتـورٌ مـنْ كـلامـه زئبـقٌ ذرَّاتُ جسمـي مـنْ أمـامـه[7]

---

(١) النماء : النمو ، يقول : إنَّ الحبة هي جوهرها .
(٢) المحمل : شقَّان على البعير يُحمل فيهما العدلان .
(٣) الوجيب : خفقان القلب .
(٤) المقصود بتلك الجهات الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .
(٥) التراب هنا هو مادة جسم الإنسان .
(٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمانُ المطلق . وعند بعض المجوس : الذين يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنَّ هذين الإلهين ظهرا من زروان ، ويُعرفون بالزروانيَّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .
(٧) يعني بقوله : إنَّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَغْتـةً شـاهـدتُ بيـن الخـافقيـن || السَّمـاءَ فـي غمـامٍ كـاللُّجيـن[1]
مَلَـكٌ يَهْبـطُ مـن هـذا الغمـام || طلعتـاهُ فـي البيـاضِ والقَتَـام[2]
هـذه كـاللَّيـلِ والأخـرى مُنيـره || هاهما يقظىٰ ووسنىٰ كالضَّريره[3]
فـي الجنـاحِ حمـرةٌ أو صفـرةٌ || ولُجَيْـنٌ أزْهَـرَتْـه خُضْـرةٌ[4]
فـي طبـاعٍ منـه سَرْبٌ للخَيَـال || بيـنَ أرضٍ ونجـومٍ فـي انتقـال[5]
فتـراهُ كـلَّ يـومٍ فـي سمـاء || لجنـاحَيْـهِ جـديـدٌ مـن فضـاء
قـال زروان أنـا الـدُّنيـا قَهَـرْتُ || وأنـا مـنْ قَـدْ ظَهَـرْتُ واختفيـت
كـلَّ تـدبيـرٍ بتقـديـرٍ رأيتُـه || كـلَّ حـيٍّ فـي شبـاكـي قـد حملتـه
إنَّ بـي للـزَّهـر فـي الغُصـنِ النَّمـاء || وَلِتلْـكَ الطَّيـرِ فـي الـوَكْـرِ الغَنَـاء
تُصْبـحُ الحبَّـةُ إنْ طِـرْتُ الغُصـونـا || وبفيضـي الـوَصْـلُ نـالَ العـاشقـونـا
وأنـا مـنْ لـي العتـابُ والخِطـاب || أُظمـىءُ الظَّـامـي وآتـي بـالشَّـراب
الحيـاةُ والممـاتُ والنُّشـور || وأنـا النَّـارُ وجنَّـاتٌ وحُـور
في يدي الإنسانُ بل كلُّ الملائك || وبنـيَّ عـالـمٌ مـنْ فيـه هـالـك[6]
مـا قَطَفْـتُ مـنْ ورودٍ فهـو لـي || أمُّ مـا لِنَـاظِـرَيْـك يَنْجَلـي
إنَّمـا الـدُّنيـا أسيـرٌ فـي طلسمـي || وتشيـخُ فـي زفيـرٍ مـنْ فَمـي
« لـي مـع الله » حـديـثٌ مـنْ وعـاه || سـرى المغمـورُ فـي لَبْسٍ وَعـاه[7]
إنْ أردتَ لـي رحيـلاً مـنْ هنـالـك || « لـي مـع الله » اذكـرنَّ فـي فـؤادك

---

(١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الفضة .
(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقتام : السَّواد ، والظلام .
(٣) وسنى : نائمة .
(٤) أزهر المصباح : أضاءه .
(٥) سرب سرباً : مضى في الأرض على وجهه .
(٦) الملائك : الملائكة .
(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أيُّ شـيءٍ كـان لـي مـن رؤيتـه — قد نسيتُ عـالمي مـنْ قُـدرتـه
عــالمــاً آخــرَ أبــدي يــا تــرى — أو كــأنَّ عــالمــي قــد غيَّــرا !
بَيْــنَ ألــوانٍ وريــحٍ قــد قَضَيْــتُ — وإلـى دُنيـا الكـونِ قَـدْ مَضَيْتُ[1]
وأنـا عـن عـالمـي هـذا انقطعـتُ — عــالمــاً آخــرَ إنِّــي قــد مَلَكْــتُ
لِضَيـاعِ عـالمـي إنِّـي حَـزِنْـتُ — مـنْ تُـرابـي غيـره هـا قـدْ وَجَـدْتُ
خفَّ جسمي ، ذاك روحي ما استقر — وبقلبـــي زادَ نـــورٌ للبصـــر
والخفـايـا مـا عليهـا مِـنْ حِجَـاب — والنُّجـومُ لحنُهـا لحـنٌ عُجـاب

***

زَمْزَمةُ[2] النُّجوم

عقلُــكَ الحــاصــلَ كــانَ للحيــاة — لـكَ عشْـقٌ هـو سـرُّ الكـائنـات
فتعــالَ ، أنــت يــا هــذا التُّــراب — مـرحبـاً ولتمـضِ فـي دنيـا الجهـات
وعليـكَ المشتـري والـزُّهْـرةُ الحسـ — ـنـاءُ كـانـا فـي شـديـدٍ مـنْ نِـزاع
رغبــةٌ فــي نظــرةٍ منْــكَ أثــارتْ — ما أثارتْ من تجلِّي المعجزات[3]
وطــريــقٌ للحبيــب ، كــم جـديـدٍ — وجــديــدٍ فيــه يبــدو للتَّجلِّــي
إنَّمـــا هـــذا الحنيـــنُ للـــوحيـــد — فـي قلـوبِ العـاشقيـنَ الشَّيقـات[4]
الحيــــاةُ إنَّهـــا هـــذا الصفـــاء — الحيــــاةُ إنَّهـــا هـــذا النَّمـــاء

---

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .
(٢) الزمزمة : الترنُّم ، أو التكلُّم بصوتٍ خفي . وقد آثرنا أن نترجم هذه المنظومة على نسقها في أصلها .
(٣) الزُهرةُ: كوكبٌ معروفٌ وقد سكنت الهاء فيها لضرورة الشعر . يقول الشَّاعر : إنَّ رغبةَ المشتري والزهرة في نظرةٍ منك إليهما وهما المتنافسان عليك ، مما أثار هذا التجلِّي .
(٤) الشيق : المشتاق .

الحياةُ مُلكُ ربي ، باعدِ الـ ـخطو سريعاً ولْتَسِرْ حتّى الفناء[١]
غزلٌ إنْ شاقَ منك النفس يو ماً فله رَجْعَ الصِّياح ، امْتَحَنْ
شحْنةَ السُّلطان يبدو ثمَّ خـ ـميرا بحانٍ ، جرَّةَ الرَّاح امْنَحَنْ[٢]
في العراقِ والشآم بلْ وهنـ ـد ثم فرس ، يألفون الطَّعْمَ حلوا
هؤلاءِ يطلبونَ الحُلْوَ دوْ ماً ، طعم هذا العِشْقِ مرّاً ، امنْحَنْ
كي يمورَ البحر بالأمواجِ موْ راً وهو طامٍ في عُرامٍ واحتدام[٣]
متعةٌ للسَّيْلِ يجري بالهديـ ـر منْ حَدُورِ السَّهل نهراً ، امْنَحَنْ[٤]
الفقيرُ كانَ ناراً كلُّ مُلـ ـكٍ ليس إلا من غُثاء ، فاعْلَمنْ
الملوكُ حَسْبُهُمْ في بطشهم منْ مُعْدَمٍ رَفْعَ النِّداء ، فاعْلَمنْ[٥]
إنَّ للصُّوفيِّ عزّاً يا له عزّاً ، وهذا المُلْكُ للإسكندرِ
إنَّ للصُّوفيِّ جذباً من كليـ ـم الله ، لكنَّ ذاكَ سِحْرُ السَّامري
يُقْتلُ الصُّوفيُّ بالعينين لـ ـكنَّ الملوكَ بالجيوش قَتْلُهم
ذاكَ يبغي السِّلْمَ والصُّلْح وهم يبغون بالهيجاءِ حُكْمَ الجائر[٦]
ذا وذاك يا لعمري يفتحا ن عالَمَيْن ، والدُّوام بُغيةٌ
ولهذا كانَ قولٌ ليِّنٌ لكنْ لذاكَ كان عنفُ القاهر[٧]

---

(١) النماء : النُّموُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .

(٢) الشِّحنة : من يقوم للسلطان بضبط اليد . والخمير : من يُدمن شرب الخمر . والرَّاح : الخمر .

(٣) يمور : يضطرب . الطامي : الممتلىء الجائش . العارم : العنف والشدَّة . والاحتدام بهذا المعنى .

(٤) الهدير : صوت أمواج البحر . والحَدُور : المكان ينحدر منه .

(٥) الغثاء : ما يحمله السيل من القش واليابس من أوراق الشجر . يقول : إنَّ للفقير ناراً تحرق الملك قشاً وصوت الفقراء إذا ارتفع بالشكوى قوَّض ملك الملوك .

(٦) الهيجاء : الحرب .

(٧) أي أنَّ الصوفي والملك كل منهما له عالم يفتحه ، وإنِ اختلف هذان العالمان ، وكيفية=

فتعــالَ وتقــدَّم ، قبضــةُ الصُّــوفــي قــدُم ، سَــدَّ ذي القــرنيــن حَطِّــمْ
أحــي مــا كــان لمـوسـى مــنْ رســو م، ليس هذا السِّحْرُ غَيْرَ المَيْنِ، حَطِّمْ[1]

* * *

= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .

(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنَّه كان نبياً . وسمي ذا القرنين لأنَّه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان ، أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمِّي ذا القرنين لقرنين على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلمح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من قائل : ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .

القسم الأول

فَلَكُ القَمَر

فلكُ القمر

إنَّمــا الأرضُ لــربــي والسَّمــاءُ　　الثــريَّــا مــا ورثنــا والضِّيــاء
كــلُّ مــا للنَّــاظِــرَيْــنِ قــدْ بــدا　　بعيــونٍ لصفــيٍّ فــاقصــدا
لا تَسِـرْ مِثْـلَ الغـريـب فـي ديـارك　　لا تَخَـفْ مـنْ غُـرْبـةٍ مَـرَّتْ ببـالـك
إنَّ منْــكَ القــولَ كــلٌّ يَمْتثــل　　وبــأمــرٍ أو بنهــيٍ قــدْ عَمِــل
عــالــمٌ لِلْعَيْــن والأذنِ الصَّنــم　　والرَّدى ما كانَ في الدُّنيا اخترم(١)
أشْبِـه المجنـونَ فـي وادي الطَّلـب　　كُـنْ كـإبراهيم فـي قـومٍ وَكَـبْ(٢)
إنْ طَـوَيْـتَ الأرضَ طيّـاً والسمـاء　　عـالميـكَ اطـوِ علـى حـدٌّ سـواء
غيـرَهـا سبعـاً مـن الله اطْلُبَـنَ　　كـمْ زمـانٍ ومكـانٍ تَسْـألَـنْ(٣)
خـارجَ الـذَّاتِ بشـطِّ الكـوثـر　　لا تـرى خيـراً وشـرّاً ينبـري(٤)
لـو بكـفٌ الـذَّاتِ عـن بحثٍ أمـان　　كـانَ هـذا القَبْـرُ خيـراً مـن جِنَـان

وتمـوتُ الـرُّوحُ مـنْ طُـولِ المَقَـام
أيُّهـا الـرَّاحـلُ ، فـامـضِ لـلأمـام

ومَـعَ النَّجْـمِ تطيـبُ سفـرتُـك　　حبَّـذا مـنْ غيـرِ وقـفٍ رحلتُـك
حيـنَ كـانَـتْ فـي الفَضَـاءِ وطـأتـي　　مـا عَـلا ألقيـتُ تَحْـتَ نَظْـرَتـي

---

(١) اخترمه الموت : أخذه .
(٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولهه العشق حتى اختلط عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق الإلهي . ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه وحطَّم أصنامهم .
(٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرةً من الأزمنة والأمكنة .
(٤) انبرى : تعرض .

هـذه الغبـراءُ قنديـلُ اللَّيـالـي   وعلـى رأسـيَ ظِلِّـي قـد بـدا لـي
واقتـربـتُ فـي صُعـودي واقتـربـت   وعلـى البَـدْرِ جِبَـالًا قـد رَأَيْـت
قَوْلَةَ « الرُّومي » : بدذْ كلَّ شك   وتـرسَّـم مـا تـراهُ لِلْفَلَـك[1]
يَبْعُـدُ البَـدْرُ ولكـنْ تـألفُـه   منـزلًا فـي نهجنـا ذا نعـرِفُـه[2]

ليلُـه والصُّبْـحُ فيـه مـا يُـرى
فيـهِ غِيْـرَانٌ لإعجـابِ الـورى[3]

يـا لصمـتٍ ولـرعـبٍ فـي الجبـل   ظهـرُه الأخـدودُ والجـوفُ اشتعـلْ
فتـأمَّـلْ « خـافطيـن » و« يلـدرم »   والـدُّخـان فـوقَ نـارٍ تَضْطـرمْ[4]
مـا زكـا عشـبٌ بِتِلْـكَ الأرضِ قـط   لا ولا طيـرٌ جنـاحـاً قـد بَسَـطْ
الجهـام ، والـرِّيـاحُ العـاصفـات   ناشبتْ حرباً لها تِلْك الموات[5]
عـالـمٌ مـا فيـه مـن لـونٍ وصـوت   لا حيـاةَ فيـه أوْ آثـارَ مَـوْت
ليـس فـي بطـنٍ لـه أصـلُ الحيـاة   لا ولا في الصُّلْب سَيْرُ الحادثاتِ
وسليـلٌ لـذُكـاء ذا الـوجـودْ   لانقـلابٍ قـطُّ مـا كـانَ الـولـودْ[6]
قولة : « الروميِّ » : تابعْ خَطْوَتَكْ   وعلـى مـا نِلْـتَ شـدِّدْ قَبْضَتَـكْ
مـا اختفـى يَفْضـلُ فيـه مـا ظَهَـرْ   ولـدَيْنـا فيـهِ كـانَ المُسْتَقَـرْ
يـا ذكـيَّ اللُّـبِّ كـلُّ مـا حَصَـلْ   فبسمعيـكَ اخْتَجِنْـهُ والمُقَـل[7]
تَظْهـرُ الـدُّنيـا لعيـنٍ بـاصـرة   إنَّهـا الميـزانُ وهـي النَّـاظـرة

---

(١) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسَّم الدار : نظر إلى آثارها وتأمَّلها .
(٢) المنزل : مكان النزول . والنَّهج : الطريق .
(٣) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والورى : الناس .
(٤) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .
(٥) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .
(٦) ذُكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .
(٧) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجن الشيءَ : جذبه إليه .

أينمـا يَحْملـكَ مـولانـا انْطَلـقْ لا تفكّـر فـي سـواه واصطَفِـقْ »[1]

ثـم شُـدَّ الكـفَّ منـي فـي مَهَـلْ

وإلـى غـارٍ حثيثـاً قـد وَصَـلْ

***

الحكيم الهنديُّ الذي آثر الخلوة في غارٍ منْ غيرانِ القمر

ويسميه أهل الهند « صديق النَّاس كافة »

كضـريـرٍ قـادنـي هـذا الـرَّفيـق ودخلـتُ ذلـكَ الكهـفَ العميـق

مـن ظـلامٍ فيـه ذا بـدرٌ ملـول تحملُ المصباحَ شمسٌ للدُّخول !

وعـذابـي طـال فـي وهمـي وظنِّـي وكـأنَّ العَقـلَ منِّـي مـاتَ عنِّـي

ومَضَيْـتُ واللُّصـوصُ فـي الكَميـن مـا بقلبـي الصِّـدقُ أو بَـرْدُ اليقيـن

جلـوةٌ لاحـت لعينـي فـي جـلاء ظَهَـرَ الصُّبْـحُ ولـم تَبْـزُغْ ذُكـاء[2]

هـذه الأحجـارُ عبَّـادَ الصَّنـم أرضُ جـنٌّ نخلُهـا مِثْـلُ الأكَـم[3]

كـانَ مـنْ مـاءٍ وطيـنٍ ذا المَقـام أو خيـالـي يتهـادىٰ فـي المنـام[4]

النَّسيـمُ مثـلُ خمـرٍ تُسْكـرُ والظِّـلالُ ومـضَ نـورٍ تُظْهـرُ

مـا رأيـتُ قُبَّـةً مـنْ لازَوَرْدِ لا ولا في الأفقِ من ألوانِ وردِ[5]

مـا أقـامَ النُّـور فـي أسـرِ الظَّـلام وامَّحـى صُبْـحٌ وليـلٌ مـن قَـتَـام[6]

---

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذُكاء : الشمس .

(٣) الأكم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللاَّزَوَرْد : حجر تشبه زرقته زرقة السماء .

(٦) القَتام : السواد والظلام .

وحكيـمُ الهِنْـدِ فـي ظـلٍّ جلـس عينُـه فـي الكُحْـلِ نـورٌ لِلْغَلَس[1]
جِسْمَـهُ الـوهنـانَ عـرَّى كلَّـه حيـةٌ بيضـاءُ تسعـى حَـولَـه
وعلـى الإنسـانِ مـن طيـنٍ مفضَّـل صـورةُ تلك الـدُّنـى ممَّـا تخيَّـل[2]
لا يَعُـدُّ الـوَقْـتَ أيـامـاً تمـرُّ والـزَّمـانُ لا يفيـدُ أو يضُـرُّ
قـال للـروميِّ مـنْ هـذا الـرَّفيـق ؟ منيـةُ الـدُّنيـا بعينيـه البـريـق !

***

الرُّوميُّ[3]

إنَّـه الجـوَّالُ فـي وادي الطَّلـب يُشْبهُ السيَّار في السَّيْرِ اضطرب
غِـرَّةٌ منهـا لـه رأيٌ سـديـد وعلـى عيـبٍ لـه إنِّـي شَهيـد[4]
كـأسُـه قـد أصبحـت قـوسَ السَّمـاء فِكْـرهُ يبغـي إلـى الـوحـي انتمـاء
كـالعقـابِ صَيْـدُه للنَّيِّـرَيْـن فـي السَّمـاءِ طـوفُـه بـالخـافِقَيْن[5]
كلَّـمَ الأرضَ كمَـنْ نشَّـى بـدَن والجنـانُ عِنْـدَهُ بيـتُ الـوثَـن[6]
لـدخـانٍ مِنْـهُ نـارٌ فـي صعـود ورأيـتُ الكبـريـاءَ فـي سجـود
نـاحَ كـالنَّـاي لِفَـرْطِ الاشتيـاق وقتيـلٌ فـي الـوِصَـالِ والفِـراق
لسـت أدري السـرَّ فـي صَلْصـالـه
والمَقَـامَ ، والـذي فـي منـزلـه

***

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٢) الدُّنى : جمع دنيا .
(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .
(٤) الغرَّة : الغفلةُ وعدم التجربة .
(٥) النيِّران : الشمسُ ، والقمر . والخافقان : المشرق والمغرب .
(٦) نشَّى : سكر . والدَّن : جرَّة الخمر . والفرس يشبهون الحسناء بالوثن أي الصنم في الحسن .

جهان دوست

ما لِرَبِّ الكونِ لونٌ ، وهُوَ لون
أيُّ ربٍّ أيُّ إنسانٍ وكَوْن ؟

الروميُّ

إنَّما الإنسانُ سَيْفٌ لِلإلٰه ... ذلكَ الكَوْنُ مسنٌّ قد تراه
شاهدَ الشَّرقُ الإلهَ وَحْدَهُ ... وأشاحَ الغَرْبُ عَنْهُ خَدَّهُ[1]
أنْ ترى الله بعينيك التُّقاة ... أنْ ترى الذَّاتَ ولا سِتْرَ الحياة[2]
وإن العبدُ من الدُّنيا انعتق ... رحمةَ الرَّحمن بالعبدِ اسْتَحَق
إنْ غَفَلْتَ ذاتَ يومٍ عنْ قَدَر
فارق الصَّلْصَالَ روحٌ ذو شَرَر

جهان دوست

في طِلَسْمٍ للوُجودِ والعَدَم ... ذلكَ الشَّرْقُ بسرٍّ ما ألم
ما لنا أهلَ السَّما إلا النَّظر ... في غدٍ للشَّرقِ تحقيقُ الوَطَر
شاهَدَتْ عيني على رأسِ الجبلْ ... مَلَكاً منْ قُبَّةِ الزَّرقا نَزَلْ
كانَ منْ عينيه ذوقٌ للنَّظَر ... وهو بالعينين دنيانا غَمَر
قلتُ سرّاً عن صفيٍّ لا تكنْ ... أرضُنا كيف تراها اذْكُرَنْ
حُسْنُ نجمٍ لاح في أُفُقٍ عَشِقتا ... في قليبِ السِّحر قلباً قَدْ رميتا[3]

---

(١) أشاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .
(٢) التقاة : التقوى .
(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي نكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان كانا يُعلِّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنَّهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين في بئر . كما قيل : إنَّهما مثالٌ لرجلٍ اتقى ربَّه ، واقترب منه ، ثم أضلَّه الشيطان .

قـال يَبْـدُو الآنَ هـذا المَشْـرِقُ شَمْسُـهُ الأخـرى عليـهِ تُشْـرِقُ
يَظْهرُ الياقوتُ منْ صَخرِ الطَّريق يوسفُ يخرجُ منْ جُبٍّ عميق(١)
ويـولِّـي عـن ديـارٍ مـنْ كَفَـرْ ليـرى عـن ذلـك الكُفْـرِ المَفَـرْ(٢)
حبَّـذا شعـبٌ بـروحٍ قـد خَفَـقْ ذاتُـه مـنْ طينـه هـذا خُلِـقْ

حـامـلُ العَـرْشِ بـأعيـادٍ فَـرِحْ(٣)
إنْ رأى للشَّعْـبِ عينـاً تَنفتـحْ

غاصَ شيخُ الهندِ في صمتٍ قليلا فـرآنـي تِهْـتُ فـي فهمـي مَلـولا
قال : موتُ العقلِ ؟ قلتُ : تركُ فِكْرِ قال : موت القلب ؟ قلتُ : تركُ ذكرِ
قال : جسم ؟ قلت : تُرْبٌ قد تراه قـال : روح ؟ قلـت : رمـزٌ لـلإلـه
قـال : والإنسـانُ ؟ أبـدى سـرَّه قلت : كونٌ ؟ قال : وَجَّهَ شَطْرَه(٤)
قال : علم؟ قلتُ : قشرٌ لا يَطيب والـدَّليـلُ؟ قلـتُ : وجـهٌ للحبيـب
قالَ : ما دينُ العوام؟ : ما سمعنا قـالَ : ديـنُ العـارفيـن؟ : مـا رأينـا

طـابَ نفسـاً قـرَّ عينـاً مـن مقـالـي
صفـوةً مـن حكمـةٍ ألقـى ببـالـي(٥)

* * *

---

(١) الجبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثره أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم يبكون مدَّعين أنَّ الذئب أكله . وجاءت قافلةٌ ، فلما أدلوا الدلو في الجبِّ تعلَّق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(٢) في الأصل إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وما جاء عنه في سورة الأنعام وهو ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٣) حامل العرش : أحد الملائكة الذين يحملون العرش .

(٤) الشطر : الجهة والناحية . وشطره منصوب على الظرفية .

(٥) صفوة الشيء : خلاصته وخياره . والبال : القلب .

تسعُ كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليــس يُخْفــي عــالــمٌ ذاتَ الإلــه
غــائصــاً مــا رَدَّ رَسْــمٌ فــي الميــاه

* * *

أنــتَ إنْ فــي غيــر ذي الــدُّنيــا وُلِــدْتُ
بشبــابِ غيــرِ هــذا قــد نَعِمْــتُ

* * *

بعــد مــوت ربِّنــا ، وهــو الحيــاةْ
لا يُحــسُّ العَبْــدُ شيئــاً بــالــوفــاةْ
نحــنُ طيــرٌ بجنــاحٍ لا تطيــرْ
علمُنــا بــالمــوت مقطــوعُ النَّظيــرْ

* * *

إنَّمــا الــوقــتُ سمَــامٌ فــي الشِّهــاذْ[1]
رحمــةٌ فــي قَهْــرِ قَهَّــار العِبــاذْ
ويلــوحُ قهــرُه فــي كــلِّ صــوبْ
رحمــةٌ فيــه مَضَــتْ مــنْ غيــرِ أوبْ

* * *

إنَّمــا المــوتُ كفــورٌ يــا حكيــم

---

(١) السِّمام والشِّهاد : جمع سُمٍّ وشَهْد .

أنـــتَ إنْ جـــاهـــدتَ أمـــواتـــاً مُليـــم[1]
ومـــع النَّفـــس التقـــىٰ فـــي قِتَـــالْ
يـــا لـــهُ الليـــثُ الهَصُـــورُ والغَـــزالْ[2]

* * *

كـــافـــرٌ صـــاحـــي الفـــؤادِ ذو صَنَـــمْ
يفضُـــل المـــؤمـــنَ نـــامَ فـــي الحَـــرَمْ

* * *

عَميَـــتْ عيـــنٌ رأتْ غَيْـــرَ السَّـــداد
لا تـــرىٰ الشَّمْـــسَ الليـــالـــي فـــي ســـواد
صحبـــةٌ للحـــبِّ والطيـــن النَّمـــاء
صحبـــةُ الإنســـانِ والطِّيـــن الشقـــاء
يـــرتضـــي الحـــبُّ مـــن الطِّيـــن العـــذاب
ليـــرى النُّـــور كتبـــرٍ فـــي انْسكـــاب
قـــد ســـألـــتُ الـــوردَ ذا الصَّـــدرِ الجـــريـــح
أيُّ حســـنٍ لـــك مـــنْ طيـــنٍ وريـــح ؟
فـــأجـــابَ : يـــا حكيمـــاً مـــا شَعَـــرْ
بخُمـــودِ البَـــرْقِ هـــل يـــأتـــي الخَبَـــرْ !
روحُنـــا فـــي الجســـم جـــذبٌ وانْجـــذاب
منـــكَ مـــا يخفـــى لـــدينـــا كـــالسَّـــراب[3]

---

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : الملوم .
(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .
(٣) يقول : إنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي أما جذبنا فظاهر .

تَجَلِّي سُروش[1]

أوصد العارفُ باباً للكلام ... أسْكَرَتْه الذَّاتُ لا تِلْكَ المُدام
إنَّه بالشَّوْقِ والذَّوْقِ انْجَذَبْ ... في وجودٍ من شهودٍ قد وَقَبْ[2]
بالحضورِ مِنْهُ ذراتٌ كطور ... أوْ فلا نورٍ ولا حتَّى ظُهُور[3]
في أساطير الليالي غانِيَهْ ... كوكبٌ منهُ الظَّلامُ حَالِيَهْ[4]
شعرُها المِعْطارُ حتَّى خَصْرِها ... والسُّهوبُ نورُها مِنْ نُورِهَا[5]
وهي في سُكْرِ التَّجلِّي أغرقت ... وتَغَنَّتْ ما بكأسٍ أسْكَرَتْ
ولديها دارُ مصباحِ الخيال ... فلكاً كمْ دَارَ في الدَّهر الطُّوال[6]
فيهِ تبدو كلُّ ألوانِ الشُّكُول ... نَمِرٌ يَفْرِسُ أو صقرٌ يَجُول[7]
قلتُ للرُّوميِّ بالسرِّ العليم ... اكشفِ الأسرار ، لي فهمٌ سقيم
قال : « ذا الجسمُ لُجَيْنٌ يَلْمعُ ... وهو في فكرِ الإله يَنْبُعُ »
ثُمَّ حنَّ الشوقُ فيه للظُّهور ... فأتى الدُّنيا خلَتْ منْ كلِّ نُور
ومن الغُربةِ كان ذا نَصِيب ... كلُّنا يا صاحِ في الدُّنيا غَرِيْب[8]

---

(١) سروش : اسمُ ملك في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتق منْ : سراوشا ، بمعنى السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواحِ في الآخرة .
(٢) وقب : دخل .
(٣) الطور : الجبل .
(٤) الغانية : المرأة التي يغنيها حسنها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلي .
(٥) المعطار : من تعود أن يتعهَّد نفسه بالعطر . والسُّهوب : جمع سَهْب ، وهو السَّهلُ المنبسط .
(٦) مصباح الخيال : مصباحُ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباح يُدار حوله ستار فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .
(٧) الشُّكول : جمع شكل . وفرس النمر : افترس .
(٨) يا صاح : بمعنى يا صاحبي .

عـرفـوه بسُـروش ، كـالمـلائـك أبعـدَ الحـسَّ وقـد أدنـى كـذلـك
فتـحَ البُـرعـوم منَّـا بـالنَّـدى وبـأنفـاسٍ رمـاداً أوقـدا[١]
منـه ألحـانٌ لأوتـارِ القـريـض وشقـوقُ السِّتْـر بـالبيـتِ الأريض[٢]
ثـمَّ غَنَّـى فشَهِـدْتُ عـالمـا
أسْمَـعُ الألحـانَ جمـراً مُضْـرَمـا

* * *

لحنُ سُروش

أخشـى عليـكَ ركـوبَ بحـرٍ مـنْ سَـراب
وكمـا وُلِـدْتَ العُمْـرَ تطـوي فـي الحجـاب[٣]
لِلْفَخْـرِ كحـلٌ عـن جفـونـي أغْسِلُـه
فـأرى مصيـرَ الشَّعْـبِ فـي هـذا الكتـاب[٤]
فـي كـلِّ صَـوْبٍ انْطـواءٌ لاحَ لـي
لِلْبَـرْقِ كـانَ المـوتُ فـي جـوفِ السَّحـاب
فـي الغَـرْب كُنْـتُ وقلَّمـا عينـي رأت
مـنْ كَـانَ ذا لحـنٍ تجـافـىٰ عـنْ حِسَـاب
دُنْيـاكَ فـامِلِـكْ إنْ أرَدتَ القُـرْبَ لـك
الـروضَ خُـذْ يـا عطـره فـي المـاءِ ذاب[٥]

---

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تتفتح .
(٢) الستر هنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .
(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعدُّه حجاباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .
(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .
(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من مأثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر=

مـــا أنْــــتَ إلا للفَنَـــا يـــا زاهـــداً
أنَسِيْـتَ طـوفـانـاً تـوارى فـي الحَبَـاب[1]
اللحـــنَ تَنْمـــعُ مـــا تـــرى مِـــنْ مُطْـــرِبِ
حـــوريـــةٌ قـــد غُـــرِّبـــتْ تُبْكـــي الـــرَّبـــاب

* * *

الرحيل إلى وادي يرغميد
المسمَّى عند الملائكة وادي الطواسين[2]

إنَّمـا الـرومـيُّ لِلْعِشْـقِ الـدَّليـل ... قــولُــه للظَّــامئيــنَ السَّلْسَبيــل
قـالَ : « إنَّ النَّـارَ إنْ كـانَـتْ بشعـر ... قولُ « اللهُ هو » حباها حرَّ جَمْر[3]
نغمـــةٌ منهـــا الهشيـــمُ روضـــةٌ ... كـــانَ لـــلأفـــلاكِ منهـــا نَفْضـــةٌ
وعلـــى الحـــقِّ العلـــيِّ شـــاهـــدٌ ... وبهـــا المُلْـــكَ الفقيـــرُ واجـــدٌ
وبهـا دَفْـقُ الـدِّمـاء فـي الـوتيـن ... ثم يصحو القَلْبُ كالرُّوحِ الأمين[4]
نـاظـمُ الأشعـارِ بـالسِّحْـرِ اشتهـرْ ... ســـارقُ القلـــبَ وإبليـــسَ النَّظـــر
شـــاعـــرُ الهِنْـــدِ الإلـــه أيَّـــدَه ... روحُـــه مـــنْ سِحْـــرِ قـــولِ جـــرَّده
علَّمـــوا الشِّعْـــرَ أفـــانيـــن الغِنـــاء ... وضـــروبَ الكُفْـــرِ حتَّـــى الأتقيـــاء[5]

= في ماء الورد) .

(١) الحَبابُ : الفقاقيع التي تعلو الماء والشَّراب .

(٢) الطواسين : جمع ط . س ، وهما حرفان في أوائل سورٍ قرآنية ، وهي : النَّمل ، والشعراء ، والقصص . وللحلاَّج كتابُ الطواسين . وقد جَعَلَ إقبالُ هذا الاسم اسماً للمكان الذي تتجلّى فيه صفات الأنبياء .

(٣) حباه : حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه .

(٤) الوتين : عرق في القلب . والروح الأمين : جبريل .

(٥) الأفانين : الأساليب والأجناس . والضُّروب : الأنواع والأشكال .

لفظُهم ما فيه شيءٌ من ألمْ ... ما تراهم في حياةٍ بلْ عَدَمْ
إنَّ خيراً منْ لحونٍ أفسَدتْ ... قولةٌ كانتْ برؤيا أضْغَثَتْ[1]
يَبْحثُ الشَّاعرُ طوعاً بالسَّليقة ... يجعلُ الآمالَ في النَّفْسِ الحقيقة
لَيسَ إلّا القلبُ في صدرِ الشُّعوب ... إنَّها لولاه كالوادي الحطيب[2]
نَقَشَ السُّكْرُ ونارٌ عالما ... بهما لم يكُ شِعْرٌ مأتما !

في الأنامِ يُخلَقُ الرُّوحُ السَّويَّا
ورثَ الشاعرُ منْ ثمَّ النَّبيَّا »

قلتُ : هاتِ القولَ في تلك النُّبوَّة ... سرَّها لا تطوِ عن مِثْلي بِقُوَّة
قال : « أقوامٌ لها آياتُها ... والعصورُ كلُّها ميزاتُها
الصخورَ أنطقتْ أنفاسُها ... كلُّنا في حقلنا زرعٌ لها
أصلُنا في العُمْقِ منَّا طهَّرت ... بجناحِ الرُّوحِ فكراً علَّقت[3]
إنَّها صوتُ دويٍّ في الكائنات ... تقرأ النُّور وتَتْلُو النَّازعات[4]
ما لشمسٍ أطلعتها منْ زوال ... منكِرُوها قد تجافَوْا عن كمال[5]
رحمةُ اللهِ نراها قولةً ... غضبُ اللهِ نراها صولةً
إنَّ عَقلَ الكلِّ حتَّى إنْ مَلَكْتُه ... فبها شيئاً رأيتُ ما رأيتُه
يرغميدُ امضِ وأسْرِعْ في السُّرى ... لترى ما ليسَ بدٌّ أنْ ترى[6]

في جدارٍ منْ صخورٍ بالقمر
للطَّواسينِ أطلْ منكَ النَّظر »

يعرفُ الشَّوْقُ الطريقَ لا الدَّليل ... ويَطِيرُ بجناحِ جِبْرئيل

---

(١) أضغث الرؤيا : أتى بها ملتبسة .
(٢) الحطيب : الكثير الحطب .
(٣) الرُّوحُ : جبريل .
(٤) في الأصل : أن سورةَ النَّجم ، والنُّور ، والنَّازعات من شفة النبوة .
(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .
(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

البَعيــدُ عِنْــدهُ كــالخُطْــوَتَيْــن في المَقامِ يشتكي منْ فَرْطِ أين[1]
مثــلُ نشــوانٍ قَصَــدْتُ ذا الجبــل ورأيــتُ مــا رأيــتُ مــنْ قُلَــل[2]
أيُّ قــولٍ لــي ؟ ومــا وَصْفــي لَــهُ ؟ هــذه الأنجــمُ طــافَــتْ حَــوْلــهُ
عِنْدَ أهْلِ الفرش ضاءَ في الضَّمير عند أهل العَرْشِ في الجَفْنِ البَصير
عينَنــا والقَلْــبَ ربٌّ قــدْ حَبــانــا لاكْتِنــاهِ السِّــرِّ فــي الــدُّنيــا هَــدَانــا

سِــرَّ دنيــانــا ســأُبْــدي مَــنْ سُــدِلْ[3]
وحــديثــي عــنْ طــواسيــنِ الــرُّسُــلْ

* * *

طاسين جوتاما بودا[4]
توبةُ الراقصةِ اللَّعوب

جوتاما

الشَّمُــــولُ والحبيـــبُ ، ليـــس شيئـــا[5]
بـــلْ وحـــورٌ فـــي الجنـــانِ ، ليـــس شيئـــا
كـــلُّ مـــا أنـــت تـــراه ســـوفَ يَفْنـــى

---

(١) فرط الأين : شدَّةُ التعب .
(٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .
(٣) السَّدْلُ : السِّتْرُ .
(٤) التزمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة تردُ في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافيةٌ موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .
(٥) الشَّمول : الخمر .

الفَــلا والشــاطِئــانِ ، ليــس شيئــا[1]
علَّــمَ غــربٌ حكمــةً للمَشْــرِقِ
مَعْبــدٌ والطــائفــانِ ، ليــس شيئــا[2]
ذاتَــكَ اذكُــرْ وامــضِ واعْبُــرْ
أنــتَ هــذا ، العــالمــانِ ، ليــس شيئــا
هُــذبَ عينــي لــي طــريقــاً شُقَّهــا
كــلُّ مــا فيهــا عــرانــي ، ليــس شيئــا
دَغْــكَ مــنْ غيــبِ فمــا وهــمٌ بشــيءِ
لا تكــونُ أو تكــونُ ، ذاكَ شــيء[3]
لا تكــونُ جنــةً كــالجنَّــةِ
لــوى أهــلِ الجِنــان ، ذاكَ شــيء[4]
راحــةَ الــرُّوح طلبــتَ ، مــا تســاوي !
فــي حبيــبِ دمعتــان ، ذاكَ شــيء
نظــرةٌ والعيــنُ سَكْــرَىٰ والتَّغَنِّــي
يــا لهــذا مــنْ حُســانِ ، منــه شــيء[5]
كــان خيــراً فــي المعــانــي ، ذاكَ شــيء

***

---

(١) الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .
(٢) ذكرنا الطائف بالمعبد في المثنى مع إرادة الجمع (المترجم) .
(٣) كان هنا تامة .
(٤) يريد الشاعر ليقول : إنَّ الجنة لا تكون إلا مأوى للمتَّقين جزاءً لهم على عمل الصالحات .
(٥) الحُسان : الحسن .

الرَّاقصة

لا تَـزِدْ أحـزانَ قلبـي مـا لقلبـي مـنْ قَـرار
زِدْ جمـالَ الشِّعـر ثِنْيـاً ، يـا لـهُ ليـلُ السِّـرار[١]
في صميم القلبِ منِّي ، منْكَ أنوارُ التَّجلِّي
فـأذقـت الشَّمْـسَ والبَـدْرَ مـريـرَ الانتظـار
إنَّ ذواق الحضــورِ يعبــدُ الأصنــامَ عِشْقـا
يخـدعُ العِشْـقُ فـؤاداً مـنْ مُنَـاهُ فـي الخُمـار[٢]
فــي صفــاءٍ إنْ تَـرَنَّـمْـتُ بلحـنٍ لـي جـديـد
عــادَ طيــرٌ للـرِّيــاض عــودَ مشتــاقِ الـدِّيـار
طبعيَ السَّامي وُهِبْتَ حُلَّ عنْ ساقي قيودي
خِـرْقـةً هبنـي لتحظـى بقشيـبٍ مــنْ إزارِ[٣]
أيُّ معنـىً للكـلام ؟ والصُّخـورُ تَحْـتَ فـأس
يَحْملُ العِشْقُ الجبالَ ثم يمضي في انحدار[٤]

***

طاسين زرادشت[٥]

أهرمن يختبر زرادشت

مــا خلقــتُ منْــكَ نــايــاتِ البُكــاء   وربيعـي مثـلُ شَهْـرٍ فـي الشتـاء[٦]

---

(١) الثني : كلُّ شيء بعضه على بعض . وليلةُ السِّرار : آخر ليلة في الشهر .
(٢) الخمار : الصُّداع منْ شدَّة السُّكر .
(٣) الخرقة : ثوب الزاهد . والقشيبُ : الجديد . والإزارُ : الملحفة وكل ما يستر .
(٤) يمضي في انحدار : أن يمضي في سرعةٍ وخفَّة .
(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر يسمَّى أهرمن . وجاء قومَه بكتابٍ يسمَّى : الأبستاق .
(٦) النايات : جمع ناي .

أنا في الدُّنيا أعاني صَوْلَتَكْ   بدمائي قد رَسَمْتَ صُوْرَتكْ

إنَّ مِنْ سيناك للحقِّ الحياة

واليدُ البيضاءُ لي منها المماتُ(١)

آخذٌ بالعَهْدِ مِنْ ربٌ خَبِل   ضلَّ منْ وَفْقَ هوى نفسٍ عَمِلْ(٢)

وَمِزاجُ الرَّاح في الكاساتِ سَمْ   وله المِنْشَارُ والدُّودُ النِّعَمْ(٣)

إنَّ نوحاً لم يجدْ غَيْرَ الدُّعاء   والدُّعاءُ كان خِلواً منْ غناء(٤)

اعتزلْ في الغارِ وارْحَلْ عنْ ديار   نحو أهلِ النُّور عَنْ مَخضِ اختيار

وبعينِ اجْعَلِ التُّرْبَ الذَّهَبْ   وَبِنَجْوَاكَ السَّماءَ منْ لَهَبْ(٥)

كالكليمِ في الجبالِ كُنْ شَرِيدا   واخْتَرِقْ ممَّا رَأَتْ عينٌ بعيدا(٦)

وتناسَ شِيْمَةً للأنبياء   دَعْكَ مِنْ فَرْطِ الذَّكاءِ والدَّهاءْ

بين من هانوا تهُون الفِطْرَة   والرَّماد في الرِّياحِ الجمرة

الوليُّ إنْ شأى يوماً نبيًّا   للهوىٰ كانَ النَّبيُّ داءً عَصِيًّا(٧)

قُمْ وفي عُشِّ انفرادِ عُزْلَتِكْ

وَلْتَدَعْ هذا التَّجلِّي خلوتُك

***

---

(١) يلمّحُ إلى طور سيناء ، وإلى قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٢) الخبل : المخبول الذي اختلط عقله .

(٣) الإشارة إلى تعذيب زكريا بالمنشار ، وأيوب بالدُّود .

(٤) الغَناء : الكفاية .

(٥) التُّرب : التراب ، والنَّجوى : المسارَّة .

(٦) يريد قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ و١٠] .

(٧) شأى : سبق وكان أفضل . والدَّاء العصي : هو الذي لا شفاء له .

زرادشت

الضِّيـاءُ البَحْـرُ والشَّـطُّ الظُّلـم ... مـا حَـوَتْ سيـلاً كمثلـي وازْتَطَـمْ[١]

فـي فـؤادي المـوجُ دُفَّـاعٌ يمـور ... إنَّمـا السَّيْـلُ علـى شـطٍّ يَغِيْـر[٢]

صـورةٌ مـا كـان فيهـا مِـنْ طِـلاء ... وإلـهُ الشَّـرِّ رسَّـامُ الـدِّمـاء[٣]

أظهـرِ الـذَّاتَ ، فهـاتيـكَ الحيـاه

واختبـارُ المـرءِ مـا أدَّت يـداه

يُنْضِـجُ الـذَّاتَ التـردِّي فـي البـلاء ... عـن قضـاءِ اللهِ قـد تمحـو الخَفَـاء

رَجُــلُ اللهِ رأى بـالله ذاتَـه ... فـي دمـاه خـرَّ كـي يُنْهـي حيـاتَـه

بـالـدِّمـاء العِشْـقُ يَسْمُـو وَيَسُـود ... ولـهُ العِيـدَانُ منشـارٌ وَعُـوْد[٤]

فـي سبيـلِ اللهِ مـا يجـري يَطِيـب

مـرحبـاً بـالصَّـدِّ إنْ صَـدَّ الحَبِيـبْ

لا تـرى عينـي التَّجلِّـي وَحْـدَهـا ... تَـرْمُـقُ الحُسْـنَ عيـونٌ حَـوْلَهـا[٥]

خلـوةُ الإنسـانِ ؟ وجـدٌ سُعِّـرا ... إنَّهـا البحـثُ ، وجَمْـعٌ قـدْ يُـرى

خلوةٌ في العِشْقِ منْ شأنِ الكَليم ... إنْ تجلَّى كانَ كالمُلْك العظيم[٦]

خلـوةٌ أو جَلْـوةٌ فـي القَلْـبِ وَقْـدُ ... ومَقَـامٌ أو همـا حـالٌ وَوَجْـدُ[٧]

ويلـوحُ فيهمـا الـرَّحمـٰنُ آيـةْ ... بـدأ الأولـى وذي الأخـرىٰ نهـايـةْ

---

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفاع : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إنَّ « أهرمن » إلهُ الشر رسمها بالدِّماء .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكليم : موسى عليه السلام .

(٧) الوَقْدُ : النار .

النُّبـوَّاتُ ، كمـا قُلْـتَ ، المِلَـلْ   يخلـق الإنسـانَ عِشْـقٌ إنْ كَمُـلْ
حَبَّـــذا رَكْـــبٌ ولله المسيـــر[1]
وبـــدنيـــانـــا كـــأرواحِ نَطِيـــزْ

***

طاسين المسيح

(رؤيا تولستوي الحكيم)

شـامخٌ قـدْ ضـمَّ أنـواعَ المَمَـاتْ   فيـه وادٍ مـا بـه رفَّ النَّبـات[2]
فيـه نـورُ البَـدْرِ قـارٌ مـنْ غُبَـار   بسمـاه الشَّمـسُ ظمـأىٰ فـوقَ نـار
والغـديـرُ زِئبـقٌ قـدْ فـارَ فـورَه   وهـو يجـري دافقـاً مثـل المجرَّه[3]
لا ارتفـاع لا انخفـاضَ فـي الطـريـق   زاخـرٌ طـامٍ وذو مـوجٍ حَنِيْـق[4]
صـاحَ شـابٌّ قـدْ حـواهُ الـزِّئبـق   جـازِعـاً وهـوَ يكـادُ يَغْـرقُ
منـهُ ذاكَ الغيـمُ مـا إن يقـرب   ظـامـىءٌ ، مـنْ زئبـقٍ هـل يَشْـربُ !
وعلـى الشَّـطِّ رأيـتُ غـانِيَـهْ   لحظُهَـا يـأسِـرُ ألـفَ سَـارِيَـهْ[5]
عَلَّمَـتْ مـنْ سِحْـرِهـا العبَّـادَ كُفْـرا   شـرُّهـا الخيـر وكـانَ الخيـرُ شـرَّا
يـا تـرى مـنْ أنْـتِ قُلْـتُ فلتجيبـي   مـا بُكـاكِ بـل ومـوصـولُ النَّحيـب
« إنَّ فـي عينـيَّ سِحْـرُ السَّـامـري   واسمي افرنكين واسمُ السَّاحر[6]

---

(١) الرَّكب : ركبان الخيل ، أو الإبل .
(٢) الشامخ : المراد به الجبل . ورفَّ النبات : اهتزَّ نضارةً .
(٣) الغدير : النهر . والمجرَّة : مجموعة من النجوم تشبه النَّهر .
(٤) الطَّامي : الممتلىء . والحنيق : الشَّديد الغضب .
(٥) الغانية : الحسناء . والسَّارية : الجماعة .
(٦) افرنكين : من فرنكي في الفارسية بمعنى الإفرنجي في العربية . وإقبال يجسِّد التفرنج على أنه أفسد المسيحية الأولى . أما الإنسان المغمور في ماء النهر فهو رمزٌ إلى الخائن=

الجليـدُ فَجْـأةً كـانَ الغَـديـر وبـأعضـاءِ الفتـى العَظْـمُ الكَسِيْـر[١]
رَدَّدَ الشَّكْـوىٰ ومـنْ قلـبٍ وَجِـعْ فَلَـهُ الشَّكـوىٰ ومـا مِـنْ مُسْتَمِعْ[٢]
قـالـت افـرنكيـن « فكِّـرْ فِكْـرةً مـا عَمِلْـتَ فيـهِ فـانْظُـرْ نَظْـرةً
إنَّمـا عيسـى سـراجُ الكـائنـات نـورُه اللمَّـاح فـي كـلِّ الجِهـات[٣]
اذْكُـرَنَّ بيـلاطـوسَ الممتقِـع ما صنعتَ ؟ أيَّ شيءٍ قد صَنَعْ[٤]
لـذَّة الإيمـانِ فـي رُوحٍ حُـرِمْـت إنَّ أصنـامَ اللُّجيـنِ قـدْ عَبَـدْت[٥]
مـا عَـرَفْـتَ الـوحـي والجسـمَ اشتـريْـتَ
ولـذا فـالـرُّوحُ أمـوالٌ فَقَـدْتَ »
وَمِـنَ الحسنـاءِ تجـريـحُ المـلام كـانَ فـي قلـبِ الفتـى حـزُّ الحُسـام
قال : « منْ خدعك ، فالزُّور الجليّ بـاعَ شيـخَ أمَّـةٍ أو بَـرْهَمـيّ
ذلُّ عقـلٍ ذلُّ ديـنٍ مـنْ فُسـوقِـك هانَ حتَّى العشقُ منْ سَوْمٍ بسُوقِك[٦]
الـودادُ منـكَ ضُـرَّ خِفيَـة مِنْـكَ هـذا الحِقْـدُ مـوتُ بغتـة
أنْـتَ بـالمـاءِ وبـالطِّيـن عَقَـدْتَ صلـةً ، والعَبْـدُ مِـنْ ربٍّ سَلَبْـتَ
حكمـةُ الإنسـان حلَّـت مشكـلات وبهـا چنگيـزُ صِـرْتَ فـي غـزاة
مـا لـدى المُنْصِـفِ قـطُّ أيُّ رَيْـبِ فـي ذنـوبٍ لـكَ فـاقَـتْ كـلَّ ذنـب
المسيـحُ أسْكَـنَ الـرُّوحَ البَـدَنْ أنتَ منْ أدْرَجْتَ ميتاً في الكَفَنْ[٧]

= الذي خانَ المسيح عليه السلام .

(١) الكَسِيْرُ : المحطَّم .

(٢) وجع : بمعنى تألَّم ، ومَرِض .

(٣) اللَّماح : المتلألىء . يقول : إنَّ نوره يغمرُ العالمين .

(٤) بيلاطوس : هو من يعتقد المسيحيون أنه القائل إني بريء من دم المسيح .

(٥) اللجين : الفضة .

(٦) الفسوق : ترك أمر الله وعصيانه . السَّوم : من سام السلعة ، أي : عرضها وذكر ثمنها ، فكأن المنافقين يتّخذون الدين سلعةً لتجارتهم .

(٧) يريد ليقول : إنَّ المسيح عليه السلام أحيا الموتى .

مـا صنعنـا كـانَ مِـنْ نـاسُـوتِـهِ   كـانَ مـا لِلْقَـوْمِ مـنْ لاهـوتِـهِ
بمـمـاتٍ لـك نحيـا قـاطبـةْ
لا تمـوتـي ، لتـري مـا العـاقِبَـةْ »[1]

* * *

طاسِن محمَّد (ﷺ)
(نياحةُ أبي جهل في حرم الكعبة)

زارتْ روحُ عمرو بن هشام ـ زعيمُ الجاهلية والنخوة العربية ـ مكَّة ، وقد أصبحت بلدَ الإسلام والتَّوحيد ، وطُهِّرَ بيتُ الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحُرِّمت عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة[2] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمسَ مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وذهبت نخوةُ الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبحَ الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، فلا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وسمعَ الناسَ يتلون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسب ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته ،

---

(١) قاطبةً : جميعاً .
(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي .

وغشي مجالسَ الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلةً في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبدٍ أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفُّون حوله ، ويَصْدُرون عن رأيه .

ودقَّق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعرةً قومية ، يتعلَّق بها سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أنَّ الحياة القديمة قد نُسِخت وأُبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقولُ الناس ونفوسُهم ، وسُمِعَ يُنشدُ في حزنٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاس الذي عهدتُهم ولا الدَّارُ بالدَّار التي كُنْتُ أعْرِف

لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحنُ فيه ضعفاءَ المسلمين : لأنكر مكَّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والضَّررَ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليِّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدَّم والعرق ، ويرى العالمَ كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرُهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقُّون مدحاً ،

ولا يستحقُّون رحمةً ، ولا يستحقون عدلًا ، لقد كان يرى كلَّ ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدقِ الناسِ فِراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغُ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلامَ يؤثِّر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهليةَ تُطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطَّردَ الشنيع .

هاجتِ النَّخوةُ الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحُه ، ورئيَ متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوحُ ، ويقول : « إنَّ قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروحٌ وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نورَ الكعبة ، وحطَّ من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصرَ وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوبَ الناس وعقولَهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكارُ جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنَّه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللَّات ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجِعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذَ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبود مشهور يُرى ويُلمس ، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ لا يُرى ولا يُلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يُرى وجود ؟

أليس من الجهل والضَّلالة ، والعَمى والبلاهة سجودٌ لغائب ؟ هل يجدُ الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟! .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنه لا يفضِّل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرمَ العلوجَ

والعبيدَ السُّود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيدِ السود ، واختلط الكريمُ باللئيم ، والجميلُ بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي .

إننا لا نشك في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأٌ عجمي ، وقد تحقَّق لدينا أنَّ سلمان مزدكيٌّ ، وأنَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصليها ، هل لعجميٍّ أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميٍّ نطقٌ عربيٌّ ولهجةٌ مضرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمدٌ وحياً ، بكلامكم البليغ السَّاحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصُّباة ، أَغِرْ عليهم ، وعكِّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجازَ نخلٍ خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرحيل ، فلا تعجِّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما »[1] .

وإليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرُنا نارٌ تلظَّت مِنْ مُحمَّد ... فسراجَ الكعبةِ الوضاءِ أخْمَد
وَبِهُلْكِ الرُّوم أو كسرى تغنَّى ... سَلَبَ الفتيانَ طُرّاً من يَدَيْنَا
ساحرٌ والقوْلُ منه ساحرٌ ... وبقولِ « لا إلـه » كافرٌ !
وبساطُ دينِ آباءٍ طَوَىٰ ... وأذاقَ ما عبدناه التَّوى[2]
حطَّمَ اللاَّتَ فكانَتْ كالفُتَات ... مِنْهُ فلتقتصَّ كلُّ الكائِنَات[3]

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، صفحة ١٦٩ ـ ١٧٤ .
(٢) التَّوى : الهلاك .
(٣) الفتات : كسارة الشيء بعد أن يتفتت .

نـاطَ مِنْـهُ القلـب بـالغيـبِ الكَنيـن　　ومحا الحاضرَ بالسِّحْرِ المُبين(١)

ويعيـبُ المـرءُ للغيـبِ النَّظَـر　　أيـنَ شـيءٌ ليس يبـدو لِلْبَصَـر(٢)

الضَّـريـرُ مَـنْ لغيـبٍ يَسْجُـدُ　　يـا لهـذا الـدِّيـن أعمـى يُبْعـد

مـا السُّجـودُ ولـربٌّ لا يُحَـد

الصَّلاةُ ما ارتضاها قطُّ عَبْد !

فـي قـريـشٍ بـتَّ أصـلاً للنَّسـب　　يـا لـديـنٍ منكـرٌ فَضْـلَ العرب(٣)

الـوضيـعُ كـالـرَّفيـعِ عِنْـدَهُ　　لِلْخِـوانِ فَهْـوَ يـدعـو عَبْـدَهُ(٤)

مـا درى فضـلاً لأحـرارِ العـربْ　　وِدَّ أحبـاشٍ غـلاظٍ قَـدْ خَطَـبْ(٥)

ولحمـرِ القَـوْمِ بـالسُّـود اجتمـاعْ　　يـا لعمـري عـزُّنـا هـذا مُضَـاعْ

المسـاواةُ أراهـا أعجميَّـه　　دانَ سلمـانُ بـديـن المـزدكيَّـه(٦)

ابـنُ عبـد اللهِ مَخْـدوعٌ بـه　　فـأذاقَ العُـرْبَ مِـنْ تخـريبـه

وبنـي هـاشِـمَ جـافـى قـومُهـم　　بـالصَّـلاة فـي ظـلامِ عَيْنُهـم !

أيـنَ مِـنْ عـدنـانَ أصـلُ الأعجمـي　　أيـنَ مِـنْ سَحْبَـانَ صَمْـتُ الأبْكَـمِ(٧)

لخـواصِّ العُـرب عيـنٌ لا تُـرى　　قـمْ زهيـرٌ شُـقَّ مـركـومَ الثَّـرى(٨)

---

(١) الكنين : المستور .

(٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .

(٣) بت : قطع .

(٤) الخِوان : ما يوضع عليه الطعام .

(٥) خطب الودَّ : طلبه .

(٦) لم يكن الصَّحابيُّ الجليل سلمان الفارسي على الدِّيانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنَّه توهم أنَّ النبيَّ ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يُجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أنَّ أبا جهل من الكافرين .

(٧) سحبان مضرب المثال في الفصاحة عن العرب .

(٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خيرُ الدَّليل
قُمْ وحطِّم سِحْرَ لَحْنِ جِبْرَئيل

قُلْ وَحدِّثنا طويلاً يا حَجَرْ ! ما رأينا منه ؟ واصدُقنا الخَبَرْ
قابِلَ الأعذارَ أنت يا هبل عَنْكَ ذُدْ من ديننا ما إنْ عَقَلْ
رأسَهُمْ ألقِ لذئبٍ أو هَصُور ولْيَكُنْ في نخلهم مُرُّ التُّمور[1]
صَرْصَراً واجعلْ هواءَ البادِيَهْ إنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوِيَهْ
لاتُ دومي ، لا تَريمي يا مناةْ أنتما فينا قلوبٌ خافِقَاتْ[2]

تَسْكُنانِ بينَ جَفْنَيْنَا الحِدَاقا
مهلةٌ إنْ كنتِ أزْمَعْتِ الفِراقا[3]

* * *

= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظِّكم منه . وما حال الحول حتَّى بُعِثَ النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والتُّمور : جمع تمر .

(٢) اللَّات ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الحِداق : جمع حَدَقة ، وهي معظم سواد العين . والشَّطر الثاني من البيت مما اقتبسه إقبال عن شاعرٍ عربي .

القسم الثاني

فلكُ عُطارِد

ساعةٌ مع السَّيِّد جمال الدِّين الأفغانيِّ[1]

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربِّيه الروحي والفكري ـ الشيخ جلال الدِّين الرومي ـ في سياحةٍ روحيَّةٍ فكريَّة ، ومرَّ في جولته ـ الخيالية ـ بمنازل كثيرةٍ ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضية ، من أصحاب الدِّيانات والفلسفات ، وقادةِ الفكر والرِّجالات ، وتحدَّث معهم في مسائلَ كثيرةٍ .

ومرَّ في رحلته بمنزلٍ بكرٍ ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدُّنيا بسهولها ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلةٍ من المدنية والصناعة الإنسانيَّة ، وأعْجَبَ الشاعرَ جمالُ الطبيعة ، ورقةُ الهواء ، وخريرُ الماء في هدوء الصَّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرُّوميِّ ، فقال وقد قَرَعَ أذنهُ صوتٌ عذبٌ رقيق : **ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟**

قال الرُّوميُّ : **إنه منزلُ الصُّلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدمُ يومـاً أو يومين ، لمَّا هبط من الجنة ، قد شَهِدَ هذا المكانُ زفراتِه وأنَّاتِه في السَّحر ، وبلَّتْ دموعُه التراب ، يزورُه أصحاب المَقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيدٍ ، وأبي يزيد ،**

---

(١) هو جمال الدين الأفغانيُّ ، ذلك المصلح الدِّينيُّ ، والسياسيُّ ، والاجتماعيُّ ، ورجل الفكر الحرِّ والأدب العالي ، ومن له الرِّيادة في دعوته إلى الحقِّ ومكافحته للباطل . وكان الدَّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلاميِّ بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدَّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيمَ الأثر ، واسع النفوذ ، دائبَ العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨م .

فلنقُم ولنُسْرِع لندركَ الصَّلاة في هذه البقعةِ المباركة ، وننالَ لذَّةَ الروح ، ونعمةَ الخشوع التي حُرِمناها في العالم المادّي .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلَيْن يُصلِّيان ، أحدُهما أفغانيٌّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمالُ الدين الأفغانيُّ ، يصلِّي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الروميُّ : إنَّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضلَ منهما ، وقد حلَّا كثيراً من عقدي والغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعسِ روحَ النَّشاط ، ودبَّت بدعوته الثائرةِ الحياةُ في الأموات والجمادات ، وأمَّا الزَّعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدَّامي ، والفكر المحلِّق السَّامي ، والرُّوح القلقة ، والعقلِ الكبير المستنير ، إنَّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضلِ العباداتِ ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمالُ الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوءُ المكان والزَّمان ، وشخصيةُ الإمام ، وجمالُ القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقَّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءةً لو سمعها إبراهيمُ الخليل لأعْجِبَ بها ، ولو سمعها جِبْرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءةٌ تقلق النفوسَ ، وتذيب القلوبَ ، وتعلو بها صيحةُ التكبير ، والتهليل في القبور ، وكانت قراءةً ترفع الحجاب ، وتتَّضح بها معاني أمِّ الكتاب .

وندعُ محمد إقبال يحكي قصَّته ، قال : « قمتُ بعد الصلاة ، وقبَّلتُ يده في أدبٍ ومحبةٍ وقد قدَّمني أستاذنا الرُّوميُّ إلى السيد ، وقال : إنَّه جوَّالٌ جوَّابٌ في الآفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويَحْمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرفْ غيرَ نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حراً طليقاً » .

وأقبلَ عليَّ السيدُ جمال الدين ، فقال : حدِّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلُهم تراب ، وينظرون بنورِ الله .

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأمَّة التي خلقت لتسخير العالم

معركةً حامية ، وصراعاً دامياً بين الدِّين والوطن ، لقد ضعُف الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحَها ، وقطعتِ الأملَ من سيطرة الدِّين وسيادته ، فلجأتْ إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراكُ والإيرانيُّون سُكارى بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةَ كيدها ودهائها ، أصبح الشَّرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبتِ الشُّيوعيَّةُ ببهجة الدِّين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألُّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً : إنَّ الباقعةَ الأوربيَّ هو الذي علَّم أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنَّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشامَ والعراقِ ، فتحرَّرْ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يعتبرُ كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضَه ، إنْ كنتَ تميز بين « الجميل » و« القبيح » فلا تربطْ نفسك وقلبك بالتُّراب والحجارةِ والقرميد ، إنَّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمةَ نفسه ، إنَّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصرْ في الجهات ، إنَّ الحشيش ينبتُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنَّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنَّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبس في « التراب »[1] اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريحُ ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحَفْنَةَ من التُّراب ، التي نسمِّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

---

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنَّها لا تلبث أن تتحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطرَ على العالم وتحتضِنَه . إنَّ فطرتها بريئةٌ من الشرق والغرب ، وإن كان مولدُها وظهورُها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي! فإنَّ مصدرها ذلك الإسرائيليُّ ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبهُ وكفر عقلُه ، إنَّ الغربيين فقدوا القيم الرُّوحية ، والحقائق الغيبيَّة ، وذهبوا يبحثون عن الرُّوح في « المعدة » إنَّ الروح ليست قوَّتها وحياتُها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانةُ « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إنَّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وَحْدة الأجسام والبطون ، إنَّما يقوم على محبَّة القلوب ، وألفة النُّفوس .

إنَّ المُلوكيَّة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرُها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفَّاق ، إنَّها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتتشربُ منها الرُّضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزَّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنَّها أوراقٌ بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك المُلوكية تستحوذُ على الشعوب والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتتركُها أجساداً هامدة .

إنَّ « الملوكيَّة » و « الشيوعية » تلتقيان على الشَّره والنَّهامة ، والقَلق والسآمة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »[١] ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسانُ البائسُ بين هذين الحجرين قارورةُ الزُّجاج ، إنَّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنِّ ، والمُلوكية تنزع الروحَ من أجسام الأحياء ، وتسلُبُ القوتَ من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمُهما قويٌّ ناضر ، وقلبُهما مظلمٌ فاجر .

---

(١) يعني : تجرُّد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! منْ يبلغُ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارةُ الحياة في صدورِ المسلمين ، وانقطعتْ صلتُهم عن النَّبيِّ ﷺ إنَّ المسلم اليوم لا يؤسِّسُ حياته ، ولا ينظِّمُ مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدِّين والدنيا ، لقد ثَلَّ عَرْش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربَّع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغيَّر نظرُه إلى الحياة ، وتغيَّر منهج تفكيره .

لقد حطَّمت « القيصريةُ والكسرويةُ » مُثُلَ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الرُّوسية ! من تاريخنا ، عليك بالثباتِ والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنامَ « الملوكية والوطنية » فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرَّةً ثانية . إنَّ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرَّحمة والشدَّة ، فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته ، لقد أصبحت دياناتُ الإفرنج ودساتيرُهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودي إليها مرَّة ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكمِّلين مهمَّتَك ، وتُتمين رحلتك العظيمة ، إنَّك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ مُحْكمٍ ، وليس هو إلا الدينُ والعقيدةُ .

لقد محوت يا روسيا ! أساطيرَ الأولين أسطورةً أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورةً ، وما أدراكِ ما القرآن ؟ إنَّه نعيٌ للملوكية والسُّخرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياةٌ للصعلوك ، وبشرى للملوكِ ، إنَّه يذمُّ الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرِّم الربا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولَّد من الربا إلا الشرورُ والفتن ، والقساوةُ والضَّراوة ؟ إنَّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكلُّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقه ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعبثهم . إنَّ المبدأ الذي يقرِّره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدةٍ واحدة ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلَّها كنفسٍ واحدة[١] .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أؤمنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهر ومستترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أنْ تنظري إلى العالم بنورِ القرآن نظراً جديداً »[٢] .

* * *

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

التـــرابُ كـــلُّ مخلـــوقٍ شـــأى	وتجلِّيـــــه جليـــــاً قـــــد رأى[٣]
أبكــــــانَ أم يكـــــونُ سقطتــــــي	والــوجــودُ قَنَصــتْ أحبــولتــي[٤]
أنـا فـي الـزرقـاء لـي شقـاً شققـتُ	إنَّنــي منهــا وإيَّــاهــا مَلَكْــتُ[٥]
أفــؤادي فـــي حنـــوٍّ عـــانقـــت	أم أراهـا منـه فـي الصَّـدرِ ارتمـت

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .
(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٣) شأى : تفوَّق على غيره .
(٤) السَّقطة : المرَّة من الوقوع والتردِّي . وقَنص : اصطاد . والأحبولة : المصيدة .
(٥) الزرقاء : السماء .

مـا الـذي يخفـى ومـا شـيءٌ ظَهَـرْ ... لستُ أدري كُنْـهَ مـا تَحْـتَ البَصَـر
فـي سمـاء غيـرهـا طيـراً خفقـتُ ... فـرأيـتُ عـالمـاً مـا إن رأيـتُ
عـالـمٌ بـالبـرِّ والـدَّأمـاء مُفْعـمْ ... مـنْ ثـرانـا إنَّـه خيـرٌ وأقْـدَمْ(١)
عـالـمٌ مـنْ بَعْـضِ أرمـاءِ ظَهَـرْ ... ليـس لـلإنسـانِ فيـهِ مِـنْ أثَـرْ(٢)
مـا عَلَيْـهِ صـورةُ لـوحِ الـوجـود ... ليسَ للفِطْـرَةِ مـن نقـدٍ حَـديـد(٣)
قلـتُ للـرُّومـيِّ يـا حسـنَ اليَبَـابْ ... فـي الجبـال حبـذا هَـدْرُ العُبَـابْ(٤)
أيـنَ آثـارُ الحيـاة هـاهنـا ؟ ... والأذانُ فـاضَ مِنْـه سَمْعُنـا !(٥)
قـال لـي « هـذا مقـامُ الأوليـاء ... أرضُنا والأرضُ في فيءِ الإخاء(٦)
آدمٌ عـنْ خُلْـدِه حيـنَ ارْتَحَـلْ ... ذلـك العـالـمَ يـومـاً فيـه حَـلْ
ورأى هـذا الفضـاءُ زفْـرَتَـهْ ... وبفجـرٍ وهـو يشكـو ، رنَّتَـهْ(٧)
زائـروه مـنْ خـواصِّ الكُمَّـلِ ... كلُّهـمْ فـي قـومِـهِ هـذا العَلـي
بـوسعيـدٍ والفضيـلُ بينهـمْ ... بـايـزيـدُ والجُنَيْـدُ عِنْـدَهـمْ(٨)

---

(١) الدأماء : البحر .
(٢) الأرماء : جمع رمي ، هو السَّحابةُ الصَّغيرة .
(٣) النقد الحديد : النقد الشديد الحاد .
(٤) اليباب : الخراب . والعباب : الموج .
(٥) يعجب الشاعر لوجوده في أرض خراب ، ومع ذلك يسمع صوت المؤذن .
(٦) الفيء : الظلُّ .
(٧) الرَّنةُ : الصَّوت ، أو صوتُ القوس .
(٨) أبو سعيد بن أبي الخير من مشاهير المتصوفة في أوائل القرن الخامس الهجري . وممن أذاعوا بين الناس في خراسان نظرية وَحْدة الوجود . وله رباعيَّات يعبِّر فيها عن مذهبه الصُّوفي وهو رقيقُ المعاني أصيلُ الشاعرية . والفضيل شيخ الحرم المكي كان في الحديث ثقةً ، أخذ عنه خلقٌ كثير منهم الشافعيُّ . وهو في عداد زهاد المسلمين كانت وفاته عام ١٨٧هـ وبايزيد أو أبو يزيد البسطامي أوَّلُ صوفي نسبت إليه الشطحات ، وأراد ابن تيمية أن يدفع عنه غلوه في شطحاته ، وتوفي عام ٢٦١هـ. أما الجنيد فصوفيٌّ بغداديٌّ مرموقُ المنزلة من أهل الصَّحو لا أهل السُّكْر ، أي أنَّه لم يكن من غلاة =

قُـمْ معـي كيمـا نصلـي ركعتيـن
ونـذابُ بـرهـةً أو بـرهتيـن »

إنَّمـا الـرومـيُّ دومـاً فـي الحضـور مشـرقُ الطَّلعـةِ ذوقـاً فـي السُّـرور
قـال : « إنَّ الشـرق قـطُّ مـا وَلَـدْ مثـلَ هـذيـن فقـدْ حـلاَّ العُقَـدْ
سيِّـدُ السَّـادات مـولانـا جمـال منه يحيى الطِّين والصَّخرُ المقال
ورئيسُ التُّرك مـنْ يُـدْعـى حليمـا كـانَ فـي فكـرٍ وفـي جـاهٍ عظيمـا

مَـعَ هـذيـن الصَّـلاةُ طـاعـةٌ
وجـزاءُ مـنْ يُصلِّـي جَنَّـةٌ

سـورةُ النَّجـم تـلاهـا شيخُنـا غَمَـرَ الصَّحـراء صَمْـتٌ هـاهنـا
ويثيـرُ اللَّحـنُ وَجْـداً فـي الخليـل وكـذا فـي عمـقِ رُوْحِ جِبْـرئيـل
ويـذودُ الصَّبْـرُ عـن قلـبٍ صَبُـور يـرفـعُ « إلا الله » مـنْ كـلِّ القبـور
يَهَـبُ النَّـار دخـانَ الـزَّفْـرَة وَلِـداودَ ضِـرَامُ السَّكْـرَةِ
وبـذا اللَّحـنِ الظُّهـورُ للغيـاب وارتفـاعُ السِّتْـرِ عـنْ أمِّ الكتـاب
والصَّـلاةُ بَعْـدَ أنْ تَمَّـتْ نَهَضْـتُ ويَـدَيْـهِ فـي خشـوعٍ قَـدْ لَثَمْـتُ
قـال « هـذي ذرةٌ تَطْـوي الفَلَـكْ عـالـمٌ مِـنْ حُـرقَـةٍ فيهـا اعْتَـرَكْ[1]
ذاتُهـا منهـا تَلَقَّـتْ نظـرةً لـمْ تَهَـبْ قلبـاً وكـانَـتْ حُـرةً
وحثيـثٌ فـي الـوجـودِ سيـرُهـا زنـده رودٍ إنَّنـي سمَّيتُهـا[2]

* * *

= المتصوِّفة ، ويعدُّ أولَ المتكلمين في التوحيد ببغداد ، وكانت وفاته عام ٢٩٧هـ .

(١) اعترك : اختلج واضطرب .

(٢) زنده رود في الفارسية بمعنى النَّهر الحي ، وهو اسمُ نهرٍ عظيم يجري بمدينة أصفهان في إيران . ولكن الشاعر آخذ عن الشاعر الألماني كوته في منظومةٍ له بعنوان « نشيد محمد » وقد عرفها إقبال وترجمها ، وفيه يشبّه الشاعر الألماني روح النُّبوَّة بالنَّهر المتدفق المزبد ، كما قال المستشرق الإيطالي باوزاني .

الأفغانيُّ

زنـده رود ، تِلْـكَ دنيـانـا تكلَّـمْ   أرضَنا صِفْ أو سمانا أنْتَ أعْلَمْ
يـا تُـرابيَّـاً سمـاويَّ البَصَـر   أمَّـةُ الإسـلامِ عنهـا مـا الخبـر ؟

زنده رود

أمَّـةٌ قـدْ دوَّخَـتْ كـلَّ الأمـم   فيهـا فكـرُ الـدِّيـن والأوطـانِ عـمْ
وتمـوتُ الـرُّوح مِـنْ ضَعْـفِ اليَقيـنْ   بـأسُهـا مـنْ قـوَّةِ الـدِّيـن المبيـن
الفِـرَنْـجُ المسلميـنَ أسْكـرُوا   وبِشَـصٍّ فـي الحُلـوق جـرَّروا[1]
منْ نُفُوذِ الغَرْبِ في الشَّرق الخراب   والشُّيـوعُ لانحطـاط الـدِّيـن بـاب

* * *

الأفغانيُّ
الدِّين والوطن

مَكْـرٌ لـوردِ الغَـرْبِ كـمْ أعيـا الفطَنْ   فطَّـنَ القـومَ بمعنـىً لِلْـوَطـن[2]
مـركـزاً يبغـي وأنـت فـي النِّفـاق   انسَ حتَّى الشَّام ، دَعْ أمْرَ العراق
أنـتَ إنْ أدْرَكْـتَ مـا خيـرٌ وشـرْ   فَلْتَفُـكَّ عنـك قيـداً مـن حجـر[3]
مـا هـو الـدِّيـن ؟ القيـامُ مـن ثـرى   ذاتـه القلـبُ الطَّهُـورُ كـي يـرى
« الله هُـو » مـنْ قـالهـا قـولاً يجـود   لم تَعُدْ تحويهِ هاتيْكَ الحدُودْ[4]

---

(١) الشصُّ : حديدةٌ معقوفةٌ يُصاد بها السَّمكُ حين يتعلَّق من فمه . يقول إقبال : إنَّ الأوربيين خدعوا العرب ، والفرس ، والترك ، وجذبوهم إليهم كما يجذبُ الصيَّادُ السمك .

(٢) فطن : فهم .

(٣) يريد بالحجر المنازل التي تتألف منها المدن .

(٤) يجود : يحسن .

قشَّـةٌ فـي الأرضِ قـامـت مـنْ تُـراب ويلُ روحٍ في التُّراب منْ تَبَابْ[1]
يُخلـقُ الإنسـانُ مِـنْ مـاءٍ وطِيْـن لـونُـهُ كـالـوَرْدِ مـنْ مـاءِ مَعِيْـن[2]
بئسَ لـلإنسـانِ فـي الطِّيـنِ الـدَّوام إنْ بِـهِ لـمْ يَغْـلُ ذيَّـاكَ المَقَـامْ
يا حكيمُ ، الرُّوحُ تسمو عن جهاتْ ضـاقَ حـرٌّ بقيـودٍ مُثْقَـلات
مـن ظـلامِ الأرض حـرٌّ قـد يَثُـوْز
مـا كفـأرٍ فَعَلَـتْ تِلْـكَ الصُّقُـوز !
قَبْضَـةُ الطِّيـنِ تسمِّيهـا الـوطـن دَعْـكَ مِـنْ مِصْـرَ وفُـرْسٍ واليَمـنْ[3]
بيـنَ أوطـانٍ وقـومٍ نسبـةٌ إنَّهـم فـي الأرض منهـا نَبْتَـةٌ
أنْـتَ إنْ أمْعَنْـتَ فـي هـذا النَّظَـرْ دقـةً أدْرَكْـتَ دَقَّـتْ كـالشَّعَـرْ
فَمِـنَ الشَّـرْقِ ذُكـاءٌ تَطلُـعُ بـاجتـراءٍ وَتَجـلٌّ تَسْطـع[4]
فـي عـذابٍ واصـبٍ مـنْ نـارِ قَلْـبِ عِنْدَ فَكِّ القَيْدِ منْ شَرْقٍ وَغَرْبِ[5]
بـالتَّجَلِّـي أسْكـرَتْ فـي شَـرْقهـا أفقـاً مـا أفْلَتـتْ مـنْ غَـزْوهـا
مِنْهُمـا قـد قطَّعـت أصـلَ السَّبَـبْ
إنَّها للشَّرق لَكِنْ في النَّسَبْ[6] !

***

الشُّيوعيَّة والرأسماليَّة

صاحبُ « المالِ » سليلٌ لِلْخَلِيلْ وبلا جِبْريلَ أضحى كالرَّسول[7]

---

(١) التباب : الهلاك والخراب .
(٢) المعين : الجاري .
(٣) الفرس هنا بمعنى بلاد الفرس .
(٤) ذُكاء : الشمس .
(٥) الواصبُ : الدائم .
(٦) يقول : إنَّ الشمس قطعت كلَّ صلةٍ بينها وبين المشرق والمغرب .
(٧) يريد كارل ماركس صاحب كتاب رأس المال .

مبطـلٌ ، فـي الـزَّيْـغِ حقّـاً يُضْمـرُ   مـؤمـنُ القَلْـبِ بعقـلٍ كـافِـرُ
إنَّ أهـلَ الغـربِ أفـلاكـاً أضـاعـوا   طلبوا الرُّوح ببطنٍ حينَ جاعوا !
مـا استمـدَّ الـروحُ حسناً مـنْ جَسَـدْ   وعلـى الجِسْـمِ الشُّيـوعـيُّ اعْتَمَـدْ
قـولُـه فـي كُفْـرِه هـذا المُبيـن   ليـس إلا فـي مسـاواة البُطـون

فـي صميـمِ القَلْـبِ ذيّـاكَ الإخـاءْ
مـا احتـوى أصـلاً لـه طيـنٌ ومَـاءْ[١]

الجسـومُ بـالثَّـراءِ سُمِّنَـتْ   والصُّـدورُ مِـنْ قلـوبٍ جُـرِّدَتْ[٢]
يـا لَـهُ الـزُّنْبُـورُ يـرعـى وردَهُ   ثـم يمضـي ، نـالَ مِنْـهُ شَهْـدَهُ
إنَّ غُصْـنَ الـوَرْدِ هـذا حُسْنُـهُ   ولـهُ البُلْبُـلُ هـذا لَحْنُـهُ[٣]
عَـنْ جمـالٍ رَاقَ فَلْتَطْـوِ النَّظَـرْ   اقْصِدِ المعنى وَدَعْ عَنْـكَ الصُّـوَرْ

أنْ تـرى لِلْقَلْـبِ مـوتـاً يَصْعُـبُ
أنْ تسمِّـي الطِّيـن وَرْدَاً يَكْـرُبُ[٤]

يَمْلِكَـانِ الـرُّوحَ نـدَّ صَبْـرُهـا   تَخْـدَعُ النَّـاسَ ويَبْـدُو كُفْـرُهـا[٥]
لهمـا العيـشُ الخـروجُ والخَـرَاجْ   حَجَران ، والورىٰ هذا الزُّجَاجْ[٦]
هـذه دينـاً وعلمـاً حَطَّمَـتْ   تِلْـكَ روحـاً ورغيفـاً حَـرَّمَـتْ
لهمـا فـي المـاءِ والطِّيـنِ الغَـرَقْ   أظْلَـمَ القَلْـبُ وذو الجِسْـمِ ائْتَلَـقْ

والحيـاةُ الاحتـراقُ والعَمَـلْ

---

(١) يقول : إنَّ الإخاء في الروح لا في الجسد .
(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .
(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبل يَعْشقُ الوردة ، ويغني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذّات الإلهية .
(٤) كل في الفارسية بفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، ولبلغاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للنقيضين . ويكرب : يثير الحزن .
(٥) يتحدَّث الشاعر عن الشُّيوعية والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .
(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

والسُّـوَيْـداءُ لِتُلْقَـىٰ فـي الـوَحَـلْ[1]

***

سعيد حليم باشا[2]
الشَّرقُ والغربُ

إنَّ في الغَرْبِ الذَّكا أصلُ الحياة والهوى في الشَّرْقِ سرُّ الكائنات
وبعشـقٍ يَعْـرفُ اللهَ الـذَّكـاء ولعشـقٍ بـالـذَّكـاء ذا العَـلاء
وإذا العِشْـقُ الـذَّكـاءَ صـادقـاً عـالمـاً آخَـرَ قَطْعَـاً حقَّقـا
انْهَضَـنَّ العـالَـم الثـانـي اصْنَعَـنْ بـالـذَّكـاءِ ذلـكَ العِشْـقَ امْـزُجَـنْ
لِلْفِـرَنْـجِ شعلـةٌ قَـدْ بُلِّلَـتْ قَلْبُهـم مـاتَ وعيـنٌ فُتِّحـتْ
جُـرِّحـوا لكـنْ بحـدِّ سَيْفِهـمْ يـا لَهُـمْ صَـرْعَـىٰ كَمِثْلِ صَيْـدِهِـم[3]
نشـوةٌ مـنْ كَـرْمِهِـمْ لا تَطْلُبَـنْ جِـدَّةً مـنْ عَصْـرِهـمْ لا تَـأْمُلَـنْ[4]
للحيـاةِ النَّـارُ فلتُشْعَـلْ بنـارِكْ
اصْنَـعِ العـالَـمَ وارْفَـعْ مـنْ مَنَـارِكْ
و « كمـالُ » حِيْـنَ نـادىٰ بـالجـديـدْ قـالَ : إنَّ المَحْـوَ لِلْعَهْـدِ العهيـدْ[5]
لَيْـسَ لِلْكَعْبَـةِ تَجْـديـدُ الحيـاة إنْ أتـى الكعبـةَ غـربـيٌّ بِـلاتْ !
مـا تَغَنَّـى التُّـركُ مـا قـالـوا نشيـدا بـلْ قـديـمُ الغَـرْبِ سَمَّوْهُ الجـديـدا

---

(١) السُّويداءُ : حبّة القلب .

(٢) هو سعيدُ حليمُ باشا الصّدر الأعظم الذي قتل عام ١٩٢١ في روما . ولقد فَرَضَ إجلاله حتى على خصومه لِسَدادِ رأيه ، ورجاحة عقله . والجامعُ بينه وبين الأفغاني أنَّ كلاًّ منهما صاحب نزعةٍ إسلاميَّةٍ إصلاحيَّة .

(٣) الصَّيد : ما يصاد .

(٤) الكرم : شجر العنب .

(٥) كمال هو مصطفى كمال أو كمال أتاتورك رائد تركية الحديثة . والعهيد : القديم .

نَفَسٌ آخرُ فيهم ما خَفَق		عالمٌ في القلب منهُمْ ما انْبَثَق
وافقوا العالمَ هذا لا جَرَمْ		فيه ذابوا شمعةً تَحْتَ الضَّرَمْ[1]
في الصَّميمِ طُرْفةٌ للكائنات		لمْ تكنْ تقييد تقويم الحياة[2]
إنَّ حيَّ القلبِ خلّاق الدُّهور		ومنَ التقليد كانَ ذا النُّفوز
مسلماً إنْ كُنتَ ذا عقلٍ منير		في الكتابِ انظرْ وفي هذا الضَّمير[3]
كمْ دُنى تَظْهرُ فيه منْ سُتُورْ		والعصورُ مَرُّها تلوَ العُصور
إنَّ دنيا مِنْهُ تكفي عَصْرَنا		إنْ عَقَلْتَ أنتَ فاجْعلها لنا
يؤمنُ الإنسانُ من آيات ربِّه		كلُّ دُنيا يَرْتديها مِثْلُ ثوبه
وإذا دنياهُ رثَّتْ ثوبها		قدَّم القرآنُ دنيا غَيْرَها[4]

* * *

زنده رود

زورقٌ نَحْنُ بلا هدي جرىٰ
عالمُ القرآنِ أينَ ؟ من درىٰ

الأفغانيُّ

عالمٌ في صدرنا هذا اختفى		في انتظارِ « قُمْ » لإنسانٍ غفا
ليسَ فيه أيُّ لونٍ أو دِماء		ما لغربِ ما لَدَيْهِ منْ بَهاء

---

(١) الضَّرم : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .
(٢) الطُّرفة : الشيء العجيبُ النادر .
(٣) الكتاب : القرآن .
(٤) رثَّ الرجل ثوبه : جعله رثاً أي غير صالح .

ليس فيه مِنْ ملوكٍ أو عبيد ... مثلُ قلبٍ في خلوٍّ منْ حُدُود[١]
عالمُ الحُسْنِ ، ومنْ فَيْضِ النَّظر ... بذرُه ألقي بقلبِ منْ عُمَر[٢]
سرمديٌّ فيه أحداثٌ تَدُومْ ... محكماتٌ فيه تهدي منْ يَرُومْ[٣]
لا يهابُ باطنٌ فيه التَّغَيُّرْ ... ولهُ الظَّاهرُ دوماً في التطوُّرْ
بينَ جنبيكَ ، عليكَ بالنَّظر
محكماتٌ ، ألق سمعاً للخبر[٤]

***

مُحْكماتُ العالَمِ القُرآنيِّ
خلافةُ الإنسان

أثرُ العِشْقِ بدا في العالَمِيْن ... ويرى في المرءِ منَّا رأي عَيْن
ليسَ سرُّ العِشْقِ من دنيا الرَّحم ... ما إلى سامٍ وحامٍ يَحْتَكم[٥]
كوكبٌ ، ما منْ شروقٍ أو غروبْ ... لا ولا يَدْري شمالاً مِنْ جَنُوب
قول ﴿ إني جاعل ﴾ تقديرُه ... بَيْنَ أرضٍ وسما تفسيرُه[٦]

---

(١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .

(٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آيةٍ قرآنية ، وهو يهمُّ بقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .

(٣) السَّرمديُّ : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .

(٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .

(٥) الرَّحم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السَّامي ، وكذلك حام وهو أبو السُّودان .

(٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا =

الحيــاة مِنْــهُ كــانــتْ والــرَّدى		نــورَ دُنيــانــا ونــاراً أوْجَــدا
الإمــامُ والصَّــلاةُ والحَــرَمْ		والمِــدَادُ والكِتــابُ والقَلَــمْ
غيبُــهُ يُمســي رُويــداً ذا الحضــوز		مُلْكُــهُ مــا فيــهِ حَــدٌّ أو ثُغُــوز
منْــهُ كــانَ اعْتبَــارُ الكــائنــات		واعتــدالٌ فيــهِ قــاسَ المُمْكِنــات
يــا لــه بحــراً بــلا شــطٍّ يفــور		قلبُـه قـد أُغـرقـتْ فيـه الـدُّهـور
إنَّمــا الإنســانُ دُنيــا قــدْ وَسِــعْ		هــذه الــدُّنيــا لَــهُ لــمْ تَتَّسِــعْ
وتجلَّــى فــإذا نــورُ السَّمــاء		واختلىٰ يـومـاً فجبـرائيـلُ نـائـي[1]

وعــنِ الأفــلاكِ أعلــى قَــدْرَهُ
والحميــدُ مــنْ تغنَّــى شُكْــرَهُ

مــا الحيــاةُ يــا بصيــرٌ هــل فَهِمْتَــا		أنْ تُـرى اثنيـنِ ، وَفَـرْدٌ مـنْ عَشِقْتَـا
يَـرْبطُ الجنسيـنِ مـوصـولُ الصِّلات		يَـرْسُمـانِ شـوقَ تِلْـكَ الكـائنـات[2]
تُشْعِــلُ المــرأةُ نيــرانَ الحيــاة		طبعُهــا لــوحُ لأســرارِ الحيــاة[3]
أضْـرَمَـتْ فـي الـرُّوح منهـا نـارَنـا		جــوهــرٌ فيهــا أتــمَّ خَلْقَنَــا
ممكنـاتُ العَيْـشِ مِنهَـا فـي الضَّمير		وثباتُ العيشِ في وَهْجِ الشُّعور[4]
إنْ يَغِـبْ عـن هـذه النَّـارِ الشَّـرَرْ		لــمْ يَلُــحْ جســمٌ وروحٌ للنَّظَــرْ
مــا لنــا مــنْ قيمــةٍ ، منهــا لنــا		رَسَمتْنَــا وأجــادتْ رَسْمَنَــا

إنْ حبــاكَ اللهُ عقــلاً لِلتَّفَكُّــرْ
طهِّــر النَفْــسَ بتقــديــسٍ لهــا انْظُــرْ

أفســدَ الإيمــانُ فيــكَ عَضْــرَنــا		يَكْشــفُ السِّــرَّ الخفــيَّ قــولُنــا

= تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطانٌ عليها ، وسيتصرَّف في موادها ليجعلها ملائمةً لحاجاته .

(١) يقول : إنَّ جبريل لم يقتحم عليه عزلته .

(٢) الجنسان : المراد بهما الرجل والمرأة .

(٣) اللوح : ما يكتب فيه .

(٤) الوهج : اشتعال النار .

فــي الجســومِ الخلــقُ نــارٌ تَتَّقِــدْ أيُّ فــردٍ حــولَهــا لــمْ يَسْتَفِــدْ ؟
مــنْ يَنَـلْ مــنْ هــذهِ النَّـارِ النَّصيبـا يَجْعَـلِ النَّفـسَ علـى الفِعْـلِ الرَّقيبا
إنَّــه ذو الــرأيِ فيمــا قــدْ عَمِــلْ لا يــرى الغَيْــر وَلٰكــنْ يَعْتمــلْ(١)
مُــدَّةً فــي الغــارَ ظــلَّ المصطفــى غَيْــرَ آثــارِ لــذاتِ مــا اقتفــى
رَسْمَنــا قــد أغــرقــوا فــي مُهْجَتِــه وأقــامــوا أمــةً مــنْ خَلْــوَتِــه
وعلــى إنكــار ربٍّ إنْ قَــدَرْنــا كـلُّ فضـلِ المُصْطفى حتماً عَـرَفْنَا
لــو أنــارتْ فيـك روحٌ كـالكليـم لَشَقِيْـتَ أنـتَ بـالفِكْـرِ العَقِيْـم

فــالخيــالُ فيــك تحيــي عــزلــةٌ
ثــم تــأتــي بعــد بحــثٍ ضــالّــةٌ(٢)

مــن مقــامــاتٍ لنــا علــمٌ وَشَــوْق لهمــا فيمــا جــرى لِلْقَــوْمِ حَــقْ
بهجــةٌ لِلْعِلْــمِ تحقيــقٌ دقيــق متعــةٌ لِلْعِشْــقِ خَلْــقٌ قــدْ يَلِيــقْ
صــاحــبُ التَّحقيــق رامَ المُنْجلــي صــاحــبُ الخَلْــقِ بــذاتٍ يَخْتَلــي
عيــنُ مــوســى رؤيــةَ الــدُّنيــا أرادتْ وإليهــا رغبــةَ التَّحقيــق سَــاقَــتْ
﴿ لن تراني ﴾ إنَّها المعنى الدَّقيق وَلْتَضِـعْ فيـهِ فـذا البحـرُ العَمِيـق(٣)
إنْ تَلْــخْ للعيــنِ آثــارُ الحيــاة تستمـدُّ النبـعَ جـوفَ الكـائنـات
هــذه الآفــاقُ بــالعيــنِ ازمُقَــنْ وتجلّــي ربِّهــا لا تَطْلُبَــنْ

---

(١) اعْتَمَلَ : عَمِلَ عملاً يتعلّق به دون سواه . والمبتكر : المجدِّد لا يقلِّد غيره .
(٢) الضَّالة : الناقة الضائعة التي لا يعرف لها صاحب . والمراد هنا ما يراد معرفته .
(٣) الشاعر يريد قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة . وفي شعرٍ لجلال الدين الرُّومي : أنَّ الله خالقُ الوجود من العدم ، والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق .

خلــوةٌ تحفــظُ كــلَّ مَــنْ صَنَــعْ
جـوهـراً فـي خـاتـمٍ كـانـت لَمَـعْ[1]

***

الحكمُ الإلهيُّ

إنَّ عبـدَ اللهِ لا يبغـي المقـامـا   مـا لـه عبـدٌ ولا كـانَ الغُـلامـا
إنَّـــه حـــرٌّ وذو نَفـــسٍ زكيَّـــة   مُلْكُـه هـذا مـن المـولـى عَطِيَّـة[2]
دينُـه والعُـرْفُ مـنْ ربٍّ كـريـم   حُلْـوُهُ والمـرُّ مـنْ ربٍّ عظيـم
جـازَ عقـلٌ فـي الغـرورِ حـدَّهُ   ولـه النَّفْـعُ تمنَّـى وَحْـدَهُ[3]
خيـرُ كـلِّ النَّـاسِ يبغـي وحـيَ ربِّـي   ويـرى الخَيْـرَ نـداءً كـيْ يُلَبِّـي
ويكـونُ السِّلْـمُ أو حتَّـى المَصَـافْ   لا يـراعـي منصـفٌ بـل لا يَخَـافْ[4]
وإذا الإنسـانُ أضْحـىٰ آمـرا   كـانَ لِلْمِسْكِيْـنِ حتمـاً قـاهِـرا

ومـــنَ القَهْـــرِ صُـــدُوْرُ أيِّ أمْـــر
ولغيـــر اللهِ أمْـــرٌ مَحْـــضُ كُفْـــر

آمـــرٌ بـــالأمـــرِ زكَّـــى عَقْلَـــهُ   مـــنْ قـــوانيـــن بنـــى حصنـــاً لـــه
إنَّ صقـراً فـي ذُرىٰ جـوٍّ يَطيْـرِ   صعـوةً فـي أمْـرِه قـدْ يَسْتَشِيـرْ[5]
قهـره القـانـون ، مفقـودُ البَصِيْـرَة   يضعُ الإثْمدَ في العَيْنِ الضَّريرة[6]

(١) يقول : إنَّ الخلوة تحمي كلَّ من أوجد شيئاً ، وهي فصٌّ من الجوهر لخاتمه .
(٢) الزكية : الطاهرة .
(٣) جاز : تجاوز .
(٤) المصاف : الموقف في القتال .
(٥) الذُّرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصَّعوة : أنثى الصَّع وهو عصفور صغير .
(٦) الإثمد : الكحل .

صاحبُ الأرضِ البدين ، كان شِرْعَه
والنَّحيــلُ زارعٌ مــا اقتــاتَ زَرْعَــه(١)

بئسَ ما في الغربِ حقّاً حُكْمُهُـمْ ويـزيـدُ الميـتَ مـوتـاً صُـوْرُهـم(٢)
يسحــرونَ ، خَــدْعُ دَهْــرٍ خَــدْعُهُـمْ من شعوبِ الأرضِ كان نَرْدُهُمْ(٣)
يَسْــرِقُــون ، ذا ثــريٌّ ذاكَ كَــادِح بالعداءِ بعضُهم للبعضِ كاشِحْ(٤)
يَكْشِــفُ الســرَّ جليّــاً قــولُنـا سلعــةٌ نحــنُ وَهُــمْ تُجَّــارُنـا
جَفْنُهُـمْ فـي المـالِ حُبّـاً قـد جَمَـدْ كــلُّ أمٍّ آدَهــا ثِقْــلُ الــوَلَــد(٥)
ويلهـمْ ! خـوفـاً على حُلْـوِ الثَّمَـرْ يُخْرِجُون الماءَ منْ جِذْعِ الشَّجرْ !
ولِكَيْــلا يبعــثُ العُــودُ الـرَّنينـا فـي البطـونِ قَتَلُـوا حتَّـى الجنينـا
عِنْـدَهُــمْ مــنْ كــلِّ فــنٍّ كثـرةٌ كــلُّ مـا حصَّلْـتَ منهـم عَبْـرَةٌ

يــا أسيــراً كــانَ مِــنْ تقليــدِهــم
الكتــابَ اقـرأ ، وَعُـذْ مـنْ أسْـرِهـم(٦)

***

الأرضُ ملكٌ للهِ

إنَّمــا الإنســانُ فــي شــرقٍ وَغَـرْب لامتلاكِ الأرضِ في حربٍ وَضَرْب
كعــروسٍ ولهــا كُنَّــا الــرِّجــالا سَحَـرَتْنـا ، قـطُّ مـا نلنـا الـوِصـالا

---

(١) البدين : السَّمين . والشِّرْعَةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذه قوتاً .
(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليبعث من في القبور .
(٣) النرد : شيءٌ معروفٌ يلعب به مع تحريك قطعٍ من العاج على لوحٍ من الخشب .
(٤) كشح له بالعداوة : أضمرها له .
(٥) جمدت العين : قل دمعها ، أو انقطع . وآده الحمل : أثقله .
(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضمَّنَـــتْ كـــلَّ خـــداعٍ دَلَّهـــا   فـــي هـــواهـــا إنَّنـــا لسنـــا لهـــا[1]
أيُّ شـــيءٍ رُمْـــتَ مـــنْ ذاكَ الحَجَـــرْ   إنَّـــه البـــاقـــي وَأَنْـــتَ فـــي سَفَـــرْ[2]
وعـــنِ اليقظـــانِ مـــنْ نَـــامَ افتـــرقْ   ومـــعَ السَّيَّـــار ضـــدٌّ مـــا اتفـــق[3]
هـــذه الأرضُ منحنـــاهـــا مَتَـــاعَـــا   مـــنْ شَـــرَاهـــا منحـــةً يـــومـــاً وبـــاعـــا[4]
مـــالـــكَ الأرضِ إليـــكَ القـــولُ عَنْهـــا   اتَّخـــذْ رِزْقـــاً وقبـــراً ثُـــمَّ دَعْهَـــا[5]
وإلامَ لَيْـــــتَ شِعْـــــرِي تبْقَيـــــان   قَـــدْ تَظَـــلُّ وَتَغِيـــبُ عَـــنْ عِيَـــان[6]
طُـــفْ بـــأفـــلاكِ السَّمـــاءِ كـــالعُقَـــاب   كنْ طهوراً واجْتَنِبْ رِجْسَ التُّراب[7]

إنَّمـــا الأرضُ لـــربِّـــي ، ذاكَ ظـــاهـــر
كـــلُّ مـــن أنْكَـــرَ هـــذا فَهـــوَ كـــافـــر

لـــم أقـــلْ دَعْ عنـــكَ هـــاتيـــك الـــدِّيـــارا   عـــالمـــاً تملـــك مـــنْ حســـنٍ أنـــارا
ارفعـــنْ عـــنْ جـــوهـــرِ الأرضِ التُّـــرابـــا   الْتَقِـــطْ حَـــبَّ النُّجـــومِ طِـــرْ عُقـــابـــا
في الجبال اضْرِبْ بفأسٍ صَخْرَها   وبنـــورٍ منـــك أوْقِـــدْ نـــارهـــا
وطـــريـــقُ آزرَ فلتجتنبهـــا   وكمـــا تهـــوى لـــك الـــدُّنيـــا أقِمْهَـــا[8]
بـــالجمـــالِ لا تَصِـــلْ قلبـــاً سَقِيمـــا   أعْطِهـــا قلبـــاً لهـــا كـــانَ الحَـــريمـــا[9]

---

(١) الدَّل : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .
(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياه وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .
(٣) السَّيار هو الكوكب السيار ، وضدُّه الكوكب الثابت .
(٤) شرى الشيء : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشترى .
(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقَك ، وتحفرُ فيها قبرك .
(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .
(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرِّجس : القذر .
(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .
(٩) الحريم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيطُ بتلك الأرض وتلزمُ حمايتها وحمايته .

أنمــوتُ ؟ مــا لنــا مــالٌ وقَبْــرُ   أنضيــعُ ؟ ولنــا أهــلٌ وَوَفْــرُ[1]
« لا إلــه » ولهــا القلــبُ اتَّسَــعْ   عــالمــاً فــي الـذَّاتِ إنســانٌ جَمَــعْ
كيــفَ فَقْــرُ الجــوعِ أو فَقْــرُ العُــراة
حُكْــمُ سلطــانٍ ، فَـدَعْ ذِكْـرَ العُفَـاة[2] !

* * *

(١) الوفر : الكثير من المال .
(٢) يقول : إنَّ الفقر هو حكمُ الحاكم . والعُفاةُ : السائلون والفقراء . والمراد بهم هنا الزُّهَّادُ .

القسم الثالث

فَلَكُ زُحَـــل

الحكمةُ خَيْرٌ كثير

قالَ ربِّي إنَّها الخَيْرُ الكَثِيرْ ... إنْ تَجِدْهُ فاغْتَنِمْهُ يا بَصِيرْ(١)
ولحرفٍ وَهَبَ العِلْمُ الجناحا ... للخَسِيْسِ رونقَ الغالي أتاحا(٢)
وإلى الأفلاكِ عِلْمٌ قَدْ طَلَعْ ... نظرةً مِنْ مُقْلَةِ الشَّمْسِ اقْتَلَعْ
للوُجُوْدِ ، ما يرى تَفسِيْرَهُ ... والمَصِيْرُ للوَرَىٰ تَقْدِيْرُهُ(٣)
للصَّحارى قال جودي بالحَبَابْ ... للْبِحارِ قال مُوْجي بالسَّرَابْ(٤)
عينُه دوماً على ما قَدْ جَرَىٰ ... أصلَ تِلْكَ الكائناتِ كي يَرَىٰ
كَنَبيٍّ ، ربَّه إمَّا ذكر ... وبقطعِ الفِكْرِ عنْ ربٍّ كَفَرْ(٥)
وَبِغَيْرِ القَلْبِ عِلْمٌ كانَ شَرَّا ... نورُه الظَّلماءُ بحرٌ ضلَّ بَرَّا
مِنْ دخانٍ عالمٌ أضحى كَفِيْفا ... والرَّبيعُ فيه قَدْ أمسى الخَرِيفا(٦)
الفَيافي والرِّياضُ النَّاضِراتْ ... والجبالَ هَدَّمَتْها الطَّائراتْ
صَدْرُ أهلِ الغربِ يُضْنِيْهِ اللُّهَابْ ... لذةٌ للسَّطْوِ والغَزْوِ اسْتَطَابُوا(٧)
نَكَّسُوا الأوضاعَ في أيامِنَا ... نَهَبُوا الأموالَ مِنْ أقوامِنا

---

(١) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أتاح : هيّأ .

(٣) أي أنَّ ما يراه العلم ، ويحكم به ، هو وحده ما يفسِّر الوجود .

(٤) الحَبَابُ : النفاخات على سطح الماء . والسَّراب : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء .

(٥) إمّا : تتألف من إن الشرطية وما الزائدة .

(٦) الكفيف : الأعمى . أي أنَّ المتصاعد من الدخان والغاز يعمي العيون .

(٧) اللهاب : مصدر من لهبت النار أي اشتعلت .

واستمدُّوا بَطْشَ إبليسَ الرَّجيمْ تُضبِح الأنوارُ ناراً بالجَحِيمْ[1]
قَتْلُهُ ما زالَ كالأمرِ الصَّعُوب إنَّه قد ضاعَ في عُمْقِ القُلُوب[2]
كان أولى مؤمناً أنْ تَجْعَلَهُ وبسيفِ لِلْكتابِ تَقْتُلُه[3]
ما جلالٌ لَيْسَ فيهِ منْ جَمَالْ ! أيُّ هجرٍ ذاكَ يخلو مِنْ وِصَالْ !
عِلْمُنا بالعِشْقِ عِلْمُ المؤمنينا وبغَيْرِ العِشْقِ عِلْمُ الكافِرِيْنا
جثةٌ عِلْمٌ لنا ما لَمْ نُحبْ ولنا العَقْلُ كَسَهمٍ لمْ يُصِبْ
هبْ عُيُوْنَ العُمْي نوراً تَشْهَدُهْ
واهدِ للإيمان منْ تَبَّتْ يَدُهْ[4]

زنده رود

محكماتٌ لي أبنتَ في الكتابْ عالمٌ ما زالَ يطوي في الحِجاب[5]
النِّقَابُ عن جبينٍ ما رَفَعْ ولماذا منْ فُؤادٍ ما طَلَعْ
وَلَدَيْنا عالمٌ فيهِ الدَّبيبْ للبلىٰ ، والنَّوم فيه لِلشُّعوبْ
في التَّتَارِ خَمَدتْ نارُ الغِلابْ أَلِمَنْ أسْلَمَ موتٌ والكِتَاب[6]

سعيد حليم باشا

إنَّ دينَ الحقِّ كالكُفرِ الصُّراح إنْ تردَّى الشَّيْخُ في الكُفْرِ المباح ! ![7]

---

(١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .
(٢) الصَّعوب : الصَّعب . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .
(٣) الكتاب : القرآن .
(٤) يقول : هب عيون العميان بصراً لرؤية الله بقلوبهم : ومنْ تَبَّتْ يداه هو أبو لهب . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] .
(٥) الكتاب : القرآن .
(٦) غالبه غلاباً بمعنى قاهره .
(٧) الصُّراح : الخالص . وتردَّى في الشيء : سقط .

طَلُّنــا يَبْــدُو كبحــرٍ عنــدنــا ‏ وَيُـرىٰ فـي البحـرِ هـذا طلُّنـا ![1]
مِـنْ أعـاجيـبِ لِمَـنْ بـاعَ الكِتـابـا ‏ كم تعالى صوتُ جِبْرِيْلَ انتحابا
فـي السَّمـاء لَـمْ تَشُقْـهُ جـولـةٌ ‏ عِنْــدَهُ أمُّ الكِتــابِ قَــوْلــةٌ[2]
مـا نصيبـاً نـالَ مـنْ دِيْـنِ النَّبـيِّ ‏ فــي ظـلامٍ لِضَيـاعِ الكَـوْكَـبِ
وضـريـرُ القَلْبِ يهـذي فـي النِّفاق ‏ تَعْمـهُ الأمَّـةُ منْـهُ فـي الشِّقـاق[3]
مكتـبٌ ، شيـخٌ ، وأسـرارُ الكتـاب ‏ أكْمـهُ والشَّمْسُ كُمْهـا لا تحـابي[4]
ديــنُ مــنْ يَكْفُــرُ تــدبيــرَ الجهــاد
فــي سبيــلِ اللهِ شيــخٌ فــي الفَسَــادْ
« رَجُـلُ اللهِ لِـدُنيـا الـرُّوح كـانـا » ‏ قُلْ لمنْ في عزلةِ الرُّكْنِ استكانا !
أنْـتَ يـا مـنْ للحيـاةِ الفكـرُ مِنْكـا ‏ وثبـاتُ الشَّعْـبِ قـولٌ قِيْـلَ عَنْكـا
حفــظُ قَــوْلِ الله كــان دَيْــدَنُــكْ ‏ نَشْـرُهُ فـي النَّـاسِ كـانَ مَـذْهَبُـكْ
ارْفَــعِ الــرأسَ تَكَلَّــمْ يــا كَلِيْــم ‏ مِـنْ يَـدَيْـكَ يَصْـدُرُ الأمـرُ العَظِيْـم
عـن بيـاضِ الشَّعْـبِ حـدَّثنـا طـويـلا ‏ وَلْتَـذَكَّـرْ بـالفـلا ظبيـاً جميـلا[5]
أنْــتَ حقّــاً مستنيــرٌ مــن مُحمَّــدْ
وَضْعُنا الحالي فصفه ، أينَ نُوْجدْ !
مــا استمــدَّ رجــلُ اللهِ البَشَــرْ ‏ واستمــدَّ مــنْ إلــهٍ قَــدْ غَفَــرْ

---

(١) الطَّلُّ : النَّدى .
(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .
(٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردَّد في الضلال ، ويتحيَّر في طريقه ، وكلامُ هذا الشيخ يوقعُ الناس في الحيرة والخلاف .
(٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .
(٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] وبيضاء ؛ أي : مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

كـلَّ يــومٍ سَعِــدَتْ روحٌ بِقُــرْبِــهْ		كـلَّ يــومٍ كـانَ فـي شـأنٍ كَـرْبِـهْ
مـؤمنـاً أوْقِـفْ علـى السرِّ الخفـيِّ		« كلَّ يومٍ » مُدَّ بالشَّرْحِ الجليِّ[1]
مـا لـركـبٍ نـزلٌ إلا الحَـرَمْ		فـي قلـوبٍ منهـمُ اللهُ الحَكَـمْ
وطـريقـاً آخـراً مـا إنْ ذَكَـرْت
نظـرةً أخـرى لهـمْ مـا إنْ عَـرَفْـت

* * *

الأفغانيُّ

منْ حديثِ المُصْطفىٰ نِلْتَ النصيبا ؟		كانَ دينُ الحقِّ في الدُّنيا غَريبا[2]
إنَّـه قـولٌ مِـنَ الأقـوالِ بكـرْ		مـا عنى بـالفقـر قـطُّ أهـلُ ذِكـرْ
عَنْـهُ مَشْغُـولٌ بِبَحْـثِ حُقْبـةْ		نـدرةُ الآيـاتِ كـانـتْ غُـرْبـةْ[3]
إنَّهـا فـي كـلِّ عَصْـرٍ تَخْتَلِـفْ		افْهَمـنَّ مـا أقـولُ يـا ثَقِـفْ[4]
امْنَـحِ القـرآنَ مـنْ فِكْـرٍ مـزيـدا		وكمـا شِئْـتَ افْتَتِحْ عصـراً جَـدِيدا
عَـنْ كتـابِ اللهِ مَـنْ زاحَ السِّتـارا		فيه أهْلُ الشَّرقِ والغَرْبِ الحَيَارىٰ[5]
هــؤلاء الـرُّوسُ شيئـاً أبْـدَعـوا		أوْجَـدُوا الخُبْـزَ وديـنـاً ضيَّعُـوا

---

(١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفتقر إليه كل من فيهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

(٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين المُتَمسِّكين بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقبل الأيام بين قومٍ غرباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديثٍ آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .

(٣) الحُقْبة : المدَّة من الدَّهر ، لا وقت لها .

(٤) الثَّقِفُ : الحاذق الفطن .

(٥) زاح : أزاح .

بـالِلّسـانِ الحـقُّ قُـلْ وانْظُـرْ بِعَيْـن
أَبْلِغَـنَّ القَـوْمَ مِنّـي لَفْظَتَيْـن

***

رسالةُ الأفغانيِّ إلى شَعْبِ رُوْسيا

إنَّ للقـرآنِ قَصْـداً آخـرا ... وَيرى في الشَّرْعِ هذا مَنْ يَرَىٰ
قَلْبُـهُ مـا فيـه نـارٌ تَسْتَعِـرْ ... صَـدْرُه فيـهِ النَّبـيُّ لـمْ يَسْتقـرْ
ثَمَـرَ القُـرْآن عَبْـدٌ مـا أَكَـلْ ... فـي يَـدٍ كـأساً دِهـاقـاً ما حَمَـلْ[1]
قيصـراً أفنـى وكِسـرَى حطَّمـا ... واعتلـى عـرشـاً لـهُ كـي يَحْكُمـا
دوحـةُ السُّلطـانِ طَـالَـتْ واسْتَـوَتْ ... صـورةٌ للْمُلْـكِ فـي الـدِّيـن انطوت

ومِـنَ الملْـكِ اختـلافُ النَّظْـرَةِ
واختـلافُ العُـرْفِ بـلْ والفِكْـرَةِ

أنـتَ أرْسَيْـتَ الأسـاسَ المُخْتَلِـفْ ... ومِـنَ المـاضـي قلـوبـاً تَقْتَطِـفْ
نحن في الماضي هَدَمْنَا الكِسْرَوِيَّهْ ... أنْـتَ قَـوَّضْـتَ بنـاءَ القَيْصَـرِيَّـه
كـي تُنِيْـرَ اليَـوْمَ مصبـاحَ الضَّمِيْـر ... عِبْـرَةً منّـا اتَّخِـذْ عَبْـرَ العُصـورْ
وَلْتُثَبِّـتْ قَـدَمَيْـكَ فـي المَصَـافِ ... حـولَ أصنـامِ حـذارِ مـنْ طَـوَافْ[2]
هـذه الـدُّنيـا العجـوزُ قـدْ أرادتْ ... شَعْبَها شيخاً ومنْ شَيْخٍ أفادَتْ[3]
ثُـمَّ ولِّ الـوَجْـهَ نَحْـوَ المَشْـرِقِ ... كَيْـفَ تَنْسَـىٰ يَـوْمَ مـاضٍ مُعْـرِقِ[4]
شعلـةً أخـرى بـروحٍ تُـوْقَـدُ ... ولـكَ العَصْـرَ الجـديـدَ تُـوْجَـدُ

---

(١) الدِّهاق : الممتلئة .
(٢) المصاف : موقف القتال .
(٣) أفاد : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .
(٤) وَلِّ : وجِّه . المُعْرِق : العريق في الكرم . يريد ليقول : إنَّ بين الرُّوس والشرق صلاتٌ تاريخيةٌ مجيدةٌ .

إنَّ دينَ الغرب قد أمسى رَمِيمَا   لا تشاهدْ ذلكَ الدَّيْرَ القَديما[1]
وَتَلَلْت الحاكمينَ اليَوْمَ تلاًّ   اتْرُكَنْ « لا » وَلْتُيَمِّمْ نحو « إلا »[2]
إنَّ « لا » ضِمْنَ كلامٍ كان نفيا   أنت بالإثباتِ خُذْ دوماً لتحيا[3]
وإذا شِئْتَ نِظَامَ العَالَمِ
فليكنْ فَوْقَ الأساسِ المُحْكَمِ
ومنَ التَّاريخِ تَمْحُو كلَّ بابْ   فاقبسِ الأنوارَ منْ أمِّ الكتاب
من يقولُ ماتَ كِسْرَىٰ ماتَ قَيْصَرْ ؟   بين سودٍ باليد البيضاءِ بشَّر ؟[4]
دَعْكَ منْ هذا التَّجَلِّي لِلشِّياتْ   اتركِ الغَرْبَ وأَدْرِكْ كُنْهَ ذَاتْ[5]
وَبِمَكْرِ الغربِ إنْ كَنْتَ الخبيرا   لا تُقَلِّدْ ثعلباً بلْ كُنْ هَصُورا[6]
أملُ الثَّعْلَبِ في الدُّنيا طَعَامْ   قولُ أُسْدِ الله « حُرٌّ أو حِمام »[7]
يُصْبحُ الثعلبَ ذيَّاكَ الأسد   دون قرآنٍ ، ومُلْكٍ ما اسْتَنَدْ
فَقْرُهُ مُلْكٌ وَذِكْرٌ ثمَّ فِكْر   واهبَ الفكرِ الكَمالَ كانَ ذِكْر
كانَ تهذيباً لأشواقٍ وَذَوْق   إنَّه في الرُّوح ، لم يُوْجَدْ بِحَلْق
في الصُّدورِ منهُ نارٌ تَلْتَهِبْ   وأجيجُ النَّارِ لمَّا تَسْتَطِبْ[8]
يا شهيداً في هوى الفِكْرِ الجميل
ذا تجلِّي الفكرِ في قولٍ طويل

---

(١) الرميم : العظم البالي .

(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لا » و« إلا » إلى « لا إله إلا الله » .

(٣) دوماً : دائماً .

(٤) السُّود : العرب .

(٥) الشيات : الألوان .

(٦) الهصور : الأسد .

(٧) الحِمام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .

(٨) أجيج النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

مـا هـو القـرآنُ ؟ هُلْـكُ الظـالمينا والخـلاصَ كـانَ للمُسْتَعْبـدينـا[1]
أهـلُ حِـرْصٍ أيَّ خيـرٍ حقَّقُـوا ﴿ لَنْ تَنالوا البرَّ حتَّى تُنْفقوا ﴾[2]
ليـس مـنْ هـذا الـرِّبـا إلا الفِتَـنْ مـنْ دَرَىٰ ما لـذةُ القَـرْضِ الحَسَنْ؟
يَجْعَـلُ الإنسـانَ صَخْـرِيَّ الفـؤادْ أو كليـثٍ أدْرَدَ وَسْـطَ المَصَـادْ[3]
عـن منالِ رِزْقُ أرضٍ مـا امتنـاع ! مُلْـكُ ربٍّ وهـيَ لِلْعَبْـدِ المتَـاع
الأميـنُ العَبْـدُ والـرَّحمـنُ مـالِـك كـلُّ شيءٍ غَيْـرَ وَجْـهِ الله هَـالِـك[4]
الملـوكُ نَكَّسُـوا للهِ رَايَـة والقُرَىٰ منْ ظُلمهم في الذلِّ غَايَهْ[5]

خبـزُنـا والمـاءُ تحـوي مـائـدهْ
إنَّمـا النَّـاسُ كنفـسٍ واحـده[6]

صـورةُ القُـرآن لمـا أظْهَـرَتْ صُـوراً أخـرى سِـوَاهـا أبْطَلَـتْ
وأقـولُ مـا بقلبـي يُضمـرُ أكتـابُ ذاك ؟ شـيءٌ آخـرُ ؟
مشبهُ الرَّحمٰنِ يخفى وَهْوَ ظاهِرُ دائـمٌ حـيٌّ وَمِنْطيـقٌ يُجـاهِـرُ[7]
وَلِغَـربِ فيـهِ أقـدارٌ وشـرقُ كُنْ سريعَ الفَهْمِ أسْرِعْ مِثْلَ بَرْقِ
قـال جُـذْ بـالـرُّوح جُـذْ لِلْمُسْلِـم فـوقَ مـا تحتـاجُ طـوعـاً قَـدِّمِ
أنْـتَ يـا مـنْ ذلـكَ الشَّـرْعَ اتَّخَـذْتـا فـي كتـابِ اللهِ نـوراً لَـوْ رأيتـا

---

(١) الهلك : الهلاك .
(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .
(٣) الأدرد : من ذهبت أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .
(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .
(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النَّمل : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .
(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .
(٧) المنطيق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَرَفْتَ ما تَعالى وانْحَدَرْ
في الحياةِ وَفَهِمْتَ ما القَدَرْ

ما مَعَ السَّاقي حوانا المَحْفَل مِعْزَفُ القرآنِ دوماً يَهْدِلُ[1]
لوْ خَلا عزفٌ لَدَيْنَا منْ أثَرْ في السَّماءِ لاسْتَمَعْنا لِلْوَتَرْ
ذكرُ ربِّي عن شعوبٍ في غنى لزمانٍ ومكانٍ ما انثنى[2]
أينَ مِنْ ذِكْرِ لربِّي منْ ذَكَرْ ما لروم ما لشامٍ منْ خَبَر[3]
لو أرادَ اللهُ عنَّا حَمْلَهُ لاستطاعَ لِسوَانا نَقْلَهُ[4]
ذلكَ التقليدُ فينا قدْ رأيتْ رِعْدَةً للرُّوح في جسمي وَجَدتْ[5]

في غدٍ قدْ يُحْرَمون ذِكْرَهُ
وبقلبِ الغَيْرِ يلقي نارَهُ

***

جلال الدِّين الرُّوميُّ

يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إنَّما الرُّوميُّ في جَذْبٍ تَفَجَّر وَعَرَفْتُ القولَ فيهِ كَيْفَ أثَّر
صعَّد الزَّفْرَةَ ناراً لِلْكُبودْ سَكَبَ الدَّمْعَ دماءً لِلشَّهيدْ[6]
بالسِّهام راشقٌ قَلْبَ الرِّجال سيِّدُ الأفغانِ خُصَّ بالمقال[7]

---

(١) المِعْزَفُ : آلة الطرب . وَهَدل الحمامُ : صوَّت .
(٢) يقول : إنَّ ذكرَ الله ليس خاصاً بشعبٍ خاصٍّ ، ولا ينتسبُ إلى زمانٍ ولا مكان .
(٣) يريد ليقول : إن ذكر الله منفصلٌ عن ذاكره ، ولا صلة له بالمكانية .
(٤) غرضُ الشاعر أنَّ الله لا يخصُّ بذكره قوماً بعينهم .
(٥) يعيب التقليد عند المسلمين .
(٦) الكبود : جمع كبد .
(٧) المراد بسيد الأفغان السيد جمال الدين الأفغاني .

« حمـرةٌ لـلأفـق ضَغها فـي الـوَتيـن … وسمـوطَ الحـقِّ أمْسِـكْ بـاليميـن[1]
بـالمُنـى الأرواحُ سيـلٌ ذو زَبَـدْ … إنَّمـا اليـأسُ لهـا مـوتُ الأبَـدْ »
وأشـار ثـم قـال « زنـده رود … فَلْيَكُـنْ بـالشِّعـرِ نـاراً ذا الـوُجـود
نـاقـةٌ مـنْ أيْنِهـا ضـاقَـتْ خُطـاهـا … آدَهَـا الحِمْـلُ وأنَّ مـنْ حَـدَاهـا[2]
امتحـانُ الطَّـاهـريـنَ بـالبـلاء … فَلْنَـزِدْ فـي طـولِ جُهْـدٍ للظُّمـاء[3]
وَعَـنِ النِّيـلِ ابْتَعِـدْ مِثْـلَ الكَلِيْـم … كـالخليـلِ فَلْتَسِرْ نَحْـوَ الضَّـريـم[4]

مـن حبيـبٍ نغمـةٌ مـاجَـتْ بطِيْـب
أمَّـــةٌ تَسْكُـــنُ داراً لِلْحَبِيْـــب »

* * *

غَزَلُ زنده رود

لَيْسَ زهرٌ في الرِّياضِ بالمقيم أبَدا … إنَّه يمضي كأمواجِ النَّسيم أبَدا
أينَ معنى ما وَجَدْنا بَعْدَ بحثٍ يا تُرَىٰ … مكتـبٌ يبقـى وحـانٌ كـالعَقيـمِ أبـدا
وَمِنَ الذَّاتِ تَعَلَّمْ أنْتَ حرفاً واحْتَرِقْ … تَعْدَمُ الخانقاه ناراً لِلْكَليمِ أبدا[5]

---

(١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والسُّمُوط : حبالٌ تتدلى من السَّرج .

(٢) الأين : التَّعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنَّى لها . يقول : إنَّ غناء من يسوق الناقة يبغي أن يصبح أنيناً بعد تعب ناقته .

(٣) الظُّماء : جمع ظامىء . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .

(٤) الضَّريم : الحريق وهو هنا نارُ إبراهيم عليه السلام . والشاعرُ يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذفه في النيل ليلقيَه بالسَّاحل .

(٥) الخانقاه : مبنىً يقيمُ فيه المتصوِّفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزٌ للمعرفة .

لا تحدَّثْ عَنْ صفاءٍ منْ بخانقاه سَكَنْ　　وَسِـخَ الشَّعْـرِ تـراه والأديـمِ أبـدا[1]
كَمْ بيوتٍ شَيَّدوها وَسْطَ بيتٍ واحدٍ　　لا يثيـرُ القَلْـبُ ريبـاً للمُقيـمِ أبـدا[2]
لَيْسَ خَطْباً أنْ يَضيْقَ بالنَّدامىٰ مجلسي　　إنَّـه ألَّا تـرى كـأسَ النَّـديـم أبـدا !

* * *

(1) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبةً منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ(أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .

(2) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إنَّ الموحِّدين لهم جميعاً فكرةٌ واحدةٌ لا ريب فيها ، وهو يَعْجبُ لانقسامِ القَوْمِ فرقاً وطوائف .

فلكُ الزُّهَرَة

يَحْجُبُ النُّورَ بدا بَيْنَ السَّحابْ ... مِنْ فضاءِ الصَّفِيْقُ مِنْ حِجَابْ[١]
واجَهُونا بالسُّتور عُلِّقت ... للتَّجلِّي كُلُّ نارٍ أخمِدَتْ
كي تَزيدَ النَّارُ في القلبِ اشتعالا ... وترى غُصْناً وبالأثمارِ طَالا
وبوقدٍ منه في وردِ دِمَاء ... زئبقاً بالرَّقصِ مِنْهُ كانَ ماءْ
هكذا مِنْ تُرْبِها الأرواحُ قامَتْ ... وبما لا تَشْهَدُ العينانُ لاذَتْ[٢]
والطريقُ يحتوي موتاً وَحَشْرا ... فيهِ لَكِنْ زوَّدوا بالنَّارِ سَفْرا[٣]
في الفضاءِ دارَ مُزْرَقُّ الفَلَكْ ... هابطٌ يعلو وما يَعْلُو انْسَبَكْ[٤]
وهي إبراهيمُ أو ذاكَ الحَرِيم ... كالذَّبيحِ ، في الفِدَاءِ لا يلُومْ ![٥]
السمواتُ وهذي خيبرُ ... لا يُجِيْدُ الطَّعْنَ إلا حَيْدرُ[٦]

---

(١) الصفيق : ضدُّ الرقيق .
(٢) التُّرْب : التراب .
(٣) السَّفْر : المسافرون . يقول : إنَّ النار كانت زاداً لهم .
(٤) انسبك الذَّهب : ذُوِّبَ وأُفْرِغَ في قالب . وبذلك يشبِّه انخفاض واستواء ما ارتفع .
(٥) الذبيح : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .
(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي لفتح أحد الحصون وكان عليٌّ أرمد . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمد بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن معه . وشدَّ عليٌّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهزم اليهودُ إلى حصنهم وبارزه يهوديٌّ آخر وضربه ضربةً شديدة حطَّمتْ تُرْسه . فتناول كرم الله وجهه باباً عند الحصن لِيُتَرَّس به عن نفسه . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طهَّـر الـرُّوْحَ الصَّـراعُ المُسْتمـرْ إنَّهـا تجـري بـه أو تَسْتَقِـرْ
وهـي فـي نـورٍ علـى نـورٍ تَطيـرْ وَلَـديْهـا الصَّيْـدُ جبـريـلٌ وَحُـورْ[1]

ثمَّ ﴿ ما زاغ البصر ﴾ يضحىٰ النَّصيبا
لمقـام « عبـده » تمسـي الـرَّقيبـا[2]

فـي مَقَـامـي لَسْـتُ أدري أيْـنَ كُنْـتُ إننـي عـنْ كـلِّ خُـلاّنـي نَـأيْـتُ
تَغْـدَمُ الحـربُ بصـدري عسكـرا مـنْ لـهُ عيـنٌ كعينـي قـدْ يَـرَىٰ
منْ دَرَىٰ ما الحربُ في كفرٍ ودين وَحْدَها نفسي كزينِ العَابدين[3]
أيُّ معنـىً للطَّـريـق والمَقَـام ؟ إنَّ شكـوايَ السِّـراجُ فـي الظَّـلام[4]
أهلَـكَ اليـمُّ الشيـوخَ والشَّبـابـا هـاكَ شَيْخـاً واحـداً جـازَ العُبَـابـا[5]
قَـدْ رَفعْـتُ السِّتْـرَ والسِّتْـرُ انطـوىٰ أرهـبُ الـوصـلَ وتبكيني النَّـوى[6]
الـوصـالُ آخـرُ الشَّـوقِ ! الحـذَرْ ! مـا لشكـوى وزفيـرٍ مـنْ أثَـرْ !
سـالـكٌ مـا إنْ رأى مَتْـنَ الطَّـريـق مـنْ فـراغ إنْ يَكُـنْ غَيْـرَ المُفيـق[7]

---

(١) الصيد : ما يصاد .

(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] . أي ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من العجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] ؛ أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريلُ إلى النبيِّ ولم يذكر المُوحَىٰ تفخيماً لشأنه .

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين رضي الله عنه ، رابعُ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقة السرِّ ، والحلم ، والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانتْ وفاتُه عام ٩٤هـ .

(٤) السِّراج : المصباح .

(٥) اليَمُّ : البحر . والعُباب : الموج .

(٦) النَّوى : البعاد .

(٧) الفَراغُ هنا هو : سكون النفس .

إنَّ لـــي قلبـــاً ومـــنْ ذَوْقِ النَّظَـــرْ عالماً يَشْتاقُ ، بالشَّوْقِ اسْتَعَرْ[1]
إنَّمـا الـرُّومـي بـروحـي تلـك أعْلَـمْ قـالَ يـا مـنْ عـالمـاً تبغـي تَسَلَّـمْ
في يمينِ العِشْقِ نَحْنُ وهوَ يَلْعبْ فتـأمَّـلْ ، يحتـوينـا أيُّ كَـوْكَـب[2]
عـالـمٌ والأسُّ مـنْ طيـنٍ ومَـاءْ منْ سواد المِسْكِ يَبْدُو في كِسَاءْ[3]
وبعيـنٍ مَـزِّقَـتْ كـلَّ الحُجُـبْ انظـرنَّ واختَـرِقْ كـلَّ السُّحُـبْ
ستـرى الأربـابَ حتمـاً كلَّهـا وأنـا أعْلَـمُ حقَّـاً حـالهـا
(بعلُ ومردوخُ ويعوقُ ونَسْرُ وفسرُ رم خن ولاتُ ومناةُ وعسرُ وغسرُ)
إنَّهـا لِلْبَعْـثِ تـأتـي بـالـدَّليـلْ
فـالـزَّمـانُ لَيْسَ فيـهِ مـنْ خَلِيـلْ[4]

***

عودةُ الجاهليَّة

مرَّ شاعرُ الإسلام ـ في بعض زياراتِه الرُّوحيَّةِ وسياحاتِه الفكريَّة ـ بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهةِ القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتَتْ أصنامَها وتماثيلَها ، وبَنَتْ عليها هياكلَ ومعابد ، وعَكَفَ عليها السَّدنةُ والكُهَّان ، وتغنَّى بها الشعراءُ والأدباء ، وكان مَجْمعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التابعة ، والأذواءِ من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

---

(١) استعرت النار : اشتعلت .
(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزُّهرَة .
(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .
(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيمُ الخليل عليه السلام محطِّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسيِّ ، فلتنطق كُلُّ واوٍ ضمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إلهُ الوَصْلِ ، وذلكَ ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشَّمس ، وذلك خَتَنُ القَمَر ، وهذا زوجُ المُشتري .

ثم إنَّهم أشكالٌ وألوان ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلَّد حيَّةً ولواها حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديِّ ، الذي أحدث الثَّورةَ الكبرى عليهم ، وأفْسَدَ عليهم العيشَ ، وولد العالم الجديد القائم على نبذِ الأصنام ، والمُؤَسَّس على عقيدةِ التَّوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضَرْبَةِ إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سُرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحَّبَ بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءَه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنَّ إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمتَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقةُ أملٍ لاحَتْ بعد مدَّة ، ونفحةٌ هبَّتْ من أرضٍ حكمناها طويلاً ، ونعِمْنا فيها كثيراً .

وكان بعلُ ـ إله الفينيقيين والكنعانيين القديم ـ أولَ من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغنِّي في طربٍ ومَرحٍ ، ويقول : « **إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنحُ له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنَّه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .**

حيَّا الله الإفرنجَ الذين عرفوا طبيعةَ الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذَّهبيَّةَ ؛ التي أتاحها لنا الدهاةُ الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدةَ التَّوحيد ، ونسوا العَهْدَ والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذَّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّةً من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وضيَّعوا ذلك الدِّينَ الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بَعَثَ فيهم الإيمانَ واليقين .

إنَّ الرجلَ المؤمنَ الحرَّ الذي لم يكن يعرف الحدودَ والجهات ، ولا يعبدُ غير الإله الواحد الذي خلق السمواتِ والأرضَ أصبحَ يؤمنُ بالوطن ، ويقدِّسه ، ويعبُده ، ويقاتلُ في سبيله ، ويكفرُ بالله ، ويهجرُه ويتناساه .

لقد خَضَعَ المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخُهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلَّدون شعارَهم ، ويقتفون آثارَهم ، فلنستبشرْ ولننتهزْ هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشبابُ ، وحُقَّ لنا أن نَطْرَب ، فقد انهزم الدِّين ، وانتصرت الوطنيةُ والجنسيةُ . إنَّ المصباحَ الذي أناره محمَّد ، تألَّبَ عليه مئةُ « أبي لهب » يطفئونه ، إنَّنا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنَّه صوت يصدرُ عن الشفتين ، ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غابَ عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحرُ الغرب دولةَ إله الشرِّ والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدِّين الإلهي مهدَّداً ، فطوبى لنا ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلواتِ والمغاراتِ .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرُّفُ المُطْلَق ، والحريةُ الكاملة في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنَّما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفةَ الدِّينيَّةَ بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتُهم إلا مكاءً ، وتصدية ، ونغمةً ، وأغنية ، وأيُّ لذةٍ في صلاة لا غناء فيها ، ولا موسيقا ؟!

إنَّ الناسَ لابدَّ يفضِّلون عبادةَ طاغوتٍ مشهودٍ على عبادة إلهٍ غائب ، وربٍّ لا يُرىٰ بالأبصار »[1] .

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ ـ ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظْلَمَ الغَيْمُ وَلِلرِّيحِ الخُفُوقْ ... في الظَّلام تَفْقِدُ النُّورَ البُروقْ ![1]
الرياحُ البحرُ فيها قَدْ تعَلَّقْ ... شَقَّتِ الثَّوْبَ بدُرٌ كمْ تَألَّقْ
لا يرى شطٌّ وموجٌ يَهْدرُ ... ما على صَرْعِ الرِّياحِ يَقْدِرُ[2]
ومَع الرُّوميِّ في بحرِ السَّوادْ ... حُلماً كنَّا بسوداءِ الفُؤادْ[3]
إنَّه المِسْفَارُ لَكِنْ لمْ أُسَافِرْ ... وعلى هذا رآني غَيْرُ صَابِرْ[4]
عاجزاً قُلْتُ كلاماً كُررا ... « عالماً آخرَ عَيْني لا تَرَىٰ »
وإذا للعينِ أطوادٌ تلوحْ ... وغديرٌ في مروجٍ وهي فَيْح[5]
وإذا في النَّجْدِ والسَّهْلِ الرَّبيع ... والنَّسيمُ يا لهُ مِسْكاً يَضُوْع[6]
ولنا الطَّيْرُ تَغنَّتْ بالجَوَىٰ ... والينابيعُ وعُشْبٌ ما استوى[7]
ذاكَ فَيْضٌ مِنْهُ للجسمِ البَقَاء ... وَلِعَيْنِ الرُّوحِ في الجِسْمِ الجلاءْ
وَمِنَ الطَّوْدِ نَظَرْتُ نَظْرةً ... لأرىٰ الدُّنيا ترفُّ نَضْرةً[8]
واستوى الوادي ومدَّ جانبيْه ... إنَّ ماءَ الخضرِ مشتاقٌ إليه ![9]

---

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هَدَرَ البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الروميُّ : هو جلالُ الدِّين الروميُّ ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبته .

(٤) المِسْفارُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النَّهر . والفيح : الواسعة .

(٦) النَّجد : ما ارتفع من الأرض . وضاعَ المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلألأ نضرةً .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلةٍ تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة وهو ينبوعٌ في أرضٍ بعيدةٍ تسمَّى دار الظلمات . ومنْ نَهَلَ نهلةً منه ضَمِنَ أن يكون من الخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنَّه خيطٌ من =

كـــلُّ ربٌ فيــه مــنْ ذاكَ الـــزَّمَــنْ — ربُّ مِضـــرَ ذا وذا ربُّ اليَمـــنْ
ذاكَ مِــنْ أربــاب عُــرْبٍ أو عِــرَاقْ — ذاكَ ربُّ الــوَصْــلِ ذا ربُّ الفِــرَاقْ
وسليــلُ الشَّمْــسِ صِهْــرٌ لِلْقَمَــرْ — مِنْ بـزوج المشتري خـصَّ النَّظَـرْ
واحــدٌ يختــالُ بــالسَّيـفِ الحُســامْ — آخــرُ فــي لِيْتِــهِ أفعــى السَّمــامْ[1]
كلهــم يـرتــاعُ مــنْ ذِكْــرِ الجميــل — ويخــافُ كلُّهــم بَطْــشَ الخَليْــلْ[2]
« إنمــا المــرءُ مــن المــولــى هَـرَبْ — والمصلّى»، قال مردُخ ، وانْتَحَبْ[3]
« وكـــأنَّ العقـــلَ منـــه أومضــا — وهـو لا ينسىٰ زمـانـاً قـدْ مَضَـى[4]
ظــلَّ يستحســنُ مــا كــان القَــدِيمـا — فــي تجلِّينــا يــرىٰ شيئــاً عَظيمـا
ويَجِــدُ الــوَهْــمُ فــي هــذا الــزَّمـانِ — وتهــبُّ الــرِّيــحُ ريحـاً لـلأمـانـي »[5]
ثــم غنَّــى بعــلُ مــنْ فَــرْطِ الطَّــرَب
ســـرَّنـــا أفشـــاهُ عِنْـــدَ كـــلِّ رَبّ[6]

***

أغنيةُ بَعْل

مـــزَّقَ المـــرءُ السِّتـــارَ الأزرقـــا — مـــا استطـــاعَ ربُّـــه أن يَـــرْمُقَـــا[7]

= فضة . فشرب منه ، وتلفَّت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولماء الحياة هذا ذكرٌ متردِّدٌ في الشِّعر الفارسي الصُّوفيِّ على أنَّه رمزٌ للحقيقة .

(١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسِّمام : السموم .
(٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .
(٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها . ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .
(٤) أومض البرق : ومض ولمع .
(٥) يجد : يصبح جديداً .
(٦) بعل : اسم إله عند الساميين .
(٧) رمقه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَــوْجَــةٌ لِلفِكْــرِ تغشــى قَلْبَــهُ   مَـوْجَـةٌ أخـرى لهـا أنْ تَفْـرَقـا(١)
روحُـه بـالحـسِّ أمْسَـتْ فـي قَـرَارْ   منيةَ المـاضـي عسـى أنْ تصـدقـا(٢)
نحـنُ حـابـونَ بِعِلْـمٍ فَلْيَعِـشْ   عـالِـمٌ أحيـا بعلـمٍ مَشْـرِقـا(٣)

أيُّهـا الأربـابُ قـدْ آن الأوانْ

قِـفْ تـأمَّـلْ وَحْـدةً قَـدْ شُتِّتَـتْ   و ﴿ ألسـت ﴾ عِنْـدَ قـومٍ أُبطِلَـتْ(٤)
حُطِّمَـتْ كـأسٌ بـأيـدي ثُلَّـةٍ   خمـرُ جبـرائيـل منهـا أُسْكِـرَتْ(٥)
كـلُّ حـرٍّ فـي قيـودٍ مـن حـدود   وصْلَـةٌ بـالله مِنْـهُ صُـدِّعَـتْ
سـؤددُ الأسـلافِ بـردٌ فـي دمـاء   وزنـانيـرُ الشُّيـوخِ شُـوهِـدَتْ(٦)

أيُّهـا الأربـابُ قـدْ آن الأوان

بَعْـدَ دَهْـرٍ عـادَ يـومٌ لِلطَّـرَب   أصبـح الـدِّيـن صـريعـاً لِلنَّسَـبْ(٧)

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كلُّ مجموعةٍ منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقةٌ في الرَّوي ، ويتلو كلَّ قسمٍ بيتٌ مستقلٌّ يُكَرَّرُ . وقد التزمنا في الترجمة رويَّ هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . ويَفْرَقُ : يخاف .

(٢) المنية : الأمل .

(٣) الحابي : واجدُ الحياة . وكأنَّ هذا الإله يدعو بطولِ البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرقَ بعلمه .

(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقررنا بوحدانيتك .

(٥) الثلَّة : الجماعة من الناس .

(٦) الزَّنانير : جمع زُنَّار . وهو ما يَشُدُّ به النصراني وسطه .

(٧) يقول : إنَّ العنصرية طغت على الدِّين .

لا تفكــرْ فــي ســراجِ المُصْطفــى أخمـدَ الشُّعْلَـةَ فيـه « بـولهـب »[1]
« لا إلــه » فــي لســانِ نــاطــقٍ عــن فــؤادٍ شُــرِّدَتْ يــا لِلْعَجَـبْ !
إنَّ سِحْـرَ الغَـرْبِ أحيـا أهْـرَمـنْ[2] وَجْـهُ يـومِ اللهِ مـنْ لَيْـلٍ شَحَـبْ
أيُّهــا الأربــابُ قَــدْ آنَ الأوانْ

دينُـك القيــدُ تحــرَّرْ مــنْ قُيُــود عبـدُنـا قـد كـانَ حُـرّاً فـي عبيـد
وعليــهِ كــي نَشُــقَّ فــي صــلاة ركعتيـن نبتغـي ، مـا مـنْ سُجُـود
إنَّمــا النَّغْمــةُ تُعلــي جــذبــةً مـا الصلاةُ وهـي تخلـو مـنْ نَشِيْـد
إنَّ خيــراً مــنْ إلــهٍ قــد تــوارىٰ ذلـكَ الشَّيطـانُ يبـدو فـي الشُّهـود
أيُّهــا الأربــابُ قــدْ آنَ الأوانْ

***

الغوصُ في بَحْرِ الزُّهَرَة ومشاهدةُ روحِ كتشنر وفرعون

مَيَّــزَ الــرُّومــيَّ ذكــرٌ لِلْجَمِيْــلْ ضــربُــه يُشبِـهُ ضَــرْبـاً لِلْخَليـل
غــزلًا قــالَ وَبــالسُّكْــرِ اتَّقَــدْ كــل رب فــي خشــوعٍ قــدْ سَجَـدْ

غزل

«خصّ ما يمضي ويأتي بالنَّظر، ذاكَ أوْلَى انْهَضَنَّ خذ بأفكارٍ أُخَرْ ، ذاكَ أوْلى
نـاقـةُ الأيـامِ أوسـاقـاً لِعِشْـقٍ حُمِّلَـتْ ارْحَلَنَّ في المساءِ والسَّحَرْ، ذاكَ أولى[3]

---

(١) السِّراج : المصباح . وبو لهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .
(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .
(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقلُّ أبياتها عن سَبْعَةَ عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالرَّديف ، وهو كلمةٌ أو كلامٌ يُكرَّر بعدَ كلٍّ=

قالَ شَيْخٌ ما لِدُنيانا أساسٌ مُحْكَمُ ... ينبغي عمَّا بها قَطْعُ النَّظَرْ ، ذاكَ أولى

أنتَ بالتَّركِ أتنساها ولَوْ حاولتَه ... قلْ وُجودي ليس عِنْدِي ذا خَطَرْ ذاكَ أولى[1]

قلتُ في قلبي مناةٌ وكثيرٌ غَيْرُها ... قال في المعبد حطِّمْ ذا الحَجَرْ ، ذاكَ أولى »

قال « فانْهَضْ مُسْرِعاً واقْدَمْ إليَّا ... بيْ تَمسَّكْ لا تَدَعْني يا بُنَيَّا

الجبالُ وهيَ مِنْ موسى خَلَتْ ... بالثُّلوج مِنْ لُجَيْنٍ أصْبَحَتْ[2]

خَلْفَها قَدْ لاحَ بحرُ الجَوْهَرِ ... وانجلى بالجَوْفِ لا بِالمَظْهَرِ

أيُّ بأسٍ مِن عُبابٍ أو أتيٍّ ... قَرَّ عيناً بسكونٍ سَرْمَديٍّ[3]

إنَّ في هذا مَقَامُ مِنْ تجَبُّرْ ... ووجودُ كلُّ ما قدْ غابَ أنْكَرْ

ذاكَ شرقيٌّ وذا من أهلِ غَرْبِ ... معَ أهْلِ الحقِّ في حربٍ وَضَرْبِ[4]

وعصا موسى على هذا تَهَاوَتْ ... والرفيقَ مديةُ الدَّرْويشِ غَالَتْ[5]

مِثْلُ فِرْعَوْنَ الصَّغيرِ والكبيرْ ... ظامئانِ بَيْنَ أمواجٍ تَثُورْ

يعرفانِ الطَّعْمَ مرّاً للرَّدىٰ ... مَوْتُ جبارٍ كآياتٍ بَدَا[6]

سِرْ ورائي يا بنيَّ لا تَخَفْ ... هاكَ كفِّي فما قلبٌ وَجَفْ[7]

وكموسى البَحْرَ إنِّي فالقُ ... فيْهِ يَحْويك فؤادٌ خافقُ

شقَّ مِنْهُ البَحْرُ صدراً كالضِّياءْ ... أهَواءٌ كانَ يبدو مِثْلَ ماءْ

قاعُهُ مِنْ كلِّ لونٍ قدْ خلا ... إنَّهُ وادي الظلامِ في الفَلا

= بيت تُلْتَزَمُ قبله قافيةٌ موحَّدة . وقد احتفظنا في الترجمة بقافية الأصل . والأوساق : جمع وَسْق ، وهو حِمْلُ البعير .

(١) الخطر : الأهمية وارتفاع القدر .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) الآتي : السَّيْل . والسَّرمدي : الدائم .

(٤) الحقُّ هنا هو الله .

(٥) المدية : السكين . وغاله : أهلكه .

(٦) يقول : إنَّ هلاك الجبار منْ آياتِ الله .

(٧) وجف القلب : اضطرب .

ومــنَ القُــرآنِ طــهَ الشيــخُ يتلــو	فإذا القمراءُ جوفَ البحرِ يَجْلُو[1]
ونَضَــتْ عنهــا الجبــالُ ثَــوْبَهَــا	رَجُــلانِ حــائــرانِ بينهــا
لــم تشــاهــدْ وجــهَ شيخــي مَــرَّةً	بعضُهــا ألقــى لبعــضٍ نَظْــرَةً
قــال فــرعــونُ أيُجــري البحــرَ نُــوْر !	أصبــاحٌ مِــلْءَ عينــي أمْ ظُهُــورْ !

الروميُّ

الخفــي منــه وَضَّــاحُ الجَــلاء	واليَــدُ البيضــاءُ أصْــلٌ للضِّيــاء[2]

فرعون

آهِ عقلــي آهِ دِينــي قَــدْ فَقَــدْت	ونظــرتُ والضيــاءَ مــا عَــرَفْــت
امنحــونــي نظــرةً يــا مــنْ مَلَكْتُــمْ	وهبــونــي لَفْتــةً يــا مــنْ ظَلَمْتُــمْ[3]
بِئْسَ مِنْ حرصٍ لهم أعمىٰ البَصائِرْ	يُخْرِجُوْنَ التِّبْرَ منْ جَوْفِ المقَابِرْ[4]
ذلــكَ التِّمثــالُ فــي دارِ العَجــائِــب	صَمْتُــه يــروي لنــا كــلَّ الغَــرائِــبْ
جــاءنــا عَــنْ غــاصبيــنَ بــالخَبَــرْ	عيــنَ عميــانٍ أنــارَ بــالبَصَــرْ
مــا يــريــدونَ لنــا غَيْــرَ الشِّقــاق	والأســاسُ أحكمــوهُ بــالنِّفــاق
ولهــذا دبّ فــي الحكــم الخَــوَرْ	والفســادُ ، وتَفشَّــى كــلُّ شَــرْ[5]

لــو بــدا مــوســى كليــمُ الله لــي
لالتمســتُ منــه قَلْــبَ العــاقِــلِ

---

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكأن جوف البحر يُظْهِرُ نور القمر .

(٢) يلمح إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .

(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنقبين عن آثار الفراعنة .

(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّوْميُّ

إنَّ نُـوْرَ الـرُّوْحِ لِلْحُكْـمِ الفـلاحْ وَاليدُ البيضا بها المُلْكُ المُبَاحْ
حـاكـمٌ يقـوى بِضَعْـفِ مـنْ حُكِـمْ وبحـرمـانٍ لكـلٍّ مـنْ حُـرِمْ
يَلْبَـسُ التَّـاجَ بجمـعٍ لِلْخَـراج ورجالَ الصَّخْرِ كانوا منْ زُجَاجْ
المغيْـرُ مَـنْ لـه جيـشٌ وَقَيْـدْ حـاكمٌ عنْ مِثْلِ هـذا منْ يَصُدّ

اللورد كتشنر(١)

إنَّ للغـربـيِّ قصـداً قَـدْ ظَهَـرْ ولأجـلِ التِّبْـرِ كـمْ قبـرٍ حَفَـرْ
إنَّ تـاريخـاً لِمصْـرَ والكَلِيْـم مـا نـراهُ اليوم فـي سِفْـرٍ قَـدِيْـم(٢)
إنَّمـا بـالعلـمِ للسـرِّ الظُّهـور حكمةٌ والبَحْثُ ، أو شيءٌ حَقِيْر(٣)

فرْعون

بـالعُلـومِ كشَّفـوا عنَّـا الحَجَـرْ
كـان للمهـديِّ قبـرٌ ، مـا الخبـر ؟

---

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتناهيه في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حقَّق من ذلك بغيته ، أمعن في التشفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليدرك بثأر القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنبش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاءَ الله له أن يذوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أنْ هَوَتْ به السفينةُ إلى قاعِ اليمِّ .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إنَّ الحكمة بلا بحثٍ تُعَدُّ شيئاً حقيراً .

ظهورُ دَرْويشِ السُّودان

هــو ذا فــي المــاءِ بــرقٌ يــأْتَلــقْ ثُــمَّ يعلــو المــوجُ حتَّــى يَنْـدَفِـقْ
وَمِـنَ الفِـرْدَوْسِ ضـاعَ نَفْـحُ عِطْـر لاحَ بـالـرُّوحِ لنـا درويشُ مِصْـر[1]
إنَّ منهــا الــدُّرُّ فــي القــاع اسْتَقَـرْ « كشنر » في صَدْرِهِ ذابَ الحَجَرْ[2]
قــال « كشنــر انْظُــرَنَّ يــا فَهِــم إنَّمــا هــذا تــرابــي يَنْتَقِــمْ[3]
مــا حبــاكَ الله مــن قبــرٍ يَضُمُّــكْ بـل رُمِيْـتَ بيـنَ أمـواجٍ تَطُمُّـكْ »[4]
ثُــمَّ ضــاعَ فــي اللِّســانُ المَنْطِـقُ والــزَّفيــرُ مــنْ حَشَــاه يَخْــرِقُ
قـال « هبِّـي أنــتِ يـا روحَ العَـرَبْ قلدي الأسلافَ في ماضي الْحُقَبْ[5]
يـا فـؤادُ ! ابـنَ السُّعـود ، فيصـلُ كلكـم مِثْـلَ الـدُّخَـانِ يَـرْفُـلُ[6]
أوْقِـدُوا فـي الصَّـدْرِ نـاراً أُخْمِـدَتْ أرْجِعُــوا أيــامَ دُنيــا ضُيِّعَــتْ
واديَ البطحــاءِ أنجــبْ خــالــدا نشتهــي التَّــوْحيــد فيــكَ غَــرَّدا
أمــةَ الإيمــانِ ، يــا ســودَ الجلـود منكــمُ أستــافُ عِطْـراً لِلْخُلـود[7]
فــإلامَ تَجْهَلُــونَ سَيْــرَكُــمْ وتــولُّــون سِــوَاكُــمْ أمْــرَكُــمْ
ليــت شعــري هَــلْ تخــافــونَ البـلاء

---

(١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفح : فاح .
(٢) كشنر هو اللورد كتشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستعر : التهب .
(٣) الفَهِمُ : السريع الفهم .
(٤) طم الماء : غمر .
(٥) الحُقَبُ : جمع حِقْبة : وهي السَّنةُ والمدَّة من الزَّمان لا وقْتَ لها .
(٦) فؤاد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفي عام ١٩٣٣ .
(٧) السُّود : هم العرب . واستاف : شمَّ .

البــلاءُ كـــانَ لِلْمـــرءِ الصَّفـــاء[1]

قـد سَكَنَّـا يثـربـاً والحِـبُّ نَجْـدَا ... أيـنَ يـا حـادي حـداءٌ هـزَّ وَجْـدَا[2]

ديمــــةٌ تهمـــي وأرضٌ خُضِّـــرتْ ... فكـــأنَّ الخَطَـــواتِ أُثقلَـــتْ[3]

الفـــراقُ وهـــو يُضنينـــي طَـــوِيـــل ... امـضِ فـي أرضٍ بهـا عُشْبٌ قليـل

نشـوةُ النَّـاقـةِ عشـبٌ ، لـي حبيـب ... لكَ حبلٌ ، وَلِمَنْ أهْوَىٰ قُلُوبْ[4]

جعلـوا للمـاءِ فـي الصَّحـرا سبيـلا ... فـي الجبـال بَلَّـلَ المـاءُ النَّخيـلا

وتتـــالـــتْ فـــي التِّـــلال ظبيتـــان ... فتـأمــلْ ، كيــف مِنْهــا تَهْبِطــان

تـــرشفـــان مِـــنْ ميـــاهِ النبـــع قَطْـــرا ... تـــرمُقـــانِ مـــنْ بتلـــكَ الأرض مُـــرَّا

وَمِـــنَ المـــاءِ الـــرِّمـــالُ كـــالحـــريـــر ... هـــانَ فيهـــا كـــلُّ سيـــرٍ لِلْبَعيـــر[5]

مثـــلُ رِيشـــاتِ السَّمـــانَـــاةِ الغَمـــامْ ... أرهـب الغيـثُ فَقَـدْ شـطَّ المَقَـام[6]

قـــد سكنَّـــا يثـــربـــاً والحـــبُّ نَجْـــدَا

أيـــنَ يـــا حـــادي حُـــدَاءٌ هـــزَّ وَجْـــدَا »

* * *

---

(١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيِّ قال فيه : (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثلُ إلى أن قال : فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) .

(٢) يثرب : المدينة المنورة . والحِبُّ : الحبيب . والحادي : منْ يسوق الإبل . ويغني لها .

(٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضَّر الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إنَّ المطر يُنبتُ العشب في الأرض ، فيصبح سيرُ الإبل في الأرض المعشبة صعباً .

(٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إنَّ الناقه تجد في العشب لذَّتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .

(٥) هان : سهل .

(٦) السماناة : مفرد السُّمانى ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشطَّ : بَعُدَ .

القسم الرابع

فَلَكُ المِرِّيْخ

أهْلُ المِرِّيخ

تَحْـتَ هـذا المـاءِ عَيْنـي أُطبِقَـتْ ثـمَّ عنِّـي الـذَّاتُ منِّـي أُبْعِـدَتْ
نَحْـوَ دُنْيـا طـابَ لـي أنْ أرْحَـلا والـزَّمَـانُ والمكـانُ بُـدِّلا
شَمْسُنـا فـي الأفْـقِ منهـا أشْـرَقَـتْ ولهـا ليـلاً وصبحـاً أوْجَـدَتْ
فـإذا بـالجسـمِ روحـاً يَجْهَـلُ عـن زمـانٍ ومكـانٍ يُفصَـلُ
روحُنـا كـلَّ لهيـبٍ تُخْمِـدُ إنَّهـا فـي كـلِّ وقـتٍ تُسْعِـدُ
لـم تَشِـخْ ، واليـومُ مـرَّ كـالطيـور إنَّ لـلأيـامِ مِنْهـا ألـفَ نُـوْر[1]

هـذه الأيـامُ مِنْهـا كـمْ تـوَالَـتْ
الـدُّنـىٰ منهـا وَلَـوْلاهـا لَـزَالَـتْ[2]

ذلـكَ المَـرْصَـدُ فـي مـرجٍ سَمَـقْ الثُّـريـا قَـدْ يَصيـدُ بـالـوَهَـق[3]
القِبَـابُ الخضـرُ لَاحَـتْ أشْهَـدُ عـالَـمٌ هـذا لَـدَيْنَـا أسْـوَدُ
لاتسـاعِ مـا أرىٰ حـدّاً طَلَبْـت فـي فضـاءِ لِلسَّمـاءِ كـمْ نَظَـرْت
قـالَ شَيْـخُ الـرُّومِ وَهْـوَ مـرشـدي « أنتَ في المرِّيخ فاسمعْ واشْهَدِ
مثـلُ دنيـانـا لـه لـونٌ وَرِيْـح فيـهِ بلـدانٌ وبُنْيـانٌ وَسُـوح[4]
وكـأهـلِ الغَـرْبِ فيـه مـنْ سَكَـنْ سبقـونـا كلّنـا فـي كـلِّ فَـنْ

---

(١) شاخ : صارَ شيخاً .

(٢) الدُّنى : جمع دنيا .

(٣) سَمَقَ : ارتفع . الوَهَقُ : حبلٌ في طرفه أنشوطة يطرح في عنقِ الدَّابة حتى تؤخذ . والشاعر يشبه المنظار الطويل الذي تشاهد به النجوم في المرصد بالوَهَق .

(٤) السُّوح : جمع ساحة . والرِّيح : الرائحة .

قَهَـرُوا حتَّـى الـزمـانَ والمكـانـا   فـي علـومٍ لِلفَضَـا كـلٌّ شـآنـا[1]
إنَّ وعــراً فــي العقــولِ مَهَّــدُوا   الخفـايـا فـي الفَضَـاءِ شـاهَـدوا
قلـبُ أهـلِ الأرضِ بـالطِّيـن المُقيَّـدْ   وهناكَ الجِسْمُ بالقَلْبِ المُصَفَّدْ[2]
كــانَ بــالطِّيــنِ لقلــبِ مَنْــزِلُ   كــلُّ مــا شــاء بيــنٍ يَفْعَــلُ
تَهَــبُ الــرُّوحُ الخُمــارَ والسُّــرورا   تمنحُ الغيبَ لجسـمٍ والحُضُـورا[3]
الــوجــودُ عنــدنــا فــي مَظْهـريـنْ   جسمنـا والـرُّوحُ مـا لاحَـتْ لِعَيـنْ
جسمنـا والـرُّوحُ طَيْـرٌ فـي قَفَـصْ   ساكنُ المرِّيخ عنْ فِكْرَىٰ نَكَصَ[4]
وإذا مــا جــاء يــومٌ لِلْفِــراقْ   أصبـحَ الإنسـانُ حيَّـاً بـاخْتِـراقْ
بــالمنــونِ ذلــكَ الإنســانُ يُخْبَــرْ   ويقـالُ بَعْـدَ يـومٍ سـوف تُقْبـرْ[5]
روحُهــم بــالجســمِ مــا إنْ رَبَّبــوه   ولهــذا جِسْمُهــم لــم يــألَفُــوه[6]
انـدمـاج الجسـمِ فـي النَّفْـسِ الفَنَـاءْ   وَمِـنَ الـدُّنيـا فـرارٌ وانطـواءْ[7]
وكــأنــي قُلْــتُ مــا لا يُفْهَــمُ   لــكَ روحٌ وبجســمٍ تُحْكَــمُ !
بــرهــةً لا غَيْــرَ تبقــىٰ هــاهنــا
لــمْ يُشـاهِـدْ مثـلَ هـذا غَيْـرُنـا

* * *

---

(١) شأىٰ : سبق .
(٢) صفد : قيد .
(٣) الخمار : صداع السكر والمراد هنا السكر .
(٤) الفكرى : إعمال الخاطر في الشيء .
(٥) المنون : الموت .
(٦) ربيه : رباه .
(٧) يقول : إن الفرار من الدُّنيا ، والانطواء على النفس موتٌ كإدماج الجسم في النفس .

ظهور فلك المِرِّيخ منَ المَرْصَد

ذاكَ شَيْخُ العِلْمِ بالثَّلج التحىٰ ممسياً كانَ بعلمٍ مصبحا[1]
كشيوخِ الغَرْبِ في الفِكْرِ السَّبُوْح كنصارى الغربِ في لُبْس المُسُوحْ[2]
وهو هِمٌّ بقوامٍ مِثْلَ سرو مشرقُ الوَجْهِ كأتراكِ بِمرو[3]
وعلى علمٍ بمعنى لِلطَّريقْ لَمَعَتْ عيناهُ بالفِكْرِ العَمِيقْ
وكوردٍ كان قد ألقى الكِمَاما قال كالخيَّام والطوسي كلاما[4]
« قالبُ الطِّينِ أسيرُ الكيفِ والْكَمْ وهو في « تحت » و« فوق » لم يُقَمْ
وأطارَ التُّرْبَ ، ريشٌ ما نَبَتْ جوهرَ السَّيارِ أعطى ما ثَبَتْ »[5]
عَقْلُهُ والقول كالماءِ النَّميرْ منهما شاهَدْتُ عَرْضَ المُسْتَحِيرْ[6]
كانَ حلماً ما أرىٰ أمْ كان سِحْرا ساكنُ المريخ هذا قال شِعْرا !
قال « في عهدِ النَّبيِّ المصطفى بيننا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصَّفا

---

(١) أمسى وأصبح : دخل في المساء والصباح .

(٢) الفرس السَّبوح : السريع . والمسوح : جمع مسح بالكسر وهو الكساء من شَعْرٍ ، كثوب الرُّهبان .

(٣) الهِمُّ : الشيخ الفاني . ومَرو : عاصمة خراسان بإيران . والأتراك مضرب المثل في الحسن عند شعراء الفرس .

(٤) الخيَّام : هو العالم الفلكي المفكِّر عمر الخيام صاحب الرُّباعيات المشهورة من أهل القرن السادس الهجري . والطوسي هو نصيرُ الدين الطوسي من أهل هذا القرن . وله المؤلفات في المنطق والحكمة ، والأخلاق ، والعقائد . وله شهرةٌ مستفيضةٌ بحذقه في علم الفلك . وقد ارتقى هذا العلم بفضلٍ منه ، وأسَّس هولاكو مرصداً في مدينة مراغة كان نصير الدين يرأس العمل فيه .

(٥) التُّرب : التراب . يقول : إنه أطار الترابَ وما للتراب ريش ولا جناح ليطير ، ثم أشار إلى الكواكب السيارة والثابتة .

(٦) الماء النمير : الماء الكثير . والمستحير : الطريق المعترض لا يدرى أين منفذه . واعتراضه يثير الحيرة .

هــذهِ الــدُّنيــا بعقــلٍ أبصــرا وراْى الإنســانُ مــاذا دبَّــرا
الجنــاحَ فــي سمــوات بَسَــطْ في الحجاز وَسْـطَ بيداءِ هَبَطْ[1]
مـا راْى فـي الخـافقيـنِ قَـدْ رُقِـمْ في كتابٍ كـان أبهىٰ مِـنْ إرَمْ[2]
فـارسـاً شـاهَـدْتُهـا والغَـرْبَ زُرْت أرضَ مِصْرَ جبْتُها في الهند كُنْت[3]
وعــن الأرضِ تَيَقَّنْــتُ الخَبَــرْ وَبِبَحْــرٍ وَبِبَــرٍّ لــي سَفَــرْ[4]

وعــراكَ المــرء فــي الــدُّنيــا رَعَيْنــا
وهــو حقّــاً لَيْسَ يـدري مـا لـدينـا[5]

* * *

الرُّوميُّ

من سماءٍ كنتُ من أرضٍ رفيقي ثملٌ ما ذقتُ طعماً للرَّحيق[6]
رجــلٌ نجْــدٌ يُسمَّــىٰ زنــده رودا خرَّ سكراً إذ رأى هذا الوُجودا[7]
أرضُكــم هــذي إليهــا قــدْ وصلنــا نحـنُ فـي الـدُّنيـا وَلٰكِنَّـا خـرجنـا
التَّجلّــي نَحْــنُ عنــه البــاحثــونــا والـدَّليـلُ أنـتَ نـرضـىٰ أن تكُـونـا

* * *

---

(١) البيداء : الصحراء .
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إنَّ إرم ذات العماد مدينةٌ عظيمةٌ قصورها من الذَّهب والفضَّة وأساطينُها من الياقوت والزَّبَرْجَد .
(٣) جاب البلاد : قطعها .
(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .
(٥) رعى : راقب .
(٦) الرَّحيق : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .
(٧) النجْدُ : الشُّجاع . خرَّ : سقط .

حكيمُ المِرِّيْخ

مـرغـديـن تلـك أرضُ بـرخيـا ... بـرخيـا جـدٌّ لأجـدادٍ ليـا[١]
فـرز مـرزَ بـالشـرور الآمـرُ ... ولـديـه فـي الجنـانِ الحـاضـرُ[٢]
قـال : « أنـت هـانـيءٌ كـالعـادة ... طـالمـا أُلـزمـتَ سيـرَ الجـادَّةِ[٣]
عـالـمٌ ، مـا أنـت فيـه يَفْضُـلُ ... يجعـلُ الجنَّـةَ زهـراً يَـذْبُـلُ[٤]
وعـلا حتَّـى علـى تِلْـكَ الجِنـانْ ... إنَّـه فَـوْقَ الـزَّمـانِ والمكَـانْ
أيـراه الله ؟ إنـي مـا دَرَيـتْ ! ... مثلَـهُ حـرّاً وحقِّـي مـا رأيـتْ ![٥]
قَـدْ خَـلا حتَّـى مـنَ الـربِّ الـدَّخيـلْ ... لَيـسَ فيـهِ مـنْ كتـابٍ أو رَسُـولْ !
لَيـسَ فيـه مـن طـوافٍ أو سُجُـودِ ... لا ولا فيـهِ الـدُّعـاء لِلْحَميـدِ
قـالَ فـانهـضْ دبـرنَّ خـدعتَـكْ ... اذهبـنَّ فيـهِ أفـرغْ صَـورَتَـكْ[٦]
مـا بهـذا السِّحْـرِ أُغـوي جـدُّنـا ... فـالإلـهُ عـالَمـاً أعطـى لنـا

إنَّـه مـنْ فَضْـلِ ربِّ العـالمينـا
امـضِ فيـه وتـأمَّـلْ مَـرْغَـدِينـا

* * *

---

(١) برخيا : اسم الجدِّ الذي يتخيله إقبال لسكان المريخ . ولم يُلْقِ سمعاً إلى وسوسة الشيطان .

(٢) فرز مرز : اسم يتخيَّله الشاعر كمرغدين .

(٣) الجادة : وسط الطريق : وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .

(٤) يحدثه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنُه ربيعٌ دائم ، وكأنَّ الجنَّة قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعانَ ما تذبل .

(٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقوِّمات الشعر وسماته .

(٦) هذا كلام برخيا .

التَّجْوَالُ في مدينة مرغدين

البنـاءُ فـي السَّمـاء كـان طـولا ... فـي السُّمُـوِّ مـا عَسَيْـتُ أنْ أقـولا
سـاكِنُـوهـا قـولُهـم مثـلُ الشِّهـاذ ... زانَهـم حُسـنٌ وطِيْـبٌ فـي الفُـؤادْ[1]
مـا بتحصيـلٍ وكـدٌ فِكْـرُهُـمْ ... سـرُّ تلـكَ الشَّمْـسِ أفشـى عِلْمَهُـمْ
مـن أرادَ المِلْـحَ فـي نـورٍ وَجَـدْ ... مثـلُ ملـحٍ مـنْ بحـارٍ يُسْتَمَـدْ
العلـومُ والفنـونُ تَخْـدُمُ ... وازنـوهـا بـالنُّضَـارِ مـنْ هُـمُ ؟[2]
إنَّمـا الـدِّينـارُ كـانَ كـالصَّنـم ... أبعـدوا الأصنـامَ عـنْ هـذا الحَـرَم
آلـة الشَّيطـانِ لـم تقهـر طبيعـه ... ما الدخانُ في السموات الوسيعه[3]
إنَّ للفـلاح مصبـاحـاً أنـارا ... مـالكـاً لـم يَخْشَ حتـى إنْ أغـارا
آمنـاً يـروي نبـاتـاً يَمْلِكُـهْ ... مـا لَـهُ فـي مِلْكِـهِ مـنْ يُشْـرِكُـهْ
هـاهنـا مـا لاحَ جنـديٌّ لـرائـي ... لا ولا منْ عاشَ مِنَ مصِّ الدِّماء
مـرغـديـنُ ليـس فيهـا مـنْ قَلَـمْ ... فِـرْيـةً للخـادعيـن قَـدْ رَقَـمْ[4]
ليـس فـي السُّـوقِ نِـدَاءُ مـنْ تَبَطَّـلْ ... لا ولا في الأذْنِ نَوْحُ منْ تَسَوَّلْ[5]

***

حكيمُ المِرِّيْخ

لا مكـانَ هـاهنـا للسَّـائلينـا
والعبيـدُ لا تُـرى والمـالِكينـا

---

(١) الشِّهاد : جمع شَهْد .
(٢) النُّضار : الذَّهب .
(٣) يقول : إن الآلة شيطان لا تقهر الطبيعة ، ودخانُها لا يعكِّر صفو السماء الواسعة .
(٤) الفريةُ : الكذب واختلاقه . ورَقَم : كتب .
(٥) تبطَّل : تعطَّل ، ولم يَعْملْ .

زنده رود

بقضاءِ اللهِ هذا من حُرِمْ وبأمرِ اللهِ ذاكَ من حُكِمْ
إنَّما التقديرُ للهِ المقدِّرْ لَيسَ مِن تَدْبِيرِ إنسانٍ مُدَبِّرْ

***

حكيمُ المريخ

القضاءُ إنْ عَدِمتَ خَيْرَه مِنْ إلهِ الكَوْنِ فاطلبْ غَيْرَه(١)
بِسُؤالِ اللهِ كُنْ أنتَ الجديرا يملكُ اللهُ الكثيرَ والكثيرا(٢)
كلُّ مالِ الذّاتِ في قَوْمٍ هَدَرْ إنَّهم لَمْ يُدْرِكوا معنى القَدَرْ(٣)
رمزُه حرفانِ ، هَلْ أدْرَكْتَهُ « إنْ تَغَيَّرْتَ فَقَدْ غَيَّرْتَهُ »
كُنْ تراباً لِتَطِيْرَ في الهواء حجراً كُنْ بكَ تحطيمُ الإناء !
أنت طَلٌّ ؟ فالسقوطُ فَوْقَ زَهْر أنْتَ بحرٌ ؟ فالخُلود كلَّ دَهْر(٤)
قد صَنَعْتَ لكَ دوماً أنْتَ لاتا ما ثبتَّ ، فَلْتُعَلِّمْكَ الثَّباتا
أنْتَ ما لم تَرْفُضِ الإيمانَ نَفْسُكْ عالَمَ الأفكارِ فيهِ كانَ حَبْسُكْ
قد ينالُ المالَ مَنْ يَلْقى التَّعَبْ وعديمُ الأينِ مَوفُورُ النَّشَبْ(٥)
كانَ هذا أصلَ دينٍ يا غرير ؟! فليزد في فَقْرِه هذا الفَقِيْر(٦)

---

(١) القضاء : ما يقدِّره الله للإنسان .

(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدراً آخر ، وكأنَّه بذلك يستطيع اختيار قدرٍ يوافقه .

(٣) هدر الدم : ذهب باطلاً ليس فيه قَوَدٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غيرِ نفعٍ .

(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .

(٥) الأين : التَّعب . والنَّشب : المال .

(٦) الغرير : من لا تجربة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقر ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسله أو توفره على عمله .

أيُّ دينٍ ! وإلى نومٍ دعاكا فأطلت النَّوْمَ لا تبدي حَرَاكا
أَفَسِحْرٌ ذاك أمْ دينٌ لَكَا
نشوةُ الأفيونِ تمحو وَعْيَكَا ؟
أَعَلِمْتَ أنْتَ مِنْ أيْنَ النُّهى هذه الحوراءُ أينَ طِيْنُهَا
قوةٌ في الفِكْرِ كانت للحكيم طاقةٌ بالذِّكر كانَتْ لِلْكَلِيم
ذلكَ القَلْبُ عليه ما خَطَرْ وجميعُ المُعْجِزَات مِنْ فَطَرْ[1]
أفصيحٌ أنْتَ ؟ ما هذا بِقَوْلِكْ تُنْجِزُ الأعمالَ ؟ لكن ما بحوْلِكْ[2]
كلُّ هذا كانَ فيضاً للرَّبيعْ أوْ ربيعِ فطرةُ اللهِ البَديعْ
ما الحياةُ ؟ مَعْدنٌ للجَوْهَرِ الأمينُ أَنْتَ ، مُلْكُ الآخَرِ[3]
يَشْرُفُ الإنسانُ بالطَّبْعِ الجواد خدمةُ الخلقِ لَهُ كلُّ المُرَاد
تِلْكَ كانَتْ شيمةً للأنبياء
تاجرٌ مَنْ نَالَ ربحاً كالجزاء[4] !
هكذا تِلْكَ الرِّياحُ والمَطَرْ والبساتينُ وكلُّ ذي ثَمَرْ
أتقولُ ما لَدَيْنا مُلْكُنا ؟! يملكُ الملكَ جميعاً رَبُّنَا
كلُّ أرضٍ أرضُ ربِّي فاشْهَدُوا في الكتابِ قولَهُ ﴿ لا تفسدوا ﴾[5]
سلَّمَ المرءُ لإبليسَ القِيَادَا إنَّما إبليسُ مَنْ يَسْعَىٰ فَسَادا

---

(١) فطر : أوجد .

(٢) الحول : القدرة . يقول : إنَّ الفصاحة ليست للفصيح ولكنَّها هبة من الله . وكذلك الشأن في القدرة على إنجاز العمل .

(٣) المعدن : المنجم . يقول : إن الإنسان أمين على هذا المنجم والله صاحبه .

(٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .

(٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَـــنْ أميــنٌ مُنْجِــزٌ أعمــالَــه ؟ لَيْتَـــــه لله ردَّ مــــالَـــــهُ
قَـدْ أَخَـذْتَ أنْـتَ شيئاً غَيْـرَ مِلْكِـكْ يا لعمري ليس هذا شأنُ مِثْلِكْ !
امْلِكَـــنَّ الشـــيءَ فيـــه رَاغبـــا أو فخـاطـبْ مِنْـكَ نَفْسـاً عـاتِبـا[1]
إنَّ مُلْـــكَ اللهِ هـــذا فلتـــردَّه كي تَحُلَّ أنْتَ في الأعمال عُقَدَه
ولمـاذا اليــوم نشكـو فَقْـرَنـا ؟ مـا لـربِّ الكـونِ قُلْتُـم : ذا لَنـا !
كـلُّ مـــنْ طينـاً ومـاءَ لازَمَـا كـأسُـهُ بـالصَّخْـرِ طَـوْعـاً حطَّمـا
منـزلٌ ذا أمْ طـريـق ؟ مـا عَـرَفْنـا كـلَّ شـيءٍ كـان يَبْـدُو لـو نَظَـرْنـا
جـــوهـــرٌ هـــذا لَكِـــنْ إنْ مَلَكْتَـــهْ والحَصَى إنْ لم يَكُنْ في الكَفِّ دُسْتَهْ[2]

* * *

قصَّةُ فتاةِ المِرِّيخ التي ادَّعت النُّبُوَّة

بِقُصُـــورٍ وَبِسُـــوحٍ قـــد مَـــرَرْنـــا جـانـبَ الأسـوارِ مَيْـدَانـاً رأينـا
مِـــنْ رجـالٍ ونسـاءٍ فِيْـهِ حَشْـدُ وفتـــاةٌ ، ولهـــا كـــالْبَـــانِ قَـــدُّ
وأنـــارَ وَجْهُهـــا مـــنْ غَيْـــرِ رُوحْ والكـلامُ لَيْـسَ فيـهِ مـنْ وُضُـوحْ
لَفْظُهـا صلْـدٌ وَعَيْـنٌ مـا جـرت بَهْجَـــةَ الآمـــالِ قَـــطُّ مـــا دَرَتْ
الشَّبـــابَ قلبُهـــا مـــا إن سَعَـــرْ ولهـا المـرآةُ لا تُبْـدِي الصُّـوَرْ[3]
وَعَـنِ العِشْـقِ أتـدري مـا الخَبَـرْ !؟ صَعْـوةٌ والعِشْـقُ شَـاهِيْـنٌ كَسَـرْ[4]
هكـــذا قـــالَ الحكيـــمُ شَيْخُنـــا « هـذه الحسنـاءُ لَيْسَـتْ مـنْ هُنَـا »

---

(١) يقول : إذا لم تكن مالكاً لشيء من حقِّك أن تَمْلُكَه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .
(٢) يقول : إذا ملكت الجوهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حقَّقت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأي متعةٍ وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجوهر حقاً إلا إذا كان لك .
(٣) سَعَر النَّار : أوقدها .
(٤) الصَّعوة : أنثى الصَّعو ، وهو عصفورٌ صغير . والشَّاهين : طائر من جنس الصقر . وكَسَرَ : ضمَّ جناحيه لينقضَّ على فريسته .

فَــزَمْــزِمُ فــي حــديــثٍ قَــدْ صَــدَقْ   « مِــنْ بــلادِ الغَــرْبِ إيّــاهــا سَــرَقْ
لَقَّــــن الحَسَنـــــاءَ أسْـــــرارَ النُّبُــــوَّهْ   ثُــمَّ فــي العَــالَــمِ ألقــاهــا بِقُــوَّه !
مِنْ سمائي قَدْ هَبَطْتُ اليَوْمَ قَالَتْ   دعــوتــي فــي آخــرِ الأيَّــام كــانَــتْ
عـــن نســـاءِ ورجـــالِ مـــا تَقُـــوْل   وصريحُ القول ما عافَ الخَجُول !
ســأقــولُ مــا المصيــز مــا القَــدَرْ ،
بلســـانٍ تَفْهَمُـــونَ يـــا بَشَـــرْ »

***

رسالةُ نَبيَّةِ المِرِّيخ

يـا نسـاءُ ، أنـتِ يـا أمِّـي الجَلِيْلَـهْ   قُلْنَ لي حتَّامَ عيشي كالْحَلِيْلَهْ[1]
عَيْشُهـــا مـــا كـــانَ إلا ظُلْمُهَـــا   إنَّمـا الحِـرْمَـانُ فـي الـدُّنيـا لَهَـا
إنَّنــا بــالمشــط نُــرْخِــي شَعْــرَنــا   فـي الـرِّجـالِ قَـدْ وَجَـدْنـا صَيْـدَنَـا
الــرِّجــالُ صــائــدونَ ، حِــذْرَكُــنْ !   ولأجْـلِ الصَّيْـدِ داروا حَـوْلَكُـنْ[2]
وإذا أَبْـــدَوْا هيـــامـــاً مـــاكِـــرُونـــا   وَبِشَـــوْقٍ وشُجُـــونِ خـــادَعُـــونـــا
كـــافـــرونَ ، ويُقيمُـــون الحَـــرَمْ   ولكـــنَّ فيـــهِ ألـــوانُ الألـــمْ[3]
وعلـــى العيـــشِ إذا تـــمَّ اتفـــاقُ   فالوصالُ السُّمُّ والشَهْدُ الفِرَاقُ[4]
الأفــاعــي ؟ مــنْ تُطِيْــقُ لَــدْغَهُــمْ   لا تُــرِقْــنَ فــي الــدِّمــاءِ سُمَّهَــمْ[5]

---

(١) الحليلة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ، وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبرُّج فتاةِ الغرب وصراحةِ تعبيرها عن مبادىء المرأة المنحرفة التي تفضِّل الخليل على الخليل .

(٢) حذركن : احذَرْنَ .

(٣) الحَرَم هنا : بيت الزوجية .

(٤) الاتفاق على العيش : الاتفاق على الحياة الزوجية .

(٥) يشبِّه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كُـلُّ أمٍّ سـوفَ تَضـوَىٰ فـي ذُبـولْ
طـابَ عَيْـشٌ ليس فيـهِ مـنْ حَلِيـلْ[1]

إنَّ هـذا الـوحـيَ يـأتينـي تِبَـاعَـا طـابَ لـي الإيمـان عُمْقَـاً واتِّسـاعـا
عصـرُنـا أبـدىٰ لنـا إعجـازَ فَـنْ الجَنِيْـنُ قـد نَـرَىٰ فـي طـيِّ بَطـنْ
فَلَـدَيْـكَ أنـتَ مِـنْ حَقْـلِ الحيـاة مـا أرَدْتَ مـن بنيـنٍ أوْ بنـات
إنْ وَجَـدْتَ غَيْـرَ مـرغـوبٍ لَـدَيْـكْ كـانَ دِينـاً قتلُـه مـنْ غَيْـرِ شَـكْ
إنَّ هـذا العَصْـرَ تتلـوهُ العُصـور ولأسـرارٍ وأسـرارٍ ظُهُـوز
فـالجنيـنُ هـذه الـدُّنيـا قَـدِم مـا رأى قـطُّ ظـلامـاً فـي الـرَّحِم.
فَلْيَمُـتْ ! يَبْـدُو كَشَيْطـانٍ مَـرِيْـد حيـوانـاً كـان فـي العهـد العَهِيـدْ[2]
لِلْـوُرُود الحُمْـرِ مـنْ أرْضٍ طُلُـوعْ للنَّـدَىٰ مـا همَّهـا قـطُّ الـوُقُـوعْ !
وَحْـدَهُ سـرُّ الحيـاةِ قـدْ ظَهَـرْ مـا لَـدَيْـهِ مِضْـربٌ هـذا الـوَتَـرْ[3]
دَعْـكَ مـنْ غَيْـثِ الـرَّبيـع يـا مَحَـارْ وَلْتَمُـتْ ظمـآنَ تَطْـوِيـكَ البِحَـارْ[4]
غـالبـي مـا النَّـاسُ قـد سمَّـوه فِطْـرَهْ والفتـاةُ فَلْتَكُـنْ مـنْ بَعْـدُ حُـرَّه

بـافتـراقِ الجسـديـنِ وَحِّـدِي
كـي تُصـانـي ، عـن رجـالٍ فـابْعُـدِي[5]

---

(١) ضوي : ضَعُفَ ونَحَلَ . يقول : إنَّ المرأة إذا ولدت اعتراها الضَّعْفُ والذُّبول . والحليل : الزوج .

(٢) المريد : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً . والعهيد : القديم .

(٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سرَّ الحياة وترٌ يرسل الأنغام من غير عازفٍ .

(٤) المحار : صَدَفُ اللؤلؤ . وفي عقيدة القدماء أنَّ مَطَرَ الرَّبيع إذا سَقَطَ في المحارة تكوَّن اللؤلؤ بها .

(٥) يبالغ الشاعرُ في التهكُّم فيقول : إنَّ افتراق المرأة عن الرجل في الحياة الزوجية دينُ التوحيد عندها! لأنَّ تلازمَ الجسدين أو الشخصين في الزواج يعدُّ ثنويةً لا توحيداً !! .

الرُّوميُّ

مَذْهبُ العَصْرِ الجديدِ ! قِفْ لِتَنْظُرْ   يــا لعمــري كلُّهــم بــالله ِ يَكْفُــرْ
إنَّ هــذا العِشْــقَ شَــرْعٌ لِلْحَيَــاهْ   فــي الحيــاةِ مــا لنــا ديْــنٌ سِــوَاهْ[1]
وَهِــيَ فــي الظَّــاهِــر نــارٌ تَحْــرُقُ   وبنـــــورِ الله ِ قـــــاعٌ يُشْـــــرِقُ
نـــارُهُ قـــد أوْجَــدَتْ كــلَّ الفُنــونْ   كــلُّ فــنٍّ كــانَ مِــنْ فَــرْطِ الجُنُــونْ !

إنَّ عِشْقـــاً بـــوَّأ العليـــاءَ دِينـــا
ذلــكَ الــدِّيــنُ فَخُــذْ عــنْ عــاشِقِيْنــا[2]

* * *

(١) المرادُ بهذا العشْق عشقُ الصُّوفية للذَّات الإلهية .

(٢) العلياء : المكان العالي وكلُّ ما علا من شيء . والمعنى : أنَّ العِشْقَ الإلهيّ يسمو بالدِّين . والعاشقون : عاشقو الذَّات الإلهية .

القسم الخامس

فَلَكُ المُشْتَرِي

أرواحُ الحلاَّج[1] وغالبٍ[2] وَقُرَّةِ العَينِ الطَّاهِرَة[3]

لم تجدْ لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدَّوام وإلى الأبد

قلبـي المجنـونَ إنِّـي قـد فَـدَيْـتَ ... كـلَّ يـومٍ منـه صحـراءَ وَجَـدْتَ[4]
إنْ بلغـتُ منـزلًا لـي قـال قُـمْ ... القَـويُّ بحـرَه كـوبٌ يَضَـمْ[5]
مـا لآيـاتِ لِـرَبِّ الكَـوْنِ آخِـرْ ... ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافر ؟
الحكيـمُ مـنْ يـرى شيئـاً ويَخْبُـو ... والعَلِيْـمُ مـا يَـراهُ سـوف يَـرْبـو[6]

---

(١) الحلاَّج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصُّوفي المعروف بشدَّة الغلو والتطرُّف في نزعاته الصُّوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان منطوياً على نفسه . بل كان يصيحُ في الأسواق ، وهو في حالةٍ من الجذبةِ والطَّرَب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلِّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، واتُّهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فصُلِبَ عام ٣٠٩هـ .

(٢) غالبٌ : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظمَ بالفارسية والأوردية ، ويتَّسمُ شعره ببعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكرٌ عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩م .

(٣) الطاهرة : شاعرةٌ إيرانية تُعْرَف كذلك بقرة العين . وقد شايعت من يسمَّى « الباب » في حركةٍ دينيةٍ تُعَدُّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢م . وشهرتُها بشدَّة الجرأة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى السُّفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبَّه بمجنون ليلى ؛ الذي دلهه الحبُّ ، فهام على وجهه في القفار .

(٥) المنْزِلُ هنا : مكانُ نزولِ المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العالم . والعليم هو الصوفي . وتخبو النار : تخمد وتنطفىء . ويربو : يزيد .

الحكيـمُ طِبْـق فـنٌّ مـا اخْتَبَـرْ   لِلْعَليـم كـانَ ميـزانَ النَّظَـرْ[1]
الحكيـمُ الطِّيْـنَ بـالكفَّيْـنَ جسَّـا   والعَلِيْـمُ مسَّ تِلْـكَ الـروح مسَّـا
التَّجَلِّـي كـانَ هـذا مـنْ رَآهُ
غَيْـرَ أنَّ ذاكَ فـي ذاتِ طَـوَاهُ
عـن جـديـدٍ مِـنْ تَجَـلٍّ قَـدْ بَحَثْـتَ   طفـتُ بـالأفـلاكِ مِثْـلَ النـاي نُحْـتُ
كـلُّ هـذا كـانَ فيضـاً مِـنْ طَهُـوْر   ألهـبَ الـرُّوحَ بمَـسٍّ مِـنْ سَعِيْـر[2]
وصـلا مِـنْ بَعْـدِ أنْ طـالَ الـرَّحِيـلْ   وبشـطٍّ المُشْتَـري كـانَ النُّـزُولْ[3]
ذلـكَ العـالَـمُ للتُّـرْب المَقَـرْ   حـولـه شـاهَـدْتُ أقمـاراً تَمُـرْ[4]
كـرُمـه مـا فيـهِ مـنْ كـأسٍ لنـا   أرضُـه مـا أخْـرَجَـتْ قَـطُّ المُنَـىٰ
كـان جـوفُ اللَّيـلِ بـالقمـراءِ ظَهْـرَا   مـا عَـرفْنـا جَـوَّهُ بَـرْداً وحـرًّا[5]
فـي السَّمـاء تلـكَ عينـي تَنْسَـرِبْ   وأرى الكـوكـبَ منـي يَقْتَـربْ
دخلتنـي هيبـةٌ مِمَّـا أرى   مـا أراهُ كـلَّ شـيءٍ غَيَّـرا
هـذه أرواحُ طُهْـرٍ تَظْهَـرُ   قَلْبُهـا بـالنَّـارِ دنيـا يَصْهَـرُ
تـرتـدي ثـوبـاً جميـلاً أحمـرا   وجْهَهـا ، والقَلْـبُ نـارٌ ، نـوَّرا
مِنْ ﴿ ألست ﴾ هزَّها فَرْطُ اضْطِرابْ   سَكِرَتْ ، مِنْ لحنها رَشْفُ الشَّراب[6]
« الْزَمِ الذَّات » بها الرُّومي حباني   « عِشْ بأنفاسٍ لِمَنْ غَنَّى الأغاني »
مـا رأيـتُ مِثْـلَ هـذا الشَّـوقِ فـانْظُـرْ   وعلـى تِلْـكَ الحُمَيَّـا أيْـنَ تَعْثُـرْ

---

(١) المراد بالفن أصول العلم .
(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .
(٣) يريد بمن وصلا : العالم والصوفي .
(٤) التُّرب : التراب . ومن أسماء الدُّنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .
(٥) القمراء : نورُ القمر .
(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

قُــرَّةُ العَيْــنِ ومَنْصُــورٌ وغَــالِــبْ حَرَمُ الأرواحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبْ[1]
لَحنُهُــمْ روحــاً يَمُــدُّ بــالثَّبــاتْ
نــارُهــم مــنْ جَـوْفِ تِلْـكَ الكَـائِنَـاتْ

***

لحنُ الحلَّاج

مِـنْ تـرابـي لـي لهيبٌ مـا رَأَيْتُـه مثـلُ هــذاك التَّجَلِّـي مـا طَلَبْتُـهْ
نَظْـرَتـي أمْعَنَـتْ فـي ذاتـي طـويـلاً فِتَـن الـدُّنيـا حبيبـي مـا شَهِـدْتُـهْ !
ذاكَ شِعْــرٌ أيــنَ مِنْــهُ مِلْــكُ جَــمٍّ غيـرُ مقتـولٍ بعشـقٍ مـا نَسَبْتُـه[2]
عقلُنــا إنْ كــان يَغْــزو أيَّ بــأس ؟ عِشْقُنـا هـذا وحيـداً مـا عَـرَفْتُـه
الطَّـريــقَ والمَقَــامَ لَسْــتَ تــدري أي لحــنٍ لِسُلَيْمــىٰ مــا سَمِعْتُــهْ

---

(١) قرَّة العين ومنصور اسمان للطاهرة والحلَّاج . وجلب : لغط وصاح وضج . والجالب : اسم الفاعل من جلب ولكن المراد هو ضجيج الأرواح لا ضجة الحَرَم .

(٢) جَمْ أو جَمْشِيد مِنْ مُلوك الفرس في العهد الأسطوري ، وكان مشهوراً بعظمته ، واتساع ملكه . ويريد الشعر بالشطر الثاني من ذلك البيت وهو لشاعر يُسمَّى نظيري عاش في الهند ، وأصله من إيران ، وكانت وفاته عام ١٦١٢م .
وهذا الشاعر يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ عِشْقاً لَيْسَ منَّا . وهو يذكِّرنا بترديد شعراء الصُّوفية لهذا المعنى ، ومنهم الشاعرُ العربيُّ عمرُ بن الفارض القائل :

هو الحبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سَهْلٌ فمـا اخْتَـارَهْ مُضْنـىً بـه ولـه عَقْـلُ
وَعِـشْ خَـاليـاً فـالحُـبُّ راحتُـه عَنَـاً وأولُــه سُقْــمٌ وآخِــرُه قَتْــلُ

وقيل في شرح هذا : إنَّ الموت في الحب عنده حياة تفضَّل الحبيب بها على العاشق . والوفاءُ للحبيب بالوفاة . والموت فيه حياة . والميت خارج عن دعوى قدرته ، وهذا ما يظهر أنَّ القُدْرَة لله . وبذلك يكون قد مات الموتَ الاختياريَّ قبلَ الموتِ الاضطراري . وعليه فموتُه حياةٌ لانكشاف الحياة الحقيقية الأزلية ، وفي هذا يقول شاعر آخر :

ولكـنْ لـديَّ المـوتُ فيـه صَبَـابـةٌ حياةٌ لمن أهـوى علـيَّ بهـا فَضْـلُ

صِفْ لنا النُّونَ وبيِّن كَيْفَ صَيْدُه لا تَقُلْ لي زورقٌ ما إنْ رَكِبْتُه[1]
إنَّ شيخي قال لي : لولا صِعَابٌ صادفتني في طريقي ما سَلَكْتُهْ !
أرشفُ الصَّهْباءَ في حَشْدِ النَّدامىٰ
قُلْ لنا شيخَ النضالِ ما اجتنبتُه[2]

* * *

لحن غالب

السَّماءُ مِثْلَما شِئْتَا نُدِيْر والقضاءُ الكأسَ أرْوَتْنا نُدِيْر[3]
شِحْنَةُ السُّلْطانِ نَحْنُ ما رَهِبْنَا للنَّوَال كفَّنَا مِنَّا نُدِيْر[4]
الكليمُ لمْ يَنَلْ جواباً لِلْخَليلِ وَجْهَنَا كُنَّا نُدِيْر[5]
سارقَ البُستانِ ماذا أنتَ تَبْغي سلَّةٌ قدْ أُفْرِغَتْ إنَّا نُدِيْر[6]
نَحنُ في رِفْقٍ طيورَ الرَّوْضِ صبحاً نَحْوَ أعشاشٍ لها كنَّا نُدِيْر[7]

---

(١) النُّون : الحوت .

(٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصُّوفيَّة دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصلِ الفارسي .

(٣) أدار الكأس : قدَّمها بالتناوب إلى جماعةِ الشاربين . وكلمةُ ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .

(٤) الشِّحْنَةُ : منْ يضبط البلد منْ قِبَلِ السُّلطان . والنَّوال : العطاء . وإدارة الكفِّ للنوال كنايةٌ عن رفضه .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصُّوفية في معانيهم الرَّمزية . فهو يقول : إنَّه لا يردُّ على موسى إذا كلمه ، ولا يستقبل إبراهيم ضيفاً .

(٦) يقول : إنَّ السارق إذا أفعم سلَّته بثمارٍ سرقها من البستان أفرغنا تلك السَّلَّةَ مما فيها ، فعاد بها فارغةً .

(٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لأنَّه يقول : إنَّه عنيفٌ مع العنيف ، رقيقٌ مع الرقيق .

حَيْــدَرٌ جَــدٌّ لنــا ، لا تَعْجَبُــوا نَحْـوَ غَـرْبٍ شَمْسَنـا إنَّـا نُـدِيْـر[1]

***

لحْنُ الطَّاهِرة

« آهِ لَـــوْ كَـــانَ اللِّقَـــاءُ بِـــالعُيُـــونْ
لَكَشَفْـــتُ لَـــكَ مكنـــونَ الشُّجُـــونْ[2]
كَـــي أراكَ مِثْـــلَ أنْسَـــامِ الصَّبـــا
بِـــالـــدِّيـــارِ طُفْـــتَ تَـــوَّاقَ الحَنِيْـــنْ[3]
مِـــنْ نـــواكَ فـــي عيـــونـــي ذابَ قلبـــي
مَـــنْ رأى بحـــراً جـــرى بَيْـــنَ الجُفُـــونْ[4]
إنَّ للـــرُّوحِ شُفُـــوفـــاً خـــاطَهـــا
بهـــواكَ مِخْيـــطُ القلـــب الحَـــزِيْـــنْ[5]
طُفْـــتُ بـــالقلـــبِ طـــويـــلاً لـــمْ أجـــدْ
غَيْـــرَ مـــن أهـــوى ، ويخفـــىٰ بـــالكُمُـــونْ[6]

وجْـدُ مَـنْ يَعْشَـقُ بـالقَلْـبِ الصَّـدِيْـع تِلْكَ روحي مِنْهُ في الحُزْنِ الوَجِيعْ[7]
مشكـلاتٌ لـي تَـوارتْ قـدْ بَـدَتْ كـلَّ فِكْـرِي كـلَّ ظَنّـي أطْبَقَـتْ[8]

---

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه .
(٢) الشُّجون : الأحزان .
(٣) الأنْسَام : جمع نَسَم ، وهو نَفَسُ الرِّيح إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .
(٤) النَّوى : البعاد .
(٥) الشُّفوف : جمعُ شِف ، وهو الثَّوب الرَّقيق الذي يُسْتَشَفُّ ما تحته . والمِخْيطُ : الإبرة .
(٦) كَمَنَ كُموناً : تواریٰ .
(٧) الصَّديع : المصْدوع ؛ أي المشقوق . الوَجِيْعُ : المؤلم .
(٨) أطبق الشيء : غطاه .

بَحْرُ فكري فيه موجٌ مُضْطربْ شطُّه منْ عَصْفِ هوجاءَ خرِبْ[١]
لا تضيِّعْ مِنْ زمانٍ مُدَّةً إنْ أرَدْتَ أنْ تَحُلَّ عُقْدةً[٢]
وإلامَ أنتِ لِلْفِكْرِ الأسيرْ
ومِنَ البَلْبالِ فَلْيَخْلُ الضَّمِيْر[٣]

* * *

زنده رود يعرضُ مشكلاتِه على الأرواح

عَنْ مقامِ المؤمنينَ قَدْ بَعُدْتا ؟
مِنْ جنانِ الخلدِ هَلْ طَوْعاً خَرَجْتا ؟

الحلاَّج

مَنْ رأىٰ خيراً وشراً بالجَنَانْ ما استقرَّتْ منْهُ رُوحٌ بالجِنانْ[٤]
جنَّةُ الزَّاهِدِ حُورٌ أو غلامْ جَنَّةُ الأحرار في سَيْرٍ دَوَام[٥]

---

(١) الهوجاء : الريح التي تقلع البيوت .
(٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .
(٣) إلامَ : أيَّ وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصَّدر .
(٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنَّات .
(٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصُّوفية من الفرس الذين يتهكمون بالزاهد في شعرهم الرَّمزي الذي يحتمل معنيين أحدهما قريبٌ غيرُ مقصودٍ والآخر بعيد هو المقصود . وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إنَّ العاشق الإلهيَّ ، أو الصُّوفي يتلقى الحقيقة إلهاماً من ربه ، ونوراً يشرق به قلبه ، ولا حاجة به إلى ترديد النظر في العلم ؛ لأنَّ القلب عنده مصدرُ المعرفة . أما الزاهد أو غير الصوفي الذي يأخذ بظاهر النَّص ولا يتجاوزُ القشور إلى اللباب فهو يعتمد على العقل وحده مصدراً للمعرفة . ومن ثمَّ كان الخلاف بين الصُّوفيَّة وغيرهم . وهم يبالغون في التحسين والتقبيح محاولين البلاغة ، وكلامُهم غير محمولٍ على ظاهره . ويدعون إلى التحرُّر من قيود منْ يَعْجِز في نظرهم عن إدراك =

جَنَّةُ الزَّاهِدِ نومٌ في التَّبَطُّلْ　　جَنَّةُ العاشِقِ في الكَوْنِ التأمُّلْ[١]

حَشْرُ منْ يَزْهدُ شَقٌّ لِلْقُبورْ　　إنَّ هذا العِشْقَ صُبْحٌ للنُّشُوْر[٢]

وَأساسُ العِلْمِ خَوْفٌ أوْ رَجَاء　　ما لِعُشَّاقٍ على هذا اتِّكاءْ[٣]

يُرهبُ العلمَ منَ الكونِ الجلالْ　　يُغْرقُ العِشْقَ الرُّواءُ والجمالْ

ما مضَى لِلْعِلْمِ أوْ ما قَدْ حَضَرْ　　وإلى الآتي منَ العِشْقِ النَّظر

مذهبٌ لِلْعِلْمِ كانَ وَهوَ جَبْر　　ما لدَيْهِ كلُّه جَبْرٌ وَصَبْر

يا لهذا العِشْقِ مِنْ حُرٍّ غَيُور　　ويرى الكونَ بِعَيْنِ لِلْجَسُور

عِشْقُنا معنىٰ الشَّكاةِ ما درىٰ　　دمعُه في نَشْوَةٍ لمَّا جَرىٰ .

كان مجبوراً وَحُرّاً قَلْبُنا　　لَيْسَ مِنْ أجفانِ حُوْرٍ سَهْمُنا[٤]

الفراقُ كانَ ناراً في الفُؤادْ　　روحُنا يحلُو لها مرُّ البُعاد

وبلا وخْزٍ وَحَزٍّ كَيْفَ تحيا　　قِفْ على نارٍ كَوَتْ ساقَيْكَ كيَّا !

الحياةُ هكذا ، تقديرُ ذاتِكْ　　وهو تعميرٌ لها ، سِرْ في حَيَاتِكْ

ذرةٌ لِلشَّوقِ شمسٌ حاسِدَةْ　　صَدْرُها فيهِ السَّماءُ راقِدَةْ

إنْ يكنْ لِلشَّوقِ في الدُّنيا الهُجُومْ
يَمْنحُ الخُلدَ لفانٍ لا يَدُومْ

= الحقيقة ، ولا يُدْرِكها إلا القلب العامر بعشق الذَّاتِ الإلهيَّة .

(١) التبطل : التعطُّل عن العمل ، والشاعر يرمز إلى ضرورة التأمُّل في الكون لأنه مظهرٌ لِلْقُدْرَة الإلهية . وشعرُ الصوفية من الفرس خصوصاً زاخرٌ بِمثل تلك الرموز التي تجد مبالغاتُها مساغاً في ذوقهم .

(٢) نشر الله الموتى نشراً ونشوراً : أحياهم .

(٣) يشير إقبال إلى منْ يعبد الله رغبةً في ثوابه ورهبةً من عقابه ، ويقول إنَّ الصُّوفي يعبدُ الله ويحبُّه لمجرَّد العبادةِ والمحبَّة .

(٤) يقول : إنَّ قلبنا كان حُرّاً مع خضوعه لقضاء الله وقدره ، ولا يريدُ أن يكون القضاء سهماً ، ولو كان من عيون الحُوْرِ العين .

زنده رود

بـالـرَّدىٰ والعيشِ تقـديـرٌ جـرىٰ
ذلـكَ التَّقـديـرُ مِنَّـا مـنْ دَرَىٰ[(١)]

الحلّاج

مَـنْ لـه التَّقْـديـرُ سَهْـمٌ سُدِّدا يَفْـزَعُ الشَّيْطـانُ مِنْـهُ والـرَّدىٰ[(٢)]
كـانَ جبراً ديـنُ أصحـابِ الهِمَـمْ والقُـوى عِنْـدَ رجالٍ فـي القِمَـمْ[(٣)]
الحَصِيْـفُ زادَ فـي عقـلٍ بِجَبْـرِ والغـريـرُ مِنْـه فـي أعْمـاقِ قَبْـرِ[(٤)]
خـالـدٌ بـالجَبْـرِ هـدَّ عـالمـا أسَّنـا جبـرٌ لنـا قـدْ هـدَّمـا[(٥)]
الـرِّضـا مـنْ شـأنِ ذيَّـاك البَطَـلْ وهـوَ ثـوبٌ فيـهِ فَسْـلٌ مـا رَفَـل[(٦)]
ولمـولانـا عَـرَفْـتَ مـا المَقَـامْ
فليشنِّـفْ أذْنَيْـكَ ذا الكَـلامْ
المجـوسـيُّ زمـانَ بـايـزيـدْ مهتـدٍ قـال لـه جِـدٌّ سعيـدْ
يـا أُخـيَّ كُـنْ كمثلـي مُـؤمِنـا لِتَكُـوْنَ للنَّجـاةِ ضـامِنـا
إنَّمـا الإيمـانُ هـذا يـا مُـريـدْ وهْـوَ إيمـانٌ يـراهُ بـايـزيـدْ
فـأنـا عَـنْ حَمْـلِ ذاكَ أضْعُـفُ
وبـروحـي وهـي تُعيـي يَعْنُـفُ

---

(١) التقدير : قضاء الله .
(٢) يريد بالسَّهم السِّلاحَ الذي يتسلَّح به ، وهو القَدَرُ الذي يفزع الشيطانَ والموت .
(٣) المرادُ برجال في القِمَمِ رجالٌ في أوج العظمة وعلوِّ القدر .
(٤) الحصيف : العاقل . والغرير : من لا تجربة له .
(٥) الأس : الأساس .
(٦) الفسل : الضعيف الذي لا مروءة له . ورفل : جرَّ ذيله وتبختر .

غَيْـرُ خـوفٍ ورجـاءٍ مـا لـدينـا وجميعـاً سلَّمـوا ؟ لا مـا رأينـا
أنْـتَ قُلْـتَ : كـلُّ شـيءٍ بـالقَـدَرْ وَهْـوَ قَيْـدٌ ، يـا تُـرى أيـنَ المفـر
قـد أسـأت الفهـم يـا هـذا كثيـرا مـا رأيـتَ الـذَّاتَ واللهَ القَـديـرا[١]
بـالـدُّعـاء المـرءُ كـان مـؤمنـا « لـكَ نَحْـنُ يـا إلهـي كُـنْ لنـا »
وقضـاءُ الله كـان عَـزْمَـهُ
سَهْمُـه فـي الحـرب كـان سَهْمَـهُ[٢]

***

زنده رود

فتنـةً هـا قَـدْ أثـارَ الغـافلـون هو ذا المصلوبُ يبدو لِلْعُيون[٣]
الـوجـودُ وَهْـوَ سـرٌّ قـدْ عـرفتـا أيَّ ذنبٍ قُلْ لنا كُنْتَ اجْتَرَحْتَا[٤]

الحلاَّج

إنَّ فـي صـدري لَصُـوراً للنُّشـوزْ هـوذا شَعْـبٌ مضـى نحـو القُبُـور[٥]
مـؤمنـونَ يُشْبِهُـون الكـافـرينـا مُسْلِمُـون وَلِـذاتٍ مُنْكِـرُونـا
قـولهـم : الـرُّوح شـيءٌ بـاطـلُ قُيِّـدَتْ بـالطِّيـن وَهْـوَ زائـلُ

---

(١) رأيت هنا بمعنى رأيت بالقلب لا بالعين .
(٢) أي أنَّ عزمه كان قدراً ، وسهمُه سهمُ الله .
(٣) يشيرُ إقبال مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ إلى صَلْبِ الحلاَّج .
(٤) اجترح الذنب : ارتكبه .
(٥) الصور : القرن ينفخ فيه يوم القيامة فيجعل الله ذلك سبباً لعود الصُّور والأرواح إلى أجسامها .

الحيـاةُ أشْعِلَـتْ مِـنْ نـارِ ذاتـي ... ميِّتـاً بصَّـرتُ أسـرارَ الحيـاةِ[1]
عـالَـمٌ مِـنْ ذاتِهِـمْ مـا يصنعـونـا ... رقـةً بـالعُنْـفِ كـانـوا يَمْـزِجُـونـا
أيْـنَ تبـدو الـذَّاتُ أو أيْـنَ اخْتَفَـتْ ... العيـونُ قـطُّ هـذا مـا رَأَتْ
يَسْتُـرُ النِّيـرانَ ستـراً نـورُهـا ... بـالتَّجَلِّـي الكـونَ يُبـدي طَـوْرَهـا
قَلْبُنـا بـالـذَّات كَـمْ كـانَ الحفِيَّـا ... مـا ونـىٰ عَـنْ ذِكْـرِهـا ذكـراً خَفِيَّـا[2]
مِـنْ لظـاهـا كـلُّ معـدومِ النَّصيـبْ ... مـاتَ عَـنْ نَفْـسٍ لـه مثـلَ الغَـريـب[3]
نـارُ فُـرْسٍ نـارُ هِنْـدٍ هـلْ عـرفتـا ... أنـتَ وصَّـافـاً لهـا مـا إنْ رأيتـا
نـارُهـا والنُّـور إنـي قَـدْ وَصَفْـتُ ... يا أنيسَ القَلْبِ هذا ما اجْتَرحتْ

مـا فَعَلْـتَ قَـدْ فَعَلْـتَ فـاحْـذَرِ
ودعـوتَ ميِّتـاً للمَحْشَـرِ

***

الطَّاهرة

مِـنْ ذُنـوبٍ وخطـايـا لِلْغُـلاة ... قَدْ بَدا ما لم يَكُنْ ، منْ كائناتْ
إنَّ فَـرْطَ الشَّـوْقِ ستـراً مـزَّقـا ... وعَـنِ العَيْـنِ القَـدِيْـمَ فـرَّقـا
نـالَ مـنْ عُـوْدٍ ومـنْ حَبْـلٍ نَصِيْبَـه ... لـمْ يَعُـدْ حيًّـا وَقَـدْ وافـىٰ حبيبـه[4]
بـالتَّجلِّـي بَيْنَنـا هـا قَـدْ ظَهَـرْ ... لا تَظُـنَّ أنَّـه الـدُّنيـا هَجَـرْ

عَضْـرُه كـانَ ضميـراً وَهْـوَ فيـهْ
عـزلـةٌ مهمـا تكُـنْ لا تَحْتَـويـهْ

---

(١) بَصَّرَهُ الأمرَ : عرَّفه إياه .
(٢) الحفيّ : البرُّ اللطيف .
(٣) اللظى : النار ، أو لهبها .
(٤) وافى : أتى .

زنده رود

أَنْتَ يا منْ جَهْدَ بحثٍ قد أَلِفْتَهْ   اشْـرَحَـنَّ لـيَ بيتـاً أنْـتَ قُلْتَـهْ
« مِـــنْ رمـــادٍ قبضـــةٌ قُمْـــريـــةٌ ، قَفَـــصُ اللَّـــونِ الهـــزارُ
يـــا شكـــاة فلتجيبـــي : أيـــن رمـــزٌ لفـــؤادٍ فيـــه نـــارُ »[1]

غالب

يشتكي النِّيرانَ في القلب الدَّنِفْ   وشكـاةٌ عـنْ شكـاةٍ تَخْتَلِـفْ[2]
أحـرق القُمـريَّ منهـا فـي اللهيـبْ   وبدا البلبلُ في الثَّوْبِ القشيبْ[3]
وتضـمُّ المـوتَ فـي حِضْـنِ الحيـاة   فحيـاةٌ ، أوْ لهـا شـأنُ الممـاتْ[4]
يـا للـونٍ كـانَ منـه سِفْـرُ مـانـي   أوْ زوالُ اللَّونِ مسلوبَ المعاني[5]
أفتـدري مـا للـونٍ مـنْ مَقَـام ؟   ونصيـبُ القَلْـبِ مِقْـدارُ الهِيَـام[6]
أنـتَ بـاللَّـون تعـالَ ، أوْ فسِـرْ[7]
كـي تـرى آثـارَ قلـبٍ يَسْتَعِـرْ

---

(١) يقول المستشرق الإيطالي باوزاني : إنَّ هذا البيت ترجمةٌ لإقبال عن بيت بالأوردية لغالبٍ يكتنف الغموضُ معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جديرةٍ بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأي شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدأ » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الدَّنِف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أنَّ الشكاة إمَّا حياةٌ أو موت .

(٥) السِّفْرُ : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرَّسم. وارثرنگ عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدُّها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجدُ القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدِمْ باللون أو امضِ بدونه .

زنده رود

ألـــفُ دنيـــا فـــي الفَضَـــاءِ الأَزْرَقِ
وبهـــا كـــلُّ نبـــيٍّ متَّقـــي

غالب

أَنْظُـرَنَّ فـي الـوجـودِ والعَـدَمْ   كمْ دُنىً تأتي لنا مُنْذُ القِدَمْ[1]
نحـنُ دنيا فـي الـوجـودِ إنْ رأينا   رحمـةً للعـالميـن قَـدْ رأينـا

زنده رود

وضِّـحِ القَـوْلَ فـإنِّـي مـا فَهِمْـت

غالب

أنـا إنْ زِدْتُـكِ تـوضيحـاً غَلِطْـت

زنده رود

لا يفيـدُ قـولُ أصحـابِ الجَنَـان[2]

غالب

مشكـلٌ قـولٌ دقيـقٌ فـي اللِّسـان[3]

---

(١) الدُّنى : جمع دنيا .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اشْتَعَلْـــتَ أنـــتَ مـــنْ نَـــار الطَّلَـــبْ
لفظـــةٌ مـــا قُلْتُهـــا يـــا لِلْعَجَـــبْ

غالب

إن خلقـــــاً وقضـــــاءً ابتـــــداءْ[1]
رحمـــــةٌ للعـــــالميـــــنَ انْتهـــــاءْ

زنده رود

المعـــانـــي عـــاجـــزٌ عَـــنْ فَهْمِهَـــا
لـــكَ نـــارٌ ؟ قُـــمْ وأحْـــرِقْنـــا بِهَـــا

غالب

أنْتَ يا منْ تُبْصِرُ الأشْعَارَ مِثْلي ... وعليهـــا لِلْكـــلامِ أيُّ فَضْـــل
أمـــراءُ الشِّعـــرِ زانـــوا جَمْعَهُـــمْ ... واليَـــدُ البَيْضـــاءُ لَيْســـتْ عِنْـــدَهُـــمْ
لَيْـــسَ مـــا تبغيـــهِ منِّـــي غَيْـــرَ كُفـــر ... إنَّـــه كُفْـــرٌ وراءَ كـــلِّ شِعْـــر

الحلَّاج

وإذا أبْصَـــرَتْ دُنيـــا للشِّيَـــات ... فالمُنَى في أرْضِها مِثْلُ النَّبات[2]

---

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٢ ـ ٣] .

(٢) الشِّيَات : الألوان .

إنَّ نُـــوْرَ المُصْطَفـــى فيـــه البَهَـــاءْ   أوْ رســـولَ الله ، هـــذا مـــا تَشَـــاءْ

زنده رود

النبـــيُّ المُصْطَفـــى مـــا أمْـــرُهُ   جـوهـرٌ ، أفْصَح أجِبْ ما سِرُّهُ
فـي الـوُجـودِ آدمـي أوْ جَـوْهَـرُ ؟   تــارةً يَخْفَــىٰ وأُخْــرَىٰ يَظْهــرُ

الحلاَّج

عفَّــرَ العَــالــمُ خَــدّاً عِنْــدَه   نَفْســه سمَّــىٰ النَّبــيُّ « عَبْـدَه »
« عبــده » فهمــاً لَــدَيْــكَ تَبْهَــرُ   إنَّــهُ الإنســانُ وَهْــوَ الجَــوْهَــرُ(١)
لَيْـسَ مـنْ عُـرْبٍ وَلَيْـسَ الأعجمـا   آدمٌ بــلْ كــان منْــه الأقْــدَمــا(٢)
« عبـده » قـد شَكَّلَـتْ هـذا القَـدَرْ   بالفَيَافي الخصْبُ مِنْها قدْ ظَهَرْ(٣)
أحْيَـــتِ الأرْوَاحَ وهـــي تَقْتُـــلُ   والـزُّجـاجُ ، وهـي صَخْـرٌ يَثْقُـلُ
غيـرُ « عبـدٍ » « عبـدُه » فَلْتَعْتَبِـرْ   ولهــا طــالَ انتظــارُ المُنْتَظِـرْ(٤)
عبـدُه الـدَّهْـرَ وكـانَ الـدَّهْـرُ منهـا   كلُّنــا لــونٌ وينــأىٰ اللــونُ عنهــا
ولهــا البَــدْءُ ومــنْ غَيْــرِ انتهــاء   مــا لــديهــا مثــلُ صُبْـحٍ أوْ مَسَــاء
مــا درى الإنســانُ قــطُّ سـرَّهــا   ســرُّ « إلا الله » كــانَ ذِكْــرَهــا
لا إلـــه السَّيْـــفُ وهـــي حـــدُّه   وَلْتُصَـــرِّحْ وَلْتَقُـــلْ « هــو عَبْــدُه »
« عبــدُه » كُنــهُ جميــع الكــائنــات   « عبــدُه » فيهــا معــانٍ مغلقــات

---

(١) بهر : غلب .
(٢) في الأصل الأعجم وهو الذي في لسانه لُكْنَةٌ وعَدَمُ فصاحةٍ . والمراد الأعجمي أي غير العربي .
(٣) الفيافي : جمع فيفاء ، وهي الأرض لا ماء فيها .
(٤) اعتبر : نظر في الشيء واختبره .

ولهـذا الشِّعْـرِ معنـىً مـا فَهِمـت قبلَ فَهْمِ قَوْلِ ربِّي ﴿ ما رمَيْتَ ﴾[1]

دَعْـك مـن هـذا الكـلام زِنـده رود
امـضِ وَلْيُغْـرِقْـكَ ذيّـاكَ الـوُجـود

زنده رود

إنَّ هـذا العِشـقَ شـيءٌ مـا عَـرَفْتُـهْ
أهُـوَ للـرؤيـةِ ذوقٌ مـا عَهِـدْتُـهْ ؟

الحلَّاج

هـذهِ الـرُّؤيـةُ معنـاهـا النّبـيّ يَحْكُمُ النَّفسَ ، بِذَا وهُوَ الرَّضيّ
أنت في دنياكَ عِشْ مِثْلَ الرَّسول ومـنَ الخَلْـقِ ستحظـىٰ بـالقَبُـول
ذاتَـك انظُـرْ إنَّ هـذا رُؤيتـه سـرُّه السـرُّ العظيـمُ سنَّتـه

زنده رود

رؤيـةٌ للهِ أفـلاكـاً نَثَـرْ ؟
وأدارَ الشَّمـس فيهـا والقَمَـرْ[2]

---

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم ببدر بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصره إيَّاكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصا ، فإنَّ كفاً من الحصا لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إنْ كان الرَّامي من البشر ، ولكنَّ الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي اللهُ الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلَّاج

صــورةُ الحــقِّ بــروحِ اطْــرَحَــن   ثــمَّ فــي الــدُّنيـا إليــه انْظُــرَن[1]
وإذا كَــانــتْ بــروحِ صُــوْرَتُــه   فلكــلٍّ العـــالَمِيــنَ رؤيتــه
إنْ جَرَتْ « هُو » يا حظيظُ مِنْ لِسَانِكْ   طافَتِ الأفلاكُ طوفاً حولَ دَارِكْ[2]
ويــلُ درويــشٍ بفيــه قــدْ جَــرَتْ   ثــمَّ ضــمَّ شفتيـــه أوْ صَمــت
إنَّـــه لـــم يُجــرِ حُكْــمَ ربِّـــه   ما الشعيرُ ؟ حَيْدرٌ في حَرْبه ؟[3]
طلــبُ الــزُّهــد تحــاشــى خيبــرا   راهباً أضحى ، مليكٌ يا ترى ؟![4]
صــورةُ الحقِّ ، هــي الــدُّنيا لــديكــا   والقَضــاءُ كــالــزِّمــام فــي يــديكــا

القتـــالُ بُغْيَـــةُ العَضْـــرِ المَـــرِيْـــد
ألقهـــا فـــي لـــوحِ كفّـــارٍ عَنِيـــدْ

زنده رود

كـــان فـــي الـــدُّنيـــا لَـــدَيْنـــا رَمْيُهـــا
لســـتُ أدري كيـــف كـــان رَمْيُهـــا !

---

(١) الحق : هو الله تعالى .

(٢) الحظيظ : السعيد الحظ .

(٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدُّنيا بأقلّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال . والشاعر يتهكم بالمسرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .

(٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهكم ثانيةً بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من ملوكِ الأرض .

الحلاَّج

بِحُنَيْنٍ كان لِلْوَجْدِ الرَّهيف   أمْ بقَسْرٍ كانَ لِلْقَهْرِ العَنيف[1]
إنَّ في الرِّقَّةِ ربي أظْهَرُ   هي مِنْ عُنْفٍ شديدٍ أجْدَرُ

زنده رود

أنتَ يا مَنْ تَعْرِفُ الأسرارَ شَرْقا
بَيْنَ زُهْدٍ هل ترى والعِشْقَ فَرْقا ؟

الحلاَّج

إنَّما الزَّاهدُ في الدُّنيا الغَرِيبْ
ذلكَ العاشِقُ في العُقبىٰ الغَرِيبْ

زنده رود

إنْ عَرَفْتَ فانتهاءٌ بالفناءْ   مَنْ سعيدٌ في الفَناءِ بالبَقَاء ؟

الحلاَّج

تُسْكِرُ الكأسُ خَلَتْ بَعْدَ امتلاء   وَعَنِ العِلْمِ اغترابٌ كالفَنَاء
في الفَنَاءِ لكَ شوقٌ واحْتَدَمْ   ذلكَ الموجودَ لا يلقى العَدَم[2]

زنده رود

من على آدم أغْلَىٰ قَدْرَهْ   لمْ يَجِدْ في قاعِ دنٍّ خَمْرَهْ[3]

---

(١) الرَّهيف : الرَّقيق .

(٢) احتدم : اشتد . يقول : أنت في الفناء تطلب شيئاً . والعَدمُ لا يصادف الشيء الموجود .

(٣) الدَّنُّ : جرَّةُ الخمر . ويعلى قدره على قدر آدم : يدَّعي أنَّه خير من آدم ، وهذا ما ادعاه=

يعـــرفُ الأفـــلاكَ حقّـــاً طينُنـــا أيــنَ نــارٌ للمَـــريـــد هــاهنـــا[1]

الحلاَّج

أوجـزِ الأقـوالَ عَـنْ شَيـخِ الفِـرَاقْ ذي الهُيَامِ والنَّجِيع في الدِّهاقْ[2]
وجهلُنــا ، كــلَّ شــيءٍ قــدْ دَرَىٰ وبِكُفْـــرِ كـــلَّ ســـرٌ أظْهَـــرا
السُّقــوطُ بَعْــدَهُ طــابَ الصُّعــودْ بَعْـدَ نقـصٍ قـرَّ عينـاً مـنْ يَـزيـدْ
إن عَشِقْـتَ فـي لهيـبِ فـاخْتَـرِقْ كـانَ منْـهُ ، أو فَلَسْـتَ المُحْتـرِقْ !
إنَّـــهُ فـــي العِشْـــقِ منَّـــا أقـــدم ســـرَّهُ مـــا لَيْـــسَ يـــدري آدَمُ
إنَّ للتقليـــدِ ثـــوبـــاً ، مَـــزِّقَنَّـــهْ
وَخُـــذِ التَّـــوحيـــدَ عنـــه وافْهَمَنَّـــهْ

الحلاَّج

المقـــامُ لَيْـــسَ فـــي طـــوْقٍ لنـــا ونَطيـــرُ ، كـــانَ ذا ذَوْقـــاً لنـــا[3]
نحـــنُ دومـــاً مـــنْ رَأَيْنـــا أو خَفَقْنـــا مـــا لَـــدَيْنـــا مـــنْ جنـــاحٍ ، حَسْبُنـــا[4]

* * *

ظهورُ رأسِ أهلِ الفراقِ إبليس

وحـــديـــثُ الحكمـــاءِ بُـــرهتـــان الـــوجـــودَ والفَنـــاءَ تَضْنَعـــان

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطِّين هنا هو الإنسان . والمَريد : الخبيث .

(٢) الهُيام : الظمأ . والنَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .

(٣) الطَّوْق : الطَّاقة والقُدْرة .

(٤) دوماً : دائماً . وحسبنا : كافينا .

أضْــرَمَ العِشْــقَ علينــا وانْصَــرَفْ وَهَــبَ الـرؤيــةَ عقـلاً ، مـا وَقَـفْ
أغمــضِ العينيــن حتَّــى أمْلكَــه فـي فـؤادي طـابَ لـي أن أسْلُكَـهْ
وظــلام كُــفَّ منــهُ النَّــاظـران فـي المكـانِ وإلـى غيـرِ المكـان[1]
شعلــةٌ لاحــتْ بليــلٍ قــدْ وَقَــبْ وإذا مــنْ جَـوْفهـا شيـخٌ وَثَـبْ[2]
وهــو شيــخٌ يـرتــدي سـودَ الثِّيـابْ والــدُّخــان لَفَّــهُ مِثْــلَ السَّحــابْ
قــال مــولانــا أرى شَيْــخَ الفِــراق
يتلظَّــى والنَّحيــعُ فــي الــدِّهــاق[3]
طالَ منهُ الصَّمْتُ في طولِ الوُجُومْ ويرى الأرواحَ وهي في الجُسُومْ[4]
مــاجــنٌ شيــخٌ حكيــمٌ زاهِــدُ يُشْبِـه الـزُّهـادَ وهـو الجَـاهِـدُ[5]
مـا درىٰ طَبْـعٌ لـه ذَوْق الـوِصَـالْ زُهْـدُهُ تـركُ الخلـودِ في الجَمَالْ[6]
وهـوَ عـنْ هـذا الجمـالِ مـا انْقَطَـعْ وامتنـاعِ عـن سجـودِ مـا صَنَـعْ
قِـفْ تـأمَّـلْ بُـزهـةً مـا قَـدْ عـراه ثـابتـاً فـي المُشْكـلاتِ كـي تـراه[7]
وبــه الهيجــاءُ مــا زالــتْ تَــدُوز
كــم نبــيٌ قــد رأى وهْــوَ الكَفُــوز
مِنْ لظاهُ الرُّوحُ في جسمي ارْتَعَدْ وزفيـرُ الحُـزْنِ مـنْ فِيْـهِ اصَّعَـدْ[8]
فَتَــحَ الْعَيْــنَ وقــالَ واعْتَــدَلْ مثلُنــا مــنْ كـانَ ميمـونَ العَمَـلْ

(١) كُفَّ بصرُه : ذهب . النَّاظران : العينان .
(٢) وقب الظلام : دخل على الناس .
(٣) يتلظَّى : يتلهب . النَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .
(٤) الوجوم : الحزنُ مع الصَّمت .
(٥) الماجن : الذي لا يبالي ما صنع . والجاهد : المجد .
(٦) الذَّوق : الإدراك . وفي الأصل أنَّ زهده قطع النظر عن الجمال الخالد .
(٧) عراه : اعتراه ، وغشيه .
(٨) اللظى : النار . اصَّعد : صَعِدَ .

انهَمَكْتُ في شُؤوني واجْتَهَدْت لِلصَّلاة قلَّما وَقْتاً وَجَدْت[١]

ما لَدَيَّ مِنْ مَدَدْتُ مِنْهُ قُوَّةْ إنَّ وَحيي لا يَمُنُّ بالنُّبُوَّةْ[٢]

لَيسَ عِنْدي مِنْ حَدِيْثٍ أوْ كِتَابْ والفَقِيْه منْ دَحَرْتُ في الغِلابْ[٣]

كالفَقيهِ غَزْلَ دين مِنْ غَزَلْ جَعَلَ الكَعْبَةَ آثارَ الطَّلَلْ[٤]

ما عَرَفْنا مِثْلَ هذا المَطْلَبِ ما لإبليسَ انشقاقُ المَذْهَبِ

يا جهولُ ، إنَّني ما إنْ سَجَدْت أرغُني هذا عليه قَدْ عَزَفْت[٥]

لِوجودِ اللهِ لستُ مُنْكِرا أبْصِرِ الباطنَ واتركْ ظَاهِرا

أجِهلتُ كي أقولَ ما وُجِد كيفَ هذا ، إنَّ ربِّي قدْ شُهِد[٦]

و« نَعَمْ » في سِتْرِ « لا » ما قَدْ نَطَقْت ما سكتُّ ، فأنا خيراً صَنَعْت

آدمُ مِنْ هَمِّهِ نِلْتُ النَّصِيبا ولِذاكَ عَنْهُ هدَّأتُ الحَبيبا[٧]

مِنْ مروجي نَبَتَتْ نارٌ ونارْ بَعْدَ جبْرٍ قَدْ هَدَاهُ الاختيارْ

إنَّني أظهرتُ قُبْحي ، قُمْ بشأنِكْ ثُمَّ قلتُ : أنْتَ فلتختَرْ لِنَفْسِكْ

تلكَ ناري صَدَّ عنِّي حرَّها عُقْدتي حُلَّ وَدَبِّرْ أمْرَها

أنت يا إنسانُ في أسري وَقَعْت أنْتَ عصياناً لِشَيْطانٍ أبَحْت

وهُماماً كُنْ ولا تَخْشَ الخُطوبا وَلْتَعِشْ يا مُسعدي عنِّي غريبا[٨]

دَعْكَ مِنْ حُلوي ومُرِّي وانسَ ما بي لا تزدني مِنْ سوادٍ في كتابي

---

(١) في الأصل أنه ما وجدَ وقتاً لصلاة الجمعة .

(٢) مددت منه قوة : أخذتها منه . والمن : التعيير بالصنيعة .

(٣) دَحَرَ : طرد ، وهزم . الغلاب : من غالب .

(٤) يجري إقبال على مألوف الصُّوفية في تهكمهم الرمزي بالزهاد والفقهاء .

(٥) الأرغن : آلةٌ يعزف عليها .

(٦) شهد : رُئي .

(٧) الحبيبُ : هو اللهُ جلَّ وعلا .

(٨) الهمام : العظيم الهمَّة . المُسْعدُ : المواسي والمعين .

يَـرْصُـدُ الصَّيَّـادُ مـا يَـرْميـهِ حَتْمـا إنْ بدوتَ في مَصَادي نِلْتَ سَهْما[1] !

مـا هـوىٰ مـنْ طـارَ فـي أوجِ السَّمـاء

يَغْلـبُ الصَّيـادَ صيـدٌ بـالـذَّكـاء[2] !

قلـتُ : « فـاطْـرَحْ لِلْفَـراقِ مَـذْهَبَـا في الطلاق ليس لي أنْ أرغبا »[3]

« الفــراقُ للحيــاةِ مِثْــلَ شَطْــر نشـوةٌ فـي يَـوْمِـهِ لَيْسَـتْ لِخَمْـر

الــوِصَــالُ بلســانــي مــا ذَكَـرْت فهو في الوَصْلِ امَّحى بي وامَّحَيْت»[4] !

لفظُـه عَـنْ نَفْسِـه كـانَ الغـريبـا ثُـمَّ زادَ القَلْـبُ بـالحُـزْن اللَّهيبَـا

وتَلَــوَّى فــي الــدُّخــان واخْتَلَــجْ ثـمَّ ضـلَّ وهـو منـه فـي الْحَـرَجْ[5]

الشَّكــاةُ للــدُّخــانِ فــي انْسِكــابْ

تَسْعــدُ الــرُّوحُ بــآلامِ العَــذَابْ

* * *

شكوى إبليس

ربَّ مَـنْ أخْطَـا وربَّ مَـنْ أصَـابَـا صحبةُ الإنسانِ لي كَانَتْ مُصابا[6]

ذلـكَ الإنسـانُ حكمـي لـمْ يُخَـالِـفْ أغْمَـضَ العَيْـنَ وذاتـاً لـم يُصـادِفْ

طينُـه لــمْ يَـدْرِ ذَوْقـاً لــلإبـاء لا ولا معنـىً لنــارِ الكِبْــريــاءْ

---

(١) المصَاد : موضعُ الصيد .

(٢) الصَّيْد : ما يصاد .

(٣) التلميحُ هنا بحديث للنبيِّ ﷺ ، وهو قوله : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد فناء الصُّوفي في الذَّات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضيق كثيرُ الشجر .

(٦) المصاب : النازلة الشديدة .

ويقــولُ الصَّيْــدُ للصَّيــادِ خُــذْنــي ... وخضـوعُ العَبْـدِ أمـرٌ لـم يَـرُقْـني[1]
وَمِــنَ الصَّيْــد ، إلهــي ، خلِّصَنّــي ... بخضـوعـي لـكَ بـالأمـسِ اذْكُـرَنّـي
مِنْــهُ ذُلِّــي ورمــانــي مــنْ عــلائــي ... ويـحَ نفسـي واشقـائـي وابـلائـي !
وَضَعيــفُ العَــزْمِ فَــجٌّ الفِطْــرَةِ ... ويَخِـرُّ إنْ ضَـرَبْـتُ ضَـرْبَتــي[2]
وجــديــرٌ بــي حصيــفٌ ذو نَظَــرْ ... منْ يُجيلُ الرأيَ في كلِّ الفِكَرْ[3]
دُمْيَــةَ الطِّيــنِ استــردَّ مــنْ يَــدَيَّــا ... لَيْـسَ كـالأطفـالِ مـنْ يَعْتُـو عِتِيًّـا[4]
مـا هـو الإنسـانُ ؟ ضِغْـثٌ مـن غُثـاء ... حَسْبُــهُ منِّــي الشَّــرارُ لِلفَنــاء[5]
للغُثَــاءِ وَحْــدهُ كــانَ الــوُجــودْ ... كـلُّ تلـكَ النَّـار عنـدي هَـلْ تُفِيْـد ؟
أيُّ شــيءٍ للــزُّجــاج كــانَ صهــر ... أعظَـمُ الأعمـالِ حقّـاً صَهْـرُ صَخـر
مِـنْ فتـوحـي هـا أنـا ذا قَـدْ سَئِمْـتُ ... وإليــكَ لِتَجــازينــي قَــدِمْــتُ
مُنْكِـرَ الـذَّات أريـدُ منْـكَ فـامنـحْ ... رَجُــلُ اللهِ الطَّــريــقَ نَحْــوَهُ افْتَــحْ
وأريـــدُ طُليتــي مــــنْ يَعْصِــرُ ... وارتيــاعــي منْــهُ حيــنَ يَنْظُــرُ[6]
من يقول : « أُخْرُجَنَّ مِنْ حُضُوري » ... لا أســاوي عِنْــدَهُ حَــبَّ الشَّعِيْــرِ

يــا إلهــي فَلْتَهَــبْ حُــرّاً أبيّــا
فــي انهــزامــي متعــةً كــانَــتْ لَــدَيّــا

***

---

(١) لم يرقني : لم يعجبني .
(٢) الفج : ما لم ينضج من الثمار . وخر : سقط .
(٣) الحصيف : العاقل الحكيم .
(٤) عتا الشيخ : طعن في السن .
(٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة اليابس بالرطب .
(٦) الطلية : العنق .

القسم السادس

فَلَكُ زُحَل

الأرواحُ الخبيثةُ الَّتي غَدَرَتْ بالوَطن
ولم تقبلْها جهنَّم

كـانَ لـلأحـرارِ مـولانـا الإمـامـا كـلَّ حُـرٍّ بـوَّأ الشَّيْـخَ المَقَـامـا[١]
السمـاء قـالَ يـا مَـنْ قَـدْ طَـوَيـتْ أعلـى العـالَـمِ زُنَّـاراً رأيـتْ ؟[٢]
وكمـا شـاهَـدْتَـه أنْـتَ انْتَطـقْ بـذيـولٍ لنجـومٍ قـدْ سَـرَقْ ![٣]
وبطـيءٌ كـالسُّكـونِ عِنْـدَ سيْـر خيـرُه مـا كـان إلا كـلَّ شَـر
جسمَـه مـاءً وطينـاً شَكَّـلا خطوُه في الأرضِ صَعْبٌ أُشْكِلا[٤]
تَصْعَـقُ النَّـار بـأيـدٍ لِلْمَـلائـكْ قَسَمَتْ سُخْطاً لربي مِنْ هُنالِكْ[٥]
دِرَّةٌ قـد أوْجَعـتْ تِلْـكَ النُّجـومـا مَنَعَتْهـا فـي المَـدَارِ أنْ تَحُـومـا[٦]
عـالَـمٌ منـه النُّفُـورُ لِلْفَلَـكْ وهو مِنْ بُخْلِ الشُّمُوسِ في الحَلَكْ[٧]
مـا لأرواحٍ بـه يَـوْمَ النُّشُـور لـمْ تُعَـذِّبهـا الجحيـمُ بـالسَّعيـر[٨]
إنَّ شَيْطَـانَيْـنِ فيـهِ يَسْكُنَـانْ أزْهَـقَ الـرُّوحَ لقـومٍ قـاتـلانْ
ذاكَ فـي البنغـال هـذا فـي الـدَّكَـنْ وهمـا للـدِّيـن عـارٌ والـوَطَـنْ[٩]

---

(١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومي .
(٢) الزُّنار : ما يشدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .
(٣) انتطق : شدَّ وسطه بالمنطقة .
(٤) أشكل الأمر : التبس .
(٥) الملائك : الملائكة ، والنَّار هنا : الصاعقة .
(٦) الدِّرَّة : السوط .
(٧) الحلك : الظلام .
(٨) يوم النشور يوم القيامة الذي تعود فيه الحياة إلى الموتى . والسَّعير : النار .
(٩) مير جعفر : هندي قبل أن يكون حاكماً للبنغال تحت نفوذ الإنجليز ؛ الذين توطدت=

أبْغَضَا في اليأس من نيلِ المُراد الفسادَ قَدْ أشاعا في البِلادْ
أمَّةٌ كلَّ الصِّلاتِ قَطَّعتْ مُلْكَها والدِّينَ حتماً ضَيَّعَتْ[1]
وبلادُ الهند هلْ أُنسيتها ؟ ولها في كلِّ قلبٍ ما لها[2]
فَتَجَلِّيها أنارَ العالما ما تزالُ أرضُها تجري دَمَا
في ثراها مَنْ رَمَىٰ بِذْرَ العبيد ؟ ذاكَ فِعْلٌ كانَ منْ رُوحٍ مَرِيد
برهةً قِفْ أنتَ في هذا الفضاء
ما ينالُ المرءُ شاهدْ منِ جزاء

***

بَحْرُ الدِّماء

ما رأيتُ ، وَصْفُهُ يُعْيي اللسِن يُرعبُ الرُّوحَ ويُنْسيها البَدَنْ[3]
إنَّه بحرُ الدِّماء قَدْ جَرَىٰ فَوْقَهُ ريحٌ وأخرى أضْمَرا
يُشْبِهُ الحيتانَ تِنِّينٌ يَطِيرْ بجناحيْ زئبقٍ والكفُّ قِيرْ[4]
موجُهُ اللَّيْثُ الهصورُ ذو المَناصِلْ ماتَ رُعْباً منه تِمْسَاحٌ بِسَاحِلْ[5]

= أقدامُهم ، واستقامتْ أمورُهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الدَّكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور المتوفى عام ١٧٩٩ .

(١) يريد قطع الصلات بينها وبين غيرها من الأمم .
(٢) أي لها في كل قلبٍ ما لها من علوِّ المنزلة .
(٣) اللسن : الفصاحة .
(٤) التنين : العظيم من الحيات . يقول إن التنانين في الجو كالحيتان في البحر وجناحاها في لون الزئبق ومخالبها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تُطلى بها السفن .
(٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكأن أنياب الأسد سيوف .

لَـمْ يَنَـلْ مِنْـهُ الأمـانَ الشَّـطُّ قَـطْ		فـي الـدِّمـاء تِلْـكَ أعـلامٌ تُغَـطْ[1]
هــذه الأمــواجُ دومــاً فــي نِــزَاعْ		تُهْبِـطُ الـزَّورَق مِـنْ بَعْـد ارتفـاع

فيــه يَبْــدو رَجُــلانِ شَــاحِبــانْ
أشْعَثَــانِ مــنْ ثِيَــابِ عَــاريــانْ

* * *

روحُ الهِنْدِ تَظْهَر

تِلْكَ بنتُ الحورِ في شَقِّ السَّماء		ترفع البُرْقُعَ عَنْ وَجْهِ الضِّياء
ولهــا نــارٌ ونــورٌ فــي الجَبِيــنْ		وســرورٌ أبــديٌّ فــي العُيــون
تــرتــدي ثــوبــاً أرقَّ مــنْ غَمَــامْ		نَسَجَتْـهُ مِـنْ وُرُودٍ فـي الكِمـامْ[2]
مَـعَ هــذا الحُسْـنِ نـاءت بـالقُيـود		تَصْدَعُ الشَّكْوىٰ لها قلبُ الحَدِيدْ[3]

قــال : روحَ الهنــدِ مــولانــا اشْهَــدا
نــوحُهــا فــي القَلْــبِ نــاراً أوقــدا

* * *

روحُ الهِنْدِ تَنُوْحُ وتَنْتَحِب

أيـنَ نـورُ الـرُّوحِ فـي مصبـاحهـا		مـنْ وَعَـىٰ مجـداً لهـا مـنْ أهْلِهـا
مَــنْ علــى ســرٍّ لهــا لــم يَطَّلــعْ		ألِلَخْـــنِ مِنْـــهُ مُشْـــجٍ نَسْتَمِــعْ
ويــرى المــاضــي بعيــنٍ جــامِــدَهْ		يَحْــرِقُ القلــبَ بنــارٍ خــامِــدَهْ
وقيـــودي مِنْـــهُ يُعيـــي ثِقْلُهـــا		وشَكــاتــي ليــس يُجْــدي قَــوْلُهــا

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .
(٢) الكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البُرعم .
(٣) ناء بالحمل : نَهَضَ به مُثقلاً .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » مِنْ تقاليدِ له سِجْناً بَنى
عَيْشُه آلمَ حتَّى قَومَنَا
طُهْره بالحُزْنِ أضنى عَصْرَنا[1]
دَعْكَ مِنْ فَقْرٍ به عُزْيٌ وجب حبذا الفَقْرُ إذا مُلْكاً وَهَبْ[2]
دَعْكَ مِنْ جبرٍ وصبرٍ ، الحَذرْ فلأهلِ الجَبْر سُمٌّ قَدْ بَدَرْ[3]
إنَّ هذا مَنْ يُدِيْمُ صَبْرَهُ ذاكَ مَنْ يرضى ويهوى جَبْرَه
يألفانِ الظُّلْمَ مُرّاً في التَّحَسِّي
لَيتَ قومي يعلمون ، ويحَ نَفْسي
أَلِلَيْلِ الهندِ صبحٌ قَدْ يَلُوحْ جعفرٌ أودى وتحيَا مِنْهُ رُوحْ[4]
إنَّ قَيْدَ الجِسْمِ عَنْهُ قَدْ خَلَعْ وَبِجِسْمِ آخرٍ عشَّا وَضَعْ
تارةً كانَ أُلُوفاً للكنائِسْ وهو منْ في الدير أحياناً يُجانِسْ[5]
دينُه ما كانَ غَيْرَ المتْجَرِ عنترٌ يَبْدُو كمِثْلِ حَيْدَرِ[6]
إنَّهُ عنْ كلٍّ هذا لا يَحِيدْ طالَما كانَ لِدُنيانا وُجُودْ[7]
وقديماً لِسِوىٰ هذا سَجَدْ وطناً في عَصْرِنا ما قَدْ عَبَدْ
وعلى الدِّين لنا يَبْدُو حَزِينا وهو في الباطِنِ مِثْلُ المُلْحِدِينا
جَعْفرُ الأمَّةِ هذي مَنْ قتل مسلماً والقَتْلُ كانَ ما فَعَلْ

(١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلِّها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما طَهُرَ وما لم يَطْهُرْ .
(٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ من مُلْكِ الملوك .
(٣) الجَبْرُ والصَّبْرُ هنا هما القَدَرُ والاستسلام له .
(٤) أودى : هلك .
(٥) الألوف : الكثير الألفة . ويشير إلى ولائه للإنجليز . وجانسه : كان من جنسه .
(٦) المتجَر : الاتِّجار .
(٧) يحيد : يعدل وينحرف .

باسمٌ، ما شاق يوماً خِلَّهُ يبسمُ الثُّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ ؟[1]
الشِّقاقُ بثَّه في قَومِهِ واللئيمُ شَعْبُه من لُؤْمِهِ
الفساد في بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أصْلٌ له أو كانَ جَعْفَرُ
جعفرٌ من رُوحِه رَبِّي أغِثْنا
من مَثِيلِ جعفرٍ ربِّي أجِرْنا

***

صيحةُ راكبٍ في زورقِ بَحْرِ الدِّماء

حائرٌ بَيْنَ الوُجودِ والعَدَمْ وَيْحَ نفسي منْ وُجودٍ كمْ ظَلَمْ
نَحْنُ منْ شرقٍ إلى غربٍ عَبَرْنا وإلى بابِ الجَحِيمِ قدْ وَصَلْنَا[2]
ما رَمَتْ هَـٰذينِ حتَّى بالشَّرَرْ ما لنا كفُّ رمادٍ في الشَّعَرْ[3]
ثُمَّ قالتْ إنَّ ضِغْثاً أفْضَلُ
فهو أنقى، فيه ناري تَشْعلُ
في السَّمواتِ مضينا مُصْعِدِينا ورأينا بَغْتةً تِلْكَ المَنُونا[4]
قالتِ الأرْوَاحُ : أسرارٌ لَدَيَّا حفظُ روحٍ هَدْمُ جِسْمٍ في يديَّا
إنَّ رُوحَ الشرِّ شيءٌ يُحْقَرُ امضِ عنِّي! ما بموتٍ تَظْفَرُ[5]

---

(١) شاقَ : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يبسم الثعبان ولكن عن نابين يمجّان السُّمَّ .

(٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنَّهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .

(٣) أي لم تنثر حفنةٌ من الرَّماد على رؤوسهم .

(٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .

(٥) يقول : إنَّ قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحــةُ الأرواحِ لَيْسَــتْ فــي الحِمــام
لا يُــريــحُ المــوتُ روحــاً لِلِّئــام

يــا ريــاحُ ، يــا محيطــاً لِلــدِّمــاءْ أنتِ يا غَبْرَاءُ ، يا لونَ السَّماءْ[1]
يــا ذُكَــاءُ ثُــمَّ يــا بَــدْرُ الظُّلَــمْ والكتــابُ ومَــعَ اللَّــوْحِ القَلَــمْ
يــا إلهــاً أبيضــاً يــا لِــوَرْدٍ غَــرْبِ تَمْلُكانِ عالماً مِنْ غَيْرِ حَرْبِ ![2]

مــا لِــدُنيــانــا ابتــداءٌ وانتهــاءْ
ألِعَبْــدٍ حــانَ بــالمــولــى لِقَــاء[3]

ثُــمَّ دوَّى بَغْتــةً صَــوْتٌ رَهِيــبْ شقَّتِ الصَّدرَ البحارُ والشُّهوب[4]
تِلْــكَ أوصــالُ الجســومِ فُكِّكَــتْ والصُّخُــورُ وهــي تهــوي فُتِّتَــتْ
والجبــال كــالسَّحــاب فــي المــرور هــذه الدُّنيا انتَهَتْ مِنْ غَيْرِ صُوز
والبــروقُ أضلُهــا نــارُ الخَفَــاءْ عُشُّهــا تَطْلُــبُ فــي بحــرِ الــدِّمــاء
جــاشَــتِ الأمــواجُ وهــي تَسْتَبِــقْ في الدِّماء الطُّورُ كالسَّهلِ الغَرِقْ[5]

للنُّجــومِ مــا بــدا أو غــابَ عَنْهــا
لــمْ يُثِــرْ أدنــى اهتمــامٍ كــانَ منْهَــا

***

(١) الغبراء : الأرض . يا لون السَّماء : أي : أيَّتها السَّماء الزرقاء .

(٢) في الأصل أيتها الأصنام البيض ويالوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع . ويقول : إنَّ هؤلاء يريدون أن يملكوا العالم بكلِّ يسرٍ وهينة .

(٣) المولى : السَّيِّد .

(٤) الشُّهوب : السهول .

(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تتسابق .

القسم السابع

مَا وراءَ الأَفْــلاك

منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه[١]

للفنـــاءِ والبقـــاءِ مُعْتَـــركْ لَيْسَ يـدري المرءُ سِرّاً لِلْفَلَكْ[٢]
للحيـاةِ يَحْمـلُ المـوتُ الـرِّسـالـةْ والسَّعيدُ منْ وَعَىٰ لِلْمَوْتِ حالةْ !
الـريـاحَ أشْبَهَـتْ هـذي الحيـاة ما استقرَّت ، كلُّ ما تبغي الثَّبَاتْ !
كـم دُنًـى لـي نـاظـرانِ شـاهَـدَا ثـمَّ حـدُّ الكـائنـاتِ لـي بـدا
كـلُّ دُنيـا كـانَ فيهـا نـورُهـا قـطُّ مـا إنْ أشْبَهَتْهَـا غيـرُهـا[٣]
إنَّ فيهـا الـوقْـتَ يجـري كـالبِحَـارْ فهـي تجـري أو لهـا بَعْـضُ القَـرَارْ
عـامُهـا شَهْـرٌ وحتَّـى بُـرْهَـةٌ قِلَّـةٌ طَـوْراً وطَـوْراً كَثْـرةٌ[٤]

عقلُنَـا فـي عـالَـمٍ كـانَ الـذَّكيَّـا
فـي سِـوَاهُ لـم يَكُـنْ إلا الغبيَّـا

ثَغْـرُه القـاصـي بـه مـنْ قَـدْ ظَهَـرْ صـوتُـه المحـزونُ بـالحـزنِ انْفَطَـرْ
ولـهُ العَيْـنُ كَعَيْـنِ للعُقَـابْ كاسفَ الوَجْهِ لأهوالِ المُصَابْ[٥]
والتَّبـاريـحُ تـزيـدُ فـي الجَنَـانْ بَيْـتُ شِعْـرٍ مـا طَـوَاهُ عَـنْ لِسَـانْ[٦]

---

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعدُّ بحقٍّ منْ أهمِّ قادة الفكر الذين كان لتفكيرهم أثرٌ في العصر الحديث . وأكثر كتبه سيرورة كتاب بعنوان : « هكذا قال زرادشت » وإن كان أشدَّ ما كتب غموضاً . وقد تناول المسيحية بالنقد ، واختلط عقله قبل وفاته عام ١٩٠٠م .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد أنَّ الفناء والبقاء في حربٍ إلى الأبد .

(٣) في الأصل أنَّ كلَّ عالمٍ له قَمَرُه وثريَّاه ، وهو مختلفٌ عنْ غيره .

(٤) أي أنَّ القلة في عالم كثرةٌ في غيره . وهذا مطَّردٌ في كلِّ تِلْكَ العوالم .

(٥) كاسفَ الوَجْه : عابسٌ منْ هول الشدائد .

(٦) تباريح الشوق : توهجه . والجنان : القلب . ولم يطو بيت شعر عن لسانه : لا يكف=

« أجبريلُ أم اللهُ وحورُ الخُلْدِ ؟ تَنساقْ !
تراب أنت في نارٍ لروحٍ وهي تَشْتَاقْ »[1]

قلتُ للروميِّ ذا المجنونُ مَنْ ؟ قال : في الألمانِ مَشْهورُ الزَّكَنْ[2]
كانَ بَيْنَ العالمينَ مَوْضِعُهْ وقديمُ اللَّحْنِ منْهُ نَسْمَعُهْ
إنَّه الحلاَّجُ لَكنْ أينَ عُوْدُه ؟ قال قولًا وسواهُ لا يُعيدُهْ[3]
وجريءُ القَوْلِ بَرَّاقُ الفِكَرْ قولُه السيفُ الفِرَنْجَ قَدْ شَطَرْ
الجليسُ لَيْسَ يَدْري جَذْبَتَهْ تَخسبُ المجذوبَ جُنَّ نَظْرَتَهْ
من خُمارِ العِشْقِ معدومو النَّصيب نبضُه قدْ أودعوا كفَّ الطَّبيب[4]
عِنْدَ أهْلِ الطبِّ خَتْلٌ ما وُجد ويلُ مجذوبٍ لإفرنجٍ وُلِدْ[5]
ابنُ سينا في كلامٍ قالَ أفْصِد أو بِحَبٍّ منْ شَكَا الأوجاعَ أزْقِدْ

كانَ حلاجاً بأرضٍ كالغَريبْ
فرَّ مِنْ قَتْلِ الفَقِيْهِ لا الطَّبيب !

الطَّريق في الفِرَنْجِ منْ عَرَفْ ؟ فَعَلَىٰ قيثارةٍ دوماً عَزَفْ[6]
الطَّريقُ لَيْسَ فيه منْ دَليلْ ضلَّ في سيرٍ وفي سيرٍ وَبِيْل[7]
كانَ مالًا لَمْ يَجِدْ منْ عَدَّهُ يُنْجِزُ الأعمالَ لَكِنْ وَحْدَهُ
عاشقٌ لَكِنْ طَوتْهُ زَفْرَتُهْ سالِكٌ قَدْ تَيَّهَتْهُ خُطْوَتُهْ[8]

= عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .
(٢) الزَّكن : الفطنةُ والذَّكاء .
(٣) العود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولًا لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .
(٤) الخمار : الصُّداع من شدَّة السُّكْرِ .
(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .
(٦) دوماً : دائماً .
(٧) السَّير الوبيل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .
(٨) تيَّههُ : أضلَّه ، وضيَّعه .

حَطَّمَ الكاساتِ ذيّاكَ الثَّمِلْ وَعَنِ اللهِ وذاتٍ مُنْفصِلْ
ورأىٰ لَكِنْ بِعَيْنِ الظَّاهِرِ الرَّقيق في العنيفِ القَاهِرِ
وانْطِلاقاً شاءَ مِنْ طِينِ البَدَنْ وخروجُ الحَبِّ في قلبِ قَطَنْ
ومَقَامٌ للإلهِ ما يريد وعَنِ العَقْلِ البَعيْدِ والبَعيد !
إنَّ تِلْكَ الذَّاتِ شَرْحٌ لِلْحَياة « لا » و « إلّا » مِنْ مقاماتٍ لِذَاتْ
ظلَّ في « لا » وَحْدَها هذا العَجِيب عَنْ مَقَامِ « عبده » وَهْوَ الغَرِيبْ
عنْ تجلٍّ ما لديهِ منْ خَبَرْ كثمارٍ أبعدوها عنْ شَجَرْ !
طَلْعةُ الإنسانِ راقتْ مِنْهُ عَيْنَا ثمَّ صَاحَ ذَلِكَ الإنسانُ أينا
أوْ عنِ النَّاس تراه رَاغِبَا وكَمُوسىٰ لِلقاءِ طَالِبَا
لَيْتَهُ منْ عَاشَ في عَصْرٍ لأحْمَدْ لِيَعِيْشَ في الحُبُورِ وَهْوَ سَرْمَدْ[1]
عَقْلُهُ لِلذَّاتِ قالَ : اسْتَمِرْ أنْتَ في خيرِ طريقٍ ، فَلْتَسِرْ
وَتَقَدَّمْ قَدْ دنا هذا المَقَامْ
طَالَ فيه ، وبلا حرفٍ ، كَلامْ

***

الرَّحِيْلُ إلى جنَّة الفِرْدَوْس

انْطَلَقْتُ مِنْ حُدُوْدِ الكائِنَاتْ عالماً وافَيْتُ يَخْلُو مِنْ جِهَاتْ
لَيْسَ فيهِ مِنْ يمينٍ أو يَسَارْ لا ولا ليلٌ أتى بَعْدَ النَّهارْ
عِنْدَهُ قِنْدِيْلُ إدْراكي خَمَدْ هيبةً مِنْهُ كلامي قَدْ جَمَدْ
بِلِسانِ الطِّينِ لِلرُّوح المَقَالْ !؟

---

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السَّرهندي المتوفى عام ١٥٦٤م ، ذلك الصُّوفي الهندي الذي عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف الثاني ، وكان ضدَّ غُلاة المتصوِّفة .
والحبور : السرور . والسَّرمد : الدائم .

طيرانُ الطَّيْرِ في السِّجْنِ المُحَالْ[1]

عالماً للرُّوحِ خُصَّ بالنَّظَرْ فَبِنُورِ الذَّاتِ نورٌ لِلْبَصَرْ
ما الفؤادُ ؟ عالمٌ لا لَوْنَ لهْ لَيْسَ فيهِ الحدُّ فانْظُرْ كلَّه
ساكنٌ والسَّيْرُ منه في ازدياد كلَّ حالٍ كلُّ فكرٍ في الفؤاد
حارَ هذا العقلُ في تِلْكَ الحقيقه سارَ وهو لا يرى حتَّى طَرِيْقَه
والخيالُ غَيْرهُ عَنْهُ اخْتَلَفْ ذاكَ في الجوزا وهذا قَدْ أَسَفّ[2]
مَنْ يقولُ إنَّ هذا في السَّما بجوارِ مَنْ على الأرضِ ارْتمىٰ
أسرورُ مَنْ رأىٰ يوماً حَبِيبَا مِنْ سُرُوْرِ ناشقٍ كانَ القَريبا[3]
أيقظِ العَيْنَيْنِ أوْ خُذْ بالكرى فَبِدُونِ الشَّمس قَلْبٌ قَدْ يُرَىٰ

فضِّلِ الدُّنيا على دُنيا الفُؤادْ
بالقياسِ حِزْتُ في شَرْحِ المُرَاد

هذه دنياكَ فيها غَيْرُها «كنْ فكانَ» غَيْرُ تِلْكَ نَجْرُها[4]
وتدومُ ، وبها دامَ التَّغَيُّرْ لا يراها الوَهْمُ ، إنَّ العَيْنَ تَنْظُرْ
ولها دوماً جديدٌ مِنْ كمال كلَّ يوم كانَ لونٌ مِنْ جمال[5]
لا تُرى فيها الشُّموسُ والبُدور تسعةُ الأفلاكِ فيها ما يَدُورْ
كلُّ ما في الغَيْبِ يبدو في سُفُورْ قَبْلَ أنْ يَخْفِقَ قَلْبٌ بالشُّعورْ
بلساني هَلْ أصيبُ وَصْفَها يا لها نورُ الحياةِ يا لها ![6]
الجبالُ أنْبَتَتْ حُمْرَ الزُّهورْ في الرياض النَّهْرُ يجري بالخَرِيرْ

---

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفص الطير .

(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أنَّ سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشمُّ الرِّيح التي تأتي من محلته .

(٤) النجر : الأصل .

(٥) لون : نوع . وكان هنا تامة .

(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

البَـــراعِيـــمُ زَهَـــتْ ألـــوانُهـــا   نفخــةُ الأبــرارِ منهــا كــونُهــا[1]
اللُّجَيْـــنُ المـــاءُ والأنســـامُ عَنْبَـــرُ   والقِبَابُ للقُصورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ[2]
الخيـــامُ مِـــنْ يـــواقيـــتٍ وتِبْـــرِ   وجبيـــنُ الغِيْـــدِ بـــالمـــرآةِ يُـــزْرِي
قال لي « الرومي » أسيرٌ للقياس ؟   عَنْـكَ دَعْ كـلَّ اعتبـارٍ لِلْحَـواس
بـــالتجلِّـــي الخيـــرُ كـــانَ والشُّـــرور   جَنَّـــةٌ كـــانَـــتْ كمـــا كـــانَ السَّعِيـــر
القُصُـــورُ كـــالـــرَّبيـــعِ فـــي النَّظَـــرْ   أصلُهـــا الأعمـــالُ لا ذاكَ الحَجَـــرْ !
مـــا تُسمِّيـــهِ بحـــورٍ أو بِكَـــوْثَـــرْ   لِسُـــرُورٍ ولجـــذبٍ كـــانَ مَظْهَـــرْ
الحيـــاةُ ، هـــاهنـــا هـــذا النَّظَـــرْ
وسِـــوَاهُ وَسِـــوى قـــولٍ فـــذَرْ

***

قَصْرُ شَرَفِ النِّسا[3]

عُـــشُّ يـــاقـــوتٍ أراهُ فـــي عُـــلاه   ومِـنَ الشَّمْـسِ الخـراجُ قَـدْ جَبـاه
ذَاكَ قَصْـــرٌ ذو قِبَـــابٍ عَـــالِيَـــاتْ   ضـمَّ حـوراً فـي ثيـاب المُحْـرِمـات
رغبـــةُ العِلْـــم وُهِبْـــتَ سَـــالِكَـــا   مـنْ لهـذا القَصْـرِ كـانَ مَـالكـا[4]

---

(١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إنَّ الأبرار نفخوا نفخة أوجدتها .
(٢) اللجين : الفضة . والأنسام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .
(٣) شرفُ النِّسا : حفيدةُ أحد حكام البنجاب على عهد الإمبراطور المغولي بهادرخان . ويقال : إنَّها أقامت في قصرها منصةً لتتلو القرآن عليها كلَّ صباح وإلى جانبها سيف . وكانَ المصحف والسيف على تلك المنصَّة دائماً . وأوصت بدفنها بعد موتها مع السَّيف والمصحف في ذلك الموضع .
(٤) السَّالك : المريد في أول عهده بالتصوف .

قال « هذي ، عُشُّها البادي هنالك وتغنَّى طيرُه بَيْنَ الملائك[١]
جوهرٌ ، ما إنْ حَوَاهُ بحرُنا وفتاةٌ لم تَلِدْها أمُّنا
أرضُ لاهورَ بها أضْحَتْ سَمَاء سرُّها يخفىٰ على الدُّنيا خَفَاء
ولما بالذَّوْقِ والشَّوْقِ الشُّعُوزْ ولعينِ حاكمِ البنجابِ نُورْ
وهي نورُ الأهل في عبد الصمد فَقْرُها ذِكْرى ستبقىٰ لِلأبَدْ
تَقْرَأُ القرآنَ ، نفساً طهَّرت برهةً في تَرْكِهِ ما فكَّرَتْ
تَحْملُ المُصْحَفَ والسَّيْفَ الحُسَاما إنَّها السَّكْرى وما ذاقت مُدَاما[٢]
خلوةٌ سيفٌ وقرآنُ الصَّلاة حبَّذا عُمْرٌ تَقضَّى في التُّقاة[٣]
آخرُ الأنفاسِ وهي تُحْتَضَرْ أمَّها خصَّتْ بِمُلْتَاعِ النَّظَرْ
ثُمَّ قالتْ إنْ عَرَفْتِ الآنَ سِرِّي شاهدي ما في يَدِيْ أوْ ما بِخَصْرِي[٤]
قوَّتانِ بهما أيْدُ الثَّباتْ مِحْوراً كانا لِدَوْمِ الكائِنَاتْ[٥]
في حياتي ، وجميعاً نُقْبرُ ليس لي يا أمُّ شيءٌ آخَرُ
قَبْلَ مَوْتي ذاكَ مِنْكِ مَطْلَبي مُصْحَفي والسَّيفَ منِّي قرِّبي
كلُّ هذا من كلامي فلتعي لا تزيني في التُّرابِ مَضْجَعي[٦]
الكتابُ والحُسَامُ حَسْبُنَا
بهمَا يَزْدَانُ حقّاً قَبْرُنا
وقروناً تَحْتَ تِبْرٍ لِلقِبَابْ قَدْ تحلَّى بالحسامِ والكِتَابْ[٧]

---

(١) أي تَغَنَّى الطيرُ الذي حطَّ على سطح هذا القصر مع الملائكة .
(٢) السَّيفُ الحسام : القاطع .
(٣) التقاة : التقوى .
(٤) المصحف في يدها ، والسَّيف معلقٌ بخصرها .
(٥) الأيْد : القوة .
(٦) وعى الكلام : حفظه وتدبره . وهي ترغب إلى أمّها ألا تقيمَ لها قبراً يزدانُ بالقبابِ والقناديل .
(٧) التبر : الذّهب .

ولنا المَرْقَدُ في دُنيا الشَّتَاتْ علَّم المؤمنَ معنىً لِلْحَيَاة[1]
نَفْسَهُ المسلمُ حقّاً قَدْ ظَلَمْ فالبساطُ ما طوىٰ دَهْرٌ وَضَمّ
وهو في غيرِ الإلهِ فَكَّرا أصْبَحَ الثَّعْلَبُ ، كانَ القَسْوَرا[2]
ولهيبُ القلبِ فيه ما انْدَلَعْ أنْتَ في البنجاب تدري ما وَقَعْ ؟
مِنْهُ سَيْفٌ وكتابٌ ما حُمِل
ولذا الإسلامُ فيهِ قَدْ قُتِل »[3]

* * *

زيارةُ الأميرِ الكبيرِ سيِّد علي همداني ومُلاَّ طاهر غني كشميري[4]

حَرَّقَ الأضلاعَ لِلرُّوميِّ قولُ آه يا بنجابُ ! يا أرضاً تُجَلّ
مِثْلَ خِلاَّني اضطربتُ في الجنانِ وَمِنَ الهمِّ ذكرتُ ما عَرَاني[5]
وإذا صوتٌ لآلامٍ وَحُزْنِ منْ ضِفَافِ الكَوْثَرِ الصَّافي بأُذْني
« وأردتُ حَرْقَ نفسي ولذا جَمَّعتُ قشّاً

---

(١) الشَّتات : التفرق .
(٢) القَسْوَرُ : الأسد .
(٣) يقول : إنَّ طائفة السِّيخ هي التي أبعدت القرآن والسيف عن البنجاب . وفي عقيدةِ السِّيخ : أنَّ كل إنسانٍ جديرٌ بالإجلال والتقدير بقطع النظر عن دينه ومذهبه ، ومرَّت الأيامُ وحاربَ السيخُ المسلمين .
(٤) الأمير سيد علي همداني صوفيٌّ مرموقُ المنزلة عالي القدر . كان صاحب مشورة أمير كشمير ، ولد في همدان ، وعاش طويلاً ، وأفاد الناس بعلمه في كشمير ، وتوفي عام ١٣٨٥م . ومُلاَّ طاهر غني كشميري ، شاعرٌ من أهل كشمير ، كانت وفاته عام ١٦٦٩م . كان واسع الخيال ميالاً في شعره إلى التمثيل والتخييل ، وعلى فقره ورقة حاله عُرِفَ بغنى النفس ، فكان اسماً على مسمَّى .
(٥) عراه : أصابه .

ويظنُّ الوردُ أنّي في الرياض رُمْتُ عُشًا » ![1]

قالَ لي الروميُّ « ما يأتي انظُرَنَّهْ يـا بُنَـيَّ مـا مَضَـىٰ لا تَـذْكُـرنَّـهْ

هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعِر الفقيـرُ ، وغِنَـاهُ مِنْـهُ ظَـاهِـرْ

إنَّــهُ النَّشْــوانُ غَنَّــى فــي دوام عِنْـدَ هـذا السَّيِّـدِ العـالـي المَقَـامْ

سيِّـدُ السَّـاداتِ مـنْ سَـادَ العَجَـمْ كفُّـه مِغْمَـارُ تقـديـرِ العَجَـمْ[2]

الغــزالــي دَرْسَــهُ لمَّــا تَلَقَّــى اسْتَمَــدَّ آلــهُ فِكْــراً وحقًّــا

فــي بــلادٍ وهــي لِلْخُلْـدِ النَّظيـر مـرشـدٌ لِلْكُـلِّ بـلْ نِعْـمَ المُشيـرْ

فـي البـلادِ ذلـكَ البَحْـرُ المَعيـنْ فَضْلُـهُ عِلْـمٌ وَتَهْـذيـبٌ وَدِيْـنْ[3]

إنَّــه مــنْ شَــادَ إيــرانَ الصَّغِيـرَهْ بصفـاتِ الخَيْـرِ والحُسْـنِ الكثيـره

عقــدةً بــالعَيْــنِ حــلَّ كــالحكيــم

قُـمْ تلـقَّ مـا لـديـهِ فـي الصَّمِيـمْ »[4]

* * *

في حضرة أميرِ همدان

زنده رود

أفهمنّـي سـرَّ ربِّـي ، أنـت تَصْـدُقْ يَطْلُبُ الطَّاعةَ والشيطانَ يَخْلُقْ !

كــلُّ شــرٍّ فــي الــوجــود زيَّنــه وابتغـي ممَّـا عَمِلْـتَ أحْسَنَـهْ ![5]

ذاكَ سِحْـرٌ مِنْـهُ لـي شـكٌّ يخـامـرْ ما ابتهاجي صاحبي بِئْسَ المُقَامِرْ

---

(١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .

(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إنَّه قرَّرَ مصير الفرس .

(٣) مَعَنَ الماءُ فهو مَعِيْن : أي جرى .

(٤) ما لديه : أي ما لديه من فضلٍ وصفاتٍ حميدة .

(٥) أي : أراد منّي ألا أعمل إلا خيراً .

مِـنْ تـرابِ حُفْنـةٌ ، وهـو الفَلَـكْ	أطـريـقٌ لَيْـتَ شعـري مـا سَلَـكْ !
مـا عَمِلْنـا ، مـا ذَكَـرْنـا ، والألَـمْ	كـانَ عضًـاً للبَنَـانِ مِـنْ نَـدَمْ
كـلُّ مـن يـدري عـن الـذَّات الخَبَـر	يخلـقُ النَّفـعَ لـديـه مِـنْ ضَـرَرْ
حُـبُّ إنسـانٍ لشيطـانٍ وَبَـالْ	هـزمـه الشَّيطـانَ فـي حـربٍ جمَـالْ
وعلـى الشيطـانِ أنـتَ فـاخمِلَـنْ	كُـنْ حُسـامـاً وَلْيَكُـنْ نِعـمَ المِسَـنْ
فَلْتُجـاهِـرْ وَلْتُجـالِـدْ ، كُـنْ وَحيًّـا	لا تَكُـنْ فـي العـالميـنَ ذا الشَّقيًّـا

زنده رود

كـلُّ إنسـانٍ أخـاهُ يـأكـلُ	لِيَعيـشَ الشَّعْـبُ شَعْبـاً يَقْتُـل[١]
تتلظَّـى الـرُّوحُ مـنْ هـذا البَلَـد	ويئِـنُّ القَلْـبُ أضنـاهُ الكَمَـد[٢]
شعبُـه بـالعَقْـلِ والحُسْـنِ اشْتَهَـرْ	وهـو فـي الآفـاقِ معـروفُ الخَبَـرْ
دُخْـرِجـتْ كـأسٌ ولكـنْ فـي دِمَـاه	نـاحَ نـابـي لـلأليـمِ مـنْ أَسَـاه
مُنْـذُ أنْ ضَيَّـعَ مـنْ ذاتٍ نصيبـا	كـان فـي أوطـانِـه هـذا الغـريبـا
ظَـلَّ فـي أيـدي سِـوَاه أجـرُه	وشبـاكَ الغَيْـرِ أرضـىٰ نَهـرُه
ومَضَـتْ فـي سَيْـرِهـا كـلُّ القـوافـل	أفْسَـدَ الأعمـالَ شـأن كـل غـافـل
مـاتَـتِ الجـذْبَـةُ فيـه وَهْـوَ عبـدُ	ولنـارٍ فـي العُـروقِ كـانَ خَمْـدُ[٣]
لا تظـنَّ أنَّـه كـانَ المهينـا	فـي التُّـرابِ دائمـاً أدلـىٰ الجَبينـا[٤]

إنَّـه فيمـا مضـى خـاضَ الحُـروبـا
وتحـدَّى وهْـوَ ذو البـأسِ الخُطـوبـا

قمـةً للثَّلْـجِ فـاغمُـزْ بـالنَّظَـرْ	وكفـوفُ النَّـارِ تَبْـدُو فـي الشَّجَـرْ

---

(١) في الأصل أنَّ الشعب يرعى شعباً غيره كما ترعى الماشية العشب في المرعى لتعيش .
(٢) يتلظَّى : يشتعل . الكَمَدُ : أشدُّ الحزن .
(٣) الخمد : الخمود .
(٤) المهين : الحقير .

اليــواقيــتُ حصــاهُ فــي الــربيــع والتُّــراب مــاجَ بــاللَّــونِ البَــديــع
والسَّحــابُ حــول أجْبــالٍ يَــدُورْ مِثْــلَ قُطْــنٍ عِنْــدَ نــدّافٍ يَطِيــرْ[1]
ذاكَ قــرصُ الشَّمس في بحرٍ غَرَبْ قــد رأيــتُ الله عنـي مـا احْتَجَبْ[2]
في « نشاطٍ » سِرْتُ في ركبِ النَّسيم وتلوتُ شِعْرَ « مولانا » العَظِيمْ[3]
قــالَ طيــرٌ كــانَ فــي أعلى الغصــون مــا الــرَّبيع غَيْــرَ ذا الشــيء المَهيــنْ
نَــرْجِــسٌ يَــزْكُــو وزَهْــرٌ أحْمَــرُ بــالنَّسيــم شُــقَّ ثــوبٌ أخضَــرُ[4]
مِــنْ قــديــمٍ فــي الجبــالِ قَــدْ ظَهَــرْ نَــرجِــسٌ فــي طُهْــرِهِ فــاقَ القَمَــرْ
كَــمْ رأينــا مــنْ ورودٍ أيْنَعَــتْ
كشهــابٍ أرضُنــا مــا أنْبَتَــتْ[5]
بــالشَّكَــاةِ نــاحَ غِــرِّيــدُ السَّحَــرْ فــأُوارُ الــوَجْــدِ فــي رُوحــي اسْتَعَــرْ
ورأتْ عَيْنــايَ مجنــونَ الطَّــرَبْ كــلَّ مــا جمَّعــتُ مــنْ صَبــري سَلَــبْ

***

امــضِ عنَّــا ، دَغْــكَ مِــنْ نــوحٍ ثَمِــلْ
عــن طِلسْــمِ اللَّــونِ فــي الأزهــار مِــلْ
قلــت إنَّ الطــلَّ فــي أوراق وَرْد
مِــنْ بَكــىٰ فــي الشَّــطِّ غِــرٌّ أوْ خبــل[6]

(١) الأجبال : الجبال . والنَّداف : ضارب القطن بالمندف ليرقَّ .
(٢) يقول : إنه شاهد قدرةَ الله في روعة الطبيعة .
(٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أنشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمه على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نارُ العِشْقِ الإلهي .
(٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكمامَ الزهر .
(٥) أينعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذُروة التقدُّم في تاريخها .
(٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أيـن ضِغْـثُ الـرِّيـش مـن تلـك الأغـانـي
عيـــــن روح لغنـــــيٍّ تَنْهمـــــلْ[1]
إنْ مَـــــرَزْتِ بجنيـــــفٍ يـــــا صَبَـــا
بلغـــي العُصْبَـــة عنِّـــي مـــا نُقِـــلْ[2]
بِيْـــعَ فـــلاحٌ وتِلْـــكَ الأرضُ بيعـــت
وأنـــاسٌ ، ولَهُـــمْ سِعْـــرٌ مُـــذِل[3]

***

أمير همدان

اسْمَعَـنَّ القَـوْلَ لا يُنْسَـىٰ ويُـذْكَـرْ
التُّـرابُ جِسْمُنـا والـرُّوحُ جَـوْهَـرْ

ولأجـــلِ الـــرُّوحِ جِسْـــمٌ يُضْهَـــرْ
مـــنْ تـــرابٍ إنَّـــه لا شـــكَّ أطْهَـــرْ

يـــا بنـــيَّ ، منْـــهُ إنْ جـــزءاً قَطَعْتَـــا
ذلـــكَ الجـــزءُ بـــلا ريـــبٍ أضَعْتَـــا

إنْ بذلْتَ الرُّوح لَـكنْ وهي سَكْرَىٰ
عـادتِ الـرُّوح إليـكَ وهـي حَيْـرَىٰ

قُـلْ أجبنـي أيْـنَ للـرُّوح النَّظِيْـر
فهـي فـي قيـدٍ ومِـنْ قَيْـدٍ تَطِيْـر !

إنْ حَفِظْـتَ الـرُّوْحَ ميْتـاً أصْبَحَـتْ
إنْ بَـذَلْـتَ الـرُّوْحَ نـوراً أشْـرَقَـتْ

مـا هـي الـرُّوحُ وفـي سُكْـرِ التَّجَلِّـي
مـا هـي الـرُّوحُ ومـا عنهـا التَّخَلِّـي

ولـربـي قُـلْ أجِبْنـي كَيْـفَ تُنْثَـرْ
وبهـا الطُّـورُ العَظِيْـمُ كَيْـفَ يُصْهَـرْ

بتجلِّـي السُّكْـرِ أنـتَ الـذَّاتَ تَطْلُـب
في الليالي السُّودِ لاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبْ

إنْ فَقَـدْتَ الـذَّاتَ حَقَّقْـتَ الفَنَـاء
والـوجـودُ ، كـانَ لِلـذَّاتِ العَطَـاء[4]

مَـنْ رأى الـذَّاتَ ، وشيئـاً مـا رآه
سِجْنَـهُ أخـلاهُ مِمَّـا قَـدْ حَـواه

---

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أنَّ روح غنى في حداد على أملها .

(٢) العصبة : هي عصبة الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .

(٣) أردنا بالسِّعْرِ المذل : السِّعْرِ الرخيص للغاية .

(٤) الوجود هنا هو وجود الذَّات .

ذاكَ نَشْوانُ التَّجلِّي ، وهي مَطْلَبْ   لسعةٌ منْ شَهْدِهِ أحْلَىٰ وَأَطيَبْ !
وترىٰ الرُّوحَ رياحاً نَظْرَتُهْ   سجنُه سِجْنٌ تهُولُ رَجْفَتُهْ[1]
يرفعُ الفأسَ لِتَحْطِيمِ الصَّفاة   لنصيبٍ قدْ ينالُ منْ حياةْ[2]
تَرَكَ الرُّوحَ لِتَغْدُو خَلْفَهُ
وَبِغَيْرِ التَّرْكِ كانت ضَيْفَهُ

***

زنده رود

أنتَ خيراً ثُمَّ لي شرّاً شَرَحْتَا   يا حكيمُ غَيْرَ هذا لوْ ذكَرْتَا[3]
وإلى لُبِّ المعاني قَدْ هَدَيْتَ   كلَّ أسرارِ الملوكِ كمْ وَعَيْتَ
فقراءٌ ، حاكمٌ يبغي الخَرَاجا   قُلْ لماذا مجَّدوا عرشاً وتاجا[4]

أمير همدان

أصْلُ هذا المُلْك في شرقٍ وَغَرْبِ ؟   كانَ إرْضاءً لِشَعْبٍ أوْ لِحَزْبِ
وأقولُ لَكَ يا عالي المَقَامْ   لسوى اثنينِ الخراجُ كالحرام[5]
لأولي الأمر و« منكم » شأنُهُمْ   في الكتابِ قولُه برهانُهُمْ[6]

---

(١) يشبه الروح بالريح على أنَّ الريح لا ثمن لها .
(٢) الصفاة : الحجر الضَّخم الصَّلد .
(٣) لو هنا للتمني .
(٤) أي : نحن فقراء .
(٥) أي : أنَّ أداء الخراج حرامٌ إلا إلى اثنين .
(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أو نَجيـــدٍ مِثْـــلَ ريـــحٍ عـــاتِيَـــهْ جادَ في الحـربِ بنفسٍ غـالِيَـه[1]
بـــالقتـــالِ يَفْتـــحُ البُلـــدانَ فَتْحَـــا وهـي تمس مُلْكَـهُ إنْ شـاءَ صُلْحَـا
فـــارسٌ والهنـــدُ ممَّـــا يُشْتَـــرىٰ لا يُنـالُ المُلْـكُ مـنْ هـذا الـوَرَىٰ[2]
جـام جمشيـد العجيـبُ والنَّفيـس أيبـــاعُ مِثْلَمـــا بيعـــت كـــؤوس[3]
الـــزُّجـــاجُ لـــكَ مـــالٌ إنْ شَـــرَيْتَـــهْ أيُّ نَفْـــعٍ للـــزُّجـــاجِ إنْ كَسَـــرْتَـــهْ

* * *

غني

مـــنْ أفـــادَ الهِنْـــدَ تَخطيـــمَ القُيُـــوذْ أيكونُ الصَّيْدُ يوماً كالصَّيُوذْ[4]
عقـــــلاءُ يُنْسبُـــــونَ لِلْبَـــــراهِـــــم عِنْدَهُمْ قَدْ أُخجلت حُمْرُ البَراعِمْ[5]
مـنْ أولـي العِرْفـان أصحـابُ النَّظر أي غـــربـــيٌّ رآهـــم لـــم يَحَـــرْ
أرضُنـــا كِشْميـــرُ منهـــا أصْلُهـــم وبهـــا لا بِســـوَاهَـــا نَجْمُهُـــمْ
إنْ حَسِبْـتَ الأرضَ تخلـو مـنْ شَـرَرْ قَلْبَـكَ افتـحْ وأطِـلْ فيـه النَّظَـرْ[6]
أصلُ تِلْكَ النَّارِ أينَ ؟ لَيتَ شعري ونسيـمٌ للـرَّبيـعِ وَهْـوَ يَسْـري[7]
فـــي الجبـــالِ عنـــدنـــا خفـــقٌ لـــريـــح

---

(١) النجيد : الشجاع .
(٢) الورى : الناس .
(٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصُّوفي رمز لقلب المتصوِّف .
(٤) الصَّيدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .
(٥) البراهم : البراهمة .
(٦) الشرر : ما يتطاير من النار .
(٧) سرى : سار عامة الليل .

وبهـا تختـالُ فـي لـونٍ وريـح[1]

هـلْ عَلِمْـتَ أنَّ يـومـاً فـي وُلَـر — مـوجـةٌ قـالـتْ لمـوجـاتٍ أُخَـرْ[2]
طـالَ فـي البحـر بنـا عُنْـفُ الصِّراع — لو حوانا البرُّ يوماً في اجتماع[3] !
وابننـا أي ذلـكَ النَّهـرُ القـديـم — منه في الوادي وفي السَّفْحِ الهَزِيْم[4]
يَضْربُ الأحْجَارَ في عرض الطريق — كـي يُـزِيْـلَ شـأفـة الطَّـوْدِ العَتيقْ[5]
مـنْ فتـىً فـي كـلِّ أرضٍ قَـدْ غَلَـبْ — أرضعتـه ألـف أمٍّ ثُـمَّ شَـبّ
إنَّـه بـالعُنْـفِ أبْـدَىٰ المَخْشَـرا — لـمْ يَجِـدْ عِنْـدَ سـوانـا المَصْـدرا
ما الصَّوابُ عيشُنا في حدِّ ساحِلْ — في الطَّريق حطَّ ما صَخْراً يُمَاثِلْ[6]
إنَّ إلـفَ الشَّـطِّ مـوتٌ لـلأبَـدْ — يـا مُـديم السَّبْحِ في لُجِّ الزَّبَدْ[7]

الحيـاة السيـرُ فـي غـورٍ وَنَجْـدِ
يُسْعِـدُ المـوجـةَ جـزرٌ بَعْـدَ مـدٍّ

أنْـتَ فـي وَجْـهِ الحيـاةِ مَـنْ قـرأتَ — ذلـكَ الشَّـرْقَ الحيـاةَ مـنْ وَهَبْـتَ
الـزَّفيـرَ لـكَ هـذا القَلْـبُ أحْـرَقْ — ضقتَ صَدْراً وَلدَيْنا الصَّدْرُ أَضْيَقْ
النُّـواحُ للطُّيـورِ مِـنْ رَجِيْعِـكْ — والـوَضـوءُ للنبـاتِ مِـنْ دُمـوْعِـكْ[8]
وَفَتَحْـتَ الـزَّهْـرَ مـنْ طَبْـعٍ هُنَـاكَـا — والمنى في الرُّوحِ كانَتْ مِنْ مُنَاكَا
إنَّ مِنْـكَ الصَّـوْتَ أجـراسُ القـوافِـلْ — ولكشميـر أراكَ غَيْـرَ آمِـلْ

---

(١) الريح : الرائحة .
(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .
(٣) لو هنا للتمني .
(٤) الهزيم : صوت الرعد .
(٥) شأفة الطود : أصل الجبل .
(٦) أي : أنَّ عيشنا على الساحل ليس صواباً لأنَّ صخر الساحل عقبةٌ في طريقنا . ويماثل : يشبه .
(٧) اللج : معظم الماء .
(٨) الرَّجيع : كلُّ متردِّدٍ . والمرادُ هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فـي الصُّـدُورِ لـم يُمِـتْ يـأسٌ فـؤادا تَحْـتَ ثلـجٍ لـم يَصِـرْ جَمْـرٌ رمـادا
قِـفْ تَمَهّـلْ لِتَـرَىٰ مِـنْ غَيْـرِ صُـوز كيفَ قَامَ الشَّعْبُ مِنْ جَوْفِ القُبُوز
وتـــأوَّهْ يـــا فَتَـــىٰ لا تَبْتَئِـــسْ أخضـراً أحْـرِقْ وأحْـرِقْ مـا يَبِسْ[1]
كَـمْ بـلادٍ تَحْـتَ أفْـلاكِ السَّمـاء أحْـرقتهـا نـارُ قَلْـبِ الأشقيـاء[2]
إنَّ هـذا المُلْـك أوهـى مـنْ حَبَـابْ وهوَ بالأنفاسِ محتومُ الخَرابِ[3]
إنَّمـــا الشِّعْـــرُ المصيـــر قـــدَّرا والشعـــوبَ قـــدْ بنـــى أوْ دمَّـــرا
أنـتَ إنْ جَـرَّحْـتَ هـاتيـكَ القُلـوبـا لم تَجِدْ في هذه الدُّنيا ضريبا[4]
الغنـاءُ لـكَ مِـنْ شِعْـرٍ تَلَـوْتَـهْ مـا وراء الشِّعْـرِ شعـرٌ أنْـتَ قُلْتَـهْ
جَـدِّدِ التَّحْـرِيـكَ والتـأثيـرَ جَـدِّدْ
ردِّدِ الألحـــان فـــي الجنَّـــاتِ رَدِّدْ

* * *

زنده رود

اغْـزِفَـنَّ ، نَشْـوةَ الـدَّرويـشِ هـذي فـاتْلفـنْ
إنْ نضجت ملكَ جمشيد العريضَ فامْلُكَنْ[5]
ثُـمَّ قـالـوا هـذه الـدُّنيـا لنـا هَـلْ تـرتضيهـا ؟
قلـتُ لا ، لا أرتضيهـا ، قِيْـلَ هيَّـا هـدِّمَـنْ
ليس في الحانات كفءٌ بالرِّضا مِنَّا جَدِيرْ

---

(١) ابتأس : حزن .
(٢) الأشقياء : ضد السعداء .
(٣) الحباب : النفاخات التي تعلو الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .
(٤) الضريب : النظير .
(٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتُم الأبطالِ حارِبْ ، ومَعَ الساقي امْزَحَنْ[١]
أنْتَ يا زَهْرُ الصَّحارى ، قُلْ أحقَّقْتَ احتراقاً[٢]
في قلوبِ للأناسي ، هذه النَّارُ اضْرِمَنّ
كنتَ في قلبِ لهيباً ، ولهيباً في دِمَاءْ
وإذا لم تَقْتَنِعْ بالقَوْلِ ذا الكونَ اشْطُرَنّ
ألكَ العَقْلُ سِرَاجٌ ؟ في الطريق سِرْ تَقَدَّمْ
وَلَكَ العِشْقُ مُدَامٌ ، فمعَ الحِبِّ اشْرَبَنّ[٣]
فَلَذَّةُ القَلْبِ بدمعٍ مِنْ عيوني في انسكاب
مِنْ يواقيتِ بدَخْشانَ الفُصُوصَ فاصْنَعَنْ[٤]

***

حديثٌ مع الشَّاعرِ الهنديِّ بَرْتِري هري[٥]

تَسْكُنُ الحورُ القصورَ والخِيَاما   بشكاتي يُصْبِحُ القَلْبُ الضِّراما[٦]
هذهِ مِنْ خيمةٍ أبْدَتْ جَبِيْنَا   أختُها مِنْ غرفةٍ أدْلَتْ عُيُونا[٧]
كلُّ قلبٍ في الجِنَانِ قَدْ وَجَدْتُه   بالأسى مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا غَمَرْتُه

---

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .

(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .

(٣) الحب : الحبيب .

(٤) بَدَخْشَان : مدينة تشتهر بالياقوت .

(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة السنسكريتية في الحبِّ والخلق القويم والزهد .

(٦) الضرام : النار .

(٧) أدلت عيوناً : نظرت .

قالَ لي الشَّيْخُ وبَسْماً قَدْ حَجَبْ « أنْتَ سحَّارٌ » وهنديُّ النَّسَبْ[١]
شاعِرُ الهند ! وهذي جِرْأَتُهْ تَجْعَلُ الطَّلَّ اللآلي نَظْرَتُهْ[٢]
(بَرْتَرِي) يزدانُ بالعِلْمِ العُجَابْ فطرة كانت له مِثْل السَّحَابْ
بُرْعُمٌ بَيْنَ يديهِ ما رَأَيْنَا دَفَعَتْهُ مِنْكَ أنْغَامٌ إلينا
إنَّه مَلْكٌ عظيمٌ بالغناء وهو بالفقرِ العظيمُ ذو العَلاء
يَرسُمُ الشَّكْلَ البديعَ بالذَّكاء يُظْهِرُ الدُّنيا بحرفٍ مِنْ خَفَاء
أمرَ هذا العَيْشِ يدري كلَّه وهو جمٌّ شِعْرُهُ جامٌ لَهُ[٣]
قد عرفنا فنَّه فنّاً عليَّا
وأدَرْنا بيننا قولاً طَلِيَّا

* * *

زنده رود

أنتَ يامَنْ قُلْتَ قولاً عَبْقَرِيّا يَعْلَمُ الشَّرْقُ به سرّاً خَفِيَّا
قلْ ، لهذا الشِّعرِ مِنْ أينَ اللَّهَبْ أضْرَمَتْهُ الذَّاتُ أوْ رَبٌّ وَهَبْ ؟

* * *

برتري هري

شاعرٌ أينَ يُقيمُ ، مَنْ عَزَفْ ؟ ولَه بَمٌّ وزيرٌ إنْ عَرفْ[٤]

---

(١) السَّحَّار : الكثير السحر .
(٢) الطَّلُّ : النَّدى .
(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبعة .
(٤) اليم : أغلظُ أوتار العود . والزيرُ : أدقُّها .

قلبُه في الصَّدرِ وهّاجُ الأُوار وأمامَ اللهِ مَعْدُومُ القَرَار[1]
وببحثٍ روحُنا كانَتْ تَطِيبْ وَطَلَبْنَا ، فلذا الشِّعْرُ اللَّهِيبْ
مِنْ كرومِ القَوْلِ يا مَنْ قَدْ ثَمِلْتا مِثْلَ ذَيَّاك المقامِ لَوْ بَلَغْتَا ![2]
وببيتٍ قيل في دنيا الحَجَرْ في الجِنان تُسْتَبَى ذاتُ الحَوَرْ[3]

زنده رود

إنَّ أهلَ الهِنْدِ كانوا في العَذَابْ
أظْهِرَنَّ السرَّ منْ خَلْفِ الحِجَابْ

برتري هري

هذه الأربابُ شَحَّتْ وهيَ مِنْ طينٍ وصَخْر
« برتري » كان بعيداً عَنْ كنيسٍ بَلْ وَدَير
سجدةٌ مِنْ ذَوْقِ أعمالٍ خَلَتْ لا خَيْرَ فيها
عملٌ تِلْكَ الحياةُ ، وَهوَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ
عالَمٌ أنتَ تراهُ لَيْسَ من آثارِ رَبّ
مِغْزلٌ بالخَيْطِ دوَّرْتَ ولكنْ لَسْتَ تَدْري
أسْجُدَنَّ عندما للعاملين مِنْ جَزَاء
ما لهمُ هذا النَّعِيمُ والجَحِيمُ غَيْرَ أَجْر[4]

* * *

(١) وهاج الأوار : متأجج النار .
(٢) لو هنا للتمني .
(٣) استباه : سباه في الحرب .
(٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواءٌ أكان على الخير أم على الشرّ .

السَّفرُ إلى قَصْرِ سلاطين المَشْرِق

نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد(١)

« بزترِي » قَدْ هَزَّ روحي بالنداء
أسْكرتني منه صهباءُ الغِنَاء

قال لي الروميُّ « عَيْنُ القَلْبِ أفْضلْ
والخروجُ عنْ إطارِ الفِكْرِ أمْثَلْ(٢)

بِمَقَرٌ للدراويشِ اعبُرَنْ
وقصوراً للسلاطينِ انْظُرَنْ

وملوكُ الشَّرْقِ في حَفْلٍ كَعِقْدْ
عزةُ الأفغانِ أو فرسٍ وَهِنْدْ(٣)

« نادرُ » النِّحريرُ رمزُ الاتِّحاد
كانَ للإسلام بُشْرَىٰ بالوِدَاد(٤)

ثم « أبدالي » وَقَدْ كانَ البَطَلْ
مَنَحَ الأفغانَ أُسَّاً لِلْعَمَلْ(٥)

وإمامُ شُهَداءِ العَاشِقينا
شرفَ الأقوامِ كانَ أجْمعينا(٦)

---

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تأتّى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فتربَّع على عرشها عام ١٧٣٦م كان سُنِّياً ، وبذل وُسْعَه في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرَّسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . ويعدُّ مؤسساً لدولة الأفغان .
أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له المُلك في الدَّكن . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

(٢) الأمثل : الأفضل والأدنى للخير .

(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العِقْد ، ويقول : إنَّ عزَّة الأفغان والفرس والهند بهم . وأو هنا للجمع .

(٤) النحرير : العاقل الحاذق .

(٥) الأس : الأساس . وفي الأصل : أنه منح الأساس للشعب .

(٦) العاشقون هنا عاشقو الذات الإلهية من الصُّوفية .

أينَ مِنْ نورٍ اسمهُ نورُ الكواكبْ وتراه عَيْشَنا هذا يُواكِبْ[1]
إنَّه كشَّفَ سرَّ العَاشِقِ جادَ بالرُّوح بِشَوْقٍ دَافِقِ[2]
وبفضلٍ منْ بِبَدْرٍ أوْ حُنَيْن قَدْ حباهُ فقرُه جَذْبَ الحُسَيْن[3]
زايلَ السلطانُ قصراً زائلا
مُلْكُه في الهِنْدِ ظَلَّ ماثلا »[4]

ناقصَ العقلِ ، عجزتَ عن كلامي لَيتَ شِعْري كيف وصفي للمَقَامِ
بِتَجَلِّيه رأى أهْلَ السَّماء مازَهُم لَكِنْ عجيبٌ مِنْ ذُكاء
ذاكَ قَصْرٌ ومِنَ الفيروزِ بَابَه السَّماءُ كلُّها تَحْوي رحابَه
في السُّمُوقِ ما له كَيْفٌ وَكَمْ يَجْعَلُ التفكيرَ ذا عجزٍ يُذَمْ
هذه الأزهارُ في الحسن البديع صورةٌ كانت تجلَّت للرَّبيع
والنباتُ وهو فَيَّاضُ البَهاء غيَّر الألوانَ مِنْ ذَوْقِ النَّماء
والصَّبا دأبٌ لها أن تَسْحَرا تجعَلُ الأصْفَرَ تَوّاً أحْمَرَا[5]
دَفَقَ الماءُ وكالدُّرِّ انْتَثَرْ طائرُ الفرْدَوسِ غنَّى في الشَّجَرْ
يا لقصرٍ فيه بهوٌ قَدْ سَمَقْ ذرَّةٌ منه ذُكاءٌ في الوَهَقْ ![6]
سَقْفُه كانَ عقيقاً نُضِّدا أرضُه يَشْمٌ ثَمِينٌ مُهِّدا[7]
وصفوفٌ فيه منْ قاماتِ حُوزْ ولهنَّ التِّبْرُ حَلْيٌ في الخُصُورْ

---

(١) واكب الركب : سايرهم ، أو ركب معهم .
(٢) كشَّف : بمعنى كشف .
(٣) في الأصل بنظرةٍ من سيد بدر وحنين .
(٤) المراد بالقصر الزائل هذا العالم .
(٥) الدأب : العادة . يقول : إنَّ من عادتها أن تغيِّر الأشياء بالسِّحْر .
(٦) سمق : علا . وذُكاء : الشمس . الوَهَق : حبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة لتؤخذ به . يقول : كأنما كلُّ ذرةٍ في هذا القصر صادت الشمس بهذا الحبل .
(٧) نضده : وضع بعضه على البعض . واليشم واليشب : حجر يشبه الزبرجد .

وعلى العرشِ ملوكٌ يَجْلسُونا ... وملوكَ الفُرْسِ كانوا يُشْبِهُونا[١]
ذلكَ الرُّوميُّ مرآةُ الأدَبْ ... فرَّجَ الغمَّ بما زادَ الطَّرَبْ[٢]
« ومِنَ المَشْرِقِ هذا شَاعِرُ ... لستُ أدري ، شاعرٌ أمْ سَاحِرُ
فِكْرُهُ دَقَّ وفي الرُّوح الألَمْ
شِعْرُه في الشَّرْقِ قد أذكى الضَّرَمْ »[٣]

***

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظيما ... مِنْ كلامِ الفُرْسِ أنْشَدْتَ القَويما
نَحنُ أهلُ السرِّ قلْ سِرّاً لنا ... ثمَّ عن إيرانَ حدِّثْ أنْبِنا[٤]

زنده رود

نَظَرَتْ إيرانُ في ذاتِ مليَّا ... وَهَوَتْ في قاعِ أشراكٍ هُوِيَّا[٥]
وقتيلُ دَلِّ أصنامِ الجَمالْ ... تُشْبهُ الإفرنجَ في خَلْقِ الكَمالْ !
فِكْرُها في مُلْكِها أو في النسب ... مَدْحُ سابور وَذَمٌّ لِلْعَرَب[٦]

---

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .
(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرحٍ أو حزن .
(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .
(٤) أنبنا : أنبئنا .
(٥) هوى هوياً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحبالة .
(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف ؛ لأنه في حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في التشفي منهم .

يـومُها خـالٍ ، ومـنْ كـلِّ المهـامْ الحيـاةُ طَلَبَتْهـا فـي الـرِّجـام[1]
وطنــاً رامَــتْ وذاتــاً لا تَــرَىٰ وتَنَـاسَـتْ رُسْتُمـاً بـلْ حَيْـدرا[2]

بـاطـلَ الإفـرنـج مـا قَـدْ حَصَّلَـتْ
ولهــا التــاريــخُ مِنْهُــمْ شَكَّلَــتْ

كـانـتِ الشَّيْـخَ ، وفـي عهـدٍ بعيـد شـاحـبَ الـوَجْـهِ دِمَـاهُ مـنْ جَلِيـدْ
عُـزفهـا بـالٍ لهـا ديـنٌ قَـدِيـمْ وكـذاكَ الصُّبْـحُ واللَّيْـلُ البَهِيـمْ ![3]
كـرْمُهـا مـا فيـه أمـواجٌ لخمـرِ تُـرْبُها ما فيـهِ مـنْ وَهْـجٍ لجمـرِ[4]
ومِـنَ الصَّحـراءِ كـانَ المَحْشَـرُ فَلَـدَيْهـا مِنْـهُ عُمْـرٌ آخَـرُ[5]
رحمــةُ اللهِ ومــنْ تَحْنــانِــه فـارسٌ ظلَّـت وروما أيـنَ هِـي ![6]
مـا مضـى عـن جِسْمِها روحٌ رؤوم أبغيـر الحَشْـرِ مـنْ تُـرْبٍ تَقُـومْ[7]
رجـلُ الصَّحـراءِ روحـاً قـد مَنَـخ وإلـى صحـرائِـه عنهـا نَـزخ[8]
ومحـا مـنْ لـوْحنـا كـلَّ القـديـم جَـدَّدَ العَصْـرَ ، وليـس بـالمقيـم

إنَّهـم لـم يـذكـروا فَضْـلَ العَـرَبْ
وَمِـنَ الإفـرنـجِ ذابـوا فـي اللَّهَـبْ !

***

(١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
(٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إنَّ كل شيء فيها كان قديماً بالياً حتى ليلها ونهارها .
(٤) الترب : التراب . والوهج : اتقاد النار .
(٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
(٦) التحنان : الرَّحمة .
(٧) الرؤوم : الرحيمة . وفي الأصل الطاهرة .
(٨) نزح : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها وإنشاد غزل رقيق[١]

لِلْحُسامِ واليَراعِ تجعلُ الكفَّ المدارا
منْ جَوَادِ الجسم بَعْدُ ، أنْتَ لا تخشى العِثارا[٢]
الحسامُ واليَرَاعُ منهما فَضْلٌ عميم
يا أخيَّ مَصْدَرُ النُّورِ لدينا كانَ نارا[٣]
عِنْدَ كفارٍ أجنبي أيُّ خيرٍ فيهما
لهما بالدِّين سِعْرٌ يشتري حتى النُّضارا[٤]
عزَّةُ الدِّين بعلمٍ وبجهلٍ ذلَّةٌ
دينُ جُهَّالٍ كزهرِ الثَّورِ قَدْ جابَ القِفَارا[٥]
مِثْلُ كرْباسٍ وإلياسٌ يَخيطُ نِصْفَهُ

---

(١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .

(٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يكبو من بعد .

(٣) أخي : تصغير أخ . وهو يقول : إنَّ الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .

(٤) النُّضار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالدِّين غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .

(٥) يقول : إنَّ الدين يعزُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزَّهرة عند الثور الذي يتجوَّل في الصحارى .

ويهـوديٌّ لكفْـنِ نِصْفِـه الثـانـي استعـارا[1]

أبداليّ

وفتـىً مُلْكـاً عظيمـاً قـد أقـامـا للجبـالِ عـادَ واختـارَ المَقَـامـا
أضْـرَمَ النيـرانَ فـي تلـكَ الجبـال أحْـرَقَتْـهُ ؟ أمْ شجـاعٌ لا يبـالـي

***

زنده رود

الشعـوبُ بينهـا صَفْـوُ الإخـاء إخوةٌ ، في حَرْبِها أو في المِرَاء[2]
وحيـاةُ الشَّـرْقِ كـانَـتْ مـنْ حَيَـاتِـه ابنُـه الجنـديُّ أمسـى مـنْ حُمَـاتـه !
ذاتَـه مِـنْ ذاتِـه جهـلاً سَلَـبْ مـالَـهُ مِـنْ ممكنـاتٍ مـا حَسَـبْ[3]
ولـه قلـبٌ وعنـهُ غـافِـلُ للجسومِ والقُلوبِ منْ فراقٍ فَاصِلُ[4]
إنَّمـا الجـوَّالُ ضـلَّ كـلَّ غـايـه روحُـه مـا إنْ دَرَتْ معنـى النِّهـايَـهْ

---

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .
وإقبال يومىء إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه توراة موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصَّلاة إلا به .
وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشُّكر .
(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .
(٣) حسب الشيء : عدَّه وأحصاه .
(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يعــرفُ الأفغــانَ حقّــاً شــاعــرُ قــالَ مــا قَـدْ قـالَ وهـو السّـادِرُ[1]
إنَّــه كـــانَ حَكِيْــمَ شَعْبِهـــمْ بــذلَ الــوُسْــعَ بِقَصْــدِ طَبِّهــم[2]
ســرُّ قــومٍ قَــدْ دراهُ ثــمَّ قـــالا مـا رآه الحـقُّ لـم يَخْـشَ الـوَبـالا[3]

« فتــى الأفغــانِ لــو يلقــي البعيــرا
يحمــلُ الجــوهــرَ والــدُّرَّ الــوفيــرا
مــا تملَّــى ذلــكَ الــوَسْــقَ الكبيــرا[4]
وأرادَ جُلجُــلَ الهــادي الصَّغيــرا[5]

أبدالي

إنَّ مِــنْ قلــبٍ لنــا الطَّبْـعُ اتَّقَــدْ وصَحَــا منــهُ التُّــرابُ أوْ رَقَــدْ
ويمـــوتِ القَلْـــبِ جِسْـــمٌ غُيِّـــرا ودمــاً أمســى النَّضِيــحُ أحمــرا[6]
بفســادِ القلــبِ مــا هــذا الجَسَـدْ ؟ وَخُذَهُ كُنْ مَنْ على القَلْبِ اعْتَمَدْ
آسيــا جســمٌ وَمِــنْ مــاءٍ وطيــن قلبُهــا الأفغــانُ خفّــاق الــوَتِيْــن[7]
ولهـــا منـــه الفســـادُ إنْ فَسَـــدْ وانطــلاقٌ مِنْــهُ يــا نِعْــمَ المــدد ![8]
بــانطـلاقِ القَلْـبِ فـالجِسْـمُ الطَّليـق أوْ لـريـحٍ كـانَ بـالقـشِّ الخُفُـوقْ[9]

---

(١) السادر : الذي لا يبالي .
(٢) طَبُّهم : علاجهم من المرض .
(٣) الوبال : سوء العاقبة .
(٤) تملَّى الشيء : تمتع برؤيته . الوَسْقُ : الحِمْلُ .
(٥) الجلجل : الجرس الصغير . والهادي : العنق .
(٦) النضيح : العرق .
(٧) الوتين : عرق في القلب .
(٨) المدد : العون .
(٩) يقول : إن الجسم إذا لم ينطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشَّةِ إذا اشتدت بها الريح في يومٍ عاصف .

وله كالجسم بالعُرف القُيُود　　دينُه أحياهُ والموتُ الحُقُود[1]

بمقامٍ وَحْدةٍ قد عزَّ دِينْ

ذلكَ الشَّعْبُ بها شَعْبٌ يكونْ

ذاتَه يفقدُ ذا الشَّرقُ المُقَلِّدْ　　لَيْتَهُ النَّقادُ لِلْغَرْبِ المُفَنِّدْ[2]

عزُّ هذا الغرب لا بالمطربات　　لا ولا رقصِ الغواني العاريات

لَمْ يَهَبْهُ قَوَّةً وَرْدُ الخُدود　　وقصيرُ الشَّعْرِ أو مَيْسُ القُدود[3]

مجدُه ما كانَ مِنْ تَرْكِ لِدِيْن　　لَيْسَ مِنْ خطٍّ لديهِ بالمَكِيْن[4]

العلومُ والفنونُ سِرَّهُ　　وبمصباحِ لَدَيْهِ نَوْرُهُ

لستَ بالثَّوبِ حكيماً كالأعاظم　　أيُضارُّ العِلْمُ مِنْ لُبْسِ العمائم[5]

تُدْرِكُ العِلْمَ بِعَقْلٍ أنتَ مالك　　لا بثوبٍ تستعيرُ مِنْ هُنالك[6]

ليسَ في هذا السبيل غيرُ عِلْم　　ما على رأسِك مِنْ غَيْرِ المُهِمْ

إنْ مَلَكْتَ الفِكْرَ هذا الفكرُ حَسْبُك

كلَّ شيءٍ عَنْهُ ما يُغنيكَ ، طَبْعُك

السَّناجَ في الليالي إنْ أكَلْتَه　　فإلى العلم السبيلُ قَدْ وَجَدته[7]

من رأى يوماً حدود مُلك مُعَنَّىٰ ؟　　يَطْلُبُ المطلوب مجهوداً وأيْنَا[8]

---

(١) الحقود : الأحقاد .

(٢) فَنَّده : كذَّبه وخطَّأ رأيه .

(٣) الميس : التبختر .

(٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .

(٥) ضاره : ضره .

(٦) يريد بهذا الثوب زي أهل الغرب .

(٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكلُ سناج المصباح في الفارسية كنايةٌ عن سَهَرِ الليالي في طلب العلم .

(٨) الأين : التعب .

فَقَـدَ الأتـراكُ ذاتـاً بـالمُـدَام فـالفرنـجُ أسْكَرُوهـم بـالسُّمـام[1]
إنَّ تِـرْيـاقَ العِـرَاقِ مـا لَـدَيْهِـمْ رحمـةً يـا ربِّ فـابْسُطْهـا عليهـم[2]
وعبيـدُ الغَـرْبِ يبغـونَ الظُّهـورا إنَّهم يُرْضُوْنَ بالرَّقْصِ الغُرورا !
روحَهـم فـي اللَّهـوِ كـانـوا يَفْقِـدُونـا يَصْعُـبُ العلـمُ ، بلهـوٍ لـنْ يكـونـا
يَطْلُبـونَ السَّهـل لكـن مـنْ كَسَـلْ طبعُهـم مـا يبتغـي سَهْـلَ العَمَـلْ
اليَسيـرُ السَّهْـلُ لَـكِـنْ إنْ طلبتـا
أنـتَ روحـاً لـكَ مـنْ جسـمٍ فَقَـدْتـا

* * *

زنده رود

الفِـرَنْـجُ بـالـرقـيِّ مـا أرادوا ؟ ألفَ فردوسٍ من الألوانِ شادوا[3]
ظـاهـرٌ مِنْهُـم ديـاراً حـرَّقـا والغصـونَ بـالعِشـاشِ مَـزَّقـا[4]
ظـاهـرٌ يبـدو لعيـنٍ لامعـا وَهَـنَ القلـبُ لعيـنٍ خـانعـا[5]
يـزلـقُ القلـبُ وللعيـن النَّظَـرْ وأمـامَ المَعْبَـدِ الخفَّـاقُ خَـر[6]
ومصيـر الشَّـرْقِ هـذا مَـنْ دَرَىٰ ؟ أيُّ تـدبيـرٍ وتبغـي مَظْهَـرا

---

(١) يقول : إن الأتراك سكروا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمام : جمع سم .
(٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارةٌ مشهورةٌ مأثورةٌ ، وهي : (يُسْلم الملدوغُ الروحَ قبل أن يُحضروا له الترياق من العراق) .
(٣) شاد البناء : رفعه .
(٤) العشاش : جمع عش .
(٥) الخانع : الخاضع في ذل .
(٦) الخفاق : القلب .

أبدالي

وعلـــى تغييـــرِ ذاكَ القَـــادِرِ   بهلـــوي إيـــران قُـــلْ أوْ نَـــادِرِ
بهلـــوي ملـــكُ قُبـــاذٍ نـــالـــه   كـــلُّ معقـــودٍ لـــديـــه حَلَّـــه[1]
ومـــن الـــدُّرَّانييـــن كـــانَ نـــادِرُ   وهـــو لـــلأفغـــانِ ذخـــرٌ مَـــنْ يُكـــابِـــرُ ؟
إنَّـــه لِلـــدِّيـــن يَـــأْسَـــىٰ والـــوَطَـــنْ   قـــادَ جيشـــاً فـــي جبـــالٍ قَـــدْ كَمَـــنْ[2]
بطـــلُ الهيجـــاءِ حقّـــاً والأميـــرْ   والحـــديـــدُ عنـــد قـــوْمٍ والحـــريـــرْ ![3]
مـــنْ رأى ذاتـــاً لـــه إنـــي فَـــدَيْتُـــهْ   وازنَ العَصْـــرَ بحـــذقٍ مَـــنْ هَـــوَيْتُـــهْ

كـــم لأهـــل الغـــربِ مـــنْ فَـــنٍّ سَحَـــرْ
إنْ نَسِيْـــتَ الـــذَّات كُنْـــتَ مـــنْ كَفَـــرْ !

***

السُّلطانُ الشَّهيد

عَـــنْ بـــلادِ الهنـــدِ حَـــدَّثني طـــويـــلا   قَشُّهـــا يَفضُـــلُ بستـــانـــاً جميـــلا[4]
مسجدٌ فيها خلا مِنْ صوتِ حَشَدْ   ديـــرُهـــا مـــا فيـــهِ نـــارٌ بَعْـــدُ خَمَـــدْ
قلبنـــا حـــزنـــاً علـــى الهنـــدِ انْفَطَـــرْ   روحُنـــا شيئـــاً سِـــواهـــا مـــا ادَّكَـــرْ[5]

---

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلمٌ عظيمٌ من أعلام تاريخها . وقباذ هو كيقباذ أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقةً .

(٢) يأسى : يَحْزنُ .

(٣) الهيجاءُ : الحَرْبُ .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) ادَّكر : ذكر .

حـــزْنُهـــا قِسْـــه بـــأحـــزانٍ لنـــا   ليـس يـدري مـنْ نُحِـبُّ حـالَنـا

زنده رود

الهنــودُ أنكــروا قــانــونَ غَــرْب   كـلٌّ سحـرٍ رَفَضُـوهُ كـلَّ خَلْـب[1]
إنَّ عُـــزفَ الغيـــر روحـــاً يُثْقـــلُ   مِـــنْ سمـــاءٍ إنَّـــه لا يَنْـــزِلُ !

* * *

السُّلطانُ الشَّهيد

وإذا الإنســـان مـــنْ طيـــنٍ خَـــرَجْ   قَلْبُـــهُ مـــنْ رغبـــةٍ فيـــه اخْتَلَـــجْ
لـــذَّةُ العصيـــانِ كـــانَـــتْ مُتْعَتُـــهْ   رؤيـــةُ الـــذَّاتِ رآهـــا بَهْجَتُـــهْ
هـــذه الـــذَّاتُ بعصيـــانٍ تُنَـــالْ   وانعـدامُ الـذَّاتِ معنـاهُ الـوَبـالْ[2]
أنْـتَ فـي أرضـي وفـي داري حَلَلْتـا   وبعيـنِ قبـريَ البـالـي مَسَحْتَـا
وعـــرفـــتَ حَـــدَّ كـــلِّ الكـــائنـــات   فـي الجنـوبِ أيْـنَ آثـارُ الحيـاة[3]

زنده رود

في الجنوبِ قَدْ نَثرْتُ الدَّمْعَ حَبّا   فـاكتسـتْ أرضٌ بِـهِ وَرْداً وأبّـا[4]
نهرُ « كاويري » يَسيرُ في جموحهْ   ورأيـتُ وَقْـدةً أخـرىٰ بِـروحِـهْ[5]

---

(١) الخلب : الخداع .
(٢) الوبال : سوء العاقبة .
(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .
(٤) الأبُّ : المرعى .
(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلطانُ الشَّهيد

قـولُـكَ النُّـورُ بـه ضـاءت قُلـوبْ — لـكَ دمـعٌ نـاره منهـا أذُوبْ[1]
عـالِـمُ الأسـرارِ دَوْمـاً مـنْ ظَفَـرْ — مِـنْ عُـروقِ العُـوْدِ أنهـاراً حَفَـرْ[2]
ونشيــدُ الــرُّوح إنْ أنشَــدْتَــهُ — اللهيــبُ فــي الحشــا أوْقَــدْتَــهُ
عنـد مـولـى الكلِّ كُنْتَ حـاضِـرا — مـنْ سِـوَاهُ كـانَ يهـدي سـائـرا
وعلـى القَـوْلِ هنـاكَ مـا شجُعْـت — رؤيـةٌ بـالـرُّوح كـلُّ مـا استطعـت
وأنـا مـنْ أحـرقتنـي نـارُ شِعْـرِكْ — ولساني لا يني عن ذِكْرِ فِكْرِكْ[3]
قـال « بَيْـتٌ قلتَـه مـنْ قـالـه ؟ — ضجَّـةُ الـدُّنيـا ومـا فيهـا لـه »
ببيـانٍ لـكَ فـي الـرُّوح اسْتَعَـرْ — نَهْـرَ كـاويـري فَصِـفْ وَازْوِ الخَبَـرْ

زنــده رود أنــت وهــو زنــده رود
إنَّ لحنــاً مــع لحــنٍ مــا يجــود[4]

رسالةُ السُّلطان الشَّهيد إلى نَهْرِ كاويري

حقيقةُ الحياةِ والموتِ والاستشهاد

إنَّ هـذا النَّهْـرَ قـد سـارَ الهُـوَينـى — ودوامُ السَّيْـرِ مـا أضنـاهُ أينـا[5]
نـائحـاً بيـنَ الجبـالِ ، كُنْـتَ تَعْبُـرْ — وطـريقـاً لـكَ بـالأهـدابِ تَحْفُـرْ !
أنـتَ مِـنْ جِيحـونَ خيـرٌ والفـرات — للجنـوبِ كُنْـتَ وهّـابَ الحيـاة
يـا لأرضٍ أنـتَ قـد عـانقتهـا — بـرواءٍ كـانَ فِيـكَ زِنْتَهـا

---

(١) ضاء : أنار وأشرق .
(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .
(٣) يني : يفتر ويضعف .
(٤) يجود : يحسن .
(٥) الأين : التعب .

شِخْـتَ لكـنْ أنْـتَ فيّـاضُ الشَّبـاب   والبهـاءُ لـكَ كـالسِّحـرِ العُجـاب
بنــتُ مــوجــاتٍ لــديــكَ دُرَّةٌ   فلتثُــر مــوجــاً عليــك طُــرَّةٌ[1]
حُــرْقَــةُ العيــشِ تغنِّيهــا نشيــدا   أعلِمْـتَ مـنْ لِـذَا كـانَ البـريـدا[2]
إنَّــه مــنْ طُفْـتَ حَـوْلَ سَطْـوَتِـه   لَـكَ مـرآةٌ لِـوَجْـهِ قُـوَّتِـهْ[3]
الصَّحــارىٰ جنَّــةٌ مــنْ قُـدْرَتِــهْ   بـدمــاهُ كـانَ رَسْـمُ صُـوْرَتِـهْ
الأمــانــي مــنْ ثــراهُ تَقْتَــربْ   مـنْ دِمَـاه فِيْـكَ مَـوْجٌ يَضْطَـرِبْ

كــانَ فعــلاً كــلُّ قــولٍ قــالــه
لــم يَنَــمْ ، والشَّــرْقُ نــامَ ليلَــه

إنَّـنـا الأمــواجُ فــي نَهْــرِ الحيــاة   إنَّمـا التَّبـديـل شـأنُ الكـائنـات
مـا الحيـاةُ غَيْـرَ تجـديـدِ تجـدُّدْ   عـالمـاً تطلـبُ فـي شـوقٍ تمهُّـدْ
الــذَّهــابُ والمجــيء مــا همــا   الكيــانُ لِلْــوُجــودِ مِنْهُمــا
الطَّــريــقَ راحلــون فــي سَفَــرْ   سَفَـرٌ يخفـى لكـي يبـدو الحَضَـرْ
النِّيــاقُ والصَّحــارى والنَّخيــل   تِلْـكَ أشجـاهـا وأبكـاهـا الـرَّحيـل
بـرهـةً حَلَّـتْ وُرودُ الـرَّوض ضيفـا   لاختبـارٍ عُـرِّضـت حسنـاً وعَـرْفَـا[4]
مأتمٌ في الرَّوضِ أمْ أفراحُ سُورْ ؟   برعمٌ في الحِضْنِ ، نَعْشٌ لِلزُّهُورْ[5]
أحمـرُ الـوَرْدِ لـهُ قُلْـتُ اختَـرِقْ   قـالَ سرِّي مـا عَـرَفْـتَ يـا لَبِـقْ !

مِــنْ هشيــمٍ للــوُجــودِ ذا البنــاء
للظُّهــورِ حســرةً كــانَ الجــزاء

ما مضى أو ما يكونُ ، اِمْضِ عَنهُ   المجـيءُ للـوُجـودِ ، دَعْـكَ مِنْـهُ

---

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشَّعر الثائر .
(٢) البريد : الرَّسول .
(٣) في الأصل : أنت حامل المرآة لوجه سطوته .
(٤) العرف : الرائحة الذكية .
(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِعْ مِثْلَ الشرارِ إنْ قَدِمْت … اطلبنَّ بَيْدراً إمّا مَضَيْت[1]
وإذا أشْبهتَ شمساً في الصِّفات … فارتفعْ بَيْنَ الشُّموسِ المشرقات
الرياضَ احْرِقْ وآكامَ الصَّحارى … والسِّماكَ أصْلِ بقاعِ اليمِّ نارا[2]
وإذا عوَّدْتَ جُرْحَ السَّهْمِ صَدْرا … فلتعشْ صَقْراً وكُنْ في الموتِ صَقْرا
السكونُ في الحياةِ للثَّباتِ … ما سألتُ اللهَ طَوْلاً في حياتي !

دينُنا والعُرْفُ في تِلْكَ الحياةِ
برهةً كاللَّيْثِ لا عاماً كشاةِ[3] !

الحياةُ برضاكَ أحْكِمَتْ … قَتَلَتْكَ أُخْذةٌ قَدْ دُبِّرت[4]
الرَّدَىٰ ظبيٌ وهذا المرءُ ضَيْغَمْ … منْ مقاماتِ حِمامَ المرء فاعلم[5]
إنَّما الكاملُ يحتاجُ الحِماما … كالشواهين إذا صادت حماما[6]
ويموتُ العَبْدُ خوفاً من حِمام … لَمْ يَكُنْ عيشٌ له غَيْرَ الحرام !
لكنِ الحرَّ هذا شأنُه ؟ … روحُه الأخرىٰ لَدَيْهِ حَيْنُه[7]
ليس يُجري ذِكْرُ موتٍ بتَّةً … ويموتُ الحُرُّ لَكِنْ بَغْتةً[8]
دَعْكَ منْ مَوْتِ القُبُورِ والتُّراب … إنَّه الموتُ وَلٰكِنْ في التُّراب
ما يُرَجِّي مؤمنٌ منْ ربِّه … موتُ إطلاقٍ له منْ تُرْبِه
لطريقِ الشَّوْقِ هذا الموتُ غايه … وهو للتكبير في حربٍ نهايه

---

(١) البيدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .
(٢) السِّماك : جمع سمك .
(٣) أي عش برهةً كالأسد ولا تَعِشْ عاماً كالشاة .
(٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسِّحر .
(٥) الضيغم : الأسد .
(٦) الكامل : الرجل الكامل . يجتاح : يقهر . الحمام : الموت . الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر كالصقر .
(٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .
(٨) بتة والبتة : بمعنى لا رجعة فيه .

ليس للمؤمن غيرُ الأطيب أيُّ موتٍ مِثْلُ موتِ ابنِ النَّبي[1]
الملوكُ حاربوا منْ أجْلِ سَلَبْ كالنَّبيِّ مؤمنٌ في خَوْضِ حَرَبْ[2]
وبها يمضي إلى دارِ الحبيب يَهْجُرُ الدُّنيا لِوَصْلٍ منْ قَرِيب
قالَ للقومِ النبيُّ ذو المحامد راهبُ الإسلام منْ كانَ المجاهد[3]
الشَّهيدُ وَحْدَهُ هذا دَرَاه
بدمٍ أجْرَاهُ في الحرب اشْتَراه

***

زنده رود يغادرُ الجنَّة العالية وطلبَ حور الجِنان

كأسُ صبري أصْبَحَتْ بعضَ الفُتات قال لي الروميُّ قُمْ قَبْلَ الفَوات[4]
يا حديثَ الشَّوْقِ يا جَذْبَ اليقين ! يا لإيوانٍ على الأسِّ المتين[5]
داميَ القَلْبِ إليه قَدْ وصَلْت وعلى أعتابِه حُوْراً رَأَيْت
قالتِ الحورُ تَعَالَ زِنْدَهْ رُود لكَ عَذْبُ اللَّحن يشجي ، والوُقود[6]
خفقاتٌ منْ ضَجِيجٍ حَوْلَنا زِنْده رود اجْلسْ قليلاً بيننا

***

---

(١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .
(٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .
(٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .
(٤) الفتات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفوات : فوات الأوان .
(٥) يا هنا للتعجب . والأسُّ : الأساس .
(٦) الوقود : النار .

زنده رود

كـــلُّ مـــنْ يَعْــرِفُ سِـــرّاً للسَّفَـــرْ يَرْهَبُ المَنْزِلَ لا لصَّ الممَرْ[1]
الـــوِصَـــالُ مـــا أراحَ قَـــطُّ عِشْقـــا بَـلْ أراحَ ســرمـديَّ الحُسْــنِ حَقّـــا
وابتـــداءً عِنْـــدَ حَسْنـــاءِ سُجُـــود بـــانتهـــاءِ حُطِّمَـــتْ تِلْـــكَ القُيـــود
سَـادِرٌ مـا كـفَّ يـومـاً عـنْ رَحِيْـل وهو في غيرِ المكانِ ابنُ السَّبيل[2]
دِينُنـــا يُشْبِـــهُ مـــوجـــاً أســـرعـــا
مـــا أقـــامَ بـــلْ أرادَ المَهْيَعـــا[3]

حُوْرُ الجنَّة

لَـــكَ دَلٌّ مِثْـــلَ دلٌّ للـــزَّمـــان
فعلينـــا لا تَضِـــنَّ بـــالأغـــانـــي

غزل زنده رود

أإلى المرءِ وَصَلْتَ ؟ لك رَبّاً كَيْفَ تَطْلُب وَمِنَ الذَّاتِ فَرَرْتَ أنْتَ صَخْباً كيفَ تَطْلُب
شاحبَ الوجْهَ تَعَلَّقَ بالغُصونِ الطَّلِّ وارْشُفْ لك شيئاً مِنْ نسيمِ هبَّ هبّاً كَيْفَ تَطْلُبْ
قطـرتـان مـنْ دمـاءِ ذاكَ مـا سَمَّـوْهُ مِسْكـاً يا غزالَ المسك مسكاً مِنْك عُجْباً كَيْفَ تَطْلُب[4]
إنَّ عـزَّ المُلْـكِ والسُّلْطـانِ معيـارٌ لِفقْـرِ الحطامَ ما طَلَبْتَ المُلْكَ وَهْباً كَيْفَ تَطْلُب

---

(١) في الأصل : أنَّ رهبةً من المنزل أشدُّ من رهبة من قاطع الطريق .
(٢) السَّادر : الذي لا يبالي بما صنع ، والمراد به : العِشق .
(٣) المهيع : الطريق الواسع .
(٤) يعتقد القدماء أنَّ المسك مِن دم الغزلان ، وفي ذلك يقول المتنبي :
وإن تَفُـــقِ الأنـــامَ وأنْـــتَ منهـــم فـــإنَّ المِسْـــكَ بَعْـــضُ دَمِ الغـــزال
والعجب : التيه والخيلاء . وفي الأصل يا غزال الحرم في الخطا ماذا تطلب .
والخطا : اسم لشمال الصين ، وهذا الإقليم يشتهر بغزلان المسك .

عَرَفُوهُ في الوُرُوْدِ الحُمْرِ بالبستانِ يَبْدُو   لحنُنا الدَّامي الحزينُ قدَّ قلباً كَيْفَ تَطْلُب
مَـنْ لـه قلـبٌ مُنيـرٌ زادَ نـوراً كـلَّ عيـنِ   ليت شعري لِعَشَى العَيْنَيْنِ طَبَّاً كَيْفَ تَطْلُب

زاهـدون ، رؤيـةُ الـدُّنيـا كـرامـاتٌ لنـا
نظرةً منا ، وما يغويك خلباً كَيْفَ تَطْلُب

في الحَضْرَةِ الإلهيَّة

مِـنْ تَجَلِّـي اللهِ كـانَـتْ جَنَّتُـه   لا يـريـحُ الـرُّوْحَ إلا رُؤْيَتُـه
نَحْـنُ قـومٌ قَـدْ جَهِلْنَـا أَصْلَنـا   نحـنُ طَيْـرٌ وأضعنـا عُشَّنـا[1]
علَّمَنَـا إنْ كـانَ سـاءَ جَـوْهـرا   كـانَ لِلْعَيْـنِ الحِجَـابَ الأكبـرا
وإذا بـالعِلـمِ حَقَّقْنـا النَّظَـرْ   فـالسَّبيـلُ والـدَّليـلُ يُعْتَبَـر
وَيُـريـكَ للـوجـودِ قِشْـرَه   ويقـولُ سَـلْ تبيَّـنْ سِـرَّهُ
رامَ تمهيـدَ الطَّـريـقِ دائمـا   أيقَـظَ الشَّـوْقَ وكـانَ نـائمـا
وَهَـبَ النَّـارَ لقلـبِ والـوجيبـا   وبجوفِ اللَّيْلِ قَدْ أهدىٰ النَّحيبا[2]
إنَّـه مـا فسَّـرَ الـدُّنيـا لَنَـا   عَيْنَنَـا رَبَّـى وَرَبَّـىٰ قَلْبَنـا
وإلـى جَـذْبٍ وَشَـوْقٍ يَـرْفَعُـكْ   مِثْـلَ جبـريـلَ أراهُ يُبْـدِعُـكْ[3] !
هَـلْ يُتيـحُ العِشْـقُ يـومـاً عـزلَـةً   إنَّـه يَحْسُـدُ مِنْـهُ مُقلَـةً[4] !

كـان فـي البَـدْءِ الـرَّفيـقَ والطَّـريقـا
ثـم يمضـي بَعْـدَ أن يَنْسَـىٰ الـرَّفيقـا

عَنْ قصورٍ سِرْتُ عَنْ حُورٍ بَعُدْتُ   زورقـي روحـي وفـي نـورٍ فَقَـدْتُ

---

(١) الطير : الطيور .
(٢) الوجيب : خفقان القلب . والنَّحيب : رفعُ الصوت بالبكاء .
(٣) يبدع : يخلق .
(٤) أي إن العشق لا يتيح للعاشق خلوةً مع الحبيب .

والغريقَ كُنتُ في هذا الجمال وهو بالتَّبديل يحمي منْ زوال !
وَفَقَدْتُ في ضَميرِ الكائنات فالحياةُ كالرَّبابِ الصَّادِحات[1]
إنَّما أوتارُها كانَتْ رَبابا كلُّ لحنٍ كانَ في قلبي جِرَابا
أسرةٌ نَحْنُ بها نارٌ وَنُور آدمٌ والشمس جبريلٌ وَحُور
وأمامَ الرُّوحِ مرآةٌ أُقيمت باليقينِ حَيْرَةٌ طالتْ فَشِيْبَتْ[2]
وصباحُ اليومِ ملءُ العَيْنِ نُور لغدٍ فيهِ وللأمْسِ الظُّهور
وبأسرارٍ له ربِّي بدا نَفْسَه بالعين منِّي شاهدا
وازديادٌ لا يَحُوزُ أنْ يُرىٰ بلْ خروجُ الجسم مِنْ قَبْرِ الثَّرى[3]
ردَّدَ العَبْدُ ومولاهُ النَّظَرْ فإذا شكواهُما شَكْوىٰ الحسَر[4]
طلبٌ تِلْكَ الحياةُ حَيْثُ كانَتْ
أيُّنا الصيدُ ؟ رموزٌ ما اسْتَبانَتْ
لذةُ الرؤية كانت في جَنَاني وَمِنَ العِشْق جَرُؤتُ في لساني[5]
« أنتَ نورَ العالمين قَدْ وَهَبْنا فإلى دنيا الثَّرى هلَّا نَظَرْتا
ما رأى الإنصافَ مِنها الحرُّ مَرَّةْ غير شوكٍ لم يَجِدْ في كلِّ زَهْرَه
غالبٌ في العَيْشِ مسرورٌ طَرِبٌ والليالي عدَّها منْ قَدْ غُلِبْ !
إنَّ الاستعمارَ مِنْهُ كُلُّ نَكْسِ يا له ليلاً يُريدُ حَجْبَ شَمْسِ
وعلومُ الغَرْبِ نَهْبٌ يُذْكَرُ وبلا حَيْدَرَ دَيْرٌ خَيْبَرُ[6]

---

(١) الرباب : من آلات الطرب .
(٢) شابه : مزجه .
(٣) يحور : ينقص .
(٤) الحسر : التعب .
(٥) الجنان : القلب .
(٦) المراد بيذكر أنَّ هذا النهب معروف للناس يذكرونه جميعاً . وإقبال يشير إلى ما كان مِنْ أمر عليٍّ كرَّم الله وجهه في غزوة خيبر ، وقد سبق بيان ذلك .

إنَّمــا المسكيــنُ قــالَ : لا إلهــا ... فِكْـرُهُ نَـدَّ وَمِنْـهُ العَقْـلُ تـاهـا[1]
نحــنُ فــي الــدُّنيـا نمــوتُ أربعــا ... اذكـرنْ مِنهـا المُـرابـي الأجْشَعـا[2]
أيليــقُ بــكَ هــذا العَــالَــمُ
منــه فــي ذَيْلِــكَ طيــنٌ أقْتَــمُ[3]

* * *

نداءُ الجمالِ الأبديِّ

مِــنْ جميــلٍ وَقبيــحٍ ربُّنــا ... خــطَّ نقشــاً ، إنَّ هــذا نَقْشُنــا
ما الوجودُ هَلْ عَرَفْتَ يا نجيب ؟ ... مِنْ جمالِ الله أنْ يُلفىٰ النَّصيب[4]
كــانَ هــذا الخَلْـقُ نِشْـداناً لِعِشْـق ... والظهــورُ بــالجمــالِ عِنْـدَ خَلْـقٍ[5]
وضجيــجٌ مــا يكــونُ أو غَبَــرْ ... بجمــالٍ عنــدنــا يبــدي الأثــر[6]
الفنـــاءُ للحيـــاةِ والبَقـــاء ... إنَّهــا خَلْــقٌ وَشَــوْقٌ لِلِّقــاء
أنــت حــيٌّ ؟ حــنَّ شــوقــاً واخلُـقِ ... كــلَّ أفــقٍ مِثْلَنــا فلتَطْــرُقِ
مــا تــراهُ لا يــواتــي فَلْتَحطِّــمْ ... عــالمــاً مِنْـكَ إليـكَ فَلْتُقَـدِّمْ[7]
كــلُّ حُــرٍّ كــان مَكــروبــاً حــزينــا ... أنْ حَــوَاهُ عــالــمٌ لــلآخــرينــا
أعلــى الإبــداع أنْــتَ غَيْــر قــادر ؟ ... لَسْــتَ فــي رأيٍ لَــديْنــا غَيْــرَ كــافِــر

---

(١) ندَّ : نَفَر وشرد .
(٢) أي نموت أربع مرات . وفي الأصل أنَّ السبب في ذلك أربعة وهم المرابي ، والوالي ، وشيخ الطريقة ، والشيخ .
(٣) الأقتم : الذي يعلوه اللون القاتم .
(٤) يلفى : يوجد .
(٥) النشدان : الطلب . والخلق في الشطر الثاني بمعنى الناس .
(٦) غبر : مضى .
(٧) يواتي : يوافق .

وعـــدمـــت حسننـــا حتَّـــى الأثـــر مِـنْ نخيـلِ العَيْشِ مـا ذُقْتَ الثَّمـر
مِـنْ رجـالِ الله ؟ كـنْ سيفـاً حُسَـامـا
عالمَ التَّقديرِ فاخْلُقْ ، والمَرَاما[1] »

* * *

زنده رود

عـالَـمُ الألـوانِ عَنْـهُ مـا الخبـر هلْ يعودُ الماءُ يجري في النَّهَرْ ؟
سِـرُّ تَكـرارٍ عَـنِ الـدُّنيـا غَـرِيـبْ وهـو فـي طبـعٍ لهـا أمـرٌ عَجِيـبْ
لا تجـوز رَجْعَـةٌ تحـتَ السَّمـاءْ لـم يَقُـمْ قـومٌ تـلاشَـوا فـي الفَنـاءْ
لا يَقُـومُ الشَّعْـبُ مِـنْ أعمـاقِ قَبْـرِ
مـا لَـهُ مِـنْ بَعْـدُ قَبْـرٌ غَيْـرَ صَبْـرِ

نداء الجمال الأبدي

الحيـاةُ أهـي تَكْـرارُ النَّفَـس ؟ أصلُها مِنْ قولِ « يا حيُّ » انبَجَسْ[2]
إنَّ قُرْبَ الرُّوحِ مِنْ ﴿ إني قريب ﴾ مِنْ حياةِ الخُلْدِ للمرءِ النَّصِيبْ[3]
يـرفـعُ التَّـوحيـدُ فـرداً بـالتُّقـاة يَجْعـلُ الشَّعْـبَ أحـاديـثَ الـرُّواة[4]

---

(١) السيف الحسام : القاطع .
(٢) انبجس الماء : تفجر .
(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب علماً وإجابةً لتعاليه عن القرب مكاناً . قيل : إنَّ أعرابياً سأله ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية . والإيمانُ والعملُ الصَّالح شرط في قبول الدعاء .
(٤) التقاة : التقوى . وأردنا بجعل الشعب أحاديث الرواة أنَّ هذا الشعب مشهورٌ عند الناس رفيع القدر . =

وعَنِ الشِّبلي سمعتُ أو أبي ذَرْ طغرلٌ كانَ لِشَعبِ ثُمَّ سنْجَرْ[1]
بالتَّجلِّي كانَ لِلْمَرْءِ الثَّبات إنَّه لِلْفَرْدِ والشَّعْبِ الحَيَاة
وَلَقَدْ نالا بتوحيدِ كمالا حقَّقَا هذا جلالًا ذا جَمَالا
وهما سلمانُ في الفَقْرِ التَّقيّ وسليمانُ له المُلْكُ العليّ[2]

ويرىٰ الواحدَ هذا ، ذاكَ واحدْ
جالسنْ هذا وذاكَ فلتُعَاضِدْ

= وينقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد الامتثالي والتقليدي والتعبدي ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيدٌ علميٌّ تحقيقيٌّ . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية . وثالثها توحيدُ الواصلين من الصُّوفية ، وهو توحيدٌ حاليٌّ وكشفيٌّ . وعندهم أنَّ حال التوحيد وصفٌ لازم لذات الموحِّد ، وللتوحيد نورٌ يكشف الظلمة عن الصُّوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً له ، ويصبح أشبه شيءٍ بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .

(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي بغدادي ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادىء التصوف ، وكان يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابيٌّ جليلٌ مشهور بالزهد والورع ، وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام ٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ، والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى للمسلم التقي الذي رفعته تقواه إلى منزلةٍ ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له يصرفها بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجنِّ جنودٌ وملكٌ عظيم .

أنت يا مَنْ « لا إله » قُلْتَ مَرَّهْ أيُّ شيءٍ ألفُ عينٍ خَلْفَ نَظْرَهْ ؟
ولأهلِ الحقِّ دَعْوى وَحْدَةْ وَلَهُمْ قلبٌ ودورٌ أبْعَدَتْ
تُضبحُ الذَّرَّةُ شمساً بالنَّظَرْ نظرةَ كُنْ ، والإلهُ ما اسْتَتَرْ !
نظرةٌ باللهِ كَيْفَ تزدريها والتَّجلِّي كانَ لِلتَّوحيدِ فيها

وإذا التَّوْحيْدُ شعباً أسْكَرا
فَمَكانُ الشَّعْبِ في أعلى الذُّرَى[1]

إنَّ رُوْحَ الشَّعْبِ بَيْنَ النَّاسِ كَانَتْ لِلْحُلولِ قطُّ جسماً ما أَرَادَتْ
باجتماعِ القَوْمِ لِلرُّوحِ البَقَاءْ والشَّتاتُ فيهِ لِلرُّوْحِ الفَنَاءْ[2]
نظرةً شرِّد بها نومَ اللُّحود عِشْ طويلاً دَعْكَ منْ هذا الشُّرود[3]

وَحْدَةُ الأفكارِ والأعمال حَقِّقْ
خاتَمَ المُلْكِ إليهِ اليومَ فاسْبِقْ

زنده رود

مَنْ أنا مَنْ أنْتَ أينَ العالَمُ طالَ بُعْدٌ بيننا ! لا أعْلَمُ
قلْ لماذا كُنْتَ في أسْرِ القَدَرْ لا تموتُ وأموتُ ما الخَبَرْ ؟

نداءُ الجمالِ الأبديّ

أنْتَ في دنيا الحدودِ الأربعه كلُّ منْ فيها يلاقي مَصْرَعَهْ
إنْ تَرِدْ عيشاً فتلك الذَّاتُ أسْبَقْ بعضُها في بعضها الدُّنيا لِتَغرَقْ[4]
منْ أنا مِنْ بَعْدُ تدري بلْ وأنتا كَيْفَ في دُنْياكَ عِشْتَ ثُمَّ مُتَّا

---

(١) الذُّرى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .
(٢) الشتات : التفرُّق .
(٣) أردنا بالشرود هنا ما أراد إقبال بعدم المركزية ، أي : الخروج على الجماعة .
(٤) أسبق هنا بمعنى أفضل ، وقبل كل شيء .

زنده رود

أعـذرِ الجـاهـلَ بـالجهـلِ اغتَـذَرْ   والنِّقـاب ارْفَعْـهُ عَـنْ وَجْـهِ القَـدَرْ
ثـورةٌ للـرُّوس والألمـانِ كـانَـتْ   خَفْقـةُ الأرواحِ فـي الإسلامِ بـانَـتْ
دبَّـرَ الشَّـرْقُ وهـذا الغَـرْبُ دَبَّـرْ   قُـلْ أجبني مـا الـذي كـان المُقَـدَّر

ظهورُ تَجَلِّي الجلال

بَغْتَـةً دُنيـا لـذاتـي مـا رَأَيـتْ   إنَّ أرضـي وسمـائـي قَـدْ شَهِـدتْ
غَـرِقَـتْ دنيـايَ فـي نـورِ الشَّفَـقْ   وَعَلَيْهَـا الأحْمَـرُ القـانـي انْطَبَـقْ
بـالتَّجلِّـي مـاجَ عُمْـقُ مُهجتـي   كـالكليـمِ بـالتَّجلـي نَشْـوتـي(١)
نُـوْرُه أبـدى الخفـيَّ لِلْعِيَـانْ   مِنْـهُ قَـدْ أصْبَحْـتُ مسلـوبَ اللِّسـانْ

مِـنْ ضَمِيْـرِ عـالَـمٍ لِلْكَيْـفِ والكـمْ
أطْـرَبَ السَّـامِـعَ مَشبـوبُ النَّغَـمْ
« إنسَ شرقاً لا تَكُنْ منْ سِحْرِ غربٍ كالأسيرْ
فـالقَـدِيْـمُ والجَـديـدُ مـا همـا غَيْـرَ النَّقيـرْ(٢)
عِنْـدَ شيطـانٍ قُمِـرتَ وَفَقَـدْتَ خـاتمـاً(٣)
ولـدى جبـريـلَ رَهْـنٌ أعْسَـرَ الأمـرَ العَسيـرْ !
الحيـاةُ زانَـتِ الجَمْـعَ وَصَـانَـتْ ذاتَهـا
أنتَ في الرّكبِ وحيداً كُنْ وواكبْ في المسير(٤)

---

(١) الكليم : موسى عليه السلام .
(٢) النقير : النكتة في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقارة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .
(٣) قَمَرَ : غلبَ في القِمار .
(٤) الرَّكب : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : ساير ، وركب=

فُقْتَ شمساً في ضِيَاءٍ تَغْمُرُ الآفاقَ نوراً
عِشْ وكلَّ ذرةٍ في الكونِ فاغمرْها بنُور
كَهَشِيْمٍ حَمَلَتْه بالجناحينِ الصَّبَا
انْقَضَتْ أيامُ خُسْرُو ، دالَ عَصْرٌ للجهير[1]
ضِيْقُ كأسٍ في يديكَ كانَ للحاناتِ عاراً
ارْتَشفْ كأسَ الحُميَّا وَلْتَكُنْ ذاتَ الخرِير »[2]

***

= مع الراكبين .

(١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبيُّ ﷺ إليه رسولاً في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدَّعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزَّق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .
ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخليق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنَّه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات التسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطبِّ خاصة .

(٢) الحميا : الخمر . ولإقبال في هذا من كلامه نزعةٌ صوفيةٌ جليةٌ ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .

القسم الثامن

كلمة

إلى الجيل الجديد

وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفياً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاًّ وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصدِّيق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته[1] .

إنَّ تَنْميـقَ الكـلامِ غَيْـرُ مُجـدِ فالفؤادُ ما احتواهُ لَيْسَ يُبْدي

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٧٣ ـ ٧٤ . طبع دار ابن كثير بدمشق .

قلتُ قولًا ما عليه مِنْ حِجَاب	ما تبقَّى مِنْهُ يَنْبُو عَنْ كتاب !
بالكلامِ كلُّ معنىً لي تَعَقَّدْ	ويزيدُ اللَّبْسُ مِنْ صَوْتٍ تَرَدَّد
نظرتي منها افهمنَّ ما اسْتَعَرْ[1]
أو أنيني وصداهُ في السَّحَرْ
دَرْسَكَ الأولَ أمٌّ لَقَّنَتْ	بالنَّسِيمِ بُرْعُماً قَدْ فَتَّحَتْ
ونسيمُ الأمِّ هذا عطَّرَكْ	فَعَزَزْتَ ، وبحسْنٍ صَوَّرَكْ
دولةٌ لِلْخُلدِ منها نِلْتَها	عَلَّمَتْكَ « لا إله » قُلْتَها
يا بُنَيَّ أنْتَ خُذْ عنِّي النَّظَرْ	واحترقْ مِنْ « لا إله » في الشَّرَرْ
« لا إله » قُلْ ومنْ روحٍ عَمِيقْ	ليكونَ الجسمُ كالمِسْكِ الفَتِيقْ[2]
إنَّها شمساً وبدراً قد أدَارَتْ	شعلةً في القشِّ والأطوادِ صَارَتْ[3]
يا لها حرفينِ ليسا في الكلام	بَلْ هما في كفٍّ مِضْرابِ حُسَام[4]
نارُها نَضْرٌ مبينٌ عِشْ بها
إنَّها ضَرْبٌ أفذْ مِنْ ضربها
مؤمنٌ دأبٌ له عَقْدُ النِّطاق	مؤمنٌ بالغَدْرِ يَرْضى والنِّفاق !
وَبِفِلْسٍ شَعْبَهُ والدِّينَ باعا	أحْرَقَ الدَّارَ فَضَاعَتْ والمتاعا
في صَلاةِ البَقَاءُ والفَنَاءْ	وهما كانا دلالًا في الدعاء[5]
إنَّ نوراً ما تبقَّى في صَلاتِه	والتَّجَلِّي قدْ نأى عَنْ كائناته
كلُّ مَنْ يَعْبُدُ في الدُّنيا الحُطاما	عَشِقَ المالَ كما خافَ الحِمَاما

---

(١) استعر : اشتعل .
(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطعَ رائحته .
(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .
(٤) المضراب : الكثير الضَّرب . والحُسَام : السيف .
(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنَّها دلالٌ في دعائه .

مـا انتشـى مـا ذاقَ شيئـاً مـنْ حُبُـوز   وكتابُ الدِّينِ في جَوْفِ القُبُورْ[1]
ويقـولُ مـا يظُـنُّ اليَـوْمَ حقـا   عـنْ نَبِيِّيـن تَلَقَّـىٰ مـا تَلَقَّـىٰ
منْ بلادِ الفُرْسِ هذا ، ذاكَ هِنْدي   « حكمُ حجٍّ وجهادٍ لَيْسَ عندي » ![2]
إنَّ حجّـاً وجهـاداً واجبـان   لصلاةٍ أو لصومٍ كالجَنانِ[3]
إنَّ روحـاً فـي الصَّلاةِ والصِّيام   إنْ نـأتْ فـالشَّعْبُ مختَلُّ النِّظام
ليـس للقـرآنِ فـي القلـب الأثـر   فيهمـا الآمـالُ خـابـت لِلْبَشَـر[4] !

مسلـمٌ عـن ذاتِـه تلـكَ انفَـرَدْ
قـد طغـى المـاءُ فيـا خضرُ المَـدَدْ[5] !

سَجْـدةً ، والأرضُ منهـا زُلْـزِلَـتْ   وأرادتْ ، فـالشُّمـوسُ أُجْـرِيَـتْ
والصُّخـورُ إنْ دَرَتْ عَنْهَـا الخَبَـرْ   فهـي فـي الجـوِّ دُخـانٌ وانْتَشَـرْ[6]
ذاكَ عَصْـرٌ كـان فيـه خفـضُ هـام   دبَّ ضعفُ الشَّيْخ منه في الحُطام[7]
« ربـي الأعلـىٰ » أكـانَـتْ عِنْـدَنـا !   ذَنْبُـه هـذاكَ أوْ ذَنْـبٌ لَنَـا ؟
فـي سبيـلٍ كلُّنَـا قـد أسـرعـا   لـه النَّـاقـةُ جـافَـتْ مَهْيَعَـا[8]

صـاحـبُ القـرآن مـا ذاقَ الطَّلَـبْ !
العَجَـب ثـمَّ العَجَـب ثُـمَّ العَجَـبْ

إنْ بِفَضْـلِ الله فـاضَ عِلْمُكـا   فسيـأتـي للـزَّمـان غَيْـرُكـا

---

(١) الحبور : البهجة .
(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .
(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .
(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين الذين لم يذكر إقبال اسماً لهما .
(٥) انفرد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الغرق . والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .
(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .
(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .
(٨) جافت : أبعدت . والمهيع : الطريق الواسع .

لـم يَخَـفْ عقـلٌ وَقَلْـبٌ لَـمْ يَـذُبْ ... ما اسْتَحَتْ عَيْنٌ وغاصَتْ في الكَذِبْ
كـلُّ عِلْـمٍ كـلُّ فـنٍّ كـلُّ ديـن ... لا تكُـفَّ عـن طـوافٍ حَـوْلَ طيـن
آسيـا أرضُ الشُّمُـوسِ المُشْـرِقَـاتْ ... عينُهـا لِلْغَيْـرِ ، مـا كـانـتْ لِـذَاتْ
لا جـديـدَ جـدَّ لِلْقَلْـبِ الغـريـر ... نِلْتُ منها الرِّيح أوْ حبَّ الشَّعِيرْ ![1]
وحـواهـا ذلـكَ الـدَّيـرُ القـديـم ... فـي جُمُـودٍ وخُمُـودٍ لا تـرِيـمْ[2]
صَيْـدُ شيـخٍ أوْ لسلطـانٍ مَلَـك ... فكـرُهـا ظبـيٌ ولكـنْ فـي الشَّـرَكْ
عَقْلُهـا والـدِّيـنُ بَـلْ حتَّـى الشـرف ... منْ ركاب « اللورد » كانت في طرف
فعلـى أفكـارِهـا كُنْـتُ المغيـرا ... وعـن الأسـرارِ مَـزَّقْـتُ السُّتـورا

فَـاضَ قَلْبي بـالـدِّما مـنْ فَـرْطِ جَـهْدي
ثُـمَّ دُنيـاهـا أنـا غَيَّـرتُ وَحْـدي

وبطبـعِ العَصْـرِ قُلْـتُ لفظتيـن ... إنَّ لـي بحـريـنِ فـي قـاروتيـن
لَفظَـةٌ تَلْتَـفُّ أخـرىٰ تَلْسَـعُ ... والعقـولُ فـي شـراكـي أجْمَـعُ[3]
لفظـةٌ كـانـتْ بمقيـاسِ الفِـرَنْـج ... نغمـةً سكـرى ومِـنْ أوتـارِ صَنْـج[4]
أصلُ هـذي الـذِّكْرُ تِلْكَ بنتُ فِكْرِ ... قدْ ورثْتَ ذا وهذا ، لستَ تدري[5] ؟
إننـي نَهْـرٌ ومِـنْ نَبْـعٍ لأصلـي ... إنَّ فصلي كانَ فصلاً وهو وصلي[6]

طَبْـعُ عصـري ذاك لَمَّـا أنْ تغيَّـر

---

(١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشَّعير ، فكأنه لم يظفرْ منها بشيء .
(٢) رام : فارق المكان .
(٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقربٍ تلسع ، وهو يشير بذلك من طرفٍ خفي إلى كتابٍ له بالإنجليزية بعنوان « إعادة بناء الفكر الدِّيني في الإسلام » كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .
(٤) الصنج : معزف ذو أوتار .
(٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .
(٦) يريد بهذا المنبع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيَّـرَ الأصـداءَ صـوتٌ لـي تَحَـزَّزْ

ظَمِيءَ الفتيانُ ما في الكوبِ قَطْرَهْ	عَقْلُهـم نـورٌ ، بـروحٍ ليـل حَسْـرَهْ
شَكُّهـمْ يَـرْبُـو ويجتـاحُ اليقينـا	مـا رأوا شيئـاً ، وكـانـوا البـائسينـا
يُنكِـرونَ الـذَّاتَ ! إيمـانٌ بِغَيْـرِ !	رفعـوا مِـنْ تُـرْبهـم بُنْيـانَ دَيْـرِ[١]
ليس يـدري القَصْـدَ منـه المكتـبُ	أنْ تنـاسـى مـا بقلـبٍ يُجْـذَبُ
وَمِـنَ الأرواحِ يمحـو نُـوْرَ فطـره	غُصْنُـه مـا كـانَ فيـه قـطُّ زَهْـرَهْ
صَـفُّ أحجـارَ البنـاءِ لَيْـسَ يـدري	وطبـاعَ البَـطِّ يَهْـدي لابـنِ صَقْـرِ
وعلـى وَقْـدٍ إذا لـم يَعْتَمِـدْ	لـذةً للـواردات لـمْ يَجِـدْ[٢]
وبـهِ شَـرْحُ المَقَـامِ كـانَ غَـايَـهْ	لـم يكـنْ حقّـاً سـوى تفسيـر آيـه
وبنـارِ الحـسِّ طـوعـاً فـاحْتَـرَقْ	عَـنْ لجيـنٍ لَـكَ صُفْـرٌ يَنْفَـرِقْ[٣]

بـادىء بـالحـسِّ يُنهـىٰ بـالحضُـور
آخِـرُ العلـم أيبقـى فـي الشُّعـور !

كَـمْ كتـابٍ فيـهِ أعْشَيْـتُ البَصَـرْ	خيـرُ علـمٍ مـا عَـرَفْـتُ بـالنَّظر[٤]
إنَّ هـذا العلـمَ صَـبُّ خمـرةٍ	يـا لهـا مـنْ بَعْـدُ رَشْـفُ سَكْـرَةٍ !
تُطْفِـىءُ المصبـاحَ أنفـاسٌ لِفَجْـرِ	وردةُ البستـانِ منهـا كـأسُ خَمْـرِ[٥]
لا تُطِـلْ فـي القَـوْلِ واقْنَـعْ بـالغِـرَارْ	حـولَ ذاتـي كـنْ كَفِـرْجـارٍ مَـدَارْ[٦]
منكـرُ اللهِ لـدى شيـخٍ كَفَـرْ	منكـرُ الـذَّاتِ لـديَّ مِنْـهُ شَـرّ[٧]

---

(١) الترب : التراب . والبنيان : الجدار .
(٢) الوقد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .
(٣) اللجين : الفضة . والصفر : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .
(٤) أعشاه : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .
(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفىء نور المصباح ، كما يفتح البرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكأنها كأس خمر .
(٦) الغرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .
(٧) أي : أنَّ منكر الذات أشدُّ كفراً ، وأكثر شرّاً من منكر الله .

منكـــرُ اللهِ بـــإنكـــارٍ عَجُـــولْ ذا عجــولٌ وظلــومٌ بـــلْ جَهُــولْ
وعلــى الإخــلاصِ شــدِّد قَبْضَتَــكْ رهبــةَ السُّلطــانِ جَنِّبْ شِيْمَتَــكْ[(١)]
ارضَ عَــنْ عَــدْلِ القــوي لا تَبْتَعــدْ فــي غنــاكَ بَــلْ وفــي الفَقْــرِ اقْتَصِــد
يَضْعُــبُ الحُكْــمُ ؟ حــذارِ لا تــؤوِّلْ وعلــى قلبــك مصبــاحــاً فَعَــوِّلْ[(٢)]
يحفــظُ الأرواحَ ذِكْــرٌ ثُــمَّ فِكْــر يحفـظُ الجِسْـمَ لِتِلْـكَ النَّفْـسِ أَسْـر
كـلُّ حكـمٍ فـي انخفـاضٍ وارتفـاعِ نـالَـهُ جسمـاً وروحـاً مـنْ يُـراعـي
لــذةٌ لِلسَّيْــر غــايــاتُ السَّفَــرْ لا تَطِـرْ إنْ خِطْـتَ بـالعِشِّ النَّظَـر[(٣)]
ويــدورُ البَــدْرُ يحظــى بــالمَقَــام مــا المَقَــام عِنْــدَهُ غَيْــرُ الحَــرام[(٤)]
أنْ تَطِيْـــــرَ ، للحيـــــاةِ متعـــــةٌ والتـــزامُ العِـــشِّ فيهـــا ضَيْعَـــةٌ
الغُـــرابُ رزقُـــه فـــي جَـــوْفِ قَبْـــر
عِنْــدَ شَمْــسٍ رزقُ شــاهيــن ، وَبَــدْر
إنَّ ســـرَّ الـــدِّيـــن أكـــلٌ لِلْحَـــلالْ وهــو صِــدْقٌ والتَّملِّــي للجمــال[(٥)]
كُــنْ قــويــاً وابــغِ بــالــدِّيــن اليقينــا واربـطِ القَلْـبَ بـربِّ العَـالمينـا[(٦)]
بعـض سـر الـديـن ممـا ليس يظهـر يا بنيَّ اسمعْ حَديثي عَنْ مُظَفَّر[(٧)]

---

(١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .
(٢) عول عليه : اعتمد عليه .
(٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدَّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .
(٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصُّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .
ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فبمعنى الإقامة .
(٥) التملِّي : التمتع .
(٦) في الأصل : كنْ صلباً كالماس وأبْعِدْ عن نفسك الوسواس .
(٧) مُظفَّر : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهــو فــي أعمــالــه فَــرْدٌ فَــريــد ... فــي عُلُــوٍّ لِلمَقَــام بــايــزيــد

فــرســاً كــان يُعِــزُّ كــالــوَلَــدْ ... مِنْ حروبٍ خاضَ أمسى في كَبَدْ[1]

أدْهَــمٌ مــنْ خيــرِ أفْــراسِ العَــرَب ... ونجيــبٌ وكــريــمٌ فــي النَّســب[2]

ولــدى المــؤمــنِ عــزَّ أو نَفُــسْ ... الكتــابُ والحُسَــامُ والفَــرَسْ[3]

أيُّ وصــفٍ ؟ إنَّــه خَيْــرُ الجيــاد ... مــرَّ ريحــاً بــالغــديــر والنِّجــاد ![4]

فــي الحُــروبِ مُشْبِــهٌ لَمْــحَ البَصَــرْ ... أوْ كــريــحِ زَلْــزَلَــتْ طَــوْدَ الحَجَــرْ

عَــدْوُهُ مــوزٌ وفــوزٌ يَــوْمَ حَشْــر ... يَسْحَــقُ الحــافــرُ مِنْــهُ كــلَّ صَخْــر

أشبــهَ الإنســانَ فــاعتــلَّ الجَــواد ... ذاتَ يــومٍ ، قيــل أضنــاهُ الكُبــاد[5]

أحضَــرَ البيطــارُ دَنّــاً مــنْ شــراب ... وسقــاه فــانتفــى داءُ العَــذَابْ[6]

غَضِــبَ العــاهــلُ قــالَ لا أريــد ... ذا الجــوادَ ، فــالتُّقَــى مِنِّــي بعيــد

نِلْــتَ مــنْ رَبِّــكَ قلبــاً مُنْختَــه

مسلــمٌ هــذا تــأمَّــل طَــاعَتَــهْ

إنَّمــا الــدِّيــنُ احتــراقٌ فــي الطَّلَــبْ ... وَهــوَ عِشْــقٌ ثُــمَّ يتلــوهُ الأدَبْ

وبلــونِ عــزَّ وَرْدٌ أو بِعِطْــر ... أدبٌ إنْ غــابَ كــانَ شــرَّ إصْــر[7]

إنْ رأيــتَ الشَّــابَّ هــذا قَــدْ فَقَــدْ ... فنهــاري ضــاعَ فــي لَيْــلِ الأبَــدْ

وتــزيــدُ حُــرقــةٌ كــانــتْ بِصَــدْري ... فَــلأيّــامِ النَّبــيِّ كــانَ ذِكْــري

وأتــوبُ مِــنْ زمــانــي الحــاضِــرِ ... لأغيــبَ فــي الــزَّمــانِ الغَــابِــرِ

---

(١) في كبد : في تعب .

(٢) الأدهم : الأسود . وقد يكون هذا السواد شديداً أو هيناً .

(٣) عز : صار عزيزاً ، ونفس : صار نفيساً . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

(٤) الغدير : النهر . والنجاد : جمع نجد ، هو ما ارتفع من الأرض .

(٥) اعتلَّ : مرض . والكباد : داء الكبد .

(٦) البيطار : طبيب الخيل . دَنُّ الشراب : جَرَّةُ الخمر . انتفى : طرد .

(٧) الإصر : الذنب .

يَسْتُـــرُ المـــرأة زوجٌ أو تُـــرَاب والرِّجالُ حِذْرَهم كانَ الصِّحاب(١)
تَنْطِـقُ العـوراءُ ؟ ذا كـلُّ الخطـأ كـافِـرٌ أو مُـؤْمـنٌ ربِّـي بـرأ(٢)
أنْـتَ إنسـانٌ ؟ أخـاكَ فـاخْتَـرِمْ ليـسَ منَّـا غيْـرَ هـذا مَـنْ عَلِـمْ(٣)
تــربــطُ النـاسَ جميعـاً عُـرْوةٌ مِنْـكَ فـي هـذا الطـريـق خُطْـوةٌ ؟
ولعبـدِ العِشْـقِ مـنْ ربٌّ طَـرِيْـق وعلـى الكـافِـر والبَـرِّ الشَّفِيْـق(٤)
ضمِّـن الـدِّيـن وكفـراً قَلْبَكـا وإذا مـا الـدِّيـنُ فـرَّ ويلكـا !

لَيْـسَ شـذا القَلْـبُ إلا سجـنُ طِيْـن
إنَّ فيـه كـلَّ أفـقٍ كـالـوَضِيـن(٥)

إنْ رأسـتَ القَـوْمَ أو صِـرْتَ الغنيَّـا فعلـى الفَقْـرِ احْـرِصَـنَّ يـا بُنَيَّـا(٦)
إنَّــه فــي الــرُّوحِ مِنْـكَ يَتَّقِـدْ عـنْ أبٍ خمـراً وَرِثْـتَ بـلْ وجَـدْ(٧)
لا تـؤمِّـل غَيْـرَ قلـبِ ذي أَلَـمْ ادعُ ربَّـاً وانـسَ كـلَّ مـنْ حَكَـمْ

---

(١) يقول : إنَّ المرأة يسترها أن تتزوج أو تموت . كما يستر الرجل أنْ يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .
(٣) أي لا يعد إنساناً منَّا من تناسى وجوب احترام أخيه في الإنسانية .
(٤) البَرُّ : من يطيع الله .
(٥) الوضين : ما انطوى وانثنى .
(٦) الفقر من مقامات الصُّوفية . وهو ليس فقدان الغنى ليس إلا ، بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصُّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاه بعض الصُّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إنَّ الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك ، والذي استصفى نفسه في فقره تقرباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين ، ويؤثر عن الصوفية قولهم « الفقر فخري » .
(٧) يشبه الفقر بالخمر المعتقة . والخمر في مصطلح الصُّوفية نشوةُ العشق الإلهي .

كَمْ حصيفٍ وهوَ بالحقِّ البَصير غَمَرَتْهُ نِعمةٌ فَهُوَ الضَّرير[1]

فبها تِلْكَ القلوبُ أصْلَدَتْ ودعاءَ العَبْدِ عنها أبْعَدَتْ[2]

في البلاد جُلْتُ أعواماً طِوالا لغنيٍّ ما رأيتُ الدَّمعَ سالا[3]

أهلَ فَقْرٍ من فَدَيْتُ ، طِبْتُ نَفْسَا

ويلُ مَنْ بالنِّعْمَةِ الرحمنَ يَنْسَىٰ

أتَرومُ الذَّوْقَ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَا وتُريدُ الشَّوْقَ فيهمْ واليَقِيْنَا

إنَّ لِلقُرآن علماً لَيْسَ يُعْرَف والذئابُ إنَّهم أهْلُ التَّصوُّف !

الصِّياحُ والعَجِيْجُ في الخوانقْ أيْنَ خِمِّيرٌ لِحُسْنِ الله عَاشِقْ[4]

قلَّدَ الإفرنجَ منَّا المسلمونا مِنْ سرابٍ كوثرٌ ما يطلبونا

وَبِسرِّ دِيْنِنا ما عِلْمُهُمْ ؟ أهلُ حِقْدٍ وعداءٍ كُلُّهُمْ

كلُّ خيرٍ لِلْخَوَاصِّ كالحَرَام ما رأيتُ الصِّدْقَ إلا في العَوَام

التقيَّ مِنْ غَوِيٍّ مَيِّزَنْ مَعَ أهْلِ الحقِّ والفَضْلِ اجْلِسَنْ

إنَّما النَّسْرُ تقاليداً ألِفْ

سطوةُ الشَّاهِيْنِ طارَ ، تختلِف

رَجُلُ اللهِ يَلُوحُ مِثْلَ بَرْق حطباً يَجْعلُ مِنْ غَرْبٍ وَشَرْق

نحنُ كُنَّا في ظلامِ الكائنات وَهُوَ ذو حِذْقٍ بِحَلِّ المُعْضلات

والكليمُ والمسيحُ والخليلْ والنَّبيُّ والكتابُ ، جبرئيلْ[5]

إنَّ أهلَ القلبِ شَمْسُ الكائنات نورُها وهَّابُ هاتِيْكَ الحياة

---

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أصلدت الأرض : صلبت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين . والخميرُ : مدمن الخمر . والمراد به الصُّوفي .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهـي فـي نـورٍ لهـا قَـدْ أحـرقَتْكـا ذلـكَ السُّلطـانَ بَعْـدُ علمتكـا

نَحْـنُ بـالنَّـار لهـا أصحـابُ قَلْـب أو فما ماءٌ وطينٌ مِثْلَ شَوْب ![1]

أنْـتَ فـي عَصْـرٍ ولٰكِـنْ أيُّ عَصْـر غارقٌ في الجسم ، روحاً لَيْسَ يدري

قَحْـطُ رُوْحِ سِعْـرُ جسـمٍ أنْقصـا رَجُـلُ اللهِ لـذاتِ نَكَّصـا[2]

إنَّ هـذا مـا درىٰ معنـى الطَّلَـبْ وهـوَ بـالعَيْـنِ يَـرَىٰ يـا لَلْعَجَـبْ

ذوقُ ذاكَ البَحْـثِ لا تَتْـرُكْـهُ مـدَّهْ وَلْتُـوَاجِـهْ فـي الحيـاةِ ألـفَ عُقْـدَهْ

صُحْبـةَ النَّـذب اللبيـبِ إنْ عَـدَمْتَـا مـا لـديَّ عـن أبـي هـلَّا أخَـذْتَـا

اجْعَـلِ الـرُّومِـيْ رفيقـاً فـي الطَّـريـق يُنْعِـمُ اللهُ بمشبـوبِ الخُفُـوْق[3]

يَعْـرِفُ الـرُّومـي لُبَـابـاً مِـنْ قُشُـور في الطَّريق كانَ مَوْصُولَ المسير

فسَّـروهُ مـا درى المعنـى أحَـدْ إنَّ معنـاه غَـزَالٌ قَـدْ شَـرَدْ

رَقْـصَ جِسْـمٍ منـه كـانـوا يَفْهَمُـونـا رَقْصَـةَ الـرُّوح تنـاسـىٰ الغَـافِلـونـا

رقصـةُ الجِسْـمِ تَـدُورُ بـالتُّـراب رَقْصـةُ الـرُّوح لهـا نَجْـمُ السَّحَـاب

رَقْصـةُ الأرواحِ عِلْـمٌ وهـي حُكْـمْ وإلينـا الأرضُ والخضـرا تُضَـمْ[4]

---

(١) الشوب : القطعة من العجين . والمراد بها جسم الإنسان .

(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .

(٣) المشبوب : المشتعل .

(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدّثنا عن رقص الدراويش المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوُّف في قلوبهم . وجرت عادتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانه أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلانسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحى حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتقرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم . =

جـذبـةٌ لِلْفَـرْدِ منهـا كـالْكَلِيـمْ | كلُّ شَعْبٍ كانَ ذا المَلِكُ العَظِيْم[1]
إنَّ هـذا ليـس سهـلاً فـي التَّعَلُّـم | وَلِغَيْـر اللهِ فـي القلـب التَّضَـرُّم[2]
وبنـار الحـرص إنْ قلبـاً حـرقتـا | فبـروحٍ منـك قـطُّ مـا رَقَصْتَـا[3]
يُضْعِفُ الإيمـانَ فـي الإنسـانِ هَمْ | يـا بنـيَّ إنَّـه نِصْفُ الهَـرَمْ[4]
هَلْ عَلِمْتَ ؟ الحرصُ فقرٌ حاضِرُ | إنَّ مـولاي لـذاتِ قـاهِـرُ[5]
بـكَ يـا « جـاويدُ » لـي روحٌ تطيب | آهِ لـو وافـاكَ مِـنْ هَـذَا نَصِيبْ[6]

لَشَـرَحْـتُ دِيْـنَ خَيْـرِ الأنبيـاءِ
وأطَلْـتُ لـكَ فـي قَبْـرِي دعـائـي

* * *

= وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب وينتزعهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي ، كما يثير الطرب في النفوس والخوف عند التائبين ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن في ارتفاعٍ وانخفاض . والموجُ بَعْدَ هبوطه إلى البحر يعود . وما مَثَلُ البحر إلا مثل بني الإنسان ، لأنَّهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
ومن مستطرف ما يروى عن السُّلطان سليم العثماني ، أنَّه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته قونيه ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسطاً : إنَّ ما في تلك الأرض من تلال وأحجار وغبار يرقص رقصة المولوية .

(١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
(٢) التضرُّم : اشتعال النار .
(٣) حرق : بمعنى أحرق .
(٤) قال النبيُّ ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
(٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدٌ لمن قهر ذاته .
(٦) جاويد : اسم ابن إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص الروح . ووافاك : بمعنى أتاك .

ٱلدِّيْوَانُ ٱلثَّامِنُ

وَٱلآنَ ... مَاذَا نَصْنَعُ ؟ يَا أُمَمَ ٱلشَّرْقِ ..

پس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى ٱلعَرَبِيَّةِ
الأستاذ أحمد الغازي

صَاغَهُ بِٱلْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الشيخ صاوي شعلان المصري

أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيَّة ، صَاغَه على وزنِ مثنويِّ مولانا جلال الدِّين الرُّومي من بحر الرَّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأمواج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنَّا النظرَ في هذا الديوان تبيَّن لنا أنَّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلِّ بيتٍ فيه قطراتُ الشَّوق والحبِّ والاضطراب الرُّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدِّين الرُّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامَّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامَّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامةٍ وفي هذا الديوان بخاصةٍ ، موضوع نهضة الشَّرق ، يقول : إنَّ الشرق هو الذي هدى الغرب إلى التقدم والرُّقيِّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلِّفين عنَّا في كلِّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحين كانت أوربة غارقةً في لجَّةٍ من التعصُّب ، والجهل ، والحروب الدَّاخلية الدَّامية كنا - أهل الشرق - في أرقى منزلةٍ من منازل العلم ، والفنِّ ، والمدنيَّة ، والحضارة . وهذا هو الشرق الذي هذَّب الأمم الغربية بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبِّ وغيرها .

والموضوع الثاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « **إذا أمكن تطهير الفكر في أمَّةٍ استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو**

أمعنَّا النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنّه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير » .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولًا على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجلُّ ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنَّه يعني فراغ اليدِ من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوِّي في كيان الحقيقة كلِّها ، بأنَّ كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصطلحت الصُّوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عمَّا سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنَّ البعض أنَّ فقر الصُّوفيَّة هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : **إنَّ الفقر قد يعني ترك الدُّنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والزُّهد الغالي ، وإنَّما يعني تسخير الدنيا أولًا ، ثم العزَّة ، والعفَّة ، والاستغناء ، كما سخَّرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنَّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .**

وليس من شأن المسلم أنْ تستعبده مادةُ الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدراً ، وأعزُّ مكاناً ، وأنبلُ هدفاً لأنَّه له خلافةُ الأرض ، فالمؤمنُ الفقير ـ المؤمن الكامل ـ هو الذي يُزلزلُ بعزيمته هذه الكرة المسكونة ببرِّها وبحرها ، والفقر النَّبيلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدُّنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللُّغة الفارسيَّة ، فنقله منها الأستاذ أحمد غازي إلى العربيَّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميُّ المعروف الشيخ صاوي شعلان المصري شعراً بالعربيَّة ، وهو الآن بين أيديكم .

* * *

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبَّه لمرشده الرُّوحي مولانا جلال الدين الرُّومي ، مجدِّد التصوُّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمَّ يُلقي الضوء على المكانة العالية التي يحتلُّها الرُّوميُّ في نظر الشاعر .

ويركِّزُ في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومي ، يقول :

كُنْ مثل إبراهيم في الإيمان ... حتى تزيلَ معابدَ الأوثان

الشَّعبُ يبني عزَّه بكفاحه ... ليشيد مجداً ثابتَ الأركان

ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا ... يوماً تمردُهُ على الطُّغيان

ما فوقَ أرضِ الله شعبٌ ظافرٌ ... ببلوغِ آمالٍ ونيلِ أماني

إلَّا إذا عقل الجنون وإنَّما ... يحلو جنونُ الحبِّ للأوطان

المؤمنُ المقدامُ يمضي قاهراً ... بالعزِّ والإقدامِ دون توانِي

وإذا ارتضى للذلِّ أمسى كافراً ... باللهِ أو بكرامةِ الأوطان

من كانَ يدري فَرْقَ ما ينتابه ... في دَهْرِهِ مِنْ عزَّةٍ وَهَوان

وبأنَّ الاستعمارَ أسرعُ بالرَّدى ... للناسِ في الدُّنيا من الحَدَثان

وبأنَّ للأحرارِ بعد فنائهم ... عمراً على الأيام ليس بفاني

وهناكَ يَرْفَعُ سهمَهُ نحو العلا ... ويقيمُ رايته على كيوان

شُمُّ الجبالِ تذوب في خطواتها ... حتى تفوقَ الماءَ في الجريان

كم ثورةٍ للمَجْدِ طيُّ ثيابه ... كالنَّار تَقْذِفُ ثورة البركان

لا يتركُ الدُّنيا تعيشُ وشعبهُ ... فيها قتيلُ الذلِّ والحِرْمان

العِطْرُ مستترٌ ويسري ظاهراً ... كنْ أنت مِثْل العِطْرِ في البُستان

لا تخدعنَّك في الرُّبى ألوانها ... كنْ خالياً فيها من الألوانِ

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم ... لم يهتدوا إلَّا إلى الأبدان
فالدِّين إرضاءُ الدَّخيل وليس ... مرضاةَ الإلّه الواحدِ الدَّيَّان
فقلوبُهم وجيوبُهم وعقولُهم ... للأجنبيِّ تقرُّبٌ وتفانِ
لا تصحبنْ في شرْبِ كاسات المنى ... إلَّا وفياً صادقَ الوِجْدان
لا ترجُ في نُدَماء غدرٍ نشوةً ... ولو أنَّ فيهم قيصرَ الرُّومان
لا تُفش للأنعامِ أسرارَ الأسو ... دِ ولا حديثَ الصَّقْرِ للغِرْبان
مَنْ شابَ في نسجِ الحصيرِ فما له ... يوماً إلى نسجِ الحرير يَدَان
والذِّئبُ يأكلُ يوسفاً خيرٌ له ... من أن يُبَاع لتاجرِ العُبْدانِ
مرشدُ الأرواح مولانا جلال(1) ... شيخُنا الروميُّ علويُّ المِثال
مشرقُ الإيمانِ قدسيُّ الضَّمير ... وهو في قافلةِ العِشْقِ أمير
قد علا منزلةَ الشمس مَقَاما ... ضارباً في مسبح النَّجْم خِياما
قلبُه في مُحْكَمِ الذِّكرِ صفا ... بهدىٰ القرآنِ أضحى مُصْحفا
لو رأىٰ مرآتَه بين الملا ... جام (جمشيد) توارى خَجَلا
رَأيُه المرسلُ بالعِشْق نَدَاه ... أشْعَل الثورةَ في قلبي صداه
قالَ شيئاً سَمِعَتْه فطرتي ... وَتَجلَّى نغماً في فكرتي
أممُ الدُّنيا صَحَتْ بعد سبات ... واستبانت كُنْهَ أسرارِ الحياة
وأفاقَ الشَّرْق من نومٍ طويل ... يكسرُ الأغلال والقَيْدَ الثقيل
جَذْبَةٌ واتته مِنْ دَفْعِ القَدَر ... فأزاحَ العِبْءَ عنه وانتَصر
أممُ الغرب تبينتَ مداها ... ما اكتوى مِثْلُك حيٌّ بلظاها
كُنْ كإبراهيمَ سُكْراً وَهُياما ... لتصير النَّارُ برداً وسَلاما
اجْعَلِ الأصنامَ في الأرض هشيما ... لا تغادرْ هيكلاً منها قديما
مِنْ ضميرِ الشَّعب من إيمانه ... تنبتُ الثورة في وِجْدانه
هي نورٌ يجتليه المُصْلحونا ... قاصرُ العَقْل يسمِّيها جنونا

(1) قد سبقت ترجمته .

إنَّ قوماً للهوى يستسلمون   لم يَقُمْ فيهم جنونٌ ذو فنون
لن يقيموا نهضةً تمحو الهوان   ما لهم في ساحة المَجْدِ مكان
كلُّ مَنْ تحتَ الفضاءِ الأزرقِ   لمْ يُجَاهدْ فكأنْ لم يُخْلَقِ
ثقةُ المؤمنِ باللهِ عَتادْ   فتوكَّل واعتزمِ نَحْوَ المُراد
شيمةُ المؤمن عزمٌ وثقة   حيثما همَّ بأمر حقَّقه
بهما يَسْمُو ويمضي قاهرا   لا أرى اليائسَ إلَّا كافرا
نظرةُ المؤمنِ مصباحٌ منير   فهو بالخيرِ وبالشرِّ بَصير
عزمُه الوثَّابُ لا يخشى الصعابا   تاركاً ما عمَّر الظلمُ خرابا
حوَّلت ضربتُه صُمَّ الصَّفا   والجبالَ الشُّمَّ قاعاً صَفْصَفا
يدركُ الآمالَ بالفقر الغَيُور   وهو للأجيالِ بعثٌ ونُشور
ومضى عازفُ ناي العاشقين   يُرسلُ الإلهام والقوْلَ الرَّصين
حين أدْرَكْتَ المُنى في صحبتي   ثملاً من خمرها في حانتي
حال في نشوتك العزمُ الصَّميم   لم تَعُدْ تحفلُ بالوَهْم القديم
كُنْ من الرَّوض قريباً نائيا   كالشَّذا يسري خفياً باديا
بين ألوان الرَّوابي واعيا   ومن الألوان[1] طرّاً خاليا
كن مع الكل على هَذي الإلَه   وبدونِ الكلِّ لا ترجو سِواه
قوةُ الرُّوح هي السِّحرُ العُجاب   أهلُ هذا العصر عنها في احتجاب
فلديهم حبُّ غيرِ الله دين   ولغيرِ الله ذلُّوا صاغِرين
ذلكَ السرُّ وهذي المعرفة   فيهما حيرةُ أهلِ الفلسفة
مُنْذُ بدءِ الخلقِ في ماضي السنينا   لم يجاوِزْ فكرُهم ماءً وطينا
حُرِمَتْ أعينهم نورَ القلوب   ومعينُ العِشْقِ منهم في نُضُوب
لم يروا في الكون إلَّا مَنْظرا   أزرقاً أو أحمراً أو أصفرا
وإذا الأبصارُ لم تُدرك هُداها   من سراج القلب ضلَّت في ضحاها

(١) المذهب .

فاز حرٌّ جَعَلَ الحقَّ مصيره ... لم يبغ يوماً لمخلوقٍ ضميره
منْ وفى لله روحاً ودَمَا ... صانَ عَنْ قَيْدِ سِواه القَدَما
إنَّ سرَّ الأُسْدِ في حِضْنِ الأجم ... لا تعيه في مراعيها النَّعَم
ليس كلُّ الخلق أهلاً للعهود ... لا تَبُحْ بالسرِّ إلَّا للأسود
إنْ تعاطيتَ مع الصَّحْبِ المُداما ... أبْعِدِ السَّفَلَةَ عن حَفْلِ النَّدامى
هَبْهُ كسرى هَبْهُ أيضاً قَيْصرا ... لَنْ ترى فيه النَّديمَ الخَيِّرا
لو غدا يوسُفنا يوماً طعاما ... في فم الذِّئب وأفناه التهاما
فهو خيرٌ من خسيس يحتويه ... وَبِبَخْس المالِ يوماً يشتريه
أهلُ دنيانا تمادوا في غرور ... لم يبالوا بمقاييس الأمور
بَهَرَتْني نكتةٌ مِنْ شاعرِ ... بارعِ الفكرِ نقيِّ الخاطرِ
ذاتُ معنى نورُه مُؤْتَلِق ... كادتِ الرُّوحُ به تَحْتَرِق
إنَّه العاشقُ في أهل الجحود ... لم تَزِدْ أسماعُهم غَيْرَ الجمود
فَهْوَ يَحْكي مسلماً باتَ يُعاني ... في قرى الإفرنج ترديدَ الأذان
قلْ لأهل الحقِّ ما يشفي القلوب ... قُلْ عن الدِّين وأبناءِ الشُّعوب
اقبل الهمَّ ولا تأكلْ طعاما ... منْ يَدٍ تُطْعِمُك الهَمَّ دواما
إنْ يكنْ عيشُك مِنْ طولِ الكَدَرْ ... فيه مرُّ الجوعِ فالذُّلُّ أمرْ
الدواءُ المُرُّ للعقلِ الكبير ... فاتركِ الحلواءَ للطفلِ الغَرِيْر
خِرْقةُ الزَّاهد عبءٌ للفقير ... كُنْ عفيفَ القلب وانْعَمْ باليَسير
واسألِ الأنْسَام في الرَّوض النضير ... ما الذي تَحْمِلُه غَيْرَ العَبير
إنْ تكُنْ بحراً قوياً غامرا ... فاجعلِ الصَّحراءَ سيلاً هادِرا
أو تكن طَلَّاً فعش بَيْنَ الورود ... وابْعَثِ العِطْرَ سلاماً في الوُجود
أنتَ في الحربِ نشيدٌ من دماء ... أنتَ في السِّلْمِ رسولٌ للإخاء
إنَّ أهل الحقِّ أربابُ الوفاء ... ليس سِرُّ الحقِّ عنهم في خَفَاء
نذروا أنفسَهم في كلِّ حين ... ليعمَّ الخيرُ كلَّ العالمين
وتأمَّلْ قطرةَ الطلِّ النَّدي ... مِنْ دجى الليلِ إلى فجرِ الغَدِ

حَفِظَتْ في الكون ذاتِيَّتَها ثم حلَّت في الدُّجى عُقْدتها
وبنى عُنْصُرَها شوقُ الحياه واستقرَّتْ حيثُ أحياها الإلَه
ومَضَتْ تجتازُ في صَمْتِ الفضاء خلوةُ الأفلاكِ في جوٍّ السماء
جانبتْ أنْ تَجْعَل البَحْرَ الهدف لم تُرِدْ أنْ تتوارى في الصَّدَف
بل أقامتْ بين أحضانِ السَّحر لَمْحةٌ كانت حياةً للزَّهر
فَتَحَ الوردُ بها أجفانَه وسقى مِنْ عِطْرِه أغصانَه
هكذا المؤمنُ رمزُ التَّضحيات يتفانى في اقتناء الباقيات

* * *

مناجاة الشَّمْس

جرَتْ في حياةِ الشُّعراء سنةٌ أدبيَّة سلكها الكثيرون منهم في مخاطبة الشَّمس ، ولعلَّ أقرب مثال إلينا في الجديد قصيدة أحمد شوقي (قفي يا أخت يوشع خبرينا) فالشُّعراء خاطبوا الشمسَ ، وتحدَّثوا عنها ، وتفنَّنوا في ذلك ، وأبدعوا ، وها نحن نرى إقبال يُخاطبها قائلاً :

يا مبعثَ الإشراقِ والنُّور الذي عمَّ البريَّة منْ ضياءِ الباري
في كلِّ موجودٍ ضميرٌ مشرقٌ منْ ضوئكِ الفيَّاض كلَّ نَهَارِ
مِنْكِ الحرارةُ للحياةِ وبعثُها ونضالُها في موجها الموَّار
أوْدَعْتِ كلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهو ر على هدىً منْ حكمةِ الأقْدَار
كَيَدِ الكليمِ أرى جلالَكِ سابحاً في موكبٍ مُتَجدِّدِ الأسفارِ
يطوي المَسِيْرَ على جَدَاوِلَ فِضَّةٍ في زورقٍ من عَسْجدٍ ونُضَارِ
أرسلتِ بدرَ التَّمِّ بعدكِ في الدُّجى[1] يجلو محاسنَه على الأنظار
أهديتِ للياقوتِ وَمْضَ بريقهِ ولعلّ بينَ بواطنِ الأحْجَار

(١) الدُّجى : سواد الليل وظلمته .

وسكبتِ في قَلْبِ الشَّقيقِ حرارةً ... صَبَغَتْ ملابِسَه بلونِ النَّارِ
بعروقه تجري الدِّماء وقد غدا ... يختالُ بين عرائسِ النُّوَّارِ
والنَّرْجِسُ(١) الغَضُّ استفاقَ من الكرى ... وأزاحَ عن جَفْنيهِ ألفَ سِتَارِ
لينالَ من هذا الشُّعاع نصيبَه ... بين الغصونِ الخُضْرِ والأشْجارِ
مَرْحىً لقد وافىً قدومُكِ بالسَّنا ... وسما بطلعةِ وجهكِ استبصاري
حتى تجلَّى نخلُ سينا ماثلاً ... في كلِّ ما في الأرضِ من أشجار
أنت الصباح المرتجى لكنَّني ... ظلُّ المساء الغاربِ المُتواري
فهبي لِوِجْداني سراجاً مشرقاً ... يهدي خُطايَ إلى علا وفخار
وَلْيَسِرْ ضوءُكِ في ترابي شعلةً ... تصفو بها نفسي منَ الأكدار
وصلي حياتي واجعلي هذا السَّنَا ... مِنْ حولها ستراً من الأنوار
لأنيلَ فِكْرَ الشَّرق أوضاحَ الهُدى ... كيما يُبَدِّلَ لَيْلَهُ بنهار
وأثيرُ ناراً في الصُّدورِ جديدةً ... مشبوبةً بعزائمِ الأحْرَار
إني سَأُسْمِعُهم نشيدَ المجد من ... قيثارةٍ أوتارُها أشعاري
وأحيلُ خامَ الطَّبع وعياً صارخاً ... متحفِّزاً للسَّبْق في المِضْمار
وأصوغُ للأيَّام دوراً مقبلاً ... غَيْرَ الذي شَهِدَتْ من الأدوار
ليحرِّروا الأرواحَ والأفهامَ من ... لغوِ الفِرَنْجِ وزيفِ الاستعمار
لا يستقي نبضُ الحياةِ حرارةً ... إلَّا بذكرِ مُقَدِّرِ الأقدار
ومجالُ تحريرِ النُّفوسِ أمانةٌ ... موصولةٌ بنزاهةِ الأفكار
والشَّعْبُ حِيْنَ يَضِلُّ في آماله ... عَنْ قَصْدِه لم يَلْقَ غَيْرَ بَوَار(٢)
وتحُولُ فضَّتُه النقيةُ بهرجاً ... مَنْ ذا يسوِّي بهرجاً بِنُضَار
ويموتُ داخلَ صَدْرِه القلبُ السَّليم ... وينطوي في ذلَّةٍ وصَغَار

---

(١) النَّرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبَّه بها الأعين .

(٢) بَوَار ، أي : هلاك .

حتَّى ترى المُعْوَجَّ في نَظراتِه ... يبدو سليماً عاليَ المِقْدار
وإذا رأى في الكائناتِ صِرَاعها ... طَلَبَ الشَّواطىءَ خَشْيَةَ الإعصارِ
فإذا الحياةُ هي السَّلامةُ والسُّكو ... نُ وفوزه مِنْ حربها بِفِرار
في بَحْرِهِ موجُ الأماني راسبٌ ... ما فيهِ مِنْ لُجٍّ ولا تيَّار
الخطوةُ الأولى لِنَهْضَةِ أمَّةٍ ... تحريرُها بالعَزْمِ والإصْرار
لو أمكنَ التَّطهيرُ أمكنَ بعدَه ... أنْ يَسْهُلَ التَّعْميرُ للأفكار

***

حكمة الكليم ـ سياسةُ الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصَّة ، فوجَّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهُّم جلال النبوَّة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصَّادق ليشحذَ من عزيمته وينفخَ فيه روح التحرُّر ، ويوقظَ في فطرته معاني القوَّة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغيةٍ ، وجبروتِ جبارٍ ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتَّخذُ من صفات النَّبيِّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتذودَ عن حياضها ، وتدفع العدوَّ عن حماها :

عندما يَصْدَعُ النبيُّ بأمرِ الله جهراً في مَسْمَعِ الأكوان
يتحدَّى بوحيه كلَّ حُكْمٍ لأميرٍ في الأرض أو سُلطان
لا يرى قَصْرَه سِوى رَسْمَ ديرٍ من بقايا هياكلِ الأوثان
لا يَسِيغُ المَقَام في مَوْطنِ الذُّلِّ ولا يَرْتضي بِعَيْشِ الهَوان
تَتَذَكَّى بنورِ صحبته النَّفْسُ ويهدي الرَّشَادَ للحيران
يُحْدِثُ الضَّجَّةَ الرَّهيبة في الأيام حتى تَسِيْر طَوْعَ الأماني
مُعْلناً في الوجود لا ربَّ غَيْرَ الله يُخْشَىٰ ويُرْتَجى كلَّ آنِ
كَيْفَ يرضىٰ إذلالَ عَبْدٍ لِعَبْدٍ وامتهانَ الإنسانِ للإنسانِ

قطـرةٌ مـنْ نَـداه تُشْعِـلُ نـاراً فـي عـروقِ الكُـروم والأغْصَـان
ويُجَلِّـي فـي قبضـةٍ مـن تـراتٍ بَعْـثَ روحِ اليقيـن والإيمـان
حـارسُ الفطـرة التـي فَطَـرَ اللهُ عليهـا الأرواحَ فـي الأبـدان
لا يسـامـي جـلالُ حكمتـه العقـلَ ولا عبقـريـةَ الفَنَّـان
حكمـةٌ فـي غنـى عـن الحَشْـدِ والجَمْـعِ وزهـورِ العُـروش والتِّيجـان
مِـنْ جُمُـودِ الشِّتـاءِ يحيـي ربيعـاً بـاسـمَ الـرَّوْضِ نـاضِـرَ الأفنـان
وثُمـالُ الـرَّاحِ المُعَتَّـقُ أشهـى مِـنْ رَحِيْـقٍ مُصَفَّـقٍ فـي الـدِّنـان[1]
ابتهـالاتُ صُبْحِـهِ تـوقـظُ الكـونَ فيصحـو مـنْ ليلـه الـوَسْنـان[2]
ولـه نظـرةٌ مـن الحـقِّ فيهـا نبـأٌ يُعْلِـنُ انقـلاب الـزَّمـان
ولـديـه وثيقـةُ الأمـنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فـي مُحْكـمِ القُـرآن
وَحْيُـه يَعْمُـرُ الصُّـدورَ الخـوالـي بقلـوبِ جـديـدةِ الإيمـان
دَرْسُـهُ العَـزْمُ والـرِّضـا المحـضُ والتَّسليـمُ منـه فـي السِّـرِّ والإعـلان
كسـراجٍ يشـقُّ قلـبَ الـدَّيـاجِيْـرِ[3] بـاهـرَ الضَّـوْءِ سـاطـعَ البُـرْهَـان
قـدرةٌ حـارتِ النَّـواظِـرُ فيهـا أيُّ سـرٍّ بهـا خفـيّ المعـانـي
يَصْبُـغُ الـرُّوحَ فـي الجُسـوم بلـونٍ غَيْـرَ كـلِّ الـرُّسـومِ والألـوان
حَـوَّلَـتْ كيميـاؤه الصَّـدَفَ البـالـي عِقْـداً مـن الـدَّراري الحِسَـان
يتـولَّـى مـلءَ الفـراغ بحـزمٍ يَقْهَـرُ المستحيـلَ بـالإمكـان
وينـادي العَبْـدَ المُصَفَّـدَ[4] هيَّـا لا تحـاكُ القيـودُ لـلإنسـان
فـإلـى المَحْـوِ والبِلـى كـلُّ معبـودٍ قـديـمٍ مَـعَ الحُطـامِ الفـانـي
مَـنْ يُحـارِبْ وسيفُـه رَبِّـيَ الأعلـى يُـدمِّـرْ قـواعـدَ الأوثـان

---

(١) الدِّنان : وهي جِرَار الخمر .
(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .
(٣) الدَّياجير : واحدها الدَّيجور، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور.
(٤) المصفَّد ، أي : المشدود .

إنْ أردْتَ الفَقْـــرَ الغيـــور فــلا تَفْقِــدْ مــعَ العُـــدْمِ ثَـــرْوةَ الإيمـــانِ
فَمِـــنَ الحـــالِ لا مـــنَ الجَــاهِ والمَــالِ دوامُ الـــرِّضــا والاطْمِئْنَـــان
رأسُ مـــالِ الأحْـــرارِ صـــدْقٌ وإخـلاصٌ وَوَجْـدٌ وَحُـرْقـةٌ وتَفـانِ
لَيْـسَ فـي الحَلْـيِ والمَظـاهـرِ والثَّـوْبِ المـوشَّـىٰ والأصفـرِ الـرَّنَّـان
لا تحـاولْ دركَ المعـالـي بكـاووسَ وخسـرو فـي غـابـرِ الأزمـان
طُـفْ إذا شئـتَ حَـوْلَ ذاتِ : حـرَّاً لا تَطُـفْ بـالسَّـريـرِ والإيـوان
قَـدْ تباعَـدْتَ عـن مَقـامِـك حتَّـى صِـرْتَ فـي ذِلَّـةِ الأسيـر العَـانـي
لا تَسِـرْ واهـنَ الخُطـى كبغـاثِ الطيـر بيـن الطُّلـولِ والجُـدْران
كُـنْ نَظِيْـرَ الشَّـاهيـن فـي القِمَـمِ الشَّمَّـاءِ لا فـي مَسَـارِبِ الـوُدْيَـان
تتحـرَّى الطيـورُ عِنْـدَ بنـاء العُـشِّ أعلـى الفـروعِ فـي البُسْتـان
لَسْـتَ دونَ النُّسـور بـأسـاً فحـاولْ دارةَ النَّجْـم أو ذُرى كِيـوان
مِـنْ مِهـادِ الثَّـرى إلـى التِّسْعـةِ الأفـلاكِ فَـوْقَ الـزَّمـان فَـوْقَ المَكَـان
غَيِّـرِ العـالـمَ القـديـمَ وعَمِّـر فيـه دُنيـا جـديـدةَ البُنْيـان
والـذي يَنْشُـد الجِهـاد فنـاءً في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ
هـو سـرُّ الأقـدارِ وهـو قضـاءُ الحـقِّ فـي المُمْكنـاتِ والإمكـانِ
فَتمثَّـلْ نضـالَ أسـلافِـك الأمجـادِ نَحْـوَ العُلـى بغيـرِ تَـوَانـي
وتَـدَبَّـرْ كيـف استهـانـوا بِبَـذْلِ الـرُّوح والمـالِ فـي رضـا الـرَّحمـن
أظْهـرِ الجَـوْهَـرَ الكـريـمَ مِـنَ الأصـداف واجْعَلْـهُ بـاديـاً لِلْعِيَـان
وتَحَـرَّزْ مـنْ هيكـل المـاءِ والطِّيـن وَمِـنْ ظُلمـةِ الهـوى والهَـوان
واجعـلِ الفطـرةَ النقيَّـة نبـراسـاً لعينيـكَ بَيْـنَ قـاصٍ ودان
كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَيْـنَ الجُحـودِ والنِّسيـان
لَـم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَيْـرَ الإبعـادِ والحِـرْمـان
مبـدأ العِشْـقِ والصَّبـابـة قَهْـرٌ وخطـوبٌ مـوصـولـةُ الأشجـان(١)

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهـو مـنْ بعـدهـا دلالٌ وتيـهٌ بيـن طيـبِ المُنـى وَصَفْـوِ الأمـانـي
ويعـودُ المحـبُّ بـالقُـرْبِ محبـوبـاً وَيَنْسـى لـواعـجَ الهِجْـران[1]
الـوجـودُ الأسمـىٰ هـو المـؤمـنُ الحـرُّ الأبـيُّ الـوفـيُّ فـي كـلِّ آنِ
وبقـايـا الـوجـودِ فيمـا سِـوَاهُ مَظْهـرٌ حـائـلٌ وظـلٌّ فـانِ
حِيْـنَ يَـدْعُـو أنْ لا إلَـه سـوى الله القـديـرِ المهيمـنِ الـدَّيَّـان[2]
يُـذْعـنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُشْـرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ

***

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالًا قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا العنوان ، (حكمة الكليم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنّما يُريد بياناً لسياسة الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حرِّيته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قـدمـتُ حكمـةَ النَّبـيِّ لِلْعِيَـانِ والمكـرُ والخـداعُ حِكْمـةُ الطُّغـاةِ
تبقـي علـى الإنسـان جِسْـمَ الحيـوانِ وَتَسْلُـبُ الـروحَ كـرامـة الحيـاة

***

حِكْمتُهـا حـريـةٌ مـارقـةٌ[3] تَعِيشُ في الدُّنيا بها منْ غَيْرِ دينِ
والنَّفـس فـي أوهـامهـا شـاردةٌ لمْ تَعْرِفِ الشَّوْقَ إلى عينِ اليقين

***

(١) الهِجْرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
(٢) الدَّيَّان : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ .
(٣) مارقة : خارجة عن دينها .

وسائلُ التهذيبِ مِنْ هذا النظام سلاسلُ الأسرى وأغلالُ العبيد
كما يرى السَّيِّدُ ينقادُ الغُلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

* * *

وذلكَ البارعُ في مهنته يَصْطَنِعُ التَّجْديدَ في الدِّين القويم
قَدْ شطرَ الوَحْدَةَ في أمَّتِه فما له ندٌّ سوى عَصَا الكليم

* * *

متى يفيقُ القومُ من وَهْدَتِهِمْ وَهُمْ لحكم الغَيْرِ زَرْعٌ وَحَصَاد
قَدْ هدموا بناءَ ذاتيَّتِهِمْ وغيرُهم في أرْضِهِمْ سادَ وشَاد

* * *

كَمْ مِنْ غَرِيْرٍ اسْتَطالَ وادَّعى حَصَافَةَ الفِكْرِ وَدِقَّةَ النَّظَرْ
قَدْ خَبَرَ الوُجودَ والدُّنيا معاً وما لَدَيْهِ عَنْ وُجُودِهِ خَبَرْ

* * *

أزالَ نَقْشَ الحقِّ مِنْ خَاتَمِهِ وكلُّ خَيْرٍ عن ضَمِيْرِهِ اسْتَتَرْ
قَدْ وُلِدَ الرَّجَاءُ في عالمه لكنَّه في المَهْدِ وَلَّى وانْدَثَرْ[1]

* * *

ما تَصْنَعُ الأيَّامُ بالقَوْمِ الأُلى لَمْ يُرْزقوا حظّاً مِنَ العَزْمِ الغَيُور
قَدْ أصْبَحَتْ أرواحُهم رَهْنَ البلى[2] وما سِوى أجسامِهم لها قُبُور

* * *

ومزَّقَ الكبارُ أستارَ الحياء وقلَّد الشَّبَابُ صُنْعَ الغَانِيَات[3]

---

(١) انْدَثَرَ : دثر وامَّحَى وفني .
(٢) البِلى : الفناء ، ومنه بلي الميت أفنته الأرض .
(٣) الغانياتُ : النِّساء الغنيَّات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عن الزينة .

كـأنَّهـم بيـنَ عـوامـلِ الفَنـاء   يـأتـونَ مَـوْتـى مِـنْ بُطـونِ الأمَّهـات

* * *

وهـذه الحسنـاءُ تَقْضـي يَـوْمَهـا   فـي منظـرٍ عـارٍ وصبْـغٍ مُسْتَعـار
سـاعِـدُهـا الفِضّـيُّ يُبْـدي جِسْمَهـا   بمنظـرِ الأسمَـاك فـي لُـجِّ البِحـار[1]

* * *

جمـودُ هـذا الشَّعـبِ عَـنْ كفـاحـه   يحكـي رمـاداً ليـس تَحْتَـه شَـرَر
مسـاؤه رانَ علـى صبـاحِـه   بظلمـةٍ فـي ليلهـا زاغَ البَصَـر[2]

* * *

كـلٌّ يعيـش فـي إطـار نَفْسِـه   والعيشُ والمُتْعَـةُ فـي الـدُّنيـا منـاه
يَخْشَـى البِلَـى قَبْـلَ حُلُـولِ رَمْسِـهِ[3]   فـاعْجَـبْ لِمَيْـتٍ لَـمْ يَـزَلْ قَيْـدَ الحيـاه

* * *

وذو الغِنى في الشُّحِّ يحكي جَلْمَدا   ومـالُـه فـي اللَّهـو يُغْـرِقُ السَّحـاب
حيـاتُـه ضـاعـت علـى الغـيِّ سُـدَىً   تَشْغَلُـه قشـورُهـا عَـنِ اللُّبَـاب

* * *

يَبِيْـعُ دِيْنَـه لِـدُنيـا غيـره   وفـي رِضَـا غـاصِبِـه يَسْتَشْهِـد
وَيَـوْمُـه الحـاضـرُ كـلُّ عُمْـرِه   فَلَيْـسَ فـي تـاريـخِ دُنيـاه غَـدُ

* * *

وكَـمْ تـرى فـي القَـوْمِ حَمَّـالَ كُتُـب   ثقيلـةٍ يعيـا بِحَمْلِهـا جَمَـلْ

---

(١) لُجُّ البِحارِ ، أي : عُرْضُها .

(٢) زاغَ البَصَرُ ، أي : مَالَ عن مستوى النظر حيرةً وشُخوصاً ، وفي التنزيل ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ .

(٣) الرَّمس : هو التُّراب الذي يُحثى على القبر .

يـدورُ فـي النَّـاس كحمَّـالِ الحَطَـبْ ... ويُـرْسِـلُ الأقـوالَ مِـنْ غَيْـرِ عَمَـلْ

* * *

ولاؤه لِلْغَيْـــــرِ كــــلُّ هَمِّـــــهِ ... حتـى بنـى الـدَّيْـرَ بـأحجـارِ الحَـرَم
مــاتَ ولكـــنْ مــا دَرَىٰ بِمَـــوْتِـــهِ ... قَــدْ عــاشَ وَهْمـاً ثُـمَّ واراهُ العَـدَم

* * *

كلمةُ التَّوحيد
لا إله إلَّا الله

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كلِّ عبودية لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلا لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التَّوحيد التي تُجدِّد الصُّورة الإنسانية في القالب التُّرابيِّ هيكلاً من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

فـي مقـام التَّـوحيـد يَشْـدُو خيـالـي ... بصـدى الحـقِّ مِـنْ رِجـالِ الحَـال
إنَّمــا تُــدْرِكُ القلــوبُ هــداهــا ... بِصَفـــاءِ الأحـــوالِ لا الأقْـــوَال

* * *

حـرف (لا) مُظْهـرٌ لسـرِّ الجـلال ... وهـــو للجَـــوْر منـــذرٌ بـــالـــزَّوال
بَعْـدَ نفـي الظَّـلامِ والظُّلـم يبـدو ... عنـد (إلَّا) إشـراقُ صُبْـحِ الجَمَـال

* * *

لا وإلَّا فَتْـــحٌ لبـــابِ الحَيَـــاةِ ... واحتســابُ الــوُجــودِ والكــائنــاتِ

بِهِمـا تَقْهَـرُ المهـانـةَ والضَّيْـمَ   وتمضـي الأمـورُ فـي الحـادثـات

* * *

حِيْـنَ يَقْـوى مَـعَ الـرَّجـاء اليقيـنُ   فجـوابُ الأقـدارِ كُـنْ فَيَكُـوْنُ

يَـدْفَـعُ النَّفـيُ للتحـرُّك والجِـدِّ   وَعِنْـدَ الإثبـاتِ يـأتـي السُّكُـوْنُ

* * *

كـلُّ شَعْـبٍ يَـرُوْمُ عِـزَّ حمـاه   فبنـور التَّـوحيـد لا بسـواه

ليـس يحمـي بـلادَه غَيْـرُ حـرٍّ   سيفُـه (لا إلَـه إلا اللهُ)

* * *

حـرفُ (لا) آيـةٌ لبَـدْءِ المسيـر   فـي طـريـقِ الجهـاد نَحْـوَ المَصِيْـر

إنَّهـا أولُ المَنَـازلِ طـرّاً   لـرجـالِ الله العلـيِّ القَـديـر

* * *

كـلُّ شعـبٍ يمضـي بِخَطْـو سـديـدِ   لِلْعُلـى فـي حَـرَارةِ التَّـوْحيـد

يَبْتَنـي مِـنْ تُـرابـه صـرحَ دُنيـاهُ   ويحيـا فيهـا بِخَلْـقٍ جَـدِيْـدِ

* * *

قـولُ (لا) ثـورةٌ أمـام الطُّغـاة   هـو عِنْـدَ الأحـرارِ معنـى الحيـاة

ثـورةٌ مـنْ نِضَـالهـا يُصْنـعُ المَجْـدُ   ويبـدو تَجَـدُّدُ الكـائنـات

* * *

لَيْـسَ فـي ذلـكَ الجنـونِ العـريـقِ   كـلُّ ثـوبٍ يفـوزُ بـالتَّمْـزيـق

لا أرى في الغُثَاء[1] والقشِّ[2] يوماً   حَطَبـاً صَـالحـاً لهـذا الحَـرِيْـقِ

* * *

---

(١) الغُثاء : هو ما يحمل السَّيلُ من رغوةٍ ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض .

(٢) القَشُّ : هو ما يتخلَّف من القمح والرز ونحوهما بعد استخراج حبِّه .

لـو يَمَـسُّ التَّـوحيـدُ فِكْـراً نقيَّـا   وضميـــراً حيَّـاً وقَلبـــاً أبيَّـــا
لأحـالَ الخُمـولَ والضَّعْـفَ إيمـانـاً   وعــزمـاً يغــزو نُجُـومَ الثُّـريَّـا[1]

* * *

حـرف (لا) صَيْحَـةٌ تثيـرُ العبيـدَ   ليـزولـوا مـا لَـمْ يُـزيلـوا القُيـودا
ويقيمـوا فـي الـدَّهـر عصـراً مجيـدا   لا تَـــرى فيـــهِ سيِّـــداً ومَسُـــودا

* * *

لو سَرتْ شعلةُ الهدى في الصُّدور   وتمشَّـــى وميضُهـــا فـــي الضميـــر
لأقـــامَ الأحـــرارُ لِلْهَـــوْلِ يـــومـــاً   يتحـــدَّى أهـــوالَ يـــومِ النُّشـــور

* * *

صوتُ (لَا) مِنْ دَويِّ صوتِ الرُّعود   ليـس شكـوى نـايٍ ولا لحـنَ عُـوْدِ
لَوْ يَضيقُ الفضاءُ يوماً على الحرِّ   تخطَّـــى بـــه نِطـــاقَ الـــوُجـــود

* * *

يـا لهـا مـنْ ذِكـرى لأمجـادِ العَـرَبْ   آيـــةٌ كُبْـــرَى وتـــاريـــخٌ عَجَـــبْ
حـرَّروا أقـدارَهـم بـالعَـزَمـاتِ   في جميع الكَوْنِ منْ كلِّ الجهاتِ
فـازْدَهـىٰ مـنْ نـورهـم كـلُّ مكـانِ   وتغنَّـــى بـــاسمِهـــم كـــلُّ زمـــانِ
لـمْ تَـدُمْ عُـزَّىٰ[2] ولـم تَبْـقَ مناةُ[3]   هَـوَتِ الأصنـامُ تَحْـتَ الضَّـربـاتِ
حِيْـنَ نـادى المـؤمـنون (اللهُ أكبـر)   زالَ كِسْـرى وانْطَـوَتْ أعـلامُ قَيْصَـر
أيُّ سيـــلٍ هـــادرٍ عـــمَّ الصَّحـــارىٰ   أيُّ طـوفـانٍ جـرى يغـزو البحـارَ

---

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .
(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمُرةَ .
(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

هـؤلاءِ العَـرَبُ الصِّيـدُ الأبـاه — وحَّـدوا الخَلْـقَ بتـوحيـدِ الإلّـه
شعلـةٌ مِـنْ نـورهـا الحـقُّ أضـاء — مـنْ تحـدَّى نـارَهـا أضحـى هَبَـاء
قـد أبـادوا كـلَّ شيطـانٍ مـريـد — وأزالــوا كــلَّ جبــارٍ عنيــد
وسَمَـوْا فـوقَ الـدَّراري منـزلا — كـلُّ هـذا كـانَ مـنْ أنـوارِ (لا)
بينمـا العـالـمُ كـالعَظْـمِ الـرَّميـم — فـي سهـوبِ الأرضِ أو دَيْـرٍ قَـدِيـم
أنشـؤوا دنيـاه فـي خلـقٍ جَـدِيْـدْ — وأقـامـوهـا علـى النَّهْـج الـرَّشيـد
أيقظــوا الــدُّنيــا بتكبيــر الأذان — فجـرى الحـقُّ علـى كـلِّ لِسـان
كـلُّ خيـرٍ يُـرتجـى مـنْ غَـرْسِهـم — كـلُّ نـورٍ يُجْتَلـى مـنْ شَمْسِهـم
كـلُّ روضٍ بـالمعـالـي مُخْصِـبُ — فهـوَ مـنْ شـاطـىء نَهْـرِ العَـرَب
قـد أزالَ العُـرْبُ مـن لـوحِ القُلـوب — نَقْشَ غيـر (الله) ، عـلَّامِ الغُيـوب
فـأقـامـوا فـي شَمَـالٍ وجنـوب — ثـورةَ الإيمـانِ فـي كـلِّ الشُّعـوب
فتـرى فـي أُمـم الغَـرْب العبيـد — حطَّمـوا القَيْـدَ بعـزمٍ مـنْ حَـدِيْـد
أعلنُـوا الحـربَ علـى سـاداتهـمْ — واستـردُّوا أمْـنَ حـرِّيَّـاتِهِـمْ

***

صـارَ شعـبُ الـرُّوس نـاراً ودمـا — بـاسـم (لا) حتـى أثـارُوا الأمَمـا
فـاستهـانُـوا بتقـاليـدِ الـزَّمـنْ — وأطـاحُـوا بمعـاييـر السُّنَـنْ
وَقَـفَ الـرَّكْـبُ بهـم فـي بـابِ (لا) — لـم يـرومـوا نَحْـوَ (إلَّا) منـزلا
ستـراهُـمْ كجيـوشٍ زاحفـه — بعـد حيـنٍ يَقْهـرُون العـاصفـه
وتـرى لِلْقَـوْمِ أمـراً عَجَبـا — نحـو (إلَّا) يَـدْفَعُـون المَـوْكبـا
لا و(إلَّا) بهمـا العَـدْلُ انتظـمْ — كـلُّ نفـيٍ دُوْنَ إثبـاتٍ عَـدَمْ
إنَّ لِلْفِطْـرَةِ فـي كـلِّ ضَمِيْـر — هـاتفـاً يَـدْعُـو لِتَـوْحيـدِ القَـدِيْـر
لم يبنْ في حرف (لا) صدقُ الخَليل — دونَ (إلَّا) فهـيَ لِلصِّـدق دَليـل
يـا مقيمـاً فـي زوايـا الحُجُـرات — يَحْشُـدُ الألفـاظَ حَشْـدَ المَكْتَبـات
إنْ تكـنْ فـي مثـل نيـران الخليـل — أَسْمِـعِ النَّمـرُودَ تَـوْحِيْـدَ الجليـل

والـــذي تبصـــرُه حـــولَ الفَضـــاء لا يســـاوي قَـــدْرُه وزنَ الهَبَـــاء[1]
كـــلُّ حـــرٌّ فـــي يـــديـــه سيـــفُ (لا) ثـــمَّ لا يَقْبَـــلُ عَنْـــهُ حِـــوَلا
فهـــو للعليـــاءِ دومـــاً فـــي صُعُـــود أمـــرُه النَّـــافـــذُ فـــي كـــلِّ الـــوجـــود
أيهـــا الشـــادي بقـــرآنٍ كـــريـــم وهـــو فـــي عُـــزْلَتِـــهِ نـــاءٍ مُقيـــم
قـــمْ وأسْمِعْـــه لكـــلِّ العـــالميـــن قُـــمْ وأبْلِغْـــه البَـــرايـــا أجمعيـــن

* * *

فَقْرِ الصَّالِحِين

خصَّ إقبال موضوع فَقْر الصَّالحين بهذه الأبيات على أسلوبٍ خاص من التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

يـــا عبيـــدَ المـــاءِ والطِّيـــن اسْمَعُـــوا مـــا هـــو الفَقْـــرُ الغنـــيُّ الأرْفَـــعُ
هـــو عِـــرْفـــانُ طـــريـــق العـــارفيـــن وارتـــواءُ القَلْـــبِ مـــنْ عَيْـــنِ اليَقيـــن
ذلـــكَ الفقـــرُ عـــزيـــزٌ فـــي غِنَـــاه هـــامـــةُ الجَـــوْزاء مـــنْ أدنـــى خُطـــاه
يُحْكِـــمُ الإبـــداعَ فـــي صنـــع الحيـــاه ويـــرى التَّـــوحيـــدَ نبـــراسَ هُـــداه
يَـــرْعَـــشُ الكـــونُ إذا دوّىٰ صَـــدَاه لَيْـــسَ غَيْـــرَ اللهِ فـــي الكَـــوْنِ إلَـــه
خَيْبـــرُ حـــرَّرهـــا ذاك الفقيـــر لـــمْ يكـــنْ ثَـــمَّ سِـــوَى خُبْـــزَ الشَّعيـــر
خـــاشـــعٌ للهِ ذيّـــاكَ القـــديـــر وإليـــهِ خـــاشعـــاً يَسْعَـــى الأميـــر
حـــالُـــه ذَوْقٌ وَشَـــوْقٌ وَرِضَـــا ثُـــمَّ تسليـــمٌ لمـــا اللهُ قَضَـــىٰ
يـــا لَـــهُ كَنْـــزاً بـــه العَيْـــشُ صفـــا فهـــو ميـــراثُ النَّبـــيِّ المصطفـــى
ليلـــه المُظْلِـــم لِلْمَجْـــدِ سِـــرَاجْ يَصْنَـــعُ الجَـــوْهَـــرَ مـــن أدْنـــى زُجـــاج
يَقْهَـــرُ المـــؤمـــنُ نـــامـــوسَ[2] الفَلَـــكْ فهـــو إنســـانٌ وفـــي النُّـــور مَلَـــكْ

---

(١) الهَبَاءُ : التُّرابُ الذي تُطيره الرِّيحُ ويلزق بالأشياء .
(٢) نَامُوس : القانون أو الشريعة .

فَلَقَدْ تَنْقُلُ دُنْيَاكَ إلَى ... حالةٍ أسْمَى وشأنٍ أفْضَلا
في هُدى القرآن والذِّكر الحكيم ... دائمَ الإسعادِ مَوْصُولَ النَّعيم
ذلكَ المِسْكينُ في رُقْعَتِه ... يَسَعُ العالَمَ في مُهْجَتِه[1]
صامتٌ ليس يُطيل الكَلِمَا ... وهو بالصَّمْت يربِّي أُمَما
ولهُ منْ طاقةِ الرُّوح جِنَان ... يَمْنَحُ الخَامِل ذَوْقَ الطَّيَران
حوَّل العصفورَ نَسْراً في الفضاء ... فبدا للأرض تفسيرُ السَّماء
بنداءِ الحقِّ يُحيي مُدُنا ... وَبِصِدْقِ العَزْمِ يَبْني وَطَنا
مسلمٌ دولتُه فوقَ الحَصِير ... كانَ يخشى بأسَهُ ألفُ سَرير
ليس يَرْضى العَيْشَ إلَّا في مَقَام ... يستوي الشَّاهين فيه والحَمَام
لا يبالي منْ له هذا السُّلوك ... أنْ يقولَ الحقَّ في وَجْه المُلوك
يتلاشى الجَمْرُ في نِيْرانه ... ويخافُ البَحْرُ منْ طُوفانه
صوتُه في الشَّعْبِ يذكي لَهَبا ... وتخافُ النَّارُ منه الحَطَبا
لا تَرى الأمَّةَ تَخْشَى منْ مُغِيْر ... وَلَدَيْها مِثْلُ ذيَّاك الفقير
نحنُ باستغنائه نلقى الغِنَىٰ ... وعلى أشواقِه نَرْجُو المُنى
فامْتَحنْ وَجْهَكَ في مِرْآته ... وانْشُدِ الحِكْمَةَ منْ آياته
تَكْتَسبْ منه مَزايا الصَّادقين ... وتَفُزْ منه بسلطانٍ مُبين
تَتَجلَّى حكمةُ الدِّين جمالا ... حين يُبْدي الفَقْرُ عِزّاً ودلالا
قوةُ الدِّين وتَشْيِيدُ عُلاه ... في تسامي الفَقْرِ عن ذُلِّ الحياه
كُلُّ منْ آمنَ بالله الأحد ... لا يُذِلُّ النَّفْس يوماً لأحد
إنْ يكن في صُورة النَّمل خَفَاء ... ليسَ يَرْجو منْ سُليمانَ عَطاء
قال خَيْرُ الخلقِ تاجُ المُرْسلين ... كلُّ أرضٍ مسجدٌ للمؤمنين
كيف يعلو منبراً لِلْمُسلمين ... فَوْقَ أرضٍ في يد المُسْتَعمرين
يا لها كارثةٌ في العالَمِين ... مسجدُ الهادي بأيدي الغاصبين

---

(١) المُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَرِّرِ الأرضِ معاً والمَسْجِدا ... لا يكنْ غَيْرُك فيها سَيِّدا

أيُّها النَّاصِحُ ليلاً ونهارا ... داعياً أنْ نتركَ الدُّنيا احتقارا

إنَّ معنى تَرْكِها تسخيرُها ... في سبيل الخَيْرِ لا تَدْمِيرُها

والذي يَعْلُو على صَهْوَتِها ... يأمَنُ المِحْنةَ مِنْ عَثْرَتِها

فاتَّخِذْها مِنْ مطايا الآخِرة ... تنجُ مِنْ تِلكَ العجوزِ السَّاحِره

هي صَيْدُ المؤمنِ الحرِّ الجَسُور ... قبلَ أنْ يصطَادَه فيها الغُرور

كلُّ زُهْدٍ لم يكنْ مِنْ واجدِ ... فهوَ سَلوىٰ لِعَديمٍ فاقِدِ

أنا مِنْ مُشْكلتي طالَ اكتئابي ... حلُّها أعيا على الجُهْدِ صوابي

أيُّها الشَّاهينُ[1] ما هذا الجُمود ... أينَ مِنْكَ البأسُ أوْ أينَ الصُّعود

يائسٌ أمْ أنت مَقْصُوصُ الجَنَاح[2] ... أمْ خَشِيْتَ الوَثْبَ في هَوْجِ الرِّياح

ما شكا مِخلبك النَّسْرُ ولا ... فرَّ مِنْ عَزْمِكَ طَيْرٌ في الفلا

الجبالُ الشُّمُّ والآفاقُ لَكْ ... أيُّها الهاربُ مِنْ أوجِ الفَلَك

طِرْ إلى النَّجْمِ وَحَلِّقْ منْ جَدِيد ... في الفَضَاء اللازورديِّ البَعِيْد

فقرُنا تُمْليه آياتُ الكِتاب ... لَيْس في رَقْصٍ وسُكْرٍ وَرَبَابْ

فقرُنا معناهُ تَسْخيرُ الجِهات ... واحتسابٌ لجميعِ الكائِنات،

يَرْفَعُ المؤمنَ فَوْقَ الشُّبهات ... مَظْهَراً أعلى لِقُدسيِّ الصِّفات

فقرُ أهلِ الكُفْرِ هَدْمٌ لِلْفِطَرْ ... ومجافاةٌ لِعُمران البَشَرْ

عَيْشُه بين المرامي والكُهوف ... لا ترى مَوْضِعَهُ بَيْنَ الصُّفوف

لمْ يَكُنْ في الدَّهر منذُ المَوْلِدِ ... غَيْرَ صِفْرٍ في يسارِ العَدَدِ

ليس للمؤمن بالفَقْرِ اعتزالْ ... هو في البرِّ وفي البحر نِضالْ

بينما الأول في صَمْتِ الجُمود ... سارَ هذا نحو تعميرِ الوُجود

ذاك يطوي العُمْرَ في تركِ البَدَن ... طالباً للرُّشْدِ أو تَرْكِ الوطن

---

(١) الشَّاهِيْن : طائر من جوارح الطَّير وسباعها ، من جنس الصقر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وترى المُؤمنَ في أمَّته   يَنْشُد الحقَّ بذاتِيَّتِه
نحو إدراك المعالي سَاعيا   وسراجاً في الليالي هَادِيا
فقرُنا الحرُّ إذا ناجى القَدَرْ   يُزهبُ الشَّمْسَ ويَختَلُّ القمَرْ
فقرُنا العاري تولاه الزَّوال   قد نأى المُسْلِمُ عن هذا الجَلال
إنَّه إيمانُ بدرٍ وَحُنَيْن   إنَّه زلزالُ تكبيرِ الحُسَيْن
أسفاً لمْ يَبْقَ عندي سَيْفُ (لا)   وأرى غِمْدَكَ منه قَدْ خلا
أسَفاً ، إنِّي أرى دُنيا الفِتَنْ   زَلْزَلَتْ إيمانَه فيها المِحَنْ
يا شبابَ الحقِّ ، يا ذُخْرَ الشُّعوب   حرِّروا مِمَّا سوى اللهِ القُلوبْ
إنَّ دنيا اليومِ أبلاها القِدَمْ   فاخْلُقوا دُنيا سِواها في الأمم
أينَ مِنكُم يا ذوي المَاضي الكريم   غيرةُ الأحرارِ للدِّين القَويم
طالَ هذا النَّوْمُ عنْ صونِ حَمَاهْ   ما أرى المَوْتَ سوى هذي الحَيَاهْ
يدأبُ الحرُّ غُدُوّاً وعَشِيَّا   ثُمَّ يبني ذاتَه صَرْحاً عَلِيَّا
وَجِهادُ المُصطفى برهانُه   وسجايا المُصطفى ميزانُه
يا لقومٍ ، أنجبوا كلَّ أمير   فمتى يُولَدُ في القومِ فَقِيْر
لا تَسَلْ عنْ قصَّةِ القَوْمِ بيانا   أسكتَ الدَّمْعُ عن الوَصْفِ اللِّسانا
أَلَمٌ أغمدَ في صَدْري سِهَامَه   هوَ في قلبي كأهوالِ القِيَامَه
هَوْلُ هذا الحَشْرِ أعيا الواصفينا   فليقدَم في الصَّدْرِ مَطْوِيّاً دَفينا
قوةُ الدِّين في النَّصر القَريبْ   فكأنَّ القَوْمَ في شكٍّ مُريب
أينَ مَسْعَاهُمْ وَهُمْ في العَاجلهْ   قَطَعُوا عَمْداً طريقَ القَافِلهْ
ليس للشَّيطانِ فينا مأربُ   لا ولا لِلِّصِّ منَّا مَطْلَبُ
فتراثُ الدِّين قد طار شُعاعا   وتراثُ المَالِ قدْ ولَّى ضَيَاعَا
كمْ تغنَّى بمَزايا بَايَزيد[1]   ذو رياءٍ هُوَ لِلْوَرْدِ مُرِيْد
فيرى في دولةِ الأغيارِ رَحْمه   وكأنَّ الذُّلَّ في دُنياه نِعْمَه

(١) لا أدري مَن يريدُ الشاعرُ به .

ويـنـادي أنَّ حُكْمَ الدُّخلاء ... فيه للدِّين ازدهارٌ وارْتِقاء
أيُّها المحرومُ مِنْ وِجْدانِه ... وَمِنَ الشَّوْقِ وَمِنْ أشْجَانِه
أوَ تَدْري أنَّنا مِنْ عَصْرِنا ... غرباءُ فيهِ عَنْ أنفُسنا
كلُّ حيٍّ معرضٌ عن ذاته ... فَقَدَ الجَوْهَرَ مِنْ مِرآتِه
عِشْ ولو يوماً عزيزَ المَطْلَبِ ... أجنبياً عنْ طريقِ الأجْنَبي
مَنْزِلُ الشَّاهينِ في أوجِ السَّحاب ... ما لَهُ يَسْكُنْ في وَكْرِ الغُرَاب
لم يَزَلْ في الرَّوضِ ظلٌّ وَثَمَر ... فالتَمِسْ عُشَّك في أعلى الشَّجَر
كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء ... واخْتَسبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَضاء
إنَّ في رُوحك سيلاً كالعُباب ... يَنْسفُ الشُّمَّ ويهوي بالهِضاب[1]
اندفاعُ السَّيْلِ إثباتُ البَقاء ... وسكونُ اللَّيْلِ معناهُ الفَنَاء
أنا لمْ أسلُكْ إلى الفِقْهِ سبيلا ... أتحرَّى الحُكْمَ فيه والدَّليلا
لم أكنْ في الفَقْرِ ذا فهمٍ دَقِيْق ... في سلوكٍ بين رُوّادِ الطَّريق
فكرةٌ جاشَ بها القلبُ اضْطرابا ... ثمَّ لمْ أمْلِكْ عن القَوْلِ احْتِجَابا
كُنْتُ في الدِّين حَدِيْدَ البَصَرِ ... رَغْمَ ما بي منْ قصورِ النَّظر
وانجلت واحدةٌ بَيْنَ مئات ... بَعْدَ لأيٍ من ألوفِ المُشكِلات
فاغْتَنِمْ منْ فاقتي حظّاً يسيرا ... فَعَسَى ألا ترى مِثْلي فَقِيرا
أيها الشَّادي بقرآنٍ كريم ... وهو في ركنٍ من البيتِ مُقِيْم
قُمْ وأبْلِغْ نورَه للعالمين ... قُمْ وأسمعه البَرايا أجمعين
إنْ نَكُنْ في مِثْلِ نِيرانِ الخليل ... أسْمَعَ النَّمرودَ تَوْحِيْدَ الجَليل
مَنْ لهُ منْ ثروة الهادي نَصيب ... فَهْوَ منْ جبريلَ في الدُّنيا قَريب
يا غريباً عَنْ مقامِ المُصْطفى ... عُدْ إلى الحقِّ تَجِدْ نُوْرَ الصَّفا

***

(١) الهضَابُ ، جمع هَضْبة : جبل منبسط ممتدٌ على وجه الأرض .

الرجلُ الحرُّ

قدَّم إقبالُ في أبياته السَّابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلّا أنَّه شاء أن يخصَّ المسلمَ الحرَّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرَّجلِ الحرِّ من مقام ، ولذا نجد إقبالًا يكرِّر في هذه الأبيات بعضَ المعاني كصاحبِ رسالةٍ نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرِّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مسرى النَّجْمِ للحرِّ هَدَفْ ... وِرْدَهُ في كلِّ حينٍ لا تَخَفْ
آمِنٌ في سِلْمِه في حَرْبِه ... رأسُه في الكفِّ لا في جَيبه
عَرَفَ اللهَ فَلَمَ يَرْهَبْ سِواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ منْ خافَ الإلَه
لا يرى قطُّ مَعَ البُؤْسِ المرير ... عَبْدَ سلطانٍ ولا ظِلَّ أمِير
جمَلٌ في البِيْدِ موصولَ الصِّيام ... يَحْمِلُ الأثقالَ والشَّوْكَ طَعام
هُوَ نَبْضٌ في عُروقِ الأمَلِ ... وهو سَعْيٌ في طريق العَمَلِ
منْ علا تكبيرُه مِنْ غير تَاج ... يُلْزمُ التيجان تقديمَ الخَراج
قَدْ ذَكَتْ نيرانُنا مِنْ جَمْرِه ... وَجَرَتْ أنهارُنا مِنْ خَمْرِه
جنَّةُ الوَرْدِ شذاً منْ سِحْرِهِ ... شعلةُ المَجْدِ سناً منْ فكره
وترى في قصرِهِ ربَّ السَّرير ... راعشاً منْ سَهْمِ عُرْيانٍ فَقِيْر
شأنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ ... وهو في الدِّين شُهودٌ ونَظَرْ
نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهو في الدَّار وفي طِيْبِ المَجَاني
أصْبَحَ الدَّيرُ لدينا مَقْصدا ... نحنُ لِلْغَيْر نبيعُ المَسْجِدا
وهو يُسْقَى منْ يمينِ المُصْطفى ... كوثراً عَذْباً به الوردُ صَفا
في ضميرِ الحرِّ تكبيرُ الإلَه ... في جبينِ الحرِّ تقديرُ الأُمَم
نحنُ للإفرنج أسْلَمْنا القِيادا ... واتخذناهُم لدى الجُلّى عَتَادا
وابتغينا عندهم عِزَّتنا ... وجعلنا وُدَّهم قِبْلتنا
وشعارُ الحرِّ عزمٌ وإباء ... رزقُه مِنْ يدِ جبَّار السَّماء
فلغير الله ما مَدَّ اليمين ... لغير الله لم يَحْنِ الجَبين

متعـةُ الـدُّنيـا لنـا كـلُّ المَـرام ثـمَّ يـأسٌ ثُـمَّ قَبْـرٌ وظـلام
هـو فـي الحـقِّ جهـادٌ وثبـات مـوتُـه إحـدى مقـامـاتِ الحَيـاة
إنَّنـا نبنـي قصـوراً فـي الخيـال ونـرى المُمْكـنَ فـي حُكْـمِ المُحـال
وهـو بـالأعمـال فـي كـلِّ مجـال لا يُضيعُ العمـرَ فـي زَيْـفِ الخَيـال
لـو رمـى شُـمَّ الجبـالِ العـاتيـه حـوَّل الصَّخْـرَ بحـاراً جـاريـه
اجتنـبْ صُحْبَتَنـا واسْعَـدْ بـه إنْ تُـرِدْ خيـراً فكـنْ مـن صَحْبِـه
الـزَمِ الحـرَّ ودعْ أهـلَ البَـوَار[1] اهـدمِ الـدَّارَ وكـنْ صـاحـبَ دار
صحبـةُ الحـرِّ إلـى العليـاءِ بـاب هـي خيـرٌ لـكَ مـنْ ألـفِ كِتَـاب
صحبـةُ الحـرِّ تنيـرُ العـالـم وَلَقَـدْ تَخَلَّـق مِنْـهُ آدم
قُـرْبُـه للعـزِّ أصفـى مَنْهَـلِ لـكَ فـي البَحْـر غنـىً عـنْ جَـدْوَلِ
هُـوَ يَـوْمَ السِّلْـم فـي أوطـانـه آيـةُ التغييـرِ فـي عُمْـرَانـه
بجـديـد الفِكْـرِ يحيـي عَصْـرَهُ مِثْلَمـا يَنْشُـر رَوْضٌ عِطْـرَهُ
وَهْـوَ يـومَ الحَـرْبِ فـي مَيْدانهـا ثـورةُ البُـركـان فـي نِيـرانهـا
سيفُـه يحفِـرُ فيهـا قَبْـرَه أو يتـمُّ اللهُ فيهـا نَصْـرَهُ
ليـسَ زَرْعُ القلـبِ فـي مـاءٍ وطيـن هينـاً إلَّا لأصحـابِ اليقيـن
إنْ أردْتَ العَيْـشَ حُـرّاً صـافيـا فـالتـزمْ فـي الـدَّهـر حـرّاً هـاديـا

***

رُباعيّات[2]

أقْبَـلَ الحـرُّ علـى يـوم الفِـداء ومضى يرمي على النَّجْمِ الهَدَفْ
وكـأنَّ الـوَحْـيَ لَقَّـاهُ النِّـداء مـنْ سمـاءِ الله أقـدِمْ لا تَخَـفْ

***

---

(١) أهل البَوَار : أهل جهنَّم .

(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أشْــرَقَ التــوحيــدُ نــوراً فــي هــداه وســرى التحــريــرُ مِنْه فــي الضَّميــر
أتُــرى مــنْ لــم يَخَــفْ غيــرَ الإلَــه يَــرْهَــبُ السُّلطــان أو يَخشــى الأميــر

* * *

روحُـــه تكشـــفُ أســـرارَ الخُلـــود عن حياةٍ ما لها في الدَّهْرِ مَوْت
يـرسـلُ التكبيـرَ مِـنْ قلـبِ الـوُجـود لغـــةٌ تُغْنيـــه عـــن حَـــرْفٍ وَصَـــوْت

* * *

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور في الملاهي خَلْفَ أستارِ الحرير
زَلْـــزَلَتْهُـــمْ بيـــن أبـــراجِ القُصـــور ضـــربـــةٌ مِـــنْ سَهْـــمِ عُـــريـــانٍ فقيـــر

* * *

ضَـــرَبَ البَحْـــرَ كمـــوســـى بعصـــاه ورمـى الصَّخْـرَ حُطـاماً مِـنْ زجاج
ذلـــك الأوّابُ فـــي ثـــوبِ تقـــاه ألـــزمَ التِّيجـــان تقـــديـــمَ الخَـــرَاج

* * *

قَـــدْ جَـــرَتْ أنهـــارُنـــا مِـــنْ بَحْـــرِه وأضـــاءتْ نـــارُنـــا مـــنْ خمـــره
بسمـــةُ الـــوَرْدِ شـــذا مِـــنْ عِطْـــرِهِ شعلـــةُ المَجْـــدِ سنـــا مِـــنْ فِكْـــرِه

* * *

شـأنُنـا فـي الـدِّيـن لا يعـدو الخَبَـرْ وهـــو فـــي الـــدِّيـــن شهـــودٌ ونَظَـــرْ
نحـنُ عنـد البـاب فـي ظـلِّ الشَّجَـرْ وهـو فـي الـدَّار وفـي مَجْنَـى الثَّمَـرْ

* * *

لبنـي الإفـرنـج فـي الـدُّنيـا عَبِيْـد فـي قيـودٍ مـن حـريـرٍ أو حَـدِيْـد
كـــمْ تغنَّـــى بمـــزايـــا بـــايـــزيـــد ذو ريـــاءٍ وهـــو للـــوردِ مُـــرِيْـــد

* * *

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كـــلُّ أرضٍ مَسْجـــدٌ للمـــؤمنيـــن

كيفَ تبني فَوْقَ أرضٍ مسجدا إنْ تَرَكْتَ الأرضَ لِلْمُسْتَعمرين

***

ليسَ حيّاً منْ يُرى مُسْتَعبَدا لِسِوىٰ منْ في يديه رزْقُه
سَيِّد مَنْ ليس يرضى سيِّدا ما خلا ربِّي فكلٌّ عَبْدُه

***

في ضَمِيرِ الحرِّ تكبيرُ الإلَه في جبين الحرِّ تقديرُ الأُمم
موتُه أعلى مقاماتِ الحياه تَرْفعُ الدُّنيا لِذِكْراه العَلَم

***

هو يوم السِّلْم في نَهْضَتِهِ بِيَدِ الإصلاح يَبْني عَصْرَه
ويذيعُ الخَيْرَ في أمَّتِه مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضٌ عِطْرَه

***

وَهُوَ يَوْمَ الحَرْبِ في سَاحَتِهِ سيفُه يَحْفِرُ فيها قَبْرَه
يتحدَّى الموتَ في وَثْبَتِه أو يُتمُّ العَزْمُ فيها نَصْرَه

***

إنَّ غَرْسَ الحقِّ في نورِ القُلوب غَيْرُ شأنِ الزَّرع في ماءٍ وَطِينْ
فالتَمِسْ لِلْمَجْدِ أحرارَ الشُّعوب إنَّهم في الدَّهر أعلامُ اليَقِينْ

***

في أسرارِ الشَّريعة

لم يتحدَّث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدِّين فيها ، ولكنَّه من جهةٍ أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه الماديُّون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إنِّي وعيت

عن جلال الدِّين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَل ، ما كِدْتُ أتأمَّلُها حتى أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمـةٌ قـد وعيتهـا عـن جـلال الـدِّيـنِ فيهـا أدركـتُ معنـى الجَـلالِ
أنَّ حِفْـظَ الأمـوالِ مِـنْ أجْـلِ حفـظ الـدِّيـن زادٌ وعـدَّةٌ للنِّضـال
قـد أبـانَ الـرَّسُـولُ أنَّ صـلاحَ المـالِ يـزكـو بـهِ[1] صـلاحُ الـرِّجـال
إنْ يَكُـنْ همُّـك الغِنَـى لـم تكـنْ لـه عبـداً بَـلْ أنْـتَ عبـدُ المـال

* * *

كـمْ شَهِـدنـا الإصـلاح مـن فـارغـي الأيـدي وأهـلِ الخَصـاصـة المُعْـدَمين
كـمْ وَجَـدْنـا الكسـادَ مـنْ خـازِن المـالِ وأهْـلِ الأهـواءِ والمُتْـرَفين
هُـمْ يَضيقـون بـالعـدالـةِ فـي الأرضِ ليَقْضُـوا حيـاتَهـم نـاعمين
لا يخـافـونَ فـي المَصيـر حسـابـاً بَـلْ يخـافُـون غَضْبَـةَ الثَّـائـرين

* * *

يـأكلـون التـراثَ جَمْعـاً وبُخْـلا ... ثُـمَّ هـم يـأكلـونَ خُبْـزَ الأجيـر
وتـزيـد المـأسـاة رُغْبـاً وهـولا ... عنـدمـا يَسْـرِقُـون حـقَّ الفقيـر
يقـفُ العـامـلُ المُسِـنُّ[2] لـديهـم ... خـاشـعَ الطَّـرف خـافـضَ التَّعبيـر
يصـلُ الليـل بـالنَّهـار أنينـاً ... دُونَ جَذْوىٰ[3] في بؤسِ عيشٍ مرير

* * *

ليـس فـي بيتـه الـرغيـفُ ولا يستُـرُ مِـنْ عُـرْيـه سـوى الأسمـالِ[4]
يبتنـي القَصْـرَ وهـو يلتمِـسُ الأكـواخَ بيـن الـرُّبـوعِ والأطـلالِ

---

(١) يَزْكُو به : يزيد به .
(٢) المُسِنُّ : كبير السِّن .
(٣) دُون جَذْوى : دون فائدة .
(٤) الأسمال : الأثواب الخَلِقَة البالية .

نـال ربـح الـدَّاريـن مـنْ جَعَـلَ المَـالَ سبيـلاً إلـى كـريـمِ الفِعـالِ
هـم حيـارى لا يَنْظـرون بنـورِ الله بـلْ يَنْظُـرون رأسَ المـالِ

* * *

يستـوي الحـلُّ والحـرامُ لـدى القَـوْم وأيـن الـدُّجى مِـنَ الأنْـوَارِ
فـأسـاليبُهـم مخـادَعـة الخلـق وتعميـرهـم خـرابُ الـدِّيـارِ
دولـةٌ تعتـدي علـى دولـةٍ ظلمـاً وقطـر يبغـي علـى أقطـارِ
كـادحٌ يـزرعُ الحقـولَ فيـأتـي غيـرُه عـاجـلاً لجَنْـي الثمـارِ

* * *

مِـنْ صميـم الحيـاة . مـنْ فطـرةِ الله ، مـنْ القَلْـبِ ، مـنْ لقـاء الضَّميـرِ
يشـرقُ الـدِّيـنُ بـالهـداية والـرُّشـد كمـا يشـرقُ الضُّحـى بـالنُّـورِ
فلـو أنْ الحـرام يبـدو حـرمـاً يَحْجُـزُ النَّـاسَ عنـه وعـيُ الضَّميـرِ
يصبـح العـدلُ شـامـلاً كـلَّ أرضٍ فـي الحيـاة الـدُّنيـا ليـوم النُّشـورِ

* * *

حكمـةُ الـدِّيـن أن تُسَلِّـم للشَّـرْع وتـرضـى بكـلِّ حكـمٍ قَضَـاهُ
مِـنْ ضميـر الـرَّسـولِ أينـع هـذا الـدِّيـن فـي غَـرْسِـه وطـابَ جَنـاهُ
إنَّ هجـر الحبيـب يستلـبُ اللـبَّ ويُـذكـي فـي القلـب نـارَ جَـواهُ
لـو أزيـل الحِجَـاب لـم تبـقَ حيـاً خـلٌ أمـر الـوصـال واطلـب رِضـاهُ

* * *

عِـشْ بـأحكـامـه تَـرَ العَيْـشَ صفـواً ورخـاءً أو نضـرةً ونعيمـا
وأطـع أمْـرهُ تُطِغْـك البـرايـا وتـرى الأمـنَ حيـث كُنْـتَ مُقيمـا
قـد حبـاك الإلّـه أحسـنَ تقـويـم لتحيـا خَلْقـاً سـويـاً كـريمـا
إنَّ إرْثَ[1] الخليـل إيمـانُـه الصَّـادقُ فـاحفـظْ ميـراثَ إبـراهيمـا

---

(١) إرْث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كــلُّ قَلْــبٍ لــه مــن الحــقّ نــورٌ ولــه مــن هــدي النَّبــيِّ نصيــبُ
لا يُشــابُ اليقيــنُ[1] منــه بــريــبٍ وهــو مــنْ جبــريــلَ الأميــنِ قــريــبُ
يــا مقيمــاً فــي حُجْــرةِ الــدَّا ر يتلــو وهــو عمَّــا يتلــوه نــاء
قُــمْ وأنــذر بــه الخــلائــقَ طــرّاً تَجِــدِ الكــونَ كلَّــه يَسْتجيــبُ

* * *

وتقبَّــل أوامــرَ الــدِّيــن بــالــرَّغبــة والشَّــوق والــرِّضــا كــلَّ وقــتٍ وآنِ
كــلُّ فــرضٍ تقضيــه جبــراً وقهــراً لا تــرى فيــه نَشْــوةَ الإيمــانِ
حكمــةُ الــدِّيــن فــي العــدالــة والحــبّ ليســت فــي البُغْــضِ والطُّغيــانِ
وبــأنْ لا يحتــاجَ فــي الأرض إنســانٌ ليحظــى بــالــرِّزْقِ مِــنْ إنســانِ

* * *

قَــدْ خَبَــرْتُ الــدُّعــاة فــي هــذه الأيــامِ والمُــدَّعيــن لــلإلهــامِ
أطفــؤوا جــذوةَ الإرادةِ فــي الشَّعْــبِ وزادوه حَيْــرَةً فــي الظَّــلامِ
وأصــاغــوا التــأويــل فــي كــلِّ نــصٍّ حيلــةً للغِنــى وجَمْــعِ الحُطــام
لا أرى فــي منــابــر القــوم إلا سلَّــة الكعــك أو خــوان الطَّعــام

* * *

كــم أطــالــوا الجــدالَ فــي العقــل والنقــل وأفنــوا أعمــارهــم فــي المِــراءِ
أيُّ بــابٍ مــن الهــدايــة يُــرْجــى مــنْ كليــمٍ[2] بــلا يــدٍ بيضــاء
أيُّ أمــرٍ يفيــده مــنْ كــلامٍ فــي صبــاحٍ مــرددٌ ومســاءِ
صــاحــب الحــق أنــت فــاطلبــه بــالسَّعْــيِ ولا تنتظــره بــالإعطــاءِ

* * *

= « إنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم » .

(١) لا يُشاب : لا يختلط .

(٢) كليم : يريد به الشاعر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

دمعة على افتراق
الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدَّتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وَحْدةٌ وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلَّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلَّا أنَّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدِّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرِّضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السَّفاكين على الأبرياء الآمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنَّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضُّ المسلمين على ثورةٍ عارمةٍ بأسلوبٍ دينيٍّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلًا :

همـــالايـــا ونهــرَ الكنـــج إنِّـــي   أرى صُــوَرَ الحيــاةِ بِغَيْــرِ معنــى
فلــم أدركْ لهــا فــي الــذوق رأيــاً   ولـم أعـرفْ لهـا فـي الحسِّ لـونـا

* * *

شعـوبُ الشَّـرق والغـرب استقلَّـت   وضــاقَ بنـا علـى الأرضِ الفضـاءُ
فلـــلأغيـــار ثـــروتُنـــا متـــاعٌ   وَمِـــن لبنـــاتنـــا لهـــم البِنـــاءُ

* * *

وأيـــن حيـــاتُنـــا والغَيْـــرُ فيهـــا   يَصُـــوْلُ كمـــا يشـــاءُ ويستطيـــلُ
وليـــس النَّـــوْمُ مـــا صِـــرْنـــا إليـــه   فـــذاكَ المـــوتُ لا النَّـــومُ الثَّقيـــلُ

* * *

وإنَّ بـــذورَ هـــذا المـــوت جـــاءت   مـــن الأعمـــاقِ مُنْـــذُ الابتـــداءِ
ومُنْذُ المهـدِ كـان القومُ صَرْعَى[1]   وهـذا المـوتُ ليـس مـن السَّمـاء

* * *

وليـــس فقيـــدُ هـــذا المـــوتِ أهـــلاً   لغُسْـــــلٍ أو لقَبْـــــرٍ أو بُكـــــاء
ولا شـــقٌ الثِّيـــابِ عليـــه حـــزنـــاً   ولا سعـــيِ الـــوفـــودِ إلـــى عَـــزَاء

* * *

جهنمُــه ســوى مــا قــد عــرفنــا   فليــسَ لهــا إلــى الفَلَــكِ انتســابُ
ويــومُ حســابِ كــلِّ الخلــقِ يــأتــي   بــلا عمــلٍ فليــس لــه حِسَــابُ

* * *

حصــادُ الــزَّارعيــن غــداً وهــذا   بــلا زرعٍ فمــن أيــن الحَصَــادُ
ومــدَّة عمــرِه فــي الــدَّهــر يــومٌ   وكــلُّ حيــاتِــه يــومٌ مُعــادُ

* * *

---

(١) صَرْعَى ، جمع الصَّريع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس ـ والمجون .

وأيَّـــةُ أمَّـــةٍ تـــرجـــو الأمـــانـــي بـــلا جَهْـدٍ وتمضـــي فـــي رُكـــودِ[1]
يكـــونُ مصيـــرُهـــا عـــدمـاً ومحـــواً وينســـىٰ نَقْشَهـــا سِفْـــرُ الـــوُجـــود

* * *

وكَـــمْ فِتَـــنٍ تمـــادى[2] الغـــربُ فيهـــا وأحْكَـــمَ حـــولَهـــا السِّحْـــرَ المبينـــا
فمـــا أبقـــى علـــى الكفـــارِ كفـــراً ولا أبقـــى لأهـــلِ الـــدِّيـــن دينـــا

* * *

وأغْطَـــشَ ليلهـــا الـــدَّاجـــي[3] ظـــلامـــاً فمـــا تـــدري الشَّـــرابَ مـــن السَّـــرابِ
هـــي الغَمَـــرات مـــا منهـــا نجـــاةٌ ولا حَـــــلٌّ بِغَيْـــــرِ الانقـــــلابِ

* * *

فيـــا مَـــنْ هـــامَ بـــالـــدُّنيـــا متـــاعـــاً وأصبـــحَ همُّـــه شبعـــاً ورِيَّـــا[4]
تَطَلَّـــبُ فـــي حُضُـــورِ الحـــقِّ قلبـــاً وفتَيَّـــاً صـــادقَ الإيمـــانِ حيَّـــا

* * *

فهـــذا القلـــبُ للـــدُّنيـــا ســـراجٌ لـــه أمـــمُ الخليقـــةِ فـــي انتظـــار
وهـــذا القلـــبُ مَعْـــدِنُـــه تـــرابٌ وَجَـــوْهَـــرُه فـــريـــدٌ فـــي الـــدَّراري[5]

* * *

يفـــوقُ السَّبْعَـــةَ الأفـــلاكَ قَـــدْراً بِهِمَّتِـــه ولا يـــألـــو رُقِيَّـــا

---

(١) الرُّكود : الهدوء ، والسُّكون .
(٢) تَمَادى : لَجَّ ودام عليه .
(٣) ليلها الدَّاجي ، أي : حالك .
(٤) رِيّاً : مصدر رَوِيَ ، أي : شَرِبَ .
(٥) الدَّراريّ ، جمع الدُّرِيّ : نسبة إلى الدُّر في حسنه وبهائه .

يقيـــمُ علـــى الثَّـــرى ولـــه أمـــانٌ إلـــى العليـــاء أدنـــاهـــا الثُّـــرَيَّـــا[1]

* * *

وفـي حـربٍ ضـروسٍ[2] كـلَّ حيـنٍ مـع التَّـاريـخ مُتَّصـل النِّضـالِ
بِضَـرْبَتِـهِ الجبـالُ تصيـرُ عِهْنـاً وَتُـرْهِبُـه الضـراغِـمُ فـي الجِبَـالِ

* * *

تـرى لِشعـورِه المشبـوبِ نـاراً تُـوْقَـدُ مِـنْ حـرارَتهـا ذُكـاءُ
لـه ممَّـا سـوى التنـورِ خبـزٌ ومِـنْ غَيْـرِ الطَّعـامِ لـه غِـذَاءُ

* * *

حضـورُ الحـقِّ يملـؤه يقينـاً فمنـه الخـوفُ مَحْضـاً والـرَّجـاء
شهـودُ الحـقِّ إنْ هُـوَ غـابَ عنـه فليـسَ لـه علـى الـدُّنيـا بَقَـاءُ

* * *

طيـف الجلـواتِ والخلـوات طُـرّاً يضـيء الكـونَ بـالـرأي المُنيـرِ
ومـاللعِشـق فـي سُكْـرٍ وَصَحْـوٍ دليـلٌ غَيْـرَ أوابٍ فَقِيْـرِ

* * *

فصـاحـبْ مـنْ لـه قلـبٌ عظيـمٌ لعلَّـك تـدركُ الأمـرَ العظيمـا
وُلِـدْتَ علـى مهـاد الـذُّلِّ عبـداً فجـاهـدْ ثـمَّ مُـتْ حُـراً كـريمـا

* * *

---

(١) الثُّريَّا : مجموعة من النجوم .
(٢) حَرْب ضَروس ، أي : شديدة مُهلكة .

السِّياسَةُ الحاضِرة

إنَّ إقبالًا كشف الأقنعة المزيَّفة عن وَجْه السِّياسة الغربية ، ووجَّه أمم الشَّرق إلى تجنُّب أخطارِ دُوَلِ الغَرب وسياستها ، وقدَّم حقائقَ وصوراً عن التَّدهورِ الخُلقي في قادة المسلمين والموجهين لشعوبهم لاسيَّما في شبه القارة الهندية الَّتي كتب على أرضها هذه المنظومة الكبرى قبل الاستقلال . ومن أروع ما نشهده من روائع هذه المنظومة ذلكَ الاستدراكُ العجيب الذي صرَّح فيه إقبالُ بأنَّ الإنسانَ المستعبدَ الذَّليل يكاد يفقد حقَّه في أن يذكر اسم النَّبيِّ ﷺ على لسانه بالصَّلاة والتسليم ، وألمح إلى الحالة المؤسفة التي شهدها في المجتمع ، ولاسيما في شبه القارَّة ، وبيَّن بجلاءٍ أنَّ العبوديَّة والذِّلَّة لا تلتقيان مع الإيمان بالله في قلبِ إنسان ، ومنْ ثمَّ يقول إقبال :

صَـوَّرَ الغـاصـبُ عَـدْلًا ظُلْمَـهُ ... مـا هـو التَّفسيـر للعَـدْلِ الجَـديـد
زادَ فـي التَّحـريـر معنـىً أنَّـه ... يُحْكِـمُ القَيْـدَ لتحـريـرِ العَبِيْـد

***

قـال للطَّيْـرِ إذا رُمْـتَ الأمـان ... فـاتَّخِـذ فـي منـزلِ الصَّيـادِ وَكْـرا
ليـس فـي الأجـواء للطَّيـر مكـان ... لا ولا تـأمـنُ فـي الصَّحـراء نَسْـرا

***

حِيْـنَ يلقـي الحَـبَّ فـي أشْـراكِـه ... يَسْقُـطُ الطَّيْـرُ ويهـوي ثَمِـلا[1]
ويَغيـبُ الـرُّشْـدُ عـن إدْراكِـه ... سَـاعَـة يَفْقـدُ فيهـا الأمـلا

***

سَـدِّدِ الـرأيَ وحـاذرْ كَيْـدَهُ ... كـلُّ مـا يـأتـي بـه زُورٌ ومَيْـن[2]

(١) الثمل : النشوان من السكر .
(٢) المَيْن : الكذِبُ .

إنْ سقَــاك المــاءَ فــاتْـرُك وِرْدَهُ وَلْتَمُـتْ ظمـآنَ حُـرَّاً كـالحُسيـن

* * *

لا تُصَـــدِّقْ مِنْـــهُ مـــا تَسْمَعُـــهُ فَهُـــوَ تَخْـديـــرٌ مبيـــدٌ للبَشَـــرْ
واحــذَرِ الكُحْـلَ الــذي يَصْنَعُــه إنَّـه الكُحْـلُ الـذي يُعمـي البَصَـرْ

* * *

ضـاقَ صـدري بـأميـرِ القَـافلـة لَيْـسَ فيـه وَمْضَـةٌ[1] مِـنْ لا إلَـه
عـابـدُ المـالِ يحـبُّ العـاجلـة عَبْـدُ جسـمٍ عَبْـدُ نفـسٍ عَبْـدُ جاه

* * *

كـان بـالتَّـوحيـد مـرفـوعَ العلـم يَنشُـدُ المَجْـدَ طـريفـاً وَتَلِيـدا
ذلـكَ المـولـودُ فـي ظـلٍّ الحـرم مـا لـه أصْبَـحَ لِلْغَيْـرِ مُـريـدا

* * *

أيْـنَ مـنْ كـانَ بهـمْ يسترشـد كـلُّ مـرتـابٍ فيحظَـى بـاليَقيـن
وتـرى الأرضَ إذا مـا سَجـدُوا زُلْـزِلَـتْ مـنْ جَبَهـاتِ السَّاجـديـن

* * *

فـي دويٍّ الهَـوْلِ كـانـوا يُعْلِنـون تَحْـتَ ظـلٍّ السَّيْـفِ تَـوْحِيـدُ الإلَـه
بِمِـــدَادٍ مِـــنْ دمـــاءٍ يَكتبـــون ربُّنـــا اللهُ ولا نخشـــى سِـــوَاه

* * *

أيـنَ ذاكَ الشَّـوْقُ والقَلْـبُ الصَّبُـور ومـرايـا البَـاقيـاتِ الصَّـالِحَـات
قـد طَـوَتْهـا فـي تـواليهـا العُصـور وتـوارثْ فـي الليـالـي الخَـاليـات

* * *

---

(١) وَمْضَة : لمعة خفيفة .

قَـدْ بَلَـوْتُ الـرِّقَّ[1] مُنْـذُ الابتـداء لَـمْ يكـنْ مهـدي فـي أرضِ الحَـرَمِ
مِـنْ رسـولِ الله يَعْـرونـي الحَيَـاء[2] حِيْـنَ يَـدْعُـو بـاسِمِـه الغـالـي فَمِـي

* * *

لـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضميـر أمْ غـدا صـدرُك لـلأصنـام دَيْـرا[3]
أنْـتَ للغَـاصـبِ محكـومٌ أسيـر تَحت حُكْـمِ الغَيْرِ لن تَصْنَعَ خَيْرا

* * *

تـدَّعـي الحُـبَّ لخيـر الأنبيـاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَـمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَـمْ يَتبَـعِ القـولَ اقتـداء لَـمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

* * *

لَـذَّة الإيمـانِ عنـد المـؤمنيـن قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَهـا عبـدٌ ذَليـل
مسلـمٌ مُسْتَسْلـمٌ للطَّـامعيـن آزريٌّ[4] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

* * *

صلـواتُ الحـرِّ بعـثٌ للشُّعـور فهـي مِعْـراجٌ إلـى العَيْشِ الكَـريم
وصـلاةُ المَـرْءِ فـي غيـر حُضُـور عـادةٌ جـوفـاءُ فـي رسـمٍ قَـدِيْـم

* * *

إنَّ لـلأحـرار فـي العِيْـدِ السَّعيـد مَظْهَـرُ العِـزَّة فـي دُنيـا وَدِيـن
ولـدى الأسـرىٰ وفـي عيـشِ العَبِيْـد يُصْبِـحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنيـن

* * *

---

(١) الرِّق : العُبوديَّة .
(٢) يعروني الحياءُ : يُصيبني الحياءُ .
(٣) دَيْراً ، مصدر من دَارَ يدورُ ، أي : طَافَ حولَه .
(٤) آزريٌّ : نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إلى الأمة العربية

خصَّص محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمَّة العربية ، ليسجل فيها فضلَها وسَبْقها في حمل الرسالة الإسلاميَّة ، والأخذ بيد الإنسانيَّة ، وافتتاحها لتاريخٍ جديدٍ وفجرٍ سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة هذه الأمَّة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ على سجيتها ، ويعطي القلب والعاطفة زمامَه ، ويسترسلُ في الحديث ، فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ[1] ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم ، وهل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو ، فأنبتت الأزهار والرياحين ، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه ، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه ، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والرُّوح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة « الصافات »[1] بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدُّنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكرَ جلال الدين الرومي ، وفكرَ فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره[2] ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزَّاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرَّفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء » .

يذكِّر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مَثَلُهم كمَثَل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظُبَّة فهو لا يُنتفعُ به ، فيقول الشاعر :

---

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلكَ المُغامرات ، وما أجملَ تلك الغزوات » .

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبدي فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرْقة بعد الوَحْدَة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمَّةً واحدةً ، أمَّةَ الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعَكم ، ومزَّقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسِكم .

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشَّقاء ، والطَّرْد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسيء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهامٍ مسمومة ، وحبائلَ

منصوبة ، وهو شديدُ المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرَسهم وَخَبرهُم ، فهو يتألَّم إذ يرى في الأمة العربية من يُحْسنُ الظنَّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضِّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إيَّاكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنَّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينةً لا تملك شيئاً ، إنَّها مزقت وَحْدَة العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يَجِدوا من يرثي لهم ، ويرفُق بهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذِّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقْبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزالُ فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب! وردُّوا فيكم روحَ عمرَ بنِ الخطاب مرَّةً أخرى ، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمينةً للسرِّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدِّين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنَّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخيرِ والشرِّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أَفَلتْ نجومُ الآخرين ، وَطُوِيَ بساطُهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السَّيل ، حتى تُسْرِعَ ركائبكم في مضمار الحياة ، وتَسْبِقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خلَّفكم في الحياة ؟ إنَّ العصر الحاضر وليدُ نشاطكم ، وكفاحكم ، وصنيعُ جهادِكم ودعوتِكم ، وما زلتم سادته ، وولاتَه حتى أفْلَتَ زمامه منكم ، فتبناه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدِّين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيِّدَ الصَّحراء ! عُدْ إلى قوَّتِك وعزَّتك ، وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عِنان التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى » .

وهنا نبذةٌ أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضَيَاعَ الأمة الإسلامية ، وانطفاءَ شعلةِ الحياةِ والإيمانِ في نفوس العرب ، ويشكو وَحْدَتَهُ وغربتَه في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةَ منْ قام بين يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لقد تَشَتَّتَ شَمْلُ أمَّتك يا محمد ! يا رسولَ الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين ، وإلى من يأوي ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع ، وذلك القلق ، الذي عُرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأينَ أجدُ من يساعدني على آلامي وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السَّفر البعيد في هذه الجبال والمَهامِه ، وقد ضلَّ سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب ، بالله ! قل لي ماذا يصنع حاملُ دعوتك ، المؤمنُ برسالتك ، وأين يجدُ زملاءَه ورُفْقَته ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرونَ إلى الأوربيينَ الإنجليزِ والأمريكيين كأصدقاءِ مخلصين ، وأعوانٍ مُنجدين يحلُّون لهم مشكلةَ اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسيِّ والاقتصاديِّ والصَّحافيِّ ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا إخوتي العرب ! أنَّ النار التي شَغَلَتِ الزَّمان ، وبَهَرتِ

التاريخ ، لم تزلْ ولا تزالُ تشتعلُ في وجودكم ، صدِّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنَّ اليهود لا يزالون يتحكَّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنَّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمةً صريحةً مركزةً بليغةً مع تلطُّفٍ واعتذارٍ :

« معذرةً يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهنديُّ[1] أن يخاطبكم ، ويقولَ لكم كلمةً صريحةً ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةً للعرب ؟ إنَّكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقَ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدِّين ، وإنه لا يتمُّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاعٍ عن « أبي لهب » ، وإنَّه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطَّاغوت ، كذلك لا تتمُّ الفِكْرةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنَّ العالم العربيَّ أيها السادة ! لا يتكوَّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدِّين الإسلاميِّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »[2] .

***

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبةِ والمَجْد المُؤَثَّل[3] في ... بدوٍ وفي حَضَرٍ حتَّى ضُحى المحشر

مَـنِ الَّـذي حـرَّرَ الـدُّنيـا لخـالقهـا ... وأسْمَعَ الخَلْقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَر

***

---

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٢٤ ـ ١٣٥ .

(٣) المؤثَّل : المبني الأصيل .

مـنْ قبلكُـم أبلـغَ الآيـاتِ نـاطقـةً بـوحـي مـنْ خلـق الـدُّنيا وسـوّاهـا
مـنْ غَيْـرُكـم رَفَـعَ المِصْبـاحَ مؤتلقـاً وَوَحَّـــدَ الخَلْـــقَ لمَّـــا وَحَّـــدَ اللهَ

* * *

لـم يَطْعَـمِ النَّـاسُ إلَّا فـي مـوائـدكـم علمـاً شَهِيّـاً وتَهْـذيبـاً وعِـرْفـانـا
في شأنكم أرسلَ اللهُ الكتابَ فأصـ ـبحتُـم بنعمتـه فـي الخَيْـرِ إخـوانـا

* * *

منْ حوَّل البيدَ روضاً والحَصى دُرراً وأنبتَ الوَرْدَ في الصَّحراء لِلْعَرَبِ
أستغفــرُ الله مــا غَيْــرُ النبــيِّ بهــا أغْنَتْ مكارمُه فيها عَنِ السُّحُبِ[1]

* * *

فكلُّ معبودٍ قديمٍ في الشعوب هوى بعــزمــه ســاجــداً لله إكبــارا
وكـلُّ غصـنٍ هشيـمٍ مـن نـداه غـدا يُجَــدِّدُ الحُســن أوراقــاً ونـــوَّارا

* * *

واهـاً لهـا جـذبـات طـالمـا حَفَـزَتْ منّـا الخُطـا وأثـارت للعـلا هممـا
قـد أبـدلتنـا الليـالـي مـن سعـادتهـا يـأسـاً مـريـراً ومـنْ أنـوارِهـا ظُلَمـا

* * *

كـلُّ الشُّعـوب أعـدَّت مـنْ مـواردهـا حِصْنَ الرَّخاء وصارتْ للمُنى قَدَما
وملء صحرائكم لو تعلمون غنىً وثـــورةٌ وكنـــوزٌ تُغْـــدِقُ النِّعمـــا

* * *

كيفَ انقضى حفْلكم وانفضَّ سامرُكم[2] وكـان بـالأمـس مِثْـلَ العَقْـدِ منتظمـا

---

(١) سُحُب ، جمع السّحاب : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .
(٢) سَامِر : هو مَن يتحدَّث مع زميله في الليل .

تـوَحَّـدَتْ مـن قـديـمِ الـدَّهـر أمَّتُكـم ما بالُها انقسمتْ في أرضِكم أُمَمَا

* * *

قَدْ خادَعَتْكُم من المستعمرين يدٌ سُـمُّ العقـارب فـي أكمـامِهـا استترا
كـمْ أهْـدروا مِـنْ شعـوبٍ آدَمِيَّتَهَـا كمْ أيقظوا فتناً ، كمْ أفسدوا فِطَرا

* * *

تَـوَارَثَ العَـرَبُ الأحـرارُ وَحْـدَتَهُـم مـدى عصـورٍ وأجيـالٍ وأزمـانِ
حتـى إذا جـاء الاستعمـارُ قسَّمهـا إلـى شعـوبٍ وأقـوامٍ وأوطـانِ

* * *

اضْرِب خيامَك في دنيا وُجودك لا تَقِفْ بها عند رَسْمِ الدَّار والدِّمَنِ[1]
وادفـعْ بنـاقَتِـك الميـدانَ أسْبَـقُ مـنْ ريحِ الصَّحارى وأنْقِذْ وَحْدَةَ الوَطَنِ

* * *

يـا أيُّهـا العـربـيُّ انظـر لعصـرك فـي دنيـا يفـوزُ بهـا مـنْ أحْكَـمَ النَّظَـرا
بـالسِّلْـمِ بـالعَـدْلِ تبنـي مـا تُـؤَمِّله إنْ شِئْتَ للأرضِ عُمْراناً فَكُنْ عُمَرا

* * *

تُعادُ هنا نَفْسُ هذه المنظومة في صياغةٍ أخرى ، يقول :

(١)

أمَّـةَ الصَّحـراءِ يـا شَعْـبَ الخُلـود مَـنْ سِـواكـمْ حـلَّ أغـلالَ الـوَرَىٰ
أيُّ داعٍ قبلَكُـم فـي ذا الـوُجـود صـاحَ لا كسـرى هُنـا لا قيصـرا

* * *

---

(١) الدِّمَن ، جمع الدِّمنة : وهي آثار الدَّارِ .

مـنْ سِـواكـم فـي حـديـثٍ أو قـديـم   أطْلَـعَ القــرآنُ صُبْحــاً للــرَّشـاد
هـاتفـاً فـي مَسْمَـعِ الكَـوْنِ العَظيـم   لَيْــسَ غَيْـــرَ الله ربّـــاً لِلْعبـــاد

***

حــدِّثـونـي اليــومَ عــن أيِّ خِـوَان   قَــدَّمَ الحِكْمَــةَ قــوتــاً لِلْفَطِــنْ[1]
يـا مصـابيـحَ التَّـآخـي[2] والتَّفـانـي   أنْــزَلَ اللهُ فـــأصْبَحْتُـــم لِمَــنْ

***

(٢)

وابــلٌ مِــنْ فَيْـضِ أمِّــي اللَّقَـبْ   الكـريـمُ الفَـرْدُ فـي كُـلِّ الكِـرام
أنبــتَ الــزَّهــرَ بِصَحْــراءِ العَـرَبْ   بَـلْ سقـى فـي القَفْـرِ بُسْتَانَ الـوِئام

***

بِهُـــدَى الحـــرِّيَّـــةِ العليـــا أنـــار   فهـي روضٌ مُـونِــقٌ مِـنْ غَـرْسِـه
يـومُهـا الحـاضـرُ فـي كـلِّ الـدِّيـار   لَـــمْ يُنِـــرْ إلَّا بـــذكـــر أمْسِـــهِ

***

كـــلُّ صَـــذْرٍ مـــن بقـــايـــا آدمَ   صـــاغَ فيـــه لِلْعُـــلا قلبـاً جـديـدا
مَنَـــحَ الإنســـانَ مُلْـــكَ العَـــالـــمِ   بَعْـدَ مـا علَّمَـهُ النَّهْـجَ الـرَّشيـدا

***

كـــلُّ ربٍّ غَيْـــرَ خـــلَّاق النَّسَـــمْ   صارَ مـنْ عَـزْمَتِـهِ تَحْـتَ الثَّـرى[3]
كـلُّ غُصْـنٍ كـانَ فـي يَبْـسِ العَـدَم   بِنَـــداه اخْضَـــرَّ حتـــى أثْمَـــرَا

---

(١) فَطِن : الفهم الذكيّ .
(٢) التآخي ، مصدر من تآخَى فلاناً : اتَّخذه أخاً .
(٣) الثَّرى : التُّراب النَّدي .

(٣)

لا تسلنـــي الآنَ عَـــنْ ثَـــوْرَتِـــه   إنَّهـــا ميـــدانُ بَـــدْرٍ وَحُنَيـــن
فـــي أبـــي بكـــرٍ وفـــي صـــاحِبِـــهِ   فـــي علـــيٍّ ثُـــمَّ فـــي صَبْـــرِ الحُسَيْـــن

* * *

سيـــفُ أيـــوبَ وتقـــوى بـــايـــزيـــد   فيهمـــا مفتـــاحُ كَنْـــزِ العَـــالميـــن
أسْكَـــرَ الـــدُّنيـــا بجـــامٍ واحـــدِ   فحـــوىٰ الـــدُّنيـــا وضـــمَّ المَشْـــرِقَيْـــن

* * *

هـــاهنـــا الحكمـــةُ والـــدِّيـــن القـــويـــم   وهنـــاكَ الحُكْـــمُ للـــدُّنيـــا يُقَـــام
كـــلُّ قلـــبٍ فيـــه لِلْمَجْـــدِ الصَّميـــم   ثـــورةٌ تعلـــو بـــه فَـــوْقَ المَـــرام

* * *

(٤)

لا تَقُـــلْ أيـــنَ ابتكـــارُ المسلميـــن   وسلِ الحَمْراء واشْهَدْ حُسْنَ تاج[١]
دولـــةٌ صـــارَ ملـــوك العَـــالميـــن   نَحْـــوَهـــا طَـــوْعـــاً يـــؤدُّون الخَـــرَاج

* * *

دولـــةٌ تقـــرأ فـــي آيـــاتهـــا   مَظْهَـــرَ العـــزَّة والمُلْـــكِ الحَصِيـــن
وكنـــوزُ الحـــقِّ فـــي طيَّـــاتهـــا   دونهـــا حـــارَتْ قلـــوبُ العـــارِفيـــن

* * *

---

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

(٥)

أرسلِ الشُّكْرَ إلى غير انتهاء لِنَبيِّ الله قُدْسيِّ الجَناب[1]
أشْعِلِ الإيمان ناراً بالعَرَاء أوقِدِ النُّور بكفٍّ مِنْ تُراب

* * *

وحباهُ الله مِنْ عَلْيَائه عَزْمَةً فلَّ بها سَيْفَ الغِيَر
راكبُ النَّاقة في صَحْرائِه سارَ فيها راكباً خَيْلَ القَدَر

* * *

كبَّروا لله في ظلِّ الحُروب وصفوفاً تَحْتَ ظلِّ المَسْجِدِ
ضجةٌ دانت لهم فيها الشُّعُوبْ وارتَقَوْا فيها مكانَ الفَرْقَدِ[2]

* * *

(٦)

ويْ كأنْ لمْ تُشْرِقُوا في الكائنات بِهُدى الإيمانِ والنَّهج الرَّشيد
ونسيتُم في ظلامِ الحادِثات قيمةَ الصَّحراء في العَيْشِ الرَّغيد[3]

* * *

كلُّ شعبٍ قامَ يَبني نَهْضةً وأرى بنيانَكم مُنْقَسما
في قديمِ الدَّهر كُنتُم أمَّةً لَهْفَ نَفْسي كَيْفَ صِرْتُم أُمَما

* * *

---

(١) الجَنَاب : النَّاحية .
(٢) الفَرقد : نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولهذا يُهتدى به . وهو المسمَّى بـ « النجم القطبي » .
(٣) الرَّغيد : العيش الطيِّب الواسع .

كـــلُّ مـــنْ أهْمَـــلَ ذاتِيَّتَـــه فهــو أولــى النَّــاسِ طُـرَّاً بــالعَنَــاء
لــنْ يــرى فــي الــدَّهْـر قــوميتــه كــلُّ مَــنْ قلَّــد عيــش الغــربــاء

***

فكِّــروا فــي عَصْــرِكــم واسْتَبِقُــوا طــالمــا كُنْتُــم جمــالًا لِلْعَصْــر
واملـؤوا الصَّحـراء عـزمـاً واخلُقـوا مــرَّةً أخــرى بهــا رُوْحَ عُمَــر

***

والآنَ ماذا نصنع يا أُمَمَ الشَّرق[1]

يندِّدُ إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ، وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ، ولكن التطوّر السَّريع والثوراتِ المتوالية في الشرق والغرب ، غيَّرت الكثير من الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمَّة العربيَّة ـ بعد أن وجَّهَ إليها خطابه ـ :

تَئِـنُّ الخـلائـقُ فـي الأرض طُـرَّاً وقد سامها الغَرْبُ عَسْفاً وَجُوْرا[2]
فيـا أُمَـمَ الشَّـرْق فيـم التَّـوانـي لقـد آن أنْ يُصْبِـحَ الشَّـرْقُ حُـرَّا

* * *

أكـادُ أرى ثـورةً فـي النُّفـوس تشـدُّ الحيـاة إلـى المَجْـدِ جَـرَّا
مضـى الليـلُ وانجـابَ عَهْدُ الظَّـلامِ وبَعْـدَ الـدُّجى يَعْقُـب الليـلَ فَجْـرَا

* * *

ومـا بَـرِحَ الغَـرْبُ يختـالُ تِيهـاً[3] ويَخْتَـرِفُ الكَيْـدَ لِلْعَـالَمِيْـن
لينشُـرَ فـي الكـونِ إلْحَـادَهُ وَيُنْشـىء دُنيـا علـى غَيْـرِ دِيْـن

* * *

وَيَسْتَبْطِـنُ الـذِّئْـبُ فـي جِلْـدِ شـاةٍ بـأنيـابِه العُصْـلِ[4] خَلْـفَ الكَمِيْـن

---

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوانَ لهذا الكتاب .
(٢) جَوراً : ظلماً .
(٣) تِيهاً : ضلالًا .
(٤) العُصل : المعوجة .

أرى مشكــــــــلاتِ بنــــــي آدمَ يَــزِيْــدُ بهــم شَــرُّهــا كــلَّ حِيْــن

* * *

فَمَــا قَــدْرُ إنســانِ هــذا الــوُجــودِ لَــدَيْهــم سِــوى هيكــلٍ مــنْ تُــراب
تَشَكَّــلَ فــي الخلــق مــاءً وطينــاً وبنيـــانُــه صــائــرٌ لِلْخَــراب

* * *

وقــافلــةُ الكَــوْنِ ضَلَّــتْ خُطــاهــا بحكمتهــم عَــنْ طَــريــقِ الصَّــوَابْ
لأطْمَــاعِهِــم كـــلُّ شــرٍّ مُبَــاحٌ ومــا للضَّميــر عليهِــمْ حِسَــابْ

* * *

وللحــقِّ فــي كــلِّ شــيءٍ دليــلٌ ومِــنْ نــورِه كــلُّ مــا تُبْصِــرون
وفــي كــلِّ معنــىً لــه حِكْمــةٌ يفــوزُ بــأســرارهــا العــارِفُــون

* * *

إذا شَهِــدوا آيــةَ الله عـــاشُــوا أبَــاةً علــى الضَّيــم[1] لا يَــرْهَبُــون
لقــد نظــروا فــاستبــانــوا الهُــدىٰ بـــإدراكِهـــم أفـــلا يَنْظُــرُون

* * *

وَلِلْمُـــؤْمــنِ الحــرِّ مــنْ ربِّــه هُــدًى فــي الحيــاةِ ونــورٌ مبيــن
وفــي قلبــه لــوعــةٌ[2] واشتيــاقٌ وعَطْــفٌ علــى مِحْنَــةِ الآخَــريــن

* * *

---

(١) الضَّيْم : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثقِّب العبديّ :
ونحمي على الثغر المخوفِ ونتَّقي بغــارتنــا كيــدَ العِــدَا وضُيُــومَهــا
(٢) لَوْعَة : حرقة في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إذا العِلْـمُ حـلَّ بِقَلْـبِ الفتـى أحـلَّ بـه خَشْيـةَ المتَّقيـنْ
ويـزدادُ خـوفـاً مـنَ اللهِ حتَّـى يـردَّ الأمـانَ إلـى الخـائِفِيْـن

* * *

هـو العلـمُ لنـا فيـه كيميـاءٌ إلـى قـدرةِ الله يَهْـدي البَصَـرْ
فيـا أسفـا لَيْـسَ لِلْغَـرْبِ منـه سـوى حيـرةٍ فـي ديـاجـي الفِكَـرْ

* * *

فَلَـم يُجِنْـه العلـمُ عقـلاً سَـويـاً يُفَـرِّقُ مـا بَيْـنَ خَيْـرٍ وَشَـرّ
فـلا ينبـع الطـلُّ مـنْ جَفْنِـه وفـي صَـدْرِه قطعـةٌ مـنْ حَجَـرْ

* * *

فبـالعلـمِ كـانَ رقـيُّ الحيـاةِ تضـيءُ القـرونُ بـه والعَصـر
فَحَـوَّلَـهُ الغـربُ سيفـاً رهيبـاً لِمَحْـوِ البـوادِي وَقَتْـلِ الحَضَـرْ

* * *

تصيـرُ المـلائـكُ لـوْ جَـاوَرَتْهُـم معـاولَ[1] هَـدْمٍ لِمَحْـوِ البَشَـرْ
ولـو كـانـتِ الأرضُ جنَّـة عَـدْنٍ لِسُكَّـانهـا جَعَلُـوهـا سَقَـرْ

* * *

غـدا مظهـرُ العِلْـمِ فـي عَصْـرِهِـم بكـلِّ الشُّعـوب خِـدَاعـاً وَسِحْـرَا
معـاذَ الحقيقـةِ ، مـا ذاكَ سِحْـرٌ لقـد بـدَّلـوا نعمـةَ اللهِ كُفْـرَا

* * *

لَهُـمْ فِتَـنٌ تَجْعـلُ الـوَرْدَ شَـوْكـاً وتُـوقِـد فـي رَوْضـةِ الأمـنِ جَمْـرا

---

(١) المَعاول جمع المِعْوَل : آلة من الحديد يُنقر بها الصخر ، ويُهدَم بها البيوت .

خُـذِ السَّيـف مـن عُصبـة المعتـديـن إذا كُنْـتَ تَنْشُـدُ للحـقِّ نَصْـرَا

* * *

لَقَــدْ آنَ للــرُّوحِ أن تَسْتَفيــقَ وَلِلشَّــرْقِ أنْ يستبيــنَ الــدَّليــلا
لِيَجْعَــلَ أنقــاشَ هــذا البنــاءِ علــى الظَّــالميــن كثيبــاً مَهِيْــلا

* * *

إذا العَقْـلُ أذْعَـنَ لِلْقَلْـبِ حكمـاً رأى طــاعــةَ اللهِ أهْــدَى سَبيــلا
وإنْ لمْ يُجِبْ داعيَ القلبِ أضحىٰ كـإبليـسَ مكـراً وشـرَّاً وَبِيْـلا[1]

* * *

يَـرَى الغَـرْبَ يستغـلُّ البـرايـا[2] كمــا يَشْتَهــي دُوْنَ قيــلٍ وقــال
يــرى الآدمييــن مِثْــلَ القطيــع فَهُــمْ لفـمِ الـذئـبِ رزقٌ حَـلال

* * *

لَقَــدْ حــانَ تغييــر دُنيــا بهــا نـرى العَـدْل أمـراً بَعِيْـدَ المَنَـال
وسُــرَّاقِ أكفــانِ مــوتــى القبــور علــى يَــدِهِــم أيُّ خيــرٍ يُنَــال

* * *

ضَوارِي السِّباعِ التَقَتْ في جنيف[3] لِطَمْـسِ الهُـدى والتِهَـام العِبَـاد
قــد اقتسمــوا كُـرَةَ الأرض نهبـاً[4] وهــم نَخْــوَ تقسيمِهـا فـي اتِّحـاد

* * *

---

(١) وبيلاً : شديداً .
(٢) بَرَايا : جمع البرية ، وهي الأرض .
(٣) جنيف (Geneva) : مدينة في سويسرا .
(٤) نهباً : غصباً .

يقــولــونَ هــذي بــلادي لَكُـمْ ونحــنُ لنــا كــلُّ تلــك البــلاد
هنـــا ثـــورةٌ وهنـــا فتنـــةٌ بهــم نــارُهــا أبــداً فــي ازديــاد

* * *

لــكَ الأرضُ أم هــذه أرضُــه وأيُّكــم فــي حِمَــاهــا نــزيــل
بنفســك كــن واثقــاً مــؤمنــاً وعِــشْ كــافــراً بــالعــدوِّ الــدَّخيــل

* * *

فَمِنْــك إليــك العُــلا والهَــوان وَمَجْــدُك فــي الشَّــرْق عــالٍ أصيــل
كــرامــةُ أجيــالــه فــي يــديــك فــأنْــتَ لــه أو عَلَيْــه الــذَّليــل

* * *

علــى قــوة الحــقِّ تحيــا الشُّعــوب وتجتــازُ فــي المَجْــدِ حــدَّ المجــال
فــلا شعــبَ يقــوى بــلا وَحْــدةٍ تضُــمُّ الصُّفــوف لنيــلِ المَعَــالــي

* * *

ومهمــا سَمَــا الــرأيُ إنْ لــم يَقُــمْ علــى قــوةٍ فَهْــوَ زيــفُ الخَيَــالْ
وفــي قــوةٍ دونَ رأيٍ جُنــونٌ وجَهْــلٌ وطيــشٌ وعُقْبَــى وَبَــالْ

* * *

بنــا لَبِــسَ العِشْــقُ ثــوبَ الــدَّلال وفــاضَ علــى الكــونِ طيبــاً وَحُسْنــا
وفطــرةُ آدمَ فــي كــلِّ حــيٍّ رَوَتْهــا الخــلائــقُ فــي الــدَّهْــرِ عنَّــا

* * *

تَعَلَّمَــتِ الأُمَــمُ النَّــاهضــاتُ مــنَ الشَّــرْقِ دِينَــاً وعِلْمَــاً وَفَنَّــا
رفعنــا الحِجَــابَ عــنِ الكــائنــاتِ فَنَحْــنُ مــن الشَّمْــسِ والشَّمْــسُ منَّــا

* * *

إذا لاحَ فـي صَـدَفٍ جَـوْهَـرٌ   فَـذَلِـكَ مـنْ قَطْـرِ نَيْسَـانِنَـا
وإنَّ هَـدْرَ المَـوْجِ فـي بحـره   فَـذَلِـكَ مـنْ فَيْـضِ طُـوْفـانِنَـا

* * *

حـرارةُ شَـذْوِ الهَـزَارِ الطَّـروبِ   علـى غُصْنِـهِ بَعْـض نِيـرانِنَـا
سَقَيْنَـا دَمَ آدمَ قلـبَ الـوُرُود   فـأهـدىٰ رسـالـةَ إيمَـانِنَـا

* * *

فتـى الشَّـرْقِ أنْـتَ الـوَفـيُّ الأميـنُ   فـأظْهِـرْ يَـدَ العَـزْمِ للنَّـاس جَهْـرا
لِتَخْـرُجْ بيضـاءَ مـنْ غَيْـرِ سـوءٍ   وتُبْطِـلْ مـنْ فِتْنَـةِ الغَـرْبِ سِحْـرَا

* * *

عـلامَ ارْتَبَطْـتَ بِـزُنَّـارِهِ   وَكَيْـفَ اسْتَطَعْتَ على القَيْـدِ صَبْـرا
فَـوَحِّـدْ بـلادَكَ صـوبَ العُـلا   بـإيمـانِهـا تَلْـقَ عِـزّاً ونَصْـرَا

* * *

لَقَـدَ نَشَـرَ الغَـرْبُ أسـواقَـهُ   ومـنْ حَـوْلِـهِ الجُنْـدُ أقـوىٰ سِيَـاج
وَسِلْعَتُـهُ شَـرَكٌ للشِّـراء   ومَتْجَـرُه ظِـلُّ عَـرْشٍ وَتَـاج

* * *

لـه فـي التِّجـارة رِبْـحٌ ونَفْـعٌ   وبـالحُكْـم يـأتيـهِ كَنْـزُ الخَـراج
ويلقـاكَ بـالكلمـاتِ العِـذابِ   وفـي قَلْبِـه الحِقْـدُ خَلْـفَ الرِّتَـاج

* * *

فَكُـنْ فـي متـاجـره زاهـداً   ففيهـا الخَسَـارَةُ والمَغْـرَمُ
نسيـجُ بـلادِك أقـوى خيـوطـاً   وَقُطْنُـكَ مـنْ خَـزِّه[1] أنْعَـمُ

---

(١) خَزّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهـــازُ المنـــايـــا بـــدُولابِـــه يَـــدُورُ وأنْـــتَ بـــه أعْلَـــمُ
يميتـك بـالغـشِّ مـنْ غَيْـرِ حَـرْبٍ وأنْـــتَ لـــه الـــرِّبْـــحُ والمَغْنَـــمُ

* * *

إذا جـاء يَعْـرِضُ نَقْـشَ البِسَـاطِ فَـدَعْـهُ وَعِـشْ راضيـاً بـالحَصِيْـرِ
وإنْ وَصَلَتْــــكَ بِــــهِ رُقْعَـــةٌ فـلا تُعْطِـه بَيْـدَقـاً[1] بـالـوَزيـرِ

* * *

جـــواهـــرُه بَهْـــرجٌ[2] زائـــفٌ لِجَمْـعِ النُّقـود وَبَيْـعِ الضَّمِيـرْ
ونـافِجَـةُ[3] المِسْـكِ فـي سُـوقِـهِ مِـنَ الكَلْـبِ لا مـنْ غَـزَالٍ غَـرِيـرْ

* * *

تَنَبَّـــهْ لهـــذا الـــدَّخيـــلِ الَّـــذي تَفِـــرُّ الثَّعـــالـــبُ مـــنْ مَكْـــرِهِ
ولا تَتعمَّــــم بِمَنْسُــــوجِــــه ولا تُغْمِـضِ العَيْـنَ عَـنْ غَـدْرِهِ

* * *

وإمَّـــا مَـــرَرْتَ علـــى حـــانَـــةٍ تَعَـــوَّذْ بِـــرَبِّـــكَ مِـــنْ شَـــرِّه
فَمَـــنْ ذاقَ خَمْـــرَتـــه لَـــمْ يَعُـــدْ إلـــى دارِه بَـــلْ إلـــى قَبْـــرِه

* * *

بـــأصبـــاغِـــه وبـــألـــوانِـــه تَضِـــلُّ البَصِيْـــرةُ قَبْـــلَ البَصَـــرْ
بِسِلْعَتِـــه قـــد غَـــدَوْنـــا سُكـــارى وصـــاحِبُهـــا بـــالغنـــى قَـــدْ سَكِـــرْ

* * *

(١) البَيْدَق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .
(٢) البَهْرجُ : الباطل .
(٣) النّافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِـنْ جَهْـدِ كَسْبِكَ مـا يَجْتَنِيـهِ   ومـا يَقْتَنِيـهِ ومـا يَـدَّخِـرْ
ومِنْـكَ الغِـذَاءُ معـاً والكِسَـاءُ   لـه فـي نعيـمٍ وعَيْـشٍ نَضِـرْ

* * *

وإنَّ ذوي الفَضْـلِ فـي كـلِّ شَعْـبٍ   علـى مَجْـدِ أُمَّتِهِـمْ سَـاهِـرُون
فَهُـمْ بسـواعـدهـم يعملـون   وهُـمْ فـي مَـوَاطِنهـم يَـزْرَعُـون

* * *

ومـن أرضهـم كـلُّ مـا يُنْتِجُـون   ومـا يَـأكُلـون ومـا يَلْبَسُـون
فيـا مـنْ غـدا مُنْكـراً ذاتَـه   إلـى أيـن يَمْضـي بِـكَ المَـاكِـرون

* * *

وكـمْ بِعْـتَ مَحْصُـولَ زرعٍ لـه   رَخيصـاً وأنـت غـداً مُشْتَـريـه
يعـودُ بـأضعـافِ مـا نِلْتَـهُ   بـربـحٍ سَخـيٍّ لِمُسْتَـوْرِدِه

* * *

كـأنَّـك لـمْ تَشْـقَ مـنْ أجلـه   ولا كُنْـتَ فـي الأرض مـنْ زَارِعِيْـه
أفـي البَحْـر لـؤلـؤه   كـامـنٌ ومـنْ يـد غـوَّاصِـه يَشْتَـرِيـه

* * *

شكوى ومُنَاجاة

كان محمد إقبال كثيرَ الاعتداد بالإيمان ، شديدَ الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوتُه وميزتُه ، وذخرُه وثروتُه ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدةٍ أجنبية ، أو أن يروي غُلَّته من معينٍ غريبٍ يقول : **« رفقاً يا رسول الله بفقيرٍ غيورٍ أبيٍّ النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب »** .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال[١] (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومُثُلِها وقِيَمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطَّمت الأصنامَ القديمةَ كاللاتِ ومناة ، وجدَّدت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقنته إيَّاها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

---

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيابرديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُفْ حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثُك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيَّةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثِّل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبُهم وضمائرُهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رقاقٌ كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النَّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الصُّقور التي تحلق في السماء عصافيرَ صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلمُ لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبُه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكِّر إلا في المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منّة مئةِ إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطِّم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرَّةً ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يَثُلُّوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسمَ هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العِنان ، وقفْ بي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنَّني في صراعٍ بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إيَّاك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكنَّ الشَّوْقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهِدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرَّدت من لوعة القلب ولهيب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليَّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدتُه ، إنَّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمِّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنّني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنَّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنَّ عليَّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنَّ قيمة الجسم بالروح ، وإنَّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنَّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أَحَدّ ، وقوى أَشَدّ ، حتى أتم مهمَّتي ، وأحقِّق رغبتي ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهبي فضعني على المِسَنِّ ، فإنني حديدٌ منْ مَعْدِنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيَّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافرِ جوادكَ الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدُّنيا ، إنما يتسلَّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديَّ لوعة العرب ، اسمحْ للهنديِّ أن يَمْثُلَ بين يديك ، ويتحدَّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطبٍ في الصحراء مرَّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبُ السَّير ، فمضى وخلَّفه ، وبقيَ الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركْبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[1] ؟ .

* * *

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يـا رأسَ مـالِ البـائسيـنَ ويـا مَنَـارَ الحـائـريـن
ادعُ الإلـٰـهَ يَهَـبْ لأمَّتِـك : الشَّجـاعـةَ واليقيـن

* * *

ويعيذُهم منْ شرِّ خوفِ المَوْتِ منْ قَبْلِ المَمَاتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهمْ على قيدِ الحياةِ

* * *

يا منْ هَدَمْتَ اللاَّتَ والعُزَّى وحرَّرت الحَرَمْ
وبنيـتَ أعلـى أمـةٍ تَهْـدي بِسِيْـرَتهـا الأُمَـمْ

* * *

ذكـرُ الإلـٰـه ويَقْظَـةُ الـوجْـدان فـي إنـسٍ وجـان
منْ فَيْضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبحِ يا صَوْتَ الأذان

* * *

فحرارةُ الإيمان في القَلْبِ المَشُوْقِ إلى النِّضال
وسراجُ ليلِ الفِكْرِ (لا معبودَ إلا ذو الجَلالِ)

* * *

لَمْ نتَّخذْ في الكونِ ربّاً من رُخَامٍ أو حَجَرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٢٠١ ـ ٢٠٦ .

كـلا ولـم تَسْجُـد لنجـمٍ أو نبـاتٍ أو بقـر

* * *

لـم نلـق جبهتنـا لـدى الكُهَّـان فـي ذُلٍّ حقيـر
لـم نحـنِ هـامتنـا لسلطـانٍ قـويٍّ أو أميـر

* * *

منْ فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفَضْلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرْحِ المَجْدِ في توحيد ربِّ العالمين

* * *

ذكـراكَ وردٌ سـائـغٌ يحلـو بـه العيـشُ المَـريـر
وبِغَيْـرةِ الإيمـان صـار الـدِّيـنُ كنـزاً للفقيـر

* * *

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريق السَّالكين
يـا مَـنْ إلـى أنـوارِه تهفـو قلـوبُ العـاشقيـن

* * *

قِيثَارتي[1] ثَقُلَتْ وأعْيَاها التَّجاوبُ والرَّنين
أوتـارهـا لا تستجيـبُ إذا عَـزَفْـتُ ولا تبيـن

* * *

فـإذا نصحـتُ فـإنَّني نـاديـتُ مـنْ لا يسمعـون
وإذا نَهَيْـتُ فـإنَّمـا أسْمَعـتُ مـن لا يَنْتَهـون

* * *

---

(١) القِيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طوَّفْتُ في أرض الأعاجم ثمَّ في أرض العرب
لم ألق فيها المصطفى ولكمْ رأيتُ أبا لهب

* * *

عجبي لهذا المسلمِ المزهوِّ بالعصر المنير
لا همَّـةٌ تحـدو خُطـاه ولا سِـرَاجٌ فـي الضَّميـر

* * *

وأرى شباباً واهن العزماتِ في لينِ الحرير
وُلدَتْ أمانيه فكانَ المهدُ مصرعَها الأخير

* * *

ذاكَ الغُـلامُ بـنُ الغَـلامِ بـنِ الغُـلامِ بـنِ الغُـلامِ
فـي شَــرْعِــه تحــريــرُ أمَّتِــه محــالٌ أو حَــرام

* * *

الــدِّيــنُ ليــس لــه بِــدُنْيــاه زمــانٌ أو مكــان
كــلُّ الــذي أدْريــه عنــه أنَّــه بــالأمــسِ كــان

* * *

عـن ذاتِـه أضحـى غـريبـاً مُستهـامـاً بـالـدَّخيـل
بـذلُ الكـرامـةِ عنـده ثمنـاً لِمَطْعَمِـهِ الـذَّليـل

* * *

كالطَّير غايته التقاط الحبِّ في ظلِّ القُصور
هــو طــائــرٌ لكنَّـه لــم يَــدْرِ تحليــقَ النُّســور

* * *

قَدْ ذابَ في نارِ الفِرنْجِ فما له عنها مَحِيْد[1]
وأَتَتْـه نـارُ جهنـمَ لكـن بـأسلـوبٍ جَـدِيْـد

* * *

هـو مـؤمـنٌ لكنَّـه مـن جنَّـة الشُّهـداءِ هـارِبْ
ليستقـرَّ بقلبـه أنْ (ليـس غيـرَ الله غـالـبْ)

* * *

ذاكَ الـذي فَقَـدَ اليقيـنَ وقلبُـه فَقَـدَ الحَيَـاه
وطعـامُـه وشـرابُـه ومنـامُـه أغلـى منـاه

* * *

وتـراهُ بـالمِنَـنِ الثِّقَـال مقيَّـداً ومُكَبَّـلا
مِمَّنْ يقولُ : (نعم) وممَّن لا يُجيب بِغَيْرِ (لا)

* * *

فَلْيَصْـحُ مـن غَفَـلاتِـه ليعـودَ حيَّـاً قلبُـه
ويعيـشَ فـي أوجِ الكـرامـةِ هـاتفـاً (اللهُ هـو)

* * *

مـدنيـةُ الإفْـرَنْـجِ مـاضيـةٌ بنـا نَحْـوَ الـزَّوال
قَتَلَـتْ مـواهِبَنـا بـلا حـربٍ تـدورُ ولا قِتَـال

* * *

فاكْشِفْ لقومِكَ عن كريمِ النَّفْس مُتَّقدَ الحياه
ثمِـلٌ يحـبُّ الله لا يَـرْجُـو ولا يَخْشَـى سِـواه

---

(١) فماله عنها محيد ، أي : ماله منها مفر .

وإذا تبيَّـن مسلـمٌ فـي ذاتـه شَـرَفَ المَكَـانَـهْ
أخْلِقْ به في الدَّهْرِ أنْ يختارَ في الدُّنيا مَكَانَهْ

* * *

أيُّهـذا الفـارسُ المِغـوار أمْهِـلْ فـي المسيـر
واحْبسْ عِنَـانَـك لمحـةً تَسْتَقْبِـلِ القَمَـر المُنير

* * *

أَملي على شَفَتيَّ مُحْتبسٌ عنِ النُّطْقِ احْتَجَبْ
والشَّوقُ يقتحمُ المَقَامَ فليس يحكمُه الأدب

* * *

هذا يقولُ أَبِنْ عن الشَّكوى ولا تَكْتُم أسَاكْ
ويقولُ ذاك انظر ولا تَهْمسْ بحرفٍ عَنْ جَوَاكْ

* * *

أنْتَ الهدايةُ والدَّليلُ وأنتَ عِرْفاني وَفِكْري
وسفينتي في الدِّينِ والدُّنيا وطوفاني وَبَحْري

* * *

زادت بي الأنَّاتُ والعَبَراتُ حتَّى عِيْل صَبْرِي
فإلى متى هذا اللهيبُ يظلُّ مطوياً بِصَدْري

* * *

فلَمْ يَبْقَ للأرواحِ في شوقِ العِبَادَةِ منْ أثَرْ
لمْ يَبْقَ لُطْفُ تلاوةِ القُرآن في وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

قَدْ كُنْتِ يا شمسَ الخليقةِ منقذاً في النَّائبات

وأبـرَّ بـالعـاصيـن رفقـاً مـن قلـوب الأمَّهـات

* * *

فـي حَـزبِ عبَّـادِ الظَّـلام أصـارعُ الـدَّاء العَيَـاءْ
فامنحْ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضِّياء

* * *

كلُّ الخمائلِ[1] في رياض الكَوْنِ أنْتَ ربيعُها
مِنْـكَ الفـواضِـلُ كلُّهـا والمَكْـرُمـاتُ جميعُهـا

* * *

الجِسْـمُ فـي بُنيـانـه بـالـرُّوح يَكْتسـبُ الحَيَـاهْ
لكنْ حياةَ الرُّوحِ في قُرْبِ الحبيبِ وفي رِضاهْ

* * *

انظُرْ إليَّ فأنتَ بالجَدوى وبالإحْسَان أوفى
إنْ لمْ أكنْ بِهُداك مِفْتاحاً ، أكنْ بحماك سيفا

* * *

لي محنةٌ منْ دُونها قطعُ الصُّخورِ منَ الجِبَالْ
فاجعلْ لفأسي مِنْكَ حدّاً ماضياً عِنْدَ النِّضالْ

* * *

إنْ كانَ عُمري قد بدا خِلْواً من المَحْصُولِ جَدْبَا
ما زلتُ أملكُ مضغةً[2] يدعونها في الحُبِّ قَلْبا

---

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلة : كل موضع كثر فيه الشجر .
(٢) المُضْغَة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أخفيتُـه لأكـونَ فـرداً فـي هـواكَ وفـي رِضَـاكْ
وعليه خاتمُ حُبِّك الغالي فَلَيْسَ به سِوَاك

* * *

إنَّ الـذي لا يبتغـي مـن هـذه الـدُّنيـا متـاعـا
إنْ لمْ يَنَلْ قُرْبَ الحبيبِ تكونُ دُنياه ضَيَاعا

* * *

كمْ ذا يُعاني القلبُ منْ نارِ اللَّواعجِ والشُّجُون[1]
وَيَئِـنُّ مِثْـلَ النَّـاي بـالشَّكـوى لِمَـنْ لا يَعْلمُـون

* * *

قَدْ خَلَّفَتْهُ على رُبى الصَّحْراءِ قافلةُ الرِّفاقْ
كَهَشِيْمِ غُصْنٍ يَصْطلي بالجَمْرِ في نِصْفِ احْتِرَاقْ

* * *

يَـرْنُـو إلـى البَيْـداءِ والمُـدُنِ الـرَّحيبـة والفَضَـاءْ
فعسـى تمـرُّ قـوافـلٌ أخـرى تُعِيْـدُ لـه الـرَّجـاءْ

* * *

يا مَنْ خَلَعْتَ على صلاحِ الدِّين حُلَّةَ خالدِ
فمضـى بِعِـزٍّ دائـمٍ يبقـى وَمَجْـدٍ خـالـدِ

* * *

(١) الشُّجون : الهموم والأحزان .

الدِّيْوَانُ التَّاسِعُ

هَدِيَّةُ الحِجَازِ
أرمغان حجاز

نَقَلَهُ مِنَ الفَارِسِيَّةِ شِعرًا

الدكتور حسين مجيب المصري

نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسيِّ والأردويِّ معاً ، وهو يتألَّف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسيَّة والعصرية التي تهدِّد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأَّس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأيُ أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدوِّ ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسيَّة .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرُّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهيّ هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكُّلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دلَّهه الشوق والتوق ، فيقول معبِّراً عن وجده وكمده :

هيـاجٌ مـاجَ فـي مـاء وطيـن بـلاءُ العشـقِ مـنْ قلـبٍ حَزيـن
قَـرَاري بـرهـةٌ حقـاً حـرام فرفقاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في عشقِ الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ بالمعنى الأصحِّ الأدقِّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من المادية بصفائها :

لـي الـداريـن إنِّـي لا أريـدْ وحسبـي فهـم مـا روحٌ تفيـدْ
فهبنـي سجـدتـي فيهـا احتـراقـي ومنهـا الكـون فـي وجـدٍ يميـدْ

غير أن إقبالًا حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلع نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ، فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجَّع ويتوجَّع للخلق وقد تردَّوا في ضلالهم وتحيَّروا في طريقهم ، وعزَّ عليه ألا يذكُرُهم وهو في مناجاة ربه ، فجأر بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب نفسه داعية حقٍّ يبيِّنه لهم ليضع أمرهم في نصابه :

علـى قـومٍ إلهـي فلتُعنِّـي كَـرَاعـي الضـأن عـالِمهُـمْ بفـنٍّ
رأت عينـاي مـا يقـذي عيـونـاً ألا يـا ليـت أمـي لـم تلِـدنـي

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعايبهم في رأيه ، كان على ذكر من الإنسانية ، ولم يفُتْهُ أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزَّأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوّعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقليّ والروحيّ وهو يقول :

إلهي زِنْ لنا خيراً وشرا هب الدنيا نعيماً مستمرا
وشاهدنا خلقنا من تراب لنجعل عالم الغبراء نضرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائنٍ من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضحَ التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مساءٌ مثل صبحٍ قد تبسَّم تمطّى صبحُها والليلُ أظلَم
تمهَّل إن خطوت على رمالٍ كقلبي كلها قلبٌ تألَّم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولِّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساءه أن يكون للمسلم قلبٌ أقْفَرَ من حبيب ، وهو يلمّح بذلك إلى أنَّ صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقَّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلامِ إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غدٍ أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداء والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربأ بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلِّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منطوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صدَّره بقوله « **صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى** » وتندرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد ليبصِّرها بمبادئه المثالية ونزعته الإنسانية ، ويبذل النصح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفراده ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبئسما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل وينتزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبر مقتاً عنده تعالى :

ولاةُ الأمرِ من ربِّي لشعبٍ ... زماماً يملكون لكلِّ أمرِ
ولكن لا يحب الله شعباً ... به الفلَّاح يزرعُ كيْ يلبِّي

ويخصُّ الذاتية بالذكر لأنَّه من يجلُّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تفنى في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة . وها هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لذاتك لا إله فضم مرَّه ... لتُخرِجَ من ترابٍ مات نَظْرَه
ولا تقبض يمينك عن وجودٍ ... له القمران في وهق يجرَّه

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملاَّ » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السلبيين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في توكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلظ اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ آخذ بالمظهر لا يتجاوزه إلى الجوهر ، أما الصوفيّ في عزلته وسلبيَّته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من مراء :

لمُلَّا أو لصوفيٍّ أسير ! وفي القرآن للعيش الكثير
من الآيات ما أدركتَ شيئاً ومن ياسين بُغْيَتَكَ الحَقِير !

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة نفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتها وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه ليقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتمس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلَّى دعوته إلى التأدُّب بآداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيه حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أماً صالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقرأ حتى رق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحرِّياتِه وأَدَ الطغاة

كما أنه يقدح في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلِّدوا ، وتلك منه دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهميّ لا يكل عن العمل الدائب ساعدُه القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى الغايات ويبتغوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن العلم مقطوع الصلة بالعشق ، ثائرٌ متمرِّد كالشيطان . أما إذا زاوجه العشق فهو إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم بفضل منه نعمة للبشر .

القسم الأوّل

(بالفارسيّة)

أَلَا يا حبَّذا تِلكَ الطريقْ تطولُ ولَا يؤَانِسها الرفيقْ
لها الزفراتُ، فافتحْ منكَ قلباً لتحرقَ فيه حزناً لا تطيق

القسم الأول[1]

(المترجم من الفارسية)

مَنَاجَاة

(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .

في الحضرة الإلهيَّة

لقــد سلبــوا لنــا قلبــاً ومــرُّوا   وكــانــوا شعلــةً خمــدتْ ومــرُّوا
عــوامّ القــومِ عــايشْهــمْ رُويــدا   فــإن خــواصهــم ثمِلُــوا ومــرُّوا

* * *

أطَـالُـوا القـولَ شَكّـاً فـي وجـودي   وقـد أقصـرتُ عـن قـولٍ سـديـدٍ(١)
لحـيّ القلـبِ هـل تـدري سجـوداً   علـيّ احكـم بهـذا مـن سجـودي

* * *

فـؤادي كـان قيـدَ الكيـفِ والكـمّ   يـرى لكـن وراءَ البـدرِ إن تـمْ
خـلاء هبـه حتـى فـي سعيـر   بخلـوتـه كفـوراً فهـوَ يهتـمْ
هيـاجٌ مـاجَ فـي مـاءٍ وطيـنْ   بـلاءُ العشـقِ مـنْ قلـبٍ حـزيـنْ
قـراري بـرهـةً حقـاً حـرام   فـرفقـاً ، شـأنُ قلبـي مـن شـؤونـي

* * *

أجبنـي مـن عـن الـدنيـا تخلَّـى   لهـا حسـن ، لمـن حُسْـنٍ تجلَّـى(٢)
تقـولُ احـذرْ مـن الشيطـان لكـنْ   أتعـرفْ مـوجِـدَ الشيطـانِ أم لا ؟

* * *

ولـي قلـبٌ طليـقٌ فـي عـذابِ   نصيبـي مـن عتـابٍ أو خطـابِ

---

(١) أقصر عن القول : سكت عنه .
(٢) تخلى عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليسَ أنا ما سؤت قلباً   خطيئة كلٍّ حينٍ من صوابِ
صبنتِ الكأسَ عنا أمَّ عمرو   وكان الكأسُ مجراها اليمينا[1]
إذا ما كانَ هذا دأبَ عشقٍ   بكأسكَ فاضربِ البيتَ المصونا[2]

***

أسيرُ هوى ، على النفس انطواءُ   به ألمٌ ومَا يجْدِي دَوَاءُ
عجيبٌ أَنْ تُكَلِّفِني سُجُودَا   خراجُ الأرضِ والأرضُ الخلاء !؟

***

بلا أمدٍ تراخى بي طريق   نثرتُ الحبَّ ، أين لي الوريق[3]
من الآلامِ لا أخشى ولكنْ   بهذا القلبِ هبْ ألماً يليق
سريع السكر لا تُرشِف شرابي   وأبعد عن غريرٍ في ارتياب[4]
عن القصباءِ يحسن بُعد نارٍ   خواصَّ القومِ وحدهمُ فحابِ[5]

***

ألنت لقيتَ في طلب لغوبا   وما أصليتُ في شوقٍ لهيبا[6]

---

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصبنت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمعات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الدأب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمر بن الفارض خمرية مشهورة مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وإنّي هارب من لا مكاني		فَنوحُ الوَهْنِ لم يُشْجِ القُلُوبا[1]

* * *

أثِرْ دنياك خذ مني المثيرا		بها التغيير فاجعله الكبيرا
لك الإنسان فاخلق من ثراها		أبِرْ من كان للمال الأسيرا[2]

* * *

بنورِ الشمسِ دنيانَا ظلام		وليس الحقُّ ما أدّى كَلام
إلى كم ، إنَّ دنيانا خراب		سيكسوها دماءهمُ الأنام[3]

* * *

---

(١) الوهن : منتصف الليل . ويتردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يبعثنا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي، وقد تابعه على ذلك الفارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين. والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حدٌ اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء متمكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشيئان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمنعه من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما يتناهى الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده. ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار، فيقول إن الإناء قد يمتلىء بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلىء الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره . ولقد دلتني الدكتورة سهير فضل الله مدرّسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضـــاك ، فــإنـنــي عبــد ذليــل بــأمــر منــك يمضــي بــي السبيــل
إذا مــا قلــت سَــمِّ العَيــر طــرفــاً فهــذا القَــول حقــاً لا أقــول[1]

* * *

فــؤادي ليــس فيــه مــن حُبُــور ومن لهب خلا من تُربي ونور[2]
صــلاتــي تلــك خــذ منهــا ثــوابــاً صلاتي ليس فيها من حضور ![3]
أعــن ديــنٍ وعــن وطــنٍ كــلامــي وهــذا الســرّ يُطــوى بــالتمــامِ
فــلا تغضــبْ ، جَفَــوْتَ ومِــنْ جَفــاءٍ بنيــتَ الــديــرَ يبــدو كــالحطــامِ[4]

* * *

مــن الإفــرنــجِ إن ضــاقــت قيــودُ فقلبُــك لا يحقِّــقُ مــا يــريــد
علـــى عتبـــاتِ غيـــرِ الله وجـــهٌ تَعفَّـــرَ لا يليـــق بـــه السجـــود[5]

* * *

لـــي الـــداريـــن إنـــي لا أريـــد وحسبـــي فهـــمُ مـــا روحٌ تفيـــدْ
فهبنـــي سجـــدتـــي فيهـــا احتـــراقـــي ومنهـــا الكـــون فـــي وجـــدٍ يميـــدْ[6]
أنـــا المكســـالُ مـــا تبغيـــهِ منّـــي أهبَّـــتْ هبـــوةٌ لـــم تقتلِعنـــي[7]

---

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .
(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .
(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .
(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .
(٥) تعفر الوجه : تمرغ في التراب .
(٦) يميد : يتحرك ويضطرب .
(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتثيره .

رأيـت ابنـي يصلـي فـي صبـاحٍ مسـائي فليقـلْ بـالصبحِ زِنّـي[1]

* * *

علـى قـومٍ إلهـي فلتعنّـي كـراعـي الضـأنِ عـالمُهُـمْ بفـنٍّ[2]
رأتْ عينـايَ مـا يقـذي عيـونـاً ألا يـا ليـت أمّـي لـمْ تلِـدْنـي[3]

* * *

إلامَ بعيـنِ عتبـكَ أنـتَ تنظـر وأصنـامٌ لـديـك إلام تحضـر
لأبنـاءِ الخليـلِ رأيـتَ دارا ونمـرودُ يـربُّهـمُ ويكفـر[4]

* * *

أيـرجِـعُ مـنْ نعيمـي مـا تـولّـى ومِـنْ أرضِ الحِجازِ الـريحُ ؟ كـلّا
وهـذا العمـرُ يـالهفـي تقضّـى فهـلّا عـادَ مـن أحببـتُ هـلّا ؟

* * *

إذا مـا جـاء مـن ذا السـرِّ يعـرفْ بلحـنِ القلـبِ أسمـاعـاً فشنّـفْ[5]
وروحَ القلـبِ مَـنْ أبقـى ونقّـى كليـمٌ أو حكيـمٌ وهـو يعـزف[6]

* * *

---

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزنّي : من زان يزين .
(٢) راعي الضان مضرب المثل في الجهل .
(٣) أقذى العين : أوقع فيها القذى . وهو ما تتأذى به من غبار أو نحوه
(٤) الخليل : سيدنا إبراهيم عليه السلام . يرب : يربي .
(٥) شنف في الأصل بمعنى جعل له شنفاً أي قرطاً ، وشنّف كلامه : زيّنه وحلاه وشنف السمع : زينه وأطربه .
(٦) يتردد في الشعر الصوفي ذكر العزف والغناء على أنهما رمز لنشوة العشق الإلهي . ويمكن القول إن الحسناء والصهباء والغناء تؤلف وحدة قلما نجد انفصاماً بين مقوماتها الثلاثة .

أرجّـي لـي فـؤاداً قـد تـوجـع شكوتُ فمن شكاتي سوفَ يَسمعْ
بـزهـرٍ قـانـيء يـزدان قبـري عديم النطق دامي اللحن موجعْ[1]

* * *

أسيـرُ القلـبِ لا يفـدي الأسيـرا وليـس يـزيـدُ مـن ألـمٍ كثيـرا
وينفـخُ فـي الثـرَى الأنفـاس دومـاً ورامَ الأكـلَ أو سكـنَ الحفيـرا[2]

* * *

مـن الأضـلاعِ لـي قلـبٌ يفـرُّ تبقـى صـورةٌ معنـاهُ سـرّ
طـريـدُ البـابِ يفضلنـي كثيـراً رآهُ اللهُ ، لـي فـي السمـعِ ذِكْـر

* * *

نـداءُ جبـرئيـل ليـس يـدري ففـي طلـبِ مقـامٌ طـيٌّ سِـرْ
وهَـذَا عبـدُك المسكيـنُ سَلْـهُ عـنِ الآمـالِ فـي حلـوٍ ومُـرْ
صفـاتٌ هـبْ لخسـرو أو لـرومـي وَجُـدْ لـي مـن سنـائـي بـالمـروم[3]

---

(١) القانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفير : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .
والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنئذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المثنوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا على ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

أَلفـــتُ صفـــاتَ عبـــدٍ منـــذ دهـــرٍ | فليـــس لكـــل هـــذا مـــن لـــزوم
فقيـــرٌ عـــفَّ عـــنْ لبـــسِ المـــرقَّـــعْ | لهـــذا منـــه جبـــريـــلٌ تَـــوجَّـــعْ
لـــدَينـــا أمـــةٌ أخـــرى لنَخْلِـــقْ | بهـــا كـــلاًّ عـــنِ الـــدنيـــا لنَـــرفَـــعْ

* * *

وشعـــبٌ منـــه جهـــدٌ فـــي التَّـــأنِّـــي | ومِـــنْ إبَـــرٍ تَـــرَاه الشهـــدُ يُجْنَـــى
وذاكَ بعـــالـــمٍ مَـــنْ ليـــسَ يَـــرْضَـــى | فتحـــت العـــالَميـــن الظَّهْـــر يُحْنَـــى

* * *

وقـــومٌ وحَّـــدُوا عِنْـــدَ ابتهـــالِ | أنـــارُوا الفجـــرَ مِـــنْ جـــوفِ الليـــالـــي
رأوا فـــي الشمـــسِ صبحـــاً مستقـــراً | فـــأبـــدتْ نهـــجَ نجـــمٍ مـــنْ رِمَـــالِ(١)
لحفـــلٍ فـــي الليـــالـــي كنـــتُ زينـــا | نقَصْـــتُ وكنـــتُ بـــدراً ذاقَ أينَـــا(٢)
وفـــي هـــذا التغـــافـــلِ كَـــمْ أفـــاضـــوا | ولكنـــي تـــركـــتُ الجمـــعَ وهْنَـــا(٣)

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .
أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواهيه ، ويئن تألماً من جفاء الخلان وصروف الزمان .
غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيح الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنية في الإنجليزية وحاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبانة لأنها تشبه طريقاً تناثر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبان الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كهــذا العصــرِ عصــراً مــا رَأيْنَــا حــزيــنُ القلــبِ جبــريــلٌ عَلينَــا
هُنَــا قَــدْ شيَّــدوا ديــراً عجيبــاً يــزيــد لمــؤمــنٍ كُفْــرٌ لــدينــا !

* * *

أرَى دنيــاكَ فــي أيــدِي اللئــام ولِــلأحــرَارِ فــي أســرِ مُقَــام
فَضيــلٌ بَيــنَ مَــنْ فَقِهُــوا أمــوراً يعيــشُ كمثــلِ نســرٍ لا الأنــام[1]

* * *

مــريــدٌ قــال عنــدَ الشيــخِ يــومــا إلهــي لــمْ يحِــطْ بــالنــاسِ عِلْمَــا ؟!
كَمِثْــلِ العــرقِ فــي عنــقٍ قــريــبٍ وليــسَ كبطنِنَــا فــي القُــربِ حتْمــا

* * *

لأرضِ الهنــدِ حــالٌ بَعــدَ حــالْ وهــذا الكــونُ أمســى فــي اختِــلاَلْ
إلينــا كيــفَ تطلــبُ أن نصلــي بــرأسِ الجيــشِ عبــدٌ كــالمحَــال
ويَحْكــمُ مسلــمٌ فــالنفــسَ بــاعــا وآذانــاً وعينــاً قَــدْ أطَــاعــا
وهَــتْ أجْسَــادُنَــا مِــنْ إصْــرِ حُكْــمٍ فــآدَ الشــرْعُ متنــاً والــذِّرَاعَــا[2]

* * *

إلهــي زِنْ لَنَــا خَيــراً وشــرّاً هــبِ الــدنيــا نعيمــاً مستمــرّا
وشــاهَــدْنــا خُلِقْنَــا مِــنْ تــرابٍ لنجعــل عــالــمَ الغبــراءِ نَضْــرَا[3]

* * *

خُلــودُ المــرءِ فــي الــدنيــا عَــرِفتــا وعــنْ مَــوْتِ الفجــاءةِ مــا سمعتَــا
ووقتُــكَ لــنْ تُعَــرِّضَــهُ لنقــصٍ أإن خلــدتَ قــالــوا قــد ضُــرِرْتــا ؟!

---

(١) الفضيل : ذو الفضل .
(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظهر .
(٣) الغبراء : الأرض .

إنِ الـدنيـا دنـتْ مِـنْ منتهـاهـا أبـانَ الـدهـرُ أسـراراً طـواهـا[1]
فـلا تفضـحْ لـدى الـرحمـنِ أمـرِي حسـابـي صفحـةٌ مَـا إنْ رَآهـا !

* * *

بقيــتُ هنــا وَلــي روحٌ تسِيــر إلـى البطحـاءِ أشـواقـي تَطِيـر[2]
خـواصَّ القـومِ عـايشهـمْ ، تلبَّـثْ بشـوقِـي دارَ مَـنْ أهْـوى أزور[3]

* * *

---

(١) أبان : أظهر .
(٢) البطحاء : مكة المكرمة .
(٣) عايشهم : عش معهم . تلبث : ابق .

القسم الثاني

الرِّسَالَة

تمهــلْ لا تُقِــمْ تلــكَ الخيــامــا   دليـلُ الـركـبِ فـي البيـداءِ هـامَـا[١]
وهــذَا العقــلُ نعــدمــه دليــلاً   لــذا أسلمــتُ للقلــبِ الــزمــامــا

* * *

ســويــدائــي بهــا ألقيــتُ نظــره   بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فَتْره[٢]
بــريــحِ للمــدينــةِ ضقــتُ ذرعــاً   لقلبــي مــن نسيــمِ البيــدِ خطــره

* * *

ولــي قلــبٌ لمــنْ كــانَ الشهيــدا   هــو الخفــاقُ يــألــفُ أنْ يميــدَا[٣]
إلــى الصحــراءِ أحملــهُ فيــأســى   علــى شــطِّ الغــديــرِ بَكَــى وليــدَا[٤]
ولا تســألْ عــنِ الــركــبِ السُّكــارى   فمَــا يــرْضَــون تِلــكَ الــدَّارِ دَارَا
يهــزُّ قُلُــوبهــمْ جَــرَسٌ مــدوٍّ   نسيمــاً فــي ذُرَى القَصْبَــاءِ ثــارَا[٥]

* * *

ليثْـرِبَ كــانَ فــي كُبْــرَى رَحِيلِــي   وَبــي فَــرَحُ اللقــاءِ مَــعَ الخليــلِ
كَــأنِّــي الطيــرَ قبــلَ الليــلِ يمضِــي   ويَبْغِي العشَّ في الرَّوْضِ الجميلِ

* * *

أَدَانــوا عــاشقــاً رَشَــفَ المــدَامَــا   وَكَــمْ لِمحنَّــكٍ عَــابُــوا الكَــلاَمــا

---

(١) الركب : راكبو الإبل ، وفي الأصل القافلة . والبيداء : الصحراء . وهام : سار على غير هدى .

(٢) السويداء : حبة القلب . استروح : استراح .

(٣) يميد : يتحرك في اضطراب .

(٤) يأسى : يحزن . الغدير : النهر .

(٥) ذرى القصباء : أعالي القصب في منبته .

عَلَى نَغَمِ الحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي وَمَا إنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامَا[1]
أَتَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتٍ لِلَحْنِي وَمَاذَا يَعْرِفُ النُدْمَانُ عَنِّي[2]
لَقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّحْرَاءِ رَحْلِي وَفِيهَا أخْتَلِي حَتَّى أُغَنِّي[3]

* * *

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرِفْقِ سِيرِي بشيخٍ فَارْفِقِي دَنِفٍ حَسِيرِ[4]
وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْراً عنيفاً أَتَخْطُو فِي الرِّمَالِ أمِ الحريرِ!

* * *

ويا جمّالُ عنها اطرح عقالاً لِرُوحِي رُوحُهَا كَانَتْ مِثَالاً
تَهَادَتْ مَوْجَةٌ أَيْقَنْتُ مِنْهَا بِأَنَّ عَلَى الفُؤادِ الأسرُ طَالاً
تَرَقْرَقَ دَمْعُهَا سُودَ العيونِ ومِنْ زَفَرَاتِها كَانَتْ شُجُونِي
مُدَامٌ أُضْرِمَتْ فِي القَلْبِ نَارَا بِنَظْرَتِهَا كموجٍ يَخْتَوِينِي

* * *

وفِي الصَّحْرَاءِ قَافِلَةٌ تَكُون وفِي تودِيعِها خَفَقَتْ لُحُون[5]

---

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رأيه في السماع رأي حجازي وفي الشراب رأي أهل العراق

(٢) المقام : من مصطلحات الموسيقا . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الفناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : النديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصحبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحون : الألحان .

أَلَا فــاسجُــدْ عَلَــى رَمْــلٍ تَلظَّــى عليــه الــوســمُ يَحْتَــرِقُ الجبِيــن[1]

* * *

مَسَــاءٌ مِثْــلُ فَجْــرٍ قَــدْ تَبَسَّــمْ تَمَطَّــى صُبْحُهَــا وَاللَّيــلُ أَظْلَــم[2]
تَمَهَّــلْ إِنْ خَطَــوْتَ عَلَــى رمــالٍ كقلبــي كُلُّهَــا قَلــبٌ تَــأَلَّــمْ
أميــرُ الــركــبِ مَــنْ ذَا الأَعْجَمِــيّ بغيــرِ لِسَــانِنَــا لَحْــنٌ شَجِــيّ
يُغَنِّـــي وَالغنَــاءُ لَـــهُ سَـــرَابٌ وفــي الصحــراءِ مِنْــه القلــبُ حَــيّ

* * *

وَمِــنْ عِشْــقٍ وَمِــنْ سُكْــرٍ مُقَــامُــه وَفِــي مَــاءٍ وَفِــي طِيــنٍ ضِــرَامُــه[3]
لَــهُ الأَنْغَــامُ تُطْــرِبُ كُــلَّ قلــبٍ لَنَــا قَلْــبٌ بِفِلْــذَتِــه قِــوَامُــه[4]

* * *

خَفِــيّ الحــزنِ فــي صمــتٍ تَــراهُ لســانُ المــرءِ فــي خُبْــرٍ رَوَاهُ
طَــرِيــقٌ وَغــرَةٌ وَالنَّضْــوُ فِيهــا بِــلَا نُــورٍ لِمْصبَــاحٍ هَــدَاه[5]
ربيــعُ المــرجِ مُخْمَــرُ الــزهــورِ أَقَــامَ الصحــبُ فــي كَنَــفِ السرُورِ
أَتُــوقُ إِلَــى البَقَــاءِ هُنَــاكَ وَحْــدِي وَفِــي جَبَــلٍ عَلَــى شَــطِّ الغــدِيــرِ[6]

* * *

---

(١) الوسم : أثر الكي .
(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .
(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .
(٤) الفلذة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .
(٥) النضو : المهزول الضعيف .
(٦) أتوق : أشتاق .

وأَقْــرَأُ تَــارَةً شِعْــرَ العِــرَاقِــي[1] وَأَحْيَـانـاً مِـنَ الجَـامِـي احتِـرَاقِـي[2]
أَبَيْـــنَ لحـــونِ أعـــرابِ ولحـــنٍ لِحَــادي نــاقتــي بَعْــضُ اتفَــاقِ[3]

* * *

أَشُــبُ فَــرَحَــاً بــأحْــزَانِ الطــرِيــق وَكُـــنْ مَجنُــونَـــهُ غَيْـــرَ المفيـــقِ
طَـريقـاً طـالَ يـا حَـادِي لِتَسْلُـكْ وَآلامَ المفــارقِ مِـــنْ حَـــرِيـــقِ[4]
أَنِيـسُ الـرُّوحِ بَـادِلْنِـي شَكَـاتِـي وَقُلْ مِثْلِي «بذي حسنٍ مَمَاتِي»
«لِنَمْسَحْ مَوْضِعَ القدَمينِ» فَاهْمِسْ «بِــأَجْفَــانٍ رِقَــاقٍ دَامِعَــاتِ»

* * *

لَقَــدْ غَضُّــوا وغَضُّــوا مِـنْ حَكِيـم جَهُـولٍ كَـانَ ذَا الفَضْـلِ العَمِيـم[5]
وَنَحْـــنُ اليــومَ فِــي عَصْــرٍ سَعِيــد لَــدَى السلطــانِ دَرْويــش عَظِيــم

* * *

بِصَــدْرِي هَــذِه الــدنْيَــا وَعَيْــت بِـرَأْسِـي «لا مَكَـانـاً» قَـدْ حَـوَيْـت
وَلَمَّــا جُــزْتُ فِــي العَلْيَــاءِ سَقْفــاً جَنَـاحـي كـلَّ فـي أَرْضِـي هَـوَيْـت

---

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يموج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلزم أتباعها بالسياحة فساح في البلاد طولاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطانها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية ويعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبة على شعره ، وقد نظم قصة ليلى والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِــوَادِينَــا خُلُــودٌ للــزمَــانِ بِـلاَ صُـوَرٍ نَمَـتْ فِيـه المَعَـانِـي
حَكِيــمٌ دَائِمــاً آخــى كَلِيمــاً لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنْ (لَنْ تَرَانِي)[1]

***

وَيُبْـدِي المسْلِـمُ المحبـوبُ فَقْـرَه يُصَعِّـدُ مِثْـلَ حَـرِّ النـارِ زَفْـرَه
شَكَـا مِنْـه الفـؤادُ وَلَيـسَ يَـدْرِي فَهَبْنَـا يَـا رَسُـولَ اللهِ نَظْـرَه

***

عَـذَابَـكَ مِنْـهُ كَـمْ ذُقْـتَ العـذَابَـا بِـكَ الألْحَـانُ لِـي كَـانَـتْ عَـذَابَـا
حَـزِيـنٌ ، مَـا رَأَتْ عَيْنَـايَ يَـوْمـاً بِـأرضِ الهنـدِ قَـطُّ لَـكَ الصِّحَـابَـا
لِعَبْـدِ الهنْـدِ لَيْـلٌ ضَـاعَ فَجْـرُه وَأَيْـنَ الشمـس بَـلْ قُـلْ أَيْـنَ بَـدْرُه
أَنَـا المِسكِيـنُ فَلْتَـرْفُـقْ بحَـالِـي أَمِثْلِـي مُسْلِـمٌ قَـدْ عِيـلَ صَبْـرُه[2] ؟

***

فَقِيــرٌ ضَــاقَ بِــالأَلَــم المقِيــم بـدينِ الحـقِ ذو الأصـلِ الكـريـمْ
إلهِــي كُــنْ لِمحــزُونٍ مُعِينــاً هـوى مـن صرحـهِ العـالِـي القـديـمْ

***

لسـانِـي كيـفَ يـروي عنـه شيَّـا وتعلـم مـا بـدا بـل والخفيـا

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾
وقال جلال الدين الرومي في شعر له : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :

(لـن تـرانـي) إنهـا المعنـى الـدقيـق ولتضـع فيـه فـذا البحـر العميـق

(٢) عيل صبره : نفد .

وما قـاسـاه فـي دهـر طـويـل طـوى قلبـي علـى الآلام طيـا
جَـرَى فلـكٌ علـى غيـرِ المَـرَامِ شَكَـاةَ الـرَّكـبِ مـنْ بَعْـدِ المُقَـام
أَفِـي هَـذَا كَـلاَمٌ ليـتَ شِعـري وَهَـذَا الشعْـبُ كـانَ بِـلاَ إِمَـام

* * *

دِمـاءٌ فِيـهِ تَخلُـو مِـنْ لَهَـاب ومَا زَرَعَ الأَزَاهِرَ في الخراب ؟![1]
خليّ الغمـدِ . مـا فِي الكَـفِّ مَال وَهَـذَا الـرفُّ يَهْـوى بِـالكِتَـاب[2]

* * *

بِظَـاهِـرِ مـا يَـرَاهُ القَلْـبُ قَيَّـد فمِـنْ ذوقٍ ومِـنْ شـوقٍ تَجَـرَّدْ[3]
صَفِيـرَ الصَّقْـرِ حَتْمـاً لَيْسَ يَـدْرِي عَلَـى طَـنِّ البعـوضـةِ مَـنْ تَعَـوَّدْ
لـه بـالقلـبِ بـابـاً مَـا فَتَحْنَـا وَذَاتـاً فِـي ثَـرَاه مـا رَأَيْنَـا
وَلاَ التَّكْبِيـرِ دَوَّى فِـي ضَمِيـرٍ وَمِنْـهُ الـذكْـرَ قَـطّ مـا سمِعْنَـا

* * *

يَقُـدُّ الجيـبَ مَقْطُـوعَ الـرَّجَـاء لِمـاذَا قَـدْ تَـرَدَّى فِـي البَـلاء[4]
شبيـهَ المـوتِ مـا يَلْقَـى نَصِيبَـاً إِذَا مَـا كَـفَّ عَبْـدٌ عَـنْ ثَنَـاء

* * *

أَنِلْـهُ الحـقَّ ، مِسْكِيـنٌ أَسِيـر فَقِيـرٌ وَهْـوَ فِـي قَلَـقٍ يَثُـور
وهـذِي حَـانَـةٌ قَـدْ أَوْصَـدُوهَـا لِيظْمَـأَ وَالـردَى كـأسٌ تَـدُور[5]
فَطَهِّـرْ مَـاءَهُ وَالطيـنَ طَهِّـرْ بِـدُنْيَـا مِنْـهُ هَـذَا القَلْـبَ عَمِّـرْ

---

(١) اللهاب : اشتعال النار

(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .

(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .

(٤) يقد : يشق . الجيب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .

(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَــزَّقَ ذَيْلُــهُ وَالــرِيــحُ تُسْفِــي فَفِـي مِصْبَـاحِـهِ المحْطُـومِ فكْـرُ[1]

* * *

عَــرُوسٌ هَــذِه الــدنْيَــا لِغَيْــرِه مَقَـــامٌ لِلفَنَـــا نَهْـــجٌ لِسَيْـــرِه
وَقَبْــلَ المــوْتِ آدَتْــهُ الخطَــايَــا لَـهُ الملكَـانِ مِـنْ دَيْـرٍ بِقَبْـرِه[2]

* * *

أَفِــي عَيْنَيْــهِ نُــورٌ أوْ سُــرُورُ وَمَـا فِـي صَـدْرِهِ قَلْـبٌ صَبُـور
لهــذَا الشعــبِ كُــنْ رَبِّــي مُعِينَــاً قَضَى ، فَالرُّوحُ مَا فِيهَا حُضُور[3]
حَنِيـفٌ والـردَى مَـا لَيْـسَ يَـأْلَـفْ أَيَخْلَـعُ قَلْبَـه رُعْبـاً وَيَـأْنَـفْ ![4]
وَبَيْــنَ ضُلُــوعِــهِ مَـا كَـانَ قَلْـبٌ يَقْطَـعُ زَفْـرةً حَـرّى وَيَـأْسَـفْ !

* * *

وَحُكْــمُ الفــردِ شَــرٌّ لِــلأَنَــامْ فَمَــنْ مِــنْ شَــرِّه غيــر المضــامْ
شَكَــاةَ القَلْــبِ للخِــلَّانِ فَــاسْمِــعْ إذا مــا شِئْــتَ تَحْقِيــقَ المَــرَامْ

* * *

رَكِينــاً كَــانَ جِسْــمُ المسْلِمِينَــا بِنَــاءٌ ظَــلَّ فــي آدٍ متينــا[5]
وإِنْ نَظَــرُوا فَقَــدْ ظَهَــرُوا بِــذَاتٍ لَهُمْ فِي الخَفْقِ أَشْبَهَتِ الوتِينَا[6]

---

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمحطوم : المحطم .
(٢) آدته : أثقلته .
(٣) قضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .
(٦) الوتين : عرق في القلب .

خجـولٌ مُسْلِـم هَـانَـتْ شُـؤونُـه　　لَـهُ الخَـانْقَـاه فَقْـرٌ ، مَـاتَ دِينُـه[1]
بِــدُنْيَــانَــا فَقُــلْ مَــاذَا وَرِثْنَــا　　كَلِيــمٌ عَــنْ مُلُــوكٍ نَسْتَبِينُــه[2]

* * *

وَعَــنْ أَحْــوَالِــهِ لا تَســأَلَنِّــي　　فَقَــدْ سَـاءَتْ وَفِيهَـا حَـارَ ظَنِّـي
وَهَــذَا الطَّيْــرُ بِـالثَّمَــرَاتِ يغْــذُو　　لَـهُ فِـي البِيـدِ نَقْـرٌ بِـالتَّعَنِّـي[3]

* * *

لِعَيْنَيْـــهِ الحيـــاة أَنـــا فَـتَحْـــت　　وَمَا فِي الأَمْسِ وَالغَدِ كَمْ شَرَحْت
كَشَفْــتُ الــروحَ أَسْــرَاراً فَهَــلاَّ　　بَـلاَغَـةَ يَغْـرُبِ يَـوْمـاً مَنَحْـت
وَلَيْـسَ لِمُسْلِـمٍ جَيْـشٌ عَـرَمْـرَمْ　　بِـذَاتٍ مِـنْ مُلُـوكِ الأَرْضِ أَكْـرَمْ[4]
فَلَــوْ رَدُّوا إِلَيْـــهِ اليَــومَ حَقّــاً　　لَكَــانَ جَــلاَلُــه لا رَيْــبَ أَعْظَــمْ

* * *

أَسَــاطِيــرُ مَتَــاعِ الشيــخ حَقًّــا　　مِــنَ الأَوْهَــامِ أَقْــوَالًا تَلَقَّـــى
لَــهُ الإِسْــلاَمُ بِــالــزُّنَّــارِ يَبْــدُو　　وَذَا حَــرَمٍ وَمِــنْ دَيْــرٍ تَبقَّـــى

* * *

وَعَـــالَمُنَـــا بِـــإِلْحَـــادٍ تَغَيَّـــرْ　　وَأَنَّ الــروحَ مِــنْ جَسَــدٍ تَقَــرَّرْ

---

(١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى المبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقات ووقف الأموال عليها .

(٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نستبينه : نعرفه ونميزه .

(٣) التعني : الشدة والصعوبة .

(٤) الجيش العرمرم : الشديد .

بِفَقْـرٍ كُنْـتَ لِلصِّـدِّيـقِ تُغْطِـي   أَنِـزْ روحـاً تَسَـامَـى أَوْ تَطَـوَّزْ[1]
لَنَـا حَـرَمٌ فَمَـاذَا يَسْتَعِيـرُ !   بِـهِ صَنَـمٌ هُـوَ الشيـخُ الكَبِيـر
وَأَظْلَـمَ حَظُّنَـا نَحْـنُ الحَيَـارَى   وَمَـا فِـي القَلْـبِ لِلآمَـالِ نُـور

* * *

فَقِيـرٌ رَكْعَـةً للهِ صَلَّـى   طُغَـاةٌ أَوْ بُغَـاةٌ مَـنْ أَذَلَّا
وَتِلْـكَ النَـارُ إِنْ خَمَـدَتْ بِصَـدْرٍ   إِلَـى عَتَبَـاتِ مَنْ ظَلَمُـوا تَـوَلَّـى[2]

* * *

---

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن يتهكموا بالشيخ أو الزاهد . والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة والفقهاء ، ولا غرو فالمتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فوقافون عند حرفية النصوص لا يمعنون في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة يوم ألست) والإشارة في يوم ألست إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ والشاعر يريد ليقول إن الصوفية أتحفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني على وسطه .
يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله معه . وقال لها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباها قد فجعها بماله فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدها الضرير ووضعت يده عليها فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدها وتوهمه بأن أباها ترك شيئاً ، ولم يترك لعياله أي شيء .

(٢) تولى : مضى وأدبر .

يُعَـادِي المسْلِمُـونَ الأَقْـرَبِينَـا وَظَلُّـوا فِـي شِقَـاقٍ رَاغِبِينَـا
تَـدَاعـى مَسْجِـدٌ يَـوْمـاً لِيَـأْسُـوا وَكَـانُـوا مِنْـهُ دَوْمَـاً هَـارِبِينَـا ![1]
لِغَيْـرِ اللهِ عَفَّـرْنَـا الجبِينَـا وَكُنَّـا كَـالمجُـوسِ مُهَلِّلِينَـا
فَـأَنْفُسَنَـا شَكَـوْنَـا لا سِـوَانَـا لِمِثْـلِ عُـلاَكَ لَسْنَـا لاَئِقِينَـا

* * *

خَلَـتْ مِـنْ رَاحِهَـا كَـأْسُ النُّدَامَـى إِلاَمَ الصَّمْـتُ لِلْسَّـاقِـي إِلاَمَـا
عَلَـى الـزَّفَـرَاتِ مِنِّي القلـبَ أَطْـوِي دُخَـانـاً لِلسِّـرَاجِ مَحَـا الظَّـلاَمَـا[2]

* * *

لَـدَى الصُّـوفِـيِّ دِنّ مَـا رَوَاه وَيَطْـوِي مَكْتَبَـاً نَهْجـاً طَـوَاه[3]
أَغَـادَرَ مَجْلِـسَ الشعَـرَاءِ كَـرْهـاً وَمَـاتَ اللحـنُ فِـي نَـايٍ حَـوَاه
غَـرِيـبٌ ، مُسْلِـمٌ ، عَـنْ كُـلِّ دَارٍ وَلِـي دُنْيـا أَعَـافُ ، مِـنَ الغُبَـار
وَهَـذِي لَـوْعَتِـي مِـنْ فَـرْطِ عَجْـزِي لِغَيْـرِ اللهِ أَبْـدَيْـتُ اقتِـدارِي

* * *

وَتَمنَحُنِـي جَنَـاحـاً كَـيْ أَطِيـرَا وَأَلْحَـانِـي خَفَقْـتُ بِهَـا سَعِيرَا[4]
فَهَـلْ مِـنْ مُسْلِـمٍ يَخْشَـاهُ مَـوْتٌ ؟ أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا المسِيرَا

* * *

سَـأَلْـتُ اللهَ بِـالـدَّمْـعِ السَّكُـوب أَحَـانَ لمسلـمٍ رَفْـعَ الكُـرُوب ؟

---

(١) يأسى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .

(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .

(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعبير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتفنيد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .

(٤) السعير : النار .

نِـدَاءٌ ظَـلَّ فِـي سَمْعِـي يُـدَوِّي « لَـهُ قَلْـبٌ وَأَقْفَـرَ مِـنْ حَبِيـب »
لِمَـاذَا أَذْكُـرُ المَـاضِـي المجِيـدَا فَهَـذَا الـذِّكْـرُ مَـا كَـان المفِيـدَا
بِصَـدْرِي قَـدْ حَـوَيْـتُ أَنَـا سِـرَاجَـاً وَفِـي قَـرْنَيْـنِ آنَسْـتُ الخمُـودَا[1]

* * *

وَيَخْـرُسُ كَعْبَـةَ بنَّـاء ديـر يَقِيـنٌ مَـاتَ فِيـهِ رَنَـا لِغَيْـر[2]
وَتَقْصُـرُ نَظْـرَةٌ مِنْـهُ وَفِيهَـا تَجَلَّـى يَـأْسُـهُ مِـنْ كُـلِّ خَيْـر

* * *

وَتَشْـرِيـدٌ وَنَـارٌ لِلْفَقِيـر مِـنَ الحـرْقَـاتِ هَـبَّ نَـارَ الضَّمِيـر
وَفِيـهِ القَلْـبُ تَبْـتُ أَوْ أَنِـرْهُ بِـآمَـالِ اليَقِيـنِ كَفَيْـضِ نُـور
وَلِـي مِـنْ نَشْـوَتِـي[3]قَـدٌّ تَـرَنَّـحْ بِـلاَ سَيْـفٍ دِمَـاءٌ كُنْـتُ أَسْفَـحْ
فَهَبْنِـي نَظْـرَةً وَارْأَفْ بِحَـالِـي فَلِـي عَصْـرٌ أُجَـاهِـدُهُ وَأَكْـدَحْ

* * *

لَقَـدْ آثَـرْتُ أَنْ أَشْكُـو وَحِيـدَا وَيَثْـرِبَ رُمْتُهَـا فَـاجْتَـزْتُ بِيـدَا
أَأَطْلُـبُ مَكْتَبِـي أَمْ هَـانَ شَـوْقِـي تَخَيَّـرْ ، حِيـرَتِـي تَـأْبَـى المـزِيـدَا

* * *

أَطِيـرُ بِجَـوِّهِ هَـذَا المحَبَّـبْ وَمِـنْ غَيْـمِ جَنَـاحِـي قَـدْ تَـرَطَّـبْ
وَبَيْـتُ اللهِ أَحْـوِيـهِ بِقَلْبِـي أُغَنِّـي مَـا بِقَلْبِـي ثُـمَّ أَطْـرَبْ
أَقُـولُ السِّـرَّ مِـنْ مَـا قُلْـتُ يُفْهَـمْ وَمَـنْ مِـنْ دَوْحَتِـي الثمَـرَاتِ يَطْعَـمْ
أَمِيـرَ القَـوْمِ أَنْصِفْنِـي فَـإِنِّـي عُـرِفْـتُ بِشَـاعِـرٍ غَـزِلٍ تَـرَنَّـمْ

* * *

---

(١) آنس : رأى . والشاعر يشير إلى فساد حال القوم في القرنين الماضيين .
(٢) رنا : أدام النظر .
(٣) النشوة : السكر .

خِلاَفَ الشِّعْرِ مَا أَبْغِي بِقولي وَحُلَّتْ عُقْدَةُ المعنَى بِحَلِّي
وَأُكْسِيراً لِعِشْقٍ مَا أُرَجِّي فَدِرْهَم مُفْلِسٍ ذَهَب بِصَقْلِي[1]

* * *

حَيَاةُ الخلدِ عَنها قلتُ خَبِّز وَمنْ مَاتوا حديثَ الروحِ ذَكِّرْ
وقومٌ يجحدونَ الحقَّ قالوا بموتِهما إِذا مَا شِئتَ بَشِّرْ
جَبِيني مِنْ أَسَى كالزَّعْفَران جَرَتْ عيني بمثلِ الأُرجُوانِ[2]
وحَالِي أَنْتَ تَعْلَمُ رَغمَ صَمْتِي فَهذِي عُقْدةٌ لي في لِسَانِي

* * *

غَرِيبٌ ، لي لسانٌ وَهوَ نَظْرَه وَذُو أَلَمٍ تُكَلِّمُه بعَبْرَه
فمِي أوصَدتُ ، بالعينينِ أرْنُو فَشَرْعِي لا يجيزُ القولَ مَرَّه

* * *

مَنَحْتُ الذَّات من ذاتي غريبا وَزَمْزَمَ بينَ صَلْصَالٍ قَلِيبَا[3]
فَهَبْنِي زَفْرَةً حَرَّى ومِنْهَا سَأُصْلَى كلَّ بَلْبَالٍ لَهِيبَا[4]
زَفِيرٌ ليس في قلبي سِوَاه ولي أملٌ ونبعُكَ ما رَوَاه
لمنْ أَشكُو غموماً في فؤادي على من غير ذاتكَ ما طَواه

* * *

غريبٌ شجوَه بالناي أبدى ونارُ اللحنِ منها ذابَ وجْدَا
أتعلمُ ما يقول وما تمنَّى يرومُ القلب[5] عنْ دارين صدًّا

---

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص .

(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .

(٣) القليب : البئر .

(٤) البلبال : الهم .

(٥) يرومُ القلب : يُرِيْدُ .

ومــا زهــراً ولا قَطْــراً أريــد　　لتلك الريحِ ، شمسكَ كم تجود
وتعلـو نظـرتـي عــن كـلِّ نجـمٍ　　ورأيــي لا أبــدِّلــه ســديــد
ببحــرٍ شَطُّــه لـــم أدرِ بُعْــده　　دليـلُ العـاشقيـن القلـبُ وحـدَه
إلـى البطحـاءِ تـأمـرُنـا بسَيْـر　　وإلَّا كنـتَ مـا وقفـت عنـده[1]

* * *

أتطـردُ مـنْ يتـوقُ إلـى الحضـور　　ألِمْـت ولسـتُ أُعـرَف بـالصَّبـور
بمــا أحببــت مُــرْ إلا بصبــر　　عجـزت أنـا إليـه عـن المسيـر

* * *

دُمَـى الإفـرنـجِ قلـبٌ لـي تعشَّـق　　ومـن نـارٍ لأهـل الـديـر أحـرق[2]
لقـد أصبحـتُ عـن نفسِـي غـريبـا　　فمــا أدْرِي وجــوداً لــي تحقَّــق
بِحَـانِ الغـربِ عَـاقَـرْتُ الشَّـرَابَـا　　برُوحي قَدْ شَرَيتُ لي العذابَا[3]
وكـمْ جَـالسـتُ أهـلَ الحسـنِ لكِـنْ　　بــدَتْ نِيـرَانهــمْ ثَلْجــاً مُــذَابَــا

* * *

فقيــرٌ فلتحقَّــقْ لــي رَجَــائِــي　　هشيمي اجْعَلْه قَلباً في الفَضَاءِ[4]
سئِمْــتُ الــدرسَ يلقيــهِ حكيــمٌ　　فلـي مـن نظـرتـي فيـضُ الـذَّكـاءِ

* * *

---

(١) البطحاء : مكة المكرمة .

(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهافت على تقليد الغربيين .

(٣) عاقر الخمر : أدمن شربها . شريت : اشتريت .

(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أنَـا الصـوفـي والمـلاَّ أجَـافِـي وَتعْلَـمُ مَـنْ أكُـونُ بِـلاَ خِـلاَفِ[1]
عَلَى صفحاتِ قلبي « اللهَ » فاكتبْ لأشهِـدَهُ وذَاتـي بـالشُّغَـافِ[2]
فـيَّ قَلْـبٌ لمـلاَّ الغَـمٌ حَـلاَّ وهـلْ بـالـدمـعِ بـلّ العيـنَ بَـلاَّ
أولِّـي مـن مجـالسِـه فِـرَاراً أزيـنُ حِجَـازه بـالبِشْـرِ ؟ كَـلاَّ

* * *

يقـولُ القـولَ نَصْـلاً للحـرابِ وَفِـي حِضْـنٍ لـه كـمْ مِـنْ كِتَـابِ
وتخجلنـي الصـراحـةُ فِـي كَـلاَمـي عن الذاتِ اختفىَ لا عنْ صِحَابِ[3]

* * *

أجِـبْ بـاللهِ مـنْ ملـكَ القُلُـوبَـا ومَـنْ قَـدْ ألهـم الشـوقَ المـذِيبَـا
كِـلاَنَـا مَـنْ رَمَـى فـي الـديـن سَهْمَـاً فَقُـلْ فـي الـرمـي مـن كَـانَ المصيبَـا
ولسْـتُ بمحْفَلـي غَيْـر الغـريـب لمنْ في مُشْكِلي شَكْوَى كُرُوبي ؟
ذُيُـوعَ السـرِّ بيـنَ القـومِ أخشـى شكـاتـي صنتُ عَـنْ قَلْبي الكَئِيبِ

* * *

وقلبـي لسـت أسلمـه لأيـدِ أضيـق بعقـدتـي وأَحِـلُّ وَحْـدِي
إلـى غيـرِ الإلـهِ رفعـتُ عينـي لـذا مـن قمَّتـي كـان التـردِّي

* * *

---

(١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقيه وغير الصوفي .

(٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المتصوفة . غير أنه يريد ليجرح ضيقي الأفق من المسلمين المتزمتين الجامدين .

(٣) يعبر إقبال عن نزعته الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتؤيد الغرض .

بِـرُّ أُمِّـي جَمـرةٌ هـذا الجنـون بِصَـدْري فـورةٌ هَـذَا الفتُـون[1]
ومِـنْ أمـواجِ طُـوفَـانٍ تَقَضَّـى بـروحي الموجُ يجفُوهُ السُّكُون[2]
لِهَـذَا التـربِ مـا زَالَ الشـرَار لهـذا الصـدْرِ زفْـرُ الفجـرِ نَـار
بمـا أهـديـت مـن نـورِ التجَلِّـي علـى نظـرٍ لعينـيَّ اقتِـدَار

* * *

أشـاهـد غيـر أنِّـي لسـتُ أرغـبْ وبيـنَ جـوانحِـي قلـبٌ تَلهَّـب
وهـذَا العصْـرُ مِـنْ رَوحٍ تَخَلَّـى فقـلْ مـا السِّـرُّ أو مثلـي تَعَجَّـب[3]

* * *

وفـي عصـرٍ بـلاَ لهـبٍ خُلِقْـتُ تُـرابـي فيـه مـا يهفـو مُنِخْـتُ
وفـي عنُقِـي حيـاتِـي مِثْـلُ حَبْـلٍ علـى عـودٍ كـأنِّـي قَـدْ صُلِبْـتُ
ومـا للـزّهـرِ ألْـوانِـي وريحـي يضيـقُ الصـدْرُ بـالأمـلِ الجـريـحِ
ومَـا وَسِـعَ الكـلامُ أسَـى خَفِيّـاً لمـنْ أشْكـو بقـولٍ لـي صَـريـحِ

* * *

وَفـي شـرقٍ وفـي غـربٍ غـريـبُ فُـؤَادِي لا يُـوَاسِيـه الحَبِيـبُ
همُـومُ القلـبِ أشكـوهـا لِقَلْبـي فَكَـانَ لِغُـرْبَتِـي خَـدْعٌ عَجِيـبُ

* * *

لِعِلْـمِ اليـومِ أبْطَلْـتُ الطِّلَسْمَـا[4] حَطَمْـتُ حَبَـائِـلاً بِـالحُـبِّ حَطْمَـا

---

(١) الجنون عند المتصوفة هو جذبة العشق الإلهي .
(٢) تقضى : مضى وانتهى .
(٣) تخلى منه وعنه : تركه .
(٤) الطِّلسْ والطِّلَّسْمْ ، ج : طلاسم وطلسمات ، يونانية معرَّبة : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر .

وإِبْـرَاهِيـمَ مَـنْ أَشْبَهْـتُ حقـاً　　فَمَـا كَـانَـتْ لَـدَيَّ النـارُ هَمَّـا
حَبَـوتُ العيـنَ بـالبصَـرِ البَصِيـر　　وَقَـوْلَـهُ « لا إِلَـه » كَفَيـضِ نُـور
وفَجْـراً فَلْتَهَـبْ مِـنْ « مَـنْ رَآنِـي »　　فَلَيلِـي مِنْـكَ ذُو البـدْرِ المنيـرِ[1]

* * *

وَفِـي يَـوْمِ جَـذَبْـتُ إِلَـى ذَاتِـي　　بِـأَنْـوارِ مَقَـامِـي مُشْـرِقَـاتِ
بِهَـذَا الـدَّيْـرِ مِـنْ نَغَمـاتِ فَجْـرِ　　خَلَقْـتُ دُنَـى القلـوبِ الـوَالِهـاتِ[2]

* * *

بِعَـالَمِنَـا جِنَـانٌ عَـالِيَـاتُ　　لـدوحتهـا دمـوعـي الجـارِيَـاتُ[3]
سكُـونٌ كَـانَ حَتَّـى اليـومَ فِيهَـا　　فَـأَيَّـامٌ لآدَمَ آتِيَـاتُ
ألاَ هَبْهَـا فَتَـىً يَخْتَـالُ فِيهَـا　　هَـوَاهُ الكَـأْسُ دَارَتْ يحتَسِيهَـا
تَـرَاهُ مِثْـلَ حَيْـدَرَ فِـي قِـوَاه　　مُنَـى الـدارَيْـنِ مَـا إِنْ يَشْتَهِيهَـا[4]

* * *

أَدِرْ يَـا صَـاحِ كَـاسَـاتِ النُّـدَامـى　　وَزِدْ فِـي نَـاي أَلْحَـانِي ضِـرَامَـا[5]
وَهَـذَا القلْـبُ رُدَّ إِلَـى ضُلُـوعِـي　　لأَفْضِـلَ كُـلَّ مَـنْ مَلَكُـوا ، مَقَـامَـا

* * *

وَمِـنْ عِشْـقٍ لَنَـا الـدنْيَـا بِصَـدْرِكْ　　وتَفْـرَح فَـرْحَـةً نَشْـوَى بِصَـدْرِكْ
فمِـنْ جِبْـرِيـلَ ؟ إِنِّـي لَسْـتُ أَدْرِي　　أَأَبْـدَتْ جَـوْهَـراً مِـرْآةَ صَـدْرِكْ

---

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رآني فقد رأى الله) كذا في الأصل .
(٢) الدنى : جمع دنيا .
(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فُـؤَادِي لَـمْ يُمِـقْ أحـداً بمعبـد   مُقَـامـي أَيْـنَ ؟ كُنْـتُ بِـه المقيَّـد(١)
إِلَـهٌ يبْتَغِـي مِنِّـي سُجُـوداً !   لَقَـدْ حَطَّمْتُـهُ وَهُـوَ المبـدَّدْ

* * *

وَهَـذِي زَهْـرَةٌ نَبَتَـتْ بِتُـرْبِـي   بَـدَتْ فِـي حمـرةٍ مـنْ ذوبِ قلْبـي
تَقَبَّلْهَـا ، بِهَـذَا القلـبِ رفقـاً   فَلِي قلبٌ ، وَهَذَا القلبُ حَسبِي(٢)

* * *

لِهَـذَا الشعـبِ إنِّـي قـدْ خَفَقْـت   ولحنِـي النـارَ فـي رُوحِـي خَلَقْـت
وَجيـزُ القـولِ خيـرُ القـولِ قَـالُـوا   خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكنِّي استَرحْت
بِفطـرةٍ مـنْ تمجّـن رمـتُ صِـدْقـا   وتحـرِقُ زَفْـرَتِـي الأرواحَ حَـرْقَـا(٣)
سَحَـابـاً للـربيـعِ فهـبْ تـرابِـي   وَفيـهِ الحَـبُّ أنثـرهُ ليبقَـى

* * *

بكَفِّـي القلـبُ ، مـالـي مـن حبيـبِ   متاعٌ لِي ، فَمَنْ لصّ الدُّرُوب ؟(٤)
وَهَـذَا الصَّـدْرُ فلتسكنْـهُ دَاراً   وَحيـدٌ ، لا أشبِّـه بـالغـريـب

* * *

ببيـتِ اللهِ كـالـرومِـي أَذَانِـي   فسِـرُّ الـروحِ أوضـحُ والمعَـانِـي(٥)
طَـوَاهُ بفتنـةٍ عصـرٌ قـديـمٌ   وَلكِـنْ لِـي الجـديـد مـنَ الـزمـانِ
لـكَ البستـانُ أنبِـتْ مـن تُـرابِـي   ولـوّنـه بـدمْعِـي فـي انسِكـابِ

---

(١) ومق : أحب .
(٢) حسبي : كفايتي .
(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .
(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .
(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

وما أمَلْتُ سيفَ أَبِي ترابِ فهبْ عيناً كسيفِ أبي تُرابِ[1]

***

على شطٍّ يطولُ به الوقُوف فعنْ عملٍ وعنْ أملٍ عَزُوفُ[2]
لمنْ غيري أنا المسكينُ حقاً على أسرارِهِ كانَ الوقُوفُ

***

ومنْ مناهُ للمحبوبِ عِطْرَا وهذاكَ الربيعُ يرفُّ زَهْرَا[3]
تناسَى قَوْلَةَ قيلتْ فمنذَا على قَضْبائِه بالنَّارِ مَرّا
غديري هَبْه دُرّاً مِنْ بِحَارِكْ مَتَاعِي ضَغْ بطودِكَ أوْ قِفَارِكْ[4]
بطُوفَانٍ فَمَا فتحتُ قَلْبِي فَهَبْنِي غيرهُ طوعاً وبارِكْ

***

أثرتُ الوَجْدَ فِي نَايِي ، تأمَّلْ بناري ذبتُ مُخْتَلِياً ، تَأَمَّلْ
عرفتُ الفقرَ عَنْ سَلَفِي قَدِيماً عنِ السلطانِ إحجامِي ، تأمَّلْ

***

---

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ . والخبر في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ساقطاً عن ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً وعمار بن ياسر كانا رفيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما سنة وتتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان يطيب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلألأ نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

علَى ما كانَ مِنْ حَالي أَعِنِّي — كشفتُ اللبسَ عنْ مَعْنًى بفنِّي
مع المحبوبِ تسألُ كيفَ حالِي — يُوافِي مَرَّةً ويغيبُ عَنِّي
لقدْ شَاركتُ في وجدٍ ورَوْدَا — ضميرَ العيشِ أفتحهُ وَئِيدَا[1]
فمنْ لَقَّنْتَ شَوقِي ليتَ شِعْرِي ؟ — أغَنِّي ما أَغنِّيهِ وَحِيدَا

* * *

بِنُورِكَ كنتُ أفتحُ مُقْلَتَيَّا — وَقَدْ شَاهدتُ أعماقَ الثرَيَّا
وَإِنِّي مسلمٌ يَالَهْفَ نَفْسي — فَمُشْكلُ (لا) أَرَى صعباً عليَّا[2]

* * *

بأرضِكَ حرقةُ الألحانِ حسْبِي — وبدءٌ وانتهاءٌ منكَ ، حَسْبِي
لِرَبِّي قلتُ منتَشِياً بِوَجْدِي — رَسُولُ اللهِ يا رحمنُ ، حَسْبِي
منَ الأشواقِ ثَائِرتِي لتنظرْ — فَلِلأَنْهَارِ مِنْ حَجَرٍ تَفَجُّرْ
وَلَيْتَ ابني بعشقِكَ في دوامٍ — يُزَيَّن بالتلوُّنِ والتعطُّر

* * *

فَتَى الإِفْرَنْجِ[3] فلْتَشْهَدْه حِينَا — بَدَا قَمَراً لعينِ الناظِرِينَا
فَتَانَا ساذجٌ من فَرْطِ ظُرْفٍ — وَقَاهُ اللهُ عَيْنَ الكَافِرِينَا

* * *

يمينُكَ مُدَّهَا للعَاثِرِينَا — وَمَنْ لسواكَ كَانُوا نَاظِرِينَا
فَمِنْ نَارٍ أَضْرِمُهَا بِرُوحِي — نَصِيباً هَبْ جَمِيعَ المسْلِمِينَا
إليكَ الرَّاحَ مِنْ كأسِ الحَبِيبْ — لِتَسْكُنْ دَائِماً قَلبَ الحَبِيبْ

---

(١) وئيداً : على مهل .

(٢) في الأصل (لا إله) .

(٣) الإفرنج والإفرنجة والفرنج : اسم لسكان أوربة كلها ماعدا الأروام والأتراك .

أَيَـا هَـذَا (المليـك) أَذَا سُجُـود ! لتكنِـسَ مُقْلَتِـي دَارَ الحَبِيـبْ[1]

* * *

لـكَ السلْطـانُ لَكِنِّـي فَقِيـرُ لأَرضِ الـروحِ والمغْنَـى أَمِيـرُ[2]
وَدُنْيـا « لا إِلَـه » بَـدَتْ تَـأَمَّـلْ حَـوَاهَـا كُلَّهَـا مِنِّـي ضَمِيـرُ

* * *

دَوَاءٌ لَيْـسَ يَنْجَـعُ فِـي سَقَـامِـي فَـإِنِّي الشيـخُ قَـدْ وَهَنَـتْ عِظَـامِـي
أَلَا يُلْقُـونَنِـي عَنهـم بَعيـدَاً أَلَسْـتُ لِـدِينِهِـمْ أَحَـدَ السِّهَـامِ !
تَعَـالَ وَفِـي اعْتِنَـاقٍ نَحْـنُ نَـرْقُـصْ وَدُنْيَـانَـا نُجَـافِيهَـا ، وَنَـرْقُـصْ[3]
وَعِنْـدَ دِيَـارِ مَـنْ نَهْـوَى تَـوَقَّـفْ دِمَـاءَ العيـنِ نَـذْرِفُهَـا ، وَنَـرْقُـصْ

* * *

---

(١) في الأصل اسم أحد الملوك .

(٢) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف . ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعففها عن ذل الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقة من كل قيد . وفي كتابه جاويدنامه الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصح لولده قائلاً :

إن رأسـت القـوم أو صـرت الغنيـا فعلـى الفقـر اخـرصـن يـا بنيـا

(٣) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع نفوسهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي . كما يثير الطرب والخوف عند التائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :

(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

بِصَحْـرَاءٍ لَـكَ اخْتَـرْتَ المقَـامَـا ويشْبِـهُ لَيْلَهَـا الصبْـحَ ابْتِسَـامَـا
فَفِـي أَيِّ البقَـاعِ خِيَـامَـكَ انْصُـبْ وَكَـانَ الحبْـلُ مِـنْ أَحَـدٍ حَـرَامًا[1]

* * *

بِـأَرْضٍ تَخْتَـوِينَـا اليَـومَ ضِقْنَـا وَمِـنْ كِـلٍّ السمَـواتِ انطَلَقْنَـا
أَرَاهُـمْ سَجْـدَةً قَـدْ عَلَّمُـونَـا وَكُنْـهَ الحَـاكِمِيـنَ بِهَـا عَـرَفْنَـا
عَـنِ الإفْـرَنْـجِ فَلْتَكُـنِ البَعِيـدَا لَقَـدْ كَـذَبُـوا وَإن بَـذَلُـوا وُعُـودَا
لَـكَ النظَـرَاتُ خُـذْهَـا عَـنْ« مَلِيـكٍ » وَشَكِّـلْ عَـالَمـاً حُـرّاً جَـدِيـدَا[2]

* * *

(١) يقول : إن اقتراض حبل الخيمة من أحد حرام .

(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .

القسم الثالث

المُجْتَمَع

عَــدِمْــتُ أنَــا كَــلامَ العَــارِفِينَــا فَطَبْعِــي كَــانَ طَبْــعَ العَــاشِقِينَــا
بِــدَمْــعٍ مــنْ دمٍ فِــي الــرَّوضِ هَــذَا لِفَــرْطِ الــوجْـدِ أفعَمْـتُ العُيُــونَـا[1]
ودَارُكَ تشْبِــهُ القَمَــرَ الجَــدِيــدَا بِــأوْجِ سَمَــاكَ حَــاوِلْ أَنْ تَــزِيــدَا
ستَسْمُـــــو إنْ وَهَبْـــتَ اللهَ قلبَـــاً طَـرِيـقَ المصْطَفى فَـاسْلُـكْ رَشِيـدَا

* * *

عَلَـوْتُ كَمَــوْجَــةٍ مِــنْ بَحْــرِ ذَاتِــي كَمَنْــتُ كَجَـوْهَـرٍ تَحْـتَ الصَّفَـاةِ[2]
وَكَــانَــتْ غَضْبَــةُ النمْــرُودِ مِنِّــي أعمِّــرُ بَيْــتَ رَبِّــي فِــي حَيَــاتِــي

* * *

بِجَــامِــكَ سَــاقِــي الجُــلَّاسِ أَقْبِــلْ على الدارَينِ هَذَا الذيْلَ أَسْبِلْ[3]
حَقِيقَتَنَــــا لَنَــــا الخمِّيــــرُ أبْــــدَى لِمُلَّا لا تَقُلْ « ذَا الدِّينُ فَاعْقِلْ »[4]
تعَــالَ عَــنِ الجبيــنِ اطــرحْ نِقَــابَــا فَــدَمْعِــي يَخْتَــوِي قَلْبِــي المــذَابَــا
بِلَحْــنٍ لَيْــسَ مِــنْ شَــرْقٍ وَغَــرْبِ لتعزفْ (لا تخفْ) تُطْرِبْ صِحَابَا[5]

* * *

ومِــنْ صَــدْرٍ لَــكَ التكْبِيــرَ صَعِّــدْ وَبِــالأُكْسِيــرِ تُــرْبُــكَ فَلْتُجَــدِّدْ
وَذَاتَــكَ فَــامْلِكَــنَّ تَعِــشْ سَعِيــدَاً لِنَفْسِــكَ هَــذِهِ الأَقْــدَارَ حَــدِّدْ

---

(١) أفعم : ملأ .
(٢) الصفاة : الصخرة .
(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .
(٤) الخمِّير : السكير . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالعشق الإلهي .
(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ والخطاب من الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

بِتِلْـكَ الـذاتِ شَـارَفْـتَ الكَمَـالَا وَإِلَّا كُنْـــتَ للعبـــدِ المِثَـــالَا
إِذَا مَـا قُلْــتَ ذَاتِـي لِـي مَتَـاعٌ فَنِسْيَـانٌ لَهَـا لَيْـسَ الحَـلَالَا[1]
وَأَنْـتَ الـذاتُ يَـوْمـاً إِنْ تُشَـاهِـدْ تَقِـرُّ كَجَـوْهَـرٍ فِـي البَحْـرِ رَاقِـدْ
وَتِلْـكَ الـذَّاتُ إِنْ غَـرَّبْـتَ عَنْهـا فَـأَنْـتَ لأَجْلِ هَلْكِكَ مَنْ تُجَاهِـدْ

***

كَشَفْتَ السِتْرَ عَـنْ وَجْـهِ المَصَـائِرْ بِنَهْـجِ المصْطَفَى سِرْ يَـا مُسَافِرْ[2]
وَمِمَّـا قُلْـتَ إِنْ أَضْمَـرْتَ شَكـاً فَمُتْ يَـا مَنْ شَكَكْتَ وَأَنْتَ كَافِرْ

***

لِتُـــرْكٍ فَتَّحُـــوا مَــا أَوْصَـــدُوه وَفِـي مِصْـرَ أَسَـاسٌ وَطَّــدُوْه
تَمَسَّـكْ إِنْ ظَفِـرْتَ بِـذَيْـلِ ذَاتٍ بِغَيْـرِ الـذَّاتِ ذَا لَـمْ يَعْهَـدُوه
إِذَا قَـــوْمٌ رَبِيعُهُـــمُ تَـــوَلَّـــى فَعِطْـرُهُـمُ التَّـوَهُّـمُ لَيْـسَ إِلَّا
وَتُنْبِـــتُ أَرْضُهُـــمْ زَهْـرَاً وَلَكِـــنْ تُشَـاهِـدُ لِلـذُّبُـولِ عَلَيْـهِ ظِـلَّا

***

وُلَاةُ الأَمْـــرِ مِـــنْ رَبِّـي لِشَعْـــبٍ زِمَـــامـــاً يَمْلِكُـونَ لِكُــلِّ أَمْــر
وَلَكِـــنْ لَا يُحِـــبُّ اللهَ شَعْبَـــاً بِـــهِ الفَـلَّاحُ يَــزْرَعُ كَــيْ يُلَبِّــي

***

مِــنَ الـرَّازِي كِتَـابَ اللهِ فَـافْهَـمْ وَمِنْـهُ النُّـورُ خُـذْ فَـاللَّيْـلُ أَظْلَـمْ
وَلَكِـنْ لِـي كَـلَامٌ فِيـهِ فَـانْظُـرْ أَنَخْيَـا بِـالفُـؤَادِ وَمَـا تَضَـرَّمْ[3] ؟

***

---

(١) يوجه الخطاب إلى المسلم .
(٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات فعبر من الدنيا إلى الآخرة .
(٣) تضرَّم : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِــذَاتِــكَ لَا إِلَــه فَضُــمَّ مَــرَّه لِتَخْـرُجَ مِــنْ تُــرَابٍ مَــاتَ نَظْـرَه
وَلَا تَقْبِــضْ يَمِينَــك عَــنْ صُيُــودٍ لَــهُ القَمَــرَانِ فِــي وَهَــقٍ بِجُـرَّه[1]

***

جَهُولٌ ، عِلْمُ هَذَا القَلْبِ ، فَاعْلَمْ طَرِيقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَاعْلَمْ
تَمَكَّــنَ مُــؤْمِــنٌ مِــنْ كَشْــفِ سِــرّ بِــلَا مَــوْجُــود إِلَّا الله ، فــاعلــم[2]

***

بقَلْبِــكَ مَــا اختَفَــى هــذا اللهــاب مِــن الإســلام مــا للنــور بــاب
طــريــق الــذات فــانضحهــا بمــاء لبحــر لا يــرى فيــه العبــاب[3]

***

---

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأماني . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهبه الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصيود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلمح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنـا الحـقْ) ذِي مَقَـامِ الكِبْـرِيَـاءِ   أَكَـانَ لَهَـا الصليـبُ مِـنَ الجَـزَاءِ ؟!
فَهَـــذَا جَـــائِـــزٌ فِـــي رَأيِ فَـــرْدٍ   وَيَبْطُـــلُ عِنْـــدَ قَـــوْمٍ بِـــالإِبَـــاءِ[1]

* * *

أَلَيْسَـــتْ قَـــوْلَـــةً لَاقَـــتْ بِشَغْـــب   يَجُـودُ دَمـاً لِغُصْـنٍ فِيـهِ رَطْـب
جَـــلَالٌ فِيـــهِ قَـــدْ أَخْفَـــى جَمَـــالًا   تَجَلَّـــى فِـــي سَمَـــوَاتٍ لِقَلْـــب

* * *

وَبَيْـــنَ العَـــالَمِيـــنَ سَمَـــا مَقَـــامـــا   فَلِلـــدَّارَيْـــنِ قَـــدْ كَـــانَ الإِمَـــامَـــا
وَلَـــمْ يَمْسَسْـــهُ فِـــي خَلْـــقٍ لُغُـــوبٌ   عَلَيْـــهِ النَّـــومَ يجعَلُـــهُ حَـــرَامَـــا[2]
سَعِيـــرُ القَلْـــبِ تَشْهَـــدُهُ العُيُـــونُ   وَدُنْيَـــاهُ الهشِيـــمُ وَكَـــمْ يَهُـــون
يُبِيـــنُ بِهِمَّـــةٍ مَعْنَـــى أنَـــا الحَـــقْ   وَتَـــأْتِـي بَعْـدَ كُـنْ دَوْمـاً يَكُـونُ[3]

* * *

جَنَـــاحٌ مِنْـــهُ يَخْفِـــق فِـــي الفَضَـــاء   وَيَـــرْمُـــقُ عِشَّـــهُ وَالعُـــشُّ نَـــاءِ

---

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكاثرة من شيوخ المتصوفه الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والضن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) وصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصبح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِـي وَهَـقٍ لَـهُ القَمَـرَانِ صَيْـدٌ   وَطَـوْعُ يَمِينِـهِ كُـلُّ الـرجَـاءِ[١]

* * *

بِبُسْتَـانٍ تَـرَاهُ العنْـدَلِيبَـا   وَصَقْـراً كَـانَ فِـي مَـرْجٍ مَهِيبَـا
أَمِيـرٌ فِيـهِ قَـدْ يَبْـدُو فَقِيـرَاً   فَقِيـرٌ مِـنْ غِنَـى نَـالَ النَّصِيبَـا
إِلَيـكَ الكَـأْسَ أُفْعِمُهَـا بِخَمْـرٍ   وَنُـورُكَ صُـبَّ فِـي جُخْـرٍ وَقَصْـرِ
وَنَـلْ مِـنْ غُصْـنِ مَنْصُـورٍ ثِمَـارَاً   وَقَلْبُـكَ فِيـه (إلا الله) تَسْـرِي[٢]

* * *

الصوفيُّ والمُلاَّ

هـوَ المـلاَّ ، عَبُـوسٌ والكتَـاب   وقِشْـراً لا يَمِيـزُ مِـنْ لُبَـاب
بِبَيْـتِ اللهِ يَطْـرُدُنِـي لِـدِينِـي   وَذَلِـكَ لَيْسَ بِـالشَّيءِ العُجَـابِ[٣]

* * *

بِبَيْـتِ اللهِ صَيَّـادٌ وَدَيْـرُ   وَلِلصُّـوفِـيِّ لَـمْ يَـكُ أَيُّ ضَيْـرُ[٤]
عَلَـى المـلاَّ قَصَصْـتُ الآنَ هَـذَا   جَـوَابـاً لَـمْ يَحِـرْ وَدَعَـا بِخَيْـرْ !
تَحَـدَّثَ وَاعِـظٌ لِـي عَـنْ جَهَنَّـمْ   ومِنْـهُ كَـافِـرٌ فِـي القَـوْلِ أَحْـزَمْ
غُـلاَمٌ حَـالُـهُ مَـا إِنْ دَرَاهَـا   وَقَـالَ « جَهَنَّـمُ لِسِـوَايَ فَـاعْلَـمْ »

* * *

---

(١) الوهق : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .

(٢) منصور : الحلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .

(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويتهمونه برقة الدين .

(٤) يريد الغربي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين وكرامة المسلمين .

مـــرِيـــدٌ كَـــانَ ذَا رَأْيٍ سَـــدِيـــدِ لِشَيْـــخٍ فَـــاهَ بِـــالقَـــوْلِ الشَّـــدِيـــدِ
« وَجَنَـى الـرِّزْقَ مَـوْتٌ ، مِـنْ تُـرَابٍ تَكَـــوَّمَ فَـــوْقَ هَـــاتِيـــكَ اللحُـــودِ »

***

لِشَيْـــخٍ كَـــانَ ذَا قَـــوْلُ الغُـــلاَمِ « تَـــأَمَّـــلْ واستَمِـــعْ لِـــي بِـــاهْتِمَـــامِ
لِهَـــذَا العَصْـــرِ نَمْـــرُودٌ جَـــدِيـــدٌ فَمِنْـــهُ اخْلِـــقْ خَلِيـــلاً لِـــلأَنَـــامِ »
لِمـــلاًّ أَوْ لِصُـــوفِـــيٍّ أَسِيـــرُ ! وَفِـــي القُـــرآنِ لِلْعَيـــشِ الكَثِيـــرِ
مِـــنَ الآيَـــاتِ مَـــا أَدْرَكْـــتَ شَيْئـــاً ومِنْ ﴿ ياسين ﴾ بُغْيَتُكَ الحَفِيرِ[1] !

***

لَـــكَ القُـــرْآنُ كَـــالمِـــرْآةِ فَـــانْصُـــبْ وَنَفْسَـــكَ دَعْ إِذَا غُيِّـــرتَ وَاهْـــرُبْ
لِمَـــا قَـــدَّمْـــتَ مِيـــزَانـــاً لِتَصْنَـــعْ وفِـــي المـــاضِـــي قِيَـــامَـــاتٍ لِتَطْلُـــبْ

***

عَلَـــى الصُّـــوفِـــيِّ وَالمـــلاَّ سَـــلاَمِـــي كَـــلاَمُ اللهِ قَـــالاَ بِـــالتَّمَـــامِ
وَلَكِـــــــنْ أَوَّلاَ مَـــــــا أَوَّلاَهُ فَحَـــارَ الـــروحُ بِـــلْ خَيْـــرُ الأَنَـــامِ[2] !

***

جَلاَلُ الدِّينِ الرُّومِيّ

تَـــرَشَّـــفْ يَـــا نَـــدِيـــمَ الـــرُّوحِ خَمْـــرَا لَهَـــا كَـــأْسٌ تُسَـــاوِي مُلْـــكَ كِسْـــرَى

---

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس ليحيوا حياة حرة كريمة وتهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة ﴿ يس ﴾ فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وللـــرُّومِـــيِّ أَشْعَـــارٌ رِقَـــاقٌ فَلُـــذْ بِحِمَـــى فُـــؤادِكَ حِيـــنَ تَقْـــرَا

* * *

وَفِـــي كَـــاسَـــاتِهَـــا لَـــوْنٌ تَـــوَرَّدْ بِـــهِ اليَـــاقُـــوتُ يُصْبِـــحُ كُـــلَّ جَلْمَـــدْ(١)
وَقَلْـــبُ الأُسْـــدِ تَمْنَحُـــهُ غَـــزَالًا وَمِنْهَـــا الـــوَسْـــمُ عَـــنْ نِمْـــرٍ تَبَـــدَّدْ

* * *

وَفِيهَـــا سَـــوْرة مِنْهَـــا نَصِيبِـــي دُجَـــايَ سَنَـــا بِكَـــوْكَبِهَـــا العَجِيـــبِ(٢)
فَشَـــاهِـــدْ فِـــي الحِمَـــى إِنْ شِئْـــتَ ظَبْيـــاً بَـــدَا فِـــي بَسْمَـــةِ الأَسَـــدِ الغَضُـــوبِ(٣)
حَبِيـــبٌ حُبُّـــهُ كَـــانَ احْتِـــرَاقِـــي وَمِنْـــهُ الـــوَصْـــلُ يَنْطِـــقُ عَـــنْ فِـــرَاقِ
جَمَـــالُ العِشْـــقِ مِـــنْ نَـــايٍ لَـــدَيْـــهِ تَـــزَيَّـــنَ مِـــنْ عَـــلَاءٍ بِـــائْتِـــلَاقِ

* * *

وَلِـــي عُقَـــدِي ، فَحَـــلَّ بِمَـــا يَشَـــاء غُبَـــارٌ فِـــي طَـــرِيقِـــي الكِيمِيَـــاء(٤)
وأَسْمَعَنِـــي لَـــهُ أَنْغَـــامَ نَـــايٍ فَفِـــي سُكْـــرِي وَفِـــي عِشْقِـــي رَجَـــاء

* * *

وَهَـــا قَـــدْ فَتَحُـــوا بَـــابـــاً لِقَلْبِـــي كَمَـــا خَلَقُـــوا لَهُـــمْ دُنْيَـــا بِتُـــرْبِـــي(٥)
وَمِـــنْ فَيْـــضٍ لَـــهُ نِلْـــتَ اعتِبَـــارَاً فَبِـــي مَـــا حَقَّقُـــوا مِـــن صُنْـــعِ شُهْـــبِ
نُجُـــومَ الأُفْـــقِ جَـــالِـــسْ بِـــالخَيَـــالِ وَرَاءَ البَـــذْرِ يَنْظُـــرُ فِـــي مَجَـــالِ
فَقَـــدَّمَ قَلْبَـــهُ الضَّـــاوِي إِلَيْـــهِ لَـــهُ الأَنْفَـــاسُ تَخْفِـــقُ فِـــي اتِّصَـــالِ(٦)

---

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .
(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .
(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .
(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .
(٥) الترب : التراب .
(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَـنِ الـرُّومِـيِّ خُـذْ سِـرَّ الفَقِيـرِ يُثِيـرُ بِفَقْـرِهِ حَـدَّ الأَمِيـرِ
وَفَقْـرٌ ذَاكَ لكِـنْ مِنْـهُ فَـاحْـذَرْ مَقَـامـاً نِلْـتَ يُـدْنِـي مِـنْ حَفِيـرِ[1]

* * *

وَعَـنْ ذَاتِ إِلَهِـي وَهُـوَ نَـاءِ تَمُـدّ الكَـفَّ فِـي طَلَـبِ العَطَـاءِ
وَلِلـرُّومِـيِّ عَيْـنٌ حَقَّقَـتْ لِـي سُـرُوراً مِـنْ مَقَـامِ الكِبْـرِيَـاء
رَحِيـقٌ طَـابَ مِـنْ كَـرْمِـي تَـدَفَّـقْ وَيَسْعَـدُ مَـنْ بِـذَيْلِـي قَـدْ تَعَلَّـقْ[2]
نَصِيبِـي كَـانَ مِـنْ لَهَـبٍ قَـدِيمَـا سَنَـائِـي نَـالَ وَالـرُّومِـيّ يُحْـرَقْ

* * *

إلى مصر

رِيَـاحَ البِيـدِ وَافِينِـي وَسِيـرِي عُبَـابَ النِّيـلِ فِـي خَفْـقِ أَثِيـرِي[3]
وَأَدِّي القَـوْلَ عَـنْ عُمَـرٍ فَقُـولِـي « كُـنِ السلطـانَ يُعْـرَفُ بـالفَقِيـرِ »

* * *

وَمَـا تِلْـكَ الخِـلاَفَـةُ غَيْـرَ فَقْـرِ لَـهُ تَـاجٌ ، فَكَـانَ دَوَام أَمْـرِ
تَمَسَّـكْ يَـا فَتَـى دَوْمـاً بِفَقْـرِ بِغَيْـرِ الفَقْـرِ مُلْكُـكَ عِنْـدَ قَبْـرِ

* * *

---

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سربز يرى) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ، والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكأنه يريد ليقول : أن تلقي الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيق : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْماً مَنْ يُشَاهِدْ — يُقِمْ فِي الغَدِ للدُّنْيَا القَوَاعِدْ
وَهَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ — بِخُلْوَتِهِ بِذَاتٍ ، وَهْوَ قَاعِدْ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابْغِ بَابَا — وخذْ منْ شيخ حاناتٍ شرابَا
إلى الحاجاتِ فلتسلكْ سبيلاً — لتطرحْ مظهراً واطهرْ لبابَا

***

وتسعدُ أمةٌ للذاتِ عادتْ — وفِي عملٍ وفِي نصبٍ تمادتْ[1]
سَيلمعُ نورُها فِي الأفقِ شرقاً — إذا بسيوفها ضرباً أرادتْ

***

ومَلاَّحٌ من الأتراك طرَّب — بذوبِ الوردِ منه الخدَّ رطّبْ[2]
إذا لم أستطعْ فِي البحرِ سيراً — فلِي الطوفان أقهرهُ وأركبْ
بملكِ الأرضِ قدْ مزجوا ثرَانا — بآياتِ الإمامةِ هلْ تَرَانا[3]
لنادِينا بعمقِ الذاتِ شاهدْ — بهذا القلبِ حبّاً مِنْ ذُرانَا[4] ؟

***

وأسرارَ اليقينِ إذنْ عرفتَا — عنِ الاثنينِ عينكَ هلْ كففتَا
لمصباحينِ نورٌ ليس إلَّا — بغيرِ الدينِ مُلكاً هلْ ألفتَا

***

---

(١) النصب : الإعياء .
(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :
(لو اكترث هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لوهبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .
(٣) الآيات : العلامات .
(٤) ذرى الحب : نثره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عــرَّضــتَ ذاتــكَ لاختبــارِ ... خلقــتُ لــكَ السمــاءَ مــن الغبــارِ
شــرارُ الشــوقِ طَــيُّ القلــبِ منــهُ ... تُضيءُ الشمسَ فِي وضحِ النهارِ[1]

* * *

شعراء العرب

وقــلْ للشــاعــرِ العــربــيِّ عَنِّــي ... ليــاقــوتِ الشفــاهِ البخــسِ منِّــي[2]
قبســتُ النــورَ بــالقــرآنِ حتَّــى ... جعلــتُ الليــلَ لِــي فجــراً يغنِّــي

* * *

وفِــي الأرواحِ قَــدْ أذكيــتَ جمــرَا ... تــرابــي مــا يــراهُ النــاسُ قصــرَا[3]
غــديــرٌ ســاكــنٌ حــركــتَ فيــهِ ... عبــاباً ، ثــارَ فِــي النَّكبــاءِ بَحْــرَا[4]

* * *

أتــرســمُ صــورةً ؟ لا يــا غــريــرُ ... لتعمــلْ مــا يحبِّــذهُ الضميــرُ[5]
وروضتُنَــا خفقــت بهــا جنــاحَــاً ... حنيفــاً خُــصَّ بــالقبَــسِ المنيــرُ[6]
تُــرَابٌ نحــنُ ذُو قلــبٍ كئيــبْ ... وطَــلٌّ ظَــلَّ فِــي الغصــنِ الــرطيــبْ
وهَــذَا النبــعُ فجَّــره بِسِحــرٍ ... جــوانــحُ مسلــمٍ حــرِمَ القليــبْ[7]

---

(١) الخطاب إلى المسلم .

(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاه ولا شبهها بالياقوت .

(٣) أذكى النار : أضرمها .

(٤) النكباء : الريح بين الريحين .

(٥) الغرير : الناقص التجربة .

(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .

(٧) القليب : البئر . والمقصود بها بئر زمزم .

حَنِيفٌ شبهُ ربي في الصفاتِ ... ويحوي قلبُه أسرارَ ذاتِ
بنورِ اللهِ تشهدُ فيه حسناً ... له أصلٌ بقلبِ الكائناتِ

* * *

لتمنحَ ذاتهُ نوراً وَنَارَا ... ليصبحَ ليلهُ الداجي نهَارَا
وذاكَ اللحنُ فلتعزفْ بفيضٍ ... فَذلكَ ذوقُ تبديلٍ أثارَا
لغيركَ ينبغي للقلبِ حزقُ ... ومثلُ خفوقِ قلبِ سواكَ خفقُ
وذاتٌ أنتَ تنكرُها لشعبِ ... « ونحن الشعبُ » قولٌ منكَ حقُّ

* * *

ولِلأرواحِ أسرارٌ دراهَا ... بعينِ الذاتِ منْ دنيَا رآهَا
لتعزفَ فِي صميمِ القلبِ لحنَا ... حَيَاةً مِنْ ذبولٍ قدْ براهَا

* * *

لتحفظَ ما بِصلصالٍ لديكَا ... فكمْ من نشوةٍ حامتْ عليكَا
لهذا أو لذاكَ الدنُّ خلوٌ ... وقلبُكَ قدَّم الصهبَا إليكَا(١)
وهَذا الليلُ يوحِشُنَا بفَدْفَدْ ... فأينَ الماءُ والشحرورُ غرّدْ(٢)
وليسَ يضيءُ رهبان سِرَاجاً ... فشمس الصبح حتماً سوف تشهد

* * *

وفِي سيماكَ ذِي نظراً فكرٌ ... وفِيمَا تُخْبِىءُ الأيامُ فكْرٌ
وسرٌ مثلي بصحراءِ الحمى سِرٌ ... لأنَّكَ عمقَ ذاتِكَ قَدْ تُقَدَّرْ

* * *

---

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .

(٢) الفدفد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التغريد .

يا بنَ الصحراءِ

تنيـرُ البيـدَ بـالفجـرِ الجميـلِ   وَيَصـدحُ طـائـرٌ بيـنَ النخيـلِ[1]
« خيـامُـكَ يـا فتـى الصحـراءِ دعْهَـا   أيمكـنُ أنْ تعيـشَ بـلاَ رحيـلِ ؟ »

* * *

وللـرُّكْبَـانِ مِـنْ عـربٍ دليـلُ   فمحنـةُ ربهـمْ فقـرٌ طـويـلُ[2]
وهـذَا الفقـرُ إنْ أمسـى غيـوراً   تـرجَّـفَ كـوننَـا وهـو الـذليـلُ

* * *

شهـدْنَـا الصبـحَ فِـي ليـلٍ مبينَـا   تجلَّـتْ فيـهِ أنـوارٌ لِسِينَـا[3]
صَححنـا مـنْ ريـاحِ البيـدِ روحـاً   فمنهَـا القـومُ كـانـوا القـادِمينَـا

* * *

وما يدريكَ أنَّ المغوارَ فِي هذَا الغبارِ

رضـاكَ وذلـكَ التسليـمُ مـذهـبْ   وعـنْ نهـجٍ لصـدقٍ أيـنَ تـذهـبْ
وشِعـري لا تفسِّـر بـاجتهـادٍ   جنوني فِي حِجَايَ لديكَ مكتبْ[4]

* * *

---

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ ويقول الشاعر : إن الأمم ظهرت من سينا .

(٤) الحجى : العقل . المكتب : المدرسة .

وهـذَا المـرجُ أَقْفَـرَ مـنْ جنـونِـي وأصبـحَ كـالغـريـبِ بـلاَ خَـدِيـنِ
وفِـي بلـدٍ أصيـحُ ومـنْ صياحِـي جنـونٌ ظـلَّ كـالعقـلِ الـوزيـنِ

***

ربيعِـي منبـتٌ فِـي الفَجْـرِ زَهْـرِي وَإنّـي مُخْـرِقٌ زَهْـرِي بِجَمْـرِي
أتحسـبُ أنَّنِـي أبْقَـى وَحِيـداً وزهْرِي ليسَ يدخلُ تحتَ حَصْرِ
أتتـركنِـي المشتَّـتُ كـالغبـارِ علـى النسمـاتِ مسلـوبَ القـرارِ
فطـوبَـى لـي ويَـا بُشْـرَى فُـؤَادِي فمِنـي فـارسٌ يبـدُو بغَـارِ[1]

***

يسـودُ القـومَ فِـي زمـنٍ يَضِيـرُ ويظهـرُ فيهـمُ البطـلُ الشهيـرُ[2]
لـديـهِ السـرُّ مـنْ أسـرارِ غيـبٍ أكُـلُّ ثـرى بـهِ بطـلٌ جَسُـورُ

***

خففْـتُ كمـوجـةٍ فـي مـوجِ ذاتِـي إلـى الطـوفـانِ أدَّتْ سـافيـاتِـي[3]
ومَـا شـاهـدتُ لـونـاً مثـلَ هَـذَا وإلَّا مـنْ دمِـي رُسمـتْ شِيـاتِـي[4]
دِنـانَ الخمـرِ بـالنظـراتِ أفعِـمْ وَرَاحَ منِّـي بهـذَا الكـرمِ أَقْحِـمْ
ومـنْ طـوفَـانِـهِ أمْسَـى غـديـرٌ صغيـرٌ مـنْ بحـارِ البحـرِ أعظـمْ

***

زِمَـامَ الـركـبِ يـومـاً إنْ تسلَّـمْ فقـدْ كشـفَ الخفـا عـنْ كـلِّ مبهَـمْ
وأظهـرَ مـنْ بـأفـلاكٍ جِهـارَاً سمـواتٍ بهَـا مـا كـانَ يهتَـمْ

***

---

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المنتصر من ورق الكرم .
(٢) يضير : يؤذي .
(٣) السافيات : الرياح .
(٤) الدمى : الصور والتماثيل . الشيات : الألوان .

وزُفَّ لهــذِهِ الــروحِ التهــانِــي ... ألــمْ تلـدِ الأميـرَ رفيـعَ شــانِ
ألــوذُ بحضنِهَــا أُمّــاً رؤومــاً ... وأخجـلُ منه حـوراً فِـي الجنَـانِ
يقــولُ الصــدرُ فِـي قلبـي حبيـبُ ... مغيــرٌ جَـاءَ هــيءٌ مَــا يصِيــبُ
وعنْــد المـوْتِ فِـي سمعِـي يـدوّي ... « بسقطــةِ زهــرةٍ ثمــرٌ يطيــبُ »

* * *

الخِلافةُ والمُلْكُ

بنــورِ للنبــي القلــبُ أضــرَمْ ... أنــارَ بشَـرقِـهِ مَـا كَـان أظْلَـمْ[١]
ولكــنَّ الخِــلافَــةَ وســطَ تيــهِ ... فهـذا المـؤمنيـن الملـكَ علَّـمْ[٢]

* * *

ونشهــدُ أننَــا نَسْمُــو مَقَــامــا ... وهـذا الملـكُ قـدْ كـانَ الحـرامَـا[٣]
خــداعٌ كُلُّــه ، بــلْ كــلُّ مكــرِ ... وتـرعَـى عهْـدَ ربِّـي والـذِّمَـامَـا[٤]

* * *

نــزاعٌ فيــهِ ملــكٌ والكَليــمُ ... ومــنْ أكــدَى وأعــوزَهُ كَلِيــمُ[٥]
هـي الأقـدارُ تجْـرِي كيـفَ شـاءتْ ... فعصفُ الريحِ ما وهبَ النسيمُ !
هــوَ الإنســانُ فِــي الــدنيـا غـلامُ ... وليــسَ لِمَــا يــزاولُــهُ تَمَــامُ
لفقــرِ عظيــمِ قــومِ كنــتُ عبْــدَاً ... لــديـهِ الملـكُ فِـي ديـنِ حـرَامُ

* * *

---

(١) يقصد العربي .
(٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .
(٣) الخلافة هي التي تشهد .
(٤) الذمام : الحرمة والحق .
(٥) أكدى : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بنظـــرتـــهِ المحبـــةُ مـــا يـــدُومُ ومنـــهُ السكـــرُ تقْـــدِيـــراً يَـــرُومُ
وهــذِي « عبـدُهُ » كـانـتْ مَقَـامَـاً بتـــربيـــبِ لأشـــواقِ يقُـــومُ[1]

***

التركي العثماني

بملـــكٍ واســـعٍ أضحَـــى أميـــرَا بقلـبِ قـدْ وعَـى أمسَـى بصيـرَا
يظَـلُّ مـنَ الفـرنجـةِ فِـي قيـودٍ لسحـــرِ طِلَّسْمِهـــمْ بَقِـيَ الأَسِيـــرَا

***

لمنْ قـدْ أبطَلـوا ذا السحـرَ طـوبَـى ومَـا شَغلُـوا بعَهْـدِهِـمُ قُلُـوبَـا[2]
بـذاتِـكَ فـاعتـرفْ واليـأسَ جـانـبْ تحـــدَّى قبلَهـــمْ قـــومٌ خطـــوبَـــا

***

بهـمْ قَـدْ حقَّـقَ التـركُ الـرغـائـبْ ونـــالُـــوا بغتـــةً أعلَـــى المـــراتـــبْ
أليـــسَ لمسلـــمٍ عينـــاً بصيـــر ا لقـدْ كشـفَ المصيـرَ لـهُ الأَجـانـبْ

***

---

(١) تردد ذكر « عبده » في ديوان « رسالة الخلود » لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان « الحلاج » :

عفـــر العـــالـــم خـــداً عنـــده نفســـه سمـــى النبـــي عبـــده
عبـــده فهمـــا لـــديـــك تبهـــر إنـــه الإنســـان وهـــو الجـــوهـــر
عبـــده قـــد شكلـــت هـــذا القـــدر بـالفيـافـي الخصـب منهـا قـد ظهر
غيـــر عبـــد عبـــده فلتعتبـــر عبـــده فيهـــا انتظـــار المنتظـــر
عبـــده كنـــه جميـــع الكـــائنـــات عبـــده فيهـــا معـــان مغلقـــات

(ص٢٠١ ـ ٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاةُ المجتمعِ

فتـاتِـي دعـكِ مـنْ هـذَا التجمُّـلْ   مـنَ الكفَّـارِ تـزييـنٌ أيجمـلْ؟[1]
وصـدِّي القلـبَ عـن تـوريـدِ خَـدٍّ   فـإنَّ الغـزوَ مـنْ عيـنِ التـأمُّـلْ[2]

* * *

لـكِ النظـراتُ مـنْ ربِّـي حسـامُ   لـروحٍ مـنْ جـراحـاتٍ قـوامُ[3]
ومنهَـا يستمـدُّ القلـبُ شيّـاً   فمـاءٌ للحيـاءِ هـوَ المـرامُ

* * *

ضميـرُ العصـرِ ليـسَ لـهُ نقـابُ   علَـى حسـنٍ تَفتَّـحَ منـهُ بـابُ
بنـورِ اللهِ دنيَـا فلتُنِيـري   عليـهِ فـي تجليـهِ الحجـابُ
ويصلـحُ عيشُنـا بـالأمَّهـاتِ   أميـنٌ قلبهُـنَّ لممكنـاتِ
وهـذا إنْ يغـبْ عـنْ فكـرِ قـومٍ   فليـسَ لأيِّ أمـرٍ مـنْ ثَبَـاتِ

* * *

أصَبْنَـا العقـلَ مـن ذاكَ الجنـونِ   بنظـرةِ هـذهِ الأمِ الحنُـونِ
ومَـا فِـي مَكْتـبٍ عيـنٌ وقلـبٌ   وهـلْ مـنْ مكتـبٍ غيـرَ الفنـونِ

* * *

ويسعـدُ مَـنْ رأَوْا بـالـوارداتِ   قيـامـاتٍ بتلـكَ الكـائنـاتِ[4]

---

(١) يجمل : يحسن .
(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .
(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .
(٤) الواردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكر ولا تدبر .

وما قدْ فَاتَ أو ما سوفَ يأتِي   لهمْ أبدى جبينَ الأمهاتِ
ونُصحي فاجعَليهِ ملءَ أذنكْ   ليفْنَى الناسُ طُرّاً قبلَ دفْنِكْ[1]
عنِ العصرِ اختَفَى ، كونِي بتولاً   ليبقَى شبرٌ في دفءِ حضنكْ[2]

***

ومنْ ليلٍ لنَا فجراً أنِيري   إلى القرآن عودِي بالبَصِيرِ[3]
(قرأتُ) وتعلميِنَ لهَا أوارٌ   بهَا عُمَرٌ تغيَّرَ في كثيرِ[4]

***

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منهُ للدينِ الشكاةْ   وحرِّيَاتُه وأدُ الطغَاةْ
وُجُوهٌ فيهِ للإنسانِ شاهتْ   وأفسدَ نقشَهُ حتَّى الهواةْ[5]

***

ونظْرَتُه بها تصويرُ كفرِ   وليسَ كمالُ فنٍّ غيرَ جمرِ

---

(١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن ألف أمة تموت وأنت لا تموتين .
(٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .
(٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .
(٤) يلمح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدهما يقرآان سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ ثم أسلم .
(٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

ومَـنْ تُجـاره فـي الـسـوقِ فَـاحـذرْ ... فهـــذا ميَسَّـــرٌ فِـــي كـــلِّ أمْـــرِ

* * *

شبـابَ القـومِ هـذا العصـرُ أفسـدْ ... لإبليـسَ دُجَـاه الصبـحَ فـاشهـدْ
لـــهُ الأذيـــالُ تطـــوينَـــا كَنَـــارٍ ... فكـــلُّ شُعَـــاعِ نـــورٍ فيـــه يُخْمَـــدْ
جَمَعْنَـــا بيـــنَ سلطـــانٍ وفَقْـــرٍ ... ومَـــا يغنـــي وَمَـــا يبْقَـــى لـــدهـــرِ
عيـــاذاً منـــهُ بـــالبـــارِي عِيَـــاذاً ... دَمُ الشيطـانِ فـي السلطـانِ يجْـرِي !

* * *

أرقـــصٌ ذاكَ ؟ إنـــي لســـتُ أدرِي ... أنشْـــوَةُ فـــرحـــةٍ أمْ سكـــرُ خمـــرِ
لتقليـــدِ الفـــرنجـــةِ كـــانَ رقـــصٌ ... وليـسَ دمـاً بعـرقِـكَ وهـوَ يَجْـرِي

* * *

البرْهَمِيّ

فتحـــتُ لفتنـــةٍ بـــابَـــاً وبَـــابَـــا ... مشيتُ ، سقطتُ ، لاقيتُ الصعَابَا
دُمَـــى للبـــرهَمِـــيِّ تـــزيـــنُ طـــاقـــاً ... بـرأسِ الطـاقِ علقـتُ الكتَـابَـا ؟[1]

* * *

أَفـــي عمـــلٍ ونَـــى ؟ لا بـــلْ أطَـــالاَ ... لـه الأحجـارُ يكسـوهَـا الصقَـالاَ[2]
بقـــوةِ ســـاعـــديـــهِ بـــرَى إلهـــاً ... صلـودَ الصخـرِ قـدْ يـزنُ الجبَـالاَ[3]

* * *

---

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .
(٢) ونى : أبطأ .
(٣) برأ : خلق .

ويحفــظُ بــزهمــيٍّ كُــلَّ أمــرٍ ولا يفضــي إلــى أحــدٍ بِســرٍّ
وهــذِي سبحــةٌ قَــالَ اطَّــرحْهَــا بــزُنــارٍ علــى كتفيــهِ يجــرِي(١)
وقــالَ لتبتعــدْ عــنْ بــابِ غيــرِ فمــنْ أهــلٍ لنَــا نحظَــى بخيــرِ
ومَــا تسـعُ المســاجـدُ غيـرَ مُــلاَّ ومــنْ سحـرِ الــدُّمَــى كَــانَــا بــدَيْــرِ

***

التعليم

يــدومُ لقلبنَــا هــذا اللهيــبُ كَشــوطٍ ، والحيــاةُ هــيَ النجيبُ(٢)
فعلِّــمْ ذاكَ أبنــاءَ فعلِّــمْ لأَنَّ كِتَــابهــمْ سِحْــرٌ يَخِيــبُ

***

ومِــنْ علــمٍ بقلــبٍ ليــسَ حــرقــا تــأمُّــلُ متــقٍ خيــرٌ وأَبقَــى
وأَصْفَــى مِــنْ عيــونِ الصقــرِ قلــبٌ هــوَ المــزوَرُّ عــنْ دارَيْــهِ حَقًّــا(٣)

***

إلهِــي مــؤمنــاً لا ريــبَ يسلُــو مــن الــروحِ الــرقيقــةِ وهــوَ يخلُــو
لــذَا عــنْ مكتــبِ الخــلانِ أمْضَــى فما صَادفَتْ منْ بالذاتِ يغْلُو(٤)
ألَا يــا حبَّــذَا هــذَا الضــريــرُ إذَا مــا أخطــأَ النَظَــر البصيــرُ
أُفَضِّــلُ جــاهــلاً وَرِعــاً تَقِيــاً بعلــمٍ ليــسَ يخْــدَعُنِــي الكَفُــورُ

***

---

(١) اطرحها : ألقها . الزنار : ما يشد به النصراني وسطه .
(٢) النجيب : الفرس الكريم .
(٣) ازورَّ : مال وحاد .
(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم النشء .

أَيُجْدِي الفِكْرُ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ ... يحومُ عَلَى النجُومِ بِلَا انتِهَاءِ
كَأَنَّ الريحَ تزْجِيهِ سَحَابَاً ... فتَاةَ ممزَّقاً وَسَطَ الفَضَاءِ[1]

* * *

عَلِيمٌ زَانَهُ أدبٌ وجاهلْ ... كريمٌ منهُ منْ يحظَى بِحَاصِلْ[2]
وَمَا أحببتُ إنساناً عَلِيماً ... وَمِنْ أدبٍ نصيبٌ غيرُ كَامِلْ
لماذَا اليأْسُ مِنْ طفلٍ صغِيرِ ... إذَا ما شِئْتَ فانْعَتْ بالغَرِيرِ
ولكنْ مَنْ يعَلِّمُهُ لتسألْ ... أَلِلأَطفالِ قلبٌ فِي الصُّدُورِ ؟

* * *

صغيرَكَ لقِّنَنَّ الدينَ علمَا ... ليشرِقَ سعدُه بدرَاً ونَجْمَا
ولو قدَّمتَ بينَ يديهِ فضلاً ... لزيَّنَ باليدِ البيضَاءِ كُمَّا[3]

* * *

غناءٌ مِنْ بَلاَبِلِ مَا أصَابَا ... أُوارٌ بالورودِ لديهِ طَابَا[4]
بِعِلمِ ليتَ شِعْري أيُّ فخْرِ ... فعنْ روحٍ لأجلِ الخبزِ غَابَا
إلِهِي حَيِّ للدرويشِ ذِكْرَى ... يفتحُ قلبَنَا عِطْراً وزَهْرَا
وينصحُ طِفلَنَا نصحاً حَكِيماً ... « لخبزِكَ لا تَذِلَّ النفسَ أسْرَا »

* * *

و « إلا الله » منْ دوماً تذَكَّرْ ... منَ الملاَّ ومِنْ درسٍ تحرَّزْ[5]

---

(١) تزجيه : تدفعه .
(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .
(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .
(٤) الأوار : لهيب النار .
(٥) في الأصل (لا إله) .

بهـذَا العلـمِ لا تبْسُـطْ جَنَـاحَـا بِـهِ الإنسـانُ فِـي عجْـزٍ تحيَّـرْ[1]

* * *

وإنْ لـصٌّ علـى رَكْـبٍ أغـارَا أتسْـألُ كيـفَ أورَدَهُـمْ بَـوارَا[2]
فـلاَ تـأمـنْ إذا حصَّلْـتَ عِلمـاً فمنـهُ الـروحُ يمكـنُ أنْ تُضَـارَا[3]
فتـىً راقـتْ فَصَـاحتَـهُ وسِيـمُ ونظـرتُـهُ كليـثٍ لا تُقِيـمُ[4]
وفـي درسٍ تلقـنْ عِلْـمَ شَـاةٍ ومَـا إنْ يسَّـرَ الـورقَ الجمِيـمُ[5]

* * *

وسَقَـب أي شـيءٍ مـا دَرَاهُ إلهِـي قـال إنـي لَا أرَاهُ[6]
فقـالَ أبـوهُ قَـدْ يُمنَـى بَعِيـرٌ بعَثْـرَتِـه ليشْهـدَ مَـنْ بَـرَاهُ[7]

* * *

السعْيُ في الرِّزْق

أَمِـنْ سطـحٍ إلـى سطـحٍ تطيـرْ بِهـذَا مَـا سَمَـتْ قَـطُّ الصقُـورْ
إذَا مَـا كَـانَ صَيْـدُكَ بَعْـضَ رِيـشٍ فخيـرٌ منْـهُ مـوتٌ فـي الـوكُـورْ[8]

* * *

---

(١) في الأصل : هذا العلم يسلبنا عيننا وقلبنا ويدنا .
(٢) البوار : الهلاك .
(٣) تضار : تصاب بالضرر والأذى .
(٤) يشبه نظرته في دوام حركتها بأسد جوال لا عرين له .
(٥) الجميم : النبات .
(٦) السقب : ولد الناقة .
(٧) يمنى : يبتلى . براه : خلقه .
(٨) الصيد : الفريسة . الوكور والأوكار : جمع وكر وهو العش .

لـــذاتــك نظـــرة فـــي كــلٍّ أمـــرٍ لنَـــا مِـــنْ نَظْـــرةٍ ســـوطٌ لنَجْـــرِي
وَمَـــا نسْعَـــى وَرَاءَ الـــذكـــرِ إلَّا لِكَـــي نَعْلُـــو وَنَعْلُـــو مِثْـــل طَيْـــرِ

* * *

التمساح وصغيره

وللتمْســـــاحِ هَـــــذَاكَ الكَـــلَامُ « لـــزُومُ الشـــطِّ فِـــي دِينِـــي حَـــرَامُ
عَـــنِ الشـــطِّ ابتَعِـــدْ مـــوجـــاً تسَلَّـــقْ فَعِـــشْ بحـــرَنَـــا وَبِـــهِ نَنَـــامُ »

* * *

وَهَـــذَا البَحْـــرُ فِـــي صَـــدْرٍ حَمَلْتَـــهْ وذَا الطـــوفَـــانُ فِـــي حَـــرْبٍ غَلَبْتَـــهْ[1]
ولَـــوْ فِـــي بُـــرْهَـــةٍ أَعْيَـــا وَأَغْفَـــى لَكَـــانَ مُقَـــاتِـــلاً مَـــا إنْ قَتَلْتَـــهْ

* * *

خاتمة

عَـــنِ السَّـــاقِـــي وَعَـــنْ كَـــأسِ المـــدَامِ سَكَـــتُّ وَكَـــانَ عَـــنْ عِشْـــقٍ كَـــلَامِـــي
مِـــنَ الأَخْيَـــارِ فِـــي قَـــوْمٍ حَـــدِيثَـــاً سمِعْـــتُ لِكَـــيْ أبْلُـــغْ بـــالتَّمَـــامِ

* * *

بقلبـــكَ أمْسِكَـــنَّ وعـــدْ لِنَفْسِـــكْ وَصَـــدْرُكَ فَلْيَكُـــنْ دَارَاً لحبْسِـــكْ
لِتَســـقِ الحقـــلَ دَمْعـــاً مِـــنْ دِمَـــاءِ نَثَـــرتَ الحَـــبَّ فلتعمـــلْ بِفَـــأْسِـــكْ

* * *

---

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بقَلبِ حولَ هَذَا البيتِ طُفنَا وَمَا كَمُطَوِّفٍ بِالبَابِ كُنَّا[1]
ويَكْمُنُ بينَنَا سِرٌّ عَجِيبٌ وهَذَا الرَّمزُ عَنْ جِبْرِيلَ عَنَّا[2]

***

العالمُ الإنسَانِيُّ[3]

كانَ حُبُّ الخيرِ للمرْءِ احتِرَامَا كَيفَ تَنْسَى أَنَّه يسمُو مَقَامَا

جاويدنامه[4]

تمهيد

عَلَينَا فَلْتُدِرْ كَأْسَ الشمُولِ ونَضِّرْ لِي رَبِيعاً فِي ذُبُولِ[5]
وأَنْفَاساً مِنَ الأَنْغَامِ هَبْنِي أُضَرِّمْ نَارَ نَايِي بِالأَلِيلِ[6]

***

بَقِيتَ بخلوةٍ فلتَأْتِ مَرَّه وَصَدْرُكَ فِي الصَّبَا فَتْحٌ بِخَطْرَه

---

(١) طوف : طاف .

(٢) عن عنه : بعد .

(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .

(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامه » لمحمد إقبال الذي ترجمة الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .

(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .

(٦) الأليل : الأنين .

مقـــامَ الـــريـــحِ والألـــوانِ دوًّى   فـــزدْ فِيـــهِ لهـــذَا الطيـــرِ نَبْـــرَه

* * *

أَثَـــارَ الـــدهـــرُ فِتْنَتَـــه ، وَوَلَّـــى   لئـــامَ النـــاسِ مَـــنْ رَبَّـــى ، وَوَلَّـــى
بـــلادَ اللهِ بغـــداداً مَحَـــاهَـــا   عَلَـــى عجـــلٍ كَجِنْكيـــزٍ ، وَوَلَّـــى
بهـــذَا الغـــدِ كَـــمْ شَغَلـــوا القُلُـــوبَـــا   فَهُـــمْ فِـــي أَمْسِهِـــمْ ذَاقُـــوا شَعُـــوبَـــا[1]
فمـــنْ فِـــي يَـــوْمِـــهِ أَحْيَـــا دَوِيًّـــا   لِيَسْعَـــدْ أَوْ لِيَسْمَعْـــهُ الطـــرُوبَـــا ؟

* * *

أنُخْـــتَ كَمـــا يَنُـــوحُ العنـــدليـــبْ   فَمَـــا للـــرُّوحِ مِـــنْ نَـــوْمٍ هُبُـــوبْ
بِهَـــذَا الـــرَّوضِ قَطْـــفُ الـــزهْـــرِ حَـــلٌ   وَليـــسَ لـــدَيـــكَ مِـــنْ شَـــوْكٍ نُـــدُوبْ[2]

* * *

علـــى الـــذَّاتِ انْطِـــوَاءٌ ، فَلْتُعلَّـــمْ   بظفـــرِكَ حَفْـــرُ صَـــدْرِكَ ، فلْتعلَّـــمْ
تـــرجِّـــي رؤيـــةَ المـــولَـــى عَيَـــانَـــاً   فـــرؤيـــةُ عمـــقِ ذاتِـــكَ ، فَلْتُعلَّـــمْ
عـــنِ الشكـــوى مِـــنَ الأيـــامِ أَقْصِـــرْ   فمـــنْ لَـــمْ ينْصَهِـــرْ كـــالتِّبْـــرِ يُخْسِـــرْ[3]
يطيـــبُ المـــاءُ فِـــي نَهْـــرٍ بصَخْـــرٍ   يشتِّـــتُ مِنْـــهُ أمْـــواجـــاً وَيَكْسِـــرْ

* * *

عـــنِ الـــورْقَـــاءِ للفَـــرْخِ الصغيـــرِ   « بطبـــع كيـــفَ نَحْيَـــا كَـــالحَـــرِيـــرِ[4]
فَقُـــلْ فـــي نشـــوَةِ الأشـــوَاقِ يَـــا هُـــو   وَخُـــذْ مَـــا زَانَ هَـــامَـــاتِ الصُّقُـــورِ »

* * *

---

(١) شعوب : الموت .

(٢) الندوب : جمع ندب وهو أثر الجرح .

(٣) أقصر عن الكلام : سكت .

(٤) الورقاء : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُـــوِيُّــكَ مِـــنْ مقــامِ الكبــريــاءِ وعَفَّـــرْتَ الجبيـــنَ لأذنِيـــاءِ[1]
وشَـــاهِينَـــاً أَرَاكَ تَصِيـــدُ ذَاتـــاً ولكــنْ فِــي شِبَـاكِـكَ بِـارْتِمـاءِ
لـــكَ البشـــرَى فَـــذَاتُــكَ تستــردُّ ومِـــنْ فقْـــرِ غِنـــىً مـــا تستَمِـــدُّ
حيـــاةُ الخُلـــدِ هـــذِي فِـــي يَقِيـــنٍ وفِـــي حـــدْسٍ لمـــوتٍ تستَعِـــدُّ[2]

* * *

أعـــنْ ذاتٍ تحَجَّـــبُ بـــالحجـــابِ إليهَـــا حَبَّـــذَا يَـــوْمُ الإيـــابِ
وفِـــي رِزْقِـــي لـــي التفْكِيـــرُ كَفَـــرْ وَأَنْـتَ كَفَـرْتَ مِنْ عِلْـمِ الكتَـابِ[3]

* * *

لسقـــبٍ قـــالَ هـــذَاكَ البعيـــرُ « تـــأمَّـــلْ أنـــتَ لِـــي نِغْـــمَ النَّظِيـــرُ
لتَعْمَـــلْ مِثْلَنَـــا ، جِبْنَـــا الصَّحَـــارَى بـــأحْمَـــالٍ لنَـــا كُنَّـــا نَسِيـــرُ »[4]
كـــلامُ جهبـــذِ الإفـــرنـــجِ قـــالاَ وَفِـــي كَـــوْنٍ وَفِـــي عَـــدَمٍ أَطَـــالاَ[5]
مـــنَ الأعجَـــامِ شَيْـــخٌ قَـــالَ قَـــوْلاَ أبَلِّغُـــهُ ، فَـــأَلْـــقِ إِلَيْـــهِ بَـــالاَ

* * *

غـــرِيـــبٌ عنـــكَ يَجْعَلُـــكَ القَتِيـــلاَ لقَلْـبٍ تشْتَـرِي الحـزْنَ الـوَبِيـلاَ[6]

---

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .
(٢) الحدس : الظن والتخمين .
(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم . ويروى أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته : (اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس لعلم العشق دفتر عندنا) .
(٤) جاب الصحراء : اجتازها .
(٥) الجهبذ : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .
(٦) الوبيل : الشديد .

ويَفْضُـــلُ كُــلَّ تَـــأْوِيــلٍ لِشَيْــخٍ   مـعَ الــذاتِ الجلـوسُ وَلَـوْ قَلِيـلاَ

* * *

وجُـــودُ ذَاكَ أَمْ هَـــذَاكَ مَظْهَـــرْ   حَكِيـــمٌ عِنْـدَنَـا الإِشْكَـال فَسَّـرْ
وعلْــمُ الغــوْصِ ضَمَّنَــهُ كِتَــابــاً   ولكِـنْ ليتَـهُ فِـي العُمْـرِ أَبْحَـرْ[1] !
إِليــكَ الفــأسَ ، هَــذَا بيستُــونُ   وبـادِرْ ، دَهْـرُكَ العَـاتِـي خَـؤُونُ[2]
شَـرَارَ الفـأْس دع مـنْ قـالَ عنْـهُ   أمِـنْ فَـأْسٍ ؟ أَمِـنْ حَجَـرٍ يَكُـونُ ؟

* * *

سِـرَاجُ مُنَـاكَ فِـي كَفَّيْـك أَبْـقِ   مقَـامَ الهَـاتِفِيـنَ فَنَـلْ بِحَـقِّ
وفِـي دُنيـاكَ فَـاحْـذَرْ مِـنْ ضَيَـاعٍ   بِذَاتِكَ خُذْ ، دعِ الدنْيَا لِمَحْقِ[3]

* * *

وهَـذَا القلــبُ بَحْـرٌ مِنْـكَ يَسْكُـنْ   ومِـنْ جَـرّاكَ فِيـهِ الـدُّرُّ يَكْمُـنْ[4]
فثُـرْ يَـا مـوجُ وَاحـذرْ مِـنْ سُكُـونٍ   فَهــذَا البحْــرُ دَارًا مِنْــكَ يَحْسُــنْ
إِلـى ذاتٍ لـكَ الـدارَيْـنِ فـاجْـذِبْ   أعَــنْ ذَاتٍ تشــرّقُ أوْ تغـــرِّبْ
ويـــومَـــكَ مِنهمَـــا نُـــوراً لتُبصِـــرْ   وَهَـذَا النُّـورُ يَـوْمَـكَ لَا تُجَنِّـبْ

* * *

---

(١) يتهكم الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .

(٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . وبيستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريقاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .

(٣) محقه محقاً : أهلكه .

(٤) من جراك : من أجلك .

لنَـا يَـا زَهْـرَةً هَـا قَـدْ ظَهَـرْتِ بِـوَجْـهِ الحسْـنِ دُنْيَـانَـا أَنَـرْتِ
وهـذِي زهـرةُ البستـانِ قـالُـوا بغصْنِكِ كيفَ كَنْتِ وكيفَ صرْتِ ؟

* * *

مـنَ التبـريـحِ لا يبكِـي الـرجـالُ بصرفِ الـدهْـرِ يـوماً لـمْ يُبَـالُـوا[١]
وقَـدْ تبكـي ولكـنْ لسـتَ مِنهـمْ لـدمعٍ مِـنْ لَظَـى الشـوقِ انهِمَـالُ[٢]
ومـنْ فِـي مِحْنَـةٍ نَسِـيَ الفنَـاءَ ولوْ شهدَتْهُ في الموتِ السَّماءْ[٣]
وأنـتَ بمـوتِـهِ هَـذَا جَـدِيـرٌ وَإِلَّا فَلْتَمُـتْ مَـوْتـاً تَشَـاءُ

* * *

تُـرابُـكَ وَهْـوَ عـنْ روحٍ غـريـبْ غصـونـكَ ليسَ يـروِيهـا صَبِيبُ[٤]
عليـكَ بحـرقـةِ الأنفـاسِ واسعـدْ فمبتهـجٌ بِهـا الصـدْرُ الكئيـبُ

* * *

علينَـا قَـدْ تكـاثـرتِ الغمـومُ غَـريبـاً مُسْعِـداً كُنَّـا نَـرُومُ[٥]
فهيِّـئْ فِـي غـدٍ مـا أنـتَ تبغـي ولكـنْ إنْ عـرفـتَ بكـمْ يقُـومُ[٦]
كـريـمٌ ذاتَـهُ والقلـبَ ضَمَّـا بِرَمْيِ الشِّصِّ لا يؤْذِي الخِضَمَّا[٧]
تجلّـي السكـرُ للنظـراتِ حِـلٌّ بغِـلِّ القلـبِ والكفَّيـنِ حتْمَـا

* * *

---

(١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .
(٢) انهمل الدمع : سال .
(٣) المحنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيبهم الله بالبلاء ليبلوهم به .
(٤) الصبيب : المصبوب . والمقصود به هنا الماء .
(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .
(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .
(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

همُـــومٌ قلبُنَــــا مِنهَـــا تَفَطَّـــر		تــرابٌ أصْلُهــا وضــرٌ وَأَكْــدَرْ[1]
ولكـــنْ مَــا عَــرَفنَــا الهــمَّ يحْلــوُ		بــأصـلِ الفكـرِ فِـي عَقْـلٍ تفكَّـرْ[2]

***

إلــى الأقــدَارِ لا تنســبْ أُمُــورَا		وَكــانَ اللهُ وَهَّــابــاً غفُــورَا
ولكـــنْ قَلْـــبِ الـــدنْيَــا ففِيهَـــا		حقيـرُ النـاسِ مَـنْ قَمَـرَ الأمِيـرَا[3]
مـــريـــرَ الحقـــدِ فَلْيَلْفُـــظْ جَنَـــانُ		مــن الشُبَّــاكِ فليخْــرُجْ دُخَــانُ[4]
وليـسَ لحقـلٍ قلبـكَ مـنْ خـراجٍ		فيـا دُهْقَـانَ هـلْ مِنْـكَ الأمَـانُ ؟[5]

***

لفجــرٍ مــنْ ليــاليــهِ الظهــورُ		لكــوكبــهِ علــى الــداريــنِ نــورُ
واعجــزُ عــنْ كــلامٍ فيــه عجــزاً		فعنــدَ المــوتِ يغشــاهُ الســرورُ

***

وَقَـالَـتْ للصَّبَـا فِـي الطَّـلِّ قَطْـرَهْ		مُنَــاي إلــيّ مــن عينــكَ نَظْــرَهْ
مــنَ الأزهــارِ فــي قلبــي مَــلاَلٌ		فهبّـي كَـيْ أُوَافِـي العشـبَ مَـرَّهْ[6]

***

---

(١) الوضر : القذر .
(٢) يقول : إن الهم الحلو المناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .
(٣) قمره : غلبه في القمار .
(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .
(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .
(٦) وافى : أتى .

القلب

بِـــلاَ شَـــطٍّ خِضَـــمٌ كَـــانَ قَلْبَـــا يثيـــرُ بهيبـــةِ الأمـــواجِ رُعْبَـــا
بسيـــلٍ مغـــرقٍ سهبـــاً وسهبَـــا حبَـــابٌ فيـــهِ بـــالأفـــلاكِ يعبَـــا ؟[1]

* * *

لهيـــبٌ ، جسمُنَـــا مـــوجُ الـــدخـــان ومِـــنْ خَفَقَـــاتِـــهِ رَجْـــعُ الأَغَـــانِـــي
ومجلِسُـــهُ بِـــذِكْـــرِ الـــوَهْـــنِ أمْسَـــى كقطـــرةِ زئبـــقٍ تبـــدُو لـــرانِ[2]

* * *

وينجِـــحُ سعيُـــه دَهْـــرَ مُثَـــابِـــرْ بصـــونِ الـــذاتِ درويـــشٌ يُجَـــاهِـــرْ
وصُـــنْ للقَلـــبِ سُلطَـــانـــاً وَفَقْـــرَاً فهـــذَا البحْـــرُ قَـــدْ صَـــانَ الجـــوَاهِـــرْ[3]
قِـــوَى للـــذاتِ يـــومـــاً مَـــا بَلَـــوْتَـــا وقَيْـــداً بَعْـــدَ قيـــدٍ مَـــا حَطَمْتَـــا[4]
يَـــدُومُ العقـــلُ لِـــلإنْسَـــانِ قَيْـــداً إِذَا فِـــي صَـــدْرِهِ القلـــبُ افتقَـــدْتَـــا[5]

* * *

تَقُـــولُ القلـــبُ مِـــنْ تـــربٍ مهيـــنِ يـــذوقُ الأســـرَ مـــن كـــافٍ ونُـــونِ

---

(١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي فقاعة واحدة في هذا السيل .

(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة . الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .

(٣) أنجحه : جعله ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عادته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .

(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .

(٥) افتقد : فقد .

وفِـي صـدْرٍ لقلـبِ مستَقَـرّ هُنَـا مَـا كَـانَ يَـوْمـاً بِـالقَطِيـنِ[1]

* * *

ودنْيَـا النيِّـرَيْـنِ بِهَـا تَمَنْطَـقْ وَكَـمْ عَقْـدٍ يَحِـلُّ إِذَا تَحَـرَّقْ[2]
فَقُـلْ لِلْهِنْـدِ هَـذَا مِـنْ كَـلامِـي بصَحْـوَتِـهِ غُـلامُ الهنْـدِ يُعْتَـقْ
وكُنَّـا حقْـلَ رَبِّـي وَهْـوَ حَـاصِـلْ لِعَـالَمِنَـا عَـرُوسٌ وهـو محمَـلْ
غبَـارَ مـنْ درَى سـرّاً بـدَربٍ ولم يكُ غيرَ هذَا القلْبِ ، فاعقِلْ[3]

* * *

دؤوبٌ يطلُـبُ الحسـنَ الغـرِيبَـا خطيـبٌ كـانَ منبـرُهُ صَلِيبَـا[4]
وسلطَـانٌ لَـهُ خيـلٌ وجَيـشٌ ويعـدمُ عنـدَ دولتِـهِ نصيبَـا

* * *

ودُنْيَـا القلـبِ مـا اتَّسمَـتْ بـرونَـقْ ومـا يبـدُو بهـا حِجْـرٌ وَجَـوْسَـقْ[5]
ومـنْ أرضٍ خلـتْ بـل مـن سمـاءِ و « الله هـو » تغشّيهَـا فتغْـرَقْ
رأتْ عيـنٌ ، أتـى قلـبٌ سـرِيعَـا أرَادَ يقيـسُ عـالمنَـا الـوَسِيعَـا
وهـذَا القلـبُ سِكّيـراً يسمَّـى تحسَّـى مَـا بِـهِ حُسْنَـاً بَـدِيعَـا

* * *

سهـامُ العشـقِ مِـنْ عيـنٍ تصيـبُ يطيـبُ الجرحُ والـرامِـي حَبِيـبُ
بِصَيـدِ القلـبِ سهمُـكَ فلتـدَعْـهُ بكـلِّ الصيـدِ ، مـنْ نَظَـرٍ تـؤوبُ[6]

---

(١) المراد بـ « هنا » : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم
(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .
(٣) الدرب : الطريق .
(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .
(٥) الجوسق : القصر .
(٦) الصيد : اسم من صاد وبمعنى ما يصيد .

الذاتية

بنـــورِ الكبـــريـــاءِ لهـــا اشتعـــالْ	ومـــنْ نَقْـــصٍ لَهـــا كُـــلُّ الكَمَـــالْ
مقـــامـــاتُ الـــوِصَـــالِ لَهـــا فِـــرَاقٌ	كَمـــا أَنَّ الفِـــرَاقَ لَهَـــا وِصَـــالْ

* * *

ومِـــنْ جَـــدَلٍ لقـــومٍ أنْ يُـــريحُـــوا	ليـــزهِـــرَ عنـــدهـــمْ أمـــلٌ نَجِيـــحُ[1]
بـــدتْ ذاتيـــةٌ سيفـــاً حُسَـــامَـــا	ويُعـــرفُ حـــدُّهُ لـــونٌ وريـــحُ

* * *

وجُـــودُ اللهِ أكسَبَهـــا الـــوجـــودَا	فَكَـــانَـــتْ مَظْهـــراً جَـــازَ الحـــدُودَا
أرَاهَـــا جَـــوْهـــراً مـــنْ جَـــوْفِ بحـــرٍ	ســـواهُ بمثْلِـــهِ مـــنْ لَـــنْ يَجُـــودَا
وطِيـــنٌ حِينَمـــا يـــرضـــاهُ قلـــبُ	يفطِّـــره لطيـــبِ النـــومِ حُـــبُّ
ومِـــنْ نـــومٍ بخَلْـــقٍ (أنَـــا) سيصْحُـــو	بجســـمٍ حيـــنَ يحكمُهـــاسيخْبُـــو

* * *

لنـــا وصـــلُ فِـــرَاقٍ فيـــهِ يظْهَـــرْ	وهـــذي عقـــدةٌ للحَـــلِّ تنْظَـــرْ
تضيـــعُ جـــواهِـــرٌ مـــنْ حِضـــنِ بحـــرٍ	وليـــسَ لمـــاءِ بحـــرٍ مـــا لجـــوهَـــرْ !

* * *

وَلِـــي مـــنْ بَـــابِـــهِ هَـــذَا التُّـــرَابُ	ومـــنْ صَـــدْرٍ لـــه زَهْـــرٌ عُجَـــابُ
ولَا أدْرِي (أنَـــا) أوْ مَـــا عَـــدَاهَـــا	بِصَـــدْرٍ مِنْـــهُ تَخْـــوِينِـــي رِحَـــابُ[2]

* * *

---

(١) أراح : استراح . والنجيح : الذي تنجح أموره .

(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبرُ والاختِيارُ

سيـوزَنُ كُـلُّ شـيءٍ يَـوْمَ حَشْـرِ لـدَى الإنسـانِ مِـنْ جُحـرٍ وقَصْـر
فَمـاذَا فِـي غَـدٍ يـا لَيْـتَ شِعْـرِي أَيَـرْضَـى اللهُ عمَّـا سـوفَ يَجْـرِي ؟

* * *

وَلـي شَيْـخٌ مِـنَ الـرهْبَـانِ قَـالاَ كَـلامـي ذَاكَ ألـقِ إلَيـهِ بَـالاَ
بتقْـدِيـرٍ لَكُـمْ عمـرٌ سيَفْنَـى سنُقْتَـلُ نحـنُ بـالتـدْبيـرِ طَـالاَ

* * *

الموت

لِـرَبـي قَـالَ ذَا المـوتُ المـريـدُ لعيـنٍ أصلُهـا طِيـنٌ جَمُـودُ[1]
مـنَ الإنسـانِ يخجَـلُ قبـضُ رُوحٍ أمِـنْ مَـوْتٍ لـه العـارُ الجـدِيـدُ !

* * *

وأيِّـد فِيـه مَـنْ مَلَـكَ الجِهَـاتْ بمقْـوَدِهِ يَقُـودُ الكَـائِنَـاتْ
لـذُلِّ المـوتِ مَـا أُغْضِـي حَيَـاءً غـريـبٌ عنـهُ نَـامـوسُ الحيَـاة

* * *

إلـى إبليـسَ فلتنقـلْ مَقَـالِـي إلاَمَ لِـيَ التملْمُـلُ فِـي العِقَـالِ[2]
وَلِـي دُنْيَـا الثـرَى لا أرْتَضِيهَـا فَفِيهَـا الصبـحُ مَهْـدٌ للَّيَـالِـي

---

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التململ : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

ولمَّـا أخـرجُـوا الـدنيَـا إلَيْنَـا ضَمِيـراً خـامِـداً فِيهـا رَأَيْنَـا
بِغَيـرِ الـروحِ أيـنَ لَنـا لهِيـبٌ لَقَـدْ خَلَقُـوكَ مِـنْ نَـارٍ لَـدَيْنَـا

***

فـراقٌ يجعَـلُ الشـوقَ البَصِيـرَا بعمـقِ البحـثِ يجعلُـه الجـدِيـرَا
ولكـنْ كَيـفَ حـالـكَ لسـتُ أدْرِي وطيـنٌ قـالَ لِـي« كَـانَ الخبِيـرَا »

***

لقَـدْ طَـرَدُوكَ يـا مَـنْ لَـنْ يُعَـادَا لَـكَ التفْكِيـرُ بيْـنَ الخَلْـقِ زَادَا
قضَيـتُ الـدهـرَ فِي بَلْـوَى عَـذَابِي فقَلبـي فيـهِ كـمْ زَرَعُـوا القَتَـادَا[1]
مُصِيبـاً مِـزْتُ مـنْ غيـرِ المصِيـبِ عدِمْتُ النبتَ فِي حَقْلي الجدِيبِ[2]
ولَـمْ تَسجـدْ فمـنْ ألـمِ تقـاسِـي أَخَـذْتُ إلَيْـكَ مَـالـي مِـنْ ذُنـوبِ

***

تَعـالَ النـردَ فـي مـرَحٍ لنلعـبْ ودُنْيـانَـا لنحـرِقَهَـا فتعطَـبْ
بسحـرٍ مـن هشيـمٍ كـانَ فيهَـا لنصنـعْ جنَّـةَ الأفـلاكِ فـاعجَـبْ

***

إبليسُ الترابيّ وإبليسُ النَّارِيّ

فسـادُ عصـرِنَـا أوْهَـى وأثقَـلْ وأفـلاكٌ تشـاهِـدُهُ فتخجَـلْ
أليـسَ لـديـكَ للنظـراتِ ذوقٌ لتُخـدَمَ عنـدَ شيطـانٍ وتُحمَـلْ

***

---

(١) القتاد : الشوك .
(٢) النبت : النبات .

ومَــنْ عينــاهُ والأذنــانِ ســارقْ ... تـرصَّـدْ فِـي الظـلام لسلْـبِ خَـافِـقْ
وَكَـانَ السعـرُ فـي الأسـواقِ بخسـاً ... بفلـسٍ تشتـرِي ذنبـاً ؟ تحـامِـقْ[1]

* * *

عجيـبُ السعـيِ شيطـانٌ عجيـبُ ... بِسِحْــرٍ للعمَــى عينــاً يصيـبُ
اسمَّــى ذلــكَ الشيطــانَ ميتــاً ... فمثلـكَ صيـدُهُ وهـوَ الطليـبُ[2]
لــهُ كـأسٌ بهــا ســمٌّ دَهَــاكَـا ... لقتـلِ الـروحِ ، جسـمٌ مَـا هُنَـاكَـا
لــكَ الحلقــاتُ تبـدِيهَـا شبـاكٌ ... ومَا شَاهَدْتَ فِي الحَبِّ الشبَاكَا !

* * *

هــوَى الإنســانُ مِــنْ أَعْلَــى مقــامِ ... فضــاقَ مجــالــهُ عنــدَ ارتطــامِ[3]
بــلاَ طعــمٍ ولَا لــونٍ ذنــوبٌ ... وإبليــسُ لــه طبــعُ الأنــامِ[4]

* * *

ومـنْ شيطـانِ هـذا العصـرِ فـاحـذرْ ... خسيــسٌ مــنْ يضلِّلُــهُ ويسخَــرْ
أرَى إبليــسَ خيــراً مِنْــهُ حقّــاً ... رَأى الـرحمـنَ فهـوَ بـذاكَ يفخَـرْ
لــه النــدُّ المغَــالِـبُ مِـنْ هُمـامِ ... وبــالنيــرانِ يعلُــو فِــي المَقَــامِ
ومَــا كــلُّ التــرابِ رَمَــاهُ صيــداً ... وأعجـفَ أنْ يصيـدَ مـنَ الحـرامِ[5]

* * *

خسيــسُ الطبــعِ هــذَا ليــسَ يفهــمْ ... علينَــا القــولُ فيــهِ قــدْ تحتَّــمْ

---

(١) حامقه : ساعده على الحمق ، فكان بذل الثمن السخي في الذنب يعين الحمقى الذين يبيعون بالثمن القليل .
(٢) الطليب : الكثير الطلب .
(٣) الارتطام : الوقوع في الوحل .
(٤) الأنام : الناس .
(٥) الأعجف : الهزيل .

أبـالسـةٌ بهـذَا العصـرِ جَـافَـى غيـورٌ وَهْـوَ طُـولُ العمْـرِ يـأْثَـمْ

***

إلى رُفقاء الطريق

تعـالَ لقـومِنَـا أمـراً نـدَبِّـرْ لنكسـبْ إنَّ هـذا العيـش ميسـرْ
نصعّـد فِـي مَسَـاجـدِنَـا أنِينَـاً على إحْـرَاقِ قلـبِ الشيـخِ يَقْـدِرْ

***

وصقْـرٌ فِـي السمـواتِ القَلَنْـدَرْ لخفـقِ جناحـهِ ذو الثقـلِ أصغَـرْ[1]
وفِـي هـذا الفضـاءِ لـه مَصَـادٌ بعـشٌ لـمْ يَطُـفْ فـالعُـشُّ أغبَـرْ

***

ولحـنُ « اللهِ » مـن روحِـي تـردَّدْ متـاع الكـون عثيـره تصعَّـدْ[2]
ولـي فـي معـزَفِـي وَتـرٌ بنـارِ تقطَّـع ، يـا لـه دمعِـي المبـدَّدْ

***

خفقـت كـدمعـة سـالـت فطـره إلـى عيـنٍ وصلـتُ بفضْـلِ طَفْـرَه[3]

---

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياه من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يبالون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكترثون بما يشاهد الناس من ظاهرهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياه وكان اهتمامه ببواطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولـي إشـراقَـةٌ فِـي الهـذْبِ تَبْـدُو عَلى هـذا الهشيـمِ نَثـرتُ قَطْرَه[1]
ولَـمْ يَـفِ منطـقٌ لِـي بِـالمـرَامِ دَليـلٌ فيـهِ خُلْـوٌ مـنْ تمـام
سيفتـحُ كـلَّ بـابٍ أوْصَـدُوه ببيـتٍ قـالـهُ الرُّومـي وجَـامِـي[2]

* * *

تعـالَ إليـكَ منِّـي بنـتُ حَـانٍ تثيـرُ الـروحَ فِـي طيـنِ الـدِّنَـانِ[3]
ومـنْ قـاروَرَتِـي فلتسـقِ غصْنـاً لتشهـدَ فيـه إنسـانـاً يـرانِـي[4]

* * *

بكفِّـي معـزَفـي شِعـري يغنِّـي أنيـنٌ فيـهِ مـنْ لـونٍ ولـونِ
عليـهِ بمخلـبِ الآسـادِ عـزْفـي بـه الأوتـارَ مـن وجـهِ المجـنِّ[5]
لِكِسـرَى العصـرِ عنِّـي القـولُ ينقـلْ « كفـرهـادٍ لـدى الفـأسِ تحمَّـلْ ؟
بصـدْرِي شـوكـةٌ أدمتـهُ وَخـزاً لقلـبِ الطـودِ منهَـا السيـفُ يعمَـلْ »

* * *

فقيـرٌ نظـرةٌ لـي كـلُّ مَـالِـي هشيـمٌ مـا لصحبِـي مـن جِبَـالِ
علـى البـازِي أفضَـلُ زَاغَ ميـتٍ ولـو ربَّـاهُ كِسْـرَى فـي الـدَّلالِ[6]

---

(١) الهشيم : النبات اليابس المتكسر .
(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .
(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .
(٤) يقول : إذا سقيت غصناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .
(٥) المجن : الترس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .
(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت عل منصة عالية ويعرضونها لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر . =

لقلبـي قـطُّ مـا أوصـدتُ بـابـا ... ولا قـاطَعْـتُ أهـلاً أو صحَـابَـا
قبعتُ بمجلسِي في عقرِ صَدْرِي ... فجزتُ بمجلسِي هـذَا السحَابَا[1]
عـدمـتُ بـروضـةِ عـزِّي وَجَـاهِـي ... نصيبِـي أيُّ شـيءٍ كَـيْ أُبَـاهِـي ؟
وصـاحبُهَـا يسمينِـي وقَـاحـاً ... بعيـنِ نـرجسٍ جـذَبَ انتباهِـي[2]

* * *

وللعلمَـاءِ فِـي الحفْـلِ المـزيـنِ ... كـلامٌ رقَّ مثـلُ اليـاسمِيـنِ
ولكـنْ منَ رأى فِي الروضِ شوكاً ... لـوصـفِ الروضِ بـالقـولِ اليقِيـنِ ؟

* * *

بعلـمٍ أو بِفـنٍّ مـا اهتمـامِـي ... مقـامٌ آخـرُ فيـهِ كَـلامِـي
ضعيـفُ الـركـبِ يجعلُـهُ لهِيبِـي ... خفيـفَ الخطـوِ يعـدُو فـي الأمَـامِ
أتحسبُنِـي لفجْـرٍ عنـدَلِيبَـا ... وحسبِـي الـروضَ أفعمُـه نحِيبَـا
تمسـكْ بـي تجـدْ مِفْتَـاحَ روضٍ ... بعُشِّـي كنـتَ تخشَـى أن يغيبَـا

* * *

هـي الـدنيَـا لعينـيَّ الممَـرُّ ... رفيـقٌ ليس لِـي والكـلُّ سَفْـرُ[3]
نفـارَى مـنْ قـويـبٍ كـانَ خيـراً ... غـريـبٌ وهـوَ لِـي هـمٌ وشَـرُ

* * *

وفِـي عـدمٍ تعلَّـمْ كيـف تَحيَـا ... وزدْ ذَاتـاً مـنْ التقـديـرِ هيَّـا

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يربيه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفــي أعمــاقِ أنغــامِــي تقلــبْ ببخـرِي لـؤلـؤ فـاسكـنْ مليًـا[1]
وتــربِيبِــي بتلــكَ الأرضِ كــانَـا ولكــنْ أجتـوِيهـا لِـي مَكـانَـا[2]
نبَــتُّ بهَــا بفيــضٍ مــن نَـداهَــا سمــاءٌ لِــي أَأشهــدُهَــا عيــانَـا

* * *

إلــى نفسِ الــرجـالِ كـنِ القَـرِيبَـا لهــم أنفــاسهــم تحيـي القلــوبـا
شكــاةَ الــذَّاتِ همُّهــمُ يجَــافِــي فمــا عــنْ ذاتِــه كــانَ الغــرِيبَـا

* * *

لتخلــقَ نظــرةً والــروحَ أبصِــرْ تجـد زهـراً بغصـنٍ غيـرَ مـزهِـرْ
وإلَّا فلتكُــنْ سهمــاً لقــوسٍ ومـنْ يـرمِـي لـه هـدَفـاً يُقَـدِّرْ[3]
تغــرَّبَ عقلُنَــا ذَا عــنْ يقِيــنِ بـدَا كمقـامـرِ العلـمِ المشِيــنِ[4]
جهــولٌ كــانَ خيــراً مــنْ حَكِيـمٍ بنظــرَتِــه إلــى الحــقِّ المبِيــنِ

* * *

ومــنْ ذَهَــبٍ ودُرٌّ مــا المــرامْ ومَــا ســرجُ المطهَّــمِ والغــلامْ[5]
مــنَ الــدارَيْــنِ شــيءٌ لا يــرَجَّــى وذاكَ لمــالِ ذِي الفضــلِ القــوَامْ

* * *

وسكْــرُ أنــا لتلــكَ الــذاتِ عقْــلْ وإنَّ الصمـتَ فـي حَـانِـي لِفضْـلْ
شـرَابِـي مـا صَفَـا ، لكـنْ تـرشَّـفْ ففِـي يـومٍ مضَـى للـدَّنِّ بَـزْلْ[6]

---

(١) ملياً : زماناً طويلاً .
(٢) الترييب : التربية .
(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميه الهدف ولا يحدد هو هدفه بنفسه .
(٤) المشين : المعيب .
(٥) الجواد المطهم : التام الحسن .
(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لَـدَيْـكَ بخـرْقـةٍ أو فِـي نصِيـبِ ومنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شذَا الحبِيبِ[1]
لَـدَيَّ المـالُ مِـنْ خَشَـبٍ لِنَـاءِ وليـسَ لمنبـرٍ أوْ للصليـبِ[2]

* * *

بمـرْآةٍ لـذاتِـي قَـدْ بَصُـرْتُ بصَـدْرِي خُلْـوةٌ فِيهَـا قَـرَرْتُ
مـنَ العميـانِ فِـي عِلْـمٍ وَفَـنٍّ ببلبَـالٍ قـدِيـمٍ لِـي فـرَرْتُ

* * *

رحِيلِـي حَـانَ عـنْ هـذَا التـرَابِ فقَالَ الكلُّ «كانَ منَ الصحابِ»
فمَـنْ هـذا المسـافرُ ليـتَ شِعْـرِي ومَـنْ قـدْ خُـصَّ بـالقـولِ العجَـابِ
عليـمُ القلـبِ رَقْـرَاقُ الضَّميـرِ أميـرٌ وَهـوَ يُعـرَفُ بـالفقِيـرِ
وليـسَ لمعـدمٍ دينـاً وعلمـاً قبـاءٌ بـلْ لـهُ سـرجُ الحـرِيـرِ

* * *

لجَـمْ أنـتَ تَسجُـدُ أو لـدَارَا فَـلاَ تُلحِـقْ ببيـتِ اللهِ عَـارَا[3]
ولا تطلـبْ إلـى الغـرْبِـيِّ شيئـاً بقلبِـكَ حطِّـمِ الصنـمَ المعَـارَا

* * *

بسمْعِـي طـافَ مِـنْ شيـخٍ كبِيـرِ لـهُ عقْـلٌ وإشـرَاقُ الضَّمِيـرِ
«فقيـرٌ إنْ يصُـنْ بـالفقْـرِ ذاتَـاً فملـكُ العـالميـنَ لـذَا الفقِيـرِ»
وفِـي حـزْفَيـنِ هـذَا السـرُّ يستَـرْ مَقَـامَ العشْـقِ لا يبْـدُو كمنبَـرْ
وإبـرَاهِيـمُ نمـرُوداً أيخشَـى لعـودِ نفحـةٌ بـالنـارِ تنشَـرْ

* * *

(١) الخرقة : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .
(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .
(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بعظمة الملك .

ألَا يـا زهْـرُ مـا طلـبُ العـزاءِ ؟ بـذَاتـكَ فـالْتَـزِمْ خـلَّ الـوفَـاءِ
وصـــدرَكَ افْتَحَـــنَّ لكـلِّ ريـــحٍ وصنْ وَسْماً قدِيماً فِي الخفَاءِ[1]

* * *

يـدوِّي النضْـحُ فِـي سمعِـي دوِيَّـا « بـرُوحِـكَ وحـدَهَـا عِـشْ يـا بنَيَّـا
لتحـذرْ مـنْ أضَـاعَ الـروحَ رهْنَـاً بجسـمٍ لا بـروحٍ وهـوَ يحيَـا »
لشـطٍّ قـالَ مـوجٌ وهـو يهـذُرْ بفِـرغُـونيـةٍ ذَاتِـيَ أقـدِرْ
عَلَـى ذَاتِـي التفَـافِـي مِثْـلُ أفْعَـى وأرقُـصُ بـانتظَـارٍ فيـهِ أصبِـرْ

* * *

بجَـاهِ الغـرْبِ إنْ كنْـتُ القمِينَـا علـى عتبَـاتِـهِ عَفِّـرْ جَبِينَـا[2]
أدِرْ لعصـاهُ عنـدَ الضـرْبِ ظَهْـرَاً كَعِيـرٍ سيـقَ فلتكُـن المهِينَـا ![3]

* * *

وأيـن فـؤادُهُ طـوعَ اليمِيـنْ خـلاءٌ ملكُـهُ مـنْ كِـلِّ دِيـنْ[4]
شيـاطيـنٌ تطـوفُ لـهُ ببَيـتٍ وتُـوحِـشُ غيبـةُ الـرُّوحُ الأمِيـنْ[5]
ومـنْ قَلْـبٍ ومِـنْ ديـنٍ يشِنْـنَـا كعِطْـرِ الـوردِ مـن أصـلٍ هـربْنَـا
ومـاتَ الـديـنُ مـن مـوتٍ لقلْـبٍ لنـا مـوتَيـنِ نحـنُ قَـد اشتَـرَيْنَـا !

* * *

حنيـفٌ كَـانَ يعـرفُ قـدْرَ دِيـنٍ لـرَبِّـي منـهُ تعفِيـرُ الجبِيـنِ
بَمـا لا يشتَهـي الأفْـلَاكُ دَارَتْ أدَارَ الأرْضَ منـهُ بـاليمِيـنِ

---

(١) الوسم : أثر الكي .
(٢) القمين : الجدير .
(٣) العير : الحمار .
(٤) يريد الرجل من الفرنجة .
(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

مـنْ دُنْيَـا لنَـا قلـبٌ غـريـبُ | لـهُ الأيّـامُ مـنْ فَلَـكٍ نَصِيـبُ[1]
صلاةَ العشْـقِ مَيِّـزْهَـا بـوقـتٍ | فلَيـسَ لهَـا المـؤذِّنُ والخَطِيـبُ
مقَـامُ العشْـقِ يفعَمُـهُ اليقِيـنْ | يقِينَـاً يصحَـبُ الـروحَ الأمِيـنْ
إذا حصَلـتَ مـنْ هـذَا نصِيبَـاً | فَسِرْ قُدُماً ، فما اعترَضَ الكَمِينْ

* * *

وعِـرْفَـانٌ وإدْرَاكٌ لمسلِـمْ | وعيَنيـهِ « بِلَـولا » الـذات يفْعَـمْ[2]
سَمَـا رَبِّـي سمُـوّاً عـن قيـاسٍ | بقائلٍ « ما عرَفْنَا » النفْسَ أكْرَمْ[3]

* * *

وأصْنَـامَ الفـرنجَـةِ مـا عبـدتَـا | بمعَبـدِهِـمْ فبِئْسَ المـوتُ مِتَّـا
وعقلُـكَ كـانَ عـن قلـبٍ غـريبَـاً | فما بسَلافِ من سَلَفُوا سكِرْتَـا[4]
أكـلُّ النـاسِ مـنْ نفْسَـاً يُسِيـلْ | ومِـنْ سُكْـرِ التـدَلُّـلِ مـنْ يمَيـلْ
قبـاءٌ « لا إلـه » بـه دمـاءٌ | علـى قـدِّ الخِسَـاسِ هـوَ الطَّـويـلْ

* * *

ويحـرِقُ مـؤْمِنـاً حَـرُّ الـوقِيـدْ | مـنَ الأبـوابِ يفتَـحُ مـا يـريـدْ[5]
جـلاَلُ الكبـريـاءِ لـهُ قيـامٌ | جمـالُ الصبْـرِ يظهـرُه السُّجـودْ

* * *

أتَسـألُ عـن صَـلاةِ العـاشِقينَـا | وفِيهَـا خُفْيـةٌ هـمْ سـاجِـدُونَـا
أرى « الله أكبـر » مثـلَ نـارٍ | أفِـي خمـسٍ بـدَتْ للنَّـاظِـرِينَـا

---

(١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .
(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .
(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .
(٤) السلاف : الخمر .
(٥) الوقيد : الوقود .

نِـــدَاءُ العَـــالِمِيـــنَ بهَـــا يـــدُومُ ... ومِنهَـــا مُسلـــمٌ خلـــداً يَـــرُومُ
صـــريـعُ العصـــرِ فينَـــا ليـسَ يـدرِي ... قِيـامَـاتِ « لقــدْ قَـامـتْ » تَقُــومُ

* * *

رَأَى متَفَـــزنِـــجٌ للهِ حُكْمَـــا ... فيـــرزقُ وهـــو يطلُـبُ منـه دَوْمَـا
علـــى الشيطـــانِ أغـــدقَ أي رِزقٍ ! ... إلـــى أنْ حـــارَ فيـــهِ اللهُ يـــومَـا

* * *

وفِـي قَـوْلـي لِـمَ الإِسهـابُ كَـانَـا ... أقُـولُ الحـرفَ عـنْ سرٍّ أبَـانَـا[1]
وعـــالمـــهُ لمتجـــريـــن أعْطَـــى ... مَكَـانَ كَيْـفَ يـدْرِي الـلاَّمَكـانَـا
لمـــنْ تصْفُـــو قُلُـــوبُهُـــمُ نَعِيـــمُ ... وَآخَـــرُ فِيـــهِ ذُو هِمَـــمٍ يُقِيـــمُ
فبلِّـــغْ مُسْلِمـــاً فِـي الهنـدِ بُشْـرَى ... « نَعِيمـاً فـي سبيـلِ اللهِ شيمُـوا »[2]

* * *

إلـــى التقـــريـــرِ مَـــا مـــالَ القلنـدَرْ ... كـــأكسيـــرٍ لـــه رأيٌ يقـــدَّرْ
وهـــذَا الحقْـــلُ أقفـــر مـــنْ حصَـــادٍ ... فمـــا يـــروي ثـــراهُ دمٌ لشبَّـــرْ[3]

* * *

(١) أبان عنه : فسره .
(٢) شيموا : انظروا .
(٣) الحصاد . الزرع . شبر : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

القسم الرابع

قَصَـــائِد

(١) من هُنا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .

برلمانُ إبليس

هذه قصيدةٌ بديعةٌ لمحمد إقبال ، وصف فيها وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهاتِ والحركاتِ والمذاهبَ السياسيةَ العصريةَ التي تهدِّدُ مهمَّتهم في العالم وتُحبطُ مساعيهم ، أو تعرقلُ سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهاتِ نظرهم ، وترأسَ هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكمَ على هذه الآراءِ والدراساتِ ، وعارضَ أكثرها في ضوء تجارِبه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيفِ المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في : أنَّ المسلم هو المنافسُ الوحيدُ ، والمصارعُ الكفءُ لنظامه ، وهو الشرارةُ التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحةُ والرأي أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربةِ هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصَّادقِ الدقيقِ للمسلم ، ومن الملاحظات الصَّائبة الدَّقيقة عن كثيرٍ من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيدُ الاطلاعُ عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنَّ الشياطينَ وزملاءَ إبليس وأعوانَه اجتمعوا في مجلسِ شورى ، وتباحثوا في سيرِ العالم ، وأخطار الغدِ ، وفتنه ، وما يتوجَّسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ، ومهمَّتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجلَّلوا خطبها ، وتناذروا شرَّها ، فذكرَ أحدُهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرُها ، فإنَّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسانَ بدأ ينتبهُ ويفيقُ ، ويشعرُ بكرامته ، وخفنا ثورةً على نظامنا قد لا تُحْمدُ عاقبتُها ألهيناه بلعبةِ الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجودِ شخصٍ ترتكز فيه الملوكية ، وفردٍ يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيشَ الإنسانُ عيالًا على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءٌ في ذلك الشعبُ والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهُه مشرقٌ وضَّاحٌ ، وباطنُه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأسَ إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدَّهماء التي أثارها هذا اليهوديُّ الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنَّه يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنَّه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السَّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسِّيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا مريديكَ المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسرَ البُغاث ، وأصبحَ الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالرَّاح (أعلامُ أرضٍ جُعِلَتْ بطائحاً) إنا قد استهنَّا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولِ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلسِ « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأتصرَّف به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهارشت الكلابُ ، وافترسَ بعضُها بعضاً فِعْلَ الذئاب ، وإذا هَمَسْتُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفةِ الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنَّ جنونُهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخَرْقَ الذي أحدثته

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوِّفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليكُ السُّفهاء .

إنْ كنتُ خائفاً ، فإنِّي أخافُ أمةً لا تزال شرارةُ الحياةِ والطموحِ كامنةً في رمادها ، ولا يزالُ فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيلُ دموعُهم على خدودهم سَحَراً ، لا يخفى على الخبير المتفرِّس : أنَّ الإسلام هو فتنةُ الغد ، وداهيةُ المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهلُ أنَّ هذه الأمَّة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنَّها فُتِنتْ بالمال ، وشُغِفَتْ بجمعه ، وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبيرٌ بأنَّ ليل الشرق داجٍ مكفهرٌ ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلماتُ ويضيءُ لها العالمُ ، ولكنِّي أخاف أنَّ قوارعَ هذا العصر وهزَّاتِه ستقضُّ مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ) ، وإنِّي أحذِّركم وأنذرُكم من دين محمد (ﷺ) ، حامي الذِّمار ، حارسِ الذِّمم والأعراض ، دينِ الكرامة والشَّرف ، دينِ الأمانة والعفاف ، دين المروءة ، والبطولة ، دينِ الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرِّقِّ ، ويمحو كلَّ أثرٍ من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرِّقُ بين مالكٍ ومملوك ، ولا يؤثرُ سلطاناً على صعلوك ، يزكِّي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعلُ أصحابَ الثروة والملاَّك مستخلَفين في أموالهم ، أمناءَ الله ، وكلاءَ على الأموال ، وأيُّ ثورةٍ أعظمُ ، وأيُّ انقلابٍ أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّينُ في عالم الفكر والعمل ، يومَ صرخَ : إنَّ الأرض لله لا للملوك والسَّلاطين .

فابذلوا جهدكم أنْ يظلَّ هذا الدِّينُ متوارياً عن أعينِ الناس ، وليهنكم أنَّ المسلمَ بنفسه هو ضعيفُ الثقةِ بربِّه ، قليلُ الإيمان بدينه ، فخيرٌ لنا أنْ يظلَّ مشتغلاً بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله ، والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنَّه يستطيع أن يكسرَ طلاسمَ العالم ، ويبطلَ سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىءَ سَحَرُه ، اشغلوه يا إخوتي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسرَ الرِّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجرَ هذا العالمَ ، ويعتزلَه ، ويتنازلَ عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا! لو انتبهتْ هذه الأمَّة ، التي يَعْزِمُ عليها دينها أن تراقب العالم وتعسّه »(١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلاً نجحَ شياطينُ الإنس والجنِّ في مهمَّتهم ، وكانت مؤامرةٌ مبيتةٌ ضدَّ الإسلام ، وخطةٌ منظمةٌ ضدَّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاءُ الجمرةِ الإيمانيَّة ، التي لا تزال كامنةً في الرَّماد ، وتجريدُ المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحَمِيَّة الدِّينية ، والعاطفة الإسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحيةِ والجهاد ، وتحمُّلِ الشدائدِ والمكاره في سبيل الله ، والثورةِ على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنَّ المجاهدَ الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسُب للموتِ حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصَّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربيَّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثَهم الدينيَّ تتمكَّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجازِ واليمن ، إنَّ في الأفغان غيرةً دينية ، وعلاجُها أن يُقصى العَالِمُ الدِّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطُّرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجرِّد الشباب المسلم من الروح الدِّيني والعواطف الإسلاميَّة والعقلية الإسلاميَّة ، وينشىءُ فيه طبيعةَ النفعية والأبيقورية ، وطبيعةَ التهام الحياة ، وانتهابِ

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرَّات ، وتقديسَ المادَّة ورجالها ، وعدمَ الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعفَ الثقة بالنفس ، والشكَّ في الدِّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنَّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرةٍ ألصقت به العار ، وأثارتْ عليه اللَّعناتِ ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنَّه رُزِقَ شيئاً من الابتكار ، وبُعْدِ النظر ، ودقَّةِ التفكير ، لاكتفى بتأسيس كليةٍ لبني إسرائيل ، ينشىءُ الجيل الإسرائيليَّ الجديدَ كما يشاء ، ويسبكُ العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدِّينيَّ ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمرتبات ، والدرجات ، لو أنَّ فرعون وُفِّقَ لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوءَ الأحدوثة ، ووصلَ إلى غايته في سهولةٍ ويسرٍ ، وهدوءٍ وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهرَ في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربي الجيل » وناشرِ الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصارَ الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فَضعُفَ الشعورُ الدينيُّ في بلاد الإسلام ، وَخَمَدَتْ جذوةُ الإيمان ، وفقدت البطولةُ الإسلاميَّةُ وروح الجهاد ، وَفَشَتِ النفعيةُ ، وجَمَحَتِ المادِّيةُ ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثيرٍ من البلاد الإسلامية والعربية : **« لقد تجوَّلت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنقاء المغرب »** ، ويقول في قصيدةٍ قالها في فلسطين : **« لا أرى في بلاد العرب تلكَ اللَّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السموَّ الفكريَّ الذي كان يمتازُ به العجم ، لا تزال دجلةُ والفراتُ متعطشين إلى بطلٍ من أبطال**

الإسلام ، ولكنِّي لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهورِ الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألَّم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأناتِ والدموع ، يقول في أبيات : « يا وارثَ التوحيد الإسلاميِّ لقد فَقَدْتَ الكلامَ الجذابَ السَّاحر ، والعملَ المسخر القاهر ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً » . ويقول في موضعٍ آخر : « إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحرابَ بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرضُ الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمعْ في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول في بيتٍ : « لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نارُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر في محيطكَ أيُّها المسلم لؤلؤةَ الحياة ، قد بحثتُ عنها موجةً موجة ، وتفقَّدْتها صدفةً صدفة » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمانِ وشعلةِ الحيـــاة ، يقول : « لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونَزَفَ منهم دمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائغة ، والقلوبُ مضطربةٌ ، والسَّجدةُ لا لذَّة فيها ، ذلكَ لأنَّ القلب خالٍ من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمَّد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدماتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلاميُّ أقضَّتْ مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه دبيبُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « إذا رأيت النُّجومَ شاحبةً منكدرةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرَّ قرنها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدباره ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلىء

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنَّ المسلم سَيُمْنَحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي » ، ويقول في بيت : « إنَّ إقبالًا ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنَّها إذا سقيت أتت بحاصلٍ كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنَّ الحضارة الغربية قد مثَّلَتْ دورَها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمتْ ، وأيْنَعتْ كالفاكهةِ ، وحانَ قطافها ، وأنَّ العالمَ القديمَ الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانةِ الفساد والمقامرة منهارٌ قريباً ، والإنسانية تتمخَّضُ بعالمٍ جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنَّ هذا العالم الجديد لا يُحْسنُ تصميمَه إلا من بنى للإنسانيةِ البيتَ الحرامَ بالأمس ، ووَرِثَ إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشادِه ، فيهيبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشدُه بالله أن يقومَ ويمسحَ النَّوم من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخرَّبوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوتِ الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذِنَ أن تُرفَعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنَّ الأوربيين قد حوَّلوها إلى خمارةٍ ، وبيتِ فسقٍ ودعارةٍ ، ومكانِ نهب وغارةٍ ، وقد آن لباني البيت الحرام وحاملِ رسالةِ الإسلام أن يقومَ ، ويُصْلِحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيتَ إلى قواعدِ إبراهيمَ ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالمَ من جديد[1] .

* * *

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص٢٣٠ ـ ٢٣٣ نقلًا عن «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص١١٤ ـ ١٢٣، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

١ ـ هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصرِ[١] ، وهذه الدُّنيا الوضيعة
كانت سبباً في قَتْلِ أمنياتِ ساكني العَرْشِ الأعظم[٢] .

٢ ـ الخالقُ الذي سمَّاها دنيا الكافِ والنون[٣]
مُتَهَيِّئٌ اليومَ لتدميرِها .

٣ ـ عَرَضْتُ على الإفرنج حُلْمَ المُلوكيَّة
وحطَّمْتُ سِحْرَ المسجدِ والمعبدِ والكنيسة .

٤ ـ علَّمتُ الجهلاء درسَ القَدَر
وأعْطَيْتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .

٥ ـ منْ يستطيعُ أن يطفىء نارَه المتأججة[٤] .
إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإبليسيَّة .

٦ ـ أغصانُه[٥] تنمو وترتفعُ من ماءِ سُقيانا
فَمَنْ يستطيعُ أن يُنَكِّسَ أغصانَ هذا النَّخلِ القديم ؟!

---

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .
(٢) أي : الملائكة .
(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .
(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .
(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

٧ ـ لا شكَّ أنَّ هذا النظام الإبليسيَّ مُحْكمٌ
ففي ظلِّه أَلِفَ الشَّعْبُ طَبْعَ العُبودية .

٨ ـ الخضوعُ والمذلَّة على جبينِ هؤلاءِ المساكين
فنظرتُهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام

٩ ـ لا تَنْبُتُ لديهم الأمنيةُ أساساً
فهي إنْ تَظْهَرْ تَمُتْ أو تَبْقَ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .

١٠ ـ وهذه هي معجزةُ جهدِنا المتواصل
فاليومَ صار الصُّوفيُّ والملاَّ عبداً ـ بشكلٍ تامٍّ ـ للمَلكيَّة .

١١ ـ هذا الأفيونُ ـ الملكيَّةُ ـ كانَ مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشَّرق .
مع أنَّ عِلْمَ الكلامِ ليس بأقلَّ من « الغناءِ الصُّوفي »[1] .

١٢ ـ لو بقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّواف ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالَّا .

١٣ ـ إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلم
دليلٌ على اليأس ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

١٤ ـ هَلْ غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتنِ الجديدةِ في العالم !

---

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنَّى به الصُّوفيَّة .

المُستشار الأول

١٥ ـ نَعَمْ ، ولكن بصيرتي تخبرني :
لو تبقى المَلَكيةُ كالسِّتار فلا خطر !

١٦ ـ فحينَ صارَ الإنسانُ مدبِّراً ومفكِّراً إلى حدٍّ ما
ألبسْنا المَلَكية لباسَ الجُمهورية .

١٧ ـ شؤونُ الحُكْمِ شيءٌ آخر
لا يَنْحصرُ في وجودِ الأميرِ والسَّلْطَنَة .

١٨ ـ وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأمَّة ـ أو يكونُ بلاط برويز
فالحقيقةُ أنَّ السلطانَ هو من تكون عيونُه على زَرْعِ الغَيْرِ .

١٩ ـ أمَا رأيتَ أنَّ النِّظامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكنَّهُ من الدَّاخل أحلكُ من جنكيز[١] .

المُستشارُ الثالث

٢٠ ـ روحُ السَّلطنة باديةٌ فأيُّ اضطرابٍ بعدَ ذلك
لكنْ ما هو الردُّ على شقاوةِ ذلكَ اليهوديِّ[٢] .

٢١ ـ هو الكليمُ بغير تجلٍّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولًا ولكنْ في حِضْنه كتاب » .

٢٢ ـ ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظرُ هذا الكافِرِ الذي يخترقُ السَّتائر ؟
هذا النَّظَرُ صارَ كيومِ حسابٍ لأقْوامِ الشَّرق والغربِ .

---

(١) مثالٌ لظلم جنكيز وقهره ، ثم التعبير عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .
(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ ـ لا يوجدُ للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطَّم العبيدُ أطنبةَ خيامِ السَّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ ـ انظرْ ردَّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى[1]
فقد أعدنا على آلِ قَيْصَرَ حُلْمَ قيصرَ مرَّةً ثانية[2] .

٢٥ ـ من الذي يتلوَّى بأمواجِ بحر الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصَّنوبرِ ـ وأحياناً يبكي كالرَّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ ـ الرَّجُلُ الذي فضح سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا أعترفُ أبداً بدرايتِه للأمور .

المُستشار الخامس
(يُخاطِب إبليس)

٢٧ ـ يا منْ أمورُ العالم قائمةٌ بأنفاسِك المحترقة !
أنتَ الذي أظهرْتَ كلَّ مختفٍ حينَ شِئْت .

٢٨ ـ صارَ الماءُ والطِّين من حرارتك عالماً مليئاً بالحُرقةِ والغِناء
وصارَ أبْلَهُ الجنةِ[3] بتعليمكَ عالماً بالأمور .

---

(١) أي : الإمبراطورية الرُّومانية .
(٢) هذا هو ردُّ شقاوةِ اليهودي .
(٣) أبله الجنة : هو « آدم » .

٢٩ ـ هو ليس أعرفَ مِنْكَ بسرِّ الفِطْرة
ذلكَ الذي اشتهرَ بين العباد البسطاءِ باسم الرَّب .

٣٠ ـ أولئكَ الذين لم يكنْ لهم عملٌ سوى التقديسِ والتسبيحِ والطَّواف[1]
هم بسبب غَيْرَتِك سيبقون أذلَّاءَ خجلين إلى الأبد .

٣١ ـ ومع أنَّ سَحَرَة الإفرنج جميعاً من مريديك
لكنْ لا أعتمدُ على فراستهم .

٣٢ ـ ذلكَ اليهوديُّ[2] المثيرُ للفتن الذي هو ظهورٌ لروح مَزْدَك
والذي كادَ كلُّ قباء أنْ يكونَ فتّاناً بسببِ جنونه .

٣٣ ـ غرابُ الصَّحراء صارَ نِدّاً للشَّاهين والعُقاب
كيف يتغيّر بسرعةٍ طبعُ الزَّمان[3] .

٣٤ ـ إنَّ ما اعتقدناه قبضةَ غُبارٍ بسبب الجَهْلِ
انتشرَ فاغبرَّتْ سعةُ الأفلاك .

٣٥ ـ إنَّ هيبةَ فتنةِ الغدِ قد وصلت إلى درجةِ أنَّ
الجبالَ والسهولَ والهضابَ والأنهارَ كلَّها تَرْتَعِد .

٣٦ ـ وهذا العالمُ الذي لم يكن يدارُ إلا بسيطرتِك
أوشكَ ـ يا مولايَ ! ـ أنْ يضطربَ فيصبحَ أعلاهُ سُفلاه .

---

(١) أي : الملائكة .
(٢) كارل ماركس .
(٣) الغراب لم يكن أبداً نِدّاً للعُقاب ، والمعروف أنّه من أخسِّ الطيور ، وهو رمزُ الجاهل الخبيثِ النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

٣٧ ـ عالمُ اللَّونِ والرائحة[١] هذا[٢] في قبضتي المتصرِّفة
سواءٌ هذه الأرض ، أو هذه السَّماءُ ، أو كلُّها جميعاً .

٣٨ ـ وسوفَ يرى أهلُ الشَّرقِ والغربِ بأعينِهمْ
حينَ أثيرُ دِماءَ أقوامٍ أوربة .

٣٩ ـ ما قيمةُ أئمةِ السِّياسةِ ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة
إنَّ صيحةً واحدةً منِّي تُذهِلُهم وتَذْهبُ بعقولهم .

٤٠ ـ الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الزُّجاج
عليهِ أنْ يحاولَ أنْ يحطِّم كأسَ وأباريقَ هذه المدنية

٤١ ـ الجيوبُ الَّتي مزَّقتها يدُ الفِطْرة
أصبحَ منَ المُحالِ رَتْقُها بإبرةِ مَنْطِقِ مزدَك[٣] .

٤٢ ـ كيفَ يستطيعُ هؤلاءِ المتشرِّدون الاشتراكيُّون
أن يخيفوني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ ـ إنَّ ما بين جنباتي من خطرٍ ليس إلّا مِنْ هذه الأمَّة[٤]
ففي رمادِها حتى الآنَ شرارةُ الأمل .

٤٤ ـ فحتَّى الآنَ يوجدُ في هذه الأمَّة قليلٌ من النَّاس
يتوضَّؤون بدموعِ الأسحارِ .

---

(١) أي : العالم المحسوس .
(٢) أصلها في النص « هو » .
(٣) جاء بعد زردشت وماني وادَّعى النبوة ، وهو أولُ من نادى بالاشتراكية الشيوعية .
(٤) الأمة الإسلاميَّة .

٤٥ ـ إنَّ منْ كُشفَ له باطنُ الأيامَ يعرفُ
أنَّ فتنةَ الغدِ ليست مَزْدَكيَّةً لكنَّها الإسلام .

(٢)

٤٦ ـ أعرفُ أنَّ هذه الأمَّة لا تَحْمِلُ القرآن
وأنَّ الرأسماليةَ هي دينُ العبدِ المؤمن .

٤٧ ـ أعْرِفُ أنَّه في ظلمةٍ دجا ليلُ الشَّرق
فإنَّ أكمامَ شيوخِ الحَرَمِ خاليةٌ من اليَدِ البيضاء[١] .

٤٨ ـ لكنَّ الخوفَ من مطالبِ العصرِ الحاضِر ،
ألا يَظْهَرَ شرعُ النَّبيِّ .

٤٩ ـ الحذرَ ، الحذرَ مِئَةَ مرَّةٍ بنظامِ الرَّسول فهو
حافظٌ لكرامةِ المرأة ، ومختَبِرُ المرء ، ويَخْلُقُ الرِّجال .

٥٠ ـ هذا النِّظامُ كرسالةِ الموت لكلِّ أنواع العبودية
ليس هناكَ فرقٌ بين مَلِكِ الصِّين ، أو فارسٍ ، أو مسكينٍ ذي مَتْرَبة .

٥١ ـ إنَّه يُطَهِّرُ الثروةَ ويخلِّيها مِنْ كلِّ قذارة
ويجعلُ الأغنياءَ أمناءَ على المالِ والثَّروة[٢] .

٥٢ ـ لا يوجدُ في الفِكْرِ والعَمَلِ ثورةٌ أعظمُ من :
« هذه الأرضُ لله وليست للملوك »[٣] .

٥٣ ـ يا حبذا لو يبقى هذا النظامُ مختفياً عن عينِ العالم

---

(١) إشارة إلى قصَّة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و[النَّحل : ١٢] و[القصص : ٣٢] .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في جناح جبريل قطعةٌ بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ ـ وهذا أحسنُ أن يبقى في شِرْكِ الإلهيات
ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ ـ الإنسانُ الَّذي حطَّمتْ تهليلاتُه سِحْرَ الجهاتِ السّتِّ[١]
كيفَ لا يضيء الليلَ الحالكَ لهذا الوَرِعِ التَّقيِّ .

٥٦ ـ أماتَ ابنُ مريمَ ؟ أمْ هو حيٌّ باقٍ ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ
هَلْ صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أمْ عَيْنُ الذَّاتِ ؟

٥٧ ـ هَلْ يَقْصِدُونَ بالقادمِ المسيحَ ابنَ مريمَ أمْ هُوَ المجددُ
الَّذي تكمُن فيه صفاتُ ابنِ مريمَ ؟

٥٨ ـ هَلْ ألفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟
وفي أيِّ عقيدةٍ منها تَكْمُنُ نجاةُ الأمَّةِ المَرْحُومَةِ ؟

٥٩ ـ ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام
هذه الأصنامُ[٢] المنحوتةُ من الإلهيات ؟

٦٠ ـ اجعلوه غريباً عن عالم العَمَلِ لكي
تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشَّطرنجيَّة على بساطِ الحياة .

٦١ ـ فهذا خيرٌ أنْ يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامة
ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

---

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية . ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحس المشترك ، وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ ـ الشِّعْرُ والتصوُّف اللذان يغطيانِ عن عُيونه مَنْظَرَ الحياة
أحسنُ بالنِّسبةِ له .

٦٣ ـ إنِّي أخافُ مع كل نَفَسٍ منْ يقظةِ الأمَّة
فحقيقةُ دينها هي احتسابُ الكائنات .

٦٤ ـ أسْكِرُوه واجعلوه ينتشي بالذِّكر والتفكُّر في الأسحار
وأنضِجُوا فيه طَبْعَ الخانقاهات .

* * *

نصيحة بَلُوش عجوز لابنهِ(١)

لِيُنْعِشْكَ هواءُ صحرائك
فليستْ دهلي ولا بخارى بأروع منْ هذه الصَّحراء .

إنَّك تستطيعُ أنْ تسيرَ كالسَّيلِ الجارِف حينما تريد
فهذا وادِينا وهذهِ صحراؤنا

الاعتزازُ بالنَّفس له قَدْرٌ عظيمٌ في دنيا الكَدِّ والجُهْدِ
فهو يُلبسُ الدرويشَ تاجَ دارا(٢) .

عليكَ أن تنالَ هذا الفنَّ الخفيَّ منْ كاملٍ ، إذ إنَّهم يقولون :
إنَّهم يستطيعونَ أن يجعلوا من الزُّجاج صخراً جلموداً .

إنَّ تقديرَ الأمم بيدِ الأفراد

---

(١) في الأصل : بلوج ، هو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوجستان في باكستان الغربية على الحدود بين إيران والسند وهي بلادٌ صحراوية ، وهم الذين كتب عنهم أولُ فاتحٍ إسلامي دخل في بلاد الهند ، فقال : إنَّهم أشداءُ أقوياء .

(٢) ملكٌ من ملوك إيران .

ومعَ كلِّ فردٍ نجمُ تقديرِ الأمَّة .

هذا الغوَّاصُ الَّذي لا يتركُ صُحْبَةَ السَّاحلِ
ظلَّ محروماً من ثورةِ البَحْرِ .

لو ضاعَ الدِّينُ من يدِ الأمَّة الحرَّة
فهذهِ التِّجارةُ خسارةٌ للمُسلم .

إنَّ العالَمَ يواجهُ معركةَ الرُّوح والجَسَدِ مرَّة ثانيةِ
فإنَّ المدنية قد هيَّجتْ وحوشَهَا .

اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلم
وإبليسُ يعتمدُ على آلات أوربة .

ما هو تقديرُ الأمم ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقول
لكنْ لو تجدُ فراسةَ المؤمن ، فالإشارةُ كافية .

اطلبِ الإخلاصَ في العمل من الأسلافِ القُدماء
أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكُ على الشَّحاذين !

الصُّورةُ والمصوِّر

الصورةُ :

قالتِ الصُّورةُ للمصوِّرِ :
سببُ ظهوري من إبداعِكَ وفنِّك[1] ،
كمْ منَ الظُّلم أنْ تكونَ

---

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوِّر :

صَعْبٌ على الإنسانِ البصيرِ أنْ تكونَ له عينٌ تنظرُ
ماذا حلَّ بالشَّررِ من رؤيةِ العالَمِ .

فلتقتنعي أيَّتُها الجاهلةُ بهذا الخبر - إنَّ النظر ليس إلا
الغمَّ والألمَ والحميَّةَ والنَّشاط .

الصُّورة :

الخبرُ عجزُ العَقْلِ والفِكْرِ
النَّظرُ حياةُ القلبِ الخالدة

ليس جدُّ وجُهْدُ هذا الزَّمانِ
لائقاً بحديثِ ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾

المصوِّر :

أنتِ من روائعِ فنِّي
ولذلكَ فلا تيأسي من مُبْدِعِكِ .

ليسَ هناك شرطٌ لرؤيتي
سوى ألا تختفي أنتِ عن نظرِكِ .

عالَمُ البرزخ

الميِّتُ (يخاطبُ قبره) :

ما هذا ؟ وأيُّ يومٍ تكونُ القيامةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

ألا تعرفُ بعدُ ، يا ميِّتَ المئة عام ؟
بأنَّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

الميِّت :

أنا لستُ أسيراً في شَرَكِ ذلك المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .
فمع أنَّني مِتُّ منذ مئةِ سنةٍ
إلا أنَّني لستُ متضايقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .
آه لو تَلْبسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرَّةً أخرى
فإنِّي لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبان والعَقْرَبِ أو الغَزَالِ والوَحْشِ
فإنَّ الموتَ الأبديَّ ليس إلَّا للأممِ المستعبَدة .
صوتُ إسرافيل[1] لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئكَ
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوح في دنياهم .
ولو أنَّ مُستَقَرَّ كلِّ ذي روحٍ هو حِضْنُ اللَّحدِ
إلا أنَّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرار .

القبرُ (يخاطبُ ميته) :

آه أيُّها الظَّالمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

---

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لمَ ترابي ملتهبٌ هكذا ؟
ازدادتْ ظُلماتي بِجَسَدِكَ ظلمةً
وتمزَّقَتْ ستارةُ ناموسِ الأرضِ بجسدِك .

الحذرُ من جسدِ الميت المحكومِ ، الحذرُ مِئَةَ مرَّةٍ
يا إسرافيلُ ! يا ربَّ الكائنات ! النجدةَ أيَّتها الروحُ الطَّاهرة .

نداءٌ من الغَيْبِ :

مع أنَّ النِّظام الكونيَّ مضطربٌ بسببِ القيامة
إلا أنَّ هذا الاضطرابَ يكشفُ أسرار الوُجود .

بالزَّلازِل تطيرُ الجبالُ كالسَّحاب
وتظهرُ في الوُديان عيونٌ جديدة .

لا بدَّ لكلِّ تعميرٍ جديدٍ منْ تخريبٍ كاملٍ
ففي هذا حلٌّ لكلِّ مشكلاتِ الحياة .

الأرض :

آهِ مِنْ هذا الموتِ الدَّائم ، آهِ منْ معركةِ الحياة
هل ينتهي صِراعُ الكائناتِ إلى الأبد ؟
لا يجدُ العقلُ النجاةَ مِنْ أصنامِه
العارفُ ، العالمُ ، العامَّةُ ، جميعُهم صاروا عبيداً لِلَّات ومناة .

كم صارَ خاضعاً ذليلاً هذا الآدميُّ المتمثِّل لصفاتِ الله
فبقاءُ هذا العالم ثقيلٌ على هذا القلبِ والنَّظر .

فلماذا لا يكونُ ليلُ هذا الإنسانِ العظيمِ سَحَراً ؟

***

المَلِكُ المعزول[1]

فلنُباركْ هذا الملكَ الطَّيِّب
الذي فَضَحَتْ تضحيتُه أسرارَ المُلوكية .
المَلِكُ في المعبد البريطانيِّ ليس إلا صنماً من التُّراب
يمكنُ أن يحطِّمه العبادُ حينما يشاؤون .
هذا المِسْكُ ممزوجٌ بالأفيون لنا نحنُ العبيد
أيُّها السَّاحرُ الإنجليزيُّ انْحتْ لنا سيِّداً آخر !

* * *

مُناجاةُ جهنَّميٍّ

العبادُ في هذا الدَّير القديم ذوو احتياجٍ
يذكرون الله حين يتألَّمونَ منَ الأصنامِ .
ولا تفيدُهم الصَّلاةُ ، ولا تفيدُهم عبادةُ الأصنام
فحظُّ هؤلاءِ المساكينِ ليس إلا النُّواحُ والعويلُ .
مع أنَّ العماراتِ تطاولُ الفَلَكَ رفعةً
لكنَّ الحقيقة أنَّ كلَّ مدينةٍ كخرابةٍ عامرة .
انظُرْ إلى تقلُّباتِ خطِّ الفأس
فبرويز مزْتَوٍ ، وفرهاد ظمآنُ كبدُه[2] .
هذا العِلْمُ ، هذه الحِكْمةُ ، هذه السِّياسةُ ، هذه التِّجارةُ

---

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقدُ أنَّه يشير إلى : Edward Assamen .
(٢) انظر خطَّ الفأس كيف كان حين استعملها برويز ، وكيف كان حين استعملها فرهاد .

جميعُها أشياءُ من إبداع المَلَكيَّة .

شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعةَ من الأرضِ الملتهبةِ[1]
حرَّةٌ من عُبوديَّةِ التَّاجرِ الأوربيِّ .

***

مسعود المرحوم[2]

هذه الشَّمْسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجومُ ، وهذه السَّماءُ الزَّرقاء
منْ يدري أهذا عالمُ الوجودِ أم الفناء ؟
التَّفكيرُ في الرَّحلةِ والهدفِ ما هو إلا خُرافةٌ
فالحياةُ كلُّها رحيلٌ دون هدف .

واأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الزَّمانِ تِذْكارُ
كمالاتِ أحمد ومحمود[3] .

تأسَّفَ العِلْمُ والفنُّ لموتِه المفاجىء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .

تُبكيني جفوةُ أهل الدُّنيا
فإنَّهم يعتقدونَ أنَّ بكاء طيورِ السَّحَرِ نغماتٌ .

لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصَّديقِ يمكنُ بالصَّبرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغْزِ الموتِ كامنٌ في الصَّبر .

---

(١) جهنم .

(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في الدراسة ، وأشرت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة .

(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسعود . وكان مسعودُ هو ذكرى كمالاتهم .

القلبُ الذي يَعْشقُ ويَصْبرُ ليس سوى حجر
فبينَ العِشْقِ والصَّبْرِ ألفُ فرسخ[1] .

لا تسلْني عن العُمْرِ الذي يمرُّ بسرعةٍ
فلا أحد يدري ما هذا التغيُّر والجاذبية .

كلُّ منْ خُلِقَ من التُّراب سيوارىٰ فيه
أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟

وُهِبَ لغُبار الطَّريق ذوقُ الجمال
والعقلُ لم يستطعْ أن يكشفَ المعنى الخفيَّ .

أليسَ القلبُ والنَّظرُ من إعجاز هذا الماءِ والطِّين[2] ؟ وإنْ لمْ يَكُنْ
فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذاً ؟

إنَّ « لا إله إلا هو » هي روحُ الدُّنيا الخالدة
فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليب ؟

مِمَّنْ نطلبُ القِصاصَ لدمِ الآمال
مَنِ المُذنبُ ؟ وما هي الفِدْيةُ ؟

لا تَحْزَنْ فنحنُ مكبَّلونَ بقيد الدُّنيا
فالقلبُ الذي نملكُ يحطِّم الطلاسم[3] .

لو أنَّ معرفةَ الذَّات حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
لأنَّ العِشْقَ يختبرُ ثباتَها بالموت .

---

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .
(٢) الإنسان نفسه .
(٣) هذا البيت بالفارسية :
غمين مشوكه به بند جهان گرفتاريم طلسمها بشكند آن ولى كه ماداريم

لو تكنِ الذَّاتُ حيَّةً ، فَبَحْرُكَ لا شاطِىءَ لَهُ
وموجُ النِّيلِ والفراتِ يتوقُ لأنْ يَنْدَمِجَ مَعَك .
لو تَكُنِ الذَّات ميتةً فهي كأعوادِ القشِّ أمامَ النَّسيمِ ؛
لو تَكُنِ الذَّاتُ حيَّةً فهي سلطانُ كلِّ الموجودات .
لو أنَّ البصيرةَ حُرِمَتْ منْ تجلٍّ واحدٍ
فإنَّها تحتاجُ إلى مِئَتَيْ تجلٍّ لتعويضِ ما فات .
اللاَّتُ ومناةُ منتشرةٌ من الأرضِ حتى الثريَّا
بينما مقامُ العبدِ المؤمنِ وراءَ الفَلَكِ .
مقامُه الأبديُّ هو حَرَمُ الذَّات
وليس مكانَه القبرُ المظلمُ ولا مكانَ تجلِّي الصِّفات .
أولئكَ الذين ملكوا معرفةَ الذَّاتِ والَّذين خرجوا من هذه الدُّنيا .
قد حطَّموا طِلَّسْمَ الشَّمْسِ والفَلَكِ والنُّجوم[١] .

***

صوت من الغيب

يأتي صوتٌ من العَرْشِ الأعلى ذاتَ صباحٍ ، يَهْتِفُ :
« كيفَ ضاعَ جوهرُ إدراكِك » ؟
كيفَ أصبحَ مِشْرَطُ التَّحقيقِ لَدَيْكَ كالًّا ؟
لماذا لا تستطيعُ أن تمزِّقَ أكبادَ النُّجوم !
لقد كنتَ جديراً بخلافة الظَّاهرِ والباطنِ

(١) أصله فارسي .

هلْ تكونُ الشُّعلةُ أسيرةً للأعشابِ الجافَّة[1] ؟
لماذا لا تَخْضعُ لكَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ؟
لماذا لا ترتجفُ الأفلاكُ منْ أنظارك ؟
مع أنَّ الدَّمَ يجري في عروقِكَ
لكنَّك لا تملكُ حميَّة الأفكارِ ، ولا الفِكْرَ الجريء .
العينُ الَّتي لا يُوجدُ في ثناياها النَّظَرُ الطَّاهرُ
تكونُ مضيئةً لكنَّها لا ترى العالَمَ .
لم يَبْقَ في أحضانِك صفاءُ مرآة ضميرِك
يا قتيلَ السَّلطنة والملاَّ والمَشْيَخَةِ !

***

---

(١) حرفياً : التِّبْنُ والنُّشارة .

القسم الخامس

رُبَاعِيّات

(١)

١ ـ لا أدري ما هي ثَمَرةُ غُصْنِ أملي
فأيُّ درايةٍ لي بتقديرك
بُرْعُمُ الزَّهرةِ يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيمِ صُبْحِ الغد !

* * *

٢ ـ حَرِّرْهُ من عَمَلِ الدُّنيا
حتَّى يتحرَّر من امتحانِ كلِّ نفس
صارَ تفكيرُ الشَّيطانِ بسَبَبِ الكِبْرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثمٍ جديد ؟[1]

* * *

٣ ـ غيِّرْ وبدِّلْ عالَم الماءِ والسَّحْر
اقْلِبْ هذه الدُّنيا الجافةِ والطريَّة
ولتبقَ ألوهيَّتُكَ طاهرةً من الوصمة
واحْذَرْ من السُّجود الخالي من أيِّ ذوق .

* * *

(٢)

٤ ـ أنا في حالةِ الفَقْرِ محسودُ الغِنى
لأنَّ فقري ذو غيرة

---

(١) المفروض أن تكون آثامه قديمةً قدَمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الحذرَ من ذلكَ الفقرِ والتصوُّف
الذي علَّم المسلمينَ الذلَّ والخُضوع .

* * *

٥ ـ الغوثَ الغوثَ مِنْ ضيق ذيلِ العقل !!
الغوثَ الغوثَ من زيادةِ التَّجلِّي !!
إنَّ النَّظر يُفضِّل النَّظَرَ في غير الله
الغوثَ الغوثَ منْ كُفرِ النَّظر .

* * *

٦ ـ قال إقبالٌ لشيخ الحَرَم :
منِ الذي نامَ تحتَ محرابِ المَسْجِد ؟
أجابتْ جدرانُ المَسْجِدِ :
هو الذي تاه في بيت أوثانِ الإفرنج .

* * *

٧ ـ صارت الهيجاناتُ القديمةُ رغبةً باردةً سقيمة
دماءُ المُسلمِ أصبحتْ باردةً
فلتباركْ للأصنامِ كفري
إذ إنَّ نارَ « الله هو » أصبحتِ اليومَ باردة .

* * *

٨ ـ حديثُ العبدِ المؤمنِ يتعلَّق بالقلب
الكَبِدُ مليءٌ بالدَّم ، النَّفْسُ مضيئةٌ ، النَّظْرةُ حادَّةٌ
كيفَ تتيسرُ رؤيةُ المؤمنِ الَّذي يضيء المَحْفَلَ
فهو لا يختلطُ بنا إلا قليلاً .

* * *

٩ ـ صفاءُ ضميرِ الصُّبحِ المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشَّوْكِ والزَّهر
حمايةُ الزَّهر غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشَّوكةِ طبعَ الحرير .

* * *

١٠ ـ لا تذكرِ الفراقَ واللِّقاء
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهور
إنّ انفصالَ اللؤلؤِ منْ قَلْبِ البَحْرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبَحْرِ ولا لِلُّؤلؤ .

* * *

١١ ـ لماذا لا يجتاحُ الطُّوفانُ بَحْرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتُك مسلمةً ؟
عَبثٌ تلك الشَّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنت قَدَرَ الله ؟

* * *

١٢ ـ لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلب
يرى العالمَ مُضاءً بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمس والقَمَرِ
لا يَحْسبُه إلا دورانَ الليلِ والنَّهار[1] .

* * *

١٣ ـ أحياناً ترتفعُ منَ البحرِ كالمَوْجِ

---

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ البَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ البَحْرِ
فأظْهِرْ لنا سرَّ مقامِ ذاتِكَ واضحاً .

***

مُذاكرات مُلَّا زاده ضيغم اللُّولابيِّ[1] الكَشْمِيْرِيّ

(١)

ماءُ عيونِكَ كالزِّئبقِ الرَّجراج
طيورُ السِّحرِ قلقةٌ في أجوائك
يا واديَ اللُّولاب .

لو لمْ يكنْ خطيبُ المنبرِ والمحرابِ ذا همةٍ ونشاط
فالدِّين للعبدِ المؤمنِ إمَّا الموتُ ، وإمَّا الحُلم
يا واديَ اللُّولاب .

النغماتُ المُحْرِقةُ للقلبِ إنَّما تنبُع من الآلةِ الموسيقيَّةِ
فلو كانت أسلاكُها رِخوةً فلا فائدةَ تُرْجى من مِضرابها
يا واديَ اللُّولاب .

بصيرةُ المؤمنِ خاليةٌ منْ نُوْرِ الفِراسة[2]
والخمرُ الصَّافيةُ في حانة الصُّوفية خاليةٌ من الحُرْقَةِ
يا واديَ اللُّولاب .

---

(١) ضيغم هو الأسد ، لولاب : اسم وادي في كشمير . والواقع أنَّ إقبال كتب هذا الشعر إلى أهلِ كشمير .

(٢) تلميح إلى الحديث : « اتقوا فِراسَة المؤمن فإنَّه يرى بنورِ الله » .

إنَّ الفقير[1] الذي تستيقظُ القلوبُ من آهته السِّحرية
لا يوجدُ في هذه الأمَّةِ منذُ زمانٍ
يا واديَ اللُّولاب .

(٢)

الموتُ الصَّعبُ اسمه العبوديَّةُ
ألا لَيْتَ العبدَ يَفْهمُ مَكْرَ وخِدَاعَ السَّادةِ .
انظرْ تنوُّعَ الأحكامِ في شَرْعِ المُلْكِيَّةِ
غوغاءُ الصُّورِ حلالٌ ، لذَّةُ الحَشْرِ حرامٌ .
يا مَنْ ذبُلت[2] روحُك من العبوديَّة
أتبحثُ عن مقام الذَّاتية في الصَّدر الخالي من الحُرْقَة ؟!

(٣)

كشميرُ الَّتي سمَّاها أهلُ النَّظر بالأمسِ إيرانَ الصَّغير
هوَ اليومَ بلدٌ خاضعٌ وفقير .
حينَ يخافُ رجلُ الحقِّ السُّلطانَ والأمير
تخرجُ آهاتٌ مُحْرِقَةٌ منْ صَدْرِ الأفلاك .
منزلُ الحزنِ لفلاحٍ عجوزٍ على سفحِ الجبل
يحكي لنا حكايةَ قَسْوةِ الأيَّام :
واأسفاهُ على هؤلاءِ القومِ النُّجباءِ ذي الأيدي النَّشيطةِ والدِّماغِ الخلَّاق[3] .

---

(١) استخدم كلمة « درويش » بمعناها الصوفي .

(٢) استخدم اللفظ العربيّ « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .

(٣) في الأصل : (تردماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس[1] . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حينَ تثورُ الشُّعوب المغلوبةُ على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعةِ ، واللَّونِ والرَّائحة[2] .
ضميرُ الإنسانِ يتطهَّر من الظنِّ والتَّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلَّ طريق .
ذلكَ الفَتْقُ القديمُ الَّذي لم يستطع العقلُ رَتْقَهُ
يُخيطهُ العِشْقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرَة أو خيطِ الرَّفَّاء .
صنمُ الحُكم له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ منْ زجاج
وهو يصبحُ في النهاية قِطعاً مبعثرةً من الدَّقِّ المُسْتَمر .

(٥)

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج
والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج .
تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظْهِرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق .
الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابة لمطالبِ الفطرة !

---

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهُّلٍ شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ وبو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

(٦)

حتى السِّكّيرون[١] أيضاً يعرفونَ كمالاتِ الصُّوفية
مع أنَّ كراماتِهم غيرُ معروفةٍ ، وغيرُ مشهورة .
حين يكونُ السَّالكُ حُرّاً فهذه هي مقاماتُه :
عزَّةُ النَّفس وثباتُها والصَّوتُ الحسنُ القائل « أنا الحق »[٢] .
حينَ يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبوديةُ هي كلُّ شيءٍ له
فهو نفسُه ميِّتٌ ، وهو المريدُ ، وهو الموتُ المفاجىء نفسُه .

(٧)

اخْرُجْ من الخانقاهات ، وقمْ بتقليدِ شبير
فليسَ فقرُ الخانقاهات إلّا الهمَّ .
من دِينكَ وأدبكَ تَهُبُّ رائحةُ الرُّهبان
إنَّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للأممِ التي حان موتُها .
في عيونِ شياطينِ المَلَكيَّةِ يوجدُ السِّحرُ
الذي يخلقُ في قلبِ الصَّيادِ طَبْعَ المَصِيْد
كيف مَضَوْا غيرَ مكترثين بآهاتي السِّحريَّةِ
ومَنِ الذي ذهب بالنَّشوةِ والنَّشاط مِنَ العيونِ الكشْميريَّةِ السَّوداء[٣] ؟

(٨)

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك
فقلبُ الإنسان إنَّما هو ـ فقط ـ جذْبةٌ عالية .

---

(١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسَّك بها .
(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في الجبة غيرُ الله » .
(٣) « تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء » .

لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم
فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه .
لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[١] .

(٩)

حين انفتحتْ في الرَّوضة مكتبةُ الورود
فإنَّ العِلْمَ الكتابيَّ لم ينفعْ المُلاَّ .
كانَ هواءُ الرَّبيع محطماً للجدِّيَّة
فبدأ شيخ « أندراب »[٢] يُنشدُ الغزل .
قالت زهرةُ شقائقِ النُّعمانِ ذاتُ القميصِ الأحمر
إنَّني مظهرةٌ لأسرار الرُّوح[٣] .
منِ الَّذي يعتقدُ أنَّ النَّوْمَ في القبر هو الموتُ
إنَّ سرَ تعميرِ كلِّ شيءٍ يَكْمُنُ في تخريبه[٤] ؟
ليستِ الحياةُ سلسلةَ الأيَّام والليالي
ليستِ الحياةُ نشوةً وغفوة .
الحياةُ والاحتراقُ في نارِك
فما أسعدَ اللحظاتِ حينما تستعيدُ هذه الحِكْمَةَ :

---

(١) چنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل .
(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .
(٣) لأنها مفتحة في الوسط .
(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي ـ انظر المثنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفَلَكِ » .

(١٠)

شِرْيَانُ الحرّ صُلْبٌ كَشِرْيانِ الحَجَر
شِرْيانُ المحكومِ رقيقٌ كشِرْيانِ الكرم .
قلبُ المحكوم ميتٌ سقيمٌ يائس
قلبُ الحُرّ حيٌّ مفعمٌ بالحرارة يبعثُ الطَّرب .
ثروةُ الحرّ قلبٌ مضيء ونَفْسٌ حاميةٌ
ثروةُ المحكومِ ليست إلا عيناً دامعة .
المحكومُ غريبٌ عن الإخلاصِ والمروءةِ
مع أنَّه بارعٌ في البراهينِ المنطقية .
ليس من الممكن أن يكونَ المحكومُ ندّاً للحرّ
فهو عبدٌ للأفلاكِ والحرُّ سيِّدُها .

(١١)

جميعُ العارفينَ والعامَّةِ غرباءُ عن الذَّات
فليقلْ أحدٌ إنِ استطاع : أهذا مسجدٌ أم خمَّارة ؟
لقد أخفى هذا السرَّ عنا « مير واعظ »[١]
إنَّ الفراشةَ التي تدورُ حولَ مصباح الحَرَمِ هي الحَرَمُ .
طِلَّسْمُ الجَهْلِ هو الكفرُ والتديُّن

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان حوالي عام ١٩٦٦م .

وحديثُ الشَّيخِ والبرهمن ليس إلّا سِحْرٌ وخرافة .
فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرويشُ نصيبَ هذه الأرض
ففي فقرِه تَكْمُنُ طرقُ الكليم .
إلى متى تبقى لآلىء بحيرةِ وُلَّر[1] الفريدةُ من نوعها .
مختفيةً عن أعينِ الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ منْ قوَّة عملهم
فالأممُ الحيَّة خاضت معاركَ كبيرةً .
إنَّ تقويمَ المُنَجِّمِ للغدِ باطلٌ
فالنُّجومُ القديمةُ سقطتْ من السَّماء .
ضميرُ العالَم ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
حتى أنَّ أمواجَ البحر كَسَرَتِ النُّجوم .
الأرضُ لم تَعُدْ خاليةً من الزَّلازل
فالدَّلائلُ الدَّقيقةُ للفِطرة ظاهرةٌ .
إنَّ الخضرَ ـ قابعٌ ـ يفكِّرُ على شاطىء بحيرة وُلَّر[2]
إلى متى تفورُ عيونُ الهملايا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشُّعوب الخالدةِ على مرِّ الزمان :
أنَّ تقديرَهمْ يتغيَّر صباحَ مساء .

---

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .
(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ ـ ٨٢) .

حياتُهم هي كمالُ الصِّدقِ والمروءةِ
حتى الفطرةُ أيضاً تعفو عن تقصيرِهم .

أعمالُهم كأعمالِ القَلَنْدرِ ، وجلالُهم كالجَلال الإسكندري
هذه الأمَّةُ في العالم كالسُّيوفِ المسلولةِ .

إنَّ جمالَ وجلالَ الرَّجلِ العارفِ يَكْمُنُ في معرفةِ ذاتيته
هذا هو الكتابُ ، وما تبقَّى كلُّه تفاسير له .

أنا لا أُنكرُ عظمةَ العِيد
لكنَّ ما يُقْبَلُ هو تكبيراتُ الحرِّ .

كيفَ يَعْرفُ الحكيمُ سرَّ نغماتي
وأنَّ تدابيرَ أهل الجُنون فيما وراء العقل ؟

(١٤)

كيف تقامرُ ـ قمار الحياة ـ كالكافرِ ؟
ذلكَ أنَّك تسيرُ مع الزَّمانِ ولا تسيرُ مع نفسك .

لم أرَ في مدارسِ الحَرَمِ مرَّةً ثانيةً
قلبَ جنيدٍ ونظرةَ الغزاليِّ والرَّازي .

في حُكْمِ الفتى الأعظمِ الذي هو نفسُه حُكْمُ الفطرةِ الأزليَّة :
أنَّ أعمالَ الصُّقورِ حرامٌ في عقيدةِ الصَّعْوة .

قالَ ذلكَ الفقيهُ الأزليُّ للصَّقرِ الصَّغيرِ :
عليكَ أنْ ترتبطَ بالسَّماء ولا تتعلقَ بالأرض .

أنا الذي لها أقلع عن الكلام الصَّريح
خوفاً من وشيهم بي لدى السُّلطان .

قدم التحيات منَّا نحنُ الفقراءَ إلى ترك شيرازَ

فليس في أيدينا سمرقندُ وبخارى[1] .

(١٥)

ضميرُ الغرب ضميرُ التُّجّارِ ، ضميرُ الشَّرق ضميرُ الرُّهبان
هناك التغيير المستمرُّ في كل لحظةٍ ، وهنا لا يتغيَّر الزَّمان .

قال لي الخضر على شاطىء البحر وكأنَّني محرم لأسرارِه :
إنَّ طرقَ الإسكندر[2] والقَلَنْدر كلُّها طرقٌ سحريةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني نِدّاً لهم
ويَخْشون ألا ينشقَّ حَجَرُ عتبتهم من نواحي

النَّصيحةُ الواضحةُ والعلامةُ المميَّزةُ لعلمِ ومعرفةِ الأمم المستعبدة :
أنَّ الأرضَ لو ضاقت فها هو فضاء الفَلَكِ بلا حدود .

لا أعرفُ بماذا أسمِّيه ، هل أسمِّيه اختبارَ الله[3] ، أم خداعَ النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

قال غصنُ الوردِ عن أسري قولًا أبكى الصَّياد :
إنَّ عُشَّ هذا المغرِّدِ المفعمِ بالحُرْقةِ لم يكنْ ثقيلاً عليَّ .

(١٦)

يا أيُّها الوطن العزيزُ لا حاجةَ للشَّرح والبيانِ
عن صورةِ قلبنا المليءِ بالدَّمِ ، كشقائقِ النُّعمان .

---

(١) إشارة إلى شعر حافظ :
اكر اين ترك شيرازي بدست آرد دل مارا بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا
(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .
(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأةِ الأعمال
هذه هي رسالة آلهةِ الهمالايا .

جسدُه عارٍ في ريح الشِّتاءِ
ذلكَ الذي يقدِّم للأمراء رداءً من الصُّوفِ بفنِّه وإبداعه .

لا تأملْ في وفاءِ دولةِ الدُّنيا
فهي كالغزالِ ، الهروبُ من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على منْ علَّمتْه معرفةُ الذَّات نسيانَ الجسد
حرامٌ على هذا الرَّجلِ المجاهدِ أن يَلْبَسَ الدِّرْع !

(١٨)

احْمِلْ على ذلك العزمَ الرفيعَ ، واستمع إلى عويلي
لكي تقومَ القياماتُ في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريبُ هذه المدينة ، فاستمعْ إلى عويلي
لكي تقوم القياماتُ في صدرك أيضاً .

أغنياتي الممزوجةُ بالغمِّ والحزنِ متاعٌ عزيزٌ
ونَغْمةُ القلبِ الحزينِ ليستْ عامَّةً في هذه الدُّنيا .

أنوحُ وأشكو منْ ذَوْقِ هذا الزَّمانِ الأعمى
الذي فَهِمَ محنتي على أنَّها محنةُ فرهاد .

أعرفُ أنَّ الصَّوْتَ الذي ينبعثُ مِنْ ضربِ الفأسِ على الحَجَرِ
أعرِفُ أنَّهُ آخرُ ، فهو صوتُ الفأسِ والكَبِدِ معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدَّكن(١)

كانَ هذا من أمرِ الله أن يُعطىٰ القَلَنْدَرُ
ذو الصِّفاتِ المَلَكيَّة عظمةَ برويز(٢) .

قال لي : خُذْ وصِرْ حاكماً وأعطِ الثبات
لحسنِ التدبير لكلِّ ما هو آتٍ ولكلِّ ما فات .

كنتُ مستعداً لأن أتحمل عبءَ هذه الأمانة على كتفي
لأنَّ كلَّ ما هو مرٌّ طعمه يصير في حلق الدَّرويش السُّكَّر .

ولكنَّ غيرة فقري وعظَمَتَهُ لم تستطعْ أنْ تقبل ما قدَّمه
حين قال ، إنَّ هذه هو زكاةٌ لألوهيتي .

حسين أحمد(٣)

لا يَعْرِفُ العَجَمُ حتَّى الآنَ أسرارَ الدِّين
وحسين أحمد الديوبندي ـ ما هذا العجبُ العجاب .

من يخطبُ على المنبر قائلاً بأنَّ الملَّة قائمةٌ على الوطن
كم هو جاهلٌ بمقامِ محمدٍ العربي(٤) !

عليك أن تَصِلَ بنفسك إلى النَّبيِّ فإنَّ الدِّين كلَّه

---

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .

(٢) أي : المال والدنيا .

(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ، وهذا الشعر بالفارسية .

(٤) يقصد الدين .

فإنْ لم تصل إليه فكلُّ هذا يعدُّ من أعمالِ أبي لهب .

السَّيِّدُ الإنسان

وَصَلَتْ درجةُ العِلْمِ والفِكْر في هذه الدُّنيا إلى درجةٍ أنَّه
لا يمكنُ لشيءٍ أن يختفي ، فهذا عالمٌ نوراني .
لو نظرَ أحدٌ لرأىٰ أنَّ حجابَ الفِطْرَةِ رقيقٌ إلى درجةِ :
أنَّ البسماتِ الخفيَّةَ للملائكةِ تظهرُ واضحةً .
هذه الدُّنيا دعوةٌ لابن آدم أنْ يشاهدَ وينظُرَ
فكلُّ مستورٍ قد وُهِبَ ذوقَ التعرِّي .
هذا هو ابنُ آدمَ الذي جَعَلَ اللهُ الأنهارَ
تفيضُ من دموعه الدَّامية .
ماذا يعرفُ الفَلَكُ ؟ مقرُّ مَنْ هذا المسكنُ التُّرابيُّ ؟
والهدفُ مِنْ خَلْقِ النُّجومِ هو حراسةُ بيتِ مَنْ ؟
لو أنَّني مقصودُ الكلِّ فماذا « ما ورائي »
وما هي نهايةُ اضطراباتي المتجدِّدة !!

●●●
●●
●

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الديوان السادس : ضرب الكليم	٥
محتوى الديوان	٨
إلى القارئين	١٨
تمهيد	١٩
القسم الأول : الإسلام والمسلمون	٢١
الصبح ـ لا إله إلا الله	٢٣
الاستسلام للقدر ـ المعراج	٢٤
إلى سيد مصاب بالفلسفة	٢٥
الأرض والسماء ـ اضمحلال المسلمين ـ العلم والعشق	٢٦
اجتهاد	٢٧
شكر وشكوى ـ الذكر والفكر	٢٨
شيخ الحرم ـ القدر ـ التوحيد	٢٩
العلم والدين ـ المسلم الهندي	٣٠
على ذكر الإذن بحمل السيف ـ الجهاد	٣١
القوة والدين ـ الفقر	٣٢
الإسلام ـ الحياة الأبدية	٣٤
السلطان ـ إلى الصوفي	٣٥
صريع الفرنج ـ التصوف	٣٦
الإسلام الهندي ـ قطعة	٣٧
الدنيا ـ الصلاة	٣٨
الوحي ـ هزيمة ـ العقل والقلب	٣٩
سكر العمل ـ القبر ـ همة القلندر	٤٠

الموضوع	الصفحة
الفلسفة ـ رجال الله	٤١
الكافر والمؤمن	٤٢
المهدي الحق ـ المؤمن في الدنيا ـ في الجنة	٤٣
محمد علي الباب ـ القدر ـ الخالق وإبليس	٤٤
أين روح محمد	٤٥
مدنية الإسلام ـ الإمامة	٤٦
الفقر والترهب	٤٧
قطعة ـ التسليم والرضا	٤٨
نكتة التوحيد ـ الإلهام والحرية	٤٩
الروح والجسم ـ لاهور وكراجي	٥٠
النبوة ـ الإنسان ـ مكة وجنيوا	٥١
يا شيخ الحرم ـ المهدي	٥٢
المؤمن	٥٣
المسلم البنجابي ـ الحرية ـ نشر الإسلام في بلاد الإفرنج	٥٤
لا وإلا ـ إلى أمراء العرب	٥٥
الأحكام الإلهية ـ الموت	٥٦
قم بإذن الله	٥٧
القسم الثاني : التعليم والتربية	٥٩
المقصود ـ إنسان هذا العصر	٦١
أمم الشرق ـ التنبه ـ مصلحو الشرق	٦٢
الحضارة الغربية ـ أسراء ظاهرة	٦٣
وصية السلطان تيبو ـ قطعة	٦٤
اليقظة ـ تربية الذات	٦٥
حرية الفكر ـ حياة الذات ـ حكومة	٦٦
المدرسة الهندية ـ التربية	٦٧
الحسن والقبيح ـ موت الذات	٦٨

الموضوع — الصفحة

ضيف عزيز ـ العصر الحاضر ـ طالب العلم ٦٩
امتحان ـ المدرسة ٧٠
الحكيم نيتشه ـ الأساتذة ـ قطعة ٧١
الدين والتعليم ـ إلى جاويد ٧٢
القسم الثالث : المرأة ٧٧
الرجل الإفرنجي ـ سؤال ـ حجاب ٧٩
الخلوة ـ المرأة ـ حرية النساء ٨٠
حصانة المرأة ـ المرأة والتعليم ـ المرأة ٨١
القسم الرابع : الأدب والفنون ٨٣
الدين والفن ـ التخليق ٨٥
جنون ـ إلى شعره ـ مسجد باريس ٨٦
الأدب ـ البصيرة ـ مسجد قوة الإسلام ٨٧
مسرح ٨٨
شعاع الأمل ٨٩
أمل ٩٠
البصيرة ـ إلى أهل الفن ٩١
قطعة ٩٢
الوجود ـ الغناء ٩٣
النسيم والندى ـ أهرام مصر ٩٤
مخلوقات الفن ـ إقبال ـ الفنون الجميلة ٩٥
صبح المرج ٩٦
الخاقاني ٩٧
الرومي ـ الجدة ٩٨
مرزا بيدل ـ الجلال والجمال ٩٩
المصور ـ الغناء الحلال ١٠٠
الغناء الحرام ـ النافورة ١٠١

الموضوع	الصفحة
الشاعر ـ شعر العجم	١٠٢
أصحاب الفن في الهند ـ الرجل العظيم	١٠٣
عالم جديد ـ خلق المعاني	١٠٤
الموسيقا ـ لذة النظر ـ الشعر	١٠٥
الرقص والموسيقا ـ ضبط النفس ـ الرقص	١٠٦
القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب	١٠٧
انقلاب ـ تملق ـ المناصب	١٠٩
أوربة واليهود ـ عبودية الأنفس	١١٠
الروس الشيوعيون ـ اليوم والغد ـ المشرق	١١١
سياسة الإفرنج ـ العبيد ـ إلى أهل مصر	١١٢
الحبشة ـ أوامر إبليس إلى أبنائه الساسة	١١٣
جماعة الأمم الشرقية	١١٤
الملك الخالد ـ الجمهورية ـ أوربة وسورية ـ من موسوليني	١١٥
شكوى ـ انتداب	١١٦
السياسة اللادينية ـ شبكة التمدين	١١٧
نصيحة ـ قرصان وإسكندر	١١٨
عصبة الأمم ـ الشام وفلسطين ـ أئمة السياسة	١١٩
نزعات العبودية ـ صلاة العبيد	١٢٠
إلى عرب فلسطين ـ الشرق والغرب ـ نزعات التسلط	١٢١
القسم السادس : إفكار محراب غل الأفغاني	١٢٣
الديوان السابع : رسالة الخلود	١٣٣
مناجاة	١٣٩
تمهيد سماوي	١٤٣
أغنية الملائكة ـ تمهيد أرضي	١٤٥
غزل	١٤٦
زروان (وهو روح الزمان والمكان)	١٥٢

الموضوع	الصفحة
زمزمة النجوم	١٥٤
القسم الأول ـ فلك القمر	١٥٧
الحكيم الهندي الذي آثر الخلوة	١٦١
الرومي	١٦٢
جهان دوست	١٦٣
تسع كلمات للعارف الهندي	١٦٥
تجلِّي سروش	١٦٧
لحن سروش	١٦٨
الرحيل إلى وادي يرغميد	١٦٩
طاسين جوتاما بودا	١٧١
الراقصة ـ طاسين زرادشت	١٧٣
زرادشت	١٧٥
طاسين المسيح	١٧٦
طاسين محمد ـ ﷺ ـ	١٧٨
القسم الثاني ـ فلك عطارد	١٨٥
ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني	١٨٧
الأفغاني ـ زنده رود ـ الدين والوطن	١٩٥
الشيوعية والرأسمالية	١٩٦
سعيد حليم باشا	١٩٨
زنده رود ـ الأفغاني	١٩٩
محكمات العالم القرآني	٢٠٠
الحكم الإلهي	٢٠٣
الأرض ملك لله	٢٠٤
القسم الثالث : فلك زحل	٢٠٧
الحكمة خير كثير	٢٠٩
زنده رود ـ سعيد حليم باشا	٢١٠

الموضوع	الصفحة
الأفغاني	٢١٢
رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا	٢١٣
جلال الدين الرومي	٢١٦
غزل زنده رود	٢١٧
فلك الزهرة	٢١٩
عودة الجاهلية	٢٢١
أغنية بعل	٢٢٥
الغوص في بحر الزهرة ـ غزل	٢٢٧
الرومي ـ فرعون	٢٢٩
الرومي ـ اللورد كتسنر ـ فرعون	٢٣٠
ظهور درويش السودان	٢٣١
القسم الرابع : فلك المريخ	٢٣٣
أهل المريخ	٢٣٥
ظهور فلك المريخ من المرصد	٢٣٧
الرومي	٢٣٨
حكيم المريخ	٢٣٩
التجوال في مدينة مرغدين ـ حكيم المريخ	٢٤٠
قصة فتاة المريخ التي ادعت النبوة	٢٤٣
رسالة نبية المريخ	٢٤٤
الرومي	٢٤٦
القسم الخامس : فلك المشتري	٢٤٧
أرواح الحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة	٢٤٩
لحن الحلاج	٢٥١
لحن غالب	٢٥٢
لحن الطاهرة	٢٥٣
زنده رود يعرض مشكلاته على الأرواح	٢٥٤

الموضوع	الصفحة
ظهور رأس أهل الفراق إبليس	٢٦٦
شكوى إبليس	٢٦٩
القسم السادس : فلك زحل	٢٧١
الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن	٢٧٣
بحر الدماء	٢٧٤
روح الهند تظهر ـ روح الهند تنوح وتنتحب	٢٧٥
صيحة راكب في زورق بحر الدماء	٢٧٧
القسم السابع : ما وراء الأفلاك	٢٧٩
منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه	١٨١
الرحيل إلى جنة الفردوس	٢٨٣
قصر شرف النسا	٢٨٥
زيارة الأمير سيد علي همداني وملا طاهر غني كشميري	٢٨٧
في حضرة أمير همدان	٢٨٨
حديث مع الشاعر الهندي برتري هري	٢٩٦
السفر إلى قصر سلاطين المشرق	٢٩٩
ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها	٣٠٣
رسالة السلطان الشهيد إلى نهر كاويري	٣١٠
زنده رود يغادر الجنة العالية	٣١٣
في الحضرة الإلهية	٣١٥
نداء الجمال الأبدي	٣١٧
القسم الثامن : كلمة إلى الجيل الجديد	٣٢٣
الديوان الثامن : والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق	٣٣٧
التمهيد	٣٤٢
مناجاة الشمس	٣٤٦
حكمة الكليم ـ سياسة الأنبياء	٣٤٨
حكمة فرعون أو سياسة الطغاة	٣٥١

الموضوع	الصفحة
كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)	٣٥٤
فقر الصالحين	٣٥٨
الرجل الحر	٣٦٣
رباعيات	٣٦٤
في أسرار الشريعة	٣٦٦
دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة	٣٧٠
السياسة الحاضرة	٣٧٤
إلى الأمة العربية	٣٧٧
والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق	٣٨٩
شكوى ومناجاة	٣٩٦
الديوان التاسع : هدية الحجاز	٤٠٩
القسم الأول : بالفارسية ـ مناجاة	٤١٧
في الحضرة الإلهية	٤٢٣
القسم الثاني : الرسالة	٤٣٣
القسم الثالث : المجتمع	٤٥٧
الذاتية	٤٦١
أنا الحق	٤٦٢
الصوفي والملا	٤٦٣
جلال الدين الرومي	٤٦٤
إلى مصر	٤٦٦
شعراء العرب	٤٦٨
يابن الصحراء	٤٧٠
وما يدريك أن المغوار في هذا الغبار	٤٧٠
الخلافة والملك	٤٧٢
التركي العثماني	٤٧٣
فتاة المجتمع	٤٧٤

الموضوع	الصفحة
العصر الحاضر	٤٧٥
البرهمي	٤٧٦
التعليم	٤٧٧
السعي في الرزق	٤٧٩
التمساح وصغيره ـ خاتمة	٤٨٠
العالم الإنساني ـ تمهيد	٤٨١
الذاتية	٤٨٩
الجد والاختيار ـ الموت	٤٩٠
إبليس الترابي وإبليس الناري	٤٩١
إلى رفقاء الطريق	٤٩٣
القسم الرابع : قصائد	٥٠١
برلمان إبليس	٥٠٣
نصيحة بلوش عجوز لابنه	٥١٨
الصورة والمصور	٥١٩
عالم البرزخ	٥٢٠
الملك المعزول ـ مناجاة جهنمي	٥٢٣
مسعود المرحوم	٥٢٤
صوت من الغيب	٥٢٦
القسم الخامس : رباعيات	٥٢٩
مذكرات ملاًّ زاده ضيغم اللولابي الكشميري	٥٣٤
إلى سر أكبر حيدري ـ حسين أحمد	٥٤٤
السيد الإنسان	٥٤٥
فهرس الموضوعات	٥٤٦

***